kitabweb-2013.forumaroc.net

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين

حرف الحاء

7

الحشاء - الحيري

دار الجيل

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

موسوعة أعلام العلماء والأدباء العرب والمسلمين

حرف الحاء / المجلد السابع

دار الجيل

بترخيص من
المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

جميع الحقوق محفوظة لـ
دار الجيل

الطبعة الأولى
1426هـ - 2005م

لا يجوز نشر أي جزء من هذه الموسوعة أو اختزان مادتها بطريقة الاسترجاع أو نقلها على أي نحو أو بأي طريقة سواء كانت إلكترونية أو ميكانيكية أو خلاف ذلك إلا بموافقة الناشر.

ISBN: 9953-78-097-8

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

تونس: القباضية الأصلية - ص.ب. : 1120
هاتف: 784466 - 0021671
فاكس: 782091 - 0021671
784965 - 0021671
E.mail: Alesco@Email.ati.tn
Website: www.alesco.net

دار الجيل

بيروت: البوشرية - شارع الفردوس - ص.ب. : 8737 (11) - برقياً دار جيلاب
هاتف: 52/ 51/ 689950 فاكس: 689953 (009611)
E.mail: daraljil@inco.com.lb.
Website: www.daraljil.com
القاهرة: هاتف: 5865659 فاكس: 5870852 (00202)
تونس: هاتف: 71922644 فاكس: 71923634 (00216)

الإشراف العام

د. المنجي بوسنينة

المدير العام للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

المدير المسؤول

د. محمد صالح الجابري

الهيئة العلمية

د. هشام نشابة

رئيس المجلس التنفيذي

للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم

د. أكمل الدين إحسان أوغلي

الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي

د. محمد إحمد الشريف

أمين جمعية الدعوة الإسلامية العالمية

الجماهيرية العظمى

د. صلاح فضل

جامعة عين شمس

رئيس اللجنة العلمية

د. عبد الرحمن الطيب الأنصاري

جامعة الملك سعود

د. محمود فهمي حجازي

رئيس جامعة نور - مبارك،

قازاخستان

د. علي عقلة عرسان

الأمين العام

للاتحاد العام للأدباء والكتّاب العرب

د. إبراهيم بن مراد

جامعة تونس

د. محمد علي آذرشب

جامعة طهران

د. محمد أسلم إصلاحي

رئيس مركز الدراسات العربية والإفريقية

جامعة جواهر لال نهرو - نيو دلهي، الهند

هيئـــة التحـــريـــر

تُنجز هذه الموسوعة بالتشاور والتعاون
مع 70 جامعة علمية، عربية وإسلامية وعالمية، وبمشاركة
أكثر من 2000 عالم جامعي وخبير في مجالات تخصص الموسوعة،
يساهمون في التحرير والمراجعة وتقديم المشورة.

ح

الحشاء ـ الحيري

ابن الحشاء، أبو جعفر أحمد بن محمد

(ت 647هـ/1249م)

أبو جعفر أحمد بن محمد بن الحشاء، جلّ ما نعرف عن حياته أنّه عاش في النصف الأوّل من القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي بتونس، وأنّه قد اشتغل بالطب، وكان على صلة بأوّل السلاطين الحفصيّين أبي زكرياء يحيي بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص (625هـ/ 1228م - 647هـ/ 1249م)، وبإشارة من أبي زكرياء هذا، ألّف ابن الحشاء الكتاب الوحيد الذي بقي له وعُرف به، وهو «مفيد العلوم ومبيد الهموم». . . كما سماه حاجي خليفة [كشف الظنون، 2/ 400] أو «تفسير الألفاظ الطبيّة واللغويّة الواقعة في الكتاب المنصوري». كما ورد في آخر النص المطبوع، وتعتبر الألفاظ الطبية واللغويّة الواقعة في الكتاب المنصوري للشيخ الفقيه الطبيب العارف أبي جعفر أحمد ابن الحشاء ﷺ [ص 133].

والكتاب كما يدلّ عليه عنوانه وتُظهره مادته، ليس كتابا في الطب بل هو معجم مختصّ في تفسير المصطلحات الطبية والصيدليّة وعدد غير قليل من ألفاظ اللغة العامة والعبارات الواردة في «الكتاب المنصوري في الطب» لأبي بكر محمد بن زكرياء الرازي (ت 313هـ/ 925م).

وعدد مواد الكتاب ـ أو مداخل المعجم ـ حسب نصّه الذي نشره في تحقيق جيّد المستشرقان الفرنسيان جورج س. كولان (George S. Colin) وهـ. ب. ج. رنو (H. P. J. Renaud) ألف ومائتان وسبع وعشرون (1227) مادّة. وأهمّ مظاهر التأليف في الكتاب ـ باعتباره معجما مختصّا ـ اثنان: الأوّل هو «الجمع» أي اختيار المادّة المعجميّة المكوّنة للمدونة التي اشتمل عليها الكتاب. فلقد كان منطلق ابن الحشاء في الجمع هو الكتاب المنصوري لأبي بكر الرازي. وهذا الكتاب في عشر مقالات حاول الرازي أن يحيط فيها بمختلف المسائل العامّة في الطب والمداواة. وقد تناول ابن الحشاء من مادّة الكتاب المصطلحيّة واللغويّة ما اعتبره محوجا إلى التفسير في نظر المتعلّم المبتدئ للطب. ويمكن تصنيف المادّة المجمعة إلى ثلاث أصناف:

أ ـ المصطلحات العلميّة، وهي إمّا دالة على أشياء مثل أسماء الأدوية المفردة، وأسماء بعض الأواني والأدوات والمواعين والموازين والأطعمة المستعملة في الطب وأسماء بعض أعضاء الجسم، وإمّا دالّة على مفاهيم مثل «استسقاء» [ص 12، رقم 102] و«تشنّج» [ص 23، رقم 193].

ب ـ ألفاظ اللغة العامّة: فقد عدّ ابن الحشاء بعض الألفاظ المستعملة في «المنصوري» محوجة إلى الشرح فشرحها ومثالها «شهوق»، وهو الارتفاع [ص 127، رقم 1173]،

و«فجأة» وهي أن يأتي الأمر بغتة [ص 102، رقم 948]، و«قيلولة» وهي السكون في القائلة، وهي وسط النهار في الصيف [ص 113، رقم 1054].

ج ـ عبارات لغويّة، ومثالها «آية ذلك» وهي «العلامة» [ص 7، رقم 51]، و«أجدر به» فإنّه «يقال أجدر بكذا وأخلق به أي أولى به وأحق» [ص 3، رقم 15]، و«على الريق»، وهي «كناية عربيّة عن العمل قبل الإفطار» [ص 97، رقم 902].

المظهر المهمّ الثاني في تأليف الكتاب هو «الوضع» ويشمل ترتيب المادّة اللغويّة المجمّعة وتعريفها. أمّا الترتيب فقد طبّقت فيه ثلاثة مبادئ: 1 ـ اتباع ترتيب حروف المعجم بحسب استعمال أهل بلاد المغرب لها. وأهل المغرب يخالفون أهل المشرق في ترتيب حروف المعجم بداية من حرف الزاي، فإنّها تتالى عندهم كما يلي: ز ـ ط ـ ظ ـ ك ـ ل ـ م ـ ن ـ ص ـ ض ـ ع ـ غ ـ ف ـ ق ـ س ـ ش ـ هـ؛ 2 ـ ترتيب المداخل بحسب جذوعها التامة، أي باعتماد المفردات بكامل حروفها، وليس بحسب الجذور؛ 3 ـ مراعاة الحرف الأوّل من الكلمة في ترتيبها ضمن الباب الذي تردّ فيه.

وأمّا التعريف المتبع في الكتاب فهو التعريف اللفظي، وهو تعريف لغوي عامّ، يكتفي فيه بالشرح اللغوي الذي قد يطول وقد يقصر وتحدّد فيه دلالة المصطلح أو اللفظ أو العبارة تحديدا لغويّا عاما كما رأينا في أمثلة سابقة.

ويُلاحظ ممّا ذكرنا عن «الجمع» و«الوضع» في «مفيد العلوم ومبيد الهموم» نزعة ابن الحشاء فيه إلى التيسير والتبسيط، فليس هو كتابا في علم الطب، بل هو كتاب تعليمي في مصطلحات الطبّ وبعض الألفاظ العلميّة والعبارات المتّصلة به في مصدر مهمّ من مصادر تعليم الطبّ القديمة، هو الكتاب المنصوري لأبي بكر الرازي.

المصادر والمراجع

● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، استانبول، 1941 ـ 1943، جـزآن، 2/ 400؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، الترجمة العربية بإشراف محمود فهمي حجازي، القاسم الخامس، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة 1995، ص 274 ـ 275؛ ● جورج س. كولان (Georges s. Colin) وهـ. ب. ج. رنو (H. P. J. Renaud) مقدمة تحقيقهما لكتاب مفيد العلوم ومبيد الهموم، مطبوعات معهد العلوم العليا المغربيّة، الرباط، 1941، ص 1 ـ 2؛ ● ابن مراد، ابراهيم، دراسات في المعجم العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص 12، 18 ـ 19، 22 ـ 23؛ ● نفسه، المعجم العلمي العربي المختصّ حتّى منتصف القرن الحادي عشر الهجري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1993، ص 64 ـ 65، 85 ـ 86، 111 ـ 112.

د. إبراهيم بن مراد
جامعة منوبة ـ تونس

الحشايشي، محمد بن عثمان بن الحاج

(1269هـ/1853م - 1330هـ/1912م)

هو محمد بن عثمان بن الحاج محمد بن الحاج قاسم الحشايشي الشريف المؤرخ، والرحّالة، والفقيه العدل، والباحث الاجتماعي، والشاعر الأديب. ولد بتونس في 26 رمضان 1269هـ/ 3 جويلية 1853م. ولما كان ينتمي إلى عائلة جمعت بين شرف النسب، وطلب العلم، وصناعة تذهيب الأوراق والكتب، وولاية القضاء والعدالة، ونظم الشعر، وتأليف الكتب، فقد قرّر له والده العدل الفقيه صاحب التآليف في الفقه (علم التوثيق) والنحو [مقدمة الرحلة الصحراوية، 26، 37] أن يسلك نفس السبيل الذي سار فيه أبناء العائلة من قبل. لذلك أرسله أوّلا إلى الكتّاب بنهج حوانيت عاشور لحفظ القرآن على يدي المؤدب الحاج حسين المعاوي. ثم عهد به إلى الشيخ محمد جراد ليعلّمه من القراءات، ومتن الآجرومية في النحو، ومثلّثات قطرب في اللغة، ونماذج من المنظوم والمنثور والحكم والأمثال [ابن الحاج يحيى، مقدمة العادات، 13].

وبعد هذه المرحلة ووفاة والده في 18 رمضان 1284هـ/ 13 جانفي 1868م وجّهه أخوه عزوز الحشائشي إلى جامع الزيتونة حيث تلقّى العلوم العربية والشرعية على أيدي مشايخ عصره منهم: محمد بيرم الخامس (ت 1307هـ/ 1889م) وقد خصّه بالتنويه في كتبه أكثر من مرة، ومحمود بن الخوجة (ت 1329هـ/ 1911م)، وسالم بوحاجب (ت 1343هـ/ 1925م)، وغيرهم. وعلى الرغم من حصوله على شهادة التطويع (شهادة ختم المرحلة الثانوية الزيتونية)وتوظّفه، فقد ظل طوال خمسة عشر عاما، أي إلى حدود سنة 1300هـ/ 1882م، مثابرا على التعلّم وحضور دروس العلم في الزيتونة [العادات والتقاليد التونسية، ابن الحاج يحيى، 229؛ الهدية، الطويلي، 110]. كما وجد في مطالعاته الكثيرة زادا ثرّا مكّنه من إكمال معارفه، والتوسّع في علوم وفنون شتى، كان منها كتب الفلاسفة والطبيعيين والمتصوّفين وعلوم الأجانب حسب ما جاء في قوله من سيرته وترجمته لنفسه: «وتولّعتُ بمطالعة علوم الأجانب ومحاوراتهم والاختراعات والاستنباطات الوقتية حتى أني صرت أرتكبها في كثير من أشعاري التي تنيف على ستة آلاف بيت في أغراض شتى لم تبرز للوجود إلا ما ندر» [الطويلي، مقدمة كتاب الدر الثمين، 7؛ ومقدمة الهدية في العادات التونسية، 10].

وبعد إحداث إدارة جمعية الأوقاف في سنة 1291هـ/ 1874م برئاسة شيخه محمد بيرم الخامس، وإحرازه شهادة التطويع، عمل معه كاتبا خاصا ومحرّرا لمقالاته السياسية والعلمية. ولما رأى منه الحزم والنصيحة استصدر له سنة 1292هـ أمرا بالشهادة العامة

وآخر بشهادة المدارس الباشية [الطويلي، مقدمة الهدية، 12]، ثم سعى له في صدور أمر عليّ في 28 ربيع الأول سنة 1293هـ/ 23 أفريل 1876م بصفته شاهد عدل أوقاف الأبراج والقشل بالعاصمة، [مقدمة الطويلي للهدية، 12]، مع الاحتفاظ بوظائفه السابقة.

ولما كانت وظيفة الإشهاد دون طموحاته ولا يفي دخلها بالإنفاق على عائلته الكثيرة العدد توصّل أن يعمل كاتب سر مصطفى بن إسماعيل (سمي وزيرا أول سنة 1881م)، وأن يوظّف بأمر علي في 27 صفر 1297هـ/ 20 فيفري 1879م عدلا في لجنة القيس، فسافر إلى أغلب مناطق البلاد التونسية لمباشرة قيس الأعشار وغير ذلك ممّا كلّفته به الدولة من التوجّهات إلى بعض [أملاكها الإعلام، مخ. ص86]. وهو ما مكّنه من الاطلاع على الكثير من عاداتها وتقاليدها وتاريخها و آثارها ممّا كان له مصدرا من مصادر كتابه « الهدية أو الفوائد العلمية في العادات التونسية».

وفي 27 ذي القعدة 1313هـ/ 10 ماي 1896م قام برحلة إلى ليبيا باقتراح من الثريّ الفرنسي والسياسي الرحّالة المركيز دي موريس Moris (1858 ـ 1896م) ليمهّد له السبيل للوصول إلى مدينة غات حيث سيتم اللقاء بينهما وقيادته إلى منزل شيخ الطريقة السنوسية محمد بن محمد المهدي السنوسي (ت 1902م) لعقد تحالف معه ينبني في الظاهر على فتح طريق صحراوي جديد وربط علاقات تجارية بين السودان والمملكة التونسية المستعمرة الفرنسية وقتئذ. لكن الداعي الخفي وراء الاقتراح هو إخضاع سكان الصحراء الكبرى من التوارق والشعانبة وبلاد السودان للنفوذ الفرنسي، وقطع الطريق أمام أطماع الانقليز في التشاد والنيل الأعلى. . .

في هذه الرحلة إلى «الكفرة» مستقرّ السنوسي، زار الحشايشي عدة مناطق ومدن مثل بنغازي، والجبل الأخضر من برقة، ومرزق من فزان، ومدح الشيخ السنوسي وأصحابه، وعاش معهم وتحادث في شؤون عدة من علمية وسياسية وغيرها، لكن سماعه في 30 جويلية 1896م باغتيال المركيز دي موريس في جوان من نفس السنة بالوطيّة قرب غدامس بالصحراء الكبرى صرفه عن تتمّة الرحلة إلى غايتها، فعاد إلى تونس في آخر رمضان 1314هـ/آخر فيفري 1897م، بعد غياب عنها دام حوالى عشرة أشهر.

وبعد عودته من رحلته الصحراوية وأربعة عشر عاما في وظيفة القيس كما قال [العادات والتقاليد، 409]، أعلمه الشيخ أحمد كريّم (ت 1315هـ/ 1897م) تلميذ والده أنّ الوزير الأكبر محمد العزيز بُوعتُّور (ت 1325هـ/ 1907م) عيّنه متفقّدا عامًّا لخزائن المكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة [العادات والتقاليد، ابن الحاج يحيى، 230؛ الهدية، الطويلي، 110] ليقوم بمراقبة الكتب وترتيبها. وقد تم إعداد مكان خاص لخدمته إزاء صومعة الجامع [م.س، ابن الحاج يحيى، 97؛ م.س، الطويلي، 59].

ولما كانت له علاقات جيدة مع الموظفين السامين في الدولة، وكان شاعرا وكاتبا، أرسل في زيارة إلى معرض باريس العام لسنة 1318هـ/ 1900م. فنظم فيه قصيدة مطولة

بعنوان «العقد النضيد في التنظير بين الحضارة الإسلامية وتمدُّن العصر الجديد».

على أن أهم ما استفاده من عمله في خزائن كتب الأحمدية هو الاطّلاع على كنوز مخطوطاتها، والاستعانة بها على تأليف عديد الرسائل والكتب إضافة إلى ما غنمه من علاقات ومناقشات مع العلماء والوجهاء من التونسيين، والمستشرقين والمسؤولين من الفرنسيين. وكلّ هذا أتاح له فوائد جمّة مما نجد صداه واضحا في تآليفه.

في هذه الأجواء العلمية عاش محمد الحشايشي بقية عمره إلى أن توفي يوم الثلاثاء 3 ذي الحجة 1330هـ 12/ نوفمبر 1912م عن سن تناهز الستين سنة.

والواضح من أطوار حياته وأعماله أنه كان شغوفا بالعلم والقراءة، موسوعي التكوين، صبورا على البحث والتأليف، ميّالا إلى التّرحال والاكتشاف، متأثرا بالمؤرخين الاجتماعيين خاصة منهم ابن خلدون، وبالإصلاحيين المعاصرين كخير الدين باشا التونسي، وجماعته ممّن درس عليهم في الزيتونة أو عاشرهم. ولكل هذه الأطوار حفلت آثاره بأفكار إصلاحية فدعا نثرا وشعرا إلى نهضة العرب والمسلمين بالاقتباس من التقدُّم الأوروبي، وفتح المدارس العصرية مثل الصادقية والخلدونية والعلوية، وتعليم اللغات، وتعليم المرأة ضاربا المثل للتونسيين بتعليم ابنته، دون أن ينسيه كل ذلك ما كان للعرب من تقدُّم علمي لا بد من بعثه وتطويره ليتسنّى لهم بناء حضارة جديدة تجمع بين الأصالة والمعاصرة.

ولعله من منطلق مقولة التحديث، أو لأسباب أخرى، كان لا يرى بأسا لتحقيق المشروع التحديثي التونسي من الاعتماد على التقارب الإسلامي المسيحي، والتعاون مع الفرنسيين، والإشادة بسياستهم، حدّ تبنّي أطروحاتهم والترويج لما كان يدعون إليه من سياسة تقوم في الظاهر على التحاور والتمدين، وفي الباطن على الاندماج بين شعبين لكل منهما حضارته وخصائصه التي يختلف بها عن الآخر. وقد تحدّث عن هذا المبدإ في تفكيره وأشار إليه في سيرته الذاتية التي أعدّها عند نقل «الرحلة الصحراوية» إلى الفرنسية بقوله: «أما المسألة التي تعلقتُ لها أكثر من غيرها فهي دراسة الطُّرق الكفيلة بتقريب الشقة بين الفرنسيّين والعرب...» [الرحلة الصحراوية، 39]. ولم يكن الحشائشي هو الوحيد في تبنّي هذه المقولة، فقد كان عدد من السياسيّين والمفكرين العرب منبهرين بالحضارة الغربية انبهارا كلّيا جعلهم يعولون عليها كلّ التعويل في النهضة العربية المرتقبة حدّ التبعيّة والذوبان. وقد أثبتت الأيام هشاشة هذه الرؤية لأن عوامل التقارب بين الشعوب جغرافية كانت أو تاريخية، لا تبلغ قوة عوامل الاختلاف الدينية واللغوية والعرقية. ولقد كانت هذه العوامل هي نفسها التي اتخذ منها الوطنيون الأحرار سلاحا لمقاومة المحتل وسياسة الإدماج، خاصة لما تحوّلت هذه السياسة إلى استعمار أرض، واغتصاب سيادة، وقمع حرية، وطمس هوية.

وعدا هذا الموقف السياسي الخاص بالعلاقات بين الغرب الأوروبي المسيحي والشرق العربي المسلم، كان محمد

الحشائشي من المدافعين عن الإسلام، والحضارة العربية الإسلامية، ووطنه العربي المسلم، وهذا ما يتجلّى في تآليفه بقوة.

من هذه التآليف «الإعلام بعلوم العرب وصنائع الإسلام» الذي شرع في تأليفه منذ أن كان طالبا في الزيتونة، وهو كتاب من نوع كتب الموضوعات، سار فيه على منهاج كتاب «مفتاح السعادة» لطاش كبري زادة، كما اعتمد فيه غالبا على كتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لحاجي خليفة، وبدرجة أقل على كتب أخرى مثل مقدمة ابن خلدون وغيرها، فالكتاب بناء على هذا الوصف هو موسوعة علمية تؤرخ للعلوم العربية، وتبرز إبداعات العبقرية العربية في العلوم والصناعات.

وأما محتوى الكتاب فيشتمل على ثلاثة أقسام كبرى: الأول في نشأة العلوم في الإسلام، ونشأة التّدوين والتأليف، وطلب العلم. . . إلخ، والثاني، وهو أصل الكتاب، يشتمل على معجم ألفبائي لأنواع العلوم، مع ذكر حدودها وبعض المؤلفين فيها و تآليفهم، والثالث، وهو الخاتمة، ذكر فيه إحدى عشرة مقالة هي التالية، الأولى: لا تعرف الأمة إلا بآثار علومها المهمة. الثانية: جرعة غُباب في تمدُّن الأعراب. الثالثة: استفهام هل يمكن أن تعود تلك العلوم إلى الإسلام. الرابعة: تقصر الأفهام عن جميع علوم الإسلام. الخامسة: تلقين في بيان العلم الذي هو فرض عين. السادسة، العجز عن دليل الوجود علم بالموجود. السابعة: وساوس لمن اقتصر في التعليم على المدارس. الثامنة: آفة الإنسان الغفلة والنسيان. التاسعة: بالعلم ترتفع وبالجهل تتّضع. العاشرة: عيب جليّ يعتري التونسيّ الذكيّ. الحادية عشرة: دعاء ختم الكلام والحمد لله على التمام.

وكان الباعث على تأليف هذا الكتاب أن بعض العلماء ممن ألفوا في علوم الإسلام «قد غفلوا عن مئات من علوم الأوائل وآلاف من الكتب والرسائل، حتى إن البعض من الخاصة لم يعرف فلسفة الفرس والعجم ولا استكشافات الأندلس والعراقيين، وكذا أهالي أروبا الآن، ف(هم) غير عالمين إلا بالنزر من علوم العرب كما حكاه المتصفون من علمائهم، والجمُّ الغفير منهم يرى أن لا علوم للإسلام إلا علوم القرآن والحديث، والسبب هو عدم الاطّلاع على علوم العرب وما دوّنه (علماء) الإسلام من فنون حتى إن البعض من علوم الإسلام (في ما) زعمت رجال أروبا أنها من ابتكارها، مع أنك ستقف عليه إن شاء الله من أنه من تصانيف الإسلام والفضل في ذلك لهم، غير أن الأروبيين لا ينكر عليهم توسيع دائرة تلك الفنون وزيادة قواعد وآلات يأتي بيانها» [الإعلام، مخ. ص 80].

وأما كتاب «الهدية في عوائد المملكة التونسية»، فقد فرغ من تأليفه سنة 1322هـ/ 1904م بناء على رغبة أحد الوجهاء الفرنسيين، يبدو أنه السيد «برنار روا» القنصل الجنرال والكاتب العام لحكومة الحماية، لأنه كما ذكر في آخر المقدمة يود أن يطلع الفرنسيون الوافدون على تونس على القطر التونسي في وصفه الجغرافي وتاريخه الماضي والحاضر، وعاداته وتقاليده، وغير ذلك من التفصيلات والإحصائيات التي تعرف بالقطر التونسي في الاجتماع والسياسة والاقتصاد

والثقافة والتعليم وغيرها . والكتاب ليس، كما قد يتبادر إلى الذهن، من الكتب السياحية فقط لأنه، وإن كان هذا هو الدافع إليه، قد احتوى على معلومات هامة عن تونس وتاريخها وأهلها واقتصادها وثقافتها ومعالمها وثرواتها وعاداتها وتقاليدها وغير هذه مما يجد فيه الباحثون مصدرا ومرجعا لبحوثهم في علوم شتى مثل علوم الاجتماع والثقافة والإناسة . . . إلخ.

والكتاب يحتوي على مقدمة وست عشرة مقالة وخاتمة. في المقدمة ذكر معنى العوائد عند الأمم. وفي المقالات تحدث عن الموضوعات التالية: ـ في الولادة والتوليد. ـ في بيان صناعة التوليد وأعمال القابلة. ـ في أنواع أمراض الأطفال بتونس. ـ في أسباب تحسين أخلاق الصبيان وتخلّقهم بالآداب الحميدة. ـ في أساليب التعليم والتعلّم والمعلّمين والأماكن المخصوصة لذلك وما يتعلّق بجامع الزيتونة وعموم المعاهد الإسلامية. ـ في أسباب المعاش والصنائع والمتاجر والحرف. . . إلخ. ـ في أخلاق التونسيين ومعاملاتهم وعشقهم ولحونهم وأكلهم ولباسهم ومفاكهاتهم وبعض ما ينكر عليهم. ـ في عادات مختلفة وبدع عامة. ـ عادات التونسيين في السنة والشهر والجمعة واليوم والليلة. ـ في الزوايا المشهورة وعوائد زياراتها. ـ في تاريخ جوامع الخطب بالعاصمة. ـ في الدجّالين والرّمّالة والمنجّمين والمتطبّبيّن والكتّابين. . . ـ في أسعار المأكولات من الطعام واللحوم والطيور والغلال والسمك وغيرها. . . ـ في عوائد جارية من السنن والبدع المختلفة. ـ في التعريف بالقطر التونسي. ـ في بيان عدد أسواق تونس وأماكنها وخصائصها، وعاداتها في البيع والشراء.

وفي الخاتمة تحدث عن عوائد البلاد وخططها الملكية ومؤسساتها الحكومية والإدارية. . . إلخ. وبهذا العرض لفصول الكتاب نرى أن المؤلف قام ببحث تاريخي واجتماعي وحضاري احتذى فيه إلى حدّ ما ابن خلدون في مقدمته الشهيرة، وهذا ما تفيده الجملة الأولى من مقدمة الكتاب في قوله: «اعلم أن الاجتماع الإنساني ضروري في هاته الأرض، ويعبّر عنه الحكماء بأن الإنسان مدنيّ بالطبع. .» [العادات والتقاليد التونسية، ابن الحاج يحيى، 29].

ومحمد الحشائشي، إضافة إلى ولعه بالتاريخ العلمي والحضاري، كان له وَلَعٌ بفن الرحلة منذ أن كان موظفا في لجنة القيس التي كانت تبعث به إلى بقاع شتى ليجمع لها الأعشار من أملاك الدولة. على أن أهم رحلاته التي دوّنها في كتاب هي «الرحلة الصحراوية» التي قام بها إلى الصحراء الإفريقية كما ذكرنا. والكتاب، الذي فقدنا أصله العربي وله ترجمة فرنسية وعنها ترجم إلى العربية، يشتمل على مقدمة خاصة بالترجمة الفرنسية احتوت على تعريف بالمؤلف مستمدّ من سيرة ذاتية كان كتبها خصّيصا لهذه الترجمة، وعلى سبعة فصول هي التالية: ـ من تونس إلى بنغازي. ـ من بنغازي إلى الكفرة. ـ الطريقة السنوسية ومحمد بن علي السنوسي. ـ من الكفرة إلى غات. ـ غات ومرزق. ـ التوارق. ـ الصحراء الطرابلسية وسكانها. ـ من مرزق إلى مصراتة. ـ مصراتة وطرابلس والعودة. وفي آخر الكتاب نجد ذيلا ذكر فيه وثائق يؤكّد بها

صحة رحلته، منها: رسائل بخطوط أصحابها، ووثائق أخرى قدّمها لقضاة محكمة سوسة عاصمة الساحل التونسي، التي حاكمت قتلة المركيز دي موريس.

وللحشائشي كتاب آخر عن هذه الرحلة هو الموسوم بعنوان «جلاء الكرب عن طرابلس الغرب» ألّفه في سنة وفاته سنة 1912 بعد تعرُّض طرابلس للغزو الإيطالي سنة 1911، لذلك مهّد له بتاريخ مختصر لطرابلس الغرب نقله عن كتب تاريخية عربية، وبذكر أشهر مدنها ومعالمها ومساجدها وعلمائها وزهادها ومظاهرها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، كما قدم معلومات عن الطريقة السنوسية، والجغبوب مقرها الأول، وقبائل التوارق والصحراء الطرابلسية، ثم ختم الكتاب بحديث موجز عن الحرب الطرابلسية الإيطالية. ونستنتج بعد الاطلاع على الكتاب أن الجديد فيه هو التمهيد التاريخي الأول عن طرابلس، والخاتمة عن الحرب الإيطالية فيها، وكل ما ورد بين هذين الفصلين منقول عن الرحلة الأولى مع بعض الزيادات وكثير من النقص [محمد المرزوقي، الرحلة الصحراوية، 11].

وهاتان الرحلتان على الرغم مما ورد فيهما من بعض الأخطاء التاريخية [مقدمة المرزوقي في الرحلة الصحراوية، 14 ـ 17] تقدمان لنا معلومات عن قبائل الصحراء في حياتهم وعاداتهم، وخاصة عن الطريقة السنوسية ونظامها وشيوخها ودورها في نشر الإسلام في الصحراء الإفريقية، وعن الأطماع الفرنسية لاستعمار الصحراء. وهذا هو الغرض الرئيس من رحلة المؤلف وترجمتها إلى الفرنسية.

ومما امتاز به محمد الحشائشي في خطابه النثري لامبالاته بكثرة الأخطاء، واستعماله لتراكيب وألفاظ عامية ربما يتعمّدها استسهالا لها، أو توضيحا لقارئيه.

آثاره

لمحمد الحشايشي آثار كثيرة. منها مقالات وأشعار نشرها في «الرائد التونسي» و«الحاضرة» و«الزهرة»، وتآليف نشر بعضها في حياته وأخرى ما تزال مخطوطة:

أ ـ المطبوعة:

1 ـ الدرّة النقية في مقاصد الدولة الفرنسية، ألفه سنة 1298هـ/ 1881م حين شبت ثورة عقب احتلال فرنسا لتونس، مطبعة كوني، باريس 1882؛ 2 ـ رحلة الشتاء المسماة العهد الوثيق في هناء الصديق، رسالة في صورة مقامة هنأ بها صديقه محمد بن خليفة عامل السواسي بمناسبة زواج ابنه، حررها في 25 رجب 1312هـ/ 21 يناير 1895م، وهي تحتوي على أشعار له ولعلي الورداني، ولعلي الشنوفي، المطبعة العمومية، تونس 1895م؛ 3 ـ العقد النضيد في التنظير بين الحضارة الإسلامية وتمدُّن العصر الجديد. وهو قصيدة في مائة بيت نظمها في وصف معرض باريس العام لسنة 1900، طبعت في ذيل كتاب «سلوك الإبريز في مسالك باريس» لمحمد بن الخوجة، المطبعة الرسمية، تونس 1318هـ/ 1900م؛ 4 ـ الدر الثمين في التعريف بأبي الحسن الشاذلي وأصحابه الأربعين، ط 1، تونس سنة 1327هـ/ 1909 ـ 1910م في أربعين ص، ط 2، من إعداد الطيب قريسة، وتقديم وتحقيق أحمد الطويلي، المطبعة

العصرية، تونس 1421هـ/ 2002م؛ 5 ـ جلاء الكرب عن طرابلس الغرب، أو النفحات المسكية في أخبار المملكة الطرابلسية، نشر بعنوان رحلة الحشايشي إلى ليبيا. تح. علي مصطفى المصراتي، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت 1965؛ 6 ـ تاريخ جامع الزيتونة، تح. الجيلاني بن الحاج يحيى، المعهد القومي للاثار والفنون، مؤسسات بن عبد الله، ط 1، تونس 1974، ط 2، تونس 1985؛ 7 ـ الرحلة الصحراوية عبر أراضي طرابلس وبلاد التوارق، تح. محمد المرزوقي، الدار التونسية للنشر، تونس 1988، وهو الترجمة العربية للترجمة الفرنسية المختصرة التي قام بها ونشرها سنة 1903 بباريس فكتور سير ومحمد الأصرم والمسيو ليون لكتاب «النفحات المسكية» في نسخته الأولى وقبل الزيادات التي أضافها بعد الهجوم الإيطالي على ليبيا سنة 1911 ليصبح عنوانه «جلاء الكرب»، 8 ـ الهدية في عوائد المملكة التونسية، حسب ما ورد في آخر مقدمة المخطوط، أو «الهدية أو الفوائد العلمية في العادات التونسية»، حسب تح. الجيلاني بن الحاج يحيى، لكنه نشره بعنوان «العادات والتقاليد التونسية» وتحته العنوان السابق، سيراس للنشر، تونس 1994، أو «الهدية في العادات التونسية» حسب تح. محمد العنابي وأحمد الطويلي، ط. تونس 2002؛ 9 ـ موجز فهرسة مخطوطات جامع الزيتونة ومطبوعاتها، بالاشتراك مع ب. روا (B. Roy) ومحمد ابن الخوجة، 4 مج. صدر منه قسم التاريخ في المطبعة العمومية، سنة 1900.

ب ـ المخطوطة:

10 ـ الإعلام بعلوم العرب و صنائع الإسلام، في 300 ص (قيد التحقيق)؛ 11 ـ الدرة النقية في تهاني الحضرة العلية، مخ. عدد 18652، 39 ورقة، دار الكتب الوطنية، تونس، يحتوي على خمسة عشر قصيدة لشعراء العصر في مدح علي باي عند ولايته عرش تونس سنة 1299هـ/ 1882م، جمعها سنة 1300هـ/ 1883م؛ 12 ـ هيئة الحكومة التونسية قبل الحلول الإفرنساوي، أحكامها وإدارتها، مخ. عدد 3373، في 14 ص، دار الكتب الوطنية، تونس، وهو يشتمل على معلومات تاريخية خاصة بمجالس الباي، والمواكب الرسمية والأعياد، والرتب العلمية والدينية، والجباية، وحدوث الوزارة بتونس؛ 13 ـ التعريف بما في مدينة تونس وأحوازها من الصلحاء، ذكره الجيلاني بن الحاج يحيى في مقدمة تحقيقه لكتاب «العادات والتقاليد التونسية»، ص15؛ 14 ـ ديوان شعر، يحتوي حسب قول المؤلف على نحو ستة آلاف بيت لم ينشر منها إلا القليل [مقدمة الطويلي لكتاب الدرّ الثّمين...، 7]

المصادر والمراجع

● رحلة الحشائشي إلى ليبيا، الهدية أو الفوائد العلمية في العادات التونسية [الآثار]؛ ● الإعلام بعلوم العرب وصنائع الإسلام، مخ. [الآثار]؛ ● ابن الخوجة، محمد، سلوك الإبريز في مسالك باريز، تونس، المطبعة الرسمية، 1318هـ/ 1900م؛ ● ابن عاشور، محمد الفاضل، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، الدار التونسية للنشر، تونس

1972، ط1، القاهرة 1956، ص 95 ـ 96؛ ● الجيلاني بن الحاج يحيى، مقدمة تاريخ جامع الزيتونة للحشايشي؛ ● م.ن، مقدمة العادات والتقاليد التونسية؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982، 2/ 144 ـ 147؛ ● المرزوقي، محمد، مقدمة الرحلة الصحراوية؛ ● بوذينة، محمد، مشاهير التونسيين، تونس 1992، ص481 ـ 482؛ ● سلسلة مشاهير، محمد الحشائشي، منشورات محمد بوذينة، الحمامات، تونس 1995؛ ● النيفر، محمد وابنه علي، عنوان الأريب عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1996، 2/ 1075 ـ 1082؛ ● الطويلي، أحمد، مقدمة «الدر الثمين»، و«الهدية في العادات التونسية»:

- L'expédition de Moris, Pavy Auguste, Paris, 1897.

د. محمد الهادي الطاهرالمطوي
الجامعة التونسية

الحصّار، أبو بكر محمد بن عبد الله

(ق 6هـ/12م)

هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن عياش الحصّار عالم رياضي مغربي، من الراجح أنّ أصله من سلا. ويرجعه سوتر إلى القرن الثاني عشر ويصرّح سميث [2/ 318] أنّه كان حيّا حوالي 1175م. وأمّا اسمه «الحصّار» فيعني لغويا «صانع الحُصُر»: ويوجد، حتى اليوم، لهذه الأسرة أثر بمدن سلا، وفاس، وتلمسان.

وليس من المستبعد أن يكون الحصّار من أصل أندلسي، وقد يكون جدّه العالم القرطبي الشهير الذي يذكره ابن فرحون في «الديباج المذهب» [ط. مصر 1351هـ، ص 271] محمد التجيبي الحصّار (أبو بكر)، فأخذ ببلده ورحل إلى المشرق وصحب أبا محمد بن أبي زيد واختص به وله شرح على رسالة شيخه. وخرج من الأندلس لأمور جرت له مع فقهائها وحلّ بسبتة فأخذ عنه بها حمزة بن إسماعيل السيفي وغيره، ثمّ عاد إلى الأندلس وتوفّي بها سنة 406هـ/ 1015م.

حصل الحصّار على شهرة عالية في المغرب والمشرق. وكانت له مصنّفات قيّمة في الرياضيات نقل عنها معظم علماء المغرب، وتأثّرت بها الأجيال التالية تأثّرا قويا.

وعلى الرغم من ذلك لم يتعرّض إلى ترجمته أحد ولم يبلغنا عنه، وهو شيخ الجماعة، أيّ معلومة تذكر.

كلّ من يتعرّض إليه ينوه فحسب بعلمه وبقيمة مصنّفاته. يقول عنه ابن خلدون عند الحديث عن علم الحساب: «ومن أحسن التآليف المبسوطة فيها لهذا العهد بالمغرب كتاب

الحصّار الصغير، ولابن البنّاء المرّاكشي فيه تلخيص ضابط لقوانين أعماله مفيد...» [المقدمة، فصل العلوم العددية، ص 483].

لم يسع الغبريني محمد بن محمد بن أبي بكر القلعي الجزائري، العالم بالفقه والفرائض والحساب (المتوفّى في بجاية في عشرة الستين وستمائة للهجرة) في مقام المدح والتّنويه به، إلّا أن ينظره بأبي بكر الحصّار فيقول: «لو لقي الحصّار القلعي لما تأخّر على أن يكون من ضمن تلاميذه».

واغترف معظم علماء المغرب من علم الحصّار، وتكرّر كثيرا استشهادهم بأقواله وطرائقه. فممّن أخذ عنه ابن الياسمين (ت 599هـ/ 1203م) ويسمّه «الحاج أبا بكر» (وهذا يدلّ على أنّه كانت له رحلة إلى المشرق)، وابن منعم (ت 625هـ/ 1228م)، والواحدي (كان حيّا سنة 784هـ/ 1382م) وابن غازي (ت 980هـ/ 1573م)، وابن هيدور (ت 814هـ/ 1413م) وغيرهم.

ويعود إليه ابن غازي في «بغية الطلّاب» سبع عشرة مرّة. ففي باب الجمع يأخذ مثلا في الجمع من مربّع واحد إلى مربّع تسعة على توالي الأفراد ويقول:

قلتُ وهذا من فتُوح الباري
وإن تشا طرائقَ الحصّار

فمسطح النصْفين منها اضرب
في ثلثي الذيْ بتكميل حبي

فالمكمل 9، وما بعده 10 و11 فيكون:
12 + 32 + 52 + 72 + 92 = ط9 = 165.

وكان اهتمام مؤرخي العلوم بالحصّار اهتماما واضحا، مثل Steinschneider (1874) وNeubauer (1877) وسوتر.

و«الحصّار الصغير» قد اختار له مؤلّفه أيضا عنوان «كتاب البيان والتّذكار في علم مسائل الغبار» فيقول بعد الاستهلال: إنّي لما رأيت العلوم والآداب، رأيت أنّ أجلّها علم العدد والحساب، بعد السّنّة المأثورة والكتاب، فألفت في العدد هذا التّأليف، ونبهت فيه على جلّ معنى خفي لطيف، ليكون تبصرة للمبتدي، وتذكرة للمنتهي، وسميته «البيان والتذكار في علم حساب الغبار» [خ. الخزانة العامة، الرّباط 917: دمشق، المكتبة الظاهرية، عام 9760].

وبوّب تأليفه بأبواب يحصرها بابان: الباب الأول منهما فيه جميع أعمال العدد الصحيح، والباب الثاني فيه جميع أعمال الكسور.

I ـ في أعمال العدد الصحيح:

1 ـ مراتب العدد وأسماؤه. 2 ـ صور الغبار وتصرفه على مراتب العدد. 3 ـ جمع الأعداد بعضها إلى بعض. 4 ـ طرح الأعداد بعضها في بعض. 5 ـ الضرب. 6 ـ التّسمية. 7 ـ القسمة. 8 ـ التنصيف. 9 ـ التضعيف. 10 ـ التجذير.

II ـ في أعمال الكسور:

ثمّ يمر إلى الكسور وينوّع مسائل ضرب الكسور. والأعداد الصحيحة، وكسور الكسور، ويقدّم صرف كسر إلى كسر، وجمع الأعداد على التوالي، وجمع المربّعات والمكعّبات، والجمع على بيوت الشطرنج، ثمّ القسمة بالتفصيل وحساب الخطأين.

ومما يلاحظ نوع من عدم الاستقرار عند ضبط بعض المفاهيم المنطقية منها: هل الواحد عدد أم لا؟ ولنا فيما يلي ما يثبت هذه الذبذبة وهذا التأرجح: «اعلم أنّ أسماء العدد اثنا عشر، أولها العدد الواحد، الذي هو أصل العدد ومبدؤه ومنشؤه، الخ... فصار ذلك اثنين، وهو أوّل العدد، لأنّ الواحد ليس بعدد... ثم الثمانية والتسعة، فهذه أعداد، ولها تسعة (؟) أسماء، وهذه الأعداد التسعة هي الآحاد».

آثاره

1 ـ الحصّار الصغير، درسه ونشره سوتر، ونقله إلى العبرية العالم الرياضي الفرنسي موسى بن طبون من مونبليي سنة 1271م.

2 ـ كتاب الكامل ويدعى أيضا «الكتاب الكبير»، عثر على الجزء الأوّل منه مؤخرا بمكتبة ابن يوسف بمرّاكش، وقدّمه أحمد جبّار ومحمد أبلّاغ في مجلة تاريخ الرياضيات Mathématica Historia سنة 1987.

المصادر والمراجع

إضافة إلى ما ذكر في الملخّص السّابق:

● ابن الاكفاني، إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد، القاهرة 1980؛ ● ابن خلدون، المقدمة، ط. مصر؛ ● القلقشندي، صبح الأعشى، 5/ 475؛

- D. Lamrabet. Introduction à L'histoire des mathématiques Maghrébines, Rabat, 1994, p. 44 N. 330; pp. 75-99-109-112-115-116-130-195-237.
- Smith, 1210, II, 118 et 254.
- Suter, Das Rochen buch das Abu Zakarya al-Hassar, Bibliotheca Mathematica, 3.
- Abellagh (M) et A. Djebbar. Historia Mathematica, 1987.

د. محمد سويسي

جامعة تونس

الحصّار، أبو الحسن علي بن محمد

(ت 611هـ/1214م)

أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن إبراهيم بن موسى، الخزرجي، الإشبيلي، ثم الفاسي، يعرف بالحصّار [كحالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، 7/ 228؛ البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، 1/ 705؛ مخلوف، محمد، شجرة النور الزكية، ص173؛ الزركلي، خير الدين، الأعلام، 4/ 330 ـ 331].

ولد بمدينة فاس بالمغرب الأقصى، وسكن مدينة سبتة. وسمع بفاس وبمصر وبغيرهما، وجاور بمكة المكرّمة.

كان فقيها، مفتيا، عارفا بأصول الفقه الإسلامي، عالما بأصول العقيدة والدين، مشاركا في بعض العلوم، متحصّلا متفننا، مؤلّفا متقنا.

أخذ عن أبي القاسم بن حبيش، وغيره، وحدث عنه أبو محمد عبد العظيم المنذري، وأقرأ أصول الفقه وأفاد بها [مخلوف، محمد، شجرة النور الزكية، ص173].

توفّي بالمدينة المنوّرة في شهر شعبان سنة إحدى عشرة وستّمائة للهجرة الشريفة [مخلوف، محمد، شجرة النور الزكية، ص173؛ الزركلي، خير الدين، الأعلام، 4/ 330 ـ 331].

آثاره

1 ـ عقيدة في أصول الدين؛ 2 ـ أرجوزة في أصول الدين؛ 3 ـ شرح الأرجوزة، في أربعة مجلّدات؛ 4 ـ أصول الفقه؛ 5 ـ البيان في تنقيح البرهان؛ 6 ـ تقريب المدارك، أو المدارك في وصل مقطوع حديث مالك، اختصر فيه بعض كتاب التمهيد لابن عبد البر المالكي؛ 7 ـ الناسخ والمنسوخ من القرآن، وغير ذلك [البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، 1/ 705؛ كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 7/ 228؛ الزركلي، خير الدين، الأعلام، 4/ 330 ـ 331؛ مخلوف، محمد، شجرة النور الزكية، ص173].

المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين من كشف الظنون، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية باستانبول سنة 1951، وأعادت طبعه بالأوفست منشورات مكتبة المثنى، بغداد، د.ت؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة عاشرة سنة 1992م؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان؛ ● مخلوف، محمد بن محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الفكر. د.ت.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي

(ت 413هـ/1022م)

هو أبو إسحاق إبراهيم بن عليّ بن تميم الأنصاري القيرواني المعروف بالحُصْريّ نسبةً إلى قرية «الحُصْر» بجوار القيروان، أو نسبةً إلى عمل الحُصر أو بيعها. وهو قريب علي الحصري الشاعر الشهير، صاحب «يا ليل الصبّ»، وقد يكون خاله أو ابن خالته.

هو شاعر، أديب، معلّم، تتلمذ عليه ولزمه نخبة شباب القيروان ومنهم ابن رشيق الذي يقول عنه في «الأنموذج»: «وأخذ في تأليف الأخبار وصنعة الأشعار مما يقرب في قلوبهم، فرأس عندهم وشُرف لديهم».

لا نكاد نعلم شيئا عن حياته وخاصّة مرحلة النشأة والدراسة. لكنّنا نستطيع تقدير تاريخ ولادته بنهاية الستّينات من القرن الرابع، اعتمادا على قولة ابن رشيق بأنّه توفي «وقد جاوز الأشُدّ». والتأكيد على ثقافته الأدبية الواسعة، وعلمه بالنحو، والعروض وخاصّة معرفته بالأدب المشرقي. وقد كان أوّل من عرّف بمقامات الهمذاني.

وربّما كان لاشتغاله بالوراقة والنسخ دور كبير في اطّلاعه على الكتب المشرقية وقد كان يجتمع في جامع القيروان بالشبّان، فيتعلّمون عليه، ويتطارحون الأدب والأشعار. وربّما كان له باع في نشأة هذه «المدرسة الإفريقية» التي يمثّلها ابن رشيق، وابن شرف على الخصوص.

ولا نعلم له اتّصالا بالبلاط الصنهاجي، ولا نشاطا غير التأليف وعقد هذه المجالس الأدبية التي نعتها الشاذلي بويحيى بـ «المنتدى»، وهي وسط بين حلقات الدروس، والمطارحات الإخوانية.

وقد توفّي الحصري بالمنصورية قرب القيروان سنة 413هـ/ 1022م. وقد حقّق هذا التاريخ أتمّ التحقيق الأستاذ بويحيى، وفنّد التحريف الوارد في بعض المصادر وهو ذكر سنة 453هـ/ 1061م تاريخا لوفاة الحصري.

آثاره

رغم ذكر القدامى ديوان الحصري فهو قد ضاع، ولم يبق من شعره إلّا نحو الخمسين بيتا في الغزل والوصف بالخصوص، ممّا لا يعكس بحال ما كان له من صيت في الشعر. وقد ذكر المترجمون أنه كان يتشبّه بأبي تمّام، فيتصنّع: «وعنده من الطبع ما لو أرسله على سجيّته، لجرى مجرى الماء، ورقّ رقّة الهواء».

لكنّ شهرة الحصري قامت أساسا على كتابه «زهر الآداب وثمر الألباب»، وهو كتاب مختارات أدبية ألّفه باقتراح أحد الأعيان وهو أبو الفضل العبّاس بن سليمان وكان راعيا للأدب، مولعا به، فجلب معه من المشرق عددا من تآليف أهل العصر وطلب من الحصري أن ينتقي منها وينتخب نصوصا

جديرة بالقراءة والحفظ، وهو ما فعله سنة 405هـ/ 1014 ـ 1015م على الأرجح.

وقد كان لهذا الكتاب إلى تقديمه لنماذج مشرقية «حديثة» بُعْدٌ تعليميّ واضح، حيث إنه كان حريصا على تقديم أمثلة أدبية صالحة تغذّي تلاميذه الشبّان، وتمكّنهم من السير على منوالها كما يتمّ في كتب المنتخبات المدرسية. وممّا يؤكّد هذا الطابع «التعليمي» الاتّجاه إلى النصوص والفِقَر القصيرة لأنها «أجمل لفظا، وأسهل حفظا» كما يقول في المقدّمة.

وهذه المختارات شعرية، ونثرية (وللنثر نصيب في الكتاب كبير) يعود أغلبها إلى العصر العبّاسي، وتكثر فيها عبارات مثل «ألفاظ أهل العصر» أو «كلام أهل العصر»، فقد رغب المؤلّف «في التجافي عن المشهور» كما ذكر. والقديم مشهور.

وقد جرى الحصري في ترتيب الكتاب مجرى «جاحظيا» من التصرّف «من الجدّ إلى الهزل، ومن المنظوم إلى المنثور، ومن المطبوع إلى المصنوع»، فهو لا يحفل بترتيب، ولا تبويب. «إذ كان الخروج من جدّ إلى هزل، ومن حزَن إلى سهل أنفى للكلل، وأبعد عن الملل» كما يقول.

ونظرا إلى رغبته في إكساب «زهر الآداب» صفة المنتقى المصفّى فإنّه جمع من الكتب المشرقية عيِنها نوادرَ وملحا وممازحات وأبعدها، وأفردها في كتاب سمّاه «جمع الجواهر في المُلح والنوادر»، وقد طبع أيضا بعنوان «ذيل زهر الآداب» ممّا يدلّ على وثيق الصلة بين الكتابين، وتكاملهما.

وربّما وجدنا الصلة كذلك في تجنّب المؤلّف أيّ فحش أو نبوّ عن اللياقة، ممّا يدلّ على وضع الكتاب بين أيدي الطلبة. فكتاب «جمع الجواهر» إذن كتاب مختارات هزلي، يقابل «زهر الآداب» الجدّي، وقد جعله صاحبه «بتنويع الكلام، كالمائدة الجامعة لفنون الطعام، إذ همَمُ الناس مفترقة، وأغراضهم غير متّفقة» كما يذكر في المقدّمة.

أمّا كتاب المختارات الثالث وعنوانه حسب المصادر «نُور الطرف، ونَور الظرف» ويسمّيه ياقوت كتاب النوريْن فمخطوط، وهو شبيه «زهر الآداب» مادّة ومنهجا إلّا أنه كالمختصر المبسّط منه.

وقد نشر في السنوات الأخيرة كتاب الحصري «المصون في سرّ الهوى المكنون» وهو يتناول عاطفة الحبّ بطريقة تسعى إلى أن تكون علمية، تذكّر إلى حدّ بطريقة ابن حزم، ولكن التأثّر المباشر بين «طوق الحمامة» و«المصون» مستبعد، كما يبدو من مقارنة النصّين.

وقد يكون «المصون» القادح الباعث على تأليف كتاب ابن حزم الذي تلا ظهوره وفاة الحصري ببضع سنوات (417هـ/ 1026 ـ 1027م) لكنّ الأثر اليوناني في كتاب الحصري واضح ويتجلّى في تواتر أسماء المفكّرين اليونان، وفي تصنيف الكتاب في شكل حوار. ويستنتج من ذلك بويحيى إمكانية تأثّر الحصري بمصدر يوناني.

ويمكن اعتبار «المصون» الكتاب الوحيد الباقي من إنشاء الحصري (بينما البقية اختيار وانتخاب من كتّاب آخرين)، ويشير ابن رشيق إلى شروع الحصري في تأليف كتاب في

طبقات الشعراء (وربّما شعراء القيروان بالتحديد)، انقطع عنه ولم ينجزه.

إنّ شخصية الحصري تتألّق في إنتاج تلاميذه كابن رشيق، وابن شرف. وهي شخصية «المعلّم الحاذق بأساليب النظم والنثر المحدثة». ولا توجد مبالغة في اعتباره إحدى دعامتيْ ما يمكن تسميته «بالمدرسة الافريقية» في القرن الخامس الهجري، وقد ارتأى بويحيى في النهشلي الدعامة الثانية.

وقد لا يكون من المبالغة أيضا أن نعتبرَ «زهر الآداب» كتاب أدب بالمعنى «الجاحظي» لا يقلّ قيمة وتأثيرا في عصره عن أمّهات كتب الأدب الأربع التي ذكرها ابن خلدون، واعتبر أنّ على طالب الأدب معرفتها.

المصادر والمراجع

● زهر الآداب وثمر الألباب، بولاق 1293هـ/ 1876م؛ ● زهر الآداب...، بحاشية «العقد الفريد»، القاهرة 1303هـ/ 1885 ـ 1886م؛ ● زهر الآداب...، تح. زكي مبارك، القاهرة 1925م، ط 2، 1929م؛ ● زهر الآداب...، تح. علي محمد البجاوي، القاهرة 1372هـ/ 1953م؛ ● جمع الجواهر في المُلح والنوادر، تح. علي محمد البجاوي، القاهرة 1372هـ/ 1953م؛ ● المصون في سرّ الهوى المكنون، تح. نبوي عبد الواحد شعلان، تونس 1990م؛ ● نور الطرف ونوْر الظرف، مخطوط، الأسكوريال، 392، غوطا (Gotha) 2129؛ ● كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تعريب رمضان عبد التوّاب، القاهرة 1975م، الجزء الخامس، ص 105 ـ 106 (وفيه خلط مع علي الحصري)؛ ● بويحيى، الشاذلي، الحياة الأدبية بافريقية في عهد بني زيري، تعريب محمد العربي عبد الرزّاق، تونس 1999م، الجزء الأوّل، ص 108 ـ 116 (وفيه قائمة وافية بمصادر الترجمة، ص 116 ـ 117)؛ ● بو يحيى، الشاذلي، «Encyclopédie de l'Islam, «al Husari، الطبعة الجديدة، الجزء الثالث، ص 660 ـ 661؛ ● بويحيى، الشاذلي، حول تاريخ وفاة إبراهيم الحصري، في «حوليات الجامعة التونسية»، العدد الأول، 1964 م، ص 9 ـ 18.

د. رياض المرزوقي
جامعة منوبة ـ تونس

الحصري، أبو الحسن عليّ بن عبد الغني

(420هـ/ 1029م - 488هـ/ 1095م)

هو الشّاعر والمقرئ الضّرير عليّ بن عبد الغنيّ الفهريّ المكنّى بأبي الحسن، ولد بالقيروان حوالى 420هـ/ 1029م. تعود نسبته إلى الحصر وهي قرية قرب القيروان نسب إليها أديب إفريقي قيروانيّ آخر هو إبراهيم الحصري صاحب «زهر الآداب» (ت 413هـ/ 1021م)؛ يرجّح بو يحيى [EI2:3/661-62 ؛ الحياة...، 1/ 390] أنّ عليّا كان ابن أخته وليس ابن خالته. لا يعلم شيء كثير عن المرحلة القيروانيّة في حياته رغم أنّ هذه المرحلة تمتدّ على ما يقرب من ثلاثة عقود فهو قد غادر القيروان عام 449هـ/ 1057م أيّام غزو الهلاليّين لها (442 - 454هـ/ 1050 - 1062م).

اشتغل وهو بالقيروان بعلوم القرآن وخصوصا بالقراءات السّبع؛ وقد يكون ألّف أرجوزته الشهيرة في قراءة نافع قبل أن يغادرها. ذاعت شهرة الحصريّ الشّاعر وهو بالقيروان فشهرته هي التي دفعت بعض ملوك الطّوائف كالمعتمد ابن عبّاد (ت 488هـ/ 1095م) شاعر اشبيليّة وملكها (461 - 484هـ/ 1068 - 1091م إلى أن يستقدموه إلى بلاطاتهم عند نكبة القيروان. لكنّ الحصريّ لم يلبّ الدّعوة إلّا بعد مدّة طويلة من خروجه من القيروان قضاها في سبتة.

ويذكر ابن بسّام أنّه دخل الجزيرة «منتصف المائة الخامسة من الهجرة» [الذّخيرة، 4 - 1/ 246]. غير أنّ دخوله الأندلس كان بعد هذا التّاريخ كما أورد ذلك الحميدي [جذوة، 296]. لكنّه كان فيما يبدو قبل التاريخ الذي ذكره بو يحيى (وهو 462هـ/ 1069 - 70م لأنّ قصيدته الدّاليّة في رثاء المعتضد وتهنئة المعتمد [الذّخيرة، 4 - 1/ 273؛ خريدة، 2/ 187] والتي يفترض أن تكون قيلت عام 461هـ، تدلّ على أنّ الرّجل كان قد حلّ بالأندلس.

وحين دخل شبه الجزيرة تنافس على وفادته ملوك الطّوائف فاختار بلاط العبّاديّين بإشبيليّة. إلّا أنّه غادره عام 468هـ/ 1075 - 76م قاصدا ممالك أخرى فحلّ بمالقة ودانية وبلنسيّة والمريّة ومرسيّة. ولكنّه كان برما بمقامه في أرض الأندلس، فقد اقترنت بذكريات مؤلمة في حياته أهمّها فجيعته في ابنه الصّبيّ عبد الغنيّ الذي تشير بعض قصائد «الاقتراح» [351 - 353] إلى أنّه مات بداية عام 475هـ/ 1082م وعمره لا يتجاوز العشر سنين. ومن ذكرياته المؤلمة بالأندلس فرار زوجته الشّابّة أمّ عبد الغنيّ منه (قبل موت ابنها على الأرجح) مع شابّ بربري.

عام 483هـ/ 1090م غادر الحصريّ الأندلس عائدا إلى المغرب فأقام بطنجة حتّى أدركته بها منيّته عام 488هـ/ 1095م. وقد كانت الفترة الطّويلة التي قضّاها بالمغرب قبل دخوله

إلى الأندلس وبعد خروجه منها سببا في أن أطلق عليه بعض المترجمين اسم «المرينيّ» [خريدة، 2/ 186] وهو لقب يستغرب لأنّ ابتداء بني مرين كان عام 610هـ/ 1213م.

اشتغاله لفترة من عمره طويلة بتدريس علوم القرآن وخصوصا بالقيروان والمغرب واشتهاره بها دفع إلى تلقيبه بـ «الأستاذ الأعلى» [المطرب، 13]. وإلى جانب التدريس اشتغل بالمدح وخصوصا مدّة إقامته بالأندلس، فمدح كثيرا من الوجهاء كالمعتمد ابن عبّاد والأمير أبي عبد الرّحمٰن محمّد بن طاهر صاحب مرسيّة والذي فيه قيلت المدحيّة التي طالعها:

يا ليل الصّبّ متى غدُهُ
أقيام السّاعة موْعِدُهُ

وسوف يتبارز الشعراء على اختلاف العصور في معارضتها. ومدح أحمد بن سليمان بن هود المقتدر صاحب دانية والفقيه القاضي بمالقة أبا المطرف الشّعبيّ (ت 497هـ/ 1104م) ومدح كذلك القاضي أبا مروان بن حسّون (ت 505هـ/ 1111م). عاب عليه ابن بسّام في مدحه الكدية وكثرة السّؤال وقال إنّه كان «مشحوذ المدية في أبواب الكدية».

الحصريّ الضّرير شاعر وناثر أكثر نثره ترسّل. أمّا نثره فقد ضاع أكثره ولم يصلنا منه غير نتف اختارها ابن بسّام. وكان اختياره موجّها بموقف سلبيّ من نثره.فقد عاب فيه تكلّف السّجع [الذّخيرة، 4 ـ 2/ 246]. ولعلّ «المنافرات» التي دارت بينه وبين النّحويّ ابن الطّراوة المالقيّ (ت 528هـ/ 1132م) كانت في أيّامه أشهر رسائله الأدبيّة، بيد أنّها لم تصلنا. يبدو الحصريّ في نثره ذا ميل واضح إلى التّوشية اللّفظيّة. لكنّه لم يكن على ذلك شاذّا عن أحوال النّثر في عصره من جهة اقتراب الأسلوب فيه إلى طرائق الشّعر.

أمّا الشّعر فلقد كان متنوّع الأغراض من مدح وهجاء ورثاء وغزل، إضافة إلى شعر تعليميّ كان «الأستاذ الأعلى» يستخدمه في تعليم القراءات خصوصا. لم يصلنا كاملا من هذه النّصوص إلّا مرثيّاته في ولده التي تضمّنها «اقتراح القريح»، وكذلك غزليّاته في ديوانه المعروف بـ «المعشّرات». وقد زهد الحصريّ، تحت وقع نكبته في ابنه، في بقيّة شعره فلم يجمعه.

ديوانه المعروف بالمعشّرات يتألّف من قصائد تضمّ كلّ قصيدة عشرة أبيات نظمت على عدد حروف الهجاء يستهلّ البيت وينتهي بنفس الحرف. وتتفق التّراجم على أنّ الحصريّ كان مؤسّس هذا الضّرب من الشّعر وسار غيره من الشّعراء المغاربة والمشارقة على نهجه. وفي «المعشّرات» غزل ليس فيه من جهة الغرض من تميّز غير لوعة زوج عاشق فرّت منه زوجته.

ويعدّ رثاؤه أقوى نصوصه الشّعريّة لأنّه يصوّر عاطفة أبويّة كلمى لا تخبو نارها من قصيد إلى قصيد. ويمكن اعتبار «الاقتراح» من عيون الشّعر العربيّ لأنّه لم يصلنا من غير الحصريّ نصّ رثائيّ أطول نفسا منه ولا أبلغ صورة وأحرّ عاطفة. ومن رثاء الشّاعر المميّز كذلك بكائيّاته على القيروان المنكوبة بعدوان بني هلال.

ومن جهة أخرى فإنّ اسم الحصري يذكر في

كتب المهتمّين من القدامى بالموشّحات كابن سناء الملك [دار الطّراز، 39] والصّفدي الذي نسب إليه موشّحة [توشيع التوشيح، 151 ـ 154] جعلها ابن الخطيب إلى أبي عبد الله محمد بن رافع رأسه [جيش التّوشيح، 74 ـ 75] وبقطع النّظر عن صحّة نسبة موشّح إليه أو عدمها فإنّ مجرّد ذكره في قائمة الوشّاحين يدلّ على أنّ الحصريّ كان يعرف بهذا الفنّ الذي كان منتشرا على أيّامه في الأندلس.

آثاره

ترك الحصريّ نثرا كثيرا وشعرا أكثر، إلّا أنّ ما وصل من الفنّين كان أقلّ ممّا ضاع. ومؤلّفاته هي:

1 ـ المعشّرات، نشره محمّد المرزوقي والجيلاني بلحاج يحيى بتونس 1974. نسب بروكلمان [Brockelman, G.A.L .I/267)] هذا الكتاب خطأ إلى إبراهيم الحصريّ؛ 2 ـ اقتراح القريح واجتراح الجريح (جمع الحصري)، جمعت أشعار هذه المجموعة بعد خمس سنين من وفاة ابنه عبد الغني. فيه قسمان نثريّ وشعريّ؛ النّثريّ مقدّمات أو «خطب» ثلاث الأولى عاطلة (غير معجمة) في قسم كبير منها، والثّانية معجمة. أمّا الخطبة الثّالثة التي تضمّنها الكتاب فيقول بو يحيى إنّها خطبة في الوعظ والزّهد مستقلّة في أصلها عن المقدّمتين [الحياة، 1/ 394]. والقسم الشّعريّ يضمّ القصائد التي جمعها الشّاعر ويغلب عليها النّفس البكائيّ الحزين لا من فَقْدِ الولد فقط، بل من تنكّر الإنسان ووحشة المكان وتنكّر الزّمان. نشر المرزوقي وبويحيى هذا الدّيوان أوّل مرّة في كتابهما الجامع «أبو الحسن الحصري القيروانيّ» تونس 1963. ثمّ نشراه بعد ذلك في كتاب جمعا فيه بين هذا الديوان والمعشّرات بتونس عام 1974؛ 3 ـ المستحسن من الأشعار، أشعار قالها مادحا المعتمد بن عبّاد جمعها وأهداها للأمير العبّادي وهو أسير بطنجة قبل أن يسيّر إلى أغمات. وهذه القصائد هي التي قال عنها ابن بسّام إنّ الحصري أعاد إنشادها المعتمد واتهمه لأجلها ـ تحاملا ـ بالطمع والكدية. وقد يكون هو الكتاب الذي نسبه إليه ابن قنفذ بعنوان كتاب القصائد؛ 4 ـ قصيدة مطوّلة تضمّ أكثر من مائتي بيت نظمها لغرض تعليميّ في قراءة نافع، مخ. في إحدى المكتبات الخاصّة بتونس [بو يحيى، الحياة، 1/ 392]؛ 5 ـ جمعت بعض أشعاره من بعض كتب الاختيار وضمّنها المرزوقي وبلحاج يحيى كتابيهما أبو الحسن الحصري القيرواني [ص 107 ـ 149].

أمّا ما وصلنا من نثره فقد جمع منه المرزوقي وبلحاج يحيى ما أمكنهما جمعه من كتب الاختيار ولا سيّما الذخيرة وضمّنا ما جمعاه في كتابيهما المذكور أعلاه [ص91 ـ 99].

المصادر والمراجع

● الحميدي، جذوة، ط. القاهرة 1952، 296 ؛ ● ابن بسّام، الذّخيرة، ط. الدار العربية للكتاب، ليبيا/ تونس 1981، ق2، 1/ 66 ـ 67، ق4، 1/ 245 ـ 300؛ ● ابن بشكوال، الصّلة، ط. القاهرة 1955، 2/ 410؛ ● الإصفهاني، العماد، جريدة، ط. الدار التونسية للنّشر، تونس1986، 2/ 186 ـ 187؛ ● المرّاكشي، المعجب، ط. القاهرة

1949، 144 ـ 146؛ ● ابن دحية، المطرب، ط. القاهرة 1954م، 13، 20، 74، 81، 84، 94؛ ● القفطي، إنباه، ط. القاهرة 1950 ـ 1973، 3/ 106؛ ● ابن خلكان، وفيات، ط. السعادة القاهرة 1367هـ، 2/ 273؛ ● ابن الأبار، التكملة، ط القاهرة 1956، 1/ 412؛ ● الصفدي، نكت، ط. مصر 1329هـ، 214؛ ● الغيث، ط. بيروت 1975، 1/ 243، 2/ 317، 333؛ ● الدباغ ابن ناجي، معالم الإيمان، تونس، القاهرة 1968 ـ 1978، 1/ 21، 3/ 250؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، ط. القاهرة 1326هـ، 341 ـ 342؛ ● النيفر، عنوان الأريب، ط. تونس 1351هـ، 55 ـ 56؛ ● ح.ح. عبد الوهاب، في مجلة البدر، تونس 1340هـ، 2/ 166 ـ 175، المنتخب ص84 ـ 86، في مجلة الثريا، تونس نوفمبر 1944م 4 ـ 5؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. بيروت 1992، 4/ 300 ـ 301؛ ● المرزوقي، محمد، وبالحاج يحيى الجيلاني، أبو الحسن الحصري القيرواني، تونس 1963؛ ● علي الحصري، المعشرات واقتراح القريح واجتراح الجريح، ط. الشركة التونسيّة للتوزيع، تونس 1974؛ ● هـ. ر. إدريس، الدّولة الصنهاجيّة، تع. حمادي الساحلي، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992، 2/ 415؛ ● الشاذلي، بو يحيى، في مجلّة حوليّات الجامعة التونسيّة، ع 1، 1964، ص 125 ـ 141؛ ● الحياة الأدبيّة بإفريقيّة في عهد بني زيري، تع. محمد العربي عبد الرزاق، ط. بيت الحكمة، تونس 1999، 1/ 390 ـ 398.

- H. Pérès: Poésie Andalouse en arabe classique, Paris 1953.
- CH.bou Yahya; Encyclopédie de l'islam (n.e) 3/661 - 662.

د. توفيق قريرة
جامعة منوبة ـ تونس

الحصري، ساطع بن محمد

(1298هـ/1880م ـ 1388هـ/1968م)

هو ساطع بن محمد هلال بن السيد مصطفى الحصري، ينتمي إلى أسرة عربية من تجار حلب. كان والده قد نال تعليما إسلاميا تقليديا، وعمل في سلك القضاء. ولد ابنه الثالث مصطفى ساطع سنة 1880 في صنعاء عاصمة ولاية اليمن العثمانية، حيث كان يعمل رئيسا لمحكمة الاستئناف الجنائية. قضى ساطع السنوات الثلاث عشرة الأولى من حياته متنقلا مع والده بين صنعاء وأضنة وأنقرة وطرابلس الغرب وقونية. وبسبب تنقله هذا لم يحظ ساطع بتعليم مدرسي نظامي وإنما تلقى تعلمه في منزل الأسرة باللغات

التركية والفرنسية والعربية. ثم دخل المدرسة الملكية في أسطنبول سنة 1893، حيث قضى فيها سبع سنوات، منها ثلاث في المرحلة الثانوية وأربع في التعليم العالي. وبرّز في الرياضيات والعلوم الطبيعية، وأتقن اللغة الفرنسية.

عُيّنَ ساطع معلما للعلوم الطبيعة في مدرسة ثانوية في ولاية يانيه على الحدود اليونانية ـ الألبانية سنة 1900. وبقي في البلقان ثماني سنوات ألف خلالها أربعة من الكتب المدرسية هي: «المعلومات الزراعية» و«درس الأشياء» و«علم الحيوان» و«علم النبات». وقد اعتمدت هذه الكتب للتعليم في جميع مدارس السلطنة العثمانية، لما تضمنته من دقة علمية، وتبسيط للمعلومات، وأساليب جديدة تتسم بالتشويق والوضوح.

ولشعور ساطع بالعجز عن إصلاح النظام التعليمي السائد آنذاك، تخلى عن مهنة التعليم سنة 1905، وعين في منصب قائمقام في ولاية قوصوه (كوسوفا) المقدونية، حيث اكتشف الفساد الإداري في القضاء الذي تولى إدارته. ولما حاول الإصلاح لم يجد آذانا صاغية من الوالي. ونقل بعد سنة إلى قضاء فلورينه في ولاية المنستير التي كانت موئلا للمتمردين على الدولة العثمانية من اليونان والبلغار. وفي موقعه الجديد تم الاتصال به من قبل لجنة الاتحاد والترقي السرية، فأبدى تعاطفه معها دون أن ينتظم في صفوفها. وبعد الانقلاب العسكري وعودة الدستور سنة 1908، أصدر ساطع جريدة «أنوار العلوم» بالتركية، التي لم تدم طويلا، وعاد إلى مهنة التعليم التي كان يحبها.

تولى ساطع إدارة دار المعلمين في اسطنبول بين سنتي 1909 و1912، فأعاد تنظيمها، واستقدم إليها مدرّسين شبانا أقدر على ممارسة التعليم العصري. وأضاف إلى مناهجها تدريس التربية وعلم النفس. وأنشأ مدرسة نموذجية لتدريب طلابها على طرق التدريس الحديثة. كما استحدث برنامجين في الدار، أولهما لتدريب المدرسين، وثانيهما لتدريب المديرين لدور المعلمين في الولايات العثمانية. وكان لهذا التجديد صداه في الدولة، وارتفعت أصوات الثناء على هذا المربي التقدمي المجدد. وأصدر ساطع «صحيفة التعليم الابتدائي» بالتركية، وترأس تحريرها بين سنتي 1909 ـ 1912. وأثناء ذلك زار أوروبا في رحلتين طويلتين في سنتي 1910 و1911، اطلع خلالهما على النظم التربوية الأوروبية. واستقال من إدارة دار المعلمين سنة 1912 بسبب خلافه مع وزير المعارف. وعمل بعد ذلك في المدرسة الملكية وفي دار الخلافة. وأنشأ مدرسة تمريض خاصة ومؤسسة لتدريب المدرسات في هذه المدرسة. ثم أصدر صحيفة «التربية» ونشر عددا من الكتب والمقالات بالتركية اتسمت بالتجديد، والتزمت بإصلاح الدولة العثمانية، وعبرت عن اهتمامه بالعلوم الحديثة وعن إيمانه بالفكر العلمي والنزعة العلمانية.

تأثر ساطع الحصري خلال العهد الدستوري 1908 ـ 1918 بأفكار صديقه توفيق فكرت (1867 ـ 1915) الشاعر والمربي والداعية العثماني إلى العلمانية والنزعة الفردانية. وعارض الحصري الفكرة القومية التركية، وتمسك بالفكرة العثمانية واستمرار السلطنة

المتعددة القوميات. وفي دراسته لأسباب تخلف العثمانيين، رد الحصري هذا التخلف إلى الرجعية الدينية والمعتقدات الخرافية البعيدتين عن الإسلام الحقيقي، كما رده إلى الافتقار إلى العزيمة والمثابرة والجهد المنهجي الدائب لدى العثمانيين. وقد أجمل آراءه في الإصلاح العثماني في محاضرات خمس ألقاها في «دار الفنون» (جامعة اسطنبول) إبان حروب البلقان، ونشرت سنة 1913 بعنوان «من أجل الوطن».

واصل الحصري عمله التربوي أثناء الحرب العالمية الأولى في اسطنبول. وعلى الرغم من اتصال المثقفين العرب به في العاصمة العثمانية، فقد تجنب الانخراط في العمل العربي العلني والسري. ولما اقترح صديقه عبد الكريم الخليل، أمين سر المؤتمر العربي الذي عقد بباريس سنة 1913، على طلعت باشا أن يتولى ساطع منصب المستشار لوزير المعارف، وهو منصب استحدث لإرضاء العرب، رفض ساطع العرض، تجنبا لارتباطه بالحركة القومية العربية، والتزاما منه بالانتماء العثماني. ولا شك أنه تأثر من الإجراءات الأمنية القاسية التي اتخذها الوالي أحمد جمال باشا في سوريا، أثناء الحرب العالمية الأولى، والتي أسفرت عن شنق بعض أصدقائه العرب ومنهم عبد الكريم الخليل.

ولما انتهت الحرب سنة 1918، عاش الحصري فترة عصيبة من حياته موزعا بين إخوانه العرب في دمشق الذين يدعونه إلى القدوم إليها، وأصدقائه الأتراك الذين يصرون على بقائه في اسطنبول. وأخيرا اختار المجيء إلى دمشق في حزيران يونيو 1919. وفي العاصمة السورية، تجنب الحصري الانضمام إلى الأحزاب والتنظيمات السياسية. وعين أول الأمر، مديرا للمعارف، ثم أصبح وزيرا للمعارف عند إعلان سوريا مملكة مستقلة على رأسها فيصل بن الحسين في 8/ 3/ 1920. وقد حاول ساطع أن يعرِّب التعليم باستعمال اللغة العربية في جميع مدارس المملكة. وتوثقت صلاته بفيصل، وقامت بينهما علاقة مودة واحترام. غير أن المملكة السورية الفتية لم تعمر سوى بضعة أشهر، إذ اجتاحت القوات الفرنسية البلاد وسقطت العاصمة السورية بأيديها في 24/ 7/ 1920. وخرج فيصل من سوريا ولحق به الحصري، واتجها إلى بورسعيد ثم أبحرا إلى روما فنابولي، ومنها توجه الحصري إلى اسطنبول سعيا إلى كسب نصرة الكماليين الأتراك لفيصل على الفرنسيين. وقضى ثلاثة أسابيع في عاصمة السلطنة دون جدوى. وعاد إلى إيطاليا حيث قابل فيصل، ثم غادرها إلى القاهرة، وقرر أن يربط مصيره بفيصل، بعد أن رفض دعوات المنفيين السوريين بالذهاب إلى عمان أو العودة إلى أوروبا للدعاية ضد فرنسا. وتلقى دعوة للقدوم إلى بغداد في تموز/ يوليو 1921، فتوجه إليها ليبدأ مرحلة جديدة من حياته.

ابتعد الحصري عن العمل السياسي في بغداد، وفضّل التفرّغ للتربية والتعليم، وتولّى منصب المدير العام للمعارف، وهو منصب دائم. وجعل نصب عينيه تطوير التعليم في العراق وتحديثه، وتقوية الشعور الوطني والانتماء القومي في نفوس أبنائه، وبث الإيمان بوحدة الأمة العربية. وكان في عمله التربوي مجدّدا

ومبادرا حتى سمي «أبا التربية» في العراق. ولكنه واجه مقاومة شديدة من بعض زعماء الطوائف الدينية والأقليات العرقية في سعيه إلى فرض نظام تعليمي موحد تشرف عليه الدولة، فاستقال من إدارة المعارف سنة 1927. وانتقل إلى دار المعلمين في بغداد حيث درس فيها أربع سنوات (1928 - 1932)، وأصدر «مجلة التربية والتعليم» خلال هذه المدة. وتولى بعد ذلك عمادة كلية الحقوق حتى سنة 1935. وكان عُيِّنَ سنة 1934 مديرا للآثار العامة بالإضافة إلى منصبه السابق، ثم تفرغ لإدارة الآثار بين سنتي 1936 و1941، برهن خلالها على مقدرة فائقة حتى أن عصبة الأمم عينته عضوا في لجنة الخبراء الاستشارية للمكتب الدولي للمتاحف. وقام بجولات خلال هذه المدة إلى اسطنبول والقاهرة ومراكش والجزائر وتونس في مهمات تتصل بالآثار.

ومنذ أن استقل العراق ودخل في عصبة الأمم سنة 1932 ولعقد من الزمن، غدت بغداد موئلا لأحرار العرب ومثقفيهم ومنارة للفكر القومي العربي. ولا عجب أن ينغمس الحصري في العمل القومي خلال هذه المدة، فواصل إلقاء المحاضرات العامة ونشر المقالات الصحفية وإلقاء الأحاديث الإذاعية دون انقطاع، حتى ذاع صيته مدافعا عن العروبة في مختلف أرجاء الوطن العربي.

أيد الحصري الانقلاب العسكري الذي جاء برشيد عالي الكيلاني رئيسا لوزراء العراق في نيسان/ابريل 1941، ولما قُضِي على الانقلاب بعد شهر من قيامه، جرِّد الحصري من جنسيته العراقية، وأبعد إلى حلب في سوريا، ومنها انتقل إلى بيروت حيث أقام فيها ثلاث سنوات. ثم دعته الحكومة السورية سنة 1944 للعمل مستشارا في وزارة المعارف، لإصلاح نظامها التعليمي. قَبِلَ الحصري الدعوة، وقدم ستة عشر تقريرا عن حالة التعليم في سوريا تضمنت اقتراحات لإصلاحها. ومن اقتراحاته تعريب التعليم في سوريا تعريبا كاملا. وكأي عمل إصلاحي لا بد أن تتضرّر منه فئات معينة، لذلك قامت مظاهرة في دمشق في تشرين الثاني/نوفمبر 1946، تندد بإصلاحات الحصري التربوية، فما كان منه إلا أن استقال من عمله، وإن كانت الحكومة السورية قد التزمت بالإصلاحات التي اقترحها.

رحل الحصري إلى القاهرة حيث أقام فيها سنة 1947، وعمل مستشارا لدى اللجنة الثقافية في جامعة الدول العربية، وحاضر في جامعة القاهرة عن القومية العربية والتربية. وعين أول مدير لمعهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية في القاهرة سنة 1953، وبقي في منصبه هذا حتى سنة 1957. وانقطع بعد ذلك للتأليف والكتابة حتى وفاته سنة 1968.

تأثر الحصري بالمفكرين الأوروبيين في القرن التاسع عشر من خلال إلمامه باللغة الفرنسية واستلهم أفكاره القومية من المفكرين القوميين الرومنسيين الألمان أمثال: آرندت Arndt وهردر Herder وهيغل Hegel وفخته Fichte الذين أعطوا اللغة والتاريخ والتربية القومية المقام الأول في تكوين الأمة. واستلهم أفكاره في التربية والتعليم والإصلاح الاجتماعي من المفكرين الليبراليين الفرنسيين أمثال: غوييه

A. Goudier، وبيرييه Perrier، ولوتورنو Ch. J. M. Letourneau، وأوغست كونت A. Comte، ودومولان Demolins، وأرنست رينان E. Renan، ودوركهايم E. Durkheim، والمربي السويسري بستالوزي J. H. Pestalozzi، والمفكر البريطاني هربرت سبنسر H. Spencer.

رأى الحصري أن الأمة كيان ثقافي، وكائن روحي حي، قبل أن تكون كيانا سياسيا. واستشهد في مؤلفاته بأمثلة من التاريخ لتأييد ما ذهب إليه من آراء. ويعد من أعظم واضعي العقيدة القومية العربية. وقد ميز، منذ البداية، بين الوطنية والقومية، فالوطنية، في نظره، حب الوطن والارتباط به، والقومية حب الأمة والشعور بالانتماء إليها. والأمة، في رأيه، جماعة من البشر تربطها اللغة المشتركة والتاريخ المشترك. والعروبة، تعني لديه، رمزا وجدانيا وتجسيدا للقومية العربية والإيمان بالوحدة العربية. وقد أكد الحصري أن للوحدة العربية عدوّين هما الاستعمار والإقليمية. ويعزو هزيمة العرب في فلسطين سنة 1948 إلى التجزئة السياسية لوطنهم، ولهذا ينبغي أن تكون هذه الهزيمة حافزا للعرب على إعادة النظر في أحوالهم ومعينا لهم على إدراك أن الوحدة واجب مقدس. ودافع الحصري عن عروبة مصر وعن دورها القيادي في النهضة القومية العربية. وأفرد للتاريخ مكانة مهمة باعتباره أداة أساسية للقومية ومسوغا للإيمان بالوحدة العربية. ولذا اعتبر الدراسات التاريخية قوة دافعة لنشر الإيمان بالأمة العربية وبوحدتها. ودعا الحصري إلى قومية علمانية، واعتبر الإسلام حافزا للنضال من أجل الوحدة العربية ومقوما للأخلاق والسلوك. وهو في دعوته إلى وحدة العرب يقرنها بفكرتي التجديد والتقدم اللتين تفضيان إلى الصحوة القومية. ويرى أن ما يحتاج إليه العربي، قبل كل شيء، التربية الاجتماعية التي تقوي وتنمي في نفسه روح التضامن والطاعة والتضحية.

آثاره

بلغت الكتب المنشورة التي ألفها الحصري أو شارك في تأليفها باللغة التركية أحد عشر كتابا. أما مؤلفاته المنشورة بالعربية فقد بلغت سبعة وعشرين كتابا، وشارك في تأليف كتاب «رسالة في الاتحاد» مع أكرم زعيتر وكامل مروة، صدر عن دار الحياة، بيروت، سنة 1954. وقد قام مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت بإعادة نشر معظم مؤلفاته، ضمن «سلسلة التراث القومي» في عامي 1984 و1985. وفي ما يلي قائمة في كتبه العربية:

1 ـ نقد تقرير لجنة مونرو، بغداد مطبعة النجاح 1932؛ 2 ـ الإحصاء، بغداد، مطبعة المعارف، 1939؛ 3 ـ آراء وأحاديث في التربية والتعليم، القاهرة، مطبعة الرسالة، 1944؛ 4 ـ تقارير عن حالة المعارف في سورية واقتراحات لإصلاحها، دمشق، دار الهلال، 1944؛ 5 ـ آراء وأحاديث في الوطنية والقومية، بيروت، دار العلم للملايين، 1944، 1961؛ 6 ـ يوم ميسلون، صفحة من تاريخ العرب الحديث، بيروت، دار الاتحاد، 1947، 1964؛ 7 ـ دروس في أصول التدريس بيروت، دار الكشاف 1948؛ 8 ـ صفحات من الماضي القريب، بيروت، دار العلم للملايين، 1948؛ 9 ـ آراء

وأحاديث في العلم والأخلاق والثقافة، القاهرة، مطبعة الاعتماد، 1951؛ 10 ـ آراء وأحاديث في القومية العربية، دار العلم للملايين، 1951، 1964؛ 11 ـ آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع، بيروت، دار العلم للملايين، 1951، 1960؛ 12 ـ العروبة بين دعاتها ومعارضيها، بيروت، دار العلم للملايين، 1951، 1961؛ 13 ـ محاضرة في نشوء الفكرة القومية، القاهرة مطبعة الرسالة، 1951؛ 14 ـ المحاضرة الافتتاحية، القاهرة، معهد الدراسات العربية العالية، 1954؛ 15 ـ العروبة أولاً، بيروت، دار العلم للملايين، 1955، 1965؛ 16 ـ البلاد العربية والدولة العثمانية، بيروت، دار العلم للملايين، 1957، 1960؛ 17 ـ دفاع عن العروبة، بيروت، دار العلم للملايين، 1956؛ 18 ـ آراء وأحاديث في اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية، بيروت، دار الطليعة، 1958، 1966؛ 19 ـ حول الوحدة الثقافية العربية، بيروت، دار العلم للملايين، 1959؛ 20 ـ ما هي القومية، بيروت، دار العلم للملايين، 1959، 1963؛ 21 ـ حول القومية العربية، بيروت، دار العلم للملايين، 1961؛ 22 ـ دراسات عن مقدمة ابن خلدون، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1961؛ 23 ـ ثقافتنا في جامعة الدول العربية، بيروت، دار العلم للملايين 1962؛ 24 ـ أحاديث في التربية والاجتماع، بيروت، دار العلم للملايين، 1962؛ 25 ـ الاقليمية: جذورها وبذورها، بيروت، دار العلم للملايين، 1963، 1964؛ 26 ـ أبحاث مختارة في القومية العربية، القاهرة، دار المعارف، 1964؛ 27 ـ مذكراتي في العراق، 1921 ـ 1941، بيروت، دار الطليعة 1967 ـ 1968.

المصادر والمراجع

● برج، محمد عبد الرحمٰن، ساطع الحصري، القاهرة، دار الكتاب العربي 1969؛ ● الخطيب، عدنان، فقيد العروبة الأستاذ ساطع الحصري، مجلة مجمع اللغة العربية في دمشق، السنة 44، العدد 3، 1969، ص 447 ـ 463؛ ● فؤاد صروف ونبيه أمين فارس، الفكر العربي في مائة سنة، بيروت، الجامعة الأمريكية 1967؛ ● كليفلاند، وليامد، ساطع الحصري، من الفكرة العثمانية إلى العروبة، تعريب فيكتور سحاب، بيروت، دار الوحدة 1983؛ ● مرقص، إلياس، نقد الفكر القومي، ساطع الحصري، بيروت، دار الطليعة 1966.

د. علي محافظة
الجامعة الأردنية

الحصكفي، علاء الدين محمد بن علي الدمشقي

(1025هـ/1616م - 1088هـ/1677م)

علاء الدين محمد بن علي بن محمد الحصني الأصل، الدمشقي الحنفي المعروف بالحصكفي، مفتي الحنفية في دمشق وصاحب التصانيف الفائقة في الفقه والأصول، والحصكفي بفتح الحاء وقيل بكسر الحاء وسكون الصاد المهملتين وفتح الكاف وفي آخره فاء وياء نسبة إلى «حصن كيفا» قلعة حصينة شاهقة في ديار بكر بين جزيرة ابن عمر وميافرقين على نهر دجلة، وهي نسبة على غير قياس، فنحتوا من المركب الإضافي «حصن كيفا» كلمة ونسبوا إليها كما فعلوا في «عبد الدار» فقالوا عبدري، وفي «عبد شمس» فقالوا عبشمي [مصطفى محمود، إعجام الأعلام، ص98]، وهي اليوم بلدة صغيرة لا يزيد عدد سكانها على ألف شخص، يكتب اسمها حسنكيف محرّفا وتعرف باسم شرناخ [الزركلي، الأعلام، 6/ 294].

ولد بدمشق سنة خمس وعشرين وألف للهجرة بدمشق، وقرأ أوّلا على أبيه علي بن محمد الحصني، وعلى الشيخ محمد المحاسني خطيب دمشق ولازمه كثيرا وانتفع به، وبلغت محبّته له إلى أن صيّره مُعيد درسه في «صحيح البخاري» وأجازه إجازة عامة سنة اثنتين وستين وألف للهجرة. ثم ارتحل إلى الرملة فأخذ بها الفقه عن شيخ الحنفية خير الدين الرملي ثم دخل القدس وأخذ بها عن الفخر ابن زكريا المقدسي الحنفي، وحج في سنة سبع وستين وأخذ بالمدينة عن الصفي القشاشي وكتب له إجازة مؤرّخة بعاشر المحرم سنة ثمان وستين، وله مشايخ كثيرون غير هؤلاء. واشتغل عليه خلق كثير وأخذوا عنه وانتفعوا به أجلّهم الشيخ إسماعيل بن علي المدرّس فقيه الشام في عصره، والشيخ درويش الحلواني، والشيخ إسماعيل بن عبد الباقي الكاتب، والشيخ عمر الوزان وغيرهم، وكان المحبي صاحب «خلاصة الأثر» أحد الذين انتفعوا بعلمه، فقد حضره وهو يقري «تنوير الأبصار» في داره و«تفسير البخاري» في المدرسة التقوية، وفي الجامع الأموي [خلاصة الأثر، 4/ 63].

كان عالما فقيها نحويا، كثير الحفظ والمرويات، طلق اللسان، فصيح العبارة، إلا أنّ علمه أكثر من عقله، وقد أقرّ له شيوخه بالعلم والفقه، قال فيه شيخه خير الدين الرملي:

فيا مَنْ له شكٌّ فدونك فاسألِ
تَجِدْ جبلًا في العلم غير مخلخلِ
يباري فحولَ الفقه فيما يرونه
ويبرز للميدان غيرَ مزلزلِ
يقشّر عن لبّ العلوم قشورَه
ويأتي بما يختارُه من مُفصَّلِ

ويَقْوَى على الترجيحِ فيه بثاقبٍ
من الفهم والإدراك غير محوَّلِ
وفكْرٌ إذا ما حاول الصخر فَلَّه
وإن رمتَ حلَّ الصعبِ في الحال ينجلي
وما قلتُ هذا القول إلا بُعيدما
سبرتُ خباياه بأفحم مقولِ

[ابن عابدين، حاشية رد المحتار على الدر المختار، 1/ 11].

كان في أوّل عمره فقير الحال جدا، فسافر إلى الروم ونهض به حظه لإقبال الوزير الفاضل عليه، فولي المدرسة الجقمقية ثم فرغ عنها وطلب إفتاء الشام فناله، وقدم دمشق بحشمة باهرة واستمرّ مفتيا خمس سنين، مات بدمشق عن ثلاث وستين سنة ودفن بمقبرة باب الصغير وقد رثاه الشيخ محمد بن علي المكتبي بقصيدة منها هاتين البيتين:

ونوحا وابكيا مولًى جليلا
إمامَ العصر في كلِّ العلومِ
علاء الدين حلّال القضايا
وحيدَ الدهر ذا الرأي السليمِ

[المحبي، خلاصة الأثر، 4/ 65]

■ آثاره

1 ـ إفاضة الأنوار على أصول المنار، وهو شرح على المنار للنسفي، ابتدأ في تأليفه أوائل شهر ذي القعدة سنة 1054هـ وفرغ منه بجامع بني أمية بدمشق أواسط شهر ذي الحجة في السنة المذكورة، ولابن عابدين حاشية على هذا الشرح ويسمّى نسمات الأسحار؛ 2 ـ الدر المنتقى، شرح ملتقى الأبحر لإبراهيم بن محمد الحلبي (ت 956هـ) والملتقى كتاب في فروع الحنفية، جعله صاحبه مشتملا على مسائل القدوري (ت 428هـ) والمختار لأبي الفضل الموصلي (ت 683هـ) والكنز للنسفي (ت 710هـ) والوقاية لصدر الشريعة الأوّل عبيد الله المحبوبي (ت 673هـ) بعبارة سهلة وأضاف إليه بعض ما يحتاج إليه من مسائل المجمع (مجمع البحرين) لابن الساعاتي البغدادي الحنفي (ت 694هـ) ونبذة من الهداية للمرغيناني (ت 593هـ) وقدم من أقاويلهم ما هو الأرجح وأخر غيره، واجتهد في التنبيه على الأصحّ والأقوى وعدم ترك شيء من مسائل الكتب الأربعة. ولهذا بلغ صيته في الآفاق ووقع على قبوله بين الحنفية الاتفاق، وكان الحصكفي قد شرع في شرحه للملتقى سنة نيف وخمسين وانتهى منه سنة ثمانين وألف للهجرة، وقد طبع هذا الكتاب بهامش مجمع الأنهر لشيخي زادة في شرح ملتقى الأبحر أيضًا؛ 3 ـ الدر المختار، شرح تنوير الأبصار لشمس الدين محمد بن عبد الله التمرتاشي الغزي (ت 1004هـ)، ويعتبر الدر المختار للحصكفي من الشروح المختصرة في مذهب الإمام أبي حنيفة وقد تميّز بالفروع المحرّرة والمسائل المصححة، واشتمل منها على قدر لم تحوه الكتب الكبيرة. وقد اختصره المؤلّف من شرحه الكبير المسمى خزائن الأسرار وبدائع الأفكار في شرح تنوير الأبصار وجامع البحار، وقد أوضح الشارح منهجه في نسبة الأقوال بأنه إذا كان العزو إلى كتاب الغرر وشرحه الدرر لملا خسرو بأنه لا يصرح بذلك رغبة في الاختصار وما زاد وعز نقله نسبه لقائله [عبد الوهاب إبراهيم، كتابة

البحث العلمي، ص344]. كان قد فرغ من تأليفه سنة 1071هـ، والكتاب مطبوع في مجلّدات وعليه حاشية ابن عابدين المعروفة بـ «رد المحتار». أما خزائن الأسرار الذي وضعه الحصكفي شرحا على تنوير الأبصار أيضًا فقد قدره بعشرة مجلّدات كبار ولكنه لم يبيض منه إلا الجزء الأول وصل فيه إلى باب الوتر والنوافل، ثم صرف عنان عنايته نحو الاختصار الذي سماه بـ «الدر المختار»؛ 4 ـ مختصر الفتاوى الصوفية في طريق البهائية، والفتاوى الصوفية المسمى بالعمدة والمعتقد لمحمد بن أيوب الماجوي (ت 666هـ) كتاب جعلت أبوابه ثلاثة وستين وفصوله مائة وخمسة وستين، الباب الأول منه في اعتبار الكتب المصنّفة... والسابع في قراءة الفاتحة خلف الإمام... والحادي عشر في الإسفار في الفجر... والباب السابع والثلاثون: فيما يتعلّق بالجمعة... والباب الرابع والأربعون في مسائل العيدين.. والباب الأخير في الشكر.

وكان الحصكفي، حال مطالعته لهذه الفتاوى، قد انتخب بعض فوائد منها تمثل مجموعة من الروايات والأخبار في المسائل التي يفعلها أهل التصوّف، قد نبه البركلي الرومي الحنفي (ت 981هـ) على تهافت هذه الفتاوى فقال: ليست من الكتب المعتبرة، فلا يجوز العمل بما فيها إلا إذا علم موافقته للأصول [الزركلي، الأعلام، 6/ 47]؛ 5 ـ شرح القطر، في النحو؛ 6 ـ تعليقة على صحيح البخاري، تبلغ نحو ثلاثين كراسا؛ 7 ـ تعليقة على تفسير البيضاوي، المعروف بأنوار التنزيل من سورة البقرة إلى سورة الإسراء؛ 8 ـ حواشٍ على الدرر لملا خسرو، وغير ذلك من الرسائل والتحريرات التي تدل على حفظه وعلمه.

■ المصادر والمراجع

● المحبي، محمد أمين، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، دار صادر، بيروت؛ ● ابن عابدين، محمد أمين، رد المحتار على الدر المختار، شرح تنوير الأبصار، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، مصر 1323هـ، ط3؛ ● الحافظ، محمد مطيع، فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية، الفقه الحنفي، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دار أبي بكر، دمشق 1401هـ/ 1981م؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان؛ ● عبد الوهاب إبراهيم، أبو سليمان، كتابة البحث العلمي، دار الشروق، جدة 1400هـ/ 1980م، ط1.

د. هشام قريسة

المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية ـ تونس

الحصني، تقي الدين أبو بكر بن محمد

(752هـ/1351م - 829هـ/1426م)

أبو بكر بن محمد بن عبد المؤمن بن حَرِيز ابن مُعَلّى الحصني، الدمشقي، الشافعي، المعروف بالحصني، المكنى بتقي الدين [معجم المؤلّفين، 3/ 74؛ شذرات الذهب، 7/ 188؛ الأعلام، 2/ 69].

كان فقيها، محدّثا، عالما بفن القواعد والضوابط الفقهية، مشاركا في بعض العلوم. وكان شافعي المذهب الفقهي، أشعري المذهب العقدي. كما كان له تعصّب للأشعرية، شديد العداء للحنابلة. كما كان صوفيًا، بل كان من أئمّة الصوفية [الشعلان، كتاب القواعد للحصني، 1/ 101 - 102].

ولد في الحصن، من قرى حوران، سنة 752 هجرية. [معجم المؤلّفين، 3/ 74؛ البدر الطالع، 1/ 109؛ شذرات الذهب، 7/ 188].

وإليه تنسب «زاوية الحصني» بناها رباطا في محلّة الشاغور بدمشق [الزركلي، الأعلام، 2/ 69].

قدم الحصني إلى دمشق، وسكن المدرسة البادرائية، وبدأ في طلب العلم، فأخذ العلم عن جماعة من أهل عصره وبرع، وقصده الطلبة للتعلّم والمدارسة [البدر الطالع، 1/ 109].

فقد تفقّه بالشيخ شرف الدين بن الشريسي، والشيخ شهاب الدين الزهري، ونجم الدين ابن الجابي، والشيخ شمس الدين الصرخدي، والشيخ شرف الدين الغزي، وابن غنوم [الشعلان، كتاب القواعد للحصني، 1/ 96 - 98].

وأخذ عن الصدر الياسوفي [شذرات الذهب، 7/ 188].

كان له تلاميذ، منهم: ابن أخيه محمد بن حسن المعروف بشمس الدين، وعمر بن محمد المعروف بالعلم، ومحمد بن أحمد الغزي [دراسة وتحقيق كتاب القواعد للحصني، 1/ 99 - 100].

كان يميل إلى التقشّف، ويبالغ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وللناس فيه اعتقاد زائد [شذارت، 7/ 188].

قال القاضي تقي الدين الأسدي: كان خفيف الروح منبسطًا له نوادر، ويخرج إلى التنزّه، ويبعث الطلبة على ذلك مع الدين المتين، والتحري في أقواله وأفعاله. وتزوّج عدّة نساء ثم انقطع وتقشّف. وانجمع كل ذلك قبل القرن، ثم ازداد بعد الفتنة تقشفه وانجماعه، وكثر مع ذلك أتباعه حتّى امتنع عن مكالمة الناس، ويطلق لسانه في القضاة وأصحاب الولايات. وله في الزهد والتقلّل من الدنيا حكايات تضاهي ما نقل عن الأقدمين. وكان يتعصّب للأشاعرة، وأصيب في سمعه وبصره

فضعف، وشرع في عمارة رباط داخل باب الصغير، فساعده الناس بأموالهم وأنفسهم، ثم شرع في عمارة خان السبيل، ففرغ في مدة قريبة.

كان قد كتب بخطّه كثيراً في الفقه والزهد [شذرات الذهب، 7/ 188 ـ 189].

كانت له عدة رحلات، فقد رحل أولا إلى دمشق، وبها كان معظم إقامته. كما رحل إلى القدس، وسكن فيها مدة، وألف فيها بعض مؤلفاته. كما رحل إلى مدينة حلب [الشعلان، م. س، 1/ 91].

توفي بدمشق مساء الثلاثاء، ليلة الأربعاء رابع عشر جمادى الآخرة سنة 829 للهجرة الشريفة [معجم المؤلفين، 3/ 74؛ البدر الطالع، 1/ 109].

وكانت وفاته بخلوته بجامع المزاز بالشاغور. وقد دفن يوم الأربعاء بعد طلوع الشمس بالقبيبات في أطراف العمارة على جادة الطريق عند والدته، وحضر جنازته عالم لا يحصيهم إلّا الله مع بعد المسافة وعدم علم أكثر الناس بوفاته، وازدحموا على حمله للتبرّك به، وختم عند قبره ختمات كثيرة، وصلى عليه أمم ممّن فاتته الصلاة على قبره، ورؤيت له منامات صالحة في حياته وبعد موته [شذرات الذهب، 7/ 188؛ كتاب القواعد للحصني، 1/ 95].

آثاره

للحصني آثار عديدة، في الفقه، والقواعد، والتفسير، والحديث، والعقيدة، والتصوّف.

أ ـ في الفقه:

1 ـ شرح التنبيه، ويقع في خمسة مجلّدات، وقد شرح به كتاب التنبيه للشيخ أبي إسحاق الشيرازي، ويوجد للأجزاء الأوّل، والثاني، والرابع، والخامس منه نسخ مخطوطة في مكتبة أيا صوفيا التابعة للمكتبة السليمانية، أما الجزء الرابع فيوجد نسخة منه في مكتبة طلعت، التابعة لدار الكتب المصرية [الشعلان، 1/ 105 ـ 106]؛ 2 ـ كفاية المحتاج في حلّ المنهاج، ويقع في خمسة مجلّدات، وهو شرح لمنهاج الطالبين للنووي، ويوجد للجزء الخامس منه نسخة في مكتبة تشستربتي بايرلندا، ويوجد لهذه النسخة صورة على فيلم في قسم المخطوطات بجامعة الإمام [الشعلان، 1/ 106]؛ 3 ـ كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار، وقد طبع أكثر من مرة، ومن أجود طبعاته الطبعة التي اعتنى بها عبد الله بن إبراهيم الأنصاري، ونشرتها المكتبة العصرية، وتقع في مجلّدين، وكتاب «غاية الاختصار» هو مختصر في الفقه الشافعي ألفه أحمد بن الحسين، بن أحمد الأصفهاني (ت 593هـ) [الشعلان، 1/ 106 ـ 107]؛ 4 ـ شرح النهاية للنووي، ويوجد لهذا الكتاب نسخة في المكتبة السليمانية [الشعلان، 1/ 10]؛ 5 ـ تلخيص المهمات لجمال الدين الإسنوي (ت 772هـ)، ويقع في مجلّدين [الشعلان، 1/ 108]؛ 6 ـ شرح الهداية، ويقع في مجلّد؛ 7 ـ آداب الأكل والشرب، وتوجد له نسخة في مكتبة برلين [الشعلان، 1/ 108]؛ 8 ـ جواب في الرد على ابن تيمية في مسألة شد الرحال للزيارة، ويوجد بالمكتبة السليمانية؛ 9 ـ الفوائد في

الفقه على مذهب الإمام الشافعي، وتوجد نسخة منه في مكتبة جامعة هايدلبرج.

ب ـ في القواعد الفقهية:

10 ـ كتاب القواعد، وقد قام بدراسته وتحقيق الجزءين الأوّل والثاني الدكتور عبد الرحمن بنعبد الله الشعلان، أما الجزءان الثالث والرابع فقد حقَّقها الدكتور جبريل بن محمد بن حسن البصيلي.

ج ـ في العقيدة:

11 ـ شرح الأسماء الحسنى، في مجلّد؛ 12 ـ دفع شبه من شبّه وتمرّد ونسب ذلك إلى الإمام أحمد، وقد طبع هذا الكتاب بمطبعة دار إحياء الكتب العربية عام 1350هـ، وموضوعه في الجملة هو الرد على ابن تيمية، حيث يرى الحصني أن ابن تيمية مشبه ومجسم، وهو بهذا يخالف الإمام أحمد [الشعلان، 1/ 103].

د ـ في التفسير:

13 ـ تفسير القرآن إلى سورة الأنعام، آيات متفرّقة، مجلّد.

هـ ـ في الحديث:

14 ـ شرح صحيح مسلم، في ثلاثة مجلّدات؛ 15 ـ تخريج أحاديث الإحياء، ويقع في مجلّد؛ 16 ـ شرح الأربعين النووية، ويقع في مجلّد.

و ـ في التصوّف والزهد والوعظ:

17 ـ تنبيه السالك على مظان المهالك، ويقع في ستة مجلّدات [حاجي خليفة، كشف الظنون، 1/ 487؛ الزركلي، الأعلام، 2/ 69؛ الشعلان، 1/ 110]؛ 18 ـ تأديب القوم، ويقع في مجلّد؛ 19 ـ قمع النفوس، ورقية المأيوس، ويقع في مجلّد، وقد تكلّم فيه عن معجزات النبي وصفاته، وعن الخلفاء... [الشعلان، 1/ 111]؛ 20 ـ سير السالك في أسنى المسالك، ويوجد بالمكتبة السليمانية؛ 21 ـ النساء العابدات والأمور المفسدات، أو سير نساء السلف العابدات، أو سير الصالحات المؤمنات الخيّرات، ويقع في مجلّد؛ 22 ـ الأسباب المهلكات والإشارات الواضحات في مناقب المؤمنين والمؤمنات وما لهم من الكرامات؛ 23 ـ أهوال القبور، ويقع في مجلّد؛ 24 ـ أهوال القيامة؛ 25 ـ المولد [الشعلان، 1/ 105 ـ 111؛ كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 3/ 74؛ الشوكاني، محمد بنعلي، البدر الطالع، 1/ 109؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 7/ 188؛ الزركلي، الأعلام، 2/ 69].

المصادر والمراجع

● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت؛ ● الزركلي، خيرالدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة عاشرة، سبتمبر 1992؛ ● الشعلان، عبد الرحمٰن بن عبد الله، دراسة وتحقيق كتاب القواعد لأبي بكر الحصني (ت 829هـ)، مكتبة الرشد، الرياض، ط 1، 1418هـ/ 1997م؛ ● الشوكاني،

البدر الطالع بمحاسن مَن بعد القرن السابع، دار المعرفة، بيروت، لبنان، د.ت؛ ● ابن العماد، الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة بيروت، لبنان؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

د. نور الدين مختار الخادمي

جامعة الزيتونة ـ تونس

الحصني، محمد أديب آل تقي الدين

(1292هـ/1874م ـ 1358هـ/1940م)

محمد أديب بن محمد بن عبد القادر آل تقي الدين الحصني، من الفاطميين آل الرضا بدمشق بنو تقي الدين، [منتخبات التواريخ لدمشق، 2/ 1817]، وأصل أسلافه من بلدة الحصن من قضاء عجلون بالبلقاء، انتقلت الأسرة إلى دمشق في القرن السادس الهجري واستوطنت بها وأنشأ أحد أجداده الشيخ تقي الدين الحصني (ت 928) الزاوية الحصنية بدمشق [عبد القادر بدران، منادمة الأطلال، ص 301].

مدرس فاضل ومؤرخ، ولد في دمشق وتوفي بها من طبقة الرجال الدين الدمشقيين ذوي النفوذ تعلم في المدرسة الباغوشية ثمّ الريحانيّة، وتابع دراسته في المدرسة الجقمقية الإعداديّة درس بها علوم اللغة العربيّة والتركية ومبادئ الفارسيّة، ومن أساتذته الشيوخ محمد المبارك، ومحمد الحكيم، وأحمد دهمان، وأمين السفرجلاني.

كما لازم بعضا من علماء دمشق في دروسهم في المساجد والمدارس كالشيخ المحدث بدر الدين البياني المغربي، ومحمد الكتاني نزيل دمشق، وعيسى الخالدي الكردي شيخ الطريقة النقشبنديّة. وأجازه عدد من العلماء ذكرهم في ترجمته لنفسه.

تولّى إمامة الجامع الأموي على المذهب الحنفي مع وظيفة مشيخة الحفاظ في جامع السلطان سليمان بدمشق (التكية السليمانيّة) عام 1310هـ ثمّ ولي بإرادة سنية سلطانيّة، نقابة أشراف قضاء دُومًا مع رتبة كبار المدرسين عام 1311هـ، وعين في أواخر عهد السلطان عبد الحميد نقيبا للأشراف في البلاد الشامية. كان ذا نزعة عثمانيّة. زار عاصمة السلطنة عدّة مرّات ومنح أوسمة عثمانيّة متعددة نظرا لخدماته للدولة، كما منح وسام الأسد والشمس (شيرخورشيد) الإيراني، تقديرا لما كتبه ونشره في حق آل بيت النبوة الشهداء الطاهرين المدفونين بدمشق، [منتخبات التواريخ، ص 323].

آثاره

لا نعرف من آثاره ومؤلفاته سوى كتابه الضخم المؤلف من ثلاثة أجزاء والذي طبع في دمشق 1927، 1928، 1934 والذي سماه «غاية المرام في منتخبات تواريخ دمشق الشام»، المعروف بمنتخبات التواريخ لدمشق في نحو 1330 صفحة. والذي بدأ بتأليفه عام 1918م، وأراد أن يؤرّخ فيه لمدينته دمشق الشام متتبعا تاريخها منذ العصور القديمة حتّى مطلع القرن العشرين، وهو مجموعة من النقول مع ملاحظات شخصيّة واستطرادات. وتكمن أهميته في الفصول التي يتحدث فيها عن حالة دمشق في أواخر العهد العثماني وفي فترة الحكم العربي الاستقلالي الأول (1918 ـ 1920م)، وفي فترة الانتداب الفرنسي، كما تكمن في ترجماته لأعلام دمشق وأسرها مما يجعل منه أصلا هاما من أصول التاريخ في هذا الموضوع.

المصادر والمراجع

● الزركلي، الأعلام، 6/ 252؛ ● كحّالة، معجم المؤلّفين، 9/ 36؛ ● عياش، معجم المؤلّفين السوريين في القرن العشرين، ص 79؛ ● أحمد قدامة، معالم وأعلام.

زهير محمد ناجي
باحث ـ دمشق ـ سوريا

الحصيري، محمود بن أحمد بن عبد السيّد

(546هـ/ 1151م ـ 636هـ/ 1238م)

هو الإمام محمود بن أحمد بن عبد السيّد البُخاري، الملقّب بجمال الدين، المكنى بأبي المحامد، الشهير بالحصيري [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 5/ 182؛ الندوي، القواعد، ص42؛ الزركلي، الأعلام، 7/ 161]، وُلد ببخارى سنة ست وأربعين وخمسمائة للهجرة، وتوفي يوم الأحد ثامن صفر بدمشق، ودفن بمقابر الصوفية. توفي وله تسعون سنة، وازدحم الخلق على نعشه، وحمله الفقهاء على الرؤوس، وكان يوما مشهودا [ابن كثير، البداية والنهاية، 17/ 244؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 5/ 182؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 16/ 352]. اشتغل بالفقه والحديث، كان شيخ الحنفية في زمانه، روى صحيح مسلم عن أصحاب الفُراوي المتوفى سنة 608هـ، كان من العلماء العاملين، كثير الصدقة، غزير الدمعة، عاقلا نزهًا عفيفًا [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 5/ 182؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 17/ 243]. أصله من قرية يقال لها: حَصيرُ، من محلّةٍ أو معاملة ببخارى، يُنسج بها الحصيرُ.

تعلّم وتفقه وسمع الحديث الكثير ببخارى التي كانت مأوى العلماء ومجمع الفقهاء ومعدن الفضلاء، ومنشأ علوم النظر، ومركز الفقه الحنفي. ويُذكر أن معلومات بداية تلقيه العلم شحيحة وقليلة، إذ لم يبين المؤرخون تفصيلات تلك المرحلة، واكتفوا بذكر ملازمته الطويلة للإمام المشهور والعالم الحنفي المعروف قاضيخان (ت 592هـ).

وطول ملازمته لقاضيخان لا تلغي أو تنقص قيمة تتلمذه عن علماء آخرين قد زخرت بهم مدينة بُخارى العامرة، كالإمام عماد الدين الخابوري الزَّرَنْجَري البُخاري المتوفى سنة 584هـ. [الندوي، القواعد، ص42 ـ 43]. خرج من دمشق إلي نيسابور التي أقام فيها وسمع من محدثيها، ثم وصل إلى حلب واجتمع فيها بالإمام المحدث الفقيه الحنفي أبي هاشم البلخي وسمع منه. وبعد ذلك توجه إلى دمشق التي أقام فيها ونال تقدير الملك المعظم عيسى الأيوبي الذي شجعه وأنزله المنزل اللائق به وبعلمه وفقهه واجتهاده.

وقد تولّى في دمشق رياسة المذهب الحنفي، ووَلِيَ التدريس بالمدرسة «النورية الكبرى» في سنة إحدى عشرةَ وستمائة، ودام تدريسه بها مدة خمس وعشرين سنة. [ابن كثير، البداية والنهاية، 17/ 243 ـ 244؛ الندوي، القواعد، ص51؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 16/ 351؛ الزركلي، الأعلام، 7/ 161].

تلقى الحصيري علم الفقه وعلم الحديث النبوي الشريف من مشايخ وعلماء كثيرين. ففي الفقه تفقه بالعالم الحنفي المشهور قاضيخان المتوفى سنة 592هـ وهو أبو المحاسن فخر الدين حسن بن منصور بن محمود البُخاري الأُوْزَجَنْدي، من أبرز مجتهدي الأحناف، صاحب الفتاوي المسماة بـ «الخانية»، وصاحب «شرح الزيادات»، وغيرهما. له ترجيحات سديدة في الاجتهادات والفتاوي.

وقد كانت صلة الحصيري بقاضيخان صلة قوية جدًا، حيث كان من أبرز تلاميذه، وموضع الثقة عنده، وخليفته في الإفتاء والتدريس. وقد أجازه وأثنى عليه كثيرا. أما في الحديث النبوي الشريف فقد سمع الحصيري الكثير من الأحاديث في نيسابور وحلب وغيرهما. وممن سمع منهم: أبو سعد الصَّفَّار (508 ـ 600هـ)، وهو الإمام المحدث، الفقيه، الأصولي، عبد الله بن أبي حفص عمر بن أحمد النيسابوري الشافعي. قال الذهبي: رأيت سماعه لجميع «سنن الدارقطني» من الصفار في سنة ثمان وتسعين [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 16/ 351 ـ 352؛ الندوي، القواعد، ص43 ـ 49]؛ ومنصور بن عبد المنعم بن عبد الله، أبو الفتح وأبو القاسم الفُراوي المتوفى سنة 608هـ، سمع من أبيه (مسند وقته) ومن جدّه ومن غيرهما. سمع منه الحصيري بنيسابور، وقد رأى الذهبي خطّ الفُراوي له بسماعه منه صحيح مسلم سنة 603هـ؛ وافتخار الدين الهاشمي أبو هاشم عبد المطلب بن الفضل.... المتوفى سنة 616هـ، كبير الحنفية صحيح السماع، عليّ الإسناد، وقورا، ديِّنا، ورعا؛ والطّوسي أبو الحسن المؤيّد بن محمد بن علي... النيسابوري

(524 ـ 617هـ)، انتهى إليه علو الإسناد بنيسابور؛ والمغيثي (من قرية مغيثة بنيسابور) إبراهيم بن علي بن حَمَك أبو الفضل، أو أبو الفضائل، القاضي، سمع منه الحصيري بنيسابور سنة ثمان وتسعين وخمسمائة (موطأ أبي مُصْعَب)؛ وابن الحَظِيْري، الحسن بن الحنفي أبو علي الفارسي، له كتاب «اختلاف الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار»، روى عنه الحصيري [الندوي، القواعد، ص44 ـ 49].

أما تلاميذه في الفقه فهم: الملك المعظم عيسى بن أبي بكر الأيُّوبي (576 ـ 623هـ)، استقل بحكم بلاد الشام بين حِمْص وعَريش مصر بعد وفاة أبيه الملك العادل. أخذ عن الحصيري الفقه ولازمه إلى حين تأهّل للفُتيا؛ وصدر الدين الخِلاطي، مصنف تلخيص الجامع الكبير، ومقصد المُسند (اختصر به مسند الإمام أبي حنيفة) وله تعليق على صحيح مسلم، توفي سنة 652هـ؛ وسبط بن الجوزي (581 ـ 654هـ) يوسف قُزُغْلي ويقال زُغْلي، أبو المظفر؛ والصَّرخدي، محمود بن عابد بن حسين، الصَّرخدي الأصل، الدمشقي الدار، توفي سنة 674هـ؛ وشهاب الدين الرازي، محمود بن عبد القاهر بن أبي بكر، كان فقيها، محدثا، مفسرا، تفقه بدمشق على الحصيري، توفي سنة 680هـ؛ وعبد الدائم بن محمود بن مودود أبو الحسين الموصلي (604 ـ 680هـ)، تفقه بدمشق على الحصيري؛ وعبد الله بن محمود بن مودود مجد الدين الموصلي (599 ـ 683هـ) ـ من إخوة عبد الدائم الموصلي؛ وعبد الله بن عطاء بدر الدين الأذْرِعي المتوفى سنة 696هـ؛ وعبد القادر بن محمد بن أبي الكرم العُقَيلي المتوفى سنة 696هـ؛ وإسماعيل بن عثمان أبو الفداء المعروف بابن المُعَلِّم، آخر من تفقه على الحصيري، توفي سنة 714هـ؛ ومحمد بن يوسف بن محمد أبو عبد الله الإشبيلي زكيّ الدين البِرْزالي المتوفى سنة 636هـ؛ وعبد الرحمن مجد الدين بن العديم المتوفى سنة 677هـ؛ وأحمد بن عبد الله المسلم المجد بن الحلوانية المتوفى سنة 666هـ؛ ومحمد بن علي بن محمود أبو حامد ابن الصَّابوني المتوفى سنة 680هـ، من الحفاظ الموثوقين، العارفين برجال الحديث، شيخ دار الحديث النورية بها. [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 16/ 351؛ الندوي، القواعد، ص53 ـ 62؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 17/ 243].

■ آثاره

صنف الحصيري عددًا من الكتب في الفقه الحنفي، وفي الفقه المقارن بين الشافعية والحنفية، وفي الحديث النبوي الشريف. وقد اعتمد في أسلوبه ـ في أحيان كثيرة ـ على التأصيل والتحقيق والتقعيد والتعليل والتدليل، بالإضافة إلى تسهيل العبارة وتوضيح المراد وملازمة الإيجاز. وقد اعتنى بالمذهب الحنفي وبأعلامه، ولاسيما أبي حنيفة ومحمد ابن الحسن الشيباني، كما توخّى صفة مراعاة الخلاف الفقهي وإدامة التواضع والأدب والإنصاف مع المخالفين في الفتوى والاجتهاد والرأي. كما كان يشتغل بنسخ الكتب الواسعة الكبيرة، مثل المبسوط، وشرح السير الكبير للشيباني، وغيرهما. ومن أشهر مؤلفاته:

1 ـ الوجيز شرح الجامع الكبير، ويسمّى بالمختصر، وهو أحد شرحيه للجامع الكبير للإمام الشيباني، وهو من الشروح الجامعة المانعة. وقد أوجز فيه العبارة لتسهيل الحفظ، وبالغ في الإيضاح بالنظائر والشواهد، وإيراد الفروق في تصحيح الحسابات، وهو يشبه كتابه التحرير من جهة التأصيل، وهو الطابع الغالب على شروح الجامع الكبير [ابن كثير، البداية والنهاية، 17/ 243؛ الندوي، القواعد، ص 65 ـ 67]؛ 2 ـ التحرير شرح الجامع الكبير، وهو كتاب في الفقه، سبعة مجلدات، وهو مخطوط [الزركلي، الأعلام، 7/ 161؛ كحالة، معجم المؤلفين، م6، 12/ 147، الندوي، القواعد، ص78]. وهو آخر وأوسع شرح، صب فيه المؤلف كل جهده من حيث التحقيق والتأصيل [الندوي، القواعد، ص66]؛ 3 ـ الطريقة الحصيرية في علم الخلاف بين الشافعية والحنفية؛ وتوجد نسخة مخطوطة منه بدار الكتب المصرية برقم 366، أصول الفقه. وموضوعه في إيراد الخلاف بين الشافعية والحنفية، واتسم أسلوبه بذكر قول الشافعية ثم قول الحنفية، وقرن المسألة بالدليل والتعليل أحيانا، مع الانتصار لمذهبه بتواضع وأدب [الندوي، القواعد، ص64؛ الزركلي، الأعلام، 7/ 161]؛ 4 ـ خير مطلوب في العلم المرغوب، في الفقه الحنفي، وهو آخر كتاب للمؤلف، وتوجد نسخة مخطوطة منه بدار الكتب المصرية برقم 164، فقه حنفي. وفي معجم المؤلفين لكحالة أورد عنوانه بزيادة (أل) لعبارة مطلوب (خير المطلوب بالعلم المرغوب) [الندوي، القواعد، ص65؛ الزركلي، الأعلام، 7/ 161؛ كحالة، معجم المؤلفين، م6، 12/ 147]؛ 5 ـ النجم الهادي الساري إلى حلِّ ألفاظ صحيح البخاري، الجزء الأول منه في مكتبة عيدروس الحبشي بالغرفة، بحضرموت [الزركلي، الأعلام، 7/ 161؛ الندوي، القواعد، ص63].

المصادر والمراجع

● الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تح. محب الدين العَمْروي، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1417هـ/ 1997م، 16/ 351 ـ 352؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، سبتمبر 1992، 4/ 161؛ ● ابن العماد، الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، 5/ 182؛ ● ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء، البداية والنهاية، تح. الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، مصر، (1419هـ/ 1998م)، 17/ 243 ـ 244؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، م 6، 12/ 147؛ ● الندوي، علي أحمد، القواعد والضوابط المستخلصة من التحرير للإمام جمال الدين الحصيري (546 ـ 636هـ)، مطبعة المدني، القاهرة، جمهورية مصر العربية، 1411هـ/ 1991م، ص42 ـ 49، 51، 53 ـ 67، 78.

د. نور الدين الخادمي جامعة الزيتونة ـ تونس

الحضراوي، أحمد بن محمد

(1252هـ/1836م ـ 1327هـ/1909م)

هو أحمد بن محمد بن أحمد بن أحمد بن عبيدة بن أحمد بن حسن بن سعد بن مسعود الحضراوي، المكي، الشافعي، الهاشمي. مؤرخ، وفقيه، ومحدث، ومصنف، وشاعر.

وأما سبب تسميته بالحضراوي، فتشير المصادر التراثية أن جده السابع سعد بن مسعود الحضراوي، ينتهي نسبه إلى الشيخ أحمد الرفاعي الحسيني، قدم بلدة المنصورة في مصر في القرن السابع الهجري، ولازم فيها الشيخ أحمد البدوي، وكان معه من مريديه مئة رجل، فجلس معهم شرقي المنصورة، فلما أصبح أهل ذلك البلد قالوا: مئة رجل حضر صحبة رجل مجذوب، فسمي المكان بذلك، وقيل: إن الشيخ أحمد البدوي (ت 1220هـ) قال له: يا سعد اذهب بمن معك وتحضَّر: أي جاور الحضر، واستقِرَّ بهم أولى لك من البداوة، ثم ذكر حوادث تلت ذلك تبيِّن كراماته.

ولد أحمد بن محمد الحضراوي في مدينة الإسكندرية سنة 1352هـ، ولما بلغ السابعة من عمره انتقل به أبوه إلى مكة المكرمة سنة 1259هـ، فنشأ بها وتفقه وتأدب، كما درس علم الحديث الشريف، واعتنى بعلم التاريخ.

طاف أحمد بن محمد الحضراوي البلاد العربية والإسلامية، فزار الديار المصرية وتنقل بين مدنها وقراها، وخالط علماءها، كما زار الشام، ودخل دمشق مرتين، الأولى ما بين سنتي 1382 ـ 1383هـ اجتمع خلالها بشاكر خوجه الأزميرلي، والثانية سنة 1386هـ اجتمع خلالها بالأمير عبد القادر الجزائري، وبالشيخ المؤرخ عبد الرزاق البيطار (1253 ـ 1335هـ).

ورحل أحمد الحضراوي إلى الآستانة واجتمع فيها بالعلماء والأدباء، منهم: المؤرخ أحمد فارس الشدياق (1219 ـ 1304هـ).

ومن العلماء الذين ذكر الحضراوي اجتماعه بهم: الشيخ أحمد الدردير، والشيخ أحمد بن إبراهيم الفوَي الشهير بالنشار (ت 1273هـ)، والأديب أحمد سرور الزواوي الدمنهوري، والشيخ أبو العلا العفيفي الخلفاوي المصري، ومفتي الحنابلة محمد الرفي، والشيخ إبراهيم السقا الشافعي، والشريف حسين باشا ابن أمير مكة المكرمة، والشيخ محمد الجمل، وعبد المجيد الشرنوبي، وغيرهم.

ومن المشايخ الذين أخذ عنهم: الشيخ أحمد

الدهان المكي الحنفي، قرأ عليه الحديث، وحسين باشا ابن أمير مكة المكرمة، والشيخ محمد سعيد بن محمد الخليدي الشهير ببشارة.

أما أسرته فلم تسعفنا المصادر التراثية بشيء من أخبارها ورجالها، إلا أن الحضراوي نفسه أوقفنا على ترجمة جده السابع، واسمه سعد بن مسعود، الذي ذكر سابقاً، كما أن الحضراوي أنجب عدداً من الأولاد منهم المؤرخ محمد سعيد الذي ولد ونشأ بمكة المكرمة، وبها توفي قبل والده سنة 1326هـ، وله من المؤلفات: ألفية في السيرة النبوية، ونزهة المحدثين في بيان اتصال السند إلى المؤلفين، والخطط المكية، وتاريخ جدة، وتاريخ الطائف، وغير ذلك.

توفي أحمد بن محمد الحضراوي في مكة المكرمة سنة 1273هـ، وعمره يناهز 73 سنة.

آثاره

ألف الحضراوي عدداً من المصنفات في التاريخ والحديث والفقه:

1 ـ كتاب تاج تواريخ البشر، من ابتداء الدنيا إلى آخر القرن الثالث عشر؛ 2 ـ كتاب تاريخ الأعيان، وهو مخطوط؛ 3 ـ كتاب فضائل مكة والمدينة؛ 4 ـ كتاب بشرى الموحدين في معرفة أصول الدين؛ 5 ـ كتاب الجواهر المعدة في فضائل جدة، وهو مخطوط؛ 6 ـ كتاب الحصن الأسنى والمورد الأهنى في شرح أسماء الله الحسنى؛ 7 ـ كتاب الدرة الثمينة على مختصر السفينة، وهو حاشية على كتاب «سفينة النجاه فيما يجب على العبد لمولاه»، في الفقه الشافعي؛ 8 ـ كتاب سراج الأئمة في تخريج أحاديث «كشف الغمة عن جميع الأمة»: في ثلاثة مجلدات كبار، وهو مخطوط؛ 9 ـ رسالة اللطائف في تاريخ الطائف، وهو مخطوط؛ 10 ـ كتاب العقد الثمين في فضائل البلد الأمين، طبع في مكة المكرمة سنة (1314هـ)؛ 11 ـ كتاب مختصر حسن الصفا فيمن تولوا إمارة الحج، وهو مخطوط؛ 12 ـ كتاب المفاضلة بين جدة والطائف، وهو مخطوط ألفه وقدمه إلى والي مكة الشريف حسين باشا فأجازه جائزة عظيمة؛ 13 كتاب نفحات الرضا والقبول في فضائل المدينة وزيارة سيدنا الرسول، طبع بهامش كتابه «العقد الثمين» بمكة المكرمة سنة (1314هـ).

يتألف كتاب «نزهة الفكر فيما مضى من الحوادث والعبر، من أوائل الموجودات إلى أواخر القرن الثالث عشر» من خمسة أجزاء كبيرة، ثلاثة منها في حوادث التاريخ منذ بدء الخليقة وحتى عصر المؤلف، واثنان في تراجم الرجال هما الجزآن الرابع والخامس. يوضح الحضراوي مضمون هذا الكتاب في مقدمته فيقول: «فإن علم التاريخ مرآة الزمان لمن تدبر، ومشكاة أنوار يطلع على تجارب الأمم، فإني ممن أمعن النظر وتفكر، وكنت ممن أكثر لكتبه مطالعة وتدبر، فحين جمعت كتابي نزهة الفكر فيما مضى من الحوادث والعبر، وذلك من أوائل الموجودات إلى أواخر هذا القرن الثالث عشر، فجاء بحمد الله جزأين وجيزين، لاحتيازه على سائر الدول، وجزءاً ثالثاً فيه الحوادث مستفاضة، أحببت أن أضيف إليها جزءاً رابعاً يكون عليه

المعول. .».

وتكمن أهمية هذا الكتاب في الجزءين الرابع والخامس كونهما سجلًا حافلًا بأخبار ووقائع عن شرائح اجتماعية متنوعة زماناً ومكاناً ومكانة، وهما تراجم علماء وفقهاء وأمراء وشعراء وأدباء لهم ذكر في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين، وهؤلاء الأعلام ـ البالغ عددهم ثلاثمائة ترجمة وأربعاً ـ هم شيوخه وأصدقاؤه، ومن عاصر من العلماء والفضلاء، أو سمع عنهم ممن كانوا على علم بهم.

أما المنهج الذي اتبعه الحضراوي في طريقة ترتيب التراجم فكانت حسب توالي الحروف الألفبائية، ولكنه لم يراع إلا الحرف الأول من الأسماء فقط. وقد ترجم لمن عاصر، أو مات في عصره، أو لا يزال حياً دون حرج. ويقول عن ذلك في مقدمة كتابه: «أحببت أن أضيف إليها ـ الأجزاء الأولى ـ جزءاً رابعاً يكون عليه المعوَّلُ، يتضمن ذكر تراجم فضلاء زماني، وجماعةً ممن تقدم على آني، اقتداء بقول النبي المكمل بلا اشتباه: من أرخ مؤمناً فقد أحياه، . . وإني، وإن قصرت في ترجمة إنسان فما اختصرت، وإن زدتُ في ترجمة آخر فما طولت ولا تطاولت، ورتبته على حروف المعجم، ليسهل على من طالعه وترجم، وقد سبقني في ذلك جماعة من الأعيان في تدوين ما ذكر في أهل كل زمان، ولم أر في وقتنا من تعرض لذلك، فرجوت أن أكون الفائز بما هنالك».

أما المصادر التي استقى منها الحضراوي معلوماته، فكثيرة ومتنوعة منها:

ـ اللقاءات والاجتماعات التي حصلت بينه وبين أصحاب تلك التراجم، وكثيراً ما صرح بذلك كأن يقول: «اجتمعت به في الأستانة سنة. .»، أو يقول: «لقيته في زيارتي الثانية سنة. .»، ووجدت كذا من الرجال، إلى غير ذلك من الأقوال.

ـ الكتب والرسائل التي توفرت له، وقد صرح بذلك مراراً.

ـ السياحات المتعددة التي لقي خلالها كثيراً من الأمراء والعلماء والأدباء.

ـ الأخبار التي التقطها والقصص التي كانت على ألسن الناس.

ـ كتابات أصحاب التراجم له.

المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون، دار الفكر، بيروت، 1/ 184، 2/ 640؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، دار الفكر، بيروت، 1/ 195؛ ● الحضراوي، أحمد بن محمد، نزهة الفكر فيما مضى من الحوادث والعبر، تح. محمد المصري، وزارة الثقافة، دمشق 1996م، ق1، 4/ 7؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط4، 1/ 249؛ ● سركيس، معجم المطبوعات العربية والمعربة، 1/ 825؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2/ 64.

د. محمد هشام النعسان
معهد التراث العلمي ـ حلب ـ سوريا

الحضرمي، أبو الفدا إسماعيل بن الفقيه

(601هـ/1204م ـ 696هـ/1296م)

هو أبو الفدا إسماعيل بن الفقيه محمد بن إسماعيل بن علي الحضرمي، اختلف الرواة في سنة وفاته، فذكر الجندي بأنها كانت في عام 676هـ، أمّا صاحب «طبقات الخواص» فلم يذكر مولده، واكتفى بذكر وفاته فقط، وذكر الأكوع في «معجز العلم» أنّ وفاته كانت سنة 636هـ، وهذا غير صحيح إذا ما نظرنا إلى «طبقات الخواص»، وهو مصدر قريب من عهد صاحب الترجمة.

وينسب إسماعيل إلى سيف بن ذي يزن الحميري، وكان مولده في قرية الضحي بلدة عامرة من بلاد الجرابح من أعمال قفّا الزيدية من بلاد اليمن. تفقّه بأبيه وعمّه علي، وأخذ أيضا عن جماعة من الكبار كيونس بن يحيى وغيره كالبرهان الحضرمي، وكان نقّالا لفروع الفقه، غوّاصا على دقائقه [السلوك، 2/ 36 ـ 37؛ طبقات الخواص، ص 96].

دخل زبيد لغرض الزيادة في العلم، وغلب عليه حبها فاستوطنها، وقد تزوّج في زبيد من ابنة الفقيه أبي بكر بن حنكا بن الحنفي، وبابنة الفقيه أبي الخير [السلوك، 2/ 37؛ طبقات الخواص، ص 96].

وكان الملك المظفّر بن رسول يحبّه ويعظّمه ويجتمع به كثيرا، وسمع عليه مرّة صحيح البخاري، فلمّا بلغ القارئ إلى أبواب الخمر وذكر تحريمها أشار الفقيه إلى القارئ أن يعيد ذلك، فأعاده بحيث فهم السلطان مراده، فقال له: يا فقيه، قد فهمنا غرضك، ونحن نأمر بإبطال الخمر، إن شاء اللّه تعالى [السلوك، 2/ 37؛ طبقات الخواص، 96؛ هجر العلم، 3/ 1191].

وكان الملك المظفّر قد ولّاه قاضي القضاة، فقام في ذلك أتمّ قيام، ولو لم يكن للفقيه إسماعيل شاهد على الورع إلّا ما نقل عنه الثقات أنّه دخل بيت قاضي زبيد، وكان من خواص أصحابه وزوج أخته، فوجد عنده ثيابا فاخرة وأشياء لم يكن يعرفها معه قبل ذلك، فقال له: من أين لك هذه الثياب يا فلان؟ فقال له: هذه من بركاتك يا أبا الذبيح، فقال: ذبحني اللّه إن لم أعزلك، ثمّ عزله وعزل نفسه بعد ذلك؛ ويقال إنّما عزل نفسه لأنّه خوطب أرضيت بالنزول عن التسمّي بالفقه إلى التسمّي بالقضاء؟. ويقال إنّما عزل نفسه لما بلغه أنّ السلطان رجع عن إبطال الخمر [السلوك، 2/ 38؛ طبقات الخواص، ص 97؛ هجر العلم، 3/ 1191].

ويروى أنّه كتب مرّة إلى السلطان في شقف من خزف: يا يوسف، كثر شاكوك وقلّ شاكروك، فإمّا عدلت وإلّا انفصلت؛ فكتب إليه السلطان يعتب عليه في ذلك، قد أرسل اللّه من هو خير منك إلى من هو شرّ منّي، فأمره باللّطف به، فقال تعالى ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا ﴾ [طه: 44] [طبقات الخواص، ص 97؛ شذرات الذهب، 5/ 361؛ هجر العلم، 3/ 1191 ـ 1192؛ السلوك، 2/ 37].

وحصل أنّه كتب إلى تلميذه أبي العباس أحمد ابن الرسول الآتي ذكره: «من الوالد إسماعيل ابن محمد الحضرمي إلى الولد أحمد بن أبي بكر الرسول وفّقه الله تعالى، وبعد، فإنّ حبّ الدنيا ما دخل قلبا إلّا أفسده، وبفساده يفسد جميع الجسد، فالحذر الحذر، فالدنيا ممرّ والآخرة مقرّ، والله الله بلزوم بيت الله ونشر العلم على من طلبه». وكتب يوما إلى تلميذه الفقيه عبد الله الخطيب كتابا يقول فيه: لا يصحّ الاجتماع إلّا بعد الجواز على الصراط، فعليك بالعزوف عن الدنيا القليل منها والكثير، فإنّ القليل منها سمّ قاتل، ومن أدخل فيها أنمله غطس كلّه [السلوك، 2/ 38 ـ 39؛ طبقات الخواص، ص 100].

ومن كلامه أيضا، قال مرّة: رأيت النبيّ ﷺ في المنام، فقلت: يا رسول الله من الذين لا خوف عليهم ولاهم يحزنون؟ قال: هم الدَّرَسَة، فلمّا كانت الليلة الثانية رأيته أيضا، فقلت: يا رسول الله، أيّ الدَّرَسَةِ هُمْ، فقال: دَرَسَةُ العلم، فقلت: يا رسول الله فَدَرَسَةُ القرآن؟ فقال: أولئك أصفياء الله [السلوك، 2/ 39؛ طبقات الخواص، ص 100 ـ 101].

وبالجملة فأحوال الفقيه وكراماته لا تنحصر، وكان دفن في قرية الضحي، وقبره هنالك مشهور مقصود للزيارة والتبرّك من جميع أنحاء اليمن [طبقات الخواص، ص 101].

آثاره

له عدّة مؤلّفات في عدّة فنون تدلّ على تمكّنه منها:

1 ـ أحاديث ملتقطة من كتاب الشبهات؛ 2 ـ شرح المهذّب؛ 3 ـ عمدة القوي والضعيف الكاشف لما وقع في وسيط الواحدي من التبديل والتحريف؛ 4 ـ الفتاوى؛ 5 ـ مختصر (بهجة المجالس) في ذكر معجزات النبيّ ﷺ؛ 6 ـ مختصر صحيح مسلم؛ 7 ـ نفائس العرائس؛ 8 ـ كلام في التصوّف. [شذرات الذهب، 5/ 361؛ هجر العلم، 3/ 1191 ـ 1192؛ طبقات الخواص، ص 96].

المصادر والمراجع

● المشهور بالجندي، أبو عبد الله بهاء الدين، السلوك في طبقات العلماء والملوك، ج 2، تح. الأكوع الحوالي، شركة دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط 1، 1989؛ ● الشرجي الزبيدي، أبو العباس، طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص، الدار اليمنيّة للنشر والتوزيع، ط 1، 1986؛ ● ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، بيروت، لبنان، ج 5، د. ت؛ ● الأكوع، القاضي إسماعيل بن علي، هجر العلم ومعاقله في اليمن، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط 1، 1995، ج 3؛ ● الأهدل، بدر الدين الحسين بن الصديق، تحفة الزمن في تاريخ اليمن، تح. عبد الله الحبشي، منشورات المدينة، بيروت، ط 1، 1986؛ ● الخزرجي، علي بن الحسن، العقود اللؤلؤيّة في تاريخ الدولة الرسوليّة، تح. محمد بن علي الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، ط 2، 1983.

د. صلاح علي بن مدشل
جامعة حضرموت ـ اليمن

الحضرمي، أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد

(117هـ/735م - 205هـ/820م)

هو يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله ابن أبي إسحاق، ويكنّى بـ«أبي محمد»، أو بـ«أبي يوسف»، ولقبه الحضرمي ولاءً، والبصري إقامة، وهو مقرئ مشهور وأحد القرّاء العشرة، وله في القراءات رواية مشهورة منقولة عنه.

ومولده في أوائل القرن الثّاني الهجري سنة 117هـ/ 735م.

وقد أتقن القراءات وعلوم العربيّة والفقه وله عدد كبير من شيوخ عصره منهم: مسلمة بن محارب بن دثار السدوسي، وأخذ القراءة عرضًا على يد سلم بن سليمان الطّويل، وروى عن سلام حرف أبي عمرو بالادغام، كما تلقّى القراءة عرضًا على يد مهدي بن ميمون أبي يحيى البصري، وأبي الأشهب العطاردي البصري جعفر بن حيان، وقراءته عنه عن أبي جابر عن أبي موسى ذات الاسناد في غاية العلوّ، وسمع يعقوب الحروف من الكسائي على علي بن حمزة، ومحمد بن رزيق عن عاصم، وسمع من حمزة، وسمع من شعبة، وسمع من أبي عقيل الدوري، وقرأ على شهاب بن شرنقة المجاشعي البصري قراءة أبي الأسود الدؤلي عن علي بن أبي طالب، كما سمع يعقوب من جدّه زيد بن عبد اللّه، وعصمة بن عروة الفقيمي، وهارون بن موسى النّحوي، وسليم ابن حيان، وهمام بن يحيى، وعبد العزيز بن زياد، والأسود بن شيبان، ويونس بن عبيد.

وله في الإسناد العالي إسنادان أحدهما فيه أربعة رجال بينه وبين النّبيّ ﷺ وهو روايته عن سلام الطّويل، وعن عاصم بن أبي النّجود، عن أبي عبد الرحمٰن السلمي، عن علي بن أبي طالب، عن رسول اللّه ﷺ - والإسناد الثّاني أعلى منه فبينه وبين رسول اللّه ﷺ ثلاثة رجال لا غير وهو روايته عن أبي الأشهب العطاردي، عن أبي الرّجاء، وعن أبي موسى، عن النّبيّ ﷺ.

كما يروى أنّه قرأ على إمام القرّاء والنّحاة البصريّين أبي عمرو بن العلاء، وما ذلك ببعيد لأنّ أبا عمرو توفّي وليعقوب سبع وثلاثون سنة كما قال أبو عبد اللّه القصاع وهذا يدلّ على اتّصال يعقوب بعدد من القرّاء السّبع المشاهير وأخذه عنهم.

أمّا عن تلاميذه فهم كثر، منهم رويس محمد ابن المتوكّل وهو من أحذق أصحابه، وروح ابن عبد المؤمن وهو من جلّة أصحابه، وكعب بن إبراهيم وهو معدود في أصحابه، وقرأ عليه كذلك زيد ابن أخيه أحمد بن إسحاق، وكذلك روح بن قرة، وأيّوب بن المتوكّل، وأبو حاتم سهل بن محمد السجستاني إمام أهل البصرة وهو من جلّة أصحاب يعقوب، وقد ختم على يعقوب سبع

ختمات، ويقال خمسًا وعشرين ختمة، وأعطاه خاتمه وأجازه وقال: «أقرئ النّاس».
كما قرأ عليه عمر السّراج، والمنهال بن شاذان، وحميد بن الوزير، وأبو بشر القطان، وأبو عمر الدوري، ومسلم بن سفيان المفسّر، وسمع منه الزعفراني، وعبد الله بن بحر الساجي.

ومن تلاميذه أيضًا عبدان بن يحيى، وداود بن أبي سالم، وأبو الفتح النّحوي، وأبو هشام الرّفاعي، وورادان بن إبراهيم الأثرم، وأبو أيّوب سليمان بن عبد الله الذهبي، ومحمد بن عبد الخالق، وفضل بن أحمد الهذلي، وعامر ابن عبد الأعلى الدلال، وفهد بن الصقر، وحمدان بن محمد الساجي الّذي روى عنه حرف أبي عمرو بن العلاء، ومنهم كذلك محمد بن وهب الفزاري، والوليد بن حسان التوزي، وأحمد بن عبد الخالق المكفوف، والحسن بن مسلم الضّرير، وأحمد بن محمد الزجاج، وأحمد بن شاذان، كما أخذ عنه اللّغوي البصري المشهور أبو عثمان المازني الّذي قرأ على يعقوب القرآن فلمّا ختم، رمى إليه بخاتمه، وقال: «خذه، ليس لك مثل».

كما حدّث عنه كلّ من أبي جعفر الفلاس، وأبي قلابة الرقاشي، وإسحاق بن إبراهيم، ومحمد بن يونس الكديمي، ومحمد بن عباد.

وهو صدوق، وثّقه أحمد بن حنبل وأبو حاتم الرازي، وقال عنه أبو حاتم السجستاني: «كان يعقوب الحضرمي أعلم من أدركنا ورأينا بالحروف، والاختلاف في القرآن، وتعليله ومذاهبه، ومذاهب النّحو في القرآن الكريم».

وكان فاضلًا، نقيًا، تقيًا، ورعًا، زاهدًا، ناسكًا، وقد روي عنه في ذلك أنّه سرق رداؤه من كتفه وهو في الصّلاة وردّ إليه، ولم يشعر لشغله بالصّلاة، وقد مدحه «محمد بن أحمد العجلي» بقوله:

أبوه من القرّاء كان وجدّه
ويعقوب في القرآن كالكوكب الدريّ

تفرّده محض الصّواب وجمعه
فمن مثله في وقته وإلى الحشر

فلقد كان يعقوب من أهل بيت العلم بالقرآن والرّواية الكثيرة للحروف، وكان أقرأ القرّاء، وأخذ عنه عامّة حروف القرآن من قراءة الحرمين بمكّة، والمدينة، والعراقيّين بالبصرة، والكوفة، والشام، وغيرهم وكان أعلم علماء عصره بالحروف والاختلاف في القرآن وتعليله ومذاهبه وائتمّ به في اختياره عامّة البصريّين بعد أبي عمرو بن العلاء، فلا يقرأ إمام الجامع بالبصرة إلّا بقراءته، وظلّ ذلك حتّى القرن التّاسع الهجري وقد صار في عصره إمام القراءات، يأخذ أصحابه بعدد آي القرآن فإذا أخطأ أحدهم في العدد أقامه.

وقد حكى أبو عثمان المازني أنّه رأى النّبيّ ﷺ فقرأ عليه سورة طه فقرأ مكانًا سوى، فقال: «اقرأ سوى اقرأ قراءة يعقوب».

وكان يعقوب عالمًا بالعربية، شأن معظم القرّاء، يجمعون القرآن واللّغة، فقد كان يعقوب أعلم النّاس بمذاهب النّحو في القرآن، وكان لا يلحن في كلامه لعلمه بالعربية ووجوهها حتّى عدّه العلماء أعلم أهل زمانه بالنّحو.

هذا إلى جانب علمه بالفقه، فهو من أهل

بيت الفقه، وكان أروى الناس لحديث الفقهاء، وقد أحبّه معاصروه، وقدّروه، وبلغ من جاهه ومنزلته أن كان مسموع الكلمة لدى أولي الأمر، فكان كما قالوا عنه يحبس ويطلق.

آثاره

إلى جانب قراءته، وإقرائه، أسهم في التصنيف والتأليف، فله:

1 ـ كتاب الجامع، جمع فيه عامّة اختلاف وجوه القرآن ونسب كلّ حرف إلى من قرأ به؛ 2 ـ كتاب وقف التّمام؛ 3 ـ كتاب وجوه القراءات.

وقد أولى العلماء عنايتهم بقراءة يعقوب الحضرمي، فمنهم من أفردها في مؤلّف، ومنهم من ألحقها مع السّبعة كما ألحق يعقوب بالقرّاء العشرة.

فأمّا عن إفراد قراءته فهناك مؤلّفات بعنوان «مفردة يعقوب» وذلك لكلّ من أبي عمرو الداني، وابن الفحام، وأبي محمد عبد الباري ابن عبد الرحمٰن بن عبد الكريم الصّعيدي، وفي المخطوطات الإسلاميّة بكمبردج تهذيب قراءة أبي يعقوب بن إسحاق.

أمّا عن إلحاقه مع القرّاء السّبعة فلأبي الحسن ابن المنادي كتاب بعنوان «الإيجاز والاقتصار في القراءات الثّمان»، حيث ضمّ إلى السّبعة قراءة يعقوب. وكذلك فعل السعيدي حيث قال: «دعتني نفسي لتأليف كتاب موجز في القراءات متمّمًا بيعقوب بن إسحاق في القراءات، كما تمّم بالنّبيّ ﷺ النّبوّات».

وفي مكتبة جار اللّه مخطوط لأبي بكر أحمد ابن عبد اللّه بن إدريس بعنوان «المختار في معاني قراءات الأمصار»، وقد اشتمل على القرّاء السّبعة ومعهم يعقوب الحضرمي.

أمّا عن إلحاقه في القراءات العشر، فقد أقرّ ذلك جلّة علماء السّلف والخلف، كما أشار القاضي عياض بأنّ القراءات الثّابتة عن الأئمّة القرّاء كالأعمش، ويعقوب، وخلف، وأبي جعفر، وشيبة، ونحوهم بمنزلة القراءات الثّابتة عن هؤلاء السّبعة عند من يثبت ذلك عنده، وهذا أيضًا ممّا لم يتنازع فيه الأئمّة المتّبعون من أئمّة الفقهاء والقرّاء وغيرهم، كما نصّ ابن تيميّة على اختيار العلماء لقراءة يعقوب على قراءة حمزة والكسائي.

كما نصّ أبو حيّان الأندلسي على أنّ يعقوب كان إمام الجامع بالبصرة يؤمّ النّاس، والبصرة إذ ذاك ملآى من أهل العلم، ولم ينكر أحد عليه شيئًا من قراءته، ويعقوب تلميذ سلام الطّويل، وسلام تلميذ أبي عمرو وعاصم، فهو من جهة أبي عمرو كأنّه الدوري الّذي روى عن اليزيدي عن أبي عمرو، ومن جهة عاصم كأنّه مثل العليمي أو يحيى اللّذين رويا عن أبي بكر عن عاصم، وقرأ يعقوب أيضًا على غير سلام.

على أنّ بعض أئمّة القرّاء كان يرى أفضليّة يعقوب على حمزة، والكسائي، وقال بعضهم: «لولا أنّ ابن مجاهد سبقني إلى حمزة لجعلت مكان يعقوب الحضرمي، إمام جامع البصرة، وإمام قرّاء البصرة في زمانه في رأس المائتين».

وذكروا أنّ الكسائي إنّما ألحق بالسّبعة

بالأمس في أيّام المأمون وغيره، وكان السّابع يعقوب الحضرمي، فأثبت ابن مجاهد في سنة ثلاثمائة أو نحوها الكسائي في موضع يعقوب.

ونقل البغوي في مقدّمة تفسيره الاتّفاق على جواز القراءة بالقراءات العشر ومنها قراءة يعقوب.

وقد وَهَمَ بعض النّاس أنّ ما وراء القراءات السّبع من الشّواذ، واستنكر ابن الجزري ذلك، وتعجّب منه، فنصّ أنّه من أعجب العجب، بل من أكبر الخطأ جعل قراءة يعقوب من الشّواذ الّذي لا تجوز القراءة به، ولا الصّلاة، وهذا شيء لا نعرفه قبل إلّا في هذا الزّمان ممّن لا يعوّل على قوله، ولا يلتفت إلى اختياره وأنّه لا فرق بين قراءة يعقوب، وقراءة غيره من السّبعة عند أئمّة المحقّقين وهو الحقّ الّذي لا محيد عنه.

هذا وقد عمّر يعقوب الحضرمي ثمانيَ وثمانين سنة، ومن عجيب المصادفات أنّ هذا العمر هو عمر أبي إسحاق، وجدّه زيد، فكلّ واحد منهم عمّر ثمانيَ وثمانين سنة، وكانت وفاة يعقوب في ذي الحجّة سنة خمس ومائتين للهجرة.

المصادر والمراجع

● الزركلي، الأعلام، ط 14، مطبعة العلوم، توزيع دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1420هـ/ 1999م؛ ● السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللّغويّين والنحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة للطّباعة والنّشر والتوزيع، صيدا، بيروت، د. ت؛ ● ابن حجر العسقلاني، تهذيب التّهذيب، ط 1، مطبعة مجلس دائرة المعارف النّظاميّة، حيدر أباد الدّكن، 1327هـ/ 1909م؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذّهب في أخبار من ذهب، ط 2، دار المسيرة، بيروت، 1399هـ/ 1979م؛ ● ابن سعد، الطّبقات الكبرى، دار التحرير، القاهرة؛ ● الزبيدي، طبقات اللّغويّين والنّحويّين، ط 2، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، 1404هـ/ 1984م؛ ● الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق فؤاد السيد، الكويت، 1381هـ/ 1961م؛ ● محمد بن الجزري، غاية النّهاية في طبقات القرّاء، نشره ج. برجشتراسر، مطبعة السّعادة، القاهرة، 1352هـ/ 1933م؛ ● حاجي خليفة، كشف الظّنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، 1413هـ/ 1992م؛ ● أبو الطيّب اللّغوي، مراتب النّحويّين، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، مطبعة نهضة، مصر، 1370هـ/ 1950م؛ ● ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط 1، 1324هـ/ 1906م؛ ● شمس الدين الذهبي، معرفة القرّاء الكبار على الطّبقات والأعصار، ط 1، تحقيق محمد سيد جاد الحقّ، دار الكتب الحديثة، القاهرة؛ ● ابن تغري بردي، مورد اللّطافة، ط. كمبردج، 1207هـ/ 1792م؛ ● ابن تغري بردي، النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ط. دار الكتب، 1375هـ/ 1955م؛ ● محمد بن الجزري، النّشر في القراءات العشر، المطبعة التّجاريّة ومكتبتها، د. ت؛

● اليغموري، نور القبس في المقتبس، تح. د. زلهيم، نشرة جمعيّة المستشرقين الألمانيّة، 1383هـ/ 1963م؛ ● ابن خلكان، وفيّات الأعيان، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النّهضة المصريّة، مطبعة السّعادة، مصر، 1367هـ/ 1949م.

د. محمود فراج

جامعة الإسكندرية ـ مصر

الحطاب، أبو عبد الله محمد بن محمد

(902هـ/ 1497م ـ 954هـ/ 1547م)

أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن الرعيني، المعروف بالحطاب. فقيه مالكي، من علماء المتصوفة. ولد بمكة المكرمة، ومات بطرابلس الغرب.

ينتمي الحطاب إلى أسرة ذات أصل أندلسي، ثم نزحت إلى المغرب، ومن هنا نسبه بعض مترجميه إلى الأندلس باعتبار أصل أسرته الرعينية، وإلى المغرب باعتبار نزوح أسرته إلى طرابلس.

نشأ بمكة المكرمة، وفيها تلقى تحصيله العلمي، وذاعت شهرته، وما من ريب بأن بيئة الحرم المكي أتاحت له مناخًا علميًا ملائمًا أسعفه بتلقي العلم في كبرى حواضر الإسلام، وملتقى علمائه في موسم الحج.

وقد ساعدته مكانة أبيه العلمية على رسوخ قدمه في ميدان العلم بعامة، والفقة المالكي بخاصة. فقد كان حريصًا على التنويه بإيصال سند والده في الفقة للإمام مالك بن أنس. معتزًا بما قرأ عليه من الكتب التي تنوعت بين القراءة لكاملها، والقراءة لبعضها وإجازة لسائرها.

فمن النوع الأول قرأ على والده قراءة كاملة في المسجد الحرام:

ـ الموطأ للإمام مالك بن أنس.

ـ مؤلفات القاضي عياض ومنها «الشفا».

ـ مؤلفات الشيخ خليل، ومنها «المختصر والمناسك».

ومن النوع الآخر:

ـ مؤلفات ابن عبد البر.

ـ مؤلفات شهاب الدين القرافي «الذخيرة، والقواعد، والتنقيح، وشرح المحصول، والأمنية في النية».

ـ مؤلفات ابن عرفة: «المختصر الفقهي، ومختصر الحوفي، وغير ذلك».

ـ مؤلفات تاج الدين بهرام «شروحه الثلاثة على المختصر، والشامل وغيرها».

وهذه الكتب وسواها قد حققت للحطاب ثراء علميًا خصبًا عززته تلك اللقاءات العلمية التي تلقاها عن شيوخه سوى والده ونيل إجازتهم. ومن هؤلاء العلماء الذين نوه عنهم أحمد بابا التنبكتي صاحب «نيل الابتهاج»: أحمد بن

عبد الغفار، ومحمد بن عراق، وعبد القادر النويري، وابن عمه المحب أحمد بن القاسم النويري، والبرهان القلقشندي، والعز عبد العزيز بن فهد، والجمال الصاني، وعبد الرحمٰن القابوتي، وسواهم.

ومثل هذه المحصلة العلمية قد دعمت فقه الحطاب، وبوأته مكانة مرموقة بين نظراء عصره، فاتصلت به مدرسة الفقة المالكي بالحجاز، وإليه انتهت رئاستها، متابعة مسيرتها بين طبقة من تلاميذه الكبار، الذين بثوها في جيل تلاميذهم.

ومن هؤلاء التلاميذ الكبار:

- ولده يحيى الذي صنف عددًا من المؤلفات، وأتم بعض مؤلفات والده، التي رتّبها وجمعها، وأخرجها.

- عبد الرحمٰن التاجوري، ومحمد القيسي، ومحمد الفلاني، وسواهم.

وهيأت هذه المكانة العلمية للحطاب رؤية خصبة ناقدة مكنته من علو شأنه في التأليف وتنوعه وفق متطلبات عصره، فشملت: الفقه، والفلك، والاجتماع، واللغة، وسواها.

وقد أشاد به بعض مترجمي عصره، فقال صاحب «نيل الابتهاج»: له تآليف بارعة، تدل على إمامته، وسعة إطلاعه وحفظه وقوة إدراكه، وجودة نظره، يستدرك على الأئمة الفحول، ناهيك عمن في طبقته.

آثاره

1 - مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، (في الفقه المالكي)، مطبوع في ستة مجلدات، قال عنه أحمد سحنون: هو من خيرة مؤلفاته وأكبرها حجمًا، وأكثرها تداولًا بين الناس شرقًا وغربًا، وأكثر شروح المختصر تحريرًا وإتقانا؛ 2 - قرة العين بشرح ورقات إمام الحرمين (في أصول الفقه)؛ 3 - تحرير الكلام في مسائل الالتزام - ط. جمع فيه مسائل الالتزام المتفرقة في عدة أبواب فقهية في كتاب مستقل؛ 4 - هداية السالك المحتاج إلى بيان أفعال المعتمر والحاج (في شرح مناسك الحج)؛ 5 - ثلاث رسائل في استخراج أوقات الصلاة بالأعمال الفلكية بلا آلة؛ 6 - تحرير المقالة في شرح نظائر الرسالة، شرح فيه نظم ابن غازي في نظائر رسالة القيرواني؛ 7 - مختصر إعراب الألفية لخالد الأزهري؛ 8 - القول المتين في أن الطاعون لا يدخل البلد الأمين.

ومن الكتب التي لم يتمها:

9 - تفسير القرآن، وصل فيه إلى سورة الأعراف؛ 10 - حاشية على تفسير البيضاوي؛ 11 - حاشية على الإحياء، نحو ثلاثة أرباع الكتاب، وصل فيه إلى ذم الجاه؛ 12 - شرح قواعد عياض، وصل فيه إلى القاعدة الثانية؛ 13 - تعليق على المسائل التي انفرد بها الإمام مالك، وذكر فيه بعض مسائله؛ 14 - تعليق على المسائل التي لم يقف فيها على نص في المذهب؛ 15 - تأليف في القراءات؛ 16 - حاشية على قطر الندى في النحو.

المصادر والمراجع

● الحطاب، أبو عبد الله، تحرير المقالة في شرح نظائر الرسالة، تح. ودراسة أحمد سحنون، جامعة القرويين، كلية دار

الحديث الحسنية، عام 1975م؛ ● الحطاب، أبو عبد الله، قرة العين بشرح ورقات إمام الحرمين، تح. هدية غازي علي غازي، جامعة الكويت، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية؛ ● الحطاب، أبو عبد الله، قرة العين بشرح ورقات إمام الحرمين، دار ابن خزيمة، الرياض د.ت؛ ● الحطاب، أبو عبد الله، تحرير الكلام في مسائل الالتزام، تح. عبد السلام محمد الشريف، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1404هـ/ 1984م؛ ● الحطاب، أبو عبد الله، مواهب الجليل لشرح مختصر أبي الضياء خليل، مطبعة السعادة، القاهرة د.ت؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، دار الكتب العلمية، بيروت 1413هـ/ 1992م، 6/ 241 ـ 242؛ ● التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، طرابلس، كلية الدعوة الإسلامية، د.ت، 2/ 592 ـ 594؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت 1986م، ط 7، 7/ 58؛ ● سحنون، أحمد، تحرير المقالة في شرح نظائر الرسالة، وزارة الأوقاف بالمملكة المغربية، الرباط 1409هـ/ 1988م، ص 88 ـ 120؛ ● فهرس الخزانة التيمورية، أسماء المؤلفين، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، 1984م، 3/ 76؛ ● المكتبة العامة بتطوان، فهرس المؤلفين، المكتبة العامة تطوان، 1952م، ص 262.

د. رجاء محمد عودة

جامعة الملك سعود بن عبد العزيز ـ الرياض ـ المملكة العربية السعودية

الحطيئة، أبو مليكة جرول بن أوس بن مالك

(ت نحو 45هـ/665م)

أجمعت المصادر والمراجع على أن اسمه «جرول»، وهناك اختلاف في نسبه، فقد ورد أنه ابن الأفقم من بني هذيل، والأرجح أنه ابن أوس بن مالك العبسي، لذلك نجد معظم المؤرخين يكتبون اسمه: جرول بن أوس بن مالك بن جؤيّة بن مخروم بن... غطفان، وابن كثير يقول: ابن جويّة (بدون همزة على الواو). والعسقلاني يقول: ابن حبوة. وهناك من يؤثر الاختصار فيقول: جرول بن أوس بن مالك العبسي ولا ينساق كغيره في تسلسل النسب حتى يصل إلى عدنان [ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص197؛ البغدادي، خزانة الأدب، 2/ 406؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 8/ 97؛ العسقلاني، تمييز الصحابة، 1/ 278؛ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1/ 238].

والحطيئة لقب غلب على اسمه، وهناك آراء مختلفة في سبب اللقب، فمن قائل إنه لقّب بذلك لقصره وقربه من الأرض، والحطيئة الرجل القصير، وقيل لأنه كان دميما، وذكر الأصبهاني والبغدادي: أنه «ضرط» بين قومه فقيل له: ما هذا؟ فقال: إنما هي حطيئة، فسمّي: الحطيئة. وأضاف البغدادي: إنه كان محطوء الرجل أي لا أخمص لها.

وكان الحطيئة يكنّى أبا مليكة وهي أكبر بناته وأجملهنّ، هذا مع العلم أنه كان له أبناء ذكور، وبذلك خالف القاعدة العامّة عند العرب، وهي أن يكنّى الرجل بأكبر أبنائه الذكور [الأصبهاني، الأغاني، 2/ 157؛ البغدادي، خزانة، 2/ 406؛ ابن رشيق، العمدة، 1/ 125؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 1/ 168؛ السيوطي، المزهر، 2/ 433].

لم تذكر المصادر والمراجع التي تمكّنت من الاطلاع عليها، شيئا عن تاريخ ولادة الحطيئة، والوحيد الذي تجرّأ على الخوض في هذا المضمار هو: د.بلاشير حيث يقول: «ويمكننا، على سبيل الافتراض، أن نحدّد تاريخ ولادته حوالي سنة 600م أو قبل ذلك بقليل». ثم يذكر في مكان آخر: «ونحن نجهل تاريخ وفاته... ولكن يحدد تعيين الوفاة بعد سنة 41 أو 42هـ/ 661 ـ 662م [د. بلاشير، تاريخ الأدب العربي، 2/ 160 وما بعدها].

وهذا يعني أنه تجاوز الستين من عمره ولم يقارب السبعين، وهذا لا يوافق ما ذكره ابن سلّام الجمحي: وكان الحطيئة قد عمّر دهرًا في الجاهلية وبقي في الإسلام حينًا. وكذلك ما ذكره العسقلاني: عاش الحطيئة إلى خلافة معاوية.. ثم رأيت ما يدلّ على تأخر موته، أنه قابل ابن عباس بعد ما كفّ بصره. وقال فرّوخ: إنه قد أسنّ جدًا [ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، 1/ 110؛ العسقلاني، الإصابة، 1/ 379؛ فرّوخ، تاريخ الأدب العربي، 1/ 334].

وفي تاريخ الوفاة اختلاف ظاهر: يقول ابن رشيق، ويوافقه ابن كثير أن وفاته كانت سنة تسع وخمسين هجرية. ويقول بروكلمان إنه مات سنة 20هـ/ 640م أي أن الفرق تسع وعشرون سنة فقط. ويقول الزركلي: كانت وفاته نحو 45هـ/ نحو665م [ابن رشيق، العمدة، 1/ 125؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 8/ 98؛ بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 1/ 168؛ الزركلي، الأعلام، 2/ 118].

الحطيئة شاعر مخضرم عاش بنجد وتنقّل في الحجاز والعراق والشام. جاءت به إلى الدنيا أمه واسمها «الضرّاء» كانت عند أوس بن مالك، حملت منه سفاحا، وخشيت أن تذكر نسبة الطفل إلى أوس حينما سألتها سيّدتها: من أين لك هذا؟ فقالت: إنه من أخيك الأفقم. وكان الأفقم هذا رجلا من ذهل ثم بكر بن وائل، كان صغير العينين مضغوط اللحيين ولذلك لقّب بالأفقم. ويبدو أنّ الضرّاء كانت مستهترة، فقد كانت تقول له حينما يسألها عن نسبه: لست لواحد ولا لاثنين، وهي لم تخف عن أوس نسبة الطفل إليه. ونشأ الحطيئة في رعاية أوس وزوجته الحرّة، مع أولادها ولكنّ الجميع كانوا يعتبرونه ابنًا غير شرعي للأفقم الذي كان يشبهه. ومات أوس فأعتقت زوجته، الحطيئة وأمّه التي أصبحت حرّة فأعلنت أنّ جرولًا لم يكن ابنًا

للأفقم، وهو ابن أوس وله أن يرث أباه مع أخويه ابني أوس العبسي، فأنكرا عليه طلبه. ومات الأفقم فجاء الحطيئة يطلب إرثه معتمدا على النسبة القديمة، فأعطِي نخلات لم تعجبه، فهو يريد الحقّ كاملًا، وذهب يشتم نبعة بني ذهل: بكر بن وائل ويقول:

تمنّيتُ بكرًا أن يكون عِمارتي
وقومي بكرٌ شرُّ تلك القبائلِ
إذا قلتُ: بَكْرِيٌّ نَبَوْتُمْ بحاجَتِي
فيا ليتني من غير بكرِ بن وائلِ

[الأصبهاني، الأغاني، 2/ 161؛ جميل سلطان، الحطيئة، 7]

وهكذا نرى أن الحطيئة معتلّ النسب، أنكره أقرباؤه، فنقم على أمه التي حملته شهوة ولفظته لعنة، ونقم على الأب المجهول الذي لم يورثه إلّا العار، يضاف إلى ذلك قبح المنظر ودمامة الخلقة وضيق الرزق، فكان الشعر جُنَّتَهُ التي يستر بها عيوبه، وخير وسيلة للدفاع هي الهجوم، فكان من أشهر الشعراء الهجائين، فخافه الناس واتّقوا أذاه بالإحسان إليه.

ويبدو أنه كان بخيلًا جدًا، وعن أبي عبيدة أنه قال: بخلاء العرب أربعة: الحطيئة وحميد الأرقط، وأبو الأسود الدؤلي، وخالد بن صفوان. قيل: «كان الحطيئة يرعى غنمًا له وفي يده عصا. فمرّ به رجل فقال: يا راعي الغنم ما عندك؟ قال: عجراء من سلم، يعني عصاه. قال: إنني ضيف، فقال الحطيئة: للضيفان أعددتها. وقال الأصمعي: مرّ ابن حمامة بالحطيئة. فقال: السلام عليك. قال: قلت ما لا ينكر. قال: إنّي أردت الظلّ. قال: دونك والجبل حتى يفيء عليك. قال: إني خرجت من عند أهلي بغير زاد. قال: ما ضمنتُ لأهلك قراك. قال: إني ابن حمامة. قال: كن ابن نعامة. فمضى عنه آيسًا [الأصبهاني، الأغاني، 2/ 163؛ جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، 9/ 203، 854].

عاش الحطيئة ردحًا من الزمن في البيئة الجاهلية ولما انتصرت الدعوة الإسلامية، ودخل الناس في دين الله أفواجا، أسلم الحطيئة مع أبناء قومه، ويقال كان ذلك في عهد النبي ﷺ، ويبدو أن إسلامه كان رقيقا، لذلك ارتدّ مع المرتدين بعد وفاة الرسول ﷺ، وروي أنه قال:

أطَعْنَا رسولَ اللهِ إذ كان بيننا
فيا لَهْفي ما بالُ دينِ أبي بكر
أيُورِثُها بَكْرًا إذا مات بعده؟
فتلك لعمرُ اللهِ قاصِمَةُ الظهرِ

[البغدادي، خزانة الأدب، 2/ 408؛ الأصبهاني، الأغاني، 2/ 157؛ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1/ 238]

ويقول صاحب «الإصابة»: إنه أسلم في عهد النبيّ ﷺ، ثمّ ارتدّ ثم أُسِرَ وعادَ إلى الإسلام، بينما يقول صاحب «البداية والنهاية» أنه أسلم في زمن الصدّيق [العسقلاني، الإصابة، 1/ 278؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 8/ 97].

أما خبره مع الزبرقان بن بدر، فقد التقيا بقرقرى باليمامة وكان مع الحطيئة زوجته وأولاده فعرفه الزبرقان، وهو لم يعرفه. وكان الزبرقان في طريقه إلى المدينة واشتكى إليه

الحطيئة عن سوء حاله وقلّة رزقه. فوعده الزبرقان بالمساعدة وأرشده إلى قومه الذين أحسنوا إليه. وكان هناك تنافس بين الزبرقان وجماعة من أقربائه من بني عوف المعروفين بأنف الناقة، وقد حاول هؤلاء بأساليب متنوّعة وتمكّنوا أخيرًا من أخذ الحطيئة إلى ديارهم وأكرموه كثيرًا، وعاد الزبرقان واحتدم الخلاف ممّا أدّى إلى هجاء الزبرقان بقصيدة للحطيئة منها:

دَعِ المكارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا
واقْعُدْ فإنَّكَ أنتَ الطاعِمُ الكاسِي

[ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، 1/ 114؛ المبرّد، الكامل في اللغة والأدب، 1/ 349؛ البستاني، أدباء العرب، 1/ 648؛ الموسوعة العربية الميسّرة، 726].

فاستعدى عليه الزبرقان عمر بن الخطاب، فاستعان بحكمه على الحطيئة بشاعر مثله هو حسان بن ثابت الذي قال: لقد هجاه وسلم عليه، فحبسه عمر. وأحسّ الشاعر برهبة السجن وألم الفراق فأخذ يرسل قصائد المدح إلى الخليفة ويستشفع بكبار الصحابة، كلّ ذلك لم يؤثر على أمير المؤمنين، حتى توجّه إليه بقوله:

ماذا تقول لأفراخ بذي مَرَخٍ
زُغْبِ الحواصِلِ لا ماءٌ ولا شَجَرُ

ألقيتَ كاسِبَهُم في قعْرِ مُظْلِمَةٍ
فاغفرْ عليك سلامُ الله يا عُمَرُ

....

فامننْ على صبية في الرملِ مسكنهُم
بين الأباطح تغشاهم بها القِررُ

ويقال إن عمر تأثّر كثيرًا وبكى حين سمع هذا الشعر وأطلق سراح الحطيئة، على أن لا يعود إلى هجاء الناس واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم [ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1/ 245؛ الجمحي، طبقات، 1/ 114؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 8/ 97].

للحطيئة منزلة عالية في الشعر، يزاحم بها أفحل الشعراء، ويمتاز بحلاوة ألفاظه ووضوح معانيه وإحكام قوافيه، وعنايته بتهذيب شعره وتنخّله، حتّى عُدَّ من عبيد الشعر. قال عنه الأصبهاني: هو من فحول الشعراء، ومتقدّميهم وفصحائهم، متصرّف في جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب، مجيد في ذلك أجمع. وعن أبي عبيدة أنّه قال: كان الحطيئة متين الشعر، شرود القافية، وما تشاء أن تطعن في شعر شاعر إلّا وجدت فيه مطعنًا، وما أقلّ ما تجد ذلك في شعره. وعن ابن شُبْرُمَة أنه قال: أنا والله أعلم بجيّد الشعر. لقد أحسن الحطيئة حيث يقول:

أولئكَ قومٌ إنْ بَنَوْا أحسنوا البِنَى
وإنْ عاهدوا أوْفَوْا وإنْ عَقَدُوا شَدُّوا

وإن كانتِ النَّعْماءُ فيهم جَزَوْا بها
وإن أنْعَمُوا لا كدَّرُوها ولا كَدُّوا

[الأصبهاني، الأغاني، 2/ 157 وما بعدها؛ طه حسين، تاريخ الأدب العربي، 1/ 298]

وقال أبو عمرو بن العلاء: لم تقل العرب قطّ أصدق من بيت الحطيئة:

مَنْ يَفْعَلِ الخَيْرَ لا يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ
لا يَذْهَبُ العُرْفُ بين اللهِ والناسِ

[البكري، فصل المقال، 247؛ طه حسين، من تاريخ الأدب العربي، 1/ 298؛ الأصبهاني، الأغاني، 2/ 173؛ جواد علي، المفصّل، 9/ 855؛ العسقلاني، الإصابة، 1/ 378].

وعن عبد الرحمن بن أبي بكرة أنه قال: رأيت الحطيئة بذات عِرْقٍ. فقلت له: يا أبا مُلَيْكة، أي الناس أشعر؟ فأخرج لسانًا دقيقًا كأنّه لسان حيّة. فقال: هذا إذا طمع [ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1/ 240؛ الأصبهاني، الأغاني، 2/ 170].

وفي حديث للحطيئة مع سعيد بن العاص، سأله عن أشعر الناس، فذكر أبا دؤاد وغيره ثم قال: فحسبك والله بي عند رغبة أو رهبة، إذا رفعت إحدى رجليّ على الأخرى ثم عويت عواء الفصيل في أثر القوافي.

ويروى أنّ ابن عباس وكان قد كفّ بصره سأل الحطيئة: من أشعر الناس؟ قال: أمن الماضين أم من الباقين؟ قال: من الماضين، قال: زهير ثم عبيد. ثم قال: والله يا ابن عمّ الرسول لولا الطمع والجشع لكنت أشعر الماضين، فأما الباقون فلا تشك أنّي أشعرهم وأصردهم سهما إذا رميت [الأصبهاني، الأغاني، 2/ 167؛ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1/ 242؛ ابن سلام، طبقات، 1/ 104 وما بعدها؛ ابن رشيق، العمدة، 1/ 97؛ جواد علي، المفصّل، 9/ 234].

وسئل كثيّر عن أشعر الناس، فقال: الذي يقول:

وآثرتُ إدلاجي على لَيْلِ حُرَّةٍ
هَضيم الحشا حُسّانة المُتَجَرَّدِ

تُفَرِّقُ بالمِدْرَى أثيثًا نباتُه
على واضح الذِّفْرَى أسيلُ المقلَّدِ

فهو يريد الحطيئة [الأصبهاني، الأغاني، 2/ 200؛ ابن حبيب، ديوان الحطيئة، 45]

ويكفي الحطيئة فخرًا تلك المنزلة الرفيعة التي وضعه فيها ابن سلّام الجمحي إذ وضعه في الطبقة الثانية من طبقات فحول الشعراء [ابن سلّام، طبقات فحول الشعراء، 1/ 97].

تصرّف الحطيئة في جميع فنون الشعر، والمديح، والفخر، والنسيب، وخصوصًا الهجاء، وقد أجاد فيها جميعًا. وهو يعدّ أهجى الشعراء القدامى، وإلى نبوغه في الهجاء يرجع الفضل في بقاء شعره [بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 1/ 168؛ جواد علي، المفصّل، 9/ 856] لذلك سنبدأ بهذا الفن.

أ ـ الهجاء:

إنّ الهجاء عند الحطيئة على نوعين: الأول عاطفي حبًا للتشفي والانتقام كهجوه لأمه التي خلطت عليه نسبه، ولأبيه الذي لم يعترف به ولإخوته الذين تنكّروا له وحرموه إرثه، ولأقربائه وأضيافه وحتّى نفسه خصوصًا حين لم يجد أحدًا يهجوه. والنوع الثاني تجاري لكسب المال وذلك انتقاما لبؤسه وفقره. قال يهجو أمّه:

تَنَحَّيْ فاجْلِسي مِنّي بعيدًا
أراحَ اللهُ مِنْكِ العالَمينا

أغِرْبالًا إذا استُودِعْتِ سِرًّا
وكانونًا على المُتَحَدِّثينا

حياتُكِ ما علمتُ حياةُ سُوءٍ
ومَوتُكِ قد يسرُّ الصالحينا

[ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1/ 239؛ الأصبهاني، الأغاني، 2/ 163؛ البغدادي، خزانة، 2/ 409].

وقال يهجو أمّه وزوجها:

ولقدْ رأيتُكِ في النساءِ فَسُؤْتِني
وأبَا بَنيكِ فساءَني في المجلسِ

ابلغْ بني جَحْشٍ بأنَّ نِجارَهُم
لؤمٌ وأنَّ أباهمُ كالهِجْرِسِ

[خزانة الأدب، 2/ 409؛ الأغاني، 2/ 162].

وقال يهجو إخوته من أوس بن مالك:

أَأَمَرْتُماني أنْ أُقيمَ عليكُمَا
كلّا لَعَمْرُ أبيكُمَا الحَبَّاقِ

عَبْدانِ خَيْرُهُمَا يُشَلُّ بِضَبْعِهِ
شَلَّ الأجيرِ قلائِصَ الورّاقِ

[الأصبهاني، الأغاني، 2/ 160؛ ابن حبيب، ديوان الحطيئة، 244]

وقال يهجو نفسه:

أرَى لي وجْهًا شوَّهَ اللهُ خَلْقَهُ
فقُبِّحَ من وجهٍ وقُبِّحَ حامِلُه

[المعري، رسالة الغفران، 148؛ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1/ 229؛ الأصبهاني، الأغاني، 2/ 164]

وقال يهجو الزبرقان بن بدر:

دَعِ المَكَارِمَ لا تَرْحَلْ لِبُغْيَتِهَا
واقعدْ فإنّكَ انتَ الطاعِمُ الكاسي

[جواد علي، المفصل، 9/ 855؛ البكري، فصل المقال، 247؛ طه حسين، من تاريخ الأدب العربي، 1/ 297].

ب ـ المديح:

قال يمدح بغيضًا وقومه، أبناء عمومة الزبرقان:

أولئِكَ قومٌ إنْ بَنَوْا أَحْسَنُوا البُنَى
وإنْ عاهَدُوا أوْفَوْا وإنْ عَقَدُوا شَدُّوا

[ابن كثير، البداية والنهاية، 8/ 98؛ جميل سلطان، الحطيئة، 114؛ الأغاني، 1/ 198].

وقال يمدح أميرَ المؤمنين، عمر بن الخطاب:

لمْ يُؤْثِرُوكَ بها إذْ قَدَّمُوكَ لها
لكنْ لأَنْفُسِهِم كانتْ بِكَ الأَثَرُ

[ابن سلّام، طبقات، 1/ 115؛ ابن قتيبة، الشعر والشعراء، 1/ 245]

ج ـ الغزل والنسيب:

قال الحطيئة عندما فارق محبوبته:

فَتَبَادَرَتْ عيناكَ إذ فارقْتَهَا
دُرَرًا وأنتَ على الفِراقِ صَبُورُ

[سلطان، الحطيئة، 138؛ ابن حبيب، الديوان، 27]

د ـ الوصف:

ومن المعاني المحدثة قوله يصف لغام ناقته:

تَرَى بين لَحْيَيْهَا إذا ما تَزَغَّمَتْ
لُغَامًا كَبَيْتِ العنكبوتِ المُمَدَّدِ

[ابن رشيق، العمدة، 1/ 505؛ ابن حبيب، الديوان، 49]

هـ - الحكمة:

للحطيئة أقوال مأثورة اعتبرت أمثالًا يتداولها الناس، ومن أشعاره في الحكمة قوله:

ولستُ أرى السعادةَ جمعَ مالٍ
ولكنَّ التقيَّ هو السَّعيدُ

[الأصبهاني، الأغاني، 2/ 175؛ سلطان، الحطيئة، 164]

آثاره

1 - جاء في كتاب الفهرست لابن النديم صفحة 178: أسماء الشعراء الذين عمل أبو سعيد السكري أشعارهم فجوّد صنعه منهم: الحطيئة، وعمله الأصمعي، وأبو عمرو الشيباني والطوسي، وابن السكيت؛ 2 - ذكر عبد الوهاب الصابوني في كتابه «شعراء ودواوين»، طبعة حديثة كاملة للديوان بشرح ابن السكيت والسكري والسجستاني، طبعة جيدة التحقيق، في آخر الديوان 17 فهرسًا، الديوان جزء واحد وقد طبع في مصر طبعة أولى 1958م، تح. نعمان أمين طه؛ 3 - وفي مختارات ابن الشجري، في القسم الثالث منها، مختارات من شعر الحطيئة وأخباره في 37 صفحة، طبعت المختارات سنة 1925م، ضبطها وشرحها محمود حسن زناتي؛ 4 - وفي الروائع منتخبات شعرية للحطيئة بقلم فؤاد أفرام البستاني، طبعت في بيروت، 1920؛ 5 - ديوان الحطيئة، من رواية ابن حبيب عن ابن الأعرابي، وأبي عمرو الشيباني، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، بيروت؛ 6 - الحطيئة، دراسة وشرح، د. جميل سلطان، دار الأنوار، بيروت، الطبعة الثانية، 1968م.

المصادر والمراجع

● الأصبهاني، الأغاني، مصوّر عن طبعة دار الكتب، مؤسسة جمّال، بيروت، 2/ 157؛ ● الجمحي، ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، قرأه وشرحه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، 1/ 110 وما بعدها؛ ● ابن قتيبة، الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، الطبعة الرابعة، 1980م، 1/ 238؛ ● ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثالثة، 1981م، 8/ 97؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية د. عبد الحليم النجار، دار المعارف، مصر، 1977م، 1/ 168؛ ● البغدادي، خزانة الأدب، تح. وشرح عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر، 2/ 406؛ ● جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة، بغداد، الطبعة الثانية، 1978م، 9/ 203؛ ● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، 1980م، 2/ 118؛ ● العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، 1368م، 8/ 97؛ ● القرشي، جمهرة أشعار العرب، حققه وعلّق عليه د. محمد علي الهاشمي، دار القلم، دمشق، الطبعة الثانية، 1406هـ/ 1986م، 2/ 815.

د. واضح الصمد
الجامعة اللبنانية - بيروت - لبنان

أبو حفص، سيدي عمر بن عبد القادر

(1098هـ/1686م - 1152هـ/1739م)

هو أبو حفص سيدي عمر بن عبد القادر ابن عيم، ويحتمل أنه من مواليد منطقة توات، وهي مدينة في أقصى الصحراء الجزائرية.

بدأ التعلّم بزاوية جدّه ببلدة توات حيث قرأ بها القرآن وحفظه، ثم تلقّى بها شيئا من الفقه، وإثر ذلك رحل إلى مدينة فاس للتوسع في العلم ولم يتجاوز تسع عشرة سنة من عمره. فأقام بها نحو اثنتي عشرة سنة ينهل من ينابيع العلم، فأخذ القرآن الكريم عن سيدي محمد السالم التواتي، والتفسير عن الشيخ سيدي محمد بن أحمد المناوي وعن الإمام الحافظ الجامع لمذهب مالك أبي علي سيدي الحسن بن رحال المعداني. ودرس علم الكلام على الفقيه سيدي محمد بن عبد الله السجلماسي، وعلى الشيخ الفقيه أحمب بن مبارك، وعلى العلامة النحوي أبي عبد الله سيدي محمد بن أحمد زكريا الفاسي.

لما اشتهر أمر سيدي عمر وعلا صيته بين القاصي والداني، طلب منه التدريس بجامع القرويّين، فدرّس به، ولتواضعه كان يدرّس وهو جالس على الأرض، وقد طلب منه تلاميذه الجلوس على كرسي التدريس، فجلس عليه مرّة واحدة، وهو منزعج، وقد تدفّق طلّاب العلم على حلقات دروسه حتّى أنّ الجامع امتلأ بالطلّاب.

ومال الشيخ في آخر عمره إلى الطرق الصوفيّة، ولا ندري أيّ طريقة تخيّر... وكان قد تولّى قضاء مدينة توات عندما خاف من انتشار الفتن بها، فأظهر العدالة، وبها اطمأن الناس لأحكامه.

آثاره

اشتهر بالتدريس وكان لا يدرّس إلا مرّة في اليوم درسا واحدا وفي كتاب واحد، وقد لا يحضر المجلس لعذر ما، ومع ذلك فقد عظم نفعه، وانتشر علمه وصلاحه، ولم تصلنا مؤلفات تنسب إليه.

المصادر والمراجع

- الدالي، الهادي المبروك، التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء، مطابع الوحدة العربية، الزاوية، ليبيا، 2001.

د. عيسى نسوكي
مركز أحمد بابا - مالي

حفص، أبو عمر بن سليمان بن المغيرة

(90هـ/709م - 180هـ/796م)

أبو عمر حفص بن سليمان بن المغيرة الأسدي، الكوفي الغاضري المقري، أحد الرواة المشهورين عن الإمام عاصم بن أبي النجود (ت 127هـ/ 744م)، وأحد القراء السبعة المعروفين. قارئ الكوفة، ثقة ضابط في القراءة، وهو صاحب الرواية المشهورة في الآفاق ولدى العلماء العاملين.

ومما يدلّ على المكانة السامية لحفص وروايته عن عاصم قول يحيى بن معين: «الرواية الصحيحة التي رويت عن قراءة عاصم رواية أبي عمر حفص بن سليمان»، وقول أبي الحسين بن المنادي (ت 636هـ/ 1238م) فيه: «قرأ على عاصم مرارا، وكان الأولون يعدونه في الحفظ فوق أبي بكر بن عياش، ويصفونه بضبط الحروف التي قرأ على عاصم»، وقول ابن الجزري (ت 833هـ/ 1429م): «وكان أعلم أصحاب عاصم بقراءة عاصم».

وقد ذكره الذهبي (ت 748هـ/ 1347م) في كتابه «معرفة القراء الكبار» ضمن علماء الطبقة الرابعة من القراء، كما عده ابن الجزري في كتابه «غاية النهاية» من أئمّة علماء القراءات.

قال فيه الإمام الشاطبي (ت 590هـ/ 1193م): «. . . . وحفص وبالإتقان كان مفضّلا».

ورمز حفص في متن الشاطبية هو حرف العين (ع).

أخذ حفص القراءة عرضا وتلقينا عن الإمام عاصم، وكان ربيبه (ابن زوجته)، وكان ملازما له، وقد تعلّم القرآن على عاصم خمسا خمسا.

كما روى حفص الحديث النبوي الشريف عن ثابت البناني (ت 127هـ/ 744م)، وعلقمة بن مرثد، وأبي إسحق السبيعي، وكثير بن زاذان، ومحارب بن دثار السدوسي، وإسماعيل السدّي، وليث بن أبي سليم (ت 143هـ/ 760م) وغيرهم.

وقد كان حفص مدرسة قائمة بذاتها في تعليم القرآن الكريم، أقرأ الناس مدة طويلة من الزمن، وقد روى القراءة عنه عرضا وسماعا حسين بن محمد المروذي، وحمزة بن القاسم الأزدي، وسليمان بن داود الزهراني (ت 234هـ/ 848م)، وحمدان بن أبي عثمان الدقاق، والعباس بن الفضل الصفّار، وعبد الرحمن بن محمد بن واقد الختلي، ومحمد ابن الفضل زرقان، وخلف الحدّاد، وعمرو ابن الصباح (ت 221هـ/ 835م)، وأخوه عبيد ابن الصباح (ت 219هـ/ 834م)، وهبيرة بن محمد التمّار، وأبو شعيب القوّاس، والفضل ابن يحيى الأنباري، والحسين بن علي الجعفي (ت 203هـ/ 818م)، وأحمد بن جبير

الأنطاكي (ت 258هـ/ 871م)، وسليمان الفقيمي وغيرهم.

كما روى الحديث عن حفص عدد كثير من العلماء منهم بكر بن بكّار، وآدم بن أبي إياس، وأحمد بن عبده، وعلي بن حجر، وهشام بن عمّار الدمشقي (ت 245هـ/ 859م) وغيرهم.

وقد سافر حفص من الكوفة إلى بغداد للإقراء بها، ثم حجّ وجاور بمكة المكرّمة وأقرأ بها أيضا.

وعاصر حفص الخلافة الأموية بدءا بخلافة الوليد بن عبد الملك (86 ـ 96هـ/ 705 ـ 715م)، وسليمان بن عبد الملك (96 ـ 99هـ/ 715 ـ 717م)، وعمر عبد العزيز (99 ـ 101هـ/ 717 ـ 720م)، ويزيد بن عبد الملك بن مروان (101 ـ 105هـ/ 720 ـ 724م) وهشام بن عبد الملك بن مروان (105 ـ 125هـ/ 724 ـ 743م)، والوليد بن يزيد بن عبد الملك (125 ـ 126هـ/ 743 ـ 744م)، ويزيد بن الوليد بن عبد الملك (126هـ/ 744م)، وابراهيم بن الوليد بن عبد الملك (126 ـ 127هـ/ 744م)، ومروان بن محمد (127 ـ 132هـ/ 744 ـ 750م).

كما عاصر جزءا من الخلافة العباسية بدءا بخلافة أبي العباس السفّاح (132 ـ 136هـ/ 750 ـ 754م)، وأبا جعفر المنصور العباسي (136 ـ 158هـ/ 754 ـ 775م)، ومحمدًا المهدي (158 ـ 169هـ/ 775 ـ 785م)، والهادي بن محمد المهدي (169 ـ 170هـ/ 785 ـ 786م)، وهارون الرشيد (170 ـ 193هـ/ 786 ـ 809م)، ثم كانت وفاته.

وكان حفص قائما بوظيفة الإقراء لفن القراءات، وكان أيضا قاضيا على الكوفة حسب بعض المصادر المترجمة له، وذكر بعض المترجمين له أنه كان بزّازا (بائعا للثياب).

ورواية حفص عن عاصم صحيحة متواترة، وإسناده متصل بالرسول ﷺ، فقد قرأ على عاصم بن أبي النّجود، وقرأ عاصم على أبي عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السّلمي، وأبي مريم زر بن حبيش بن حباشة الأسدي (ت 82هـ/ 701م)، وأبي عمرو سعد بن إلياس الشيباني (ت 96هـ/ 714م)، وقرأ هؤلاء الثلاثة على عبد الله بن مسعود (ت 32هـ/ 652م)، وقرأ السّلمي وزر أيضا على عثمان بن عفّان (ت 35هـ/ 655م)، وعلي بن أبي طالب (ت 40هـ/ 660م) ﷺ، وقرأ السّلمي أيضا على أُبَيّ بن كعب (ت 30هـ/ 650م)، وزيد بن ثابت (ت 45هـ/ 665م) ﷺ، وقرأ ابن مسعود وعثمان وعلي وأُبَيٌّ وزيد على رسول الله ﷺ، وأخذ رسول الله ﷺ عن جبريل ﷺ عن ربّ العزّة جل جلاله.

وقد قرأ حفص على عاصم حسب الطريقة التي تلقاها عن أبي عبد الرحمن السّلمي عن علي بن أبي طالب ﷺ.

واشتهرت رواية حفص في البلدان، ومازال المسلمون إلى الآن يتلقونها بالرضا والقبول، وهي أشهر الروايات في شتى بقاع الأرض في هذا العصر، ومازال إسنادها متصلا بحمد الله تعالى، فشيوخ القراءات المعاصرون تلقوها عن شيوخهم مسندة، مضبوطة كما قرأ بها حفص نفسه عن شيخه عاصم بن أبي النّجود.

والآن يقرأ برواية حفص عن عاصم في معظم الأقطار الإسلاميّة ومن ذلك بلدان الشرق العربي وبلدان الخليج العربي، وغالب مصر، والهند، وباكستان، وتركيا، وأفغانستان وغيرها، وتقرأ بها أيضا الجاليات الإسلاميّة في الغرب.

ويقرأ برواية حفص عن عاصم ضمن القراءات العشر المتواترة في نطاق الدراسة المتخصصة في فن القراءات في الجامعات الإسلاميّة، وعلى الشيوخ المقرئين في المساجد في نطاق التخصص أيضا في شتى أنحاء العالم الإسلامي.

ونظرا لشهرة رواية حفص عن عاصم فقد طبعت عدة مصاحف بهذه الرواية تيسيرا على القراء، ومن هذه المصاحف نذكر ما يلي:

1 ـ المصحف الأميري، وهو مصحف أشرفت على تصحيحه ومراجعته لجنة علمية من جلة علماء القراءات واللغة بالأزهر الشريف برئاسة شيخ المقاري المصرية في عصره الشيخ محمد بن علي بن خلف الحسيني، وعضوية: حفني ناصف، ومصطفى عناني، وأحمد الإسكندري، وهي لجنة معينة من قبل الملك فؤاد الأول، وقد طبع هذا المصحف المصحح بغاية الدقة في ثوب أنيق جميل سنة 1342هـ/ 1923م بالقاهرة، مصر، المطبعة الأميرية، على مقتضى رواية حفص، وقد تلقى العالم الإسلامي هذا المصحف بالقبول، وصار إمام المصاحف، فالكثير مما طبع بعده إما أن يكون منقولا عنه بواسطة التصوير، وإما أن يكون معتمدا عليه في كتابته، ومن ذلك المصحف الذي نشرته مكتبة الجمهورية المصريّة (المكتبة الملكيّة) بالقاهرة، مصر، سنة 1367هـ/ 1947م بتصحيح شيخ المقاري المصرية علي محمد الضباع.

وأصبحت ملايين النسخ تطبع منه سنويا، وقد أجمع العلماء في المشرق والمغرب على القول بتوفر الدقة الكاملة في رسمه وكتابته.

2 ـ مصحف التجويد، وهو مصحف برواية حفص أيضا، وميزته أنه يعين على تعلم قواعد تجويد القرآن الكريم، وذلك بتدوين أحكام التجويد في النص القرآني المكتوب بكامله، باعتماد عدة ألوان متغايرة (البني، الأحمر، البرتقالي، البنفسجي، الأخضر، الرمادي)، مع شرح للرموز اللونية والمدية في أسفل كل صفحة من صفحاته، ثم شرحها في نهاية المصحف أيضا مزيدا في الإيضاح، وهي طريقة تعليمية هامة وناجعة إلى حدّ كبير. وقد صدر هذا المصحف الشريف عن دار المعرفة، دمشق، ط1، 1414هـ/ 1994م، وقد أشرفت على مراجعته وتصحيحه على مقتضى قواعد رواية حفص عن عاصم هيئة عليا من كبار علماء بلاد الشام برئاسة المرحوم الشيخ محمد أبي اليسر عابدين، وصاحب هذه الفكرة هو المهندس السوري صبحي طه. وأشرفت على تدوين أحكام التجويد لجنة علميّة عليا من كبار العلماء على رأسها الأستاذ الشيخ محمد حبش ـ من جامعة دمشق ـ وهو الذي قام بتنفيذ هذا العمل الجليل.

3 ـ مصحف شريف، بهامشه القراءات العشر المتواترة، نشرته دار المهاجر للنشر والتوزيع، المدينة المنورة، ط3، 1414هـ/ 1994م، وقد أشرفت على مراجعته وتصحيحه لجنة

علمية من كبار علماء بلاد الشام برئاسة المرحوم الشيخ محمد أبي اليسر عابدين. وصاحب هذه الفكرة هو علي بن محمد بلفقيه. وأعدّ كتاب القراءات العشر المتواترة المطبوع بهامش هذا المصحف برواية حفص الشيخ محمد كريّم راجح، شيخ القراء في الديار الشامية، والشيخ محمد فهد خاروف، وهي نسخة فريدة، والأولى من نوعها في المصاحف المطبوعة.

وهذا المصحف مع ما كتب على هامشه مفيد لمن أراد الاطلاع على القراءات العشر المتواترة، يغنيه عن غيره من الكتب.

4 ـ مصحف شريف، بهامشه القراءات الأربع عشرة، نشرته دار ابن كثير، ودار الكلم الطّيب، دمشق، بيروت، ط1، 1416هـ/ 1995م، وقد أشرف على مراجعته وتصحيحه الشيخان محمد فهد خاروف، ومحمد كريم راجح، وصاحب هذه الفكرة هو الشيخ محمد فهد خاروف الذي ألف هذا الكتاب وسماه «الميسّر في القراءات الأربع عشرة» وهو مطبوع بهامش هذا المصحف برواية حفص، وراجع عمله هذا الشيخ محمد كريّم راجح، وقد فصل المؤلف بين القراءات العشر المتواترة والقراءات الأربع الشاذة في الهامش، كما ذيل كتابه بكتابين آخرين هما:

أصول الميسّر في القراءات الأربع عشرة، وتراجم القراء الأربعة عشر.

وهذا المصحف مع ما كتب على هامشه من كتب مفيد لمن أراد الاطّلاع على القراءات الصحيحة والشاذة معا، ويغنيه عن غيره من الكتب.

وقد سجّلت ختمة قرآنية برواية حفص عن عاصم على شريط بصوت الشيخ محمود خليل الحصري شيخ المقاري بالديار المصرية لأول مرة في تاريخ الإسلام سنة 1380هـ/ 1961م، وبدئ من ذلك الوقت بتوزيع المصحف المرتل، ثمّ سجلت ختمات أخرى برواية حفص من طرف مقرئين آخرين، منهم الشيخ محمد بن سليمان المحيسني (في صلاة التراويح).

ولحفص منهجه في القراءة، وفيما يلي مختصره:

بين السورتين: فصل حفص بالبسملة بين كل سورتين إلا بين الأنفال وبراءة فله ثلاثة أوجه: الوقف والسكت (السكت في اصطلاح القراء هو: قطع الصوت زمنا هو دون زمن الوقف عادة من غير تنفّس) والوصل، والثلاثة بدون بسملة، وتقرأ في الأداء على هذا الترتيب.

وأمّا فيما عدا الأنفال وبراءة فله مع البسملة ثلاثة أوجه:

1 ـ الوقف على آخر السورة وعلى البسملة، ويعبّر عنه بـ«قف وقف» أو بـ«قطع الجميع».

2 ـ الوقف على آخر السورة ووصل البسملة بأول السورة التالية، ويعبّر عنه بـ«قف وصل».

3 ـ وصل آخر السورة بالبسملة ووصل البسملة بأول السورة التالية، ويعبّر عنه بـ«صل الجميع» أو «وصل الجميع».

المد والقصر: لحفص في المدّين المتصل نحو ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: 22]، والمنفصل نحو ﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [التحريم: 6] التوسط وجها واحدا

بمقدار أربع حركات (الحركة في اصطلاح القراء هي: وحدة قياسية لتقدير زمن المد والسكت والغنة، وقدرها علماء القراءات بالزمن الذي يستغرقه بسط الإصبع أو قبضه بحالة متوسطة، وقدّرها علماء الصوت المحدثون بحوالي 42، 0 من الثانية).

هاء الكناية: هاء الكناية في اصطلاح القراء هي: الهاء الزائدة الدالة على الواحد المذكر الغائب. قرأ حفص كبقية القراء السبعة بصلة هاء الكناية (الصلة في اصطلاح القراء هنا هي: إضافة حرف مد لهاء الكناية) الواقعة بين متحركين في نحو ﴿بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: 26] إلا أن له استثناءات في الكلمات التي خرج فيها بعض القراء السبعة على أصولهم وهي:

- ﴿يُؤَدِّهِۦٓ﴾ [آل عمران: 75]/ ﴿نُوَلِّهِۦ﴾ [النساء: 115]، ﴿وَنُصْلِهِۦ﴾ [النساء: 115]، (نؤته) [آل عمران: 145، الشورى: 20]، وهذه الكلمات الأربع قرأها حفص بالتحريك مع الصلة.

- ﴿فَأَلْقِهْ﴾ [النمل: 28]: قرأها حفص بالإسكان.

- ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ [النور: 52]: قرأها حفص بإسكان القاف وكسر الهاء واختلاسها (الاختلاس في اصطلاح القراء هنا: عدم صلة الهاء بحرف مد).

- ﴿يَأْتِهِۦ﴾ [طه: 75]: قرأها حفص بالكسر مع الصلة.

- ﴿يَرْضَهُ﴾ [الزمر: 7]: قرأها حفص بالضم مع الاختلاس.

- ﴿يَـرَهُۥ﴾ [الزلزلة: 7 - 8]: قرأها حفص بالضم مع الصلة.

- ﴿أَرْجِهْ﴾ [الأعراف: 111، الشعراء: 36]: قرأ حفص بعدم الهمز وإسكان الهاء.

والملاحظ أن حفصا وافق ابن كثير المكي في صلة هاء الكناية إذا وقعت بين ساكن ومتحرك في موضع واحد وهو ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا﴾ [الفرقان: 69] خلافا لقاعدته العامة في مدّة الصّلة وقصرها.

الهمزتان من كلمة وكلمتين: قرأ حفص بتحقيق الهمزتين من كلمة بدون إدخال ألف بينهما (التحقيق في اصطلاح القراء هو: إبقاء الهمزة على لفظها دون تغيير في النطق بها) نحو ﴿ءَأَنتَ﴾ [المائدة: 116]، وذلك أيضا بالنسبة للهمزتين من كلمتين نحو ﴿جَآءَ أَحَدٌ﴾ [المائدة: 6]

والملاحظ أن حفصا خالف أصله في الهمزتين من كلمة في قوله تعالى ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: 44] فقرأ هنا بتحقيق الأولى وتسهيل الهمزة الثانية بين بين بدون إدخال ألف بينهما (التسهيل في اصطلاح القراء هو: النطق بحرف بين الهمزة وبين الحراف المجانس لحركتها، فتكون المفتوحة بين الهمزة والألف، والمضمومة بين الهمزة والواو، والمكسورة بين الهمزة والياء).

الإظهار والإدغام:

- يظهر حفص ذال إذ نحو ﴿إِذْ تَبَرَّأَ﴾ [البقرة: 166].

- ويظهر دال قد نحو ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ [المجادلة: 1].

- ويظهر تاء التأنيث الساكنة نحو ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ [النبأ: 20].

ـ ويظهر لامي هل وبل نحو ﴿هَلْ نُنَبِّئُكُم﴾ [الكهف: 103]، ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ﴾ [الفتح: 12].

الفتح والإمالة: الفتح في اصطلاح القراء هو: فتح القارئ لفمه عند النطق بالحرف لا فتح الحرف، إذا الألف لا تقبل الحركة، وهو مقابل للإمالة، والإمالة في اصطلاحهم هي: جنوح الفتحة نحو الكسرة والألف نحو الياء.

ـ لم يمل حفص في جميع القرآن الكريم سوى ألف ﴿مَجْرِيٰهَا﴾ [هود: 41] إمالة كبرى (الإمالة الكبرى في اصطلاح القراء هي: تقريب الفتحة من الكسر والألف من الياء، من غير قلب خالص ولا إشباع مبالغ فيه، وتسمى أيضا: المحضة، والبطح، والإضجاع).

ياءات الإضافة: ياء الإضافة في اصطلاح القراء هي: الياء الزائدة الدالة على المتكلم.

ـ قرأ حفص ﴿مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6]. بياء ساكنة مدية.

ـ قرأ حفص بالسكون المدي في الياء الواقعة قبل همزة مفتوحة نحو ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ﴾ [البقرة: 30].

ـ يفتح حفص الياء في ﴿وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ﴾ [المائدة: 116]، ويفتح ﴿وَجْهِىَ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: 20]، و﴿أَجْرِىَ إِلَّا﴾، في جميع المواضع من القرآن الكريم، مثل [يونس: 72].

وحصر هذه الياءات مثبت في كتب القراءات.

الياءات الزوائد: الياء الزائدة في اصطلاح القراء هي: الياء المتطرفة الزائدة في التلاوة على رسم المصاحف العثمانية.

ـ يحذف حفص الياءات الزوائد في القرآن الكريم في نحو ﴿وَيَسْرِ﴾ [الفجر: 4] إلا موضعا واحدا أثبت فيه الياء وهو ﴿فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ﴾ [النمل: 36] وهي مفتوحة في الوصل، وليس لحفص من الزوائد في القرآن الكريم إلّا هذا.

وحصر هذه الياءات مثبت في كتب القراءات.

فرش الحروف: فرش الحروف في اصطلاح القراء هو: ما يقلّ دوره من حروف القراءات المختلف فيها، ولا يطرد بل ينفرد مثل اختلاف القراء في ﴿مَٰلِكِ﴾ [الفاتحة: 4] بين الحذف والإثبات.

ـ قرأ حفص بالسكت في أربع كلمات (السكت في اصطلاح القراء هو: قطع الصوت زمنا هو دون زمن الوقف عادة من غير تنفس): ﴿عِوَجَا ۜ قَيِّمًا﴾ [الكهف: 1 ـ 2]، ﴿مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا﴾ [يس: 52] ﴿مَنْ ۜ رَاقٍ﴾ [القيامة: 27]، ﴿بَلْ ۜ رَانَ﴾ [المطففين: 14]. ووجه السكت هنا أنه يوضح المعاني أكثر من الوصل، لأنّ وصلها قد يوهم معنى غير مراد.

ـ قرأ حفص ﴿هُزُوًا﴾ حيث وقع في التنزيل بإبدال الهمزة واوا وصلا ووقفا، مثلا [البقرة: 67]، ووجه الإبدال التخفيف.

ـ قرأ حفص ﴿ٱلْبُيُوتَ﴾ و﴿بُيُوتَ﴾ حيث وقع في القرآن الكريم بضم الباء مثلا [النور: 36، البقرة: 189]. ووجه الإتيان بالكلام على الأصل.

وحصر هذه الحروف مثبت في كتب القراءات.

■ آثاره

أ ـ المؤلّفات حول رواية حفص:

1 ـ تحفة الإخوان برواية حفص بن سليمان للواسطي، عبد الله بن عبد المؤمن،

(ت 741هـ/ 1340م). مخطوط بجامعة الملك سعود بالرياض، السعودية، رقمه: 9/ 2484؛ 2 ـ القواعد السنية في قراءة حفص عن عاصم من طريق الشاطبية للعدوي، إبراهيم بن إسماعيل، (ت 1099هـ/ 1687م). مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق، رقمه: 305؛ 3 ـ إرشاد المبتدي لرواية أبي عمر حفص الأسدي لموسى المغربي (القرن 11هـ/ 17م). مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، رقمه: 488؛ 4 ـ منحة المنان في قراءة حفص المفضّل بالإتّفاق للطّرودي، مصطفى بن أحمد، (القرن 11 ـ 12هـ/ 17 ـ 18م). مخطوط بدار الكتب الوطنيّة بتونس، رقمه: 488؛ 5 ـ عقد الجمان في قراءة حفص بن سليمان لماضور، محمد بن محمد. (ت 1226هـ/ 1811م). مخطوط بدار الكتب الوطنية بتونس، رقمه: 17961؛ 6 ـ تذكرة الإخوان بأحكام رواية حفص للضباع، علي محمد. طبع في مصر؛ 7 ـ صريح النص في الكلمات المختلف فيها عن حفص للضباع، علي محمد، مطبعة الحلبي وأولاده، مصر 1346هـ؛ 8 ـ قواعد وأحكام تجويد القرآن على رواية حفص بن سليمان لملحس، محمد سعيد، دار الإسراء للنشر والتوزيع، د. ت؛ 9 ـ قواعد وأحكام تجويد على رواية حفص عن عاصم بن أبي النّجود للقاري، عبد العزيز، مطابع المختار الإسلامي، ط 4، 1399هـ؛ 10 ـ الأصوات في رواية حفص عن عاصم لأبي الخير، أحمد بن مصطفى. الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، ط 1، 1409هـ/ 1989م؛

ب ـ مؤلفات في القراءات تحتوي على قواعد رواية حفص:

11 ـ كتاب السبعة في القراءات لابن مجاهد. تحقيق: شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط2، 1980م؛ 12 ـ التبصرة في القراءات السبع لمكي بن أبي طالب، تحقيق: محمد غوث الندوي، الدار السلفية، الهند، 1399هـ/ 1979م؛ 13 ـ التيسير في القراءات السبع لأبي عمرو الداني. تصحيح، أوتوبرتزل (Otto Pretzl)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، 1406هـ/ 1985م؛ 14 ـ حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع للشاطبي، مطبوع ضمن مجموعة "إتحاف البررة بالمتون العشرة" للضباع، طبع الحلبي، مصر، 1354هـ/ 1935م؛ 15 ـ إبراز المعاني من حرز الأماني لأبي شامة. مطبعة الحلبي، مصر، 1349هـ؛ 16 ـ النشر في القراءات العشر لابن الجزري. المكتبة التجارية الكبرى، مصر، د.ت؛ 17 ـ غيث النفع في القراءات السبع لعلي النوري. طبع على هامش شرح ابن القاصح على الشاطبية المسمى سراج القاري، دار الفكر، د. ت؛ 18 ـ البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة للقاضي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط 1، 1981؛ 19 ـ المهذب في القراءات العشر وتوجيهها من طريق طيبة النشر لمحسين، مكتبة الكليات الأزهرية، مصر، ط 2، 1389هـ/ 1978م؛

ج ـ مؤلفات تحتوي على توجيه قواعد رواية حفص:

20 ـ الحجة للقرّاء السبعة لأبي علي الفارسي. تحقيق: بدر الدين قهوجي وبشير

حوبيجاتي، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، ط 1، 1404هـ/ 1984م؛ 21 ـ الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها لمكي بن أبي طالب، تحقيق: محيي الدين رمضان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 4، 1407هـ/ 1987م؛ 22 ـ المغني في توجيه القراءات العشر المتواترة لمحسين، دار الجيل بيروت، مكتبة الكليات الأزهريّة القاهرة، ط 2، 1408هـ/ 1988م.

المصادر والمراجع

● الأندرابي، قراءات القراء المعروفين بروايات الرواة المشهورين، تح. أحمد الجنابي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405هـ/ 1985م، ط 2، 102 ـ 106؛ ● ابن الباذش، الإقناع في القراءات السبع، تح. عبد المجيد قطامش، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، دار الفكر، دمشق، 1403هـ، ط1، 1/ 117، 120 ـ 123؛ ● البخاري، التاريخ الكبير، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة بحيدر آباد الدكن، الهند، 1378هـ/ 1959م، ط 1، 2/ 363؛ ● ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، نشر ج. برجستراسر (G. Bergstraesser)، دار الكتب العلميّة، بيروت، 1400هـ/ 1980م، ط 2، 1/ 254 ـ 255؛● النشر في القراءات العشر، المكتبة التجاريّة الكبرى، مصر، د. ت، 1/ 152 ـ 156؛ ● ابن أبي حاتم الرازي، الجرح والتعديل، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند، 1360هـ/ 1941م، ط1، 3/ 173 ـ 174؛ ● ابن حجر، تهذيب التهذيب، مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن، الهند، 1326هـ، ط1، 2/ 400 ـ 402؛ ● الذهبي، الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، تح. عزت عطية وموسى الموشي، دار الكتب الحديثة، القاهرة، 1972م، 1/ 240؛ ● معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار، تح. بشار عواد معروف وأصحابه، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1404هـ/ 1984م، ط1، 1/ 140 ـ 141؛ ● ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تح. علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية للحلبي، مصر، 1382هـ/ 1963م، ط1، 1/ 558 ـ 559؛ ● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، 1986م، ط 7، 2/ 264؛ ● الشاطبي، حرز الأماني ووجه التهاني، مطبعة الحلبي وأولاده بمصر، 1347هـ، 7؛ ● صبحي الصالح، مباحث في علوم القرآن، دار العلم للملايين، بيروت، 1977، ط 10، 100؛ ● ابن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسيّة للنشر، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، د. ت، 1/ 63؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د. ت، 1/ 293؛ ● أبو عمرو الداني، التيسير في القراءات السبع، تصحيح أوتو برتزل (Otto Pretzel)، دار

الكتاب العربي، بيروت، 1406هـ/ 1985م، ط 3، 6، 14 - 15؛ ● القسطلاني، لطائف الإشارات لفنون القراءات، تح. عامر السيد عثمان، وعبد الصبور شاهين، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، 1392هـ/ 1972م، 1/ 103، 144 - 147؛ ● القمحاوي، البحث والاستقراء في تراجم القراء، مكتبة الكليات الأزهريّة، القاهرة، 1981م، ط 1، 44 - 45؛ ● لبيب السعيد، الجمع الصوتي الأوّل للقرآن، دار المعارف، القاهرة، 1978 م، ط 2، 90؛ ● لجنة علميّة، الفهرس الشامل للتراث العربي الإسلامي المخطوط، نشر المجمع الملكي، مؤسسة آل البيت لبحوث الحضارة الإسلاميّة، عمّان، 1987م، 1/ 276، 2/ 532؛ ● النيفر، محمد الشاذلي، مقدمة تحقيق تنبيه الغافلين لعلي النوري، نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله، تونس، 1974م، 18؛ ● محيسن، في رحاب القرآن الكريم، مكتبة الكليات الأزهريّة، القاهرة، 1400هـ/ 1980م، 2/ 341 - 342؛ ● معجم حفاظ القرآن، دار الجيل، بيروت، 1412هـ/ 1992م، ط 1، 1/ 210 - 211؛ ● المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، دار المأمون للتراث، دمشق، بيروت، 1402هـ/ 1982م، ط 1، 1/ 302؛ ● ابن النديم، الفهرست. المكتبة التجارية الكبرى، مصر، 1348هـ، 43؛ ● النشار، البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة، تح. علي معوّض وأصحابه، عالم الكتب، بيروت، 1421هـ/ 2000م، ط 1، 1/ 98 - 99؛ ● الهاشمي، قراء القرآن، دار ابن كثير، دمشق - بيروت، 1414هـ/ 1993م، ط 1، 121 - 122؛ ● اليافعي، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان، تح. عبد الله الجبوري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405هـ/ 1984م، ط 1، 1/ 391؛ ● عبد الرحمٰن، عبد اللطيف، رواية الامام حفص للقرآن الكريم وأحكامها، مجلة جوهر الإسلام، تونس، السنة 7، عدد 6، 1395هـ/ 1975م.

د. فتحي العبيدي

جامعة الزيتونة - تونس

ابن أبي حفصة، أبو الهيذام مروان بن سليمان

(105هـ/724م - 182هـ/798م)

مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة، كنيته أبو الهَيْذام، أو أبو السِّمْط، ولقبه الكَمّر لبيت شعر قاله. ولد سنة 105هـ/ 724م [معجم الشعراء للمرزباني، ص317].

جد أبيه أبو حفصة اسمه يزيد، مولى مروان ابن الحكم، وأصلهم يهود من موالي السموأل ابن عادياء، وهم يدعون أنهم موالي عثمان ابن عفان، وإنّما اعتق مروان بن الحكم أبا حفصة يوم الدار لقتاله مع مروان عن عثمان قتالا شديدًا، وجرح مروان، فحمله، وعني به داود حتّى شفي، فأعتقه، ونزل له عن أم ولد يقال لها سكّر، فأنجبت له بنتا سماها حفصة، فحضنها، وكنّي بها.

وقيل إن عثمان بن عفان اشتراه غلاما من سبي اصطخر، ووهبه لمروان بن الحكم، وكان شيخًا متدانيا، يستبشع منظره، ومنازل أهله باليمامة، وهو شاعر مفلق [معجم الشعراء للمرزباني، ص 317]

وقد ولّاه مروان بن الحكم على خراج اليمامة، وزوّج بامرأة من حرائر العرب من بني حنيفة، وقال يوم أعتق يوم الدار لبلائه:

بنو مروان قوم أعتقوني
وكلُّ الناسِ بعدَهُمُ عبيدُ

أخباره في العصر الأموي قليلة، وقال الشعر وهو لم يبلغ العشرين، وَفَدَ على الوليد بن يزيد، وذكر الإخباريون أنه لم يمدحه، وأنه أرتج عليه، ما عدا ابن عساكر الذي أورد شعرًا مدحه به، وكان برفقة الحسين بن مطير وطُرَيْح الثقفي.

أما أخباره في العصر العباسي فكثيرة، فقد تردّد على عمال المنصور وبخاصة والي مكّة السريّ بن عبد الله بن الحارث بن العباس، ومعن بن زائدة والي اليمن الذي مدحه كثيرًا، ومدح المهدي، والهادي، والرشيد، ومدح البرامكة وبخاصة يحيى بن خالد وولديه المفضّل وجعفر، كما مدح عبد الله بن طاهر [الأغاني، مجلد 10].

وكان بخيلا ضُربت ببخله الأمثال، وعدّه أبو عبيدة من البخلاء اللئام. وعدّه من المجيدين المحلّلين للشعر، ومن الشعراء المخضرمين، وتعصّب للعباسيين وعرَّض بالشيعة في شعره مما حمل بعضهم من المتطرّفين على اغتياله سنة 182هـ/ 798م أيام الرشيد، ودفن ببغداد.

ويمكن القول إن مروان بن أبي حفصة كان متكسّبا بشعره، فقد خدم الأمويين، ثمّ تنصّل من ماضيه ومدح العباسيين.

وهو من أسرة كان فيها غير شاعر، فأبو حفصة كان شاعرًا، ويحيى كان شاعرًا مدح الوليد بن عبد الملك، وأم يحيى هي لحناء بنت ميمون من ولد النابغة الجعدي، وذكر

بعضهم بأن الشعر أتى آل أبي حفصة بذلك السبب. وتذكر المصادر بأن عشرة شعراء تتابعوا منهم، ذكر هذا ابن النديم والثعالبي، وجميعهم من الشعراء المخضرمين الذي عاشوا في دولة بني أميّة والدولة العباسية.

وقد عرض بعض النقاد رأيهم في شاعرية مروان، فالأصمعي لا يسوي بينه وبين بشار، وأنه كان مولدا، ولم يكن له علم باللغة، وابن الأعرابي يختم الشعر به، وابن المعتز يعدُّه من المجيدين المحككين للشعر، وفضّله يونس بن حبيب على الأعشى، وشهد له خلف الأحمر وفضّل شعره على شعر الأعشى، أما إسحاق الموصلي وأبو عمرو الشيباني، فكانا يفضلانه على بشار، ومسلم.

وذكر ابن جنّي أنه قال: إنّي إذا أردت قول القصيدة رفعتها في حول أقولها في أربعة أشهر، وأنتحلها في أربعة، وأعرضها في أربعة، فهو من عبيد الشعر.

وللشريف المرتضى رأي في شعره وشاعريته فهو متساوي الكلام، متشابه الألفاظ، غير متصرّف في المعاني، ولا غوّاص عليها، ولا مدقق لها، وهو غزير الشعر قريب المعنى، إلّا أنّه شاعر له تجويد وحذق وهو أشعر من كثير من أهل زمانه وطبقته، وأشعر شعراء أهله، وهو أقل من مسلم بن الوليد، وبشار ابن برد، وليس بمقصر دونهما شديدًا، ولا منحط عنهما بعيدا.

أما ديوان شعره فلم يعثر على مخطوطة ديوانه، وهو أمر مستغرب، وربّما كان السبب أن الاهتمام في بدايات عصر التدوين انصب على دواوين الجاهليين والإسلاميين حتّى نهاية القرن الأول، وربّما زاد ذلك حتّى غطّى النصف الأول من القرن الثاني.

وفي شعره المجموع من المصادر تبرز أغراض الشعر الأربعة مرتبة حسب كثرة ورودها وهي:

المدح، والرثاء، والهجاء، والوصف.

ويبدو من أخباره أنه تنكّر لماضيه مع الأمويين، ونلاحظ أن أخباره في العصر العباسي يمكن تلخيصها كالآتي: لم يقصد السفاح، وفكر في القدوم إلى المنصور، لكن المنية عاجلت الأخير. ولكنّه تردد على عمال المنصور، وأهمّهم معن بن زائدة الشيباني والي اليمن، والسريّ بن عبد الله والي مكة، ثم وفد على المهدي وامتدحه حتّى توفّي، فتحوّل إلى الهادي، ثمّ تحوّل بعد موته إلى هارون الرشيد، فمدحه ومدح وزراءه من البرامكة، كما مدح عبد الله بن طاهر.

أما الذي استفرغ فيه شعره كمًّا وجودة فهو معن ابن زائدة، ولذلك نجد الخلفاء جميعا راجعوه في مديحه لمعن ورثائه له، وتحاموه في أوّل الأمر، ثمّ قبلوه، وقربوه، وأجزلوا له العطاء.

وقال صاحب «ديوان المعاني» [1/ 47] إنّ أمدح شيء قاله محدَثٌ قولَ مروان بن أبي حفصة في معن بن زائدة:

بنو مطر يوم اللقاءِ كأنّهم
أسودٌ لها في غيل خفّان أشبلُ
هم المانعون الجارَ حتّى كأنّما
لجارهم بين السّماكين منزلُ
هم القوم إن قالوا أصابُوا وإن دعَوْا
أجابوا وإنْ أعطوا أطابوا وأجزلوا

وروى له من الشعر الجيّد قوله:

كفى القبائلَ معنٌ كلَّ معضلة
يُحمَى بها الدينُ أو يُرعَى بها الحَسَبُ

كنزُ المحامد والتقوى ذخائره
وليس من كنزه الأوراق والذهبُ

أنت الشهاب الذي يُرمَى العدو به
فيستنير وتخبُو عنده الشُهُبُ

وعدّ صاحب «ديوان المعاني» البيت الآتي من أجود ما قيل في الرزانة:

ثلاثٌ بأمثالِ الجبالِ حباهُمُ
وأحلامهم منها لدى الوزن أثقلُ

ويصف مروان شعره وقوة تأثيره، فيقول:

إنّي أقول قصائدًا جوّالةً
أبدًا تجول خوالعًا أرسانَها

من كلّ قافية إذا جرّبتُها
جمحتْ فلم تملك يَدايَ عنانَها

سارت بيوتي في البلاد فأمعَنَتْ
وبيوتُ غيري لم ترِمْ أوطانَها

وأورد له صاحب «حماسة الخالدين» في أعظم البلاء:

بلاءٌ ليس يشبِهه بلاءٌ
عداوةُ غيرِ ذي حسبٍ ودينِ

يبيحك منه عِرضًا لم يصُنْهُ
ويرفع منك في عِرْض مصونِ

وذكر ابن المعتز في طبقاته [ص45 ـ 53] أن مما يستحسن لمروان بن أبي حفصة مراثيه في معن بن زائدة الشيباني، ومدائحه العجيبة فيه. ويقال إنه دخل على جعفر بن يحيى البرمكي، وقد امتدحه بقصيدة، فوقف ينشد:

أبَرُّ فما يرجو جوادٌ لِحاقَه
أبو الفضل سبّاق اللهاميم جعفرُ

وزير إذا ناب الخليفة حادثٌ
أشار بما عنهُ الخليفة يصدرُ

فقال له جعفر: ويحك أنشدني مرثيتك في معن:

وكان الناس كلهم لمعنٍ
إلى أن زار حُفرَتَهُ عِيالا

فأنشده إياها حتّى فرغ من القصيدة، وجعفر يرسل دموعه، فلما سكن قال: أثابك أحد من أهله وولده على هذه شيئا؟ قال: لا، قال جعفر: فلو كان معن حيا، ثمّ سمعها منك، كم كان يثيبك عليها؟ قال: أربعمائة دينار. وأمر له بصرف ألف وستمائة دينار، فقال مروان يذكر ذلك، ويمدح جعفرا، وزادها في مرثيته لمعن:

نفحتَ مكارمًا عن قَبْر معن
لنا ممًّا تجود به سِجالا

فعجَّلتَ العطيةَ يا ابن يحيى
بتاديةٍ ولم تُرِدِ المِطالا

فكافى عن صدَى معنٍ جوادٌ
بأجود راحةٍ بذلتْ نَوالا

وهذه لامية أخرى، كما يرى ابن المعتز، فُضّل بها مروان على شعراء زمانه، يمدح فيها معن بن زائدة الشيباني. ويقال إنه أخذ منه عليها مالًا كثيرًا لا يقدر قدره، ولم ينل أحد من الشعراء الماضين ما ناله مروان بشعره. واللامية طويلة تربو على الستين بيتًا، ومطلعها:

بنو مطر يوم اللقاء كأنّهم
اسودٌ لها في غيل خفّانَ أشبلُ

وهي التي ذكر صاحب «ديوان المعاني» أبياتا منها على أنّها أجود ما قيل في المدح. ويعد ابن المعتز من قلائده وأمهات قصائده في معن ابن زائدة هذه القصيدة في اللامية التي أوّلها:

أمسَى المشيبُ من الشباب بديلاً
ضيفًا أقامَ فما يريد رحيلا

والشيبُ إذ طردَ السوادَ بياضُهُ
كالصُّبحِ أحدث للظلام أفولا

ويعُدّ الكافية أيضًا من القصائد التي يقل وجودها عند أكثر الناس، وهي في مدح معن ابن زائدة:

لام في أمّ مالِكَ عاذلاكا
ولعمر الإلهِ ما أنصفاكا

وسمّاها ابن المعتزّ بالغرّاء، أخذ عليها من ابن معن مالا كثيرا. وعدّ ابن المعتز أيضًا من أمهات شعره وقلائده هذه اللامية:

كأن التي يوم الرحيل تعرّضتْ
لنا من ظباء الرمل ادماءُ مُغْزِلُ

وعدّ ابن المعتز أيضًا مما يستحسن من شعره كلمته في معن يرثيه، ويذكر فعاله، وهي لامية، وفيها يقول:

مضى لسبيله معنٌ وأبقَى
مكارمَ لن تبيد ولن تُنالا

كأنّ الشمس يوم أصيبَ معن
من الإظلام مُلبسة جلالا

والمديح أهمّ موضوع عني به مروان بن أبي حفصة، وأدار شعره عليه. ولعلّ نظرة متفحّصة إلى شعره تؤكد ذلك، ففيه ستّ عشرة قصيدة منها أربع عشرة في المدح، وواحدة في الهجاء، وأخرى في الفخر والتعريض بالشيعة. أما المقطوعات والنتف فقد ضمّت ثلاثين مقطوعة وخمسا وعشرين نتفة تتوزّع بين المدح والهجاء والرثاء لكن معظمها في المدح.

ولما كان شعر مروان في معظم بل جلّه، في العباسيين فهو من الشعراء المحدثين، ويفسّر هذا ترجمة ابن المعتز له، [ص42 ـ 53] وإعلاء منزلته عنده، لذا نجد مدحه لهم لا يكتفي بالمعاني التقليدية الموروثة من حسب، ونسب، وشدّة، وسداد رأي، وشجاعة، وعدل، وإنّما نجد عنده مدحا سياسيا يشبه الدفاع السياسي عنهم، والدعوة لهم، وبيان أحقّيتهم بالخلافة، فالأعمام أحق من الأخوال. وتطلّب ذلك منه معارضة العلويين، والاحتجاج عليهم، ونقض ما كانوا يحتجون به، ووسيلته آيات من القرآن الكريم. وهذا أرضى خلفاء بني العباس الذين اتّصل بهم، فأجروا عليه الأموال. يقول في الخليفة المهدي:

هل تطْمسون من السماء نجومَها
بأكفِّكم أم تستُرون هلالَها

أم تجحَدون مقالةً عن ربكم
جبريل بلّغها النبيَّ فقالها

شهدتْ من الأنفال آخر آية
بتراثهم فأردتم إبطالها

ويقول في قصيدة أخرى يمدح المهدي:

أنّى يكون وليس ذاك بكائن
لبني البناتِ وراثةُ الأعمامِ
ما للنساء مع الرجال فريضةٌ
نزلتْ بذلك سورة الأنعام

وتذكر المصادر أنّ المهدي حينما أنشده زحف من صدر مصلّاه حتّى صار على البساط إعجابًا بما سمع، ثم قال: كم هي؟ قال: مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم [الأغاني، 10/ 910].

ولكن هذا التعصّب للعباسيين حمله أيضًا على هجاء العلويين، كما كلفه حياته ثمنا لذلك، إذ كانت نهاية حياته على يد المتعصبين لآل البيت.

المصادر والمراجع

● ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح. أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف، ط2، 1967م، ص 481؛ ● ابن المعتز، طبقات الشعراء، تح. عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف بمصر، 42 ـ 54، 430 ـ 431؛ ● الأصبهاني، الأغاني، بيروت، دار الثقافة 1964م؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح. إحسان عباس، بيروت، دار صادر، 1973، 5/ 189 ـ 193؛ ● الطبري، تاريخ الطبري، تح. محمد محمد أبو الفضل إبراهيم، دارالمعارف بمصر، 1960 ـ 1969م، 8/ 153، 181، 225، 243، 257، 259؛ ● المرزباني، معجم الشعراء، تح. عبد الستار أحمد فراج، القاهرة، مطبعة عيسى الحلبي، 1960، ص317؛ ● البغدادي، تاريخ بغداد، بيروت، دار الكتاب العربي، د.ت، 13/ 142؛ ● ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، تح. إحسان عباس وبكر عباس، بيروت، دار صادر، 1996، 2/ 153، 309، 310، 312، 327، 328، 4/ 41، 5/ 114، 361؛ ● حماسة الخالدين، 1/ 21، 159، 220، 226، 2/ 94؛ ● ابن الشجري، الحماسة الشجرية، تح. محمود فهمي حجازي وزملاؤه، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض، 1983م، مجلّد2، 3/ 213 ـ 214؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1992م، 8/ 479؛ ● ابن عبد ربه، العقد الفريد، تح. أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري، القاهرة؛ ● خزانة الأدب، تح. عبد السلام هارون، القاهرة، دار الكتاب العربي، 1967م، 1/ 76، 175، 3/ 37، 6/ 301، 8/ 176؛ ● ديوانه، تح. حسين عطوان، دار المعارف بمصر، 1973م، ص 448؛ ● الديوان، شرح أشرف عودة، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1993م، ص 173.

د عفيف عبد الرحمن جمعة
جامعة اليرموك ـ الأردن

الحفظي، إبراهيم بن علي زين العابدين

(1305هـ/1888م - 1372هـ/1952م)

هو إبراهيم بن علي زين العابدين بن إبراهيم بن علي زين العابدين بن محمد ابن أحمد الحفظي، يعود نسبه في أسرة آل بكري العجيليين بـ «رُجال ألمع» في تهامة عسير بجنوبي المملكة العربية السعودية .

ولد في 15 جمادى الأولى 1305هـ/ 1888م في قرية (رُجال) بتهامة عسير بجنوبى الجزيرة العربية.

وتلقى تعليمه الأولي على يدي والده بمسقط رأسه برُجال ألمع، ثم ارتحل في سبيل العلم إلى بلدة المراوعة بتهامة اليمن، حيث أخذ على علمائها علوم الدين واللغة، ومنهم محمد طاهر، ومحمد بن عبد الرحمن الأهدل، وحمد عبد الباري، والشيخ محمد حسن فرج، والشيخ حمزة [محمد بن إبراهيم الحفظي، نفحات من عسير، 202].

نهض هذا العالم بعد عودته من هجرته في سبيل العلم بالتدريس والفتيا والقضاء، إذ قيل عنه إنه: «بعد ما رجع من هجرته إلى بلده كان المرجع إليه بعد أبيه في القضاء والإفتاء» [م. س، 203]، فلقد كان قاضيا في منطقة رُجال ألمع بتهامة عسير منذ عهد مبكر من حياته العلمية، حيث أمضى في وظيفة القضاء ثلاثين عاما [م. س].

وتوفي سنة 1372هـ/ 1952م.

آثاره

قال عنه ولده محمد بن إبراهيم الحفظي: «لم يتفرغ للتأليف، ولو أنه قد ألف تأليفات مبسطة في الفقه والنحو، وكتب الشعر في مناسبات مختلفة، منها: الدينية البحتة، والمراسلات مع أصحابه، ومشايخه، وبعضها في العمل للدار الآخرة».

المصادر والمراجع

- الحفظي، محمد بن إبراهيم، نفحات من عسير.

د. عبد الله بن محمد أبو داهش
جامعة الملك خالد - السعودية

الحفظي، الحسن بن علي بن محمد

(1345هـ/1926م - 1406هـ/1986م)

هو الحسن بن علي بن محمد بن حسن بن عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن أحمد بن عبد القادر الحفظي [نبذة يسيرة في ترجمة حاله، مخ.]، يعود نسبه في أسرة آل بكري العجيليين بـ «رُجال ألمع» بتهامة عسير بجنوبي المملكة العربية السعودية.

ولد نحو 1345هـ/ 1926م ببلدة رُجال بتهامة عسير بجنوبي الجزيرة العربية.

تلقى تعليمه الأولي في بلده رُجال عن علماء بلده، ثم: «انتظم مع أقرانه في المدرسة الحكومية برُجال التي تأسست عام 1359هـ/ 1940م، وكان من بعدُ كثير الطموح العلمي، إذ كان يجلس في حلقات الدرس، يتلقى علومه الشرعية، والأدبية، وقواعد اللغة العربية على علماء أعلام» من أهل بلده وغيرهم مثل إبراهيم بن زين العابدين الحفظي، ومصطفى صبري الأماسي، وعيسى فهيم، وهاشم بن سعيد النعمي.

ثم تم تعيينه بعد تخرجه من مدرسته: «مدرسا بمحائل عام 1366هـ/ 1946م، وانتقل بعد ذلك مدرسا في المدرسة الحكومية برُجال، واستمر مدرسا، ثم مراقبا فوكيلا، ومديرا لتلك المدرسة، حيث كانت خدمته في ميدان التعليم أربعين عاما، منها عامان في مدرسة شمسان الابتدائية بأبها. وكان خطيبا وإماما لمسجد رُجال، ثم خطيبا وإماما لمسجد الشيخ عبد الله بن يوسف الوابل بأبها، . . . وقد عاش معلما ومؤدبا في بلده يقصده مريدو الخير، وطلاب العلم، فيأخذون عنه، ويتلقون منه، حيث تخرج على يديه عدد كبير من طلاب العلم والدارسين» [م. س].

توفي في 8 رجب 1406هـ/ 1986م، إثر حادث مروري أليم.

آثاره

1 - ديوانا شعر، مخ؛ 2 - تاريخ منطقة عسير في فترات متعددة، مخ؛ 3 - حياة مدرسة رُجال ألمع خلال أربعين عاما، مخ؛ 4 - جمع ديوان آل الحفظي بعسير.

المصادر والمراجع

● الحفظي، علي بن الحسن، نبذة يسيرة في ترجمة والده، مخطوطة لم تنشر، توجد صورة منها لدى الباحث؛ ● أبو داهش، عبد الله بن محمد، أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الفكر والأدب بجنوب الجزيرة العربية، ط. دار العبيكان، الرياض، 1419هـ/ 1999م؛ ● النعمي، هاشم بن سعيد، تاريخ عسير في الماضي والحاضر، مؤسسة الطباعة، والصحافة والنشر، (د. ت).

د. عبد الله بن محمد أبو داهش
جامعة الملك خالد - السعودية

الحفظي، عبد الرحمن بن محمد بن أحمد

(ت 1257هـ/1841م)

هو عبد الرحمٰن بن محمد بن أحمد الحفظي بن عبد القادر بن بكري بن محمد العجيلي، يعود نسبه في أسرة آل بكري العجيليين بـ «رُجال ألمع» بتهامة عسير في جنوبي المملكة العربية السعودية.

تلقى تعليمه الأولي على يد عمه الشيخ إبراهيم بن أحمد الزمزمي، وأجيز إجازة عامة من الشيخ محمد بن يحيى الضمدي. رحل في سبيل العلم إلى المخلاف السليماني بتهامة فصحب القاضي الحسن بن أحمد عاكش (1221 ـ 1290هـ) فحصلت له: «المذاكرة معه في كثير من الفنون» [عقود الدرر، 1/ 435].

توفي سنة 1257هـ/ 1841م [م. س، 1/ 439].

آثاره

قال عنه عاكش: «قرأ في النحو فأدرك فيه إدراكا كليا، وشارك في الفقه، وفي غيره من الفنون. . . واشتغل بفن الأدب، وعانى نظم الشعر، وكاتب به وكوتب»، [م. س] له:

1 ـ نسب الفقهاء آل عجيل؛

2 ـ وكتاب الملك العسيري.

المصادر والمراجع

● الحفظي، عبد الرحمٰن بن إبراهيم، شعاع الراحلين، ط 1، مط. دار المعارف بمصر، نشر نادي أبها الأدبي 1408هـ/ 1987م؛ ● عاكش، الحسن بن أحمد الضمدي، عقود الدرر بتراجم علماء القرن الثالث عشر، تح. إسماعيل بن محمد البشري، ط 1، مط. هجر، القاهرة، مصر 1418هـ/ 1998م.

د. عبد الله بن محمد أبو داهش
جامعة الملك خالد ـ السعودية

الحفظي، محمد بن أحمد بن عبد القادر

(1176هـ/1762م ـ 1237هـ/1821م)

هو محمد بن أحمد بن عبد القادر الحفظي بن بكري، يتصل نسبه: بالشيخ العلامة . . . المشهور في البراري والبحور أبي العباس بن موسى بن علي بن عمر بن عجيل، كانت أسرته تسكن بيت الفقيه بتهامة اليمن، ثم نزحت في سنة واحدة بعد الألف إلى قرية رُجال (بضم الراء) البلدة المعروفة في بلاد رُجال ألمع.

ولد سنة 1176هـ/ 1762م، وقيل سنة 1178هـ/ 1763م، على اختلاف فيهما، ومع ذلك يمكن أن تعد سنة 1176هـ هي السنة الحقيقية لمولد هذا العالم، لأنه تم العثور على ورقة خطية تدل على مولده وأن أباه أحمد بن عبد القادر الحفظي قد أرخ له فيها بسنة 1176هـ، إذ قال: «ولد الولد المبارك محمد بن أحمد بن بكري . . . ليلة الأربعاء لأربع وعشرين خلون من ربيع الأول سنة ست وسبعين ومائة وألف».

طلب العلم في صغره على يد والده أحمد بن عبد القادر الحفظي، ثم ارتحل في سبيله إلى: صبيا، والقنفذة، والرجيع، وزبيد، وحضرموت، وقد لبث في رحلته العلمية عشر سنوات «قضاها في الدرس والتحصيل العلمي» [اللجام المكين والزمام المتين].

واشتغل بعد عودته إلى وطنه بالتعليم، إذ أسس هو وأخوه إبراهيم بن أحمد الحفظي الزمزي مدرستين في قريتي: رُجال وعثالف، وقد تولى من بعد ذلك القضاء في بلاد عسير، وكان ـ كما قال ابن زبارة ـ: «المرجع لأهل جهته» [نيل الوطر، 2/ 225].

وكانت وفاته سنة سبع وثلاثين ومائتين وألف من الهجرة بقرية رُجال من أعمال تهامة عسير وقد رثاه عدد من الشعراء.

ويعد محمد بن أحمد الحفظي من أبرز شعراء رُجال ألمع، إذ حفلت مصادر الفكر والأدب لتلك المنطقة بشيء من نتاجه الشعري. وكان كثير المشاركة بشعره في قضايا مجتمعه، وأحداثه السياسية، فقد ناصر حينذاك دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (1115 ـ 1206هـ)، وأيد القائمين عليها.

آثاره

له عدد من المؤلفات المختلفة أهمها:

1 ـ تكملة الظل الممدود في الحوادث والوقائع في عهد آل سعود؛ 2 ـ اللجام المكين والزمام المتين؛ 3 ـ ذوق الطلاب في علم الإعراب؛ 4 ـ درجات الصاعدين إلى مقامات الموحدين؛ 5 ـ النفحات العنبرية في الخطب المنبرية؛ 6 ـ رسائل وأجوبة مفيدة.

المصادر والمراجع

• الحفظي، عبد الرحمٰن بن محمد بن أحمد، نسب الفقهاء آل عجيل، نسخة

مخطوطة، توجد لدى عبد الخالق بن سليمان الحفظي بأبها؛ ● الحفظي، محمد ابن أحمد، مجموعة أشعار الحفظي، نسخة مخطوطة، توجد في قسم المخطوطات بالمكتبة المركزية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، تحت رقم 2334؛ ● ابن سعود، عبد الله، رسالته التي بعثها إلى الشيخ محمد بن عبد الهادي وأولاده، توجد في مكتبة الحسن بن علي الحفظي الخاصة بأبها؛ ● عاكش، الحسن بن أحمد، عقود الدرر في تراجم علماء القرن الثالث عشر، نسخة مخطوطة، توجد في قسم المخطوطات، المكتبة المركزية بجامعة الملك سعود، الرياض تحت رقم 1334؛ ● م. ن. قمع المتجري على أولاد الشيخ بكري، نسخة مخطوطة توجد بمكتبة الحسن بن علي الحفظي أبها؛ ● مجهول، بيان كتب آل الحفظي الموقوفة، يوجد لدى عبد الخالق بن سليمان الحفظي في أبها؛ ● الورقة المخطوطة التي كتبت في تاريخ ولادة محمد بن أحمد الحفظي، توجد لدى الباحث ● ابن بشر، عثمان، عنوان المجد في تاريخ نجد، توزيع مكتبة الرياض الحديثة؛ ● البهكلي، عبد الرحمٰن بن أحمد، نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود، تح. محمد بن أحمد العقيلي، مطبوعات دارة الملك عبد العزيز (22)، مط. دار الهلال، الرياض 1402هـ/ 1982م؛ ● جمعة إبراهيم، الأطلس التاريخي للدولة السعودية، من مطبوعات دارة الملك عبد العزيز، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني 1398هـ/ 1978م؛ ● الحفظي، محمد بن إبراهيم، نفحات من عسير، مط. عسير، أبها، 1393هـ/ 1974م؛ ● الحفظي، محمد بن أحمد، اللجام المكين والزمام المتين، تح. عبد الله أبو داهش، ط1، مط. مازن بأبها، 1405هـ/ 1985م؛ ● أبو داهش، عبد الله، أثر دعوة الشيخ محمد ابن عبد الوهاب في الفكر والأدب بجنوبي الجزيرة العربية، ط1، مط. الشريف، الرياض، 1405هـ/ 1985م؛ ● م. ن.، الحياة الفكرية والأدبية بجنوبي البلاد السعودية، منشورات نادي أبها الأدبي، ط 2، مط. الجنوب، 1406هـ/ 1986م؛ ● ابن زبارة، محمد، نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر، مط. السلفية، القاهرة، 1348هـ/ 1929م؛ ● ابن غنام، حسين، روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام، ط1، مط. مصطفى البابي الحلبي بمصر، توزيع المكتبة الأهلية بالرياض، 1368هـ/ 1949م؛ ● الحفظي، عبد الرحمٰن بن إبراهيم، مؤلفات آل الحفظي، مجلة العرب، ج 3، س 8 (رمضان 1393هـ)، ص 236 ـ 248.

د. عبد الله بن محمد أبو داهش
جامعة الملك خالد ـ السعودية

الحفناوي، أبو المكارم نجم الدين محمد بن سالم

(1101هـ/1690م - 1181هـ/1767م)

نجم الدين أبو المكارم محمد بن سالم ابن أحمد المصري، الشافعي، الخلوتي، المعروف بالحفناوي (أو الحفني).

ولد بقرية حفنة القريبة من مدينة بلبيس بمحافظة الشرقية في مصر، ونشأ بهذه القرية وحفظ بها القرآن إلى سورة الشعراء ثمّ أرسله أبوه - الذي كان يعمل عند بعض أمراء مصر في ذلك الوقت - إلى الجامع الأزهر فأكمل به حفظ القرآن، ثمّ اشتغل بحفظ المتون على يد العديد من الشيوخ والأساتذة.

وقد أخذ العلم عن علماء عصره واجتهد ولازم دروسهم حتّى اكتسب المهارة وأقرأ ودرَّس في حياة شيوخه وأجازوه بالإفتاء والتدريس.

ومن شيوخه: أحمد الجوهري، وأحمد الخليفي، وأحمد الملوي، وعبد الرؤوف البشبيشي، وعبد الله الشبراوي، وعبده الديوي، وعلي بن مصطفى السيواسي، وعيد ابن علي النمرسي، ومحمد بن إبراهيم الزيادي، ومحمد بن عبد الله السجلماسي، ومحمد بن محمد البليدي، ومصطفى بن كمال الدين البكري.. وغيرهم. ومن أجلّ شيوخه الشيخ محمد البديري الدمياطي الشهير بابن الميت والذي أخذ عنه التفسير والحديث والمسندات وإحياء الغزالي.

وقد تولى الحفناوي التدريس في الكثير من حلقات العلم بالقاهرة ثم نقل التدريس إلى الجامع الأزهر. وحين جلس للتدريس لازمه معظم طلبة العلم بالأزهر، ويذكر المؤرخ المرادي أن أكثر من خمسمائة طالب كانوا يحضرون درسه.

ومن أشهر تلاميذه: إسماعيل الغنيمي، وعلي العدوي، ومحمد الزهار، ومحمد الغبلاني... وغيرهم.

وكان الحفناوي بارعًا في كثير من العلوم يأتي على رأسها النحو، والحديث، والأصول، والفقه، والكلام، والحساب، والمنطق، وقد شهد له معاصروه بالتقدم في العلوم، ووصف بأنه «حسن التقدير ذا فصاحة وبيان شهما مهابًا محققًا مدققًا».

آثاره

1 - ثبت الحفناوي؛ 2 - الثمرة البهية في أسماء الصحابة البدرية؛ 3 - حاشية على جامع الصغير للسيوطي؛ 4 - حاشية على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك في النحو؛ 5 - حاشية على شرح التلخيص في الفرائض؛ 6 - حاشية على شرح الرحبية في الفرائض للشنشوري؛ 7 - حاشية على شرح رسالة العضدية للسعد؛ 8 - حاشية على شرح السمرقندية للياسمينة في الجبر والمقابلة؛ 9 - حاشية على شرح الهمزية لابن حجر؛ 10 - رسالة تتعلّق ببطلان المسألة الملفقة

وبطلان العقد الأول بعد وقوع الطلاق الثلاث بقصد إسقاط المحلل؛ 11 ـ رسالة في التقليد في الفروع.

المصادر والمراجع

● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، القسم الثامن، ترجمة عمر صابر عبد الجليل، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1995م، ص 38؛ ● البغدادي، إسماعيل، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بغداد، مكتبة المثنى، د.ت، ص 135، 347، 2/ 183؛ ● هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصريين، استانبول 1951م، 2/ 337؛ ● الجبرتي، عبد الرحمٰن، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، القاهرة، المطبعة العامرة الشرفية، 1322هـ، 1/ 291 ـ 292؛ ● دار الكتب المصرية، فهرس الخزانة التيمورية، القاهرة 1947م، 2/ 65، 203؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط4، بيروت، دار العلم للملايين 1979م، 6/ 134 ـ 135؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، بيروت، مؤسسة الرسالة 1993، 3/ 309؛ ● المرادي، محمد خليل، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، القاهرة 1301هـ، المطبعة الأميرية ببولاق، 4/ 49 ـ 50.

حسام أحمد إسماعيل عبد الظاهر
القاهرة ـ مصر

حقي فرج، إسماعيل

(1310هـ/ 1892م ـ 1368هـ/ 1948م)

ولد في الموصل، وفيها نشأ، درج منذ الصغر شغوفًا بالعلم، كان عصاميًا بكل ما تتسع له الكلمة من معنى، فقد ثقف نفسه منذ الصغر وتعهدها بالعناية، وتتلمذ بأفاضل التدريس الديني في المدارس الدينية من شيوخ عصره من أجلاء العلماء، منهم الشيخ عثمان الديوه جي، والشيخ محمد الشعار، والشيخ إبراهيم القصاب، والشيخ عبد الله النعمة، وقد أجيز على الشيخ القصاب، وكان يحضر مجالس البحث العلمي في الجوامع واستوفى بذلك غاية ما يناله الرجل من ألمعية ذهن ورهافة ذوق وسعة اطلاع وحسن معاشرة ونبل وألفة.

تخرج من دار المعلمين التركية في الموصل سنة 1913، عين معلمًا في مدرسة «النجاح» الأهلية سنة 1920 في عهد الاحتلال البريطاني المؤسسة من قبل «جامعة الآداب»

بعمادة فضيلة الأستاذ محمد رؤوف الغلامي ومساهمة بعض إخوانه من الشباب القومي،وقد غذّى اسماعيل حقي فرج المدرسة بأناشيده الدينية والقومية الحماسية التي تبث في الناشئة روح الوعي والعزة والكرامة،ومنها انتشرت إلى بقية المدارس الرسمية، فألهبت في أوساط التلاميذ مفاخر الشعور الوطني والقومي والديني والحماسة للوطن وآلامه، رغم ما كان يعتري تلك الفترة من رقابة وتضييق لخنق الروح القومية والوطنية. واستمر شاعرنا التدريس في هذه المدرسة التي تحولت فيما بعد إلى مدرسة رسمية ببيئتها العلمية، ثم انتقل إلى مدارس أخرى حتى استقر في المتوسطة الغربية مدرسًا للغة العربية وآدابها إلى أن توفي في شهر كانون الأول 1948.

عدّ اسماعيل حقي فرج من شعراء الموصل المعروفين، وسعى طيلة حياته في خدمة الناشئة في التعليم والتهذيب وبث الروح الإسلامية والعربية فيهم، وتخرج عليه معظم شخصيات الموصل المعروفين، وتتجلى في أشعاره المشاعر الوطنية والقومية، ففي أثناء إثارة مشكلة الموصل بين العراق وتركيا في عشرينات القرن الماضي يؤكد الشاعر على الطابع العربي للمدينة هويةً وتطلعًا وتراثًا،فهي بلدة عربية بأرائها ولسانها وسكانها، وأنها جزء من دولة العرب، ويكرر لفظة «عربية» في العديد من الأبيات الشعرية التي دافع فيها عن عروبة الموصل وأهلها:

هي بلدة عربية رامت بان
تحيا بكم عربية الاحياء

كما عبّر الشاعر عن نزعة قومية وحدوية عند ترحيبه بالوفد السوري الذي زار الموصل سنة 1927:

وبين فيحاء سوريا إذا انتسبت
وبين بغداد ما يدنو به النسب

وقد كانت لإسماعيل حقي فرج دعوات تحررية اجتماعية، منها دعوته إلى تعلم البنات في المدارس وهي دعوة حارة تدخل ضمن إطار مفهومه للإصلاح الاجتماعي دون المساس بالقيم والتقاليد الاجتماعية العربية الإسلامية الأصيلة. كما سعى الشاعر إلى إثارة مشاعر العطف والشفقة والرحمة على الفقراء والمساكين، مبينًا المزايا الدنيوية والآخروية للعطاء والبذل والمساعدة، فهي نجدة وشجاعة وشهامة وإنسانية وتكافل اجتماعي وفخار بين الناس، وهي أجر وجنان الرحمن يوم القيامة. وقد يستثير عواطف السامعين بقصة يتيم فقير يخاطب أمه ويعرض من خلال الخطاب ألوان البؤس التي يقاسيها.

ويعدّ الشاعر اسماعيل حقي فرج من الشعراء الذين يمكن اعتبار قصائدهم قصائد ذات نهج تقليدي في قصائد المدح النبوي التقليدية والإصلاحية وإن تضمنت أحيانًا شيئًا من الالتفات إلى أحوال العصر والمجتمع، لكن هذا الالتفات الوجيز لا يخرجها عن طابعها الأساس ومهمتها التقليدية. وقد يكون اسماعيل حقي فرج أفضلهم صياغة لجملة المعاني الشائعة في قصيدة المولد النبوي وأقربهم إلى روح العصر، وإن كان لا يخرج خروجًا كبيرًا على أسس القصيدة (النبوية) العامة، فنجد في قصيدته البشرى بالولادة ومديح الصفات النبوية وإن كان مديحًا متسمًا

بالواقعية على غير عادة المداحين الصوفية، ثم يذكر انتصاره وصحابته، وتمتزج لديه القيم الدينية بالقيم القومية العربية، وإلى إحياء التراث العربي الإسلامي.

نظم اسماعيل حقي فرج القصائد في مختلف فنون الشعر، وله مجموعة من المقالات والتراجم والتقاريظ، كما ألّف كتبًا تدل على سعة علمه وغزارة مادته منها.

آثاره

1 ـ نجاة اباء الرسول؛ 2 ـ ثلاث ليالي في حمام علي؛ 3 ـ تاريخ المدرسة النظامية، 1943 بترجمة مدرسي المستنصرية والأعلام؛ 4 ـ القضاء الإسلامي، تاريخه، 1942؛ 5 ـ كشف الغمامة لمحو ما كتب على الرخامة، 1948؛ 6 ـ فضلًا عن ثلاثة دفاتر تحتوي على ديوانه الشعري الأخير، لأن ديوانه الأول فقد منه.

المصادر والمراجع

● المختار، أحمد محمد، تاريخ علماء الموصل، الجزء الأول والثاني، ط 2، 1984، 71 ـ 72؛ ● المطبعي، حميد، موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين، الجزء الثالث، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، 1998، 20؛ ● الأطرقجي، ذنون يونس، «الشعر»، في موسوعة الموصل الحضارية، الجزء الخامس جامعة الموصل، 1992، 368، 370، 372 ـ 373؛ ● الشهاب، ذنون يونس، «اسماعيل حقي فرج»، صحيفة الحدباء، الموصل، العدد 136، 1 كانون الثاني، 1984؛ ● مجلة الأديب، العدد 256، في 12 كانون الأول 1948؛ ● مجلة الجزيرة الموصل، العدد 34، شباط 1949.

د. نهلة شهاب أحمد
جامعة الموصل ـ كلية التربية

حقي، محمد بديع

(1339هـ/1920م ـ 1421هـ/2000م)

ولد محمد بديع حقي، المعروف اختصارًا ببديع حقي، في 26/ 6/ 1920 في حي ساروجة، وهو حيّ عريق من أحياء دمشق القديمة. وقد توفي أبوه ولمّا يجاوز الرابعة من عمره، فارتبط بأمّه، وكان لهذا الارتباط العاطفيّ أثر بعيد في حياته وأدبه بعد ذلك. تلقّى بديع علومه في مدارس دمشق، وشُغف في أثناء ذلك بالتاريخ والأدب العربي. ولمّا نال الشهادة الثانويّة العامّة (الباكالوريا)، وراح يتابع دارسته في كلّية الحقوق بجامعة دمشق، صحبه شغفه وتمكّن منه حتّى عُرف به، مّما أهّله لتدريس الأدب

والتاريخ في ثانوية العائذي في أثناء دراسته الجامعيّة، وتدريس التاريخ في كلّية الشريعة بجامعة دمشق بعد تخرّجه في كلّية الحقوق عام 1944م، ولكنّ الزمن لم يمتدّ به في التدريس، إذ سرعان ما عُيّن عام 1945م في السلك الديبلوماسيّ. وراح ابتداء من هذا التاريخ يتنقّل في بلدان كثيرة، ويتعرف على العباد في: بغداد، والجزائر، وباريس، وبرن، وبون، وموسكو، واستانبول، وكابول، وهي العواصم التي عمل فيها سفيرًا لسورية. ساعدته على النجاح في عمله أمور، أولها نيله دبلوم الحقوق الجزائيّة من كلّية الحقوق في السوربون بباريس، وثانيها حصوله على الدكتوراه في الحقوق الدولية عام 1950م من الكلّية نفسها والجامعة ذاتها، في موضوع يخصّ القضيّة الفلسطينية، وثالثها إجادته عددًا من اللغات، ورابعها اتّساع ثقافته التاريخية والأدبية، العربية والأجنبيّة، وخامسها إخلاصه لوطنه وأمّته ووظيفته. ولذلك انتقل بديع حقّي من موظّف في السلك الديبلوماسي إلى سفير فوزير مفوّض في وزارة الخارجية. وبقي في منصبه حتّى أُحيل إلى التقاعد، فعاد ثانية إلى دمشق.

جُبِل بديع حقّي على الورع والتُقى والحياء والعاطفة المتّقدة. وورث عن أمّه، ذات الأصول الريفيّة، الصبر والجَلَد والحنان والتفاؤل والحيويّة. ومن ثَمّ أصبح كتلة من الرقّة والوفاء والتواضع والبساطة والهدوء في إهاب رجل أديب، مما جنح به إلى كتابة الشعر الرومانسيّ، بل إنه أصدر عام 1954م ديوانا من الشعر، عنوانه «سحر»، ونشر عددًا غير قليل من القصائد في الصحف والمجلّات. بيد أنّ موهبة القصّ لديه كانت أصيلة أيضًا، رسّختها قدرته على التخيُّل والقصّ، وارتقت بها خبرته في التعبير عن أدقّ المعاني، وثقافته القصصيّة والروائيّة. ولذلك اتّجه إلى القصّة والرواية، وراض نفسه على أن يفيد من شاعريّته في أثناء ترجمة الشعر والنصوص الأدبية الرومانسية، وفي كتابة المقالات عن الشعراء الرومانسيين الروّاد.

نجحت مجموعة «التراب الحزين» في ترسيخ اسم بديع حقّي في حقلين مهمّين، حقل التزامه القوميّ بقضية فلسطين، وحقل أسلوبه القصصي وقدرته الحكائيّة. ولم يكن هذا النجاح فرديًا خاصًا ببديع الذي اقتنع بالتخلّي نهائيًا عن كتابة الشعر، بل كان عامًّا. فقد فازت هذه المجموعة القصصيّة عام 1961م، بعد طباعتها بعام واحد، بجائزة الدولة التشجيعية للقصّة، وقرّرتها وزارة التربية، طوال ثلاث سنوات، في الصفّ الثالث الإعداديّ (شهادة الكفاءة).

وكان موضوعها الفلسطيني، وقدرتها الحكائية الشائقة، وأسلوبها القصصيّ الرائق، أسبابا حقيقيّة لفوزها وتأثيرها في الطلاب وأساتذتهم والقرّاء من حولهم. ولعلّ خلفيّة هذا كلّه تكمن في قدرة بديع حقي على أن ينقل الواقع إلى المتخيّل، ويصوغ منه بموهبة التخيُّل التي فُطِر عليها، وبالثقافة الفلسطينية التي اهتمّ بها، وبالأسلوب الحكائي واللغويّ الذي خبر أفانينه، قصصًا وروايات ذات خصوصية محلّيّة ونزوع إنسانيّ.

فقصّة «الضياع» ترجع إلى أصل واقعيّ، مفاده رؤية بديع حقّي في السوق العتيق طفلا

فلسطينيًا يبكي والدم يشخب من أنفه، فقال له: «لا تبك يا بنيّ، ولا تخف، لعلّ نزف أنفكَ من حرارة الشمس». فأجابه الطفل: «لا يا عمّي، لستُ بخائف. أنا أبكي لأنّي بحثتُ اليوم عن قبر أمّي في المقبرة فلم أعثر عليه». وكان لهذا الحدث الحقيقيّ صدى في نفس بديع، نتج عنه أثر قريب هو كتابة قصة «ضياع»، ونشرها ضمن مجموعة «التراب الحزين»، وبعد ذلك الحدث بربع قرن، عادت صورة ذلك الطفل إلى الذاكرة في كتابة سيرته الذاتية «الشجرة التي غرستها أمّي».

كانت قصص «التراب الحزين» من ذلك النوع الشجيّ المفعم بالمشاعر الصادقة التي تُصوّر حال الفلسطينيين اللاجئين، وترسم أحلامهم في العودة إلى وطنهم المحتلّ، وتكاد تكون مقصورة على العام الأوّل من نكبتهم (من 16/ 5/ 1948 إلى 31/ 1/ 1949). ولقد كانت مجموعة «التراب الحزين» استمرارًا للعلاقة القديمة بين بديع حقّي والقضيّةالفلسطينية، إذ كتب رسالة الدكتوراه عن هذه القضية من منظور الحقوق الدوليّة، ثمّ شرع مع مجموعة «التراب الحزين» يرتبط بها نفسها في القصّة والرواية. وقد استمرّ ارتباطه بها طوال حياته بعد ذلك. ففي مجموعته القصصيّة «نجوى زهرة البوكسيا» قصّة عنوانها «الشهيد»، وعنوان مجموعته القصصية الثالثة «قوس قزح فوق بيت ساحور» دالّ على الأمر نفسه.

أما روايات بديع حقّي الثلاث فمعرض شائق لأسلوبه الفريد، ذلك الأسلوب التصويري الذي يرصد الجزئيات ويبني منها عالمًا فنّانا، يحكي أحداثا ذات طبيعة رومانسيّة سوداء، فيها كثير من البؤس وقليل من الفرح، وينجح في أن يخلق منها عالمًا روائيًا مقنعًا مؤثرًا. فالبطل في «همسات العكازة المسكينة» أعمى، ولكن عكازته تدبّ فيها الحياة، فتفكّر طوال الرواية، وتفرح وتتألّم حتّى تغدو شخصيّة قريبة من القارىء، تبوح له بأفكارها وخوفها وتردّدها وتاريخها. ولو لم يشخّص بديع حقي العكازة على هذا النحو لما اكتسبت الرواية أهمّيتها من حكاية حمدو وأخته عيشة، ولما بلغت في طولها أربعًا وأربعين ومائتي صفحة. وللحدث في الرواية، وفي الروايتين الأخريين، أصل واقعي. إذ استلّ حلّاق إحدى القرى نور عيني طفل، ولكن عمى الطفل لم يمنعه من الذهاب إلى المدينة للبحث عن أخته المفقودة. وقد كتب بديع حقي هذا الحدث في قصّة قصيرة عنوانها «اللص والعكازة»، ثمّ اتّسع بالقصّة فجعلها رواية عنوانها «همسات العكازة المسكينة». شأنه في ذلك شأن جاره الذي أصيب بالفالج: فقد كتب عنه قصّة «في الوحل» ثم توسّع فيها فجعلها رواية عنوانها «أحلام على الصيف المجروح».

ولا تخرج مقالات بديع حقّي عن هذا الاتجاه، في أسلوبها اللغوي، وفي قدرتها على الجنوح بالحدث المباشر وبالمعارف الحقيقية إلى شيء من التصوير، كما فعل في مقالاته المجموعة في كتاب «قمم في الأدب العالمي»، حين كتب عن تولستوي، وجويس، وبروست، ومالارميه، ولوركا. وكما فعل في مقالاته عن الفن والموسيقى والغناء بأسلوب مرهف، يكاد من روعته يأسر

القارئ، ويدفعه إلى إعادة القراءة لينعم النظر في جمال الأسلوب.

تضاف إلى الميزات السابقة موهبة بديع حقي الشعرية التي وظفها في ترجمة روائع طاغور الشعرية والمسرحية، وبعض قصص غوغول، وهمنغواي ورواياتهما. بل إن بديع حقي ذا المشاعر المرهفة والعواطف الجيّاشة وظّف ارتباطه بأمّه في سيرته الذاتية «الشجرة التي غرستها أمّي»، فقدّم لقراء العربية نصًا يؤهّل صاحبه ليكون في عداد أصحاب الأساليب في الأدب العربي الحديث.

كلّما تألّق نجم بديع حقي في عالم الأدب زاد تواضعه، حتّى إنّك لتظنّه طفلًا تسهل السيطرة عليه، طفلًا حييًا يكاد يبكي إذا شاهد منظرا ينفر منه الحس الإنساني السليم. كان بديع رجلًا متواضعًا وكانت صلاته برجالات عصره، حكامًا وسياسين وأدباء، عميقة. كما كان موضع احترام أساتذته ومجايليه وطلابه وقرائه لإخلاصه لفنه، ولاحترامه قيم أمّته، ولموهبته التي وظّفها في خدمة القضايا الكبرى التي شغلت عصره.

آثاره

أ ـ القصّة القصيرة:

1 ـ التراب الحزين، 1960؛ 2 ـ حين تتمزق الظلال، 1980؛ 3 ـ قوس قزح فوق بيت ساحور، 1993؛ 4 ـ نجوى زهرة البوكسيا، 1996؛ 5 ـ الزيتونة، 1999.

ب ـ الرواية:

6 ـ جفون تسحق الصور، 1968؛ 7 ـ أحلام الرصيف المجروح، 1973؛ 8 ـ همسات العكّازة المسكينة، 1987.

ج ـ المقالات:

9 ـ قمم في الأدب العالمي، 1973؛ 10 ـ حين يورق الحجر، 1990؛ 11 ـ جمرة الحرف وخمرة النغم، 1993؛ 12 ـ مذاهب وأعلام في الأدب، 1994؛ 13 ـ فلسطينيات، 1995.

د ـ الشّعر:

14 ـ سِحْر، 1954؛

هـ ـ السيرة الذاتية:

15 ـ الشجرة التي غرستها أمي، 1986م.

و ـ الترجمة:

16 ـ المعطف، غوغول 1954م؛ 17 ـ اللوحة، غوغول 1954م؛ 18 ـ ولا تزال الشمس تشرق، همنغواي 1954م؛ 19 ـ جني الثمار، طاغور 1961م؛ 20 ـ جيتجالي، طاغور 1961م؛ 21 ـ الهلال، طاغور 1961م؛ 22 ـ تشيترا، طاغور 1961م؛ 23 ـ دورة الربيع، طاغور 1961م؛ 24 ـ روائع المسرح والشعر، طاغور 1961م.

المصادر والمراجع

● الدقاق، عمر، تاريخ الأدب الحديث، 1979؛ ● الخطيب، حسام، القصة القصيرة في سورية، تضاريس وانعطافات، 1982؛ ● الخطيب، حسام، روايات تحت المجهر، 1983م؛ ● عزت،

أديب، معجم كُتّاب سورية، 1984م؛ ● عياش، عبد القادر، معجم المؤلّفين السوريين، 1985؛ ● الفيصل، سمر روحي، معجم الروائيين العرب، 1995م؛ ● الفيصل، سمر روحي، بناء الرواية العربية السورية، 1995م.

د. سمر روحي الفيصل
جامعة العين ـ الإمارات العربية المتّحدة

حقي، يحيى

(1323هـ/1905م ـ 1413هـ/1992م)

ولد يحيى حقي في 7 يناير 1905 في حي السيدة زينب بالقاهرة ونال شهادة الحقوق من جامعة القاهرة ـ عُيِّنَ بعدها معاونا للنيابة بمدينة منفلوط إحدى مراكز صعيد مصر ثم انتقل للعمل في السلك الديبلوماسي في السعودية، وتركيا، وإيطاليا ثم استقرّ به المقام في القاهرةحيث تفرّغ للحياة الثقافية، وأشرف على عدد من المجلّات الأدبية التي جعلها منبرا للأقلام الجديدة والمبدعين من الشباب الذين أفسح صدره لهم وعمل على تشجيعهم في جميع المجالات الأدبية خاصة مجال القصة القصيرة.

وقد نال يحيى حقي جوائز عديدة على المستوى الوطني والقومي والعالمي.

فعلى المستوى الوطني نال جائزة الدولة التقديرية في الأدب، وعلى المستوى القومي نال جائزة الملك فيصل في الأدب العربي، وعلى المستوى العالمي نال وسام فارس من الحكومة الفرنسية تقديرا لجهوده الأدبية.

وقد أبدع يحيى حقي في مجالات أدبية متنوّعة هي: النقد الأدبي والفني بكتبه المتنوّعة ومقالاته العديدة التي كان ينشرها في المجلّات الأدبية والصحف اليومية خاصّة صحيفة «المساء» التي اختصّها بالنشر في صفحتها الأدبية.

ومن كتب النقد التي أصدرها وتتضمّن آراءه النقدية: «خطوات في النقد» وقد صدرت 1976م، و«عشق الكلمة» 1987م، و«أنشودة البساطة» 1987م، و«عطر الأحباب» 1986م وكلّها نشرت في الهيئة المصرية العامّة للكتاب، كما صدرت له روايتان هما: «قنديل أمّ هاشم» عن دار المعارف، وقد طبعت أكثر من طبعة، واشتهر بها حتّى عرف بصاحب القنديل، والرواية الثانية هي «صح النوم» وصدرت عن الهيئة العامة للكتاب 1987م.

وفي مجال القصة القصيرة صدرت له عدّة مجموعات قصصية هي: «دماء وطين» 1979م، «أم العواجز» 1984م، و«عنتر وجوليت» 1986م، و«الفراش الشاعر» 1986م، و«خليها على الله» 1987م و«ناس في الظل» 1984م.

ومعنى هذا أنّ أعمال يحيى حقي المنشورة هي اثنا عشر عملا بين نقد ورواية وقصص قصيرة.

وكلّها تصبّ في اتّجاهين النقد الأدبي والإبداع الفني ثم ينبغي أن يدرس يحيى ناقدا ومبدعا.

حاول يحيى حقّي في بعض كتاباته النظرية ودراماته التطبيقية أن يوهم قارئه بأنّه ناقد تأثري انطباعي لا يعتنق النظريات النقدية ولا يلتزم بالمقاييس العلمية في تقييم الأعمال الأدبية. ويعلّل ذلك بأنّه لا ينتمي إلى الجامعة، ولم يدرس النقد دراسة منهجية منظّمة في كلّية أكاديمية متخصّصة. يقول في مقدمة كتابه «خطوات في النقد» لا أنكر أنني لم أخرج من دائرة النقد التأثّري فليس في كلامي ذكر للمذاهب، ولعلّ السبب أنّني لم التحق بكلية آداب في إحدى الجامعات.. ولم أدرس النقد دراسة منهجيّة تاريخيّة [خطوات في النقد، 1967، ص10].

ويردّد هذا المعنى في محاضرته التي ألقاها بجامعة دمشق حيث يقول في تواضع بشبه الاعتذار:

«سأفضي إليكم برأي لم أكتسبه كما كنت أود حتّى أسلم من الزلل من دراسة جامعية من طول الانكباب على المراجع للعرب وللعجم بل وصلت إليه عن طريق التأمّل والمعاناة والتجربة، لعلّ الذي قادني إليه هو طبع لا منطق فليس له عموم ولا إلزام» [خطوات في النقد، 1967، ص158].

والحقيقة في هذا الأمر أنه في المرحلة الأولى من حياته النقدية كان يستخدم مفردات عاطفية، وتعبيرات انفعالية تفصح عن تحكيم الذوق الذاتي والرؤية الشخصية مثل: «الانفعال والعواطف، الخدر اللذيذ، القلب، الاستسلام»، وكلّها تنبيء عن الجانب التأثّري الذي لا يلتزم بالمصطلحات النقدية العلمية ويمكن الاستدلال في هذا المقام بنصّ كتبه في نقد قصة «اللص والكلاب» لنجيب محفوظ [عطر الأحباب، ص64؛ أنشودة للبساطة، ص67].

غير أنه تجاوز هذه المرحلة من النقد التأثّري وأخذ في النقد العلمي المعتمد على أسس موضوعية، وكان كما وصفه الدكتور محمد مندور داهية خدعنا عن نفسه، فثقافته التي يحملها أكثر من ليسانس الآداب وأعلى بكثير من ثقافة كثير من الدكاترة [النقد والنقاد المعاصرون، مكتبة نهضة مصر، ص217].

ونختار نموذجا لهذه المرحلة مقالة بعنوان «الاستاتيكية والديناميكية في قصص نجيب محفوظ».

وقد اختلف النقاد في تفسيرهم لطبيعة النقد عند يحيى حقي، فالدكتور شكري عياد يرى أن يحيى حقي صاحب طريقة فنّية يتّبع المنهج الفني في تناوله للأعمال الأدبية حيث يقول: «فيحيى حقي ناقد كبير ناقد له طريقته التي لا أستطيع مطلقا أن أصفها بأنّها تأثّرية، وعينه لا تغفل أبدا عن القيمة الاجتماعية للأدب» [سبعون شمعة في حياة يحيى حقّي، ص13].

والدكتور أحمد كمال زكي يعتبره ناقدا تأثّريا اجتماعيا [النقد الأدبي الحديث، أصوله واتجاهاته، ص131].

والدكتور مصطفى السحرتي يرى أنّه ناقد تأثري أسلوبي لم يخل من تحليل موضوعي [دراسات نقدية في الأدب المعاصر، الهيئة العامّة للكتاب، ص55].

والدكتور عبد العزيز الدسوقي ينفي أنه ناقد تأثري ويؤكد أنه «كان يتذوّق العمل الفني ويقوم في الوقت نفسه بعملية تحليل وتفسير وموازنة».

ويرى الدكتور مصطفى حسين» أنّ يحيى حقي ناقد تأثّري لم يتأثّر بالمذاهب النقديّة لأنّه آثر الحريّة. فقد تحرّر من سيطرة المذاهب، وحرص على ألّا يقحم في تصانيف نقده مصطلحات وأقوال» [يحيى حقّي مبدعًا وناقدًا، المجلس الأعلى للفنون والآداب، ص122].

أما عز الدين المخزومي الذي تصدّى لدراسة يحيى حقي ناقدا في أطروحته للماجستير، فقد اكتفى بذكر الآراء السابقة دون أن يقدّم تحليلا علميا لطبيعة المنهج النقدي عند يحيى حقي [يحيى حقّي ناقدا، رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة].

والحق أن يحيى حقي من أكثر كتاب جيله، بل والأجيال التي أعقبته، اهتماما بقضايا الأدب والمجتمع مع تركيز خاص على طبيعة الأسلوب القصصي التي كانت شغله الشاغل على مستوى التنظير والإبداع. ويتجلّى ذلك في محاضرته التي ألقاها بجامعة دمشق تحت عنوان: «حاجتنا إلى أسلوب جديد» حيث يقول: «والأسلوب الذي أطالب به هو أسلوب علمي يتميّز بطلب الحتمية والدقّة والوضوح لأنّ اللفظ عندي هو وعاء الفكر ولأنّ وضوح الفكر لا يكون إلّا بهذا الأسلوب العلمي الدقيق».

إنّ المنهج النقدي عند يحيى حقي - بناء على استقراء كتبه النقدية ومحاضراته ومقالاته - نهج أسلوبي يقوم على أساس خصوصية الأسلوب القصصي، فهذا الأسلوب عنده ينبغي أن يكون علميا يتّسم بالتحديد والحتمية والعمق ويتأسّى عن الاستطراد والترادف والحشو. وهو أسلوب فصيح يتميّز بالفنّية ويتجاوز لغة الحياة اليومية ولا يستخدم العامّية إلّا لضرورة فنية.

الرؤية الإبداعية القصصية عند يحيى حقي تقوم على رصد تجلّيات الواقع الخارجي بمشاهده الحسّية التي تبصر وتسمع وتشم وتذاق وتلمس فترصدها بعين محايدة، وتتعمّق فيها بفطنة البصيرة ورؤية البصر، فامتزج الواقع بالشعور، وارتبطت الذات بالموضوع وتفاعل الوجدان والحس والفكر، فتولّدت من هذا كلّه صورة حسّية هي بنت الواقع وفيض الوجدان ونتاج الفطنة الثاقبة.

ومن خلال قراءة روايتيه «قنديل أم هاشم»، و«صحّ النوم» ومجموعاته القصصية الخمس ندرك أهمّ الملامح الفنّية التي تشكل رؤيته القصصية وهي اللوحة الوصفية التي تقوم على الوصف الحسّي وتتيح له التحرّر من قيود القصة حيث يقول: «أنا متيّم بالوصف والتأمّل وقليل الصبر على الحادثة».

والوصف عنده لا يصاغ لمجرّد الوصف بل لأنّه يساعد الحدث على التطوّر لأنّه في الواقع جزء من الحدث ذاته.

وقد اتّسع الوصف عنده ليشمل عالم الإنسان والحيوان والطير والطبيعة جامدة ومتحرّكة.

إذا كان يحيى حقي قد استخدم اللوحات

الوصفية في تشكيل الصورة القصصية فإنه قد استخدم أيضًا التصوير البياني للكشف عن العلاقات بين الأشياء والتعبير عن رؤيته للكون، غير أنه اختار صورة بيانية واحدة ولع بها على مستوى التنظير والإبداع وهي «التشبيه» فقد احتلّ التشبيه مكانة متميّزة في إبداعه الفني. يقول يحيى حقي: «اعتقد أنّ التشبيه بأنواعه هو أبين ضروب البلاغة عن مزاج المؤلّف وفلسفته لأنّه هو الذي يخلط الماديات والمعنويات في قبضة واحدة».

والتشبيه بمختلف صورة الحسّية والعقلية والمفرد والمركب والبليغ والضمني متناثر في قصصه خاصّة في «قنديل أم هاشم» و«أم العواجز» و«عنتر وجوليت» و«صح النوم» المفارقة التصويرية.

لقداستخدم يحيى حقي هذه الظاهرة الأسلوبية وتردّدت كثيرا في معظم إنتاجه القصصي بل إنّ البناء الأسلوبي لأطول قصتين عنده وهما «قنديل أم هاشم» و«صح النوم» تقوم عليها، ناهيك عن بعض قصصه القصيرة وأخصّ منها مجموعة «عنتر وجوليت»، تظهران المفارقة التصويرية في وصف الإنسان في «قنديل أم هاشم» في شخصية إسماعيل قبل السفر وبعده، والمكان في وصف القنديل في لوحات منظاره، وكذلك ميدان السيدة زينب.

من اللوازم الأسلوبية التي تتردّد كثيرا في كتابات يحيى حقي القصصية استخدامه للجمل الاعتراضية والاستفهامية، بحيث يعد هذا الاستخدام سمة بارزة من سماته الأسلوبية التي تميّزه عن غيره من كتاب القصة. ومن ثمّ ينبغي على الدارس لانتاجه القصصي أن يهتم بهذه السمة ويدرسها دراسة نصّية ويحلّلها تحليلا لغويا يكشف عن وظيفتها الفنّية في التعبير، ومدى نجاحها في تطوّر حركة الصراع الدرامي وبناء الشخصية الروائية والكشف عن طبيعة الحدث.

د. محمد عبد الفتاح محمد عثمان
جامعة القاهرة ـ مصر

ابن الحكم، أبو محمد هشام الكوفي

(110هـ/728م ـ 199هـ/815م)

المتكلم المفكر، هشام بن الحكم، أبو محمد (أو أبو الحكم) الكندي البغدادي، كان مولى لبني شيبان، وربما كان مولى لكندة، وكان يسكن عند بني شيبان، وغلب على أقوال بعض مؤرخيه أنه من أصل عربي من خزاعة.

ومن المأثور أن عمر بن يزيد الكوفي السابري، وهو من رواة الحديث عند الامامية، وصفه بابن أخيه، وهو بهذا السياق هشام بن الحكم بن يزيد الكوفي السابري، كان يكنّى بأبي محمد بحسبانه الولد الأكبر، كما كان أخوه محمد بن الحكم من رواة

الحديث، وكان له ولد اسمه الحكم بن هشام ابن الحكم من رواة الحديث أيضًا ومن سكَنَة البصرة.

وتاريخ مولد هشام بن الحكم مجهول لدى كل مؤرخيه، لكن القرائن تدل على أنه كان من أصحاب الجهم بن صفوان (بحسب ابن النديم) والجهم قتل في ترمذ سنة 128هـ/ 745م، ومعنى هذا أنّ عُمْر هشام لا يمكن أن يكون إلّا في سنّ الثامنة عشرة، وتقدير ذلك أن مولده سنة 110هـ/ 728م.

وفي تاريخ وفاته غموض آخر، فقد ذكر أنه توفي بعد البرامكة، وهؤلاء كانت نكبتهم في 187هـ/ 803م. لكن من جهة اخرى نقرأ في أخباره أنه تحول من الكوفة الى بغداد سنة 179هـ/ 795م أيام هارون الرشيد، بين الكوفة وبغداد، واضطر لظروف معاشية أن يسكن بغداد وانتقل اليها سنة 198هـ/ 814م، في زمان المأمون، وتوفي فيها سنة 199هـ/ 815م. ومعنى هذا أن تاريخ وفاة هشام بن الحكم في غير هذه السنة غير صحيح، لأن من المعروف أن هشاما ناظر إبراهيم النظّام، واذا أخذنا بالمشهور من مولد النظام سنة 185هـ/ 801م، فهذا غير معقول. واذا ذهبنا الى ما يذهب اليه أبو ريدة [إبراهيم بن سيار، ص4 وما يليها] من أن النظّام ولد قبل 170هـ/ 786م تلك السنة التي توفى فيها الخليل بن أحمد الفراهيدي الذي عرفه النظّام، فمعنى هذا أن النظّام ولد حوالي 150هـ/ 767م، وقد عرف هشام بن الحكم في المناظرة التي حضرها وكانت بين هشام ابن الحكم، وبشر بن المعتمر، وثمامة بن أشرس، وعلي بن ميثم وغيرهم [المسعودي، مروج الذهب (باريس) 6/ 368 ـ 369] في مجلس يحيى بن خالد البرمكي.

كان هشام بن الحكم من عائلة ميسورة الحال، وكان يمتهن التجارة في الكوفة، فامتد عمله الى بغداد التي أصبحت مركزًا لأعماله، واضطر الى السكن في الكرخ. فكان المشهور عنه أنه كان من خاصة مجلس يحيى بن خالد البرمكي، وقد التقى بالخليفة هارون الرشيد عن طريق مجلس البرامكة وقد امتدحه الرشيد.

وبعد سنة 187هـ/ 803م، يروى عنه أنه اختفى زمنًا إلى أن هدأت الأحوال، فظهر في مجالس المأمون، وكان واحدًا من أبرز المناظرين للمعتزلة في زمانه.

ومجمل تعليم هشام أنه اشتغل بالعلوم العقلية، وبخاصة علم الكلام، والفقه والأصول والحديث، وتراث الثقافة الإسلامية في عصره. وفي هذا المجال نلاحظ أنه:

أولًا: أخذ المعارف عن الجهم بن صفوان، وأبي شاكر الديصاني، وعبد الله الديصاني، وعبد الكريم بن أبي العوجاء، وأخيرًا اختصّ بجعفر الصادق الامام السادس الشيعي وعُدّ من أصحابه.

ثانيًا: ناظر جماعة مهمة من مفكري عصره، أبرزهم عمرو بن عبيد، وأبو الهذيل العلاف، وابراهيم النظام، وضرار بن عمرو، وعبد الله ابن يزيد الإباضي، والمتكلّم الشامي، والجاثليق، وسليمان بن جرير (زعيم الزيدية).

ثالثًا: أثر في المتكلمين المتفلسفين من معاصريه، ومن الذين جاؤوا بعده، أمثال:

العلّاف، والنظّام، والجبائي الأب، والجبائي الابن، علاوة على تأثيره المباشر في أبي عيسى محمد بن هارون الوراق، وأبي الحسين أحمد بن يحيى الريوندي.

رابعًا: اختصّ في ردوده على المفكرين المختلفين من الفرق والمذاهب، وعلى رأسهم المعتزلة، لكنه أفرد كتبًا في الردود على: - هشام الجوالقي؛ - شيطان الطاق؛ - أرسطو طاليس

خامسًا: استشار العديد من الخصوم في زمانه وما بعده، أمثال: أبي عثمان الجاحظ، وبشر ابن المعتمر، وأبي الحسين الخياط، وأبي علي الجبائي، والقاضي عبد الجبار المعتزلي، وأخيرًا ابن تيمية.

ومن كل هذه الملاحظات يمكن أن نعرف لماذا تنوعت معرفة هشام بتنوع معارف عصره فيما وصلت إلينا من عناوين مؤلفاته التي فقدت جميعًا، فقد ذكر له ابن النديم 26 كتابًا [الفهرست، 250]، وزاد آخرون عليه ستّة عنوانات أخرى، لتصل إلى 31 كتابًا، كما يشير عبد الله نعمة [هشام بن الحكم، 109]، وسنشير إلى كتبه الجدلية في الردود: 1 - الرد على أرسطو طاليس؛ 2 - الرد على أصحاب الإثنية؛ 3 - الرد على أصحاب الطبائع؛ 4 - الرد على الزنادقة؛ 5 - الرد على شيطان الطاق؛ 6 - الرد على المعتزلة؛ 7 - الرد على من قال بإمامة المفضول؛ 8 - الرد على هشام الجوالقي.

وعناوين هذه الكتب، على الرغم من أنها مفقودة، تعطي الباحثين فكرة على تنوع معرفة هشام بن الحكم، فهو بلا شك كان عارفًا بالفلاسفة اليونانيين والطبيعيين منهم بوجه خاص، وكذلك المجوسية، والملحدين من الماديين الذين سمّاهم «الزنادقة»، وقد خصّ اثنين من معاصريه بالرد عليهما وأولهما شيطان الطاق وثانيهما هشام الجوالقي، وكلاهما محسوب على طائفة الشيعة الاثنا عشرية، كذلك خصّ المعتزلة خصومه التقليديين بكتاب برأسه.

إن المؤثرات الفلسفية والكلامية التي امتدت إلى هشام بن الحكم تأتي بالدرجة الأولى من اتجاهين مختلفين في النزعة المادية عند أبي شاكر الديصاني، ثم في النزعة الجبرية المتطرّفة عند الجهم بن صفوان، وكأنّه استقر مؤخرًا عند الاعتدال في عقيدة جعفر الصادق إمام الشيعة.

ومجمل آراء هشام التي قال بها وهو يتنقل بين النزاعات المادية والثنوية والجبرية ثم الشيعية المعتدلة، يصب في تيار النزعة المضادة للفلسفة اليونانية عن طريق الأفلاطونية والارسطوطاليسية، لكن تأثير الرواقية التي وصلت الى هشام عن طريق الديصانية كان واضحا، وكذلك تأثره بالفلسفة السمنية الهندية، قد جعله كل ذلك يجتهد في الكثير من أفكاره على نحو يخالف معاصريه.

ومن ثمة نلاحظ أن التراث الشيعي ينظر إلى هشام بحسبانه الشخصية المبكرة في الجدل الفكري في الإسلام التي برزت "بالأدوار الكبيرة التي قام بها دفاعًا عن الإسلام ونصرة التوحيد ودفع شُبه المخالفين، وفي تقرير المذهب الإمامي ومعارضته الفرق الأخرى، ولاسيما المعتزلة" [نعمة، فلاسفة الشيعة، 565]. بينما نجد المتكلمين من المعتزلة والأشاعرة والحنابلة، وغيرهم من

غير الشيعة، يقفون منه موقف الاتهام بل «اندفع جماعة منهم إلى رمي هشام بالكفر والالحاد والزندقة والغلو» [أيضًا، 566].

ومن آرائه البارزة:

1 ـ القول بالجوهر الفرد الذي هو قابل للانقسام إلى أجزاء الى ما لا نهاية، وهي نظرية قابلة لأن تُفهم على أنها قسمة فعلية، أو قسمة بالقوّة، والأولى متابعة للرواقيين، والثانية لأرسطوطاليس. وفي الحالتين، تابعه من المعتزلة إبراهيم النظام، كما تابعه الأشاعرة.

2 ـ القول بأن الأعراض أجسام، على عكس ما يراه الفلاسفة والمتكلمون بأنها المقولات التسع التي تعرض للجوهر ليكون جسمًا، فالأعراض هنا ليست أجساما، ومخالفة هشام لهذا الاتجاه الفلسفي عند الآخرين يجعله رواقيًا بحسبان الوجود كله مادة.

3 ـ القول في الحركة بأنها «الحركة بالفعل كما فسّر السكون بعدم الفعل» [نعمة، 575]، وهذه مخالفة واضحة لتفسير معظم المتكلّمين والفلاسفة بأن الحركة هي انتقال الجسم من مكان إلى آخر.

4 ـ القول بالتداخل، «وهو أن يكون حيّز أحد الجسمين حيّز الآخر» [الأشعري، 327]. ومثل هذا القول يأتي من اعتقاد هشام بن الحكم بعدم تناهي قسمة الأجزاء [نعمة، 574].

5 ـ القول بالطفرة، وهو «أن الجسم يكون في مكان، ثم يصير في المكان الثالث من غير أن يمرّ بالمكان الثاني» [الأشعري، مقالات الإسلاميين، 126].

6 ـ القول بالتجسيم، وهو أن الله جسم لا كالأجسام [ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، 1/ 295]، وهذا الرأي استنكره معاصروه من المعتزلة ثم من بعدهم الأشاعرة، وقد دافع عنه الشيعة، ولا شك أن هذه النزعة المادية الحسية جاءت من تأثير الرواقية، وبخاصة الديصانية.

وبناء على كلّ ما تقدّم، يمكن القول بأن هشام بن الحكم كان رائدًا للكثير من الأفكار الجدلية في الإسلام، ومؤثرًا في المعتزلة مع خصومته لهم، كما أثرّ في الأشاعرة مع أنهم خصومه، وقد بُني الفكر الشيعي على مجمل فكره الفلسفي والكلامي بالاستناد إلى الكثير من أقواله، والبحث فيها يحتاج إلى تفصيلات كثيرة في مجال علم الكلام والفلسفة.

■ المصادر والمراجع

● ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة، القاهرة 1952؛ ● ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل، القاهرة 1928 ـ 1929؛ ● ابن شهراشوب، معالم العلماء، نشرة إقبال، طهران 1934؛ ● ابن النديم، الفهرست، القاهرة 1348هـ/ 1929م؛ ● الأشعري، مقالات الإسلاميين، نشرة H. Ritter، إسطمبول 1929 ـ 1930؛ ● البغدادي، الفرق بين الفرق، القاهرة 1328هـ/ 1910م؛ ● الخيّاط، أبو الحسين، كتاب الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد، نشرة H.S.Nyberg، القاهرة 1925، طبعة ألبير نصري نادر، بيروت 1957، انظر كذلك:

le livre de triomphe et la refutation d'Ibn al-Rawandi l'hérétique, Beyrouth, 1957 • الشهرستاني، الملل والنحل، نشرة W.Cureton، لندن 1842 - 1846؛ • المرتضى، الشريف، الشافي في الإمامة، ط. حجر (طهران؟) 1301هـ/ 1884م؛ • المسعودي، مروج الذهب، ط. باريس 1873؛ • الأعسم، عبد الأمير، تاريخ ابن الريوندي الملحد، بيروت 1975؛ • ابن الريوندي في المراجع العربية الحديثة (مجلدان) بيروت 1977، 1978، وكذلك انظر: Al-A'asam, A, Ibn ar-Riwandi's Kitab Fadihat al-Mu'tazilah, Beyrouth - Paris, 1975-1977 • جدعان فهمي، انظر: Jadaane, F, L'influence du Stoïcisme sur la pensée musulmane, Beyrouth, 1968؛ • الزركلي، الأعلام، 9/ 82؛ • غربال، محمد شفيق، الموسوعة العربية الميسّرة، 2/ 1892؛ • نعمة، عبد الله، فلاسفة الشيعة، بيروت (بلا تاريخ)؛ • هشام بن الحكم أستاذ القرن الثاني في الكلام والمناظرة، بيروت، 1378هـ/ 1959م.

د. عبد الأمير الأعسم
بيت الحكمة - بغداد

الحكمي، حافظ بن أحمد

(1342هـ/1924م - 1377هـ/1957م)

اتفقت المصادر على أن الشيخ حافظ ابن أحمد الحكمي، ولد في 24 رمضان 1342هـ/ 1924م، في قرية السلام التابعة لمدينة المضايا، الواقعة في الجنوب الشرقي من مدينة جازان، حاضرة المنطقة على ساحل البحر الأحمر.

والمضايا تبعد عن مدينة جازان قرابة عشرين كيلومترا، والحكمي نسبة إلى الحكم بن سعد العشيرة، بطن من مذحج من كهلان بن سبأ ابن يشجب بن يعرب بن قحطان. وقد اشتهر من أسرة الحكمي عدد، بالعلم والصلاح منذ القرن السابع الهجري، حيث بنى جدهم عريشًا للتعليم فنسبت إليه مدينة أبي عريش.

بدأ الشيخ حافظ في سن مبكرة العناية بالقرآن الكريم، تلاوة وحفظا، فأحسن تلاوته وحفظ الكثير منه، وقد أوتي سرعة في الحفظ، وقوة في الفهم، وجودة في الخط بالقلم، وذكاء خارقًا امتاز به عن أقرانه ذلك الوقت. فكانت هذه السجايا توطئة للدخول في باب العلم الشريف بصورة جادة ومنتظمة، بعد أن كان يشتغل برعي غنيمات لوالديه، اللذين مكّنا فيه القدوة في صحة العقيدة، والالتزام بالشعائر التعبدية. استمر حافظ على تلك الحال من رعي الغنم، وحمل المصحف، وبر الوالدين،

حتى قدم من بلاد نجد إلى منطقة الجنوب الشيخ المجدد، العالم العامل، الفذ السخي، حسن النية، سلفي العقيدة الشيخ عبد الله القرعاويّ، الذي اختار طلب العلم ونشره منهجًا، وجعل الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة له سبيلًا.

وفي عام 1359هـ أي بعد وصول الشيخ القرعاوي بسنة، شاء الله أن يلتقي الشيخ بالطالب حافظ، فتعرف عليه، وعجب من ذكائه وحرصه، وصراحته في القول وتشوّقه إلى العلم، ففرح الطالب بما عرضه عليه الشيخ لرغبته في العلم، إلا أن هذا العرض كان مشروطا بموافقة الوالدين اللذين لشدة حاجتهما، لم يسمحا له بالذهاب إلى سامطة، لتلقي العلم عند الشيخ القرعاوي.
فظل الشيخ القرعاوي يتعهد تلميذه بالدروس والتوجيه، حتى حل عام 1360هـ، حيث توفيت أم حافظ، ثم توفي أبوه فلازم شيخه ملازمة مستمرّة، وترك رعي الغنم وتفرّغ للدراسة، فآواه الشيخ وأقام بالمدرسة التي فتحها شيخه القرعاوي في سامطة، وبها اختتن عام 1360هـ، وأولم له شيخه وليمة على ختانه، دعي إليها أعيان سامطة والطلاب المغتربين، وأعلن فيهم أن من يرغب ختان ولده بالمدرسة، فهو مستعد بالتكلفة. وبذلك قضى الشيخ القرعاوي على عادة تأخير الاختتان والسلخ، وبعض المنكرات التي يحصل فيها اختلاط الرجال بالنساء في اللهو واللعب، وفي 8 محرم عام 1367هـ زوّجه شيخه عبد الله ابنته. لم يتضح لنا أن الشيخ حافظ الحكمي، له مشايخ تتلمذ عليهم، غير الشيخ عبد الله القرعاوي، اللهم إلا معلّم الكتاتيب الذي حفظ عنده القرآن الكريم، ومبادئ القراءة والكتابة، ولذا حدب الشيخ على تلميذه، واهتم به، لما رأى فيه من النباهة، وعلو الهمة، وقوة الحافظة.

وإذا كان التربويون يقولون: إن الهمة في طلب العلم غريزة تتكوّن في الإنسان، منذ حداثته ويوقد جذوتها الذكاء الفطري، وينمي هذه الغريزة ما يتهيأ أمام الإنسان من أسباب مادية أو معنوية، وإلّا خمدت الجذوة، لأن الذكاء كالسيف الأصيل، إن ترك في غمده تأكسد، وصدئ، وإن استعمل وشحذ كان بتارًا؛ فإنّ حافظ الحكمي نمت الرغبة مع ترعرع جسمه في طلب العلم، وساعده في ذلك ما في نفسه من دوافع.. وقد أجمل ابنه أحمد صفات والده في طلب العلم فقال: عندما بلغ حافظ من العمر سبع سنين، أدخله والده مع شقيقه الأكبر محمد، مدرسة لتعليم القرآن الكريم، بقرية الجاضع، فقرأ على معلمه بها جزأي: عم وتبارك، وخلال أشهر معدودة حفظه حفظًا تامًا بعد ذلك.

اشتغل بعدئذ بتحسين الخط، فأولاه أكبر جهوده حتى أتقنه، وكان ينسخ من مصحف مكتوب بخط ممتاز، إلى جانب اشتغاله مع أخيه بقراءة بعض الكتب في الفقه والفرائض، والحديث، والتفسير، والتوحيد، مطالعة وحفظًا بمنزل والده، إذ لم يكن بالقرية عالم يوثق بعلمه، حتى يتتلمذ على يديه.

ولما زار الشيخ القرعاوي قرية الجاضع في جولاته، حضر حافظ دروسه، ورغم أنه كان أصغر الحاضرين سنًا إلا أنه كان أسرعهم فهمًا، وأكثرهم حفظًا واستيعابًا، حيث أعجب به الشيخ القرعاوي، كما روي عنه

قوله: «وهكذا جلست عدة أيام في الجاضع، وحافظ يأخذ الدروس، وإن فاته شيء نقله من زملائه، فهو على اسمه: حافظ يحفظ بقلبه، وخطه، والطلبة الكبار كانوا يراجعونه في كل ما يشكل عليهم في المعنى والكتابة، لأني كنت أملي عليهم إملاء ثم أشرحه لهم».

وقد صدقت فراسة الشيخ القرعاوي في نباهة تلميذه، الذي كان لا يرغب في مفارقة قريته، إرضاء لوالديه، عندما وصلته رسالة من التلميذ حافظ، ذات خط جميل يطلب فيها من الشيخ القدوم إلى قرية الجاضع، مع بعض تلاميذه وقد صدّر الرسالة بهذين البيتين:

إن الـذي رقـم الـكـتـب بـكـفّـه
يُـقـرِي الـسـلاَمَ عـلـى الـذي يـقْـراهُ
وعـلـى الـذي يـقـراه ألـفُ تـحـيـة
مـقـرونـةٍ بـالـمـسـك حـيـن تـراهُ

ثم يطلب منه إعارته كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب. وبعد إجابة الدعوة والانتجاع إلى الجاضع، وجد الشيخ تلميذه مثلما ظن أو أكثر، فأجلسه بجانبه، وأولاه عناية خاصة، حيث تمّ اللقاء يوم الخميس 11/ 8/ 1359هـ، فكان درس الشيخ في هذه القرية يبدأ من بعد صلاة الفجر إلى صلاة العشاء بقية شهر شعبان. وقد لحق التلميذ حافظ بشيخه في سامطة واستقر بها منذ عام 1360هـ، فوجد في كنف الشيخ القرعاوي، وفي مكتبته بغيته، وقرأ متون العلم المختلفة في أمهات الكتب المعتبرة، ومع القراءة كان يتناقش مع شيخه عما يشكل وفي عويص المسائل.

إن منهج السلف في حلقات العلم أسلم وأعم فائدة، وهو ما سار عليه تعليم الشيخ القرعاوي، وقد أخذه من مشايخه في الهند وفي الرياض، وهذا ما ظهرت آثاره في الشيخ حافظ، الذي قلب معايير ومقاييس التربويين الذين رسموها للمدارس النظامية، مادة وزمنًا.

فإن الطالب حافظًا الحكمي قد برز بروزًا فائقًا خلال عشر سنوات، ونبغ في المعارف التي أخذها عن شيخه، بل زاد عليها بما ناله من علوم ومعارف نتيجة الرغبة الملحة وسعة الاطلاع والاستيعاب لما يقع عليه نظره.

فكانت بداية اللقاء العلمي بين الشيخ وتلميذه، وبداية تحقيق ما يميل إليه الطالب حافظ في العلم والجلوس له، ومن ثم أخذه من مصادره، حيث التقى الحلم بالواقع، فكانت الفترة الزمنية في آخر شعبان من عام 1359هـ، في قرية الجاضع، تعتبر حلمًا تحقق للطالب، وما حصل له فيها من عناية الشيخ بتلميذه، حيث جعل هذا اللقاء حافظًا في عين شيخه قمة في الذكاء، وأنزله منزلة النابهين.

وهذا ما دفع الشيخ عندما قرب رحيله، لأن يطلب من والدي حافظ أن يرسلاه معه إلى سامطة ليطلب العلم، على أن يجعل لهما من يرعى غنمهما بدلًا منه، لكنهما رفضا طلب الشيخ أول الأمر، وأصرّا أن يبقى ابنهما الصغير حافظ في خدمتهما لحاجتهما الكبيرة إليه. يقول أحمد بن حافظ: وشاءت إرادة الله أن لا تطول حياة والدته بعد ذلك، إذ توفيت في شهر رجب عام 1360هـ فسمح له والده أن يذهب مع أخيه محمد إلى الشيخ القرعاوي، في سامطة لمدة يومين أو ثلاثة في الأسبوع، ثم يعودان إليه.

وفي آخر عام 1360هـ، توفّي والده بعد عودته من الحج، فتفرّغ حافظ للدراسة والتحصيل عند شيخه في سامطة، حيث لازمه ملازمة الظل.

ويوزع السنوسي وقت الطالب حافظ فيقول: كان حافظ يقرأ على الشيخ في الجاضع، بعد صلاة الصبح حتى الضحى، ثم يغدو بغنمه يرعاها، فإذا توسطت الشمس كبد السماء رجع إلى القرية، واستأنف الدراسة حتى صلاة العصر، فإذا صلى ذهب بغنمه مرة أخرى يرعاها، فإذا أذنت الشمس بالمغيب روّح بغنمه إلى الزريبة، ثم استأنف الدرس إلى صلاة العشاء، وهكذا دواليك لا يكل ولا يمل.

وهكذا استوعب في فتره وجيزة أمهات الكتب في الحديث والتفسير، وبمطالعة الفقه وأصوله والفرائض والنحو، وعلم الحديث والتوحيد، هذا زيادة على الكتب الصغيرة والرسائل التي كان يحفظها ويستوعب ما فيها بسرعة. مما دفع شيخه ليسند إليه الجلوس لتدريس التلاميذ، مع صغر سنه.

كان من إعجاب الشيخ القرعاوي بتلميذه حافظ، أن أولاه ثقته، وأقامه مدرسًا لزملائه الطلاب المستجدين، حيث عهد إليه إلقاء الدروس النافعة عليهم، فأفادتهم كثيرًا، كما كان يعيد الدرس بعد إلقاء شيخه، كما يعمل المعيدون في بعض الجامعات، لما عنده من قدرة على استظهار ما فهمه، ليريح شيخه عن الإعادة ثانية وثالثة، ويشرح لهم ويبسط ما خفي عليهم.

وفي عام 1363هـ عيّنه شيخه عبد الله القرعاوي مديرًا لمدرسة سامطة السلفية التي كانت أول مدرسة، وأكبر مدرسة افتتحها الشيخ القرعاوي في المنطقة لطلاب العلم، ثم أسند إليه الإشراف على مدارس القرى المجاورة.

وبعد أن اتسعت دائرة مدارس القرعاوي وكثر عددها في منطقتي تهامة وعسير، فقد جعل في كل مدرسة واحدًا من نجباء تلاميذه، ليقوم بالتدريس، ويتولى شؤون إدارتها، ولذا أسند لتلميذه حافظ العمل مساعدًا له يتولى الإشراف على سير التعليم وأمور الإدارة أثناء تجوال الشيخ عبد الله القرعاوي على مدارسه.

كما أسند إليه شيخه القيام بواجب التعليم والإشراف في عدة قرى، منها السلامة العليا، ومدينة بيش أم الخشب، وغيرهما من قرى ومدن المنطقة.

ثم عاد إلى سامطة مرّة أخرى يدير مدارسها، ويساعد شيخه في تحمل المسؤولية، خاصة وأن مدارس الشيخ القرعاوي كان لها كيان خاص، وتقدير من الدولة.

وفي عام 1373هـ افتتحت وزارة المعارف أول مدرسة ثانوية بجازان حاضرة المنطقة، فعين الشيخ حافظ أول مدير لها، حيث رشّحه شيخه للمسؤولين وأسندت إليه إدارة التعليم، غير أنه رفضها لأنها تشغله عن التأليف.

بعد فتح المعهد العلمي في سامطة في عام 1374هـ، عين الشيخ حافظ مديرًا له، بالإضافة إلى قيامه بالتدريس فيه، وإملاء المذكرات التي يقوم بتدريسها على تلاميذه.

وفي عام 1377هـ، أدى الشيخ حافظ وهو

مدير لمعهد سامطة فريضة الحج، وبعد انتهائه من المناسك، أصيب بضربة شمس حادة، انتقل على إثرها يوم السبت 18/ 12/ 1377هـ إلى الدار الآخرة، عن عمر ناهز الخامسة والثلاثين. وقد صلي عليه في المسجد الحرام، ودفن في مقبرة العدل، وكان لوفاته أثر عميق في نفس شيخه القرعاوي، وفي نفوس كل من يعرف هذا الرجل سواء في الجنوب أو في غيره.

وقد ظهر هذا الأثر جليا في طلاب معهد سامطة، حيث فقدوا أبًا حنونًا، وأستاذا قديرًا، متواضعا مع الصغير، متأدبا مع الكبير. وقد أخذ الشيخ القرعاوي منهم مجموعة إلى الرياض، ومكة لتعزية المشايخ والعلماء في شيخهم. كما رثاه كثير من الشعراء العارفين لقدره، ومنهم الدكتور زاهر ابن عواض الألمعي بقصيدة مطلعها:

لقد دوّى على المخلاف صوت
نعي النحريرَ عالمها الهُماما
تفجّعتِ الجنوب وساكنوها
على بدْر بها يمحو الظلاما

وقد ذكر ابنه أحمد في حديثه عنه: خلف وراءه مكتبة علمية كبيرة، بعد رحيله، عامرة بكل علم وفن، أوصى بأن تكون وقفًا على طلاب العلم، ورواد المعرفة، فضمت إلى مكتبة معهد سامطة، لينتفع بها المدرسون والطلاب، ولتبقى تحت إشراف إدارة المعهد.

آثاره

لقد كان من نباهة التلميذ حافظ، أن كان يستوعب ما يقع عليه بصره، ويحفظ ما يخطه قلمه، إلى جانب ما جبل عليه من براعة في قول الشعر، نظمًا وارتجالًا، حيث قيل عنه: بأنه لم تكن تعوزه المطوّلات، وكان باستطاعته أن ينظم أكثر من أربعمائة بيت في ليلة واحدة، لسهولة جريان الشعر على لسانه، فاستغلّه في النظم الديني، لرغبة الدارسين فيه، وليُسرِ حفظه، وهذه عادة قديمة يشتهر بها بعض العلماء.

1 ـ ففي عام 1362هـ، وهي السنة الثالثة من بداية دراسته على شيخه عبد الله القرعاوي، أراد الشيخ أن يختبر تلميذه فأشار عليه بإنشاء منظومة في التوحيد، مستمدة من قراءته في كتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وشيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم فنظم: سلم الوصول إلى علم الأصول، في التوحيد، حيث انتهى من تسويدها في عام 1362هـ، وهي أرجوزة في أصول الدين بدأها بقوله:

أبدأ باسم الله مستعينا
راضٍ به مدبِّرًا معينا

وهي باكورة إنتاجه العلمي، طبعت في مكة المكرّمة عام 1363هـ، ثم توالت آثاره العلمية كالعقد المنفرط، لأن المعلومات تتزاحم في رأسه، والأفكار تتوارد على مخيّلته، إذ لم يشغله شاغل عن القراءة والأخذ عن شيخه؛ 2 ـ معارج القبول بشرح سلم الأصول إلى علم الأصول، وهو في التوحيد، وهذا استكمال للأول، ويقع في مجلّدين كبيرين، وهو كتاب جامع في موضوعه، انتهى من وضعه في عام 1366هـ، يزيد في طبعته عن ألف ومائة صفحة؛ 3 ـ أعلام السنة المنشورة، لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة، كتاب صغير الحجم يقع في 67 صفحة في

طبعته الأولى، عظيم الفائدة بسيط في عرضه، جاء على هيئة السؤال والجواب، انتهى منه عام 1365هـ، طبع في مكة المكرّمة؛ 4 ـ اللؤلؤ المكنون في أحوال الأسانيد والمتون، منظومة في مصطلح الحديث مطلعها:

الحمد كل الحمد للرحمٰن

ذي الفضل والنعمة والإحسان

انتهى من نظمها في عام 1366هـ، على طريقة نظم العلماء السابقين لهذا الفن: مصطلح الحديث وما اشتمل عليه من قواعد وضوابط تتعلّق بالسند والمتن والجرح ومراتب التعديل، وغير ذلك؛ 5 ـ رسالة منثورة في علم الفرائض باسم: النور الفائض من شمس الوحي في علم الفرائض، انتهى من كتابتها في 15/ 8/ 1365هـ، وطبعت في مكة المكرّمة عام 1373هـ؛ 6 ـ الجوهرة الفريدة في تحقيق العقيدة، منظومة دالية مطلعها:

الحمد لله لا يحصى له عدد

ولا يحيط به الأقلام والمدد

وهي في إيضاح عقيدة أهل السنة والجماعة، سلفًا وخلفًا، والرد على أهل الضلالات والبدع، طبعت في مكة المكرمة عام 1373هـ؛ 7 ـ دليل أرباب الفلاح، لتحقيق فنّ الاصطلاح، وهو من أجود ما كتب في فن مصطلح الحديث، جاءت على طريقة السؤال والجواب، الطبعة الأولى في مكة المكرمة عام 1374هـ، 174 ص؛ 8 ـ السبل السوية لفقه السنن المروية، منظومة طويلة في الفقه وأبوابه تقع في 2359 بيتًا، وهي من أطول مؤلفاته مطلعها:

أبدأ باسم خالقي محمدلا

محسبلًا مكتفيًا محوقلا

وقد طبعت في مكة المكرمة؛ وانبرى الشيخ زيد بن محمد مدخلي المدرس بمعهد سامطة ـ سابقا ـ لشرحها وسماها: الأفنان الندية، شرح منظومة السبل السوية لفقه السنن المروية، خرجت مع الفهارس في سبعة مجلّدات، الطبعة الثانية بالإسكندرية عن دار علماء السلف؛ 9 ـ وسيلة الحصول إلى مهمات الأصول، منظومة في أصول الفقه، فصّل فيها التعريفات بأصول الأحكام التكليفية والأحكام الوضعية، وأصول أدلة الأحكام التي هي الكتاب والسنة، في منظومة تقع في 640 بيتًا، مطلعها:

الحمد للعدل الحكيم الباري

المستعان الواحد القهّار

انتهى من كتابتها عام 1373هـ، طبعت في مكة المكرمة؛ 10 ـ لامية المنسوخ، منظومة في الناسخ والمنسوخ، دقيقة في التعبير واضحة في التمثيل، طبعت بمكة ومطلعها:

الحمد لله في الدارين متصل

هو السلام فلا نقص ولا علل

11 ـ نيل السول من تاريخ الأمم وسيرة الرسول ﷺ، منظومة تاريخية تزيد أبياتها عن 950 بيتًا مطلعها:

الحمد لله المهيمن الأحد

باري البرايا الواحد الفرد الصّمد

12 ـ نصيحة الإخوان المشهورة بالتائية، وهي عن تعاطي القات والدخان والشمّة، وقد عنون لها بقوله: هذا سؤال بشأن القات

والدخان والشمّة، وهي قصيدة مطلعها:

حمدًا لمن أسبغ النعما والهمنا
حمدًا عليها بألطاف خفيات

طبعت بمكة المكرمة عام 1374هـ، وقد أحدثت صدى بين أنصار القات المدافعين عنه، وردود معاكسة ممن يشتمها وخاصة في اليمن لانتشارها عندهم، كما كان بين الشيخ حافظ وواحد من اليمن ردود بشأنها، طبع بعضها مع هذه المنظومة في مكة المكرمة عام 1374هـ؛ 13 ـ المنظومة الميميّة في الوصايا والآداب العلمية، طبعت في مكة المكرمة؛ 14 ـ ما كان يمليه على طلابه في المعهد العلمي بسامطة في السيرة النبوية، وغيرها من كتب مخطوطة مات قبل طبعها، وقد خطط في آخر عمره لمؤلف يجمع فيه أحاديث رسول الله ﷺ، وبيان أطرافها وأحوالها، ولكن عاجلته منيّته قبل الشروع في ذلك.

■ المصادر والمراجع

● مدخلي، الشيخ زيد بن محمد، الأفنان الندية شرح منظومة السبل السوية لفقه السنن، الطبعة الثالثة، دار علماء السلف بالأسكندرية، 1409هـ/ 1988م؛ ● العقيلي، محمد، تاريخ المخلاف السليماني، طبعة2، دار اليمامة بالرياض، 1402هـ/ 1982م؛ ● مدخلي، زيد بن محمد، حافظ حكمي، الطبعة الأولى، الأسكندرية، دار علماء السلف؛ ● علوش، أحمد، الشيخ حافظ الحكمي، رسالة علمية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض؛ ● سلم الوصول لحافظ نفسه، المقدمة بقلم أحمد ابنه وفيها ترجمته؛ ● الفيفي، علي بن قاسم، السمط الحاوي، الطبعة الأولى، الرياض؛ ● شاكر، محمود، السنوسي شاعرًا.. الطبعة الأولى، القاهرة؛ ● مجلة المنهل، ج5، جمادى الأولى 1367هـ، مقابلة مع الشيخ القرعاوي؛ ● الجاسر، حمد، مجلة العرب، ج3، رمضان 1392هـ/ 1972م، ص229 ـ 233؛ ● كحالة، عمر رضا، المستدرك على معجم المؤلفين، ط. أولى 1406هـ/ 1985م، باب الحاء، ص183 ـ 184؛ ● الشيخ حافظ نفسه، معارج القبول، الطبعة الثالثة، ج1، المقدمة ترجمته؛ ● العقيلي، محمد أحمد، المعجم الجغرافي مقاطعة جازان، نشر دار اليمامة بالرياض، 1389هـ/ 1969م؛ ● الشويعر، محمد بن سعد، من مشاهير علمائنا، الطبعة الأولى، الطائف، 1421هـ/ 2000م؛ ● جردي، عمر، النهضة الإصلاحية في جنوب المملكة، الطبعة الأولى، 1420هـ/ 1999م.

د. محمد بن سعد الشويعر

المستشار ورئيس تحرير مجلة البحوث الإسلامية

الرياض ـ المملكة العربية السعودية

الحكيم، توفيق

(1316هـ/1898م - 1407هـ/1987م)

ولد توفيق الحكيم في 9 أكتوبر 1898 بالإسكندرية وعاش طفولته في هذه المدينة وفي دمنهور، ثم ذهب إلى القاهرة في السنة الأولى من التعليم الثانوي. شارك سنة 1919 في الثورة المصرية بقيادة سعد زغلول وسجن أسبوعين تقريبا. وبدأ في نفس السنة كتابة «الضيف الثقيل» لمسرح الإخوة عكاشة تحت اسم مستعار «حسين توفيق». نجح في ختم التعليم الثانوي سنة 1921، وبما أنه لم يكن طالبا جدّيا في الحقوق، فقد أرسله أبوه إلى باريس ليكمل هذه الدراسات بالإجازة في الحقوق سنة 1925. واصل إقامته في فرنسا واغتنم توفيق الحكيم فرصة وجوده في هذه البلاد ليتثقف في الأدب العالمي وخاصة في المسرح حيث تفرج على مسرحيات شكسبير Shakespeare، ومـاتـرلـنـك Maeterlinck، وإبـسن Ibsen، وبيراندلو Pirandello فأثرت هذه الأعمال تأثيرا كبيرا في إنتاجه. ومن رفاقه كان الموسيقار إيقور سترافنسكي Igor Stravinsky، والرسام بابلو بيكاسو Pablo Picasso، والكاتبان جان كوكتو Jean Cocteau، وماكس جاكوب Max Jacob.

رجع توفيق الحكيم إلى مصر سنة 1928 وعُيِّنَ ملحقا بالمحاكم المختلطة ثم وكيلا في النيابة في طنطا، والزقازيق، ودمنهور، ودسوق، وفركور، ثم مديرا للأبحاث بوزارة المعارف حيث كتب مقالا عن البرلمان والأحزاب فكلفه ذلك المثول أمام مجلس التأديب، فقدم استقالته يوم 26 نوفمبر 1938 ولكنها رفضت. وعين أخيرا مديرا لإدارة التوجيه الاجتماعي. كانت هذه الفترة ثرية بالمؤلفات المختلفة منها مسرحيات ثانوية: (المرأة الجديدة، الخروج من الجنة، رصاصة في القلب)، ومنها مسرحيات ذات أهمية كبرى في الحياة الأدبية المصرية والعربية (أهل الكهف، شهرزاد)، ومنها الرواية (عودة الروح، عصفور من الشرق)، ومنها السيرة الذاتية (يوميات نائب في الأرياف)، ومنها مجموعة من المقالات (تحت شمس الفكر).

استقال من منصبه الوظيفي سنة 1943 بعد نشر كتاب «شجرة الحكم» و بعد عام تزوج من مطلقة كان لها بنتان «نورة ونجاة» وأنجبت للحكيم طفلين: زينب التي واصلت دراستها بكلية اللغة الفرنسية بالإسكندرية، وإسماعيل الذي أصبح مديرا لفرقة موسيقية.

رجع إلى الوظيفة سنة 1951 كمدير لدار الكتب الوطنية المصرية وكان عضوا بالمجمع العلمي العربي (1954)، وعضوا قارا بالمجلس الأعلى للفنون والآداب (1956)، ثم ممثلا للجمهورية العربية المتحدة باليونسكو في باريس (1959) وعضوا بمجلس إدارة جريدة الأهرام (1962). وقد تحصّل على الوسام الأكبر للجمهورية (1958)، وجائزة الدولة للآداب (1961) بعد طه حسين وعباس

محمود العقاد. ثمّ تقاعد من الوظيفة سنة 1962 وتوفي في 27 جويلية 1987.
كان توفيق الحكيم ممثلًا في حياته الاجتماعية فقد ظهر بوضوح مدى عجزه عن تحمل أعباء هذه الحياة الاجتماعية : «لقد وضعت كل مواهبي في كتبي، ولم أضع شيئا في حياتي» [تحت المصباح الأخضر، 8] أو بعبارة أخرى: «إني أكتب حياتي، ثم أعمى على تحقيق ما كتبت» [فن الأدب، 214]. ويلح على بيان التعاطف الذي يشده إلى شخصياته: «إن المشاعر التي عبرت عنها شهرزاد، كنت أحس بها» [فن الأدب، 126]. فهو يبغض السرعة التي تمنعه من التفكير: «أنا عدو الزمن» [حمار الحكيم، 129]. وكما قال جورج طرابيشي: «توفيق الحكيم يحتقر التاريخ، إنه كاتب يخرج عن حد التاريخ». لذلك لا يحمل توفيق الحكيم ساعة أبدا. وإن ابتسامته الماكرة تدعو إلى أن لا نثق بمظاهره المعروفة. وفي كل مراحل حياته نجد العصا، لا تفارقه، فقد فتنته، وأصبحت من سماته الخرافية. وستعرف القبعة مصيرا أدبيا وقوميا مماثلا تقريبا، فقد اختار الحكيم وضعها في سن مبكرة جدا، وستكون موضوع نزاع شديد، وسيبقى وضعها دون تغيير، وفي ذلك دلالة كبيرة [تحت شمس الفكر، 175]. وقد انتخب، من عالم الحيوان، الحمار. ويبدو أن هذه العلاقة المقصودة والنهائية كان لها على الكاتب تأثيرات مبهجة. والحق أنها طرافة أصيلة مهما بدت غريبة، وإنه لوفاء دائم للحمار فإنه عند الكاتب رمز للإنسان، يضاف إلى ذلك إشارات إلى الوحدة وعدم القدرة على الاندماج في المجتمع وتوافق في خيبة الأمل ورغبة في التعويض.

أما بالنسبة لعيوب توفيق الحكيم، فقد كثرت التفاصيل والجزئيات الخيالية عن بخله حتّى إذا ما خلطنا بين الكتابة الفنية التي تخوّل له إظهار براعته الأدبية وميله إلى البخل، حصلت لنا عن الحكيم فكرة جد سلبية. فهمه الأول كان يتمثل في قوله: «أحبّ دوما أن أضع كل شيء موضعه» [أحاديث مع توفيق الحكيم، 18]. أمّا الرأي السائد الذي يميل إلى تصور الحكيم عدوا للمرأة فقد ساهم بقسط وافر في الحكم عليه. والحق أنه يتحمل هو نفسه مسؤولية مباشرة في ظهور هذه الفكرة المسبقة. ولكن كم من شكوى برزت بقلمه للحديث عن أصل هلهلة الأدب المصري، وهو يعزو ذلك إلى المكانة الدنيا المخصصة للمرأة في المجتمع. فمن أبسط درجات الأمانة الفكرية أن نرفض المشاعر المعادية للمرأة التي عرفت عن توفيق الحكيم [أدهم وناجي، 197]. ذلك أن المؤلف يمثل دوره بإتقان وهو بارع في فن التمويه [سجن العمر، 103] وأنه قد عرف هذه الطريقة في العيش داخل أسوار نفسه. إن الأمر يتعلق جوهريا برجل محرج. ويمكن لنا كذلك أن نفسر انتهازيته السياسية بنفس السبب.

إن الرجل يحيلنا دوما على أعماله: فالعنوان والمحتوى والشكل والمضمون تمثل وحدة لا يمكن فصل بعض أجزائها عن بعض. لقد قسم أغلبية النقاد أعمال توفيق الحكيم حسب تطورها إلى أربع مراحل وهي: المرحلة الذهنية، والمرحلة الاجتماعية، وثالثة ملتزمة، ومرحلة أخيرة تنتسب إلى اللامعقول. لكن هذه النظرية تجد صعوبة في التنبيه إلى دقائق آثار الكاتب، وخاصة إلى ما تفترضه

هذه المراحل المختلفة من تداخل، ثم إنه من الصعب أن نتصور أن كاتبا ما يستطيع أن يعدل جوهريا، ولمرات عديدة في حياته، وجهة بحثه الأدبي، فكأنما الأقسام التي ارتآها هؤلاء النقاد تبقى على مستوى سطح النصوص. مع أننا نلاحظ أن عناوين مؤلفات توفيق الحكيم وهيكلها الداخلي تدل على وحدة واضحة وهي انشغاله بالموت والانبعاث. وتتضمن هذه الفكرة جوانب متنوعة وتتداخل بالتالي بأغراض أخرى، فكل شخصية تعبر عن تصورها للموت والانبعاث بكل حرية، حسب طبيعتها، ولكن من غير الممكن ألا تكون للمؤلف رؤية خاصة به.

والواقع أن توفيق الحكيم يرفض مشاطرة إحساس الكثير من الناس بالضياع الذي يصيبهم أمام الموت، ويتأكد لنا هذا عندما نراه يحرر مع صديقه طه حسين كتابا ذا نغمات سريالية، يتداول عليه كل منهما بكتابة فصل من فصوله، كانت فيه شهرزاد العقدة. فإذا بالشخصيات قد دعيت للخروج إلى الصيد، ولم يكن بإمكانهم رفض الدعوة، وينكشف لنا الأمر، فإذا بها دعوة إلى الموت [القصر المسحور، 12]. ولا نهمل رفض توفيق الحكيم القطعي لحياة بلا حركة ولا عمل، فيعيش المؤلف، في حياته وأعماله الأدبية، صراعا عميقا جدا بين أصله العربي الإسلامي وتكوينه العصري الغربي ليجد الحل النهائي بالرجوع إلى ماضيه الفرعوني الأبعد.

أولى توفيق الحكيم مكانة في كتاباته للبعد الإسلامي، مصطبغا بطابع طبقي، وهو طابع الطبقة البورجوازية المتوسطة. وهذا البعد العربي الإسلامي واضح في علاجه ظواهر تسبق الموت كالمرض والشيخوخة والاحتضار وحتى وصف «حدث» الموت. وكذلك في تقديمه الميتات العنيفة سواء أكانت سلبية، ونعني بها القتل لمختلف الأسباب (اقتصادية أو سياسية أو دينية أو فنية أو عاطفية) من أجل الانتقام أو بسبب الحرب، أم إيجابية كما هو الحال في الشهادة. فيعتبر الموت انقطاعا عن الحياة ومنحى، يفضي إلى الفلاح والفوز بالجنة بالنسبة إلى الذين عبروا الموت. فنظرا لما للتراث العربي الإسلامي من أهمية عند توفيق الحكيم وجدنا أن الموت ينفتح على عالم بعد هذا العالم معروف نسبيا إن لم نقل شائعا، إذا ما اعتمدنا على القرآن الكريم، ولكن إذا ما استطعنا تفسير أحد جوانب أعمال توفيق الحكيم بذلك، فإنه يتبين لنا أن هذا الكون ـ كون المؤلف ـ لا يقتصر على هذا الحل السائد الوحيد.

بدا تأثير الغرب الحديث واضحا في إنتاج توفيق الحكيم خاصة بعد مرحلة دراسته للحقوق وإقامته مرتين بباريس، ظهر ذلك في مجموعة من ردود الفعل كاللامبالاة والنسيان والانسياق إلى التلاشي والعدم. إن الموت الحيواني ومفاهيم كمفهومي النوم والراحة، أو مفهومي الزمن والخلود، قد أدت إلى تصور آخر للموت عند الكاتب وهو الموت بدون إله. أثّر القانون الغربي في المجتمع المصري التقليدي من خلال قضيتين وهما الانتحار والإعدام. فحاول توفيق الحكيم أن يجد تناسقا بين هذين النوعين من التأثيرات ـ الشرق والغرب ـ باختراع مفهوم التعادلية (1955)، حيث يحدد آراءه عن الحياة والفن.

ملمحا إلى أن الحياة الإيجابية تبدأ مع الثنائية: الفكر والشعور (شهرزاد)، العقل والقلب (أهل الكهف)، القوة والحكمة (سليمان الحكيم). لكن الكلمة الأخيرة تبقى للقلب والإيمان أي الله. لقد ذكر توفيق الحكيم تسع عشرة تعادلية مع أنه يعتبر خمسة أزواج فقط منها أساسية وهي الشمس والأرض، الفكر والعمل، الخير والشر، العقل والقلب، التفسير والتعبير. لكن توفيق الحكيم، مع مجهوده الكبير لتطبيق هذه النظرية في أعماله وحياته، إلّا أنه فشل في آخر الأمر، لأن كل الثنائيات المتقابلة تلتقي في نقطة هي مركز الدائرة وقطب التفكير، لكنه لا يذكر أبدا هذه النقطة الأساسية.

إن الرجوع إلى طفولة المؤلف ضروري لاكتشاف الحل عن صراعه الأساسي، إذ هي ترمز إلى انغماس عظيم في التاريخ بصلة بالمعتقدات الشعبية فيما يتعلق بالأشباح وبالمخلفات المتصلة بالنظريات الشرقية حول تناسخ الأرواح وحول أسطورة العوْد الأبدي والحياة السرمدية، وإذا بالموت في المنظور الحكيمي يتضح أكثر فيصبح جزءا من تصور ثنائي، هو تصور الموت ـ الانبعاث الذي تمثله أسطورة إيزيس ـ أوزيريس تمثيلا كاملا، لها ثلاثة وجوه فنية هي بريسكا وشهرزاد وإيزيس، وهي تمثل مراحل تطور أعمال توفيق الحكيم.

إن مستويات اللغة التي استعملها توفيق الحكيم تطرح مشاكل لغوية، خاصة أن المؤلف قدم نفسه بأنه من أنصار اللغة الثالثة حيث يمكن قراءة النص حسب القواعد النحوية للعربية الفصحى كما يمكن أن يلقى حسب نبرات اللهجة المصرية «هذه الأعمال الأربعة الكبيرة: «عودة الروح»، و«يوميات نائب في الأرياف»، و«أهل الكهف»، و«شهرزاد»، هي القمة في إنتاجه كله، وما أنتجه، بعد ذلك تطبيقات مختلفة لها» [أحمد بهاء الدين، مقدما تأملات في السياسة]. فيدل ذلك على أن هذا اللاعب الماهر ـ الذي هو الحكيم ـ يعبر عن فكرة واحدة في أشكال كثيرة يمكن أن ألخصها هكذا: إن «الموت والانبعاث» هما الفكرة الجوهرية لكل أعماله؛ فإن «الموت والانبعاث» لا يعدوان أن يكونا تطويرا للأسطورة القديمة، أسطورة إيزيس وأوزيريس؛ و«الموت والانبعاث» يبرزان من خلال رأي الكاتب في الفن. لم يكن توفيق الحكيم مفكرا عميقا، لكنه كان أديبا عظيما. وخلاصة القول، حسب تعبير إيزيس: إن «قناعي لم يكشفه بعد إنسان» [شهرزاد، 2].

■ آثاره

أ ـ المؤلفات العربية:

1 ـ الضيف الثقيل، لم تطبع ولم تنشر، 1919؛ 2 ـ أمينوسا، [فؤاد الدوارة، مسرح توفيق الحكيم، 1 ـ المسرحيات المجهولة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1922، 1985، ص 82 ـ 95]؛ 3 ـ العريس، [نفس المرجع، 1924، ص 97 ـ 110]؛ 4 ـ خاتم سليمان، [نفس المرجع، 1924، ص 111-127]؛ 5 ـ علي بابا (تحقيق فؤاد الدوارة)، المركز القومي للمسرح، 1925، 1983؛ 6 ـ أهل الكهف، مطبعة مصر، 1933، 175 ص؛ 7 ـ عودة الروح، مطبعة الرغائب، جزءان، 1933، 282 و262 ص؛ 8 ـ شهرزاد، دار الكتب، 1934،

162 ص؛ 9 ـ محمد، لجنة التأليف، 1936، 425 ص؛ 10 ـ القصر المسحور، دار النشر الحديث، 1937، 288 ص؛ 11 ـ يوميات نائب في الأرياف، لجنة التأليف، 1937، 190 ص؛ 12 ـ عصفور من الشرق، لجنة التأليف، 1938، 208 ص 13 ـ تحت شمس الفكر، لجنة التأليف، 1938، 207 ص؛ 14 ـ عهد الشيطان، لجنة التأليف، 1938، 157 ص؛ 15 ـ تاريخ حياة معدة أو أشعب ملك الطفيليين، لجنة التأليف، 1938، 201 ص؛ 16 ـ براكسا أو مشكلة الحكم، مكتبة الآداب، 1939، 174 ص؛ 17 ـ راقصة المعبد، مكتبة الآداب، 1939، 144 ص؛ 18 ـ نشيد الأنشاد، مطبعة مصر، 1940، 60 ص؛ 19 ـ حمار الحكيم، مكتبة الآداب، 1940، 164 ص؛ 20 ـ سلطان الظلام، مكتبة الآداب، 1941، 168 ص؛ 21 ـ من البرج العاجي، مكتبة الآداب، 1941، 219 ص؛ 22 ـ تحت المصباح الأخضر، مكتبة الآداب، 1942، 220 ص؛ 23 ـ بجماليون، مكتبة الآداب، 1942، 174 ص؛ 24 ـ سليمان الحكيم، مكتبة الآداب، 1943، 199 ص؛ 25 ـ زهرة العمر، مكتبة الآداب، 1943، 272 ص؛ 26 ـ الرباط المقدس، دار سعد، 1944، 272 ص؛ 27 ـ حماري قال لي، دار المعارف، 1945، 177 ص؛ 28 ـ شجرة الحكم، مكتبة الآداب، 1945، 190 ص؛ 29 ـ الملك أوديب، مكتبة الآداب، 1949، 272 ص؛ 30 ـ مسرح المجتمع، مكتبة الآداب، 1950، 788 ص، وفيه 21 مسرحية نشرت تباعا في جريدة «أخبار اليوم» بداية من 1945، وهي: بين يوم وليلة ص 9 ـ 34، أريد أن أقتل 35 ـ 62، النائبة المحترمة 63 ـ 84، أصحاب السعادة الزوجية 85 ـ 106، ميلاد بطل 107 ـ 122، اللص 123 ـ 234، أريد هذا الرجل 235 ـ 252، عرف كيف يموت 253 ـ 276، المخرج 277 ـ 298، امرأة المعلم كندوز 299 ـ 322، الكنز 323 ـ 344، بيت النمل 345 ـ 362، أعمال حرة 363 ـ 386، الساحرة 387 ـ 414، الحب العذري 415 ـ 446، الجياع 447 ـ 472، العش الهادئ 473 ـ 592، مفتاح النجاح 593 ـ 614، الرجل الذي صمد 615 ـ 640، لو عرف الشباب 641 ـ 762، أغنية الموت 763 ـ 787؛ 31 ـ فن الأدب، مكتبة الآداب، 1952، 328 ص؛ 32 ـ عدالة وفن، مكتبة الآداب، 1953، 229 ص؛ 33 ـ أرني الله، مكتبة الآداب، 1953، 235 ص؛ 34 ـ عصا الحكيم، دار الهلال، 1954، 215 ص؛ 35 ـ تأملات في السياسة، روز اليوسف، 1954، 175 ص؛ 36 ـ التعادلية، مكتبة الآداب، 1955، 120 ص؛ 37 ـ إيزيس، مكتبة الآداب، 1955، 176 ص؛ 38 ـ الصفقة، مكتبة الآداب، 1956، 162 ص؛ 39 ـ المسرح المنوع، مكتبة الآداب، 1956، 851ص، يحوي 20 مسرحية وهي: سر المنتحرة، 1929، ص 1 ـ 70، حياة تحطمت، 1930، ص 71 ـ 161، رصاصة في القلب، 1931، ص 162 ـ 238، الأيدي الناعمة، 1954، ص 239 ـ 342، الخروج من الجنة، 1928، ص 343 ـ 410، صاحبة الجلالة، 1955، ص 411 ـ 527، المرأة الجديدة، 1926، ص 528 ـ 631،

الصندوق، 1946، ص 632 ـ 648، الزمار، 1932، ص 649 ـ 686، جنسنا اللطيف، 1935، ص 687 ـ 703، نهر الجنون، 1935، ص 704 ـ 716، حديث صحفي، 1938، ص 717 ـ 728، دقت الساعة، 1950، ص 729 ـ 744، الشيطان في خطر، 1951، ص 745 ـ 757، لكل مجتهد نصيب، 1951، ص 757 ـ 787، لا تبحثي عن الحقيقة، 1947، ص 788 ـ797، أمام شباك التذاكر، 1926، ص 798 ـ 808، نحو حياة أفضل، 1955، ص 809 ـ 827، صلاة الملائكة، 1941، ص 827 ـ 850؛ 40 ـ لعبة الموت، مكتبة الآداب، 1957، 133 ص؛ 41 ـ عوالم الفرح، دار التحرير، 1957؛ 42 ـ أشواك السلام، مكتبة الآداب، 1958، 167 ص؛ 43 ـ رحلة إلى الغد، مكتبة الآداب، 1958، 183 ص؛ 44 ـ أدب الحياة، مكتبة الآداب، 1959، 214 ص؛ 45 ـ السلطان الحائر، مكتبة الآداب، 1960، 247 ص؛ 46 ـ يا طالع الشجرة، مكتبة الآداب، 1962، 210 ص؛ 47 ـ الطعام لكل فم، مكتبة الآداب، 1963، 206 ص؛ 48 ـ سجن العمر، مكتبة الآداب، 1964، 294 ص؛ 49 ـ رحلة الربيع والخريف، دار المعارف، 1964، 152 ص؛ 50 ـ شمس النهار، مكتبة الآداب، 1965، 177 ص؛ 51 ـ ليلة الزفاف، مكتبة الآداب، 1966، 191 ص؛ 52 ـ الورطة، مكتبة الآداب، 1966، 199 ص؛ 53 ـ مصير صرصار، مكتبة الآداب، 1966، 192 ص؛ 54 ـ كل شيء في محله، مضافة إلى الطبعة الثانية من المسرح المنوع، 1966، ص 857 ـ 869؛

55 ـ قالبنا المسرحي، مكتبة الآداب، 1967، 199 ص؛ 56 ـ بنك القلق، دار المعارف، 1967، 249 ص؛ 57 ـ قلت ذات يوم، كتاب اليوم، 1970، 131 ص؛ 58 ـ أحاديث مع توفيق الحكيم، دار الكتاب الجديد، 1971، 254 ص؛ 59 ـ توفيق الحكيم يتحدث، دار الكتاب الجديد، 1971، 205 ص؛ 60 ـ مجلس العدل، مكتبة الآداب، 1972، 128 ص؛ 61 ـ ثورة الشباب، بيروت، دار الوطن العربي، 1972، من ص 140 إلى 221 فقط؛ 62 ـ راهب بين نساء، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، 1972، 432 ص؛ 63 ـ حديث مع الكوكب، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1974، 110 ص؛ 64 ـ الدنيا رواية هزلية، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1974، 203 ص؛ 65 ـ عودة الوعي، بيروت، دار الشروق، 76ص، والطبعة الثانية 120ص، 1974؛ 66 ـ بين الفكر والفن، بيروت، دار الوطن العربي، 1974، 416 ص؛ 67 ـ الحمير، بيروت، دار الشروق، 1975، 143 ص؛ 68 ـ وثائق في طريق عودة الوعي، بيروت، دار الشروق، 1975، 140 ص؛ 69 ـ صفحات من التاريخ الأدبي، القاهرة، دار المعارف، 1975، 160 ص؛ 70 ـ ملف عبد الناصر، بيروت، دار القضايا، 1975، 498 ص؛ 71 ـ مختار تفسير القرطبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977، 893 ص؛ 72 ـ حكايات توفيق الحكيم، 1978؛ 73 ـ تحديات سنة 2000، مكتبة الآداب، 1980؛ 74 ـ امسك حرامي، القاهرة، الدولية للإنتاج الثقافي، 1981، 186 ص؛ 75 ـ ملامح داخلية،

مـكـتـبـة الآداب، 1982، 303 ص؛ 76 ـ الإسلام والتعادلية، مكتبة الآداب، 1982، 234 ص؛ 77 ـ الأحاديث الأربعة، مـكـتـبـة الآداب، 1983، 180 ص؛ 78 ـ مصر بين عهدين، مكتبة الآداب، 1983، 230 ص؛ 79 ـ يقظة الفكر، مكتبة الآداب، 1986؛ 80 ـ في الوقت الضائع، مركز الأهرام للترجمة والنشر، 1987، 412 ص؛ 81 ـ النعيم العائم (استكملها محمد الجمل)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990؛ 82 ـ تأملات في الأدب والفن، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1998، 589 ص؛ 83 ـ توفيق الحكيم يتذكر، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1998، 181 ص؛ 84 ـ رجل بلا روح، القاهرة، دار الهلال، 1998، 296 ص؛

ب ـ المؤلفات الكاملة المترجمة إلى اللغة الإنجليزية :

85 - Shahrazad (H. Howarth & I. Shikrallah), London, The Pilot Press, 1944; 86- Maze of Justice (Abba Eban), Londres, Harvill, 1947; 87- Muhammad (I. H. El-Mougy), Cairo, Supreme Council for Islamic Affairs, 1964; 88- Bird of the East (R. B. Winder), Beirut, Khattats, 1966; 89- The Tree Climber (D.Johnson-Davies), London, Ibadon, 1966; 90- Face of a Cockroach (D. Johson-Davies), London, Heinemann, 1973; 91- Isis (Edouard Gemayal), Cairo, General Egyptian Book Organization, 1975; 92- Theatre of Society (W. M. Hutchins), Washington, Three Continents Press, 1981; 93- A Conversation with Planet Earth (Riad Habib Youssef), Cairo, General Egyptian Book Organization, 1985; 94- The Return of Conciousness (R. Bayly Winder), New York, University Press, 1985; 95- Return of the Spirit (W. M. Hutchins), Washington, Three Continents Press, 1990; 96- The Prison of Life (Pierre Cachia), Cairo, The American University, 1992; 97- People of the Cave (Mahmoud El Lozy), Cairo, Elias Modern Publishing House, 1994;

ج ـ إلى اللغة الفرنسية :

98- Schéhérazade (Khédry et Brin), Paris, Sorlot, 1936, 126 p; 99- L'âme retrouvée (Morik Brin), Paris, Fasquelle, 1937, 224p; 100- Journal d'un substitut de campagne (Wiet et Hassan), Revue du Caire, 1938, 169 p. ; 2e éd., Plon, 1974; 101- La caverne des songes (A. Khédry), Revue du Caire, 1939, 128 p; 102- L'oiseau d'Orient, Paris, Nouvelles éditions latines, 1941, 190 p. ; 2e éd., 1960; 103- Théâtre arabe (K. Costandi), Paris, Nouvelles éditions latines, 1950, 465 p; 104- Théâtre multicolore (Khédry et Costandi), Paris, Nouvelles éditions latines, 1954, 347 p; 105- Pour notre terre (F. Moussalem et A. Adopol), Revue du Caire, 1958, 133 p; 106- Théâtre de notre temps, Nouvelles éditions latines, 1960, 255 p; 107- Souvenirs d'un magistrat poète, Nouvelles éditions latines, 1961, 222 p; 108- Le destin d'un cafard (Nadia Kamel), Le Caire, Organisation égyptienne générale du livre, 1986;

د ـ إلى اللغة الإيطالية :

109- Quei della caverna (R. Rubinacci), Napoli, Istituto universitario orientale, 1959; 110- La gente della caverna (U.

Rizzitano), Roma, Centro per le relazioni italo-arabe, 1961; 111- Un sultano in vendita (V. Vacca), Roma, Istituto per l'Oriente, 1964; 112- Shams an-Nahar (Vincenzo Strika), Roma, Istituto per l'Oriente, 1974;

هـ - إلى اللغة الأسبانية:

113- Diario de un fiscal rural (Emilio Garcia Gomez), Madrid, Instituto Hispano-Arabe de Cultura, 1955; 114- Teatro (F. Coriente), Madrid, Instituto Hispano-Arabe de Cultura, 1963; 115- El despertar de un pueblo (F. Corriente), Madrid, Instituto Hispano-Arabe de Cultura, 1967; 116- Shehrezada (P. Mertinez Montavez), Madrid, Instituto Egipcio de Estudios Islamicos, 1977;

و - إلى لغات أخرى:

117- P'esy (Tamary Putintsevoi), Moscva, Iskusstvo, 1935; 118- Yomano shel tove'a bi-khefare mitsrayim (Menahem Kapelyuk), Tel Aviv, 'Am 'Oved, 1945; 119- Ta'adul pah Zhwand aw Adab ('Abd al-Hadi Hidayat), Kaboul, Pushto Tolanah, 1970; 120- Uit het Dagboek van een Officier van Justitie (J. J. Witkam), Amsterdam, Meulenhoff, 1975; 121- Dodssongen (Ivar Eskeland), Oslo, 1980; 122- Ashab-i kahf (Ghulam Husain Suhail), Lahore, Panjnab Akaidmi, 1980;

المصادر والمراجع

● أدهم إسماعيل وناجي إبراهيم، توفيق الحكيم، القاهرة، دار سعد، 1945، 238 ص؛ ● مصطفى أحمد إبراهيم، توفيق الحكيم أفكاره وآثاره، القاهرة، مكتبة الآداب، 1952، 150 ص؛ ● مراد محمود، توفيق الحكيم والثورة المصرية، صيدا، المكتبة العصرية، 1966، 173 ص؛ ● مندور، محمد، مسرح توفيق الحكيم، القاهرة، دار نهضة مصر، 1966، 180 ص؛ ● غالي، شكري، ثورة المعتزل، القاهرة، المكتبة الأنجلو - المصرية، 1966، 419 ص؛ ● علام، محمد مهدي، توفيق الحكيم، القاهرة، 1966؛ ● الراعي، علي، توفيق الحكيم فنان الفرجة وفنان الفكر، القاهرة، دار الهلال، 1969، 268 ص؛ ● طرابيشي جورج، لعبة الحلم والواقع، بيروت، دار الطليعة، 1972، 196 ص؛ ● ملاخ، كمال، الحكيم بخيلا، القاهرة، المكتب المصري الحديث، 1973، 387 ص؛ ● قلعجي، قدري، توفيق الحكيم من عودة الروح إلى عودة الوعي، بيروت، دار الكتاب العربي، 1974، 135 ص؛ ● رمسيس، عوض، توفيق الحكيم الذي لا نعرفه، القاهرة، دار الشعب، 1974، 119 ص؛ ● الملوحي، عدنان، توفيق الحكيم بين الوعي والغيبوبة، دمشق، الناشر العربي للإعلان، 1975، 113 ص؛ ● العالم، محمود أمين، توفيق الحكيم المفكر والفنان، بيروت، دار القدس، 1975، 157 ص؛ ● عودة، محمد، الوعي المفقود، القاهرة، دار الثقافة العربية، 1975، 286 ص؛ ● درديري، فؤاد، القصص الديني في مسرح الحكيم، القاهرة، دار الشعب، 1975، 160 ص؛ ● كروم، حسنين،

سقوط الحكيم، القاهرة، دار المأمون، 1975، 200 ص؛ ● ملاخ، كمال، توفيق الحكيم فاقد الوعي، القاهرة، المطبعة الكمالية، 1976؛ ● عيد، رجاء، دراسات في أدب توفيق الحكيم، الإسكندرية، المعارف، 1977، 214 ص؛ ● عثمان، أحمد، المصادر الكلاسيكية لمسرح توفيق الحكيم، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، 1978، 307 ص؛ ● عطية، أحمد محمد، توفيق الحكيم اللامنتمي، القاهرة، دار الموقف العربي، 1979؛ ● داود، سيمان، أضواء على توفيق الحكيم، حيفا، 1979، 103 ص؛ ● شوشة، محمد السيد، توفيق الحكيم في قصصه، القاهرة، كتاب اليوم، 1982، 148 ص؛ ● شوشة، محمد السيد، خمس وثمانون شمعة في حياة توفيق الحكيم، القاهرة، دار المعارف، 1984؛ ● فونتان، جان، الموت والانبعاث قراءة في أدب توفيق الحكيم، (ترجمة محمد قويعة)، الدار التونسية للنشر، 1984، 326 ص؛ ● دوارة، فؤاد، مسرح توفيق الحكيم، المسرحيات المجهولة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1985، 293 ص؛ ● يعقوب، لوسي، عصفور من الشرق، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، 1986، 178 ص؛ ● عوض، رمسيس، ماذا قالوا عن أهل الكهف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1986، 205 ص؛ ● آيت حمودي تسعيديت، آثار الرمزية الغربية في مسرح توفيق الحكيم، بيروت، دار الحداثة، 1986، 315 ص؛ ● الطاهر، ابن يحيى، توفيق الحكيم ناقدا، تونس، كلية الآداب، 1986، 234 ص؛ ● شوشة، محمد السيد، نساء في حياة عدو المرأة، القاهرة، أخبار اليوم، 1987؛ ● فرنسيس، يوسف، عصا الحكيم وحماره، القاهرة، مكتبة مدبولي، 1987، 78ص؛ ● الجوادي، محمد محمد، توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1988؛ ● عيد محمد السيد/ نبيل فرج، وداعا توفيق الحكيم، القاهرة، المركز القومي للآداب، 1988، 415 ص؛ ● الدالي، محمد حسين، عملاق الأدب توفيق الحكيم، القاهرة، دار المعارف، 1989؛ ● صقر، محمد عبد الوهاب، الروائع السبع لمسرح توفيق الحكيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990، 206 ص؛ ● عيسى، عماد الدين، التعادلية في أدب توفيق الحكيم والأدب العربي والعالمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990؛ ● إبراهيم، عبد العزيز، رسائل خاصة جدا، القاهرة، دار أخبار اليوم، 1992؛ ● غالي، شكري، توفيق الحكيم الجيل والطبقة والرؤيا، بيروت، دار الفارابي، 1993؛ ● بهي، عصام، الخيال العلمي في مسرح توفيق الحكيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1994؛ ● ابن يحيى، الطاهر، قضايا الأدب والمسرح عند توفيق الحكيم، تونس، دار أميمة، 1995، 107 ص؛ ● بوشعير، الرشيد، المرأة في أدب توفيق الحكيم، دمشق، دار الأهالي، 1996، 128 ص؛ ● منتصر، صلاح، توفيق

الحكيم في شهادته الأخيرة، القاهرة، مركز الأهرام للترجمة والنشر، 1996؛ ● عبد العزيز، إبراهيم، أشعار توفيق الحكيم، القاهرة، دار قباء، 1998؛ ● أبو عوف، عبد الرحمن، توفيق الحكيم بين عودة الروح وعودة الوعي، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، 1998، 309 ص؛ ● السكوت، حمدي، توفيق الحكيم: بيبليوجرافيا، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، 1998، 281 ص؛ ● الحكيم، توفيق، مسرحية شهرزاد، حمام سوسة، دار الميزان، 2000، 139 ص؛ ● شقرون، دليلة، المأساة في شهرزاد للحكيم، صفاقس، دار محمد علي الحامي، 2001، 124 ص؛

● BROCKELMANN C., Geschichte des Arabischen Litteratur, Dritter Supplementband, t. III, Brill, Leiden, 1942, p. 242-250; ● TUTUNGI G. V., Tawfiq al-Hakim and the West, University of Indiana, Ph. D., 1966; ● YONUZOV K. O., Taoufik al-Hakim biobibliografitcheskii ukazateli, Moscou, Editions Le Livre, 1968, 62 p; ● ALI Mohamed Hamed, Philosophical Concepts in Five Plays by the Egyptian Dramatist T. al-Hakîm, Denver, Ph. D., 1968, 184 p; ● CHAHINE Chahnaz, Le thème de Schéhérazade chez J. Supervielle et quelques autres écrivains français, dans les ballets russes et chez le dramaturge égyptien T. al-Hakîm, Paris, 3e cycle, 1969 ; ● BAR-NISSIM Nahman, An approach to Tawfiq al-Hakim the Dramatist, University of Pensylvania, Ph. D., 1970; ● USAMOV Noel, Adab Tawfîq al-Hakîm, Moscou, 1970; ● SAADA Nicolas, Réalisme, idéalisme et symbolisme dans l'œuvre de T. Hakim, Aix-en-Provence, 3e cycle, 1971, 183 p ; ● YASSINE Sazdel Ahmad, Influences étrangères dans l'œuvre de T. al-Hakim, Alexandrie, 1972, 594 p ; ● YONUZOV K.O., Dramaturgia Taoufik al-Hakim, Moscou, Editions Le Livre, 1976, 154 p ; ● FONTAINE Jean, Mort-résurrection : une lecture de Tawfîq al-Hakîm, Tunis, Bouslama, 1978, 336 p ; ● USMANOV M. K., Proza Taufik al-khakim, Moscou, 1979, 114 p; ● LONG Richard, Tawfîq al-Hakîm, Playwright of Egypt, Londres, Ithaca Press, 1979, 235 p; ● MARTINEZ NUNEZ Antonia, Tawfiq al-Hakim y la configuracion de la literatura nacional egipcia, Granada, Universidad, 1986; ● KLEIBO Ali M., The Desire for Progress, Temple University, Ph. D, 1986; ● STARKEY P., From the Ivory Tower, London, Ithaca, 1987; ● ALLEN R. M. A., «Tawfîq al-Hakîm», Encyclopédie de l'Islam, Brill, Leiden, 2e éd., t. X, 2002, p. 415-416.;

جون فونتان
مجلة «إبلا» - تونس

حكيم شاه، محمد بن مبارك القزويني

(ت 929هـ/1523م)

ولد حكيم لأب غير معروف، واشتهر أكثر بلقب «حكيم شاه» بسبب نجاحه في مجال الطب. وبعد أن تلقى تعليمه الأول من علماء قزوين، يعتقد أنه ذهب إلى شيراز من أجل الاستفادة من العالم الشهير جلال الدين الدواني أثناء قيامه بوظيفة قاضي القضاة في الفترة من عام 883هـ/ 1478م إلى عام 903هـ/ 1497م. ومكث هناك فترة طويلة من الزمن، وينبغي أن يكون قد أهّل نفسه في مجالات التفسير والكلام والمنطق والنحو والطب وغيرها من العلوم.

عند سيطرة الصفويين على إيران ذهب حكيم شاه إلى مكة المكرمة ومكث فيها فترة من الزمن مجاورا. وتمت دعوته إلى استانبول من قبل السلطان العثماني بايزيد الثاني، وذلك بتوصية من مؤيد زاده عبد الرحمن أفندي (ابن المؤيد) الذي تلقى العلم على يد جلال الدين الدواني لمدة سبع سنوات في شيراز والذي عمل كذلك قاضي عسكر في الأناضول والروملي في عهد بايزيد الثاني. ويقول قنالي زاده حسن چلبي إن الرسالة التي تدور حول الطب التي أرسلها حكيم شاه إلى السلطان أصبحت وسيلة لهذه الدعوة [التذكرة، 1/ 511]. وفي استانبول عيّن حكيم شاه طبيبا للسراي بمرتب قدره 120 أقجة يوميا. وعند نشوب صراع العرش بين بايزيد الثاني وابنه سليم الأول، ثم تغلب سليم الأول، ابتعد حكيم شاه عن هذه الوظيفة. غير أنه تمت إعادته إلى وظيفته في عام 918هـ/ 1512م بعد وصول سليم الأول إلى الحكم وحصل على موقع مميز في السراي.

اشترك حكيم شاه ـ الذي يحمل صفة طبيب السلطان ـ في عدد كبير من حملات السلطان سليم الأول، وتوفي في السنوات الأولى من عهد السلطان سليمان القانوني. ويذكر محمد ثريا أن حكيم شاه توفي في عام 928هـ 1522م [السجل العثماني، 4/ 109]. غير أننا نجد في نسخة المؤلف الموجودة في مكتبة السليمانية [الشهيد علي باشا، رقم 2799] من كتاب «نصيحت نامه» لحكيم شاه أن هذا الكتاب تم تأليفه في عام 929هـ/ 1523م، وقد ذكرت هذه المعلومة كذلك من قبل كاتب چلبي [كشف الظنون، 2/ 1958]. وبالإضافة إلى ذلك يؤرخ كاتب چلبي تاريخ وفاته بعشرينات القرن العاشر الهجري الموافق للقرن السادس عشر الميلادي [المصدر السابق، 2/ 1144، 1146]، غير أنه يذكر في موضع آخر عام 966هـ/ 1559م تاريخا لوفاته [المصدر السابق، 1/ 208]. وينبغي أن يكون التاريخ الأخير الذي نقله محمد علي المدرس خاطئا، كما أن نسخة خط المؤلف من كتاب «ترجمة مجالس النفائس» ـ وهو مؤلف يعود إلى حكيم شاه كذلك ـ يتبين أن هذا الكتاب ألف

في عام 929هـ/ 1523م [مكتبة السليمانية، أسعد أفندي، رقم 3877].

خلطت بعض المصادر التي تعود إلى الفترات الأخيرة بين حكيم شاه وبين محمد بن مبارك شاه (ت 740هـ/ 1339م) المعروف بـ «ميريك» البخاري، فنسبت بعض المؤلفات التي تعود إلى ميريك البخاري إلى حكيم شاه [مثلا انظر: هدية العارفين، 2/ 229؛ كحالة، 11/ 170؛ الزركلي، 7/ 17 ـ 18].

■ آثاره

1 ـ تفسير القرآن (تفسير حكيم شاه)، اعتبر أهم مؤلفات الكاتب، وتذكر معظم المصادر أنه تفسير يبدأ من سورة الفتح حتى نهاية القرآن الكريم، غير أن إسماعيل باشا البغدادي يبين أن هذا التفسير يبدأ من سورة النحل [هدية العارفين، 2/ 229]؛ 2 ـ كتاب الربط بين السور والآيات (ربط السور والآيات)، توجد منه نسخة بخط المؤلف في مكتبة السليمانية [آيا صوفيا، رقم 375]. ويذكر أنه كتب في مكة المكرمة من أجل تقديمه هدية إلى بايزيد الثاني. وقام أيوب صبري فاني بإعداد رسالة ماجستير معتمدا على هذه النسخة محققا إياها (انظر البيلوغرافيا)؛ 3 ـ حاشية على شرح العقائد النسوية، ألف هذا الكتاب حسب ما هو مبيّن في النسخة المكتوبة بخط المؤلف والموجودة في مكتبة السليمانية [آيا صوفيا، رقم 2212] في عام 920هـ/ 1514م، وقدم إلى السلطان سليم الأول. وتوجد من المؤلف نسختان أخريان في المكتبة نفسها [حاجي محمود أفندي، رقم 1419؛ جار الله أفندي، رقم 1162]؛ 4 ـ حاشية على شرح العقائد العضدية للدواني، يبدو في هذا الكتاب وقوف حكيم شاه إلى جانب الباقلاني وإمام الحرمين الجويني ضد الدواني في بعض المواضيع. وتوجد من هذه الحاشية نسخة في مكتبة حاجي سليم أغا [رقم 605]، كما توجد نسخة أخرى في مكتبة كوبرولي [رقم 224]؛ 5 ـ نصيحت نامه، مؤلف كتب باللغة الفارسية من أجل تقديمه إلى السلطان سليمان القانوني. وفيه دعّم وصاياه التي تتناول الحفاظ على الصحة بالآيات والأحاديث. وتوجد منه نسخة في مكتبة السليمانية [الشهيد علي باشا، رقم 2799/ 3]؛ 6 ـ الرسالة في الأسباب الستة الضرورية، رسالة كتبها من أجل أن يقدمها إلى السلطان سليمان القانوني أيضا. وتحتوي على وصاياه المتعلقة بالصحة. وتوجد من هذه الرسالة نسخة في مكتبة نور عثمانية [رقم 3509]؛ 7 ـ شرح المجاز في الطب، عبارة عن شرح لمؤلف «المجاز» (مجاز القانون) لابن النفيس. و«المجاز» في الوقت نفسه هو مختصر لمؤلف «القانون في الطب» لابن سيناء وذلك باستثناء الأقسام الثلاثة الأولى التي تحتوي على قسم علم التشريح. ويتضمن الكتاب الأمراض وطرق علاجها. وتوجد منه نسخة في مكتبة السليمانية [بشير أغا، رقم 509؛ داماد إبراهيم باشا، رقم 123]، كما توجد نسخة في مكتبة جامعة استانبول [المخطوطات العربية، رقم 2326]؛ 8 ـ ترجمة مجالس النفائس، عبارة عن ترجمة باللغة الفارسية لمؤلف «مجالس النفائس» الذي كتبه علي شيرنوايي بتركية جغاطاي لتراجم الشعراء. وأثناء عملية الترجمة لم يقم القزويني بترجمة مقدمة علي شيرنوايي وكتب مقدمة جديدة

بنفسه. وبالنسبة إلى حسين بايقرا المذكور في الباب الثامن من النص الأصلي فقد وضعه ضمن الباب السابع. وفي الوقت نفسه فقد قسم الباب الثامن إلى قسمين من جديد. وبالنسبة إلى القسم الأول فقد وضع فيه معلومات تتعلق بالشعراء الذين وجدوا قبل السلطان ياووز سليم، ولكن هذه المعلومات أخذ أغلبها من كتاب عبد الرحمٰن جامي المسمى «بهارستان»، ولذلك فلا يكتسب هذا القسم خصائص مميزة. وخصص القسم الثاني للحديث عن الشعراء الذين ظهروا في عهد السلطان ياووز سليم. والمعلومات التي احتوى عليها هذا القسم لا توجد في بقية المصادر الأخرى، ولذلك يمكن اعتبارها معلومات أساسية. وفي الحقيقة تصرف القزويني تصرفا واضحا عند ترجمته للكتاب، فقد أخرج بعض المعلومات منه في حين أضاف إليه معلومات جديدة. فالنص الأصلي يحتوي على ترجمة لـ 461 شاعرا، أما الترجمة فتحتوي على 549 شاعرا. وتوجد من المؤلف نسخة بخطوط عديدة في مكتبة السليمانية [أسعد أفندي، رقم 3877]، وقد تمت كتابتها بين عامي 927 ـ 929هـ/ 1521 ـ 1523م وتم إهداؤها إلى السلطان سليمان القانوني. وتم نشر هذه الترجمة من قبل علي أصغر حكمت ضمن الترجمة الفارسية المسماة «لطائف نامه» التي أعدها فخري حراتي في عام 928هـ/ 1522م لكتاب «مجالس النفائس» [مجالس النفائس، طهران 1323 هجري ـ شمسي/ 1944م، ص 180 ـ 409]؛ 9 ـ ترجمة حياة الحيوان: عبارة عن ترجمة باللغة الفارسية أعدها حكيم شاه لكتاب «حياة الحيوان» لصاحبه دميري، وقد تمت ترجمته بطلب من السلطان سليم الأول [للاطلاع على نسخته المخطوطة انظر: أحمد منزوي، 1/ 404].

بالإضافة إلى هذه المؤلفات، توجد لحكيم شاه مؤلفات أخرى ذكرها طاش كوبري زاده وذكرتها المصادر الأخرى من بعده وهي «شرح الحاشية على شرح المواقف» و«كشف الحقائق في شرح الكافية» و«شرح الإيصاغوجي» و«حاشية على تهافت خوجه زاده».

■ المصادر والمراجع

● شيرنوايي، علي، مجالس النفائس، نشر علي أصغر حكمت، طهران 1323 هجري ـ شمسي، مقدمة الناشر، ص 50 ـ 150؛ ● طاش كوبري زاده، الشقائق النعمانية، نشر أحمد صبحي فرات، استانبول 1405، ص 330 ـ 331؛ ● أفندي، محمد مجدي، ترجمة الشقائق، استانبول 1269، ص 341 ـ 342؛ ● خوجه سعد الدين، تاج التواريخ، استانبول 1279 ـ 1280، 2/ 573؛ ● قنالي، حسن چلبي، تذكرة الشعراء، نشر إبراهيم كتلوك، أنقره 1978 ـ 1981، 1/ 511 ـ 513؛ ● كاتب چلبي، كشف الظنون، 1/ 208، 446، 513، 685، 832، 2/ 114، 1371، 1591، 1825، 1893، 1958؛ ● قاموس الأعلام، 3/ 1970؛ ● ثريا، محمد، السجل العثماني، استانبول 1308 ـ 1315، 4/ 109؛ ● سركيس، يوسف إليان، معجم المطبوعات العربية، 3/ 1632؛

● Brockelmann, GAL Suppl., II, 292

• باشا، إسماعيل، هدية العارفين، 2/ 229 ؛ • كحالة، معجم المؤلفين، 11/ 151، 170.

• C. A. Storey, Persian Literature, London 1953, I/2, p. 793; • Ismail Hami Dânismend, Izahli Osmanli Tarihi Kronolojisi, Istanbul 1971-1972, II, 54-55 ; • Adnan Adivar, Osmanli Türklerinde Ilim, haz. Aykut Kazancigil ve Sevim Tekeli, Istanbul 1982, p. 113; • Ali Ekber Dihhudâ, Lugatnâme, nsr. Muhammed Muin ve Ca'fer Sehîdî, Tahran 1373/1993-1994, VI, 8054; • Muhammed Ali Müderris, Reyhanetü'l-edeb, Tebriz, tarihsiz, IV, 454-455 ; • Ahmed Münzevî, Fihrist-i Nüshahâ-yi Hattî-i Fârsî, Tahran 1348 hs., I, 404 ; • Ahmed Gülçîn-i Maânî, Târîh-i Tezkirehê-yi Fârsî, Tahran 1348-1350 hs., II, 120-123 ; • Muhammed Ali Taberî, Zübdetü'l-âsâr, Tahran 1372, p. 353 ; • Ahmed Isâ, Mu'cemü'l-etibbâ, Beyrut 1402/1982, p. 215 ; • Ramazan Sesen ve diğerleri, Fihrisü mahtûtâti't-tibbi'l-Islâmî fî mektebâti Türkiyâ, Istanbul 1404/1984, p. 104, 202 ; • Hayreddin ez-Ziriklî, el-A'lâm, nsr Züheyr Fethullah, Beyrut 1984, VII, 17-18; • Eyyüp Sabri Fâni, Hakîm Sah el-Kazvînî ve Kitâbü'r-Rabt beyne's-süveri ve'l-âyât Adli Eseri (yüksek lisans tezi, 1991), Marmara Universitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü; • Harun Anay, Celâleddin Devvanî: Hayati, Eserleri, Ahlak ve Siyaset Düsüncesi, (doktora tezi, Istanbul Universitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü, 1994), ISAM Ktp., nr. 29969, p. 100-101 ; • Cemal Kurnaz, Türkiye-Orta Asya Edebî iliskileri, Ankara 1999, p. 96-97 ; • Ahmet Kartal, «Alî Sîr Nevâî'nin Mecâlisü'n-Nefâis Isimli Tezkiresi ve XVI. Asirda Yapilan Iki Farsça Tercümesi», Bilig: Türk Dünyasi Sosyal Bilimler Dergisi, sayi: 13, Ankara 2000, p. 21-63.

د. أحمد أوزال
هيئة الموسوعة الإسلامية
استانبول - تركيا

ترجمة: أنعم محمد عثمان الكباشي - السودان

الحلاّج، أبو المغيث الحسين بن منصور بن محمد

(244هـ/858م - 309هـ/922م)

ولد في طور شمال شرق البيضاء، وهو مكان من مقاطعة فارس بإيران. ارتحل أبوه للعمل في منطقة النسيم الممتدّة من تستر حتّى واسط التي أسّسها العرب، ومعظم ساكنيها سُنّة على مذهب ابن حنبل، فيها عمّق الحلاج معرفته باللغة العربية وحفظ القرآن. في هذه المرحلة المبكّرة تبيّن للحلاّج أنّ قراءة القرآن غير مخلوقة، تعبّر عن أفكار إلٰهيّة فيجب على المؤمن أن يصل إلى استبطان صلواته وإلى تحقيقها في ذاته، «بذلك تتحقّق محبّة الله التي هي قيامك مع محبوبك بخلع أوصافه». كان هذا التوجّه أوّل نسمة لفكرة الاتّحاد المشخص بالذات الإلٰهية في أعلى درجة المحبّة والعشق. لم يكتف الحلاّج إذن بحفظ القرآن وإنّما تجاوز ذلك إلى التأمّل في عمق آياته وتأويلها فصار من الحُفّاظ العارفين. وحتّى يُعمق اتّجاهه التصوّفي اختار الحلاّج سهلًا التُستَري ليقرأ عليه ولم يتركه إلا حين بلغ من العمر عشرين سنة حيث ارتحل إلى البصرة ليتلقى خرقته الصوفية على يد عمرو بن عثمان المكي الذي يُعتبر شيخه.

في تستر تزوّج أم الحسين ابنة الصوفي أبو يعقوب الأقطع فأثْمَرَ ثلاثة أبناء وبنتا. وقد أثار هذا الزواج تحفّظ عمرو بن عثمان المكي لأنه كان يعتبر قبيلة الأقطع من الكرنبائيين حلفاء الفتنة الزيدية التي أثارها الزنج، ومن ثمّة تأثرهم بالبدع الشيعية المغالية، ويبدو أنّ مصاهرة الحلاج لهذه القبيلة كان الأصل فيما اشتهر عنه من تعبيرات ذات مظهر شيعي في دفاعه عن آرائه، ومن نزوع إلى نقد الخلافة والدعوة للثورة عليها ممّا كان سببًا في القَبْض عليه لأوّل مرّة بتهمة التآمر الشيعي. واستمرّ يعيش في البصرة بين أسرته عيشة زاهد يصوم رمضان كلّه، وفي يوم عيد الفطر يلبس السواد الذي هو في نظره لباس من يُرَدّ عليه عمله.

حلّ الحلاج ببغداد سنة 264هـ/ 877م حيث قصد الجنيد الذي نصحه بالصّبر لمّا اشتد الخلاف بين شيخه وحَميّه إلى أن أعنته الأمر فرحل إلى مكّة حاجّا ومعمّرا في حرم البيت العتيق مدّة سنة، في وحدة وعزلة تامّين، واصفًا هذه الخلوة بأنّها رجاءٌ عَذبٌ يُدْرِكه المرء الباطن. خلالها كان يواظب على ممارسة رياضة روحية وجسديّة صارمة يجلس في الحرم ليلا ونهارا ولا يبرحه إلّا للطهارة والطواف، لا يحترز من حر الشمس وقيظ البرد، كان يؤتى له ليلًا بكأس ماء وقرص من أقراص تمر مكّة ويصبح الصبح وإذا بالقرص على رأس الكأس وقد شرب منه شربتين وعضّ من القرص عضّات ثلاث. كما كان أيضًا يصعد إلى جبل أبي قبيس في بعض الأحيان ويجلس على صخرة في الشمس والعرق يتصبّب منه.

بعد هذه الحجّة الأولى عاد إلى تستر

للاعتكاف مدّة سنتين حيث توافد عليه المريدون الذين وصفهم بأصحابه وخلاّنه، ولعلّه في هذه الفترة كتب لهم رواياته السبع والعشرين التي تحتوي على أحاديث قدسية. في هذه الفترة، أثار عليه حفيظة الصوفية فنبذ الخرقة قاطعا معهم كل اتّصال، يبدو أنّ مردّ ذلك لاقتناعه حين إقامته بمكّة بأن إصلاح الأمة لا يمكن أن يكون بالحرب الدينية لكن عن طريق الصلوات والمجاهدة.

انطلاقًا من تستر قام الحلاج بأسفار عدّة لمدّة خمس سنوات زار أثناءها خراسان وفارس وهناك حمل لقب الحلاج. وفي حمله لهذا اللقب أقوال، منها أنّ أباه كان يعمل في حلج القطن أي فصله عن الحبّ، ومنها أنه سمي بحلاج الأسرار لكشفه عن حقائق الموحّدين المحبين لله، ومنها ما يطغى عليه طابع الخيال، فقد سأل مرّة أحد الحلاجين وهو في واسط أن يعينه على بعض شغله فقال له الرجل: أنا مشغول بصنعتي، فاقترح عليه أن يذهب لقضاء شغله حتّى يعينه في شغله، فغاب الحلاج عن حانوته ولما عاد وجد القطن كله محلوجا، تعجّب الرجل للأمر وخاطب صاحبنا بقوله: أنت حلاّج متقن للمهنة، ومن تلك اللحظة غلب عليه اسم الحلاّج.

في سنة 291هـ/ 903م قصد مكة في حجّة ثانية مع أربعمائة من أتباعه ثمّ عاد بأهله إلى بغداد واستقرّ بها بدعوة من الوزير حمد القنائي وشرع في كتابة أولى نصوصه، كما تصدّر في نفس الوقت للوعظ وخدمة القوم ومساعدتهم على قضاء أغراضهم فعُظم أمره بين الناس وبخاصّة بين الشيعة، حينئذ توجّس بعض قادتها خيفة من الحلاّج وتحوّلوا إلى خصوم له يتقوّلون عليه الأقاويل وينسبون إليه السحر والشعوذة حتّى افترق الناس عليه. في هذه الأجواء المتوتّرة قرّ عزم الحلاج على أن يحمل عصا الترحال في أرض الله الواسعة فبدأ رحلة طويلة إلى الهند بحرًا ووصل إلى تركستان ونهر السند وكشمير وصولا إلى ماصين من أطراف الصين اكتسب منها معارف كثيرة، وازداد تعمّقا في الحقائق ومسالك الحكمة، كما اطّلع على الرياضات الجسمية والنفسية مواصلا الكتابة والوعظ. وهناك حمل لقب أبو المغيث. من بين أخبار هذه الرحلة أنه في نهاوند سمع ذات يوم صوت أبواق رأس السنة فسأل: أيّ شيء هذا؟ أجابه ابن فاتك من أتباعه أنه يوم النيروز، فتأوّه الحلاج وقال: متى نُنَوْرِز؟ بعد ثلاث عشرة سنة ذكّره أحد تلاميذه أثناء صلبه بذلك سائلا إياه: أيّها الشيخ هلّا أُتحِفت؟ أجابه: بلى أُتحِفت بالكشف واليقين، وأنا مما أُتحِفت به خجل غير أني تعجّلت الفرح.

في سنة 294هـ/ 906م حجّ الحلاّج حجة ثالثة وأخيرة عاد بعدها إلى بغداد، فكان يخرج نهارًا إلى ساحات المدينة ويصرُخ بإلهامات في صيغة نداءات حرّى إلى الناس من قبيل: «يا أهل الإسلام أغيثوني فليس يتركني ونفسي فآنس بها، وليس ياخذني من نفسي فأستريح منها، وهذا دلال لا أطيقه، اعلموا أنّ الله أباح لكم دمي فاقتلوني، اقتلوني تؤجَروا وأسترح، ليس في الدنيا للمسلمين شُغل أهمّ من اقتلوني وتكونوا أنتم مجاهدين وأنا شهيد».

كما كان يردّد: «أيّها الناس، إنه يحدث

الخلق تلطّفا فيتجلّى لهم، ثمّ يتستّر عنهم تربية لهم، فلولا تجلّيه لكفروا جُملة، ولولا ستره لفتنوا جميعًا، فلا يديم عليهم إحدى الحالتين، لكنّي ليس يتستّر عنّي لحظة فأستريح حتّى استهلكت ناسوتيتي في لاهوتيّته، وتلاشى جسمي في أنوار ذاته، فلا عين بل ولا أثر ولا خبر. اعلموا أنّ الهياكل قائمة بياهوه، والأجسام متحرّكة بياسينه، والهو والسين طريقان إلى معرفة النقطة الأصلية... يا أيّها الناس أغيثوني عن الله، فإنه اختطفني منّي وليس يردّني عليّ، ولا أطيق مراعاة تلك الحضرة وأخاف الهجران فأكون غائبًا محروما، واليوم لن يغيب بعد الحضور ويُهجَرُ بعد الوصل». كان يردد أيضًا: إنّ التعرّف إلى الله يجب أن يمحو عقليا في نفوسنا صورة الكعبة كَيْما نجد من أقامها، وأن نحطّم معبد بدننا كَيْما نبلغ من جاء إليه يتحدّث إلى نبي الإسلام.

في سنة 296هـ/ 908م انفجرت المؤامرة الإصلاحية التي قام بها أهل السنة وأقاموا خلافة حنبلية استمرّت يومًا واحدًا هي خلافة المعتز، لكنّها أخفقت وعادت الخلافة إلى المقتدر، وكان غلاما صغيرا مع وزير جديد هو علي محمد بن الفرات الذي شرع في البحث عن المكان الذي يستقرّ فيه الحلاج آمرا بمراقبته، كما أصدر تعليمات بالقبض على أتباعه وعلى الحلاج نفسه، لكن هذا الأخير نجا وذهب يختفي في بلدة السوس بالأهوار.

في سنة 297هـ/ 909م رفع القاضي محمد بن داوود الظاهري أمام محكمة كبير القضاة ببغداد أمر الحلاج مطالبا بقتله، إلا أنّ القاضي الشافعي ابن سريج عارض ذلك بقوله إنّ مثل إلهامات الحلاج الصوفية لا تدخل في اختصاص المحاكم الشرعية. في سنة 299هـ/ 911م، وهي السنة التي تأسّست فيها الخلافة الفاطمية، قرّر الوزير ابن الفرات إلقاء القبض على الحلاج وكان قد وشى بمكانه رجل من أهل البصرة، ولكن الشرطة لم تتمكّن من القبض عليه إلّا سنة 301هـ/ 913م، فحُمل إلى بغداد وأُركِب جملا وشهّر به ونودِيَ عليه بأنه أحد دعاة القرمطية، ثمّ حُبس وأُخِذَ إلى الوزير علي بن عيسى الجرّاحي القنائي ليستجوبه وكان مُحبّا للصوفية، كما كان أحد أعضاء وزارته حمد القنائي من أتباع الحلاج فمنع محاكمته مستندا إلى فتوى القاضي الشافعي ابن سريج.

عظم أمر الحلاج من جراء جَلَدِه أمام هذه المحنة فزاد بذلك تخوّف أهل الحكم منه وبخاصة الوزير حامد بن العباس الذي كان ينهج خططًا في تدبير الشأن العام وجمع الجبايات قرّبته من الخليفة المقتدر، فأثار عنده قضيّة الحلاج سنة 304هـ/ 916م، ولكنّه لم يعُد إلى فتحها خوفا من والدة الخليفة (شغَبْ) الرومية التي كانت تعطف عليه. وخلال مدّة السجن هاته واصل الحلاج الكتابة مُركّزا على الدعوة لتوحيد طرق العبادة عند الإنسان وإمكان الاستعاضة عن الفرائض بشعائر أخرى. بقي الأمر كذلك إلى أن حلّت سنة 309هـ/ 922م فأظهر الوزير للخليفة الخطر العظيم للحلاج إن هو بقي على قيد الحياة، وأوغر صدره على علي بن عيسى لحمايته له، فاستطاع حامد أن ينقل الحلاج من السجن إلى داره مبالغة في التشديد عليه

وطفق يسومه ضروبًا من التعذيب. كان أوّل شيء فعله بعد قضائه على أحداث نشبت آنئذ أن دعا أحد كبار فقهاء الحنابلة هو أبو العباس أحمد بن سهل بن عطاء الصوفي صديق الحلاّج وتلميذه ليحمله على الشهادة ضد شيخه، فأجابه بكل جرأة قائلا: ما لك وهذا؟ عليك بما نُصبت له من أخذ أموال الناس وظلمهم وقتلهم. اشتطّ حامد غاضبا آمرا الحارس ضرب «فكّيه» فضرب فكّيه، ثمّ ردّد ابن عطاء: «اللهم إنك سلطت هذا علي عقوبة لدخولي عليه» فأمر حامد الحارس: «خفه يا غلام» فنزع الحارس خف ابن عطاء، ثمّ قال له «دماغه» فأخذ الحارس يضرب رأسه بخفّيه حتّى سال الدم على أنفه وحُمل إلى بيته ليموت بعد سبعة أيام.

بعد فشل المحاولة مع ابن عطاء أحضر حامد قضاة وفقهاء وشهودا لاستفتائهم في قتل الحلاّج فاختلفوا في الأمر بين مؤيّد ومعارض. وأخذ يتحرّى ويستقصي حتّى وقع على كتاب للحلاّج عن الحج رأى فيه ضالته معتمدا عليه لتأليف هيئة محكمة من القاضي المالكي ابن عمرو الحمادي رئيسا، ومن القاضي الحنفي أبي الحسين عمر بن الأشناني، وحضر المحكمة رئيس الشهود القاضي عبد الله بن مكرم. وتقصّد الوزير أن لا يكون بين أعضاء المحكمة أي قاض حنبلي أو شافعي. وقد جرت المحكمة على مِنصّة مرتفعة في قصر الخليفة. وبعد مداولات مُطوّلة دبّ الملل في القضاة وتلاَ رئيس المحكمة من كتاب الحلاّج عن الحج أنّ الإنسان إذا أراد الحج ولم يُمكنه ذلك له أن ينفرد في داره مكانا مطهّرا ينصب فيه ما يشبه الكعبة فيطوف حوله كما لو كان في مكة، متسائلا عن مصدر ذلك، أجاب الحلاّج أنه قرأه في كتاب «الإخلاص» للحسن البصري، فأنكر أبو عمر وجود ذلك في الكتاب المذكور، وأصر الحلاّج على قوله، فانتفض القاضي ونَهَرَ الحلاّج قائلا: «يا حلال الدم»، حين سمع الوزير حامد ذلك قال للقاضي «اكتب بهذا» وصدر الحكم بإعدام الحلاّج صلبًا.

ومؤكّد أنّ مستند الاتّهام لإثبات الزندقة والكفر لم يكن متضمّنا لهذه القضية وحدها، وإنّما كان يتضمّن آراء وإلهامات حلاّجية مُنْتزعة من سياقها المقولي أو النصّي، من بينها: أنّ رسالة إبليس حين طلب منه الله تعالى السجود لآدم، ورسالة محمد حين عُرج به إلى السماء لم تكتملا لقصور في تصوّر طاعة الله وإدراك حقيقة إرادته الربّانية؛ وأنّ الولي الصوفي يمكن باجتهاد منه استعاضة الفرائض بمسلكيات أخرى، وأنّ هذا الولي هو الدليل الذاتي الحي الذي يشهد على وجود الله فيصبح «هو هو» أي اتّحاد اللاهوت بالناسوت. ولعلّ مستند الاتّهام كان يشتمل أيضًا على عبارات شهيرة للحلاّج تُوحي بفكرة وحدة الشهود مثل: «أنا الحق» و«ما في الجُبّة إلّا الله»... طبعا تتضمّن المؤاخذات نقد الخلافة والدعوة للإصلاح الاجتماعي والسياسي والثورة على الذين يمارسون القمع ويديرون الشأن العام بما لا يتوافق مع أصول العقيدة وأخلاقياتها.

جرت محاولات لانقاذ الحلاّج تدخل فيها نصر القشوري ملتمسا الدعم من والدة الخليفة. وحين لمس حامد تردّدًا من الخليفة

قال له: «يا أمير المؤمنين إن بقي فإنه سيُسيء إلى الشريعة، وسَيَرْتَدُّ خلقٌ كثير، وقد يؤدي الأمر إلى زوال سلطانك، وقد وقع لَكَ ما وقع، فَدَعْني أقتله وإن أصابك شيء فاقتلني»، حينئذ أذن الخليفة له في قتله، وبادر إلى تنفيذ الحكم على الفور ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من ذي القعدة عندما أعلنت الأبواق أنّ الوزير يتهيّأ لتنفيذ الحكم، وكانت الشرطة قد أخذت الحيطة للأمر فأوصلته إلى مكان الإعدام، وبات الحلّاج ليلة في نفس المكان. ولما كان الصباح أخرج إلى ساحة الإعدام بباب خراسان على الضفّة الغربية من دجلة، ثمّ تُلي أمر الخليفة بجلد الحلّاج ألف سوط، فإن لم يمت تُقطع يداه ورجلاه، ثمّ يُضرب عنقه. ذلك ما نفّذه السيّاف، وحين سقط الرأس لفّت الجثة في حصير من القصب صُبّ عليه النفط وأُضرمت فيه النار حتّى احترقت الجثّة وحُمل رمادها إلى باب الطاق في الضفة الشرقية لدجلة ليُلقى به من أعلى المئذنة في النهر. سعت والدة الخليفة إلى الحصول على رأس الحلّاج، فتمّ لها ذلك ووضعته في كنز الرؤوس بدار الخلافة مدّة سنة حُمل بعدها إلى خراسان.

وفي ثنايا الكتب نلمس عمق التوجّه الحلّاجي التصوّفي، ونتبيّن غنى آرائه رغم ما يشوبها من التعقّد والغموض والمفارقات من جرّاء تدخّل الوسطاء الرواة والمؤوّلين، وتحريفات الخصوم بل ومزايداتهم لتأليب العامّة أو الخاصّة ضدّ الحلّاج ومنهم الحكام، وبصفة عامّة فإنه بالإضافة إلى ما أشير سلفًا من آراء ومواقف وممارسات الحلّاج فمن المؤكّد أنّ صاحبنا كان ظاهرة عرفانية اجتهدت في الاستكشافات اللدنية واستطلاع الحق من خلال المسلك والتعبير الأمر الذي جعل كثيرا من دارسيه يتباينون في إدارك توجهه العرفاني وتذوّقه الصوفي لما يلفهما من خلائط. الجوهري في سيرة الحلّاج أنه كان يعتبر التصوّف والحكمة جهادًا في سبيل إحقاق الحق وليس مجرّد قرار انفرادي بين المتصوّف وبين الله تعالى، إنه جهادًا ضدّ الظلم والطغيان في النفس وفي المجتمع، وبذلك يحق وصف الحلّاج بأنّه صوفي ملتزم، وليس بالذي اختار التصوّف لغاية التصوّف في حد ذاته. يضاف إلى هذا الالتزام الإصلاحي أنّ الحلّاج أولى لترويض الجسد على احتمال الصعاب والشدائد حتّى لا تعود كذلك، ولترويض النفس على إفناء الأنا في حب الله أولى لهذا أهمّية مركزية. ومفيد أن نورد هنا شهادة موضوعية بشأن الحلّاج لابن خلكان في وفيّات الأعيان إذ قال إنّ رسالة الحلّاج كانت هي «إغناء الحقائق الباطنية تصفية للنفس وتوجيها للمسلمين إلى علم الباطن، واستفزاز وجدانهم الأخلاقي وكان هو على علم بأنه سيُبتلى آخر الأمر بمثل هذه العاقبة».

جدير بالتنويه إلى أنه بعد إعدام الحلّاج كثرت الروايات والدراسات والنصوص الإبداعية المنوّهة بفضائله ومواقفه وممارساته وإلهاماته الصوفية وتفصيل القول عن محنته ومأساته، فَتَحَوَّل من شيخ صوفي إلى إمام قيل بمهديته ورجعته، وقامت طائفة نسبت إليه خطأ فكرة الحلول في منتصف القرن الخامس الهجري. وبعد عقود انتُدب أبو حامد الغزالي الشافعي الأشعري للدفاع عن الحلّاج وتفنيد المآخذ عليه، ثمّ تلاه عبد القادر الجيلي الحنبلي

وكثير غيرهما عبر القرون، وأصبح رمزًا للشهيد الحر في الحب الإلهي المؤثر في الآداب العربية والعالميّة ممّا خلّف لنا أبحاثا وتحقيقات وإبداعات لكبار المفكّرين والأدباء نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: آنّا ماري شيمل، و كولْدْزهير، ولوي ماسينيون، وهربرت مَيْسَنْ، وصلاح عبد الصبور، وعدنان مردم بك، وجميل صدقي الزهاوي وميشال فريد غريب، وعبد الوهاب البياتي، وأحمد سعيد أدونيس، وضياء العزاوي، وعز الدين المدني..

آثاره

بعد أن تمّ تنفيذ إعدام الحلّاج قام الوزير حامد بإحراق كتب الحلاج، وأُخذ على الوراقين والكتبة العهد بعدم تداولها. وقد ذكر الهجويري أنه رأى منها خمسين، في حين أحصى ابن النديم في الفهرست زهاء ستّة وأربعين، لم ينج منها إلّا ما هو متداول حاضرًا وهي التالية:

1 ـ كتاب الطواسين، أو الآيات؛ 2 ـ الديوان، المشتمل على ثلاثمائة وخمسين بيتا؛ 3 ـ أخبار الحلاج، جمعها كاتب مجهول من القرن الرابع الهجري، وهي مقولات ليلة الصّلب؛ 4 ـ الرسائل بعضها من إملائه وبعضُها كُتب في حالات وَجده؛ 5 ـ رواية الشاذليات، وهي عبارة عن سبع وعشرين رواية من جمع مريديه، نصّها العربي مفقود والترجمة في حالة رديئة، شكّك الكثير من الباحثين في صدقيتها؛ 6 ـ بستان المعرفة، نشر ضمن كتاب الطواسين.

أما ما بقي من كتب الحلّاج مخطوطة فقد أشار بعض الباحثين إلى ثلاثة منها وهي:

7 ـ كتاب الصيهور في نقد الدهور، ذكر كراتشوفسكي أنه موجود في مكتبة لينتجراد، تحت رقم 4885؛ 8 ـ رسالة في الإكسير، رواها تلميذه أبو العباس أحمد بن الحسن الشطوي البغدادي موجودة في مكتبة نور العثمانية تحت رقم 3633/ 3 وفي جامعة اسطنبول تحت رقم 6156؛ 9 ـ رسالة في الصنعة في ترجمتها الفارسية موجودة في سرايا أحمد الثالث تحت رقم 2075/ 8.

المصادر والمراجع

● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1980؛ ● التهاوني، محمد علاء بن شيخ علي، كشاف اصطلاحات الفنون، طهران، 1947؛ ● التنوخي، القاضي أبو علي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تح. عبود الشالجي، بيروت، 1391هـ/ 1971م؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، 1969 ـ 1972؛ ● العطار، فريد الدين، تذكرة الأولياء، تح. محمد خان قزويني، المكتبة المركزية، طهران، ط5، د.ت؛ ● الغزالي، أبو حامد، مشكاة الأنوار، تح. وتقديم أبو العلاء عفيفي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، 1383هـ/ 1964م؛ ● البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، مكتبة الخانجي ومطبعة السعادة، القاهرة، والمكتبة

العربية، بغداد، 1349هـ/ 1931م؛ ● ابن كثير، أبو الفداء الحافظ، البداية والنهاية، مكتب المعارف، بيروت، ومكتب النصر، الرياض، 1966م؛ ● مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد، تجارب الأمم، مكتبة التمدّن الصناعية، القاهرة، 1332 هـ/ 1914م؛ ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي، الكامل في التاريخ، منشورات أحمد الحلبي ومحمد مصطفى، 1303هـ؛ ● العطار، فريد الدين، منطق الطير، تعريب بديع محمد جمعة، دار الأندلس، بيروت، 1979م؛ ● ابن العبري، غريغوريوس أبو الفرج، تاريخ مختصر الدول، بيروت 1890م؛ ● الهجويري، أبو الحسن علي بن عثمان الجلابي، كشف المحجوب؛ ● ابن أحمد، شمس الدين محمد، ميزان الاعتدال في نقد الرجال، مطبعة السعادة، القاهرة، 1325هـ؛ ● الطوسي، أبو النصر عبد الله ابن علي السرّاج، اللُمع، تح. وتقديم وتخريج الأحاديث، عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الجديدة بمصر، القاهرة، ومكتبة المثنى، بغداد، 1380هـ/ 1960م؛ ● ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعرف العثمانية، 1357هـ؛ ● السلمي، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين، طبقات الصوفية، تح. نور الدين شربية، مكتبة الخانجي، القاهرة 1986؛ ● الغزالي، أبو حامد، سر العالمين وكشف ما بين الدارين، القاهرة 1327هـ؛ ● القشيري، عبد الكريم بن هوزان، الرسالة القشيرية، القاهرة 1976م؛ ● القزويني، زكرياء بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت؛ ● ابن زنجي، أبو القاسم محمد بن اسماعيل بن عبد الله محمد، ذكر مقتل الحلاّج، ترجمه إلى الفرنسية لويس ماسينيون في كتابه المذكور في المراجع أسفله، (Quatres textes)؛ ● البقلي، ابن أبي النصر الشيرازي روزبهان، شرح شطحيات، تح. هنري كوربان، طهران 1966م؛ ● النيسابوري، الحسين بن محمد بن حبيب، عقلاء المجانين، تعليق محمد بحر العلوم، المكتبة الجديدة، النجف، 1387هـ/ 1967م؛ ● قصة الحلاّج وما جرى له مع أهل بغداد، تح. سعيد عبد الفتاح، قصور الثقافة والمكتبة الأزهرية، القاهرة؛ ● دائرة المعارف الإسلامية، طهران، بإشراف الموسوي البجنوردي؛ ● بدوي، عبد الرحمٰن، شخصيات قلقة في الاسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1964؛ ● بدوي، عبد الرحمٰن، شطحات الصوفية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1949؛ ● شرف، محمد جلال الدين، دراسات في التصوّف الإسلامي (شخصيات ومذاهب)، دار النهضة العربية، بيروت، 1980م؛ ● الشيبي، كامل مصطفى، الصلة بين التصوّف والتشيّع، دار الأندلس، بيروت، ط3، 1982م؛ ● الشيبي، كامل مصطفى، الحلاّج موضوعا للآداب والفنون قديما

وحديثًا، مطبعة المعارف، بغداد 1976؛
● نيكولسون، رينولد، في التصوّف الإسلامي وتاريخه، ترجمة أبو العلا عفيفي، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1366هـ/ 1947م؛
● الخطيب، علي، اتجاهات الأدب الصوفي بين الحلاّج وابن عربي، دار المعارف، القاهرة؛ ● المنحنى الشخصي لحياة الحلاّج شهيد الصوفية في الإسلام، ترجمة عبد الرحمٰن بدوي، منشور ضمن كتاب "شخصيات قلقة في الإسلام"، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، 1946، ص59 - 91؛ ● مكارم، سامي، الحلاّج فيما وراء اللون والخط والمعنى، دار رياض الريس، لندن 1989م؛

- L. Massignon, Essai sur les origines du Lexique Technique de La mystique Musulmane, Paris 1922.
- L. Massignon, Receuil de textes innédits concernant l'Histoire de la mystique en pays de l'Islam, Paris 1929 .
- L.Massignon, Quatre textes inédits relatifs à la Biogrphie d'Al-Husayn-Ibn-Mansour Al-Hallaj, Librairie Paul Geuthner, Paris, 1914.
- Encyclopédie de l'Islam, Article «Hallaj», pp 102-106.
- Louis Massignon; La Passion d'Al-Husayn-Ibn-Mansour Al-Hallaj, martyr mystique de l'Islam executé à Bagdad le 26 Mars 1922, études d'Histoire religieuse, Librairie orientaliste, Paul Geuthner, Paris, 1922. Nouvelle édition Gallimard, Paris 1975.
- L. Massignon; Etudes sur une courbe personnelle de vie: le cas de Hallaj, Seuil, Paris; 1945, caheir 4, pp 11-39. Ce texte est reproduit dans «Opera Minora, Textes recueillis», classés et presentés avec une bibliographie par Y. Moubarak, Beyrouth, Dar Al-Maarif, 1963, Volume 2, pp 166-190.

د. مصطفى القباج
أكاديمية المملكة المغربية
الرباط - المغرب

حلاق، عبد الله يوركي

(1329هـ/1911م - 1417هـ/1996م)

ولد عبد الله يوركي حلاق في 13 حزيران عام 1911 في حلب، وتلقّى دراسته في ثانوية القديس نيقولاوس للروم الكاثوليك، وبعد تخرّجه عمل مدرّسا للغة العربية وآدابها والتاريخ والتربية الوطنية، في معهد اللاييك، وكلية حلب الأمريكية، ومعهد الراهبات الفرنسيسكانيات، وثانوية القديس نيقولاوس مدة ستة وعشرين عامًا.. وفي عام 1964 ترك التدريس، وتفرّغ للعمل في مجلّة «الضاد» التي أسسها عام1931 مع يوسف شلحت (1906 - 1956) وهو في العشرين من عمره، ولما بلغ الخامسة والعشرين نقل امتيازها إلى اسمه وانفرد بإصدارها.. كما تولّى تحرير مجلّة «الكلمة» منذ عام 1930 وتسلّم رئاسة تحريرها بعد وفاة مؤسسها المحامي فتح الله الصقال عام 1970، ولم يكتف بتحرير هاتين المجلتين، بل نشر في صحف: الشباب، والتقدم، والحوادث والجماهير، وبرق الشمال.. ومجلات: اليقظة، والشهباء، والشرق، والمناهل، والكويت، وأضواء الكويت، والنهضة، والرسالة، والعمران، والأديب، والثقافة في الوطن والمهجر.. وشارك في عدد من المؤتمرات الأدبية والمهرجانات الشعرية، أهمها مهرجان الشعر الثاني في دمشق 1961، ومهرجان حلب الرابع 1963، ومؤتمر الأدباء العرب 1971، ومهرجان إحياء ذكرى الشاعر شفيق المعلوف في زحلة 1977، والمؤتمر الأميركي العربي الرابع في كاراكاس 1979.. وأقيمت له حفلات تكريم في حلب، وبيروت، والقاهرة، وبغداد، والكويت، وجنيف، وفنزويلا.. وزار كثيرًا من الأقطار العربية، وتركيا، وسويسرا، وفرنسا، وإيطاليا، وهولاندا،، وكندا، والأميركتين.. ولحنت بعض قصائده وأنشدت من كبريات الإذاعات العربية والأوروبية والأميركية.. وقابل عددًا من رؤساء الجمهوريات، ونوهت بأدبه موسوعات عربية وأجنبية عديدة، وترجمت بعض آثاره الى اللغات الأجنبية، وكانت تربطه صداقة حميمة بالكثير من أعلام الأدب والفكر.

شارك منذ صغره في مكافحة الانتداب الفرنسي، وانتخب عضوًا قياديًا في مجلس إدارة الحزب الوطني بحلب، وعضوًا في مجلس الأمة الاتحادي في القاهرة إبان الوحدة مع مصر، وعضوًا في لجنة الدستور، وعضوًا في لجنة الشعر التابعة للمجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون والعلوم الاجتماعية بدمشق، ومنحته سورية وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى عام 1992، ومصر وسام الجمهورية1961، كما منحه البطريرك زكا الأول عيواص وسام مار أفرام السرياني 1985 بمناسبة بلوغ مجلّة «الضاد» عامها الخامس والخمسين. وتقديرًا لمكانته الأدبية.. وأقامت له كلية الآداب الإنسانية بجامعة حلب، وجمعية العاديات، واتحاد

الكتاب العرب، حفل تكريم تكلّم فيه نخبة من كبارالأدباء والشعراء في سورية والمهجر، وألقى بهذه المناسبة قصيدة قال في مطلعها:

شدّي على وترِ الرَّباب وغرّدي
اليوم يا شهباءُ يبدأ مولدي
اليوم يفترُّ الرجاءُ وكنت في
ساحِ الرجاءِ كتائهٍ في فدفدِ

وكان عضوًا في اتحاد الصحفيين، واتحاد الكتّاب العرب، وجمعية العاديات، واتحاد الجمعيات الخيرية في محافظة حلب، والمكتب التنفيذي لمحافظة حلب.

توفي صباح يوم الجمعة 18 تشرين الأول عام 1996، واحتفل بتشييع جثمانه إلى مثواه الأخير في الحادي والعشرين منه، وشارك بهذه المناسبة الحزينة عدد كبيرمن كبار المسؤولين ورجال الفكر والآداب... وفي 2/ 8/ 1997 أقيم له حفل تأبيني على مدرج كلية الآداب في جامعة حلب شارك فيه نخبة من الشعراء والأدباء من سورية ولبنان والأردن ومصر والمهجر، وأطلق اسمه على الشارع الممتدّ من آخر شارع قسطاكي الحمصي حتّى بداية شارع السليمانية في حلب.

أسس عبد الله يوركي حلاق مجلة «الضاد» عام 1931، وبذل في سبيلها حياته وجهده وماله، وغذاها بنفثات قلمه طوال خمسة وستين عامًا، وكانت جسرًا يصل بين أدب الوطن وأدب المهجر الأميركي، وقد أسهم في تحريرها نخبة ممتازة من شعراء المهجر أمثال: إيليا أبو ماضي، وشفيق المعلوف، والشاعر القروي، وإلياس فرحات، وشكر الله الجر، وميشال مغربي، وإلياس قنصل، وزكي قنصل وغيرهم، وأصدرت خلال مسيرتها أعدادًا ممتازة خاصة عن كل من الشاعر فوزي المعلوف 1935، وسامي الكيالي 1972، والدكتور سامي الدهان 1975، والجالية العربية في فنزويلا 1980م...

لقد تحمّل في سبيلها ـ كما تقول الدكتورة نجاح العطار ـ «البرد والحر، ولزوجة حبر المطابع، وهدير آلاتها، في سبيل أن يصنع من مجلته وجبة دسمة لا يعرف صعوبتها، بل شقاء أعدادها إلا من عانى حرفة الأدب، ومن قدر عليه أن يقتنص، كالفراشات، كلمات ملعونة يصنع بها قوس قزح للناس».

وحمل جميع أعبائها المادية والأدبية وحده، وكثيرًا ما كان يتأبط رزمًا من أعدادها، ويصعد السلالم العالية ليوزع على المشتركين آخر ما صدر منها... فقد كان - كما يقول - «المحرر والمصحح والموزع في وقت واحد، ولم يكن يستمد العون إلا من الله، ومن عزم الشباب، وقوة الإرادة والتصميم ومن ذلك الحب العارم المتدفق من قلب متيم بلغته وأمته ووطنه.. ولولا إيمانه بالله، وشعوره العميق بأنّ الصحافة رسالة لا مهنة، لهجر القلم وابتعد عن مهنة تنهك الروح، وترهق الجسد، وتطيح بالمال الكثير..»

ويعرف قراء الضاد حق المعرفة أنه أخلص لها. واعتبرها ابنته الوحيدة المدلّلة، فكان في أيام الضيق يحرم نفسه، ويقتّر على أولاده ليشبع نهم المطابع الفاغرة الأفواه لطلب المزيد من الأجر.. حتى استطاعت أن تشق طريقها وسط زحام المجلاّت العربية الفاخرة،

وتستقطب أقلام نخبة ممتازة من أقطاب العلماء والكتّاب والمفكّرين في كل قطر عربي، وتكون مدرسة للعديد ممن اشتهروا اليوم بالكتابة الرصينة والشعر الجميل، وتقف أمام عواصف المحن كالسنديانة الراسخة الجذور في أعماق الأرض وثنايا الصخور، وتكون سجلًا دوّن، بمنتهى الصدق والدقة والأمانة، أهم الأحداث الوطنية والأدبية والاجتماعية منذ تأسيسها حتّى اليوم.

كما أصدر الشاعر عبد الله يوركي حلاق أربعة دواوين خلال خمسين عاما ضمنها شعره الغزلي والوطني والقومي، والإجتماعي، وعواطفه النبيلة، وعقيدته القومية الراسخة والأصيلة، ودعوته الثابتة إلى الوحدة العربية الشاملة كقوله:

عربيٌّ عربيٌّ عربيٌّ
ولي الفخر بهذا النسب

مذهبُ الفرقةِ لا أعرفه
فاخشعوا إن تسألوا عن مذهبي

أنا صبٌّ تيّمتني لغةٌ
صانها القرآنُ أسنى الكتب

وجهةُ المحراب عندي هيكلٌ
فيه عيسى والنبيُّ العربي

ولم يكن يفرق بين قطر عربي وآخر - رغم ما يفصل بينها من حدود وهمية - فكل الأقطار العربية وطنه، وكل مواطن عربي هو أخوه، دمه مثل دمه :

كلُّ قطرٍ عربيٍّ وطني
رغم ما يفصلنا من تُخُمِ

كلُّ حرٌّ وحدودي مخلص
هو من روحي وإن لم يعلم

لا تسلْ عن أرضِهِ فهو أخٌ
عربيٌّ دمُهُ مثلُ دمي

ويعتز بعروبته، وبأمجاد العرب ووفائهم وصدقهم وشهامتهم وشجاعتهم وبطولاتهم فيقول:

عربٌ نحن ما خفضنا جناحا
لقويٍّ ولا نكثنا عهودا

قم نعانقْ آمالَنا الغرَّ إنا
قد خفقنا على الزمان بنودا

وطلعنا على البطولاتِ فجرًا
ذهبيَّ الرؤى ونصرا مجيدا

وانبجسنا من المروءات نبعًا
من خلالٍ تفيض عدلًا وجودا

وعقدنا على الرخاء الأيادي
وضممنا إلى الطريق التليدا

وخلقنا أعزةً وأباةً
لم نصادقْ ولم نحالفْ عبيدا

كما يعتز بلغته العربية التي نما حبها في فؤاده كما ينمو الزهر في فصل الربيع:

سأبذل في سبيل «الضاد» جهدي
لتسمو «الضاد» بالأدب الرفيع

فحبُّ الضاد ينمو في فؤادي
نموّ الزهرِ في فصل الربيع

وله غزل ناعم ولطيف يذوب رقة وعذوبة وجمالًا كقوله في قصيدة «الغرة»:

ثغر بحجم الفستقة
سبحان ربٍّ نسّقه
هو برعمٌ متفتّقٌ
أو وردةٌ مغرورقه
قبّلته فإذا الشفاهُ
على الشفاهِ معلّقه
ورشفتُ خمرةَ ريقِهِ
مسكيّةً ومعتّقه
فنأيتُ عن أفقِ الجمودِ
وعن حدودٍ ضيّقه
وقضيتُ في ملكوتِهِ
لحظاتِ حبٍّ شيّقه ..

وليس بالإمكان دراسة جميع آثاره النثرية، وتفصيل مضموناتها، وتعديد أسماء الأعلام الذين كتب عنهم في كتبه الثلاثة «من أعلام العرب في القومية والأدب»، و«عشت مع هؤلاء الأعلام»، و«الحلبيون في المهجر»، وقد بلغ عدد مَنْ ذُكِر في هذه الكتب الثلاثة ما يقرب من مائة أديب وشاعر. . ولكنني سأتوقّف عند كتابه «حلبيات» الذي يعد موسوعة حلبية صغيرة، ضمنها كل ما يتعلّق بحلب من معلومات، فقد أمضى عبد الله حلاق حياته وهو يتقصّى أخبارها، ويبحث في تاريخها، وأصل تسميتها واشتقاقه ومصدره، ودورها في التاريخ القديم والحديث، وما اشتهرت به، وتوقّف طويلًا عند قلعتها العامرة وأبوابها وأسوارها وأبراجها، وأسواقها وخاناتها ونباتاتها، وصناعاتها وما قيل فيها. . .

تحدث عن عادات الحلبيين وتقاليدهم في الخطبات والأعراس والنزهات، وعن المطابع والحياة الأدبية في حلب، ولاسيما أسرة المراش ومنها فرنسيس وعبد الله ومريانا صاحبة أول صالون أدبي في بلاد الشام، وعن الحياة الاجتماعية والطرب والغناء والقدود ورقص السماح، وعن مشاهير الموسيقيين فيها من آل الشعراء، وعقيل، والدرويش، والبطش. . .

كما تحدّث عن الصحافة في حلب منذ عام 1967 حتّى عام 1973 فذكر أسماء الصحف والمجلّات الحلبية، وأسماء منشئيها، وتاريخ صدور كل واحدة منها، وعن المجلّات الحلبية في المهجر، وأبنية حلب الأثرية، والمكتبات الخاصة والعامة، وعن مؤرّخي حلب المشهورين، كابن العديم، وابن شداد، وأبناء الشحنة، والشيخ كامل الغزي مؤلّف كتاب «نهر الذهب في تاريخ حلب»، وراغب الطباخ مؤلّف كتاب «أعلام النبلاء في تاريخ حلب الشهباء»، وخير الدين الأسدي مؤلّف «موسوعة حلب» وصبحي الصواف وغيرهم. . .

وتحدّث عن الحلبيين في المهجر، وعن ذكريات الفتوة في حلب، فقال إن ذلك العهد الذي مضى، كان شديد الوطأة عليه وعلى أبناء جيله، ومع ذلك يتوق إليه لما كان يسوده من بساطة في العيش، وهدوء في الحياة، وقناعة تتمثّل فيها السعادة بأجلى معانيها. . . وأضاف: «لقد كان جميع الناس في تلك الأيام، يتّصفون بمناقب عربية سامية، ويتوخون الصدق والصراحة في معاملاتهم، ويهرعون لنجدة رقيقي الحال من إخوانهم وجيرانهم، أما اليوم فقد تغيّرت الحال بينهم،

وأصبح كثير من السكان لا يعرفون جيرانهم حتّى في البناية الواحدة، ولا يحترفون إلا المادة، فالمال عندهم فوق كل اعتبار، وعليه المعول في كل أمر..».

لقد جمع الأستاذ عبد الله حلاق في هذا الكتاب النفيس بين الماضي والحاضر وعرض لنا صورة دقيقة ومتقنة عن حلب القديمة والمعاصرة، وأجمل ما قيل في وصفها، ولعل أطرف ما في الكتاب فصل «أولويات حلبية» الذي أحصى فيه مائة وواحدًا وستين شيئًا مما دخل حلب لأوّل مرة منذ عام 763 حتّى عام 1983 مرورًا بحروف الطباعة التي وضعها الشماس ابن عبد الله الزاخر الحلبي عام 1732 لأوّل مطبعة عربية دخلت حلب من بلاد الفلاخ أي رومانيا.

ولم ينسَ في باب الأولويات الحلبية أن يتكلّم على المكتبة المارونية التي أسسها المطران جرمانيوس فرحات (1670 ـ 1732)، والمكتبة الأحمدية، وأوّل مطبعة حجرية، وأوّل صحفي حلبي مهاجر هو رزق الله حسون منشىء جريدة «مرآة الأحوال» في استانبول عام 1855م...

ويمتاز شعر عبد الله حلاق بالرقة والجزالة، والمحافظة على عمود الشعر العربي، فهو شاعر كلاسيكي، لم تستهوه صرعة الشعر الحديث حتّى ولو كان يقوم على أساس التفعيلات.. أما نثره فهو في غاية الإتقان، والرصف الجيّد، والإحاطة بالموضوع الذي يعالجه. ليس فيه أي ضعف أو التواء أو ركاكة، وقد نحت ذلك في الرسائل الثلاثين التي تبادلتها معه طوال ثمانية وعشرين عامًا، منذ 22/ 6/ 1966 حتّى 19/ 11/ 1994م.

وكان يكتبها مباشرة، فلم أجد فيها تصحيحا لكلمة، أو شطبًا لعبارة، أو عدولًا عن فكرة.. وهي تطفح بالتقدير والاحترام.

كان في رسائله -كما كان في سلوكه وتعامله مع الناس- إنسانا مرتبًا وأنيقًا ورفيع التهذيب، وشديد الاحترام، وعلى قدْر كبير من النبل وسمو الأخلاق... يقول في الرسالة التي كتبها لي بتاريخ 31/ 1/ 1968: «سبق أن بعثت إليكم بهدية «الضاد» (فتح الله الصقال الرائد الإنساني الكبير) وقد أتبعته أمس بالعدد الأخير من المجلّة المذكورة، ولا أعلم لماذا قطعتم عنها مقالاتكم البديعية المفيدة، فالقراء في شوق شديد إلى ما تفيض به قريحتكم الخصبة المعطاء.. وإني لأرجو أن تثقوا بعظيم محبتي، وتروني دائما على استعداد كامل لتبادل الآراء والأفكار حول ما يعن لكم من شؤون الأدب والتاريخ، وعندما يأذن الله بلقائنا ستجدونني متجاوبًا معكم بعد أن تجاوبت روحانا على صفحات الرسائل».

■ آثاره

أصدر عبد الله يوركي حلاق سبعة عشر كتابًا في مختلف الأجناس الأدبية، واهتمّ بشكل خاص بكلّ ما له صلة بمدينته حلب من تاريخ، وأعلام، وصناعات، وفنون، وصحافة، وآثار، وعادات وتقاليد في الأفراح والأتراح.. وهذه الكتب هي:

1 ـ الزافرات، 1933، قصة؛ 2 ـ قصص الميلاد، قصة؛ 3 ـ خيوط الغمام، 1942، شعر؛ 4 ـ حصاد الذكريات، شعر، 1966؛ 5 ـ عصير الحرمان، شعر، 1990؛

6 - أسديات، شعر، 1992م؛ 7 - منذر ملك الحيرة، مسرحية؛ 8 - سفراء بدون تكليف رسمي، 1971؛ 9 - من أعلام العرب في القومية والأدب، 1977؛ 10 - عشت مع هؤلاء الأعلام، 1988؛ 11 - في حمى الحرم، رواية، 1935؛ 12 - ميت يتكلّم، رواية، 1940؛ 13 - قطاف الخمسين، مقالة، 1981؛ 14 - حلبيات، مقالة، 1983؛ 15 - الحلبيون في المهجر، مقالة، 1994؛ 16 - الثورات السورية الكبرى في ربع قرن، تاريخ، 1990؛ 17 - وضوح الإملاء، تأليف مدرسي، 1946م.

د. عيسى فتوح

دمشق - سوريا

ابن الحَلاوي، أحمد بن محمد بن أبي الوفا

(603هـ/1206م - 656هـ/1258م)

ابن الخطاب بن محمد الربعي الموصلي، شرف الدين أبو الطيب (وأبو الفضل وأبو العباس): أديب، شاعر كبير. رغم أن كل مترجميه نسبوه إلى الموصل، فلم نستطع القطع بمكان ولادته الذي لم يحدده أحد عدا ابن خلكان (ت 681هـ/ 1282م) الذي ينعته بصاحبنا، ويقول إنه موصلي الأصل، دمشقي المولد والدار. وعلى أية حال فنحن نعرف أنه أمضى، في الأقل، نصف حياته بالموصل في كنف أميرها بدر الدين لؤلؤ (ت 657هـ) الذي كان يستقبله في الاحتفالات الرسمية مثل بقية الشعراء. ثم قربه منه وجعله من ندمائه. وكان شديد الإعجاب بشاعريته وبديهيته. وأقام الشاعر عند الأمير بصفة عسكري، مُنَعَّمًا بحياة مرفهة، وفّرها له إقطاع منحه إياه بدر الدين، مقابل الثمن الشعري المعروف عَبْرَ العصور: المديح. والى ذلك مدح الملكين الأيوبيين: صاحب حلب الملك العزيز (حكم 613 - 634هـ) وصاحب الكرك الملك الناصر (حكم 626 - 647 وت 656هـ).

وكانت له صلات أدبية مع رجال عصره في البلاد العربية الأخرى ومنهم الشاعر البهاء زهير (ت 656هـ) الذي التقاه بالموصل ومدحه، فأعجب البهاء بشاعرية زميله.

كان ابن الحلاوي ذا معرفة أدبية واسعة، مع ثقافة عامة مكنتاه من إتقان مفردات حرفته الشعرية وجعلتاه واحدًا من أكبر شعراء الموصل في العصر الأتابكي (521 - 660هـ/ 1127 - 1262م).

وقد تضافرت عوامل خَلقية وخلقية في تكوين شخصية مميزة محببة إلى النفوس. فقد كان وسيمًا جدًا، ذا أخلاق دمثة رقيقة، مع ظرف ونكتة بارعة ذكية. كل ذلك كوَّن منه، ليس شاعرًا فقط، بل شخصية شاعرية آسرة.

وربما كان موته استكمالًا لروح شخصيته الشاعرية المرهفة. ذلك أن أميره بدر الدين،

لسبب لا نعرفه، استصحبه في زيارة عمل لهولاكو (ت 1265م). وكأنما لم يتحمل الشاعر مسألة مواجهة القائد الذي دمر عاصمة مجده: بغداد قبل أشهر قلائل وآثر الموت. فقد مرض بتبريز وتوفي في شهر رجب بسلماس (من أعمال أذربيجان)، وقيل: بل توفي بتبريز نفسها، وفي رواية ضعيفة بالموصل.

من شعره قوله في غلام اسمه حسن:

لحاظُ عينيك فاتناتُ
جفونها الوُطْفُ فاتراتُ

فرّق بيني وبين صبري
منك ثنايا مُفرَّقاتُ

يا حسنا صدّه قبيح
فجمع شملي به شتاتُ

وتخلص إلى مدح الملك الناصر داود بعد 16 بيتًا تمثل مقدمة غزلية:

يا يوسف الحسن الذي أنا في الهوى
يعقوبهُ بَثّي إلى داودهِ

.....

ملك يسير النصرُ تحت لوائه
حتى كأن النصرَ بعضُ جنودهِ

ملك الآن لنا الزمانَ وإنما
داودُ معجز بلين حديدهِ

وله من خمرية:

كنا حسبنا نبيت نشربها
صرفًا تحاكي في الليلةِ النجما

مُدامةٌ لو تُدار في غسق الـ
ـليلِ مشى في شعاعها الأعمى

قال معاصره وملتقيه الصاحب بهاء الدين المنشئ الاربلي (ت 692هـ/ 1293م): «له شعر أحسن من نظم العقود وأرق من حلب العنقود». وقال اليونيني (ت 726هـ/ 1326م): «شعره في نهاية الجزالة والرقة وجودة المعنى» وقال ابن شاكر الكتبي (ت 764هـ/ 1363م): «له القصائد الطنانة التي رواها الدمياطي عنه» يقصد عبد المؤمن بن خلف (ت 705هـ/ 1305م). وقال الصفدي (ت 764هـ): «قال الشعر الجيد الفائق».

يقول باحثان موصليان معاصران إن مضامين شعره تشمل الغزل بالمؤنث (قليل) وبالمذكر (كثير)، المديح، والشكوى. ولغة شعره هي عربية العصر الوسيط المتأثرة بالظاهرة الشعبية. لذا يُلحظ فيها: المُعرَّب والدخيل والمصطلح اليومي الدارج.

آثاره

لا إشارة في المصادر لوجود ديوان شعر لابن الحلاوي. لذا يمكن عدُّ ما جمعه الباحثان الموصليان اللذان استقصيا كل المصادر التي أوردت شعرًا له، هو ديوان شعره في الوقت الحاضر. مع الإشارة إلى ضياع ما نظمه في بداية حياته وفي آخرها، بضمنه مدائحه في بدرالدين لؤلؤ.

المصادر والمراجع

• الزركلي، خير الدين، الأعلام،

بيروت، ط4، 1979، 1/ 219؛ ● زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، بيروت 1983، 3/ 25؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر. د. السيد يعقوب بكر، القاهرة 1977، 5/ 20؛ ● فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، بيروت، ط1، 1972، 3/ 585 ـ 586؛ ● العزاوي، عباس، تاريخ الأدب العربي في العراق، بغداد 1960، 1/ 308؛ ● الديوه جي، سعيد، تاريخ الموصل، بغداد 1982، 1/ 378؛ ● الاربلي، بهاء الدين المنشئ، التذكرة الفخرية، تح. د. نوري حمودي القيسي و د. حاتم الضامن، بغداد 1984، ص136 ـ 139 و ظ ك ص496؛ ● اليونيني، قطب الدين، ذيل مرآة الزمان، مط. حيدر آباد الدكن، ط1، 1954، 1/ 96 ـ 104؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، بيروت د.ت، عن ط. مكتبة القدسي، القاهرة 1350 ـ 1351، 5/ 274؛ ● الذهبي، العبر، تح. أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت د.ت، 3/ 278؛ ● ابن شاكر الكتبي، عيون التواريخ، تح. د. فيصل السامر ونبيلة عبد المنعم داود، بغداد 1980، 20/ 154 ـ 159؛ ● ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات، القاهرة، ط2، 1299، 1/ 69 ـ 72؛ ● ابن تغري بردي، المنهل الصافي، تح. محمد محمد أمين، القاهرة 1984، 2/ 167 ـ 172؛ ● الديوه جي، سعيد، الموصل في العهد الاتابكي، بغداد 1958، ص 108؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، القاهرة، س. تراثنا. مصورة عن ط. دار الكتب المصرية، 1929 ـ 1972، 7/ 60 ـ 61؛ ● الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، تح. محمد يوسف نجم، فيسبادن 1971، 8/ 102؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، القاهرة 1299هـ، 1/ 243؛ ● في ترجمة البهاء زهير، د. محمد قاسم مصطفى وعبدالوهاب محمد علي العدواني: «ابن الحلاوي الموصلي: حياته وشعره مع تحقيق ما وصل إلينا منه» مجلة التربية والعلم، ع2 (1980) ص7 ـ 60؛ ● الجلبي، بسام إدريس، «موسوعة أعلام الموصل» ط. على الكومبيوتر؛

د. بسام إدريس الجلبي
العراق ـ الموصل

الحلبي، خليفة بن أبي المحاسن

(...هـ/...م - ...هـ/...م)

لم تذكر المراجع المعتمدة أي شيء عن هذا المؤلّف ولا يعلم تاريخ مولده أو وفاته إما لجهل به أو لعدم شهرته في الأمصار، فلم يذكره (على سبيل المثال لا الحصر) ابن أبي أصيبعة في كتابه «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» رغم أنه كان معاصرًا له في بلاد الشام.

كما أغفل ذكره إمام المؤرّخين والمترجمين في العصر الحديث خير الدين الزركلي في كتابه «الأعلام»، وكذلك أغفل ذكره عمر رضا كحالة في كتابه الشامل «معجم المؤلّفين» وحتّى في المستدرك على معجم المؤلّفين كما لم يذكره الدكتور محمود دياب في كتابه، «الطب والأطباء في مختلف العهود الاسلامية» وكذلك أغفل ذكره الدكتور أحمد عيسى بك في كتابه «معجم الأطباء.. ذيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء» ولم يذكره من المؤرّخين العرب إلا الدكتور كمال سامرائي في مؤلّفه «مختصر تاريخ الطب العربي» [2/ 505]، إذ ذكر ترجمة قصيرة جدا لا تفي بغرض الباحث.

ويدين مؤرّخو العلوم بالفضل للمؤرّخ الفرنسي الشهير Le Clerc الذي كان أوّل من ذكر هذا المؤلّف وكتابه «الكافي في الكحل» وأعطى فكرة وجيزة عن محتواه عام 1876م بعد أن اطّلع على النسخة الوحيدة المعروفة آنذاك والمحفوظة في المكتبة الوطنية في باريس Bibliothèque Nationale والتي كانت تحمل رقم 1043 d.Arabe أما الآن فهي تحمل الرقم Arabe 2999.. وقد اطّلعت عليها شخصيا ومنها حصلت على صور الأدوات الجراحية.

كما توجد نسخة أخرى في استانبول [رقم Yani Gami يني جامع 924].. واطلعت عليها شخصيا ومنها حصلت على صورة تشريح العين والدماغ وصور أخرى للأدوات الجراحية.

ذكرنا في أول المدخل أنّ المؤلّف مجهول تاريخ المولد والوفاة غير أنه ذَكَرَ في موضعين من الكتاب حدثين وقعا له في مدينة حلب عام 652هـ و654هـ أي حوالي 1252م، و1254م. مما يرجح أنّ المؤلّف قد عاش ومارس طب العيون في مدينة حلب (شمال سورية) حوالي منتصف القرن السابع الهجري أي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي والله أعلم.

ذكرنا أنّ أوّل من لفت أنظار المؤرّخين العلميين هو Le Clerc في كتابه Histoire de la Médecine Arabe. ثم درس الكتاب إمام المؤرّخين والمستشرقين وطبيب العيون الشهير Julius Hirschhberg الذي ألّف مع المستشرقين الشهيرين J. Lippert وE. Mittwoch كتابا أسماه «أطباء العيون العرب» ونشر عام 1905م.

وتعتبر دراسة هيرشبيرغ أكثر الدراسات جدّية وترجم أقساما منه إلى اللغة الألمانية اعتمادا على نسختي باريس واستانبول.

وقد ترجمتُ مع الدكتور «ولفريد راديمايكر» والسيدة حرمه جيزيلا هذا الكتاب إلى اللغة الإنقليزية ونشرته مشكورة مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية عام 1993م.

ويعتبر «الكافي في الكحل» من الكتب المتأخرة التي كتبت في أواخر عصر النهضة للحضارة الإسلامية وبدء عصر الانحطاط ولعلّ أهمّ ما يميّز هذا الكتاب:

1 - إنه أول كتاب يضع رسما توضيحيا لتشريح الدماغ وعلاقة العينين به والطريق الذي يسلكه البصر بين العينين والدماغ.

2 - إنه أول كتاب يضع في جداول أنيقة رسوما للأدوات الجراحية المستعملة.

3 - إنه أول كتاب يضع جداول منظمة وأنيقة لأمراض الأجفان والعينين وآلية الإبصار.

4 - إنه أول كتاب يفرد فصلًا خاصًا عن المكاييل والأوزان والمقاييس المستعملة آنذاك.

5 - إنه أول كتاب يفرد فصلًا خاصًا عن الفصد.

6 - إنه أول كتاب اقتبس عن كل من سبقه (73 مؤلِّفًا و 41 مؤلَّفًا) وكان أكثر ما اقتبس عن المعالجات البقراطية للطبري، والقانون للشيخ الرئيس ابن سينا، والحاوي في جزئه الثاني للرازي.

ويتألّف الكتاب من مقدمة وجملتين تتألّف كل منها من ستة فصول، ثم أقرباذينًا مؤلفا من أربعين فصلا، ثم فصل في الأوزان والمكاييل والمقاييس المصطلح عليها في أمر الطب، ثم مقالة مفردة في الفصد مع جدول للعروق التي يمكن فصدها.

وقد تمكّنت مع الأستاذ الدكتور محمد رواس قلعه جي وبحمد الله من تحقيق الكتاب ونشرته مشكورة المنظمّة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة «إيسيسكو» في الرباط عام 1410هـ/ 1990م.

المصادر والمراجع

- Lucien Leclerc: Histoire de la medecine Arabe.
- Die Arabischen Augenarzte Nach Den Quelen Bearbeitet J.Hirschberg , J.Lippert und E.Mittwoch Leipzig, Germany 1905.
- The Arabian Ophthalmologists Edited by M. Zafer Wafai, MD King Abdulaziz City for Science and Technology, Riyadh, KSA 1993.

● الحلبي، خليفة بن أبي محاسن، الكافي في الكحل، تح. الدكتور محمد ظافر الوفائي والدكتور محمد رواس قلعه جي من منشورات المنظمة الاسلامية للتربية والعلوم والثقافة (ايسيسكو)، الرباط 1410هـ/ 1990م؛ ● السامرائي، د. كمال، مختصر تاريخ الطب العربي، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد 1985م؛ ● دياب، محمود، الطب والأطباء في مختلف العصور الاسلامية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة 1970؛ ● د. أحمد عيسى بك، معجم الأطباء، ذيل عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة، دار الرائد العربي، بيروت، لبنان، ط2، 1402هـ/ 1982م.

د. محمد ظافر وفائي

طبيب كحال - دمشق - سوريا

الحلبي، قطب الدين عبد الكريم بن عبد النور

(664هـ/1266م - 735هـ/1335م)

قطب الدين أبو علي (وقيل: أبو محمد) عبد الكريم بن عبد النور ابن منير بن عبد الكريم بن علي بن عبد الحق الحلبي الأصل، ثم المصري، الحافظ، أحد مشاهير المحدِّثين بها، والقائمين بحفظ الحديث وروايته وتدوينه وشرحه والكلام عليه، المؤرِّخ، الحكيم.

كان فقيها على مذهب الإمام أبي حنيفة، ولم يكن فقيها حنبليا كما ذكر ذلك عمر رضا كحالة في كتابه معجم المؤلفين [البغدادي، اسماعيل باشا، هدية العارفين، 1/ 610؛ ابن حجر، الدرر الكامنة، 2/ 398؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 6/ 110؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 18/ 378؛ كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 5/ 318].

وُلد بمدينة حلب في شهر رجب سنة أربع وستين وستمائة للهجرة النبوية الشريفة، وتوفي بمصر يوم الأحد سَلْخ شهر رجب سنة خمس وثلاثين وسبعمائة عن إحدى وسبعين سنة، ودفن من الغد مستَهَلّ شعبان عند خاله نَصْر المَنْبِجِي، وخلف تسعة أولاد [البغدادي، اسماعيل باشا، هدية العارفين، 1/ 610؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، 2/ 399؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 6/ 111؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 18/ 378 - 379].

ذكر الذهبي أن قطب الدين الحلبي كان شيخا من شيوخه الذين سمع منهم ونقل عنهم العلم الكثير، وبأنه كان مفتيا للديار المصرية وشيخها [الذهبي، تذكرة الحفاظ، 4/ 1502].

كان خيِّرًا متواضعًا، قال فيه ابن رافع: كان لطيف الكلام، حسن الملتقى والخلق، كثيرالتواضع، طاهر اللسان، عديم الأذى [ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، 2/ 399].

وقال عنه الذهبي: كان كيّسا متواضعًا محببا إلى الطلبة، غزير المعرفة، متقنا لما يقول، وروى الكثير، لكنه قليل في جنب ما سمع، سمع مني وسمعت منه، وكنت أحبه في الله لسمته ودينه وحسن سيرته وكثرة محاسنه وإدامته للمطالعة والإفادة مع الفهم والبصر في الرجال والمشاركة في الفقه وغير ذلك. وقد حجّ مرات.

صنّف وخرج وأفاد مع الصيانة والديانة والأمانة والتواضع والعلم ولزوم الاشتغال والتأليف [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 6/ 111؛ اليافعي، مرآة الجنان، 4/ 292].

كما قال عنه الذهبي: رحل وتعب وحصل وكتب وأخذ عن أصحاب ابن طبرزذ فمن بعدهم، وصنّف التصانيف وظهرت فضائله مع حسن السمت والتواضع والتديّن وملازمة العلم [الذهبي، تذكرة الحفاظ، 4/ 1502].

قرأ القرآن بالروايات، وسمع الحديث، وقرأ «الشاطبية» و«الألفية»، وبرع في فنّ الحديث، وكتب كثيرا، وصنّف صنوفا من الفنون، وتلا بالسبع على أبي الطاهر المليحي، وعلى خاله الشيخ نصر وانتفع بصحبته، وجمع لمصر تاريخا كبيرا وحافلا لو كمل لبلغ عشرين مجلدة. درس في عدة أماكن، منها الجامع الحاكمي [ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، 2/ 398؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 6/ 111؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 18/ 379].

سمع من العز الحراني، وغازي الحلاوي، وابن خطيب المزة، وابن العماد، وإبراهيم المنقري، والفخر علي، وابن الفرات الاسكندراني، وغيرهم، وسمع بدمشق من الفخر وغيره، واستكثر من الشيوخ جدا، وكتب العالي والنازل، ولعلّ شيوخه يبلغون الألف [ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، 2/ 398؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 6/ 110 ـ 111].

آثاره

1 ـ الاهتمام بتلخيص كتاب الإلمام (أو كتاب الإمام) في أحاديث الأحكام للشيخ تقي الدين محمد بن علي المعروف بابن دقيق العيد الشافعي (ت 702هـ)، جمع فيه متون الأحاديث المتعلّقة بالأحكام مجردة عن الأسانيد، ثمّ شرحه وبرع فيه، وقيل: إنه لم يؤلّف في هذا النوع أعظم منه لما فيه من الاستنباطات والفوائد [حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، 1/ 158]؛ 2 ـ تاريخ مصر، أو تاريخ قطب الدين، مرتّب على الأسماء في بضعة عشر مجلّدا، ولم يكمله، وقد زاد ولده في المحمّديين كثيرا [حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، 1/ 301، 304]؛ 3 ـ شرح الجامع الصحيح للإمام البخاري، عشرة مجلّدات؛ 4 ـ شرح على القسم الأوّل من هداية الحكمة لأثير الدين الأبهري في المنطق؛ 5 ـ القدح المعلى [البغدادي، اسماعيل باشا، إيضاح المكنون، 4/ 719]؛ 6 ـ المورد العذب الهني في الكلام على سيرة عبد الغني، وهو شرح للسيرة النبوية التي اختصرها الحفاظ عبد الغني المقدسي، ويقع في مجلّدين [ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، 2/ 399؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 6/ 111؛ كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 5/ 318]؛ 7 ـ أربعون بلدانيات، أو البلدانيات، أو البلديات؛ 8 ـ أربعون تساعيات، أو التساعيات؛ 9 ـ أربعون متباينات، أو المتباينات [البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين، 1/ 610؛ حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، 1/ 158؛ البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون، 4/ 719؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، 2/ 111؛ اليافعي، مرآة الجنان، 4/ 292؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 18/ 378؛ كحالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، 5/ 318].

المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان د.ت؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين من كشف الظنون، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية باستانبول سنة 1951م، وأعادت طبعه بالأوفست منشورات مكتبة المثنى، بغداد، د.ت؛ ● حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت؛ ● العسقلاني، ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، لبنان، د.ت؛ ● الذهبي، شمس الدين، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي؛ ● الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان؛ ● ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء، البداية والنهاية، تح. الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، مصر 1419هـ/ 1998م؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان؛ ● اليافعي، أبو محمد عبد الله، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، طبع دائرة المعارف النظامية، حيدر آباد الدكن، سنة 1338هـ.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن حلزة، أبو ظليم الحارث

(ت. نحو 42 ق. هـ/580م)

الحارث بن حلّزة بن مكروه بن يشكر البكريّ. كنيته أبو ظليم. شاعر من أصحاب المعلّقات في الجاهلية، ومن وجوه قومه في العراق.

أبرز ما وصلنا من أخباره خبر دفاعه عن قومه في يوم التقاضي أمام الملك عمرو بن هند، فأنشد معلقته يومذاك. وقصة ذلك أنّ بكرًا كانت في نزاع مع تغلب، وكانت بينهما حرب البسوس المعروفة، حتى أصلح بينهما ملك الحيرة واتخذ من كل منهما سبعين رهينة من الغلمان حتى لا يعودوا إلى القتال. ولمّا تولى الحيرة عمرو بن هند، استمر في سياسة أبيه

المنذر. وحدث أن أرسل جماعة من بكر وتغلب إلى جبل طيِّء في أمر، فنزلوا على ماء لبني شيبان وهم من بكر. فمنع البكريون التغلبيين من ورود الماء فماتوا عطشًا. طلبت تغلب ديتهم من البكريين فاختصما وتحاكما إلى عمرو بن هند، وكان الحارث بن حلّزة شاعر بكر، وعمرو بن كلثوم شاعر تغلب وسيّدها.

أنشد ابن كلثوم أمام عمرو بن هند قسمًا من معلقته فافتخر بقومه وغالى، دون أن يراعي مكانة للملك.

ولما كان عمرو بن هند قد طرد خطيب البكريين النّعمان بن هرم انبرى الحارث بن حلّزة للدفاع عن قومه، فألقى معلّقته يرد بها على عمرو بن كلثوم في أناة وهدوء لاذع، مفنّدًا قوله ومعدّدًا مواقف البكريين مفاخرًا بهم حتى ضرب به المثل فقيل: «أفخر من الحارث بن حلّزة»، وحمّل التغلبيين مسؤولية الحرب، ومدح الملك وقومه فاستماله إلى جانب البكريين فقضى لهم على تغلب.

عمّر الحارث بن حلّزة طويلًا، وتوفي نحو سنة 42 ق هـ. نحو 580م. وذكر أن له ولدين: عمرو، ذكره في شعره يوصيه بالكرم، ومذعور.

الحارث بن حلّزة شاعر مقلّ. وما وصل إلينا من شعره وجُمع قليل، وأغراضه في أكثرها تدور حول الفخر والحماسة والمدح، وإنّما أبرزه وأهمه المعلّقة، التي أعجب بها الباحثون والأدباء وعدّوها من روائع الشعر الخطابي، وخير نموذج للشعر السياسي في الجاهلية. وبفضلها اعتبر الحارث من الشعراء المجيدين. قال أبو عبيدة: «أجود الشعراء قصيدة واحدة طويلة ثلاثة نفر: عمرو ابن كلثوم، والحارث بن حلّزة، وطرفة بن العبد».

من ميزات المعلّقة أنها إلى جانب حسن ديباجتها وفصاحة ألفاظها وسهولة تعابيرها، وترتيب أجزائها وأفكارها، ذات فوائد تاريخية، فهي تجمع طائفة من أيام العرب وأخبار القبائل المشاركة فيها، وتتصف بالإيجاز، الذي هو خاصة في شعر الحارث، منه قوله في وصف تأهب القوم للقتال:

أَجْمَعُوا أَمْرَهُم عِشَاءً فَلَمَّا
أَصْبَحوا، أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ

مِنْ مُنَادٍ، وِمِن مُجِيبٍ، وِمَن تَصْهالِ
خَيْلٍ، خَلالَ ذاكَ رُغَاءُ

فهذان البيتان يعتبران مثالًا في البلاغة والإيجاز.

افتتح الحارث بن حلّزة معلّقته بالغزل وذكر الفراق، ولم يطل إذ انتقل إلى وصف ناقته «التي يستعين بها على الهم»، ولكنه لم يلبث أن انتقل إلى غايته، دون أن يضيّع وقته، مستهلًا هذا الانتقال بذكر دعوى تغلب على بكر، موطئًا للبدء في الدفاع عن قومه:

وأَتَانَا مِنَ الحَوَادِث والأَنْبَاءِ
خَطْبٌ نُعْنَى بِهِ ونُسَاءُ

أَنَّ إِخْوانَنَا الأَراقِمَ يَغْلُونَ
عَلَيْنَا، فِي قِيلِهِمْ إِحْفَاءُ ...

ثمّ يشرع في الرد على عمرو بن كلثوم، وإبطال دعواه، لينتقل إلى ذكر مفاخر البكريين فمديح عمرو بن هند:

مَلِكٌ أَضْرَعَ البَرِيَّةَ لا يُوْجَدُ
فِيهَا، لِمَا لَدَيْهِ، كِفَاءُ

وبعدما أظهر بطلان دعوى التغلبيين أراد أن يحمّلهم تبعة الحرب، فخاطبهم، وذكّرهم بما بينهم وبين البكريين من أحلاف وعهود محذّرًا إيّاهم من نقضها:

فَاتْركوا البَغْيَ والتَّعدّي وإمّا
تَتعاشَوا ففي التَّعاشي الدّاءُ

واذْكُروا حِلْفَ ذي المَجازِ وما
قُدِّمَ فيه: العُهودُ والكُفَلاءُ

حَذَرَ الخَوْنِ والتَّعدّي وهل
يَنْقُضُ ما في المَهارِقِ الأهواءُ

واعْلَموا أنّنا وإيّاكُمْ فيما
اشْتَرَطْنا يومَ اخْتَلَفْنا سواءُ

ثُمّ راح يعيّر التغلبيين بأسلوب ناعم موجع معدّدًا هزائمهم ومقتل ساداتهم دون أن يأخذوا بثأرهم:

ما أصابوا مِنْ تَغْلِبيٍّ فَمَطْلولٌ
عليهِ إذا أُصيبَ، العَفاءُ

وبعد أن أوغر صدر الملك عمرو بن هند ضد التغلبيين ذكّره بلطف بأيادي البكريين البيض على المناذرة مُعدّدًا آياتهم وما لهم من الفضل على الحيرة. وجاء في الأغاني: «فلمّا فرغ الحارث من هذه القصيدة حكم عمرو بن هند أنه لا يلازم بكر بن وائل ما حدث على رهائن تغلب».

هكذا استطاع الحارث بن حلّزة أن يفوز بإعجاب الملك وأمه، فرفعت الستور السبعة التي رفعت لتفصل بينهما وبين الحارث، في أثناء إنشاده قصيدته، بسبب إصابته بداء البرص، وأجلسه عمرو بن هند إلى جانبه، وأشركه في طعامه، وكافأه بأن جزّ نواصي السبعين الذين كانوا في يده رهنًا من بكر، ودفعها إليه ولم تزل تلك النّواصي في بني يشكر يفتخرون بها.

كان الحارث أعد قصيدته، ولم يرتجلها جميعها كما زعم البعض، ورواها جماعة من قومه، فلم يرضه إنشادهم فقال: «إنّي لا أرى أحدًا يقوم بها مقامي، ولكن أكره أن أكلم الملك من وراء سبعة ستور وينضح أثري بالماء إذا انصرفت عنه». وفي ذلك يقول طه حسين: «ويكفي أن نقرأ هذه القصيدة لترى أنها ليست مرتجلة وإنما هي نظّمت وفكّر فيها الشاعر تفكيرًا طويلًا ورتّب أجزاءها ترتيبًا دقيقًا».

من شعره الحكمي قصيدة كان النضر بن شميّل يستحسنها ويستجيدها، ويقول: لله درّه ما أشعره. وفيها:

مَنْ حاكِمٌ بَيْني وبينَ
الدَّهرِ مالَ عَليَّ عَمْدا

أَوْدى بِسادَتِنا وَقَدْ
تَرَكوا لَنا حَلَقًا وجُرْدا

فَعِشْ بِجَدٍّ لا يَضيرُكَ
النُّوكُ ما لاقَيْتَ جَدّا

والعَيْشُ خَيْرٌ في ظِلالِ
النُّوكِ مِمَّنْ عاشَ كَدّا

وممّا قاله موصيًا ابنه:

واعْلَمْ بأنَّ النَّفْسَ إنْ عَمَرَتْ
يومًا لها مِنْ سَنَةٍ لاعِجُ

كذاكَ لِلانسانِ في عَيْشِهِ
غالِيَةٌ قامَ لها ناشِجُ

عدّ الأصمعي الحارث بن حِلّزة، رغم أنّه شاعر مقلّ، من الشعراء الفحول، في حين جعله ابن سلام في الطبقة السادسة إلى جانب خصمه عمرو بن كلثوم، وعنترة بن شدّاد، وهما أيضًا من أصحاب المعلّقات، وسويد ابن أبي كاهل.

آثاره

ـ نشر فريتس كرنكو بعض شعر الحارث بن حلّزة في مجلة المشرق البيروتية، العدد 8، آب 1922م، نقلًا عن مخطوطة رقم 533 عثر عليها في جامع السلطان الفاتح في الآستانة؛ ثم صدر الديوان في طبعات عدة منها:

ـ ديوان الحارث بن حلّزة، جمعه وحققه وشرحه الدكتور إميل يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، 1411هـ/ 1991م؛ ـ ديوان الحارث بن حلّزة يليه شعر بكر وأخبار حرب البسوس، إعداد وتقديم طلال حرب، دار صادر بيروت، ط 1، 1996.

المصادر والمراجع

● الدكتور ج. هيوارث دن، الأدب العربي في العصر الجاهلي، مكتبة الثقافة العربية، لاط. لا ت، ص 142 ـ 145؛
● الزّركلي، الأعلام، دار العلم للملايين بيروت، ط 6، 1984، 2/ 154؛
● الأصبهاني، الأغاني، مصوّر عن طبعة دار الكتب، وزارة الثقافة والإرشاد القومي والمؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 11/ 42 ـ 50؛
● فرّوخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط 4، 1981، 1/ 151 ـ 154؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية الدكتور عبد الحليم النجار، دار المعارف القاهرة، ط 4، 1977، 1/ 102؛ ● البستاني، فؤاد أفرام، الروائع: عمرو بن كلثوم والحارث بن حلّزة، العدد 26، منشورات الآداب الشرقية، بيروت 1951؛
● الخطيب التبريزي، شرح اختيارات المفضّل، تح. الدكتور فخر الدين قباوة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 2، 1407هـ/ 1987م، 2/ 631 ـ 642؛
● الزوزني، الحسين بن أحمد، شرح المعلقات السبع، دار صادر، بيروت، 1382هـ/ 1963م، ص 154 ـ 169؛
● شيخو، لويس، شعراء النصرانية قبل الإسلام، منشورات دار المشرق، بيروت، 1991، ط 4، ص 416 ـ 420؛ ● ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، الشعر والشعراء، دار الكتب العلمية، بيروت، 1405هـ/ 1985م، ط 2، ص 111؛
● ابن سلام الجمحي، طبقات الشعراء الجاهليين والإسلاميين، دار الفكر للجميع، بيروت، ص 56 ـ 57؛
● حسين، طه، في الأدب الجاهلي، دار المعارف بمصر، 1952، ص281 ـ 284؛ ● جواد علي، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، بيروت ومكتبة النهضة، بغداد، ط 2، 1978، الفهارس، خاصة 9/ 565 ـ 567؛ ● الضبّي، المفضّل بن محمد، المفضليات، القصائد رقم 25 و62 و127.

د. أنطوان القوال
جامعة بيروت ـ لبنان

حلمي، محمد مصطفى

(1322هـ/1904م - 1389هـ/1969م)

محمد مصطفى حلمي واحد من جيل الرّواد في حقل الدراسات الفلسفيّة في مصر والعالم العربي على وجه العموم، وأحد أهمّ أبرز الذين تخصصوا في حقل الدراسات الصوفيّة على وجه الخصوص. وقد تمثّلت ريادته الحقيقيّة في هذا المجال في أنّه كان أوّل من كتب تاريخه بالعربيّة بعد كتابات المستشرقين الكبيرين لويس ماسينيون، ورينولد نيكلسون. وكان واحدا ممّن تخرّج على يديه أبرز المتخصّصين في هذا الفرع الهام من فروع التراث الفلسفي الإسلامي.

ولد محمّد مصطفى حلمي في الرابع عشر من شهر أكتوبر عام 1904 بحيّ شبرا. وهو أحد أشهر أحياء القاهرة. وكان أبوه الحاج مصطفى حلمي من ذوي الأملاك بشبرا، ويدلّ على مكانته أن سمّي الشارع الذي كان يسكن فيه باسمه. تلقّى تعليمه الأوّلي بمدارس شبرا الابتدائيّة والثانويّة؛ وقد حصل على شهادة إتمام الدراسة الثانويّة من القسم الأدبي عام 1932. ومنذ ذلك التاريخ بدأت معاناته مع الحياة في ظلّ ظروف صعبة فرضها عليه إصابته بمرض في عينه أصابه بالعمى. ومع ذلك فقد حرص كلّ الحرص على أن يواصل دراساته الأكاديميّة بالجامعة المصريّة منذ إنشائها عام 1925، حيث تقدّم بطلبه إلى أحمد لطفي السيد الذي كان رئيسا للجامعة شارحا فيه حالته الصحّية، طالبا إلحاقه بقسم الدراسات الفلسفية بالجامعة وإعفاءه من الكشف الطبّي. ولمّا عرض الطلب على مجلس كلية الآداب التي كان عميدها العلّامة طه حسين، الذي كان كفيفا هو الآخر، وعانى من نفس المرض، عارض بعض أعضاء المجلس ورفضوا الاستثناء، فأفحمهم طه حسين بقوله: «افصلوا أوّلا الأستاذ الذي في مثل ظروف هذا الطالب، ثمّ تحدّثوا بعد ذلك في قبوله أو عدم قبوله، لأنّه يستطيع أو لا يستطيع أن يجتاز الكشف الطبّي».

وقد كانت هذه الكلمات من طه حسين وراء استثناء محمد مصطفى حلمي من الخضوع للكشف الطبّي، وقبوله طالبا بقسم الدراسات الفلسفيّة بكليّة الآداب ضمن سبعة طلّاب فقط في هذه الدفعة. وواصل دراساته الجامعيّة بنجاح حيث حصل على الليسانس في أكتوبر 1929. وتتلمذ على مجموعة كبيرة من أعظم الأساتذة الأجانب والعرب. فقد تتلمذ على لالاند، وري، واسترتيبه، وروجيه، وبوابيه من الأجانب، وعلى طه حسين، ومصطفى عبد الرّازق، ومنصور فهمي من العرب، والتحق بالدراسات العليا ليحصل في مايو 1932 على الماجستير بتقدير جيّد تحت إشراف الفيلسوفين الفرنسيين اللّذين كانا يدرّسان بالجامعة المصريّة أندريه لالاند، وأميل برييه؛ وكان موضوع رسالته «نظريّة

الجوهر عند ديكارت واسبينوزا» وكتبها حينئذ باللّغة الفرنسيّة.

عيّن بعد ذلك معيدا بنفس القسم والكليّة عام 1937، وفي ذات الوقت واصل دراساته العليا، وسجّل موضوع رسالته للدكتوراه تحت إشراف الدكتور مصطفى عبد الرّازق بعنوان «ابن الفارض والحب الإلهي»، وحصل على «درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف» في باريس 1940، عيّن بعدها في وظيفة مدرّس (ب) عام 1941، ثمّ رقي إلى مدرّس (أ) عام 1946، ثمّ إلى درجة أستاذ مساعد في شهر يوليو 1948. وتقدّم للترقية إلى أستاذ كرسي الفلسفة عام 1954. وبدأ حينئذ فصلا جديدا من فصول معاناته، حيث تقدّم معه لشغل نفس الوظيفة د. عثمان أمين، ووافقت اللّجنة العلميّة التي شكّلت لفحص إنتاجهما على استحقاقهما معا لشغل الوظيفة، ووافق مجلس الكليّة على ترشيحهما معا لشغل نفس الدرجة، ولمّا كان هذا غير ممكن نظرا لأنّ الدرجة المعلن عنها درجة واحدة فقد تظلّم د. محمد مصطفى حلمي نظرا لأقدميّته ولحصوله على الماجستير والدكتوراه قبل د. عثمان، لكنّ الأمر كان قد رفع إلى الجامعة فوافقت على أن يشغل د. عثمان أمين الوظيفة المعلن عنها على أن ينظر بعد ذلك في تدبير درجة أخرى للدكتور محمد مصطفى حلمي.

ولمّا تمّ تدبير هذه الدرجة أعلن عنها ولفترة محدودة داخليا، ولم ير الإعلان نظرا لظروفه الصّحية، ولم يبلّغه به أحد، فتقدّم لشغل الوظيفة غيره وشغلها. ومن مصادفات القدر أنّه تقدّم مرّة أخرى عام 1964 لشغل درجة جديدة للأستاذيّة، وبعد أن قرّرت اللجنة ترشيحه لها، ووافق مجلس القسم ومجلس الكليّة أفادت الجامعة بإرجاء النظر حتى اعتماد الميزانيّة الجديدة. ولمّا تمّ اعتماد الميزانيّة الجديدة كان قد بلغ سنّ السّتين. وأحيل إلى المعاش في الرابع عشر من أكتوبر 1964، ممّا ترتّب عليه عدم حصوله على درجة الأستاذيّة التي كان بلا شكّ يستحقّها عن جدارة. فاللّجان العلميّة قد أقرّت باستحقاقه لهذه الدرجة العلميّة الرفيعة أكثر من مرّة، لكنّ تصاريف القدر وظلم بعض الزملاء قد حالا دون ذلك. ولم ينفع مع هذا أو ذاك شكاوى عديدة كتبها وقضايا قانونيّة رفعها ضدّ الكليّة والجامعة لتجاوزه وترقية غيره.

ومع كلّ هذه الظروف فإنّ محمد مصطفى حلمي قد واصل رسالته الأكاديميّة والتعليميّة على خير وجه، وشهد له تلاميذه وأصدقاؤه بالتفاني في عمله والدقّة في ممارسة مهام وظيفته سواء في التدريس أو في الإشراف على العديد من الرسائل العلميّة التي جعلت من أصحابها شخصيّات مرموقة، وشغلوا بمقتضاها مراكز عليا في المجتمع. وتوزّع تلاميذه في معظم الجامعات المصريّة؛ فبالإضافة إلى عمله الأصليّ في جامعة القاهرة درّس في كليّة أصول الدين بجامعة الأزهر، وفي كليّة الآداب بجامعة الإسكندريّة. كما اشترك في تقييم امتحانات جامعة القاهرة ـ فرع الخرطوم. وربّما يكون قد درّس بجامعة الأردن التي رشّح للعمل بها عام 1964.

ولم تخل حياة محمد مصطفى حلمي العلميّة من الاشتراك بمقالاته ومداخلاته الفكريّة في

كثير من الدوريات والمجلّات الثقافيّة الشهيرة في زمانه، فكتب العديد من الأبحاث في «المجلّة العلميّة بكليّة الآداب»، و«المجلّة العلميّة لمعهد الدراسات الإسلاميّة»، و«مجلة علم النفس»، و«مجلة تراث الإنسانيّة»، و«مجلّة منبر الإسلام»، و«مجلّة الفكر المعاصر». كما كتب نحو سبعين مادة في «دائرة المعارف الإسلاميّة» التي كانت تعدّها آنذاك مؤسّسة فرانكلين بالقاهرة. كما نشر ثلاثة أبحاث بمجلّة «عالم الروح». كما اشترك في أعمال لجان مجمع فؤاد الأوّل للّغة العربيّة لعدّة سنوات. لقد عاش حياته العلميّة والعامة مؤدّيا واجبه كأفضل ما يكون رغم ظروف فقده نعمة البصر، وأدّى أعماله بإتقان، فكان قادرا على تحصيل العلم، ونشره بين العامة والخاصة، كما لو لم يكن قد وقع له محنة أو حلّ به حرمان. وقد توفّي في السادس من فبراير عام 1969، وكان لوفاته أثرها المحزن على كلّ من عرفه وخاصة من المشتغلين بالفكر الإسلامي والدراسات الصوفيّة.

لقد كان محمد مصطفى حلمي بلا شك واحدا من أبرز روّاد المدرسة الإسلاميّة الحديثة التي أسّسها الشيخ مصطفى عبد الرّازق؛ فقد كان مفكّرنا يعتبره المثل الأعلى للإنسان الكامل والإنسانيّة الصافية المدركة للحقّ والخير والجمال، كما كان يعتبره رائد هذه المدرسة الإسلاميّة الحديثة بما شملته مؤلّفاته وخاصة «تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلاميّة» من منهج أصيل في دراسة الفلسفة الإسلاميّة، نجح من خلاله في التوصّل إلى تلك النتيجة الرائعة وهي «أنّ للفلسفة الإسلاميّة جدّتها وطرافتها بعيدا عن المؤثّرات الأجنبيّة من يونانيّة وغير يونانيّة» [مجلّة الفكر المعاصر، يونيه 1965، ص 89].

وعلى هذا المنهج ولتحقيق نفس النتائج وتعميقها سار مفكّرنا في كتابه الأشهر «الحياة الروحيّة في الإسلام»؛ فقد نجح إلى حدّ بعيد في تأكيد الأصول الإسلاميّة النقيّة للتصوّف الإسلامي ولحياة المسلمين الروحيّة؛ حيث أكّد أنّ هذه الحياة الروحيّة نشأت أوّل ما نشأت في الإسلام من التقشّف، والورع، والتعبّد، والزّهد، والتقوى وغير ذلك من مظاهر الانصراف عن الدنيا والإقبال على الدين، ممّا كان عاما شائعا بين المسلمين في حياتهم الأولى، وهي هذه الحياة التي كان فيها النبيّ وأصحابه مُثُلا عليا يتأثّر بها المسلمون في القول والفعل [ص 7].

لقد أجمل محمد مصطفى حلمي في هذه العبارة رأيه في أصل التصوّف الإسلامي الذي هو في نظره ما يمثّل الحياة الروحيّة الحقّة في الإسلام. وقد فصّل هذا الرأي بعد ذلك فأوضح كيف أنّ بداية هذه الحياة الروحيّة في الإسلام تعود إلى حياة نبيّ الإسلام قبل حمل عبء الدعوة الإسلاميّة وبعد إعلانها؛ «فإن تحنّث محمّد في غار حراء إنّما هو البذرة الأولى التي نبت منها زهد الزّهاد وعبادة العبّاد وتصوّف الصوفيّة» [ص 12]. ولو أنّ قائلا قال بأنّ هذه الحياة الروحيّة لمحمد قبل الدعوة الإسلاميّة تعدّ أصلا جاهليا وليس إسلاميا. لردّ مفكّرنا بقوله : «إنّنا واجدون في حياة محمد النبي الذي تحققت نبوّته وتمّت رسالته عنصرا نفسيا يصحّ أن نتّخذ منه أساسا لأذواق الصوفيّة، ومصدرا أوّلا لمواجيدهم»

[ص 15]، وروى من أحواله وأقواله ما يثبت ذلك، وروى من حياة الصحابة وأقوالهم التي كانت في مجملها تأسّيا بحياة النبيّ وأحواله وأقواله ما يؤكّد ذلك. ثمّ كشف عن المصدر الأساسي لهذا: إنّه القرآن الكريم. وأوضح أنّ الصوفيّة المسلمين أنفسهم، سواء منهم أصحاب الأذواق والمذاهب، أو كتّاب الطبقات، هم أوّل من أكّد أنّ المصدر الحقيقيّ لكلّ ما تواضعوا عليه من قواعد الرياضة والمجاهدة ولكلّ ما انكشف أمام بصائرهم من أنوار الحقيقة في المشاهدة إنّما هو أثر من آثار ما أثِرَ عن النبيّ من زهد ونسك وتعبّد، ومن بعض آيات القرآن الكريم ومن عبارات بعض الأحاديث القدسيّة الشهيرة [ص 26 ـ 31].

ولم يكتف مفكّرنا بهذا البيان الإيجابيّ لرأيه في أصالة التصوّف والحياة الروحيّة الإسلاميّة، وإنّما ناقش ادّعاءات أصحاب النظريّات المعارضة ممّن يقولون بالمصدر الهندي أو الفارسي أو النصراني أو اليوناني، وبيّن أوجه قصورها ورفضها وكشف عن رأيه النّهائي في هذا الموضوع بعبارة تفيض قوّة وأصالة، حيث قال: «إنّه يمكن أن يقال إنّ التصوّف من حيث هو رياضة للنفس الإنسانيّة التي هي حظّ مشترك بين أفراد الإنسان جميعا، يصحّ أن ينتهي عند المعتنقين لدين من الأديان إلى عين النتائج التي ينتهي إليها عند المعتنقين لدين آخر من هذه الأديان، وذلك لأنّ وسائل التصفية وطرق التهذيب التي يصطنعها أولئك وهؤلاء واحدة هي الأخرى؛ فإذا كان ذلك كذلك وكانت النفس الإنسانيّة هي النفس الإنسانيّة في كلّ زمان وكلّ مكان فما الذي يمنع إذًا من أن يكون التصوّف الذي ظهر في الإسلام هو بعينه الذي أخذ صورا متعدّدة في الديانات الهنديّة والفارسيّة والنصرانيّة وفي الفلسفة اليونانيّة؟ وما الذي يمنع أيضا من أن يكون التصوّف الإسلامي قد نشأ بعيدا عن كلّ المؤثّرات الدينيّة والفلسفيّة الأجنبيّة. وأن يكون هذا التشابه الملحوظ بينه وبين دين البراهمية والمانوية والنصرانية والأفلاطونية الجديدة آتيا من أنّ زهّاد المسلمين وصوفيّتهم قد أخضعوا أنفسهم لطائفة من القواعد والأحكام التي تقرب كثيرا أو قليلا من تلك التي أخضع لها نسّاك البراهمية وزهّاد المانوية ورهبان النصرانية وفلاسفة الأفلاطونية الجديدة أنفسهم؟ [ص 64].

وعلى هذا النحو من إشراق البيان ودقّة العبارة وقوّة الحجّة كانت آراء محمد مصطفى حلمي في تاريخ الفلسفة عامّة، وفي الفلسفة الإسلاميّة والتصوّف الإسلامي على وجه الخصوص في مختلف مؤلّفاته وبحوثه ومقالاته التي سدّت على حدّ تعبير صديقه علي سامي النشار ـ فجوة كبيرة في تاريخ الفلسفة الإسلاميّة موضّحة الجانب الأصيل فيها. [نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، 1/ 24].

■ آثاره

تنوّع إنتاج محمد مصطفى حلمي العلمي رغم تلك الظروف التي حلّت به، وتوزّع بين التأليف والترجمة والتحقيق، ومراجعة ترجمات الآخرين، وكتابة مقدّمات لمؤلّفاتهم. أمّا أبرز ما تركه من مؤلّفات فكان:

1 - الحياة الروحيّة في الإسلام، هو أوّل مؤلّف يكتب باللغة العربيّة في تاريخ التصوّف الإسلامي يمتاز بالأصالة والابتكار. وقد جاء في 164 صفحة، ونشر ضمن مؤلّفات الجمعيّة الفلسفيّة المصريّة عام 1945. وقد بدأه بالحديث عن الزهد والتصوّف كمرآة للحياة الروحيّة في الإسلام، ثمّ تحدّث عن بداية هذه الحياة الروحيّة في الإسلام من خلال الحديث عن محمد ﷺ في الجاهليّة، وعن حياته النفسيّة والروحيّة، وأحواله وأقواله في ظلّ الإسلام، وبعد إعلان الدعوة؛ ثمّ من خلال الحديث عن حياة الصحابة وأقوالهم.

وعلى هذا الأساس كشف مؤلّفنا عن مصادر الحياة الروحيّة في الإسلام، واعتبر أنّ مصدرها الرئيسيّ هو المصدر الإسلاميّ، وناقش ونقد النظريّات الأخرى التي تردّ ظهور التصوّف في الإسلام إلى مصادر هنديّة أو فارسيّة أو نصرانيّة أو يونانيّة.

وانتقل بعد ذلك إلى دراسة زهّاد القرنين الأوّلين للهجرة، وبيّن الخصائص الروحيّة لهؤلاء الزهّاد، وخصّ بحديثه الحسن البصري الذي يتميّز زهده بالخوف من الله، ورابعة العدويّة التي تميّز زهدها بالحب الشديد لله. ثمّ تحدّث بعد ذلك عن التصوّف والصوفيّة موضّحا كلمة صوفي وأصلها، وبيّن بعد ذلك خصائص التصوّف في القرنين الثالث والرابع الهجريين، وعن بعض أعلامه كذي النون المصري، وأبي زيد البسطامي، ويحيى بن معاذ الرازي، وأبي القاسم الجنيد، وأبي صالح حمدون القصار النيسابوري وغيرهم. ثم انتقل للحديث عن الصراع بين الفقهاء والصوفيّة، وخصّ بالحديث في هذا الإطار الحسين بن منصور الحلّاج موضّحا مذهبه الصوفيّ. ثم انتقل للحديث عن التصوّف في القرن الخامس وخاصة عند أكبر المتصوّفة السنّيين أبي حامد الغزالي.

وتحدّث بعد ذلك عن خصائص التصوّف وموضوعاته في القرنين السادس والسابع الهجريّين، وخصّ بالحديث من أعلام هذين القرنين السهروردي المقتول، ومحيي الدين ابن عربي، وعمر بن الفارض، وعبد الحق بن سبعين. وانتهى الكتاب بحديث مقتضب عن التصوّف بعد القرن السابع حيث عدّه مجرّد شروح وملخّصات أدّت إلى التدهور بعد الأزدهار الذي شهده التصوّف في القرون السابقة.

2 - ابن الفارض والحب الإلهي، هو موضوع رسالته للدكتوراه التي بلغت في نشرة دار المعارف 427 صفحة من القطع الكبير. وهي الدراسة الأولى من نوعها في اللّغة العربيّة، على حدّ تعبير الشيخ مصطفى عبد الرّازق في تقديمه لها [ص 8]، وقد تناولت عبر ثلاثة أبواب أو كتب على حدّ تعبير صاحبها، دراسة الحبّ الإلهي عند ابن الفارض؛ غطّى الأوّل منها صورة عن ابن الفارض وتصوّفه متناولا سيرته وحياته الصوفية وآثاره، وفي الثاني تناول بالدراسة أطوار الحبّ الإلهي عند ابن الفارض بعد أن ميّز بين الحبّ الإنساني والحب الإلهي، وفي الثالث وضّح المنازع الفلسفيّة في حبّ ابن الفارض الإلهي، فميّز بين الأذواق الصوفيّة والمذاهب الفلسفيّة، ودرس العلاقة بين الحبّ والمعرفة والحبّ والوحدة، وقدّم في هذا الصدد مقارنات دقيقة وواسعة بين مفاهيم وتصوّرات

ابن الفارض في التصوّف عامة وفي الحبّ الإلهي خاصة، وبين تصوّرات كلّ من جلال الدين الرومي، وابن عربي، والحلاّج. كما قارن بين الفيض الأفلوطيني ورؤية ابن عربي، وابن الفارض. كما تحدّث بعد ذلك عن رؤية ابن الفارض للحب ووحدة الأديان. وقد اعتمد في هذه الدراسة على حوالي 125 مرجعا في اللّغات العربيّة، والإنجليزيّة، والفرنسيّة، والإيطاليّة؛ 3 ـ ابن الفارض ـ سلطان العاشقين، هو كتاب في تاريخ حياة ابن الفارض وتصوّفه وشعره، وقد جاء في حوالي 254 صفحة. وتميّز عن رسالته التي كان قد أعدّها لنيل درجة الدكتوراه عن عمر ابن الفارض والحبّ الإلهي بأنّه جاء ككتاب عامّ عن ابن الفارض، عرض فيه لحياة ذلك الصوفيّ الكبير وأوضح ظروف عصره وشعره ورياضاته ومجاهداته وأذواقه، كما قارن بينه وبين متصوّفة وعلماء وشعراء عصره، وقد تناول كلّ ذلك عبر ثلاثة أقسام؛ درس في القسم الأوّل ابن الفارض وعصره في عشرة فصول متتالية، ودرس في الثاني ابن الفارض الصوفيّ عبر خمسة فصول، تحدّث فيها عن حياته الروحيّة، ورياضاته، ومجاهداته، وكراماته، ومناماته، وأحلامه، وأذواقه، ومواجيده، ودرس في الثالث ابن الفارض الشاعر من خلال ديوانه الشهير، وتحليل قصائده، وبيان خصائص شعره الصوفي؛ 4 ـ الحب الإلهي في التصوّف الإسلامي، نشر بالقاهرة في سلسلة المكتبة الثقافيّة [رقم 24] عام 1960 وجاء في 137 صفحة من القطع الصغير. وقد تناول فيه بأسلوب سلس ممتع التراث الروحيّ الذي تزخر به مؤلّفات الصوفيّة المسلمين، ودرس أساليبهم في الحبّ الإلهي، وكشف عن رموزهم الشعريّة الغزليّة والخمريّة. كما ناقش فيه آراء بعض المستشرقين الذين تعرّضوا لهذا الموضوع.

وقد ذكر له كتابان آخران لم نعثر عليهما أو على مضمونهما هما:

5 ـ التمهيد لدراسة الفلسفة الشرقيّة، ذكر أنّه طبع طبعتين متواليتين في عامي 1937، 1938. ويبدو أنّه كان عبارة عن محاضرات ألقاها بكليّة أصول الدين بجامعة الأزهر في الفلسفة العامة والفلسفة الشرقيّة كما جاء بهامش ص 34 من كتابه «الحياة الروحيّة في الإسلام»؛ 6 ـ بين الفلسفة والعلم، وقد جاء ذكر هذا الكتاب في ملفّ خدمة د. محمد مصطفي حلمي على أنّه نشر عام 1940 بالقاهرة. وأشار د. التفتازاني أنّه طبع قبل ذلك عام 1936.

ولمؤلّفنا عدّة أبحاث هامّة نشرت بالمجلّة العلميّة منها:

7 ـ بحث عن «كتاب الحب والحكمة الإلهيّان لسويد نبورج»، نشر بمجلة «تراث الإنسانيّة» التي كانت تعنى بعرض أهمّ المؤلّفات لمشاهير الفلاسفة والعلماء والباحثين. وقد نشر بعدد نوفمبر 1963. وتضمّن عرضا لهذا الكتاب الهام لأوّل مرّة باللّغة العربيّة، وجاء العرض مشتملا على مقارنات عديدة بين آراء سويدنبورج وآراء غيره من الثيوصوفيين؛ 8 ـ بحث عن «الخصائص الأخلاقيّة للرياضات والأذواق الصوفيّة»، نشر هذا البحث بمجلة معهد الدراسات الإسلاميّة بالقاهرة عام 1958، وجاء في حوالي ثلاثين صفحة من القطع الكبير، ركّز فيه على شرح

الجوانب الخلقيّة من الحياة الصوفيّة. ومن ثمّ عرض للتصوّف الإسلامي من حيث هو علم وعمل تتّسق فيه الأقوال مع الأفعال والتصوّرات مع السلوك؛ 9 ـ بحث عن «ذي النون المصري»، وهو مقال نشر تعليقا على مادة «ذي النون» بدائرة المعارف الإسلاميّة عام 1953، ويقع في حوالي عشرين صفحة، تحدّث فيه عن تاريخ حياة هذا الصوفي الكبير، وعن عصره ومن عاصره وأثّر فيه من أعلام الصوفيّة والفقهاء والمحدّثين؛ 10 ـ بحث عن «الخصائص النفسيّة للرياضيّات والأذواق الصوفيّة»، وهو يتكامل مع بحثه الآخر السابق الإشارة إليه عن الخصائص الأخلاقيّة للرياضيّات والأذواق الصوفيّة، وقد نشر هذا البحث في مجلّة علم النفس عدد فبراير 1951، وجاء في حوالي خمس عشرة صفحة. وهو عبارة عن تحليل سيكولوجي للجانب العملي من حياة الصوفيّة، ووصف لكيفيّة الترقّي النفسيّ في سلّم المقامات والأحوال الصوفيّة، وهو بحث يؤسّس بالتالي لعلم النفس الصوفيّ إن جاز التعبير؛ 11 ـ بحث عن «حكيم الإشراق وحياته الروحيّة»، وقد نشره في مجلّة كلية الآداب جامعة القاهرة في عدد ديسمبر 1950، وجاء في حوالي اثنتين وثلاثين صفحة. وهو عبارة عن ترجمة دقيقة لحياة السهروردي اعتمد فيه على مختلف المصادر التي تحدّثت عن حياة هذا الصوفيّ الكبير؛ 12 ـ بحث عن «آثار السهروردي المقتول ـ تصنيفها وخصائصها الصوفيّة والفلسفيّة»: وهو بحث يستكمل فيه دراسته السابقة عن السهروردي. وقد نشر بنفس المجلّة في عدد مايو 1951، وجاء في أربع وثلاثين صفحة، تحدّث فيها عن مصنّفات السهروردي، وقارن بين التصنيفات المختلفة لهذه المصنّفات، وأوضح خصائصها الصوفيّة والفلسفيّة استنادا إلى ما قالته المصادر القديمة وآراء المؤرّخين المحدثين. وقد ذكر له أيضا ثلاثة أبحاث أخرى عن ابن سينا وهي السعادة الإنسانيّة عند ابن سينا، وابن سينا والشيعة، والعشق عند ابن سينا.

أمّا في ميدان تحقيق أمّهات الكتب في التراث الصوفيّ، فكان له:

1 ـ تحقيق كتاب: راحة العقل للداعية أحمد حميد الدين الكرماني، وقد حقّقه بالاشتراك مع د. محمد كامل حسين عام 1952. وجاء التحقيق في 348 صفحة. وقد قدّما للتحقيق بمقدّمة حلّلا فيها محتويات الكتاب، وأوضحا كيف تبيّن لهما فيه المزج بين التعاليم الإسماعيليّة والأفكار الفلسفيّة والكلاميّة. ومدى التشابه بين آراء المؤلّف وآراء ابن سينا.

2 ـ تحقيق كتاب: توفيق التطبيق في إثبات أنّ الشيخ الرئيس من الإمامية الإثني عشريّة تأليف علي بن فضل الله الجيلاني، وقد جاء الكتاب في 244 صفحة، ونشر عام 1954. وبذل فيه محمد مصطفى حلمي جهدا فائقا حيث بلغت تعليقاته على متن الكتاب في حوالي 130 صفحة، كما قدّم للتحقيق بمقدّمة كبيرة وصلت إلى ستّ وعشرين صفحة. وقد عني في مقدّمته وتعليقاته بمحاولة إثبات أنّ ابن سينا لم يكن كما يقول المؤلّف إماميا أو اثني عشريّا.

3 ـ تحقيق كتاب: المغني في أبواب التوحيد

للقاضي عبد الجبار المعتزلي، وهو الجزء الرابع في الرؤية، وقد حققه وعلّق عليه بالاشتراك مع تلميذه أبي الوفاء التفتازاني وراجعه د. مدكور، ونشرته الدار المصريّة للتأليف والترجمة والنشر عام 1965.

أمّا في ميدان الترجمة فقد قام بترجمة العديد من المواد ضمن النشرة العربيّة لدائرة المعارف الإسلاميّة، وكان أهمّها: مادتا «ذو النون المصري» و«الشيرازي». كما راجع العديد من الكتب المترجمة، نذكر منها «الفكر العربي ومكانه في التاريخ» لديلاس أوليري، و«مشكلات ما بعد الطبيعة» تأليف بول جانيه وجبريل سياي، و«فلسفة اليوجا» تأليف يوجي راماجاشاراكا، و«العلم والديمقراطيّة والإسلام» تأليف همايون كبير، ومقال عن المنهج لرينيه ديكارت. ولم تكن هذه المراجعات تتمّ دون جهد جهيد من جانبه، ولنذكر على سبيل المثال أنّه قد قدّم لترجمة محمود الخضيري لكتاب ديكارت «المقال عن المنهج» بمقدّمة مطوّلة غطّت تاريخ الفلسفة منذ الفلسفات الشرقيّة السابقة على الفلسفة اليونانيّة وحتّى الفلسفة الحديثة ليوضّح مكانة ديكارت وأهميّة كتابه في تاريخ الفكر الفلسفي عامة، والفلسفة الغربيّة الحديثة على وجه الخصوص، وقد جاءت هذه المقدّمة في أكثر من سبعين صفحة.

المصادر والمراجع

● التفتازاني أبو الوفاء، الغنيمي، محمد مصطفى حلمي ودراسات التصوّف الإسلامي، مقال، بمجلّة الفكر المعاصر، العدد (52)، القاهرة يونيه 1969، وأعيد نشره بمجلّة الجمعيّة الفلسفيّة المصريّة ـ العدد الرابع ـ عدد خاص عن د. التفتازاني، يناير 1996؛ ● النشار علي سامي، نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، الجزء الأوّل، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، القاهرة 1981.

د. مصطفى النشار
جامعة القاهرة ـ مصر

الحلو، عبد الفتّاح محمّد

(1356هـ/1937م ـ 1414هـ/1994م)

عبد الفتاح محمد الحلو مصطفى، محقّق تراثي، وخبير مجمعي، له دور ملموس في مجال تحقيق التراث، ولد بالباجور بمحافظة المنوفية، وتلقى تعليمه الابتدائي بالمعاهد الأزهرية بالقاهرة. حصل على الثانوية الأزهرية، والتحق بكلّية دار العلوم وتخرّج فيها سنة 1961م، وحصل منها على الماجستير عام 1968م عن أبي منصور الثعالبي وآثاره الأدبيّة، كما حصل منها كذلك على الدكتوراه عام 1974م، عن رسالة

موضوعها «الشريف الرضي، حياته ودراسة شعره».

عمل باحثا بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، ومعيدا بمركز الدراسات العربيّة بها من عام 1962 إلى عام 1965م، ثمّ عمل بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربيّة من عام 1965 إلى عام 1979م، وشارك في وضع فهارس المخطوطات، كما شارك في اختيار المخطوطات وفهرستها في بعثاته إلى اسبانيا والاتحاد السوفياتي (سابقا) واليمن والمملكة العربية السعودية. عمل خبيرا بمجمع اللغة العربية بالقاهرة، وكان عضوا بلجنة المعاجم فيه.

أعيرخلال السنوات من 1972 إلى 1975م، ثمّ مرّة أخرى عام 1978م، للتدريس بكلّية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، ثمّ عيّن أستاذا بقسم المكتبات بكلّية العلوم الاجتماعية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ومشرفا على المخطوطات بالجامعة، وعضوا في المجلس العلمي لمركز البحوث بها في الفترة من عام 1979 إلى عام 1985م.

عمل منذ سنة 1985 مديرا لمركز البحوث والدراسات العربية والإسلاميّة بالقاهرة (وهي مؤسسة خاصّة). ومديرا لدار هَجَر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان. كما عمل أستاذا بمركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلاميّة بالرياض، وأوفده المركز إلى مكتبة الكونغرس الأمريكي بواشنطن خلال صيف سنوات 1984م، 1987م، 1988م لفحص وفهرسة مجموعة المخطوطات العربية بها.

وانتدب للتدريس (بعض الوقت) بقسم المكتبات والوثائق بكلّية الآداب جامعة القاهرة سنتي 1988م، و1989م.

نشر العديد من المقالات في كثير من المجلّات والدوريات العربية، وأصدر رواية «نور الحياة» عام 1955م.

توفّي في السادس من ذي القعدة عام 1414هـ/ السادس عشر من أبريل عام 1994م [إتمام الأعلام، ص162؛ تتمة الأعلام، 1/ 306].

آثاره

أ ـ التحقيقات:

1 ـ التمثيل والمحاضرة، للثعالبي، 614 صفحة، القاهرة، ط1، 1961م، ط2، الدار العربيّة للكتاب، تونس، 1983م؛ 2 ـ ديوان ابن المقرّب، 703 صفحة، القاهرة 1963؛ 3 ـ طبقات الشافعيّة الكبرى، لابن السبكي، بالمشاركة، عشرة أجزاء، 5739 صفحة، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ط1، 1383هـ/ 1964م، والطبعة الثانية، مجتمعة الفهارس، دار هَجَر للطباعة والنشر، القاهرة، 1413هـ/ 1992م؛ 4 ـ ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا، للشهاب الخفاجي، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، ط1، 1386هـ/ 1967م؛ 5 ـ دمية القصر، للباخرزي، جزءان، 970 صفحة، القاهرة، 1968 ـ 1971م؛ 6 ـ نفحة الريحانة، للمحبّي، خمسة أجزاء، 3225 صفحة، القاهرة، 1967 ـ 1970م؛ 7 ـ ذيل نفحة الريحانة، للمحبّي، 550 صفحة، القاهرة 1971م؛ 8 ـ الطبقات السنيّة في تراجم الحنفية، لتقي الدين

التميمي، الجزء الأوّل، ط1، 502 صفحة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة بمصر، 1390هـ/ 1970م، ط2، من الأوّل إلى الرابع، 1405 صفحة، دار الرفاعي، 1983م، دار هجر 1990م؛ 9 ـ ديوان الشريف الرضيّ، الجزء الأوّل، ط1، 382 صفحة، بغداد، 1977م، ط2، في ثلاثة أجزاء، الجزء الأوّل 744 صفحة، دار هجر 1992م؛ 10 ـ تاريخ العلماء النحويين من البصريّين والكوفيين وغيرهم، للمفضّل بن محمد بن مسعر التنوخي، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، الرياض، 1401هـ، ط2، دار هجر، 1992م؛ 11 ـ تاج العروس، للزبيدي، الجزء الثالث والعشرون، 584 صفحة، الكويت 1986م، الجزء التاسع والعشرون 1999م، وزارة الإرشاد والأنباء بالكويت؛ 12 ـ المغني، لابن قدامة، بالاشتراك، الأجزاء من 1 ـ 15، 10168 صفحة، دار هجر للطباعة والنشر، القاهرة 1986 ـ 1990م؛ 13 ـ سيرته للتقي التميمي، ط1، 1985م، الطبعة الثانية 1989م، 48 صفحة؛ 14 ـ الجوهر الأسنى في تراجم علماء وشعراء بوسنه، لمحمد بن محمد بن محمد البوسنوي الخانجي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1413هـ/ 1992م، 295 صفحة؛ 15 ـ شعر الثعالبي، جمع وتحقيق وشرح، 56 صفحة، مجلّة المورد، بغداد 1977م؛ 16 ـ الجواهر المضية في طبقات الحنفية، للقرشي، خمسة أجزاء، 3418 صفحة، مطبعة الحلبي بالقاهرة ودار العلوم بالرياض، 1978 ـ 1988م، ط2، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، 1993م؛ 17 ـ عقد الدرر في أخبار المنتظر، للسلمي، 480 صفحة، القاهرة، 1979م؛ 18 ـ الأنساب، للسمعاني، الجزء العاشر، 548 صفحة، نشر محمد أمين دمج، بيروت 1980م.

ب ـ المؤلّفات والإسهامات العلميّة الأخرى:

1 ـ شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر، ط1، 600 صفحة، القاهرة، 1959م، ط2، دار العلوم بالرياض، 1980م؛ 2 ـ أعلام التراث الإسلامي، تأليف، 150 صفحة، شركة مكتبات عكاظ بالرياض، 1981م؛ 3 ـ الشريف الرضيّ، حياته ودراسة شعره، تأليف، دار هجر للطباعة والنشر، 744 صفحة، القاهرة، 1986م؛ 4 ـ تاريخ التراث العربي، الدكتور فؤاد سزكين، الببليوغرافيا والتحرير لترجمة المجلّدين الأوّل والثاني عن النص الألماني، وتصحيح التجارب والإشراف على الإخراج الطباعي وصنع الفهارس للمجلّدين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، الرياض، 1983 ـ 1984م؛ 5 ـ فهرست المخطوطات، الأدب والبلاغة والنقد، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، إعداد، ط1، 408 صفحة، الرياض 1986م؛ 6 ـ د. ميكلوش موراني، دارسات في مصادر الفقه المالكي، المراجعة البيليوجرافية والتحرير للترجمة العربية، 304 صفحة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1988م؛ 7 ـ البيان والتحصيل لابن رشد، الفهارس والكشافات، 1372 صفحة، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1992م.

المصادر والمراجع

● أباظة، نزار، والمالح، محمد رياض، إتمام الأعلام؛ ● الزركلي، تتمّة الأعلام؛ وفـيّـات 1397 ـ 1415هـ/ 1977 ـ 1995م، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت 1418هـ/ 1998م.

د. فتح الله عبد الله سليمان
جامعة القاهرة ـ مصر

الحُلْواني، أبو محمد عبد الرحمن بن أبي الفتح

(490هـ/1097م ـ 546هـ/1151م)

هو أبو محمد عبد الرحمٰن بن أبي الفتح محمد (وقيل: عمار) بن علي بن محمد الحلواني، البغدادي [كحالة، معجم المؤلفين، 5/ 159]. والحلواني ـ بفتح المهملة وسكون اللام ـ وهذه نسبة إلى بيع الحلواء وعملها وصنعها وبيعها. والمعروف أنها بضم الحاء، والغالب على الظن أنه منسوب إلى حلوان البلد المعروف بالعراق [الدّاوودي، طبقات المفسرين، 1/ 280].

فقيه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، عالم بأصول الفقه والاستنباط، مفسر للقرآن الكريم، مناظر في الفروع والمسائل الفقهية، له اهتمام بعلم الخلاف الفقهي أو الفقه المقارَن وأسبابه وآثاره وترجيحاته. يجتهد ويستنبط ويفتي. وقد برع في كل ذلك. وقد عده بعضهم بأنه شيخ من شيوخ الحنابلة، وبأن له اهتمامًا بالحديث، فقد سمع وحدَّث وروى [الدّاوودي، طبقات المفسرين، 1/ 280].

وهو ابن الشيخ أبي الفتح محمد بن علي البغدادي الحنبلي المتوفى سنة 505هـ، ووالد الشيخ محمد بن عبد الرحمٰن المتوفى سنة 614هـ [أبو زيد، المدخل المفصّل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل وتخريجات الأصحاب، 1/ 519؛ الدّاوودي، طبقات المفسرين، 1/ 280].

ذكره ابن شافع، وابن النجار وأثنيا عليه، وذكره ابن الجوزي وقال: كان يتجر في الخل ويقتنع به ولم يقبل من أحد شيئًا [كحالة، معجم المؤلفين، 5/ 159؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 4/ 144].

وقال ابن شافع: كان فقيها في المذهب، يفتي وينتفع به جماعة أهل محلته. وقال ابن النجار: كان موصوفا بالخير والصلاح والفضل [الدّاوودي، طبقات المفسرين، 1/ 281].

توفي يوم الاثنين في ربيع الأول سنة ست وأربعين وخمسمائة للهجرة، ودفن من الغد بداره بالمأمونية بعد أن صلى عليه الشيخ عبد

القادر بالمصلى القديم بالحلبة [كحالة، معجم المؤلفين، 5/ 15؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 4/ 144؛ الدّاوودي، طبقات المفسرين، 1/ 281].

تفقه على أبيه أبي الفتح محمد بن علي، وأبي الخطاب، وعلي بن أيوب البزار، والمبارك ابن عبد الجبار، والحسين الخلال، وأبي نصر بن ودعان، وغيرهم [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 4/ 144؛ الدّاوودي، طبقات المفسرين، 1/ 281].

وقد ذكر ابنه محمد بن عبد الرحمن أنه سمع بإفادة والده من أبي المعالي بن السّمين، وغيره [الدّاوودي، طبقات المفسرين، 1/ 280].

سمع منه يحيى بن طاهر بن النجار الواعظ، وغيره [الدّاوودي، طبقات المفسرين، 1/ 281].

آثاره

1 ـ التبصرة في فروع الفقه ؛ 2 ـ الهداية في أصول الفقه؛ 3 ـ تعليقة كبيرة في مسائل الخلاف، ويُقال: الإنصاف في مسائل الخلاف [أبو زيد، المدخل المفصّل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل وتخريجات الأصحاب، 2/ 904، 975]؛ 4 ـ تفسير القرآن (في واحد وأربعين جزءا)؛ 5 ـ تعليقة في مسائل الخلاف [كحالة، معجم المؤلفين، 5/ 159؛ ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 4/ 144؛ الدّاوودي، طبقات المفسرين، 1/ 280؛ أبو زيد، المدخل المفصّل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل وتخريجات الأصحاب، 2/ 813، 904، 943، 975؛ البغدادي، إيضاح المكنون، 3/ 304، 322؛ البغدادي، هدية العارفين، 1/ 519].

المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية باستانبول سنة 1951، وأعادت طبعه بالأوفست منشورات مكتبة المثنى، بغداد، د.ت؛ ● الدّاوودي، طبقات المفسرين، مراجعة لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د. ت؛ ● أبو زيد، بكر بن عبد الله، رئيس مجمع الفقه بجدة، المدخل المفصّل إلى فقه الإمام أحمد بن حنبل وتخريجات الأصحاب، دار العاصمة، الرياض، 1417هـ/ 1997م؛ ● ابن العماد، الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

د. نورالدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

الحلواني النهرواني، سليمان بن عبد الله

(ت 493هـ/1100م)

هو سليمان بن عبد الله بن أبي طالب بن الفتى الحلواني النهرواني ويقال له سلمان. قدم بغداد صغير السن وقرأ بها النحو على الثمانيني واللغة على ابن الدهان، وسمع الحديث عن القاضي أبي الطيّب الطبري وغيره. ذكره الأمير ابن ماكولا فقال: «وأمّا الفتى أوّله فاء مفتوحة بعدها تاء معجّمة باثنين من فوقها فهو أبو عبد الله سليمان بن عبد الله يعرف بابن الفتى من أهل النهراون، دخل بغداد بعد سنة ثلاثين وأربعمائة وتشاغل بالأدب وقرأ على ابن الخطاب الجبلي والثمانيني وغيرهما من أدباء ذلك الوقت وحضر عندي وتأدب».

برع في النحو فجال في العراق مدرّسا إيّاه وهو شاب ثم نزل أصبهان وجلس إليه عدد هام من أئمّتها وفضلائها يقرؤون عليه النحو والأدب. ذكره أبو زكرياء يحيى بن عبد الله المعروف بابن منده في تاريخ أصبهان بقوله: «سليمان بن عبد الله بن الفتى البغدادي قدم أصبهان واستوطن بها، وكان جميل الطريقة فاضلا أديبا حسن الخلق إماما في اللغة والنحو، صنّف كتاب «التفسير» مسكنه في باب الوزير قريب من الجامع». وذكره الباخرزيّ في كتابه «دمية القصر وعصرة أهل العصر» وهو ممّن صادقه بقوله: «عاشرته بالنهروان سنة ثلاث وستين ووجدته لطيف العشرة وفتشته عمّا يتحلّى به من علم الإعراب فمدّ فيه أطناب الإطناب حتى كاد يكون مكانه من المبرّد والزّجاج مكان الأسنّة من الزجاج (جمع زجّ وهو الحديد في أسفله الرمح)».

له العديد من القصائد الشعرية قال عنها ابن ماكولا: «وجدته فاضلا مليح الشعر حسن الأدب حافظا». وقال الباخرزي: «وهو مع هذا أشعر أبناء جنسه فممّا أنشدني لنفسه من قصيدة نظامية:

يا ظبيةً حلّت بباب الطاق
بيني وبينك أوكل الميثاق

فوحقّ أيام الصبَى ووصالنا
قسما بها وبنعمة الخلاق

ما مرّ من يوم ولا من ليلة
إلا إليك تجدّدتْ اشواقي

سقيًا لأيام جنى لي طيبها
ورد الخدود ونرجس الاحداق

وإذا أضرّت بي عقاربُ صدغها
كانت مراشف ريقها ترياقي

ومن شعره أيضا:

إذا خانكَ الدّهر فكنْ عائذا
بالبيضِ والإدلاج والعيس

وسليمان والد الحسن الفقيه المدرّس بالنظامية. ومن أشهر تلاميذه نذكر السلفي وابن أبي طالب بن غيلان. مات سليمان في

الثاني عشر من صفر سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة وقبل سنة أربعة وتسعين وأربعمائة.

آثاره

برع في النحو وكان إماما فيه وفي اللغة له العديد من التصانيف أهمها:

1 ـ تفسير القرآن (تخرّج به أهل أصبهان)؛ 2 ـ علل القراءات؛ 3 ـ القانون في اللغة (يقع في عشرة مجلّدات قبل لم يصنّف مثله)؛ 4 ـ شرح الأمالي لأبي علي القالي؛ 5 ـ شرح ديوان المتنبي.

المصادر والمراجع

● ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، المكتبة التجارية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان (د. ت.)، 3/ 399؛ ● الحموي، ياقوت، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، دار المستشرق، بيروت، لبنان (د. ت.)، 11/ 234؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مطبعة الترقي بدمشق 1376هـ، 4/ 239؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هديّة العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين، منشورات مكتبة المثنى، بغداد 1951م، 1/ 397؛ ● السيوطي، جلال الدين، طبقات المفسرين، تح. علي محمد عمر مكتبة وهبة القاهرة، ط 1، 1326هـ، ص 260؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، ط 7، 1986، 3/ 111؛ ● القفطي، علي بن يوسف، إنباه الرواة على أنباه النحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة دار الكتب المصرية، 1371هـ، 2/ 26.

د. عبد السلام العيساوي
جامعة منوبة ـ تونس

حلولو، أحمد بن عبد الرحمن اليزليطني القيرواني

(815هـ/1412م ـ 898هـ/1492م)

أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن موسى بن عبد الحق اليزليطني عرف بحلولو القروي، اكتفى محمد محفوظ من بين المترجمين له بذكر سنة مولده [تراجم المؤلفين التونسيين، 2/ 165]، في حين قال السخاوي: «ذكر تلميذه أحمد بن حاتم المغربي... أنّه في سنة خمس وتسعين في قيد الحياة ولا تقصر سنّه عن الثمانين» [الضوء اللامع، 2/ 260]. ترجم له كحالة في مناسبتين وشذّ في إحداها وعرّفه بقوله: «أحمد بن خلف بن حلولو القروي المغربي المالكي نزيل تونس»، وأورد خطأ آخر لما قال: «شرح مختصر خليل في فروع الفقه الحنبلي» [معجم المؤلفين، 1/ 215].

واتفق مع بقية المترجمين له لما ذكره ثانية في [1/ 269]، وانفرد الشيخ الحجوي فنعته بالطرابلسي [الفكر السامي، 2/ 262]، إلا أنّ حلولو أصيل القيروان وبها نشأ وأخذ عن علمائها ثم انتقل إلى تونس وأخذ العلوم عن فقهاء عصره كالإمام البرزلي، وقاسم بن ناجي، وعمر القلشاني، وقاسم العقباني وغيرهم، كما أخذ عن الشيخ أحمد زروق، وعبد الرحمن الثعالبي الجزائري والقلصادي وغيرهم، سافر إلى طرابلس ليبيا وولّي القضاء بها.

وقرأ عليه بطرابلس أحمد بن حاتم بن محمد النّبطي الصنهاجي وبقي قاضيا بها مدّة طويلة، ثم عزل عن قضاء طرابلس، فرجع إلى تونس وتولّى مشيخة عدّة مدارس، أعظمها المدرسة المنسوبة للقائد نبيل وذلك عوضا عن الشيخ إبراهيم الأخضري [الضوء اللامع، 2/ 260؛ التنبكتي، نيل الابتهاج، 127 ـ 128؛ محفوظ، تراجم المؤلفين، 2/ 165؛ عبد الوهاب، حسن حسني، كتاب العمر، 210؛ الكتاني، تكميل الصلحاء والأعيان، 13؛ فهرست الرصاع، 56، 63، 124، 185].

نعته السخاوي بقوله: «هو أحد الأئمة الحافظين لفروع المذهب» [الضوء اللامع، 2/ 260 ـ 261] ووصفه محفوظ بـ «الأصولي الفقيه» [تراجم المؤلفين، 2/ 165] وقال الكتاني: «هذا الشيخ جليل المقدار عالي المنار مصيب في نقله للفقه فيما يختار، أهل بيت من القيروان أصلهم في المجد عريق، متناسق سلفهم في التوفيق صادق عن صادق» [تكميل الصلحاء، 13]. وقال فيه مخلوف: «الإمام العمدة المحقّق المؤلّف الفقيه الأصولي، أحد الأعلام الحافظين لفروع المذهب... وكان يقول بعدم قبول شهادة العالم على مثله، وللقاضي الفشتالي خلاف ما قاله، ومشى عليه خليل» [شجرة النور الزكية، 259].

ذكر التنبكتي هذه الفائدة في نيله قائلا: لمّا ذكر خليل في مختصره أنّه لا يقبل شهادة عالم على مثله جريا على ما حكاه ابن عات عن الشعباني لأنهم يتحاسدون كالضرائر، والحسود ظالم لا تقبل شهادته على من ظلمه. قال حلولو: «هذا كلام ساقط ويكفي في إبطاله تناقض بعضه لبعض، لأنّه أثبت لهم وصف الظلم، ومن ثبت ظلمه لا يشهد على أحد ولا تجوز روايته لأنّ الظلم فسق، وهو مانع من الشهادة وذلك يناقض قوله أو لا تجوز شهادته في كل شيء وردُّ شهادتهم على الإطلاق لم يقل به أحد، وقد نقل هذا القول المتّبطي عن الثوري ومالك بن دينار، وهذا الكلام إن أريد به من ثبت ذلك بينهم فغير مختصّ بهم، وإن أريد بذلك العموم فقول معارض لأدلّة الشرع، وما أحسبه يصدر من عالم ولعلّه وهم من النّقلة، وبماذا يخرج نفسه منهم لأنّ قائله إن كان عالما فقد دخل في ذلك فقوله غير مقبول، وإن كان غير عالم فلا عبرة بقوله، وكيف يصحّ أن يقال يحمل هذا العلم من كلّ خلف عدوله، وقد قال ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء» وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: 28]. وقال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ [فاطر: 32]. وأدلّة الشرع طافحة بشرف أهل العلم، فكيف تنسب هذه الأفيوحة إليهم على الإجمال؟ أو

لم يزل الأشياخ قديما وحديثا ينكرون ذلك، ومنهم من يتأوّلها على من ثبت ذلك بينهم، وهو تأويل بعيد لعدم اختصاصه بهم، ولولا أنّ المصنّف يعني خليلا ذكر ذلك ما كتبته وليْته لم يذكره، وفي مختصر ابن عرفة العمل خلافه، وفي أسئلة شيخنا البرزلي كان شيخنا الغبريني ينكر هذا القول. ثم نقل التنبكتي كلام القاضي الفشتالي المخالف لحلولو عندما ترجم له [نيل الابتهاج بتطريز الديباج، 128 ـ 129].

توفي الشيخ أحمد حلولو بتونس سنة 898هـ ودفن بها [مقديش، نزهة الأنظار، 1/ 242؛ الزركلي، الأعلام، 1/ 147؛ الوزير السراج، الحلل السندسية، 1/ 628 ـ 630؛ أضاف محقق نيل الابتهاج عبد الحميد الهرّامة، أعلام ليبيا، 37 ـ 38؛ تاريخ ليبيا الإسلامي، 507؛ مقدمة تحقيق أحمد الخليفي لفتاوى حلولو، نيل الابتهاج، 127].

آثاره

ترك الشيخ أحمد حلولو عدّة مؤلفات فقهية وأصولية، قال أحمد بابا التنبكتي، «له شرحان على المختصر الكبير في ستة أسفار، وقفت على جزء منه حسن مفيد، فيه أبحاث وتحرير، يعتني بنقل التوضيح، وابن عبد السلام، وابن عرفة وينقل الفقه المتين.

وله شرح آخر مختصر في سفرين، وله أيضا شرحان على أصول السّبكي وقفت على الصغير في سفر حسن مفيد، ومختصر نوازل البرزلي في سفر [نيل الابتهاج، 129].

ولقد أحصى محمد محفوظ كتب حلولو، وقدّم محققا كتاب العمر أرقام المخطوطات، وهذا جرد لآثار الشيخ حلولو:

1 ـ شرح ورقات الباجي في أصول الفقه؛ 2 ـ شرح على إشارات الباجي في أصول الفقه؛ 3 ـ البيان والتكميل في شرح مختصر خليل، وهو شرح كبير على المختصر في ستة أسفار: توجد منه عدّة أرقام بدار الكتب الوطنية؛ ـ نسخة في أربعة أجزاء رقم 12347 (2905 أحمديّة) 12348 (2906 أحمديّة) 12349 (2907 أحمديّة) 12350 (2908 أحمديّة)؛ ـ جزءان من نسخة ثانية رقم 13642 (2909 أحمديّة)، 13643 (2910 أحمديّة)؛ ـ نسخة ثالثة جزء أوّل رقم 5359 (10049 عبدليّة).

4 ـ شرح مختصر خليل، وهو شرح صغير يقع في سفرين؛ 5 ـ شرح عقيدة الرسالة؛ 6 ـ شرح كبير على جمع الجوامع لابن السبكي؛ 7 ـ شرح صغير على جمع الجوامع لتاج الدين السبكي يسمّى: الضياء اللامع في شرح جمع الجوامع، توجد منه عدّة نسخ في:

ـ تونس: دار الكتب الوطنية 6210 (2287 عبدليّة)؛ ـ تونس: المكتبة العاشورية (ف. أ) 30؛ ـ الرباط : الخزانة العامة: رقم 415؛ ـ فاس: خزانة القرويين: رقم 639؛ طبع هذا الشرح بالمطبعة الحجرية بفاس سنة 1326هـ/ 1908م بهامش نشر البنود في مراقي السعود لعبد الله إبراهيم العلوي، قال محفوظ: وهو شرح مفيد يبيّن فيه أقوال المالكيّة، ويعضّدها بفروع فقهيّة.

وقام الأستاذ عبد الكريم بن علي النّملة بتحقيق الضياء اللامع والتعليق عليه، طبع بدار الحرمين مصر 1414هـ.

8 ـ مختصر نوازل شيخه البرزلي، «جامع

الأحكام» في سفر أوّله: «هذه مسائل افتتحها مختصره من كتاب شيخنا أبي القاسم البرزلي، وثبته على ترتيب أصله ورمز بحروف لأسماء العلماء، توجد منه نسخة بالمكتبة الوطنية بتونس في 184 ورقة من القطع المتوسّط، وأصلها من المكتبة العبدليّة، وتوجد نسخة أخرى ضمن مجموع بنفس المكتبة، وأرقامها: 3202، 7879/ 2 (1981/ 2 عبدليّة) 8264 (5076 عبدليّة) 8371 (5945 عبدليّة).

- تونس: مكتبة حسن حسني عبد الوهاب 18705؛ - القاهرة: دار الكتب المصريّة رقم 20110 ب؛ - القاهرة: جامع السلطان شيخ رقم 116، ومنها فيلم بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة.

9 - شرح على تنقيح الفصول للشهاب القرافي يسمّى «التوضيح في شرح التنقيح» توجد منه نسخة بدار الكتب الوطنية رقم 1694، 2694، 3715 ونسخة بالمكتبة العاشورية رقم (ف.أ) 38.

وقد طبع الكتاب بتونس سنة 1328هـ/ 1910م بعناية الشيخ محمد النخلي القيرواني، وجاء في خطبته: «فإنّ الباعث على شرح تنقيح الفصول في علم الأصول للشيخ الإمام أبي العباس أحمد بن إدريس الصنهاجي المشهور بالقرافي رحمه الله تعالى ورضي عنه، ما رأيت من تشاغل المريدين لقراءة علم أصول الفقه به دون غيره لما اشتمل عليه من واضح العبارة وبين الدّلالة والإشارة، مع ما فيه من فائدة العزو في بعض المسائل لأهل المذهب، لكنّه مع ذلك في بعض عبارات غير محدّدة، ومسائل عن مورد التحقيق قاصرة، فأحببت تكميل فوائده ورد شوارده وتبيين بعض مقاصده ليكمل الانتفاع بذلك، وسمّيته «التوضيح في شرح التنقيح» [سركيس، معجم المطبوعات، وفيه تحريف، ابن هلولو، 1536؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، 596؛ القرافي، توشيح الديباج، 52؛ البغدادي، هدية العارفين، 1/ 136؛ الكتّاني، تكميل الصلحاء، 13؛ السخاوي، الضوء اللامع، 2/ 261؛ الحجوي، الفكر السامي، 2/ 262؛ مخلوف، الشجرة، 259؛ كحالة، معجم المؤلفين، 1/ 269 - 270؛ ح.ح. عبد الوهاب، كتاب العمر، 810 - 812؛ محفوظ، تراجم المؤلفين، 2/ 165 - 166].

المصادر والمراجع

• البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين في أسماء المؤلفين، دار الفكر 1402هـ؛ • التنبكتي، أحمد بابا، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس 1989؛ • حاجي، خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنّى، بغداد؛ • الحجوي، محمد الثعالبي، الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، مكتبة المدينة المنوّرة 1396هـ؛ • الرّصّاع، أبو عبد الله محمد الأنصاري، فهرست الرصّاع، تح. وتعليق محمد العنّابي، المكتبة العتيقة، تونس 1967؛ • الزركلي، خير الدين، الأعلام، قاموس تراجم، دار العلم للملايين، بيروت 1979م؛ • السخاوي، شمس الدين محمد، الضوء اللامع لأهل

القرن التاسع، ط. القاهرة 1355هـ؛ ● السّراج، محمد الوزير، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، تح محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر 1970؛ ● سركيس، يوسف، معجم المطبوعات؛ ● عبد الوهاب، حسن حسني، كتاب العمر في المصنّفات والمؤلفين التونسيين، مراجعة البشير البكوش ومحمد العروسي المطوي، بيت الحكمة، قرطاج 1990؛ ● القرافي، بدر الدين، توشيح الديباج وحلية الابتهاج، تح. أحمد الشتيوي، دار الغرب الإسلامي، 1983؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت؛ ● الكتّاني، محمد بن صالح عيسى، تكميل الصّلحاء والأعيان لمعالم الإيمان في أولياء القيروان، تح. محمد العنّابي، المكتبة العتيقة، تونس 1970؛ ● محفوظ، محمد، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي 1982؛ ● مخلوف، محمد، شجرة النور الزكيّة في طبقات المالكية، دار الفكر، بيروت؛ ● مقديش، محمود، نزهة الأنظار، دار الغرب الإسلامي؛ ● الهرّامة، عبد الحميد، الإشراف على تح. نيل الابتهاج للتنبكتي، منشورات كلية الدعوة الإسلامية 1989.

د. محمد بوزغيبة
جامعة الزيتونة ـ تونس

الحلوي، أبو عبد الله محمد الشوذي الإشبيلي

(ق 7هـ/13م)

أبو عبد الله محمد الشوذي الإشبيلي شهر بالحلوي، قاض وفقيه وشاعر وصوفي، نزيل تلمسان، وبها توفي ودفن خارج باب علي، وقبره مزار إلى حد الآن. وكان قد بنيت عليه زاوية أيام الزيانيين.

لقد كان الحلوي من العلماء الذين عمّروا، فلقد توفي وسنه تزيد على المائة سنة حسب ما جاء على لسانه قائلا لأحد تلامذته إن سنه مائة وعشرون سنة [شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، 23/ 316].

أصله من الأندلس، وينسب إلى إشبيلية التي تولى بها القضاء للموحدين في آخر دولتهم. ثم ترك القضاء لأسباب نجهلها، وانتقل إلى المغرب واستقر بتلمسان، فكان يبيع الحلواء للصبيان الصغار في طبق عود لذلك سمي بالحلوي، وبهذا الاسم اشتهر [يحيى بن خلدون، بغية الرواد، ص127]. ولقد وصفه أحد تلامذته فقال: «عندما يمر بالصبيان ينقرون له فيدور ويشطح، وربما أنشد مقطعات متفرقة الألفاظ في معنى المحبة»

[ابن مريم، البستان، ص68]. وشوهد عندما يبيع الحلواء يأخذ شيئا من ثمنها ويشتري به خبزا ويتصدق به على يتيم [بغية الرواد، ص127].

وعندما أوى الحلوي إلى تلمسان، وكان في زيّ المجانين، انعزل وانصرف للعبادة [م. س، ص128]: وتعيّش من حمل السمك، فلقد كان له زنبيل يحمل به السمك بالأجرة بسوق السماكين في تلمسان [سير النبلاء، 23/ 315].

لقد ظل الحلوي يأخذ العلوم النقلية مدة أربعين سنة. ثم ترك الإقراء إلى تأويل القرآن تأويلا باطنيا صوفيا [م. س، 23/ 316]، غير أننا لا ندري شيوخه الذين أخذ عنهم إذ لم يذكرهم كل الذين ترجموا له.

كان الحلوي قميئا قصير القامة حسب وصف تلميذه أبي إسحاق بن إبراهيم بن يوسف بن دهاق المعروف بابن المرأة الذي أخذ عنه تأويل القرآن في تلمسان [بغية الرواد، ص127] .

لقد كان يسيح في بعض الأحيان لمدة طويلة تبلغ السنة ثم يعود. وذكر تلميذه ابن المرأة أنه لم يره أحد يصلي قط إلى أن رآه في المصلى في عيد الفطر. كما أنه لم يره إلا صائما [سير أعلام النبلاء، 23/ 315]. وكان صاحب أحوال وكرامات بلغ بها مرحلة الكشف وهو ما يرويه تلميذه الذي شهد ذلك عندما التقى به يوم عيد الفطر حينما قدم له حلوة المشهدة التي كانت تصنع في الأعياد الدينية [البستان، ص69].

وإلى جانب ابن المرأة تتلمذ على الحلوي تلاميذ كثيرون في تلمسان وتونس، فتلميذه ابن المرأة كان يأخذ عنه تفسير القرآن في مسجد خارج باب القرمدين [البستان، ص69]، ولقد وصف تفسيره بأنه «تفسير عجيب مدهش يأتي بمعاني تبهر» [سير أعلام النبلاء، 23/ 316].

إن معظم أخبار الحلوي وصلتنا عن طريق تلميذه ابن المرأة الذي انتقل من الأندلس لزيارة عمة له في تلمسان فالتقى به وأخذ عنه [بغية الرواد، ص127]. وكان ابن المرأة عندما طلب منه أن يأخذ عنه العلم دلّه على أحد الشيوخ في مدينة تونس، فسافر إلى تونس والتقى بهذا الشيخ وطلب منه القراءة عليه فسأله عن بلده وعندما أخبره أنه من تلمسان قال له : عليك بشيخي فيها أبي عبد الله الشوذي [م. س، ص128].

لقد كان علم الحلوي علما باطنيا، لهذا كان شديد الانتقاد للطلبة الذين لا يأخذون إلا مسائل العبادات من «مدونة» الإمام سحنون ابن سعيد التنوخي - إمام المذهب المالكي في المغرب - مثل ابن المرأة الذي انتقده الحلوي عندما شاهده يدرس كتاب الطهارة من المدونة بالجامع، فقال له يوما: «إلى كم ذا غسل وحيض ونفاس؟» [م. س]. كما كان ينتقد من يراه منكبا على المدونة فقط فيقول له: «إلى متى وأنتم لا تأخذون إلا هذه المسائل» [م. س]. وعندما سأله عن العلوم التي يمتلكها أخبره بأنه يحفظ القرآن بالروايات، فقال له: لا ، حتى تعلم تأويله بالحقيقة [سير أعلام النبلاء، 23/ 115]. هذه الانتقادات هي التي جعلت ابن المرأة يأخذ عنه في كهف كان يأوي إليه الحلوي خارج تلمسان، أو مسجد خارج باب القرمدين.

ولقد وصف لنا ابن المرأة إحدى جلساته العلمية مع شيخه، فقال: فسر لي «سورة البسملة» وفصلها في عشرة أيام. وإلى جانب تفسير القرآن وتأويله أخذ عليه الحديث والأدب لمدة عامين كاملين [بغية الرواد، ص127]، غير أنه وعندما طلب منه أن يأذن له بتدوين ما أخذ عنه رفض ذلك.

ومن العلوم التي كان للحلوي مشاركة فيها الطب فإنه كان من علماء التشريح حسب ما جاء في إحدى مصنفاته في هذا الفن والتي لا تزال مخطوطة تحتفظ بها إحدى العائلات في مدينة تلمسان. ومع كل هذا يظل الحلوي الصوفي والقاضي من الشخصيات التي يكتنف حياتها الغموض، وتحتاج إلى الكثير من الدراسة والتنقيب عما هو مضمر ولإبراز مكانته ودوره في الحياة الفكرية في تلمسان في عصر الزيانيين. ومن هذه القضايا الغامضة، قضية تقطبه قبل وفاته [سير أعلام النبلاء، 23/ 316].

آثاره

إن عدم سماح الحلوي لتلامذته بتدوين ما يأخذون عنه هو سبب عدم وصول مصنفات هذا الصوفي وأخباره لنا كاملة. فكل ما وصلنا وعن طريق تلميذه ابن المرأة هو بضعة أبيات شعرية حفظها عنه مما يدل على أنه كان شاعرا فحلا وهذه الأبيات هي:

إذا نطق الوجودُ أصاخَ قوم بآذان إلى نطق الوجود
وذاك النطقُ ليس به انْعجام ولكن جلَّ عن فهم البليد
فكن فطِنا تُنادَى من قريب ولا تك من يُنادَي من بعيد

إن الناظر في هذه الأبيات يتبين له جليا المنحى الصوفي الباطني الذي سلكه الشوذي وهو علم الحقيقة.

المصادر والمراجع

● ابن خلدون، أبو زكريا يحيى، بغية الرواد في ذكر ملوك بني عبد الواد، تح. عبد الحميد حاجيات، منشورات المكتبة الوطنية، الجزائر1980، ص 127 ـ 128؛ ● ابن مريم، أبو عبد الله محمد بن محمد، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1986، ص 68 ـ 69؛ ● الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، ط1، مؤسسة الرسالة، بيروت 1985، 23/ 315 ـ 316.

د. بوبة مجاني
جامعة منتوري قسنطينة ـ الجزائر

الحلّي، تقي الدين أبو محمد الحسن بن علي

(647هـ/1249م ـ 740هـ/1339م)

هو تقيّ الدين أبو محمد الحسن بن علي ابن داود الحلي، ولد بالحلة في الخامس من جمادى الآخرة لسنة 647هـ [عباس القمي، الكنى والألقاب، 1/ 282]. نشأ وتعلم بها عن كبار مشائخها ذكر في مقدمة كتابه الرجال عددًا منهم مثل جمال الدين أحمد بن طاووس، وعبد الكريم ابن طاووس، ومفيد الدين محمد بن جهم الأسدي. نبغ في عصره وشاعت شهرته وأخذ عنه علوم الدين والأدب جماعة ذكر منهم: رضيّ الدين أبا الحسن علي بن أحمد الحلي، وزير الدين علي بن طراد المطار الأبادي [علي الخاقاني، شعراء الحلة، 1/ 278].

كان عالمًا في اللغة وعلوم الدين. قال كحالة: «الحسن بن علي بن داود الحلي تقي الدين أبو محمد عالم مشارك في النحو، والصرف، والمعاني، والبيان، والبديع، والعروض، والتفسير، والرجال، والفقه، والأصول، والأدب، ولد بالحلة في خمسة جمادى الآخرة» [كحالة، معجم المؤلفين، 3/ 253 ـ 254].

وأشاد بذكره أصحاب التراجم. قال فيه العاملي في [أعيان الشيعة، 22/ 335]: «عالم فاضل جليل فقيه صالح محقق متبحّر يوصف في الإجازات بسلطان الأدباء والبلغاء وتاج المحدّثين والفقهاء، كان معاصرًا للعلامة الحلي وشريكًا له في الدرس والعلامة أكبر منه نسبة» [علي الخاقاني، م.س، 1/ 278 ـ 279].

وذكر صاحب كتاب «شعراء الحلة» روايات أخرى، قال: وذكره الخوانساري في الروضات [1/ 177] فقال: يروي عنه الشهيد بواسطة الشيخ علي بن أحمد المزيدي وابن معية وأمثالهما. وقال العاملي في كتابه أمل الآمل: كان عالمًا فاضلا جليلا صالحًا محققًا متبحّرًا من تلامذة المحقق نجم الدين الحلي... وذكره الشهيد في إجازته للحسن بن عبد الصمد العاملي فقال: الشيخ الفقيه الأديب النحوي العروضي ملك العلماء والشعراء والأدباء صاحب التصنيفات الغزيرة والتحقيقات الكثيرة التي من جملتها كتاب الرجال سلك فيه مسلكًا لم يسلكه أحد من الأصحاب ومن وقف عليه علم جلية الحال فيما أشرنا إليه، وله من التصانيف في الفقه نظمًا ونثرًا مختصرًا ومطوّلا وفي اللغة العربية، والمنطق، والعروض، وأصول الدين ما يقارب الثلاثين مصنفًا في غاية الجودة... وذكره السيد مصطفى التفريشي في كتابه «نقد الرجال» فقال: من أصحابنا المجتهدين شيخ جليل من تلاميذ الإمام المحقق وابن طاووس له أزيد من ثلاثين كتابًا نظمًا ونثرًا وله في علم الرجال كتاب حسن الترتيب إلا أنّ فيه أغلاطًا كثيرة غفر الله له [شعراء الحلة، م.ن، 1/ 278 ـ 279].

أمّا عن وفاته فكانت سنة أربعين وسبعمائة للهجرة قال صاحب الحلية: «ذكر الحجة الأمين في أعيانه نقلا عن الطليعة للسماوي أنّه توفي سنة نيف و740هـ ولقد حاولت أن أعثر على مصدر غير هذا يذكر تاريخ وفاته فلم أجد رغم كثرة من كتب عنه» [م.ن، ص280].

ذكر البغدادي في إيضاح المكنون أنه توفي بعد سنة 700هـ [م.س، 4/ 529]. وفي المجلد الثالث ص 35 و386 و416 ذكر أنّه توفي سنة عشرة وسبعمائة.

آثاره

ذكرت كتب التراجم عددًا من مؤلفات الحسن الحلي. قال كحالة: «من تصانيفه: تحصيل المنفعة في الفقه، وأحكام القضية في المنطق، وخلاف المذاهب الخمسة، ومختصر الإيضاح في النحو وكتاب الرجال» [معجم المؤلفين، 3/ 254].

وقال صاحب شعراء الحلة: خلف آثارا قيمة تلف معظمها ولم يبق منها إلا كتاب الرجال الذي سنعرفه بالأخير بصورة خاصة وإليكم أسماؤها حسبما ذكرها هو بنفسه في رجاله:

1 ـ تحصيل المنافع في الفقه؛ 2 ـ التحفة السعدية؛ 3 ـ المقتصر من المختصر؛ 4 ـ الكافي؛ 5 ـ النكت؛ 6 ـ الرايع؛ 7 ـ خلاف المذاهب الخمسة؛ 8 ـ تكملة المعتبر، لم يتم؛ 9 ـ الجوهرة في نظم التبصرة أولها:

الحمد لله الذي تقادما ... سلطانه وشأنه معظما

10 ـ اللمعة في الصلاة؛ 11 ـ عقد الجواهر في الأشباه والنظائر، (نظمًا)، ذكر صاحب الروضة أنه رآه في بلدة إيران بخط الكفعمي صاحب المصباح؛ 12 ـ اللؤلؤ في خلاف أصحابنا، لم يتم؛ 13 ـ الرائض في الفرائض، (نظمًا)؛ 14 ـ عدّة الناسك في قضاء المناسك، (نظمًا)؛ 15 ـ الدر الثمين في أصول الدين، (نظمًا)؛ 16 ـ الخريدة العذراء في العقيدة الغراء، (نظمًا)؛ 17 ـ الدرج؛ 18 ـ إحكام القضية في المنطق؛ 19 ـ حل الإشكال في عقد الأشكال في المنطق؛ 20 ـ البغية في القضايا؛ 21 ـ الإكليل التاجي في العروض؛ 22 ـ قرّة عين الخليل في شرح النظم الجليل لابن الحاجب في العروض أيضًا؛ 23 ـ شرح قصيدة صدر الدين الساري في العروض؛ 24 ـ مختصر الإيضاح في النحو؛ 25 ـ حروف المعجم في النحو؛ 26 ـ مختصر أسرار العربية في النحو؛ 27 ـ المنهج القويم؛ 28 ـ منظومة في علم الكلام؛ 29 ـ الرجال، ويقع في جزأين رتب كل واحد منهما على حروف المعجم، وقد خصّ الأول بطبقة الثقاة والمهملين من الرجال، أوله بعد البسملة: الحمد لله الذي وفقني للتخلي عن الحركات الدنيوية والنظر في المهمات الأخروية ويقع في 201 صفحة.

والجزء الثاني: خصه بالمجهولين والمجروحين من الرجال وأوّله بعد البسملة: أما بعد حمد الله على أفضاله والصلاة على سيدنا محمد النبي وآله. ويقع في 111 ص وقد نقص من أوّل الجزء الأول 11 ص أكملها العلامة السيد سعيد الحكيم، وذلك

بإيعاز من الحجة المرحوم الشيخ عبدالله المامقاني عندما استعاره من مكتبة العلامة السيد عبد الرسول الخرساني. ويوجد الكتاب بمكتبة كاشف الفضاء تحت رقم 64 من فهرست التراجم والرجال. والنسخة قد اختلفت عليها أيدي الخطاطين وتاريخ الفراغ منها 22 جمادى الأولى سنة 1036هـ ويقع في 326 ص عدد سطور ص 15 طوله 5، 19 سم وعرضه 5، 12 سم سمكه 2 سم [شعراء الحلّة م. ن، ص 280 ـ 281].

وذكر صاحب إيضاح المكنون ثمانية من مؤلفاته فذكر في الجزء الأول: أحكام الفقيه من كتب الشيعة [إيضاح المكنون، 1/ 35]، الجوهرة في نظم التبصرة [م.ن، ص 386]، حلّ الإشكال في عقد الأشكال [م.ن، ص 416]، الخريدة العذراء في العقيدة الغراء [م.ن، ص 428]، الرائض في الفرائض [م.ن، ص 548]. وذكر في الجزء الثاني: عدة الناسك في قضاء المناسك [إيضاح المكنون، 2/ 96]، عقد الجواهر [م.ن، ص106]، المقتصر في المختصر [م.ن، ص 529].

المصادر والمراجع

● الخاقاني علي، شعراء الحلة والبابليات، ج1، المطبعة الحيدرية في النجف، 1370هـ؛ ● القمي، عبّاس، الكنى والألقاب، ج1، ط2، مؤسسة الوفاء، بيروت 1403هـ/ 1983م؛ ● البغدادي، إسماعيل، إيضاح المكنون، م3 و4 دار الفكر 1402هـ/ 1982م؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، قاموس تراجم، مكتبة المثنى، دار إحياء التراث، بيروت؛ ● الزركلي، الأعلام قاموس تراجم، ط8، ج2، دار العلم للملايين، بيروت، 1989.

د. حراث بوعلاقي
جامعة الزيتونة ـ تونس

الحلّي، جمال الدين أبو منصور، الحسن بن المطهر

(648هـ/1250م ـ 726هـ/1326م)

الحسن بن المطهر المعروف بالشيخ جمال الدين أبو منصور الحلي العراقي الأسدي، عرف أيضا بالعلامة، وهو من أئمة الشيعة في الفقه والأصول والكلام. ولد في مدينة الحلة في 19 رمضان سنة 648هـ/ 1250م، وتوفي في ليلة السبت 21 من المحرم سنة 726هـ/ 1326م. وينتمي إلى عائلة آل المطهر الحلي التي هي من ألمع الأسر الحلية حينذاك، وكان كبيرها الشيخ أبو المظفر يوسف بن شرف الدين علي بن المطهر الذي كان فقيها محققا ومن كبار مدرسي الحلة في عصره. وابن المطهر هذا هو الابن الأكبر لشيخ أسرة آل المطهري هذه.

تلقى دراسته على والده الشيخ سديد الدين

يوسف، وخاله المحقق الحلي، وابن عم والدته الشيخ نجيب الدين يحيى، وكان كثير الترحال في طلب العلم والمعرفة فسافر إلى مراغة الأذربيجانية، حيث درس في مدرستها المشهورة آنئذ على يد مؤسسها الشيخ نصير الدين الطوسي وكان الحلي أحد متخرجي تلك المدرسة، التي حوت على أكبر المراصد الفلكية وكان فيها الكثير من علماء الفلك والحكمة والمنطق والفقهاء والأطباء. ومن المؤكد أنّ الحلي كان قد تلقى علومه المختلفة على أيدي أولئك الأساتذة الأجلاء في تلك المدينة الكبيرة - مراغة - عاصمة المغول آنئذ. كما تتلمذ على برهان الدين التقي، والنبيل الشافعي، وتقي الدين الصباغ الحنفي، وشمس الدين الكشي. وقد تلقى عن هؤلاء المشايخ علوم العربية والأدب والفقه والأصول والكلام والجدل، [مبادئ الوصول إلى علم الأصول، مقدمة المحقق 14]، وقيل إنه حج في أواخر عمره، فالتقى بابن تيمية في المسجد الحرام، وتذاكرا فأعجب ابن تيمية بكلامه. فقال له : من تكون يا هذا؟ فقال : الذي تسميه بابن المنجس، فحصل بينهما أنس ومباسطة، لكن محقق منهاج السنة لابن تيمية استبعد حصول هذا اللقاء. وكان ابن تيمية ممن هاجموه في كتابه المعروف بالردّ على الرافضين ردّا على كتابه في الإمامة الذي دافع فيه عن الخليفة الرابع علي بن أبي طالب ﷺ واعتبره الإمام الأوّل، وأنّ خلافة من سبقه من الخلفاء الثلاثة (أبا بكر، وعمر، وعثمان) باطلة.

عاش ابن المطهر في مدينة الحلة التي اعتبرها بعض المؤرخين أنها وريثة مدينة بابل التاريخية، وعاش في عصر سيطرة الغزاة المغول على العراق وفي فترة ازدهار دولتهم. وقد نجت مدينة الحلة من زحف المغول المدمر بحكمة بعض أهلها، ولذلك استمرت ثقافة هذه المدينة واحتفظت بجزء من الإرث الحضاري الكبير والعريق لبغداد مقر الخلافة العباسية، وعلى ما يذكر ابن الفوطي أن مثقفي الحلة كانوا يجلبون الأطعمة إلى بغداد ويبتاعون بأثمانها الكتب النفيسة، مما أعطى لهذه المدينة - مسكن الحلي - زخما من العلوم والمعارف.

ولما كان المغول في فترة وجود ابن المطهر في مدينته قد تجاوزوا مرحلة البربريّ وكانوا يهدفون إلى الحفاظ على مركزهم بالعراق وكانوا قد بهرت أبصارهم الفلسفة بجوانبها التطبيقية، لذلك شجعوا الأخذ بها، وكان ابن المطهر يعكس ثقافة عصره ويظهر في أسلوبه نتائج تلك الفلسفة. لذلك بدت مصنفاته محملة بذلك التيار الذي عمّ العصر كله، ولذلك ظهر في شخصه العلوم العقلية الفلسفيّة والعلوم النقلية في وقت واحد. وقد وصفه أحد معاصريه وهو الحسن بن داود في كتابه (الرجال) بقوله: «انتهت إليه رئاسة الإمامية في المعقول والمنقول».

لقد كان ابن المطهر الحلي من كبار أئمة الشيعة الإمامية، وقد أخذ على عاتقه تثبيت تلك الدعوة في العراق، وكانت له مجالس كثيرة في الحلة يعقدها لذلك الغرض وتخرج على يديه العديد من العلماء والفقهاء والدعاة. ومن تلاميذه ولده فخر المحققين، والشيخ تقي الدين البصري، والشيخ علي بن

الحسن الإمامي، والشيخ محمد بن علي الجرجاني، وكان له تأثير كبير على الملك الجايتو خدبنده من ملوك الدولة الإيلخانية من أحفاد جنكيزخان، فقد تحول على يديه من مذهب السنّة إلى مذهب الشيعة حوالي سنة 709 هـ وبعد هذا التحول أقطع أراضي كثيرة [روضات الجنات، 175؛ البداية والنهاية 14/ 130؛ منهاج السنة 1/ 88 ـ 99 مقدمة التحقيق].

آثاره

ألف الحلي كتبا كثيرة، وقد صنف في النحو، والأصول، والحكمة [الدرر الكامنة، 2/ 70]، وفقه الشريعة، وأصول الفقه، والحكمة العقلية (الفلسفة)، وأصول الدين، وعلم الكلام، والجدل [أعيان الشيعة، 24/ 279] ويقال إن تصانيفه تزيد على مائة وعشرين مجلدا، وعددها خمسة وخمسون مصنفا [البداية والنهاية، 14/ 129] ومن أهمها:

1 ـ أنوار الملكوت في شرح الياقوت ـ مخ؛ 2 ـ الأبحاث المفيدة في تحصيل العقيدة ـ مخ؛ 3 ـ منهاج الكرامة في إثبات الإمامة، ألفه للملك خد بنده، ورد عليه ابن تيمية في كتاب منهاج السنّة، طبع بطهران في حوالي 90 صفحة سنة 1880؛ 4 ـ كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين؛ 5 ـ نهاية المرام في علم الكلام؛ 6 ـ استقصاء النظر في القضاء والقدر ـ مخ؛ 7 ـ الأسرار الخفية في المنطق والطبيعيات والإلهيات ـ مخ. ثلاثة أجزاء في المكتبة الحيدرية بالنجف؛ 8 ـ المقامات في الحكمة ناقش فيه من سبقه من الحكماء؛ 9 ـ إيضاح التلبيس من كلام الرئيس ـ ابن سينا؛ 10 ـ تبصرة المتكلمين في أحكام الدين ـ ط؛ 11 ـ قواعد الأحكام في معرفة الحلال والحرام ـ ط؛ 12 ـ منتهى الطلب في تحقيق المذهب ـ ط. سبع مجلدات؛ 13 ـ تلخيص المرام في معرفة الأحكام مخ؛ 14 ـ تحرير الأحكام الشرعية على مذهب الإمامية ـ ط. أربعة أجزاء؛ 15 ـ تذكرة الفقهاء ـ مخ؛ 16 ـ رجال ابن داود ـ ط؛ 17 ـ خلاصة الأقوال في معرفة الرجال ـ ط؛ 18 ـ الاشتباه في معرفة الرواة ـ ط؛ 19 ـ مصابيح الأنوار؛ 20 ـ استقصاء الاعتبار؛ 21 ـ تهذيب الوصول إلى علم الأصول ـ ط؛ 22 ـ نهاية الوصول إلى علم الأصول ـ مخ؛ 23 ـ مبادئ الوصول إلى علم الأصول، طبع في بيروت بتحقيق عبد الحسين علي البقال سنة 1406هـ/ 1986م؛ 24 ـ كنز العرفان في فقه القرآن؛ 25 ـ نهج الإيمان في تفسير القرآن، السر الوجيز في تفسير القرآن العزيز؛ 26 ـ المطالب العلية في علم العربية. . .

المصادر والمراجع

● ابن كثير، إسماعيل، البداية والنهاية، تح. أحمد أبو ملحم وآخرين، بيروت، دار الكتب العلمية، 1407هـ/ 1987م؛ ● ابن حجر العسقلاني، أحمد، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، بيروت، دار الجيل؛ ● ابن العماد، عبد الحي، شذرات الذهب، بيروت، دار الفكر، 1399هـ/ 1979م؛ ● الجزائري، عبد النبي، حاوي الأقوال في معرفة الرجال،

طهران، مؤسسة الهداية، 1318هـ؛ • الخوانساري، محمد باقر، روضات الجنات، بيروت، دار المعرفة؛ • العلامة الحلي، الحسن، مبادئ الوصول، تح. عبد الحسين محمد علي البقال، بيروت، دار الأضـواء، 1406هـ/ 1986م؛ • العاملي، محسن أمين، أعيان الشيعة، دمشق، مطبعة ابن زيدون، 1359هـ/ 1940م؛ • الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، 1389هـ/ 1969م؛ • دائرة المعارف الإسلامية، ط. ج، م 3، فصل الحلّي.

د. عبد السلام البلاجي
جامعة محمد الخامس ـ الرباط ـ المغرب
د. دريد عبد القادر نوري
جامعة الموصل ـ العراق

الحِلّي شميم، علي بن الحسن

(ت 601هـ/ 1204م)

هو علي بن الحسن بن عنتر الحلّي. شاعر لغويّ، وله تصانيف أدبيّة، منها كتابه «الأنيس في غرر التجنيس».

كان شميم الحلّي أديبا فاضلا خبيرا بالنحو واللغة وأشعار العرب، حسن الشعر، وكان اشتغاله ببغداد على أبي محمّد بن الخشاب ومن في طبقته من أدباء ذلك الوقت، سافر إلى ديار بكر والشام، ومدح الأكابر، وأخذ جوائزهم، واستوطن الموصل. وكان كثير الدعاوي، مقيم الفشار، يشتم أبا تمّام وأبا العلاء ويزري بامرئ القيس، فهو في عداد مجانين الفضلاء. كان يتكلّم في الأنبياء، ويستخفّ بمعجزاتهم، وعارض القرآن، وكان إذا تلاه يخشع ويسجد له.

طرح المحقّق هلال ناجي مسألة نسبة كتاب «الأنيس في غرر التجنيس» إلى شميم الحلّي، فهو يرى نسبة هذا الكتاب إلى الثعالبي مقدّما لذلك فروضا نظريّة، وما دام الأمر في مجال الفروض والاحتمالات، وما دام لم يقدّم مبرّرا علميّا لنسبة الكتاب في نسخة دار الكتب المصريّة إلى غير شميم الحلّي، فإنّا لا نملك إلّا التسليم بأنّ الكتاب لشميم الحلّي إلى أن يظهر الدليل العملي القاطع على أنّه لغيره وليس له. ولا أظنّ أنّ مصنّفي دار الكتب المصريّة قد وهموا في نسبة كتاب «أنيس الجليس» لشميم ـ كما يفترض هلال ناجي ـ وإلّا فإنّ لدى دار الكتب المصريّة ثماني نسخ خطيّة للثعالبي من كتاب «أحباس التجنيس» ما يبعد الظنّ بالتباس الأمر على من نسب كتاب «أنيس الجليس» إلى شميم الحلّي.

آثاره

جمع كتابا من نظمه سمّاه «الحماسة» مرتّبا

على أبواب الحماسة لأبي تمّام، وله تصانيف منها:

1 ـ مناقب الحكم ومثالب الأمم (مجلّدان)؛ 2 ـ شرح المقامات الحريريّة؛ 3 ـ الأماني في التهاني؛ 4 ـ التعازي في المرازي؛ 5 ـ المخترع في شرح اللّمع لابن جنّي؛ 6 ـ المنائح في المدائح (مجلدان)؛ 7 ـ الأنيس في غرر التجنيس.

يقول شميم الحلّي في مقدّمة «الأنيس في غرر التجنيس»: . . أمّا بعد حمد اللّه وشكره والصلاة على من لا تتمّ الصلاة إلّا بذكره، محمّد وآله، فإنّ أشرف التحف عند من جعله الله أوحد زمانه، وخصّه بسبق الأقران في قرانه، كالشيخ الأمير السيّد، تحفة تجمع أبكار الأفكار، وتنظم أسرار الأسفار، وتسحر القلوب بنثار النثر وشعار الشعر المختار، إلى أن تسنّح لي نظم هذه التحفة، وطيّها على محاسن التجنيسات المركّبة، التي استظرفها المولّدون من أهل خراسان فأحسنوا فيها كلّ الإحسان، واستكثر منها العصريّون منهم فقالوا ما قيل إنّه السّحر لا كذب. وبعدُ، فإن أجناس التجنيس كثيرة وأقسامها جمّة، وترجمتها بكتاب «الأنيس في غرر التجنيس» وبوّبتها عشرين بابا، هذا ثبتها، واللّه المعين على إتمامها.

والأبواب هي: ـ ما جاء منه في الفخر ـ ما يختصّ بمدح الملوك ـ سائر الممادح ـ العتاب والاعتذار ـ سائر الإخوانيات ـ الزيارة والعيادة ـ الاستماحة والشكر ـ شكوى الحال والزمان ـ ما جاء منه في الأهاجي ـ ما يختصّ منه بوصف الحبيب ـ ما يختصّ بأحوال الحبيب ـ الطعام والشراب ـ الفصول الأربعة ـ المداعبات ـ الشيب والكبر ـ المراثي ـ الحكم والمواعظ ـ أشتات التجنيس ـ التلميع ـ لمع من التجنيس المنثور.

المصادر والمراجع

- الذهبي، سير أعلام النبلاء، طبعة جامعة الدول العربيّة، 21/ 411؛
- القفطي، إنباه الرواة، ط. دار الكتب المصريّة 1371هـ/ 1952م، 2/ 243؛
- ابن خلّكان، وفيّات الأعيان، ط. مكتبة النهضة المصريّة، 1948، 3/ 26؛
- الزركلي، الأعلام، ط2، 5/ 83.

د. مصطفى الصاوي الجويني
جامعة القاهرة ـ مصر

الحلّي، المحقق أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن

(602هـ/1205م - 676هـ/1277م)

أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن بن أبي زكريا يحيى بن الحسين بن سعيد الهذلي الشهير بالمحقق الحلي، أشهر زعيم ديني ظهر في عصره، عالم وفقيه إمامي أصولي، ومتكلّم، وأديب. يعرف بالمحقق والمحقق الحلي. ولد في الحلة عام 206هـ/1205م. تلقى العلم على شيوخ عصره وأبرزهم: نجيب الدين محمد بن جعفر بن أبي البقاء هبة الله بن نما الحلي الربعي (ت 634هـ/ 1236م) [أمل الآمل، 1/ 103]؛ وفخار بن معد الموسوي (كان حيا 630هـ/ 1232م) [أمل الآمل، 1/ 103]؛ ووالده الحسن بن يحيى بن الحسن بن سعيد، وذكر الحر العاملي في أمل الآمل أنه يروي عن أبيه عن جدّه يحيى الأكبر؛ الشيخ مفيد الدين محمد بن جهم الحلي [أعيان الشيعة، 15/ 383].

وكانت حصيلة هذه الرسالة أنْ أصبح المحقق عالما فاضلا، أشادت مصادر ترجمته بمكانته العلمية، وأثنت عليه، فقد قالوا فيه الكثير. ومن ذلك ما وصفه به الحسن بن داود (ت في حدود 740هـ/ 1339م) أحد تلاميذه قال: «كان ألسن أهل زمانه وأقومهم بالحجة وأسرعهم استحضارا، قرأت عليه وربّاني صغيرا وكان له عليّ إحسان عظيم والتفات، وأجاز لي جميع ما صنفه وقرأه ورواه وكل ما يصحّ روايته عنه» [أعيان الشيعة، 15/ 372].

وقيل عنه أيضًا: الشيخ المحقق قدس الله روحه وإليه انتهت رياسة الشيعة الإمامية، وحضر مجلس درسه بالحلة نصير الدين محمد الطوسي (ت 672هـ/ 1273م)، فقطع المحقق الدرس إجلالا لمنزلته والتمس منه الطوسي إتمام الدرس فجرى البحث في استحباب التياسر قليلا لأهل العراق عن يمين القبلة فأورد الطوسي بأنه لا وجه لهذا الاستحباب لأن التياسر إن كان من القبلة إلى غير القبلة فهو حرام، وإن كان من غيرها إليها فهو واجب، فقال المحقق الحلي: التياسر منها إليها، فسكت الطوسي [لؤلؤة البحرين، 230]، ويوضح السيد محسن الامين هذا الجواب بالقول:

يرجح أن ذلك مبني على أن الكعبة قبلة من في المسجد، والمسجد قبلة من في الحرم، والحرم قبلة من في الدنيا، ولما كان الحرم عن يسار الكعبة أكثر منه عن يمينها لأنه عن يسارها ثمانية أميال، وعن يمينها أربعة أميال، استحب التياسر قليلا لكونه أقرب إلى الظن باستقبال الحرم، فالتياسر في الحقيقة احتياط لتحصيل الظن بالاستقبال [أعيان الشيعة، 15/ 375].

وقد ألّف المحقق الحلي رسالة عنوانها «التياسر»، ذكرها محسن الأمين بكاملها في [أعيان الشيعة، 15/ 377 - 382]. وقال عنه الحر العاملي: الشيخ الأجل المحقق..

حاله في الفضل والعلم والجلالة والتحقيق والتدقيق والفصاحة والشعر والأدب والإنشاء، وجمع العلوم والفضائل والمحاسن أشهر من أن يذكر، وكان عظيم الشأن، جليل القدر، رفيع المنزلة لا نظير له في زمنه [أمل الآمل، 36].

وقيل فيه أيضًا: محقق الفضلاء، ومدقق العلماء، وحاله في الفضل والنبالة والعمل والفقه والجلالة والفصاحة والشعر والأدب والإنشاء أشهر من أن يذكر، وأظهر من أن يسطر، كفاه جلالة قدر اشتهاره بالمحقق، فلم يشتهر من علماء الإمامية على كثرتهم في كلّ عصر بهذا اللقب غيره وغير الشيخ علي بن عبد العاملي الكركي، وما أخذ هذا اللقب إلا بجدارة واستحقاق [لؤلؤة البحرين، 227].

هذه المكانة التي نالها المحقق جعله مقصدا لطلاب العلم، فقد درس عليه عدد منهم: عز الدين الحسن بن أبي طالب اليوسفي الآبي صاحب كشف الرموز [أعيان الشيعة، 15/ 383]؛ الحسن بن داود الحلي صاحب كتاب الرجال (ت في حدود 740هـ/ 1339م)؛ الحسن بن يوسف بن المطهّر الحلّي العلامة ابن أخته (ت 726هـ/ 1325م) [لؤلؤة البحرين، 234]؛ صفي الدين عبد العزيز بن سرايا الحلّي الطائي الشاعر المعروف (ت 750هـ/ 1349م). وللشيخ علي الحزين (ت 1181هـ/ 1767م) [الدرر الكامنة، 2/ 326]، كتاب أخبار صفي الدين ونوادره؛ غياث الدين عبد الكريم بن أحمد ابن طاووس (ت 693هـ/ 1294م) صاحب كتاب «فرحة الغري» [أعيان الشيعة، 15/ 383]؛ الوزير الشرف الدين أبو القاسم علي بن الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي وزير المستعصم بالله العباسي [روضات الجنات، 2/ 184]؛ فخر الدين محمد بن أحمد العاملي الشامي [أعيان الشيعة، 15/ 384]؛ جلال الدين محمد بن علي بن طاووس صاحب كتاب «المحجة لثمرة المهجة» [روضات الجنات، 2/ 183]؛ جلال الدين محمد بن محمد الكوفي الهاشمي الحارثي [روضات الجنات، 2/ 183]؛ رضي الدين علي بن يوسف أخوه صاحب كتاب العدد القوية [أعيان الشيعة، 15/ 384]؛ جمال الدين محمد بن علي القاشي [أعيان الشيعة 15/ 384]؛ شمس الدين محمد صالح السيبي القسيني [أعيان الشيعة، 15/ 383]؛ صفي الدين محمد بن نجيب الدين يحيى بن أحمد بن يحيى بن الحسين بن سعيد ابن عمّه [أعيان الشيعة، 15/ 383]؛ الشيخ شمس الدين محفوظ بن وشاح بن محمد الحلي [روضات الجنات، 2/ 184]؛ جمال الدين يوسف بن حاتم الشامي صاحب «الدر النظيم في مناقب الأئمة اللهاميم» [أعيان الشيعة، 15/ 383].

ذكرت مصادر ترجمته بأن وفاته كانت سنة 676هـ/ 1277م وقيل في سبب وفاته أنّه سقط من أعلى درجة في داره فخرّ ميّتا لوقته، وفجع الناس بوفاته ونقل إلى مشهد أمير المؤمنين علي ﷺ، وقد يكون دفن في الحلّة، ثمّ نقل بعد ذلك إلى النجف الأشرف.

آثاره

خلف المحقق الحلي مجموعة من المؤلفات طبع بعضها، ومنها:

1 ـ كتاب شرائع الإسلام، طبع في إيران طبعات كثيرة، وكذا في لندن؛ 2 ـ كتاب النافع مختصر الشرائع؛ 3 ـ المعتبر في شرح المختصر أي مختصر الشرائع ولم يتمه، طبع في إيران مرتين؛ 4 ـ نكت النهاية، أي نهاية الشيخ الطوسي محمد بن الحسن (ت 460هـ/ 1067م) في الفقه، مطبوع؛ 5 ـ المسائل العزية؛ 6 ـ المسائل المصرية؛ 7 ـ المسلك في أصول الدين؛ 8 ـ المعارج في أصول الفقه؛ 9 ـ الكهنة أو اللهنة في المنطق. وهذه الكتب التسعة أشار إليها تلميذه الحسن بن داود حين ترجم له في الرجال؛ 10 ـ مختصر مراسم سلار الديلمي في الفقه [بروكلمان، 3/ 351، مصر، دار المعارف 1962]؛ 11 ـ نهج الوصول إلى معرفة علم الأصول؛ 12 ـ رسالة التياسر في القبلة.

وللمحقق الحلي رسائل في النثر ومجموعة من الأشعار ذكرتها مصادر ترجمته.

المصادر والمراجع

● الحر العاملي، محمد بن الحسن، أمل الآمل، تح. السيد أحمد الحسيني، بغداد، مكتبة الأندلس، 1/ 103؛ ● الخوانساري، محمد باقر الموسوي، روضات الجنات، تح. أسد الله إسماعيليان، قم، 2/ 182 ـ 191؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بغداد، مكتبة المثنى، 2/ 1922؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، بغداد، مكتبة المثنى، 2/ 42، 43، 507، 695؛ ● العاملي، محسن الأمين، أعيان الشيعة، دمشق، مطبعة ابن زيدون 1940، 15/ 371 ـ 391؛ ● البحراني، يوسف بن أحمد، لؤلؤة البحرين، تح. السيد محمد صادق بحر العلوم، النجف، 227 ـ 235؛ ● الخاقاني، علي، شعراء الحلة أو البابليات، النجف، المطبعة الحيدرية 1951، 1/ 194 ـ 202؛ ● السيد حسن الصدر، تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، بغداد، شركة الطباعة العراقية، 305؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 3/ 137؛ ● الزركلي، الأعلام، بيروت، 2/ 117.

د. نبيلة عبد المنعم داود

مركز التراث العلمي ـ بغداد العراق

الحِلّي، صفيُّ الدين، عبد العزيز بن سرايا

(677هـ/1278م ـ 750هـ/1349م)

هو عبد العزيز بن سرايا بن علي، صفيّ الدين الحِلّي، نسبةً إلى مدينة الحِلّة في العراق، السِّنبسيّ، الطائيّ..

لُقّب بغير لقب واشتهر بغير اسم: فهو تارةً: «صفي الدين الحلي»، وتارة: «الصفيُّ الحلّي»، وتارة: «السَّرايا الحلّي»، وحينًا: «ابن أبي السَّرايا».

لم يتحدث المؤرخون عن حداثة صفي الدين، بل أكاد أقول: إنَّ أحدًا لم يذكر شيئًا عن طفولته لا من قريب ولا من بعيد.

وأغلب من ترجم له ذكر أنَّ ولادته كانت في الحلّة يوم الجمعة الخامس من ربيع الآخر677هـ/ 1278م وأنه نشأ بها. والحلّة يوم ذاك مدينة جميلة، جمعت إلى قدمها، حداثة عهد حضاري، وجمال موقع، دفعت الكثير من الشعراء للتغني بها.

ولم تكن الحلّةُ بالنسبة إلى الشاعر مسقط رأس، ومسرح حياة رتيبة، ومكانًا عابرًا .. بل أبعد من ذلك: كانت المدرسة التي تثقف فيهاوتزوّد للمستقبل، والملعب الذي تلقى فيه أجمل الرياضات وأفضلها، من شعر وفروسية ومقارعة.. أضف إلى ذلك علومه الأولى ومقارضاته الشعرية.. كل ذلك «قبل أن يشبَّ عن الطوق، ويعلم ما دواعي الشوق» مع كرهه لصناعة التكسب بالشعر، والتقرب من الأدنياء، و«فراره من العادة الخشناء ولو من الغادة الحَسْناء» كما يقول في مقدمة ديوانه.

يُستفاد من أقوال الشاعر ومن قصائده التي نظمها خارج الحلة، أنه غادر مسقط رأسه متوجهًا إلى الأمصار المجاورة، على أثر انتشار الفوضى بالعراق بسبب وقوع الحرب بين آل هولاكو على العرش، وما أعقب ذلك من خلافات وحروب محلّية جرت بين آل الشاعر وأعدائهم ـ آل أبي الفضل ـ الذين قتلوا خاله أبا المحاسن صفي الدين المدعو حمزة الحلّي، وقد كان صَدْرًا واليًا من قبل سلطان المغول. فاتجه وهو في العشرين ونيّف من عمره إلى ماردين، عاصمة بني أرتق، ليستقرَّ فيها ردحًا من الزمن، ينطلق منها إلى ديار وبلاد بعيدة ما بين دمشق وبغداد والقاهرة؛ تارة للتجارة، وتارة تلبية لدعوات من أعيان تلك المدن والأمصار، وإلى ديار الحجاز لأداء مناسك الحج والعمرة.

عاصر الحلّي في ماردين ثلاثة ملوك يشكلون العصر الذهبي لدولة بني أُرتق، هم على التوالي: الملك المنصور نجم الدين أبو الفتح غازي، وابنه العادل، ثم الصالح بن المنصور. حظيَ في كنفهم برعاية كبيرة وتشجيع لا مثيل له. ويمكن اعتبار هذه المرحلة أصفى أيامه وأهنأها وأكثرها أمنًا واستقرارًا، وتاليًا أكثرها عطاءً شعريًا.

وفي سفره إلى مصر، أُتيح له لقاء حاكمها

المملوكي الأكبر الناصر محمد بن قلاوون (1285 ـ 1343م) الذي أحسن وفادته وتكريمه، طالبًا إليه هو وكاتبه الأديب علاء الدين بن الأثير، المتوفى سنة 730هـ/1329م جمع ديوانه الشعري، فجمعَ الصفيُّ ما حضره حينئذٍ من جيد شعره ومختاره، مضيفًا إليه ما تلاءم وحَضْرةَ السلطان قلاوون من مدائح تليق به.

ومن الأمصار التي زارها صفي الدين الحلّي وأقام بها طويلًا، مملكة حماه الشامية التي خصَّ بها المماليكُ الأيوبيينَ، فمنحوهم استقلالًا تامًا تأكيدًا لولائهم لهم منذ أن كانوا مماليك لهم في دولة الأيوبيين. وعلى رأس هذه المملكة الأيوبية كل من الملك المؤيَّد الأيوبي وابنه الأفضل اللذين كرّما الشاعر أجمل تكريم، فحظيَ لديهما بكثير من التقدير والمصافاة والمخالطة «الكفوءة» من خلال اللعب في رماية البندق، ورحلات الصيد، ومطارحات الشعر ومقترحاته المطّردة بين الشاعر والأفضل بخاصة..

ومن أعلام الفكر والأدب الذين عقد الشاعر معهم صلات وعلاقات، كل من: شمس الدين محمد بن المعجونة، الكاتب الموصلي، والصاحب تاج الدين بن البارنيادي كاتب السرّ الشريف بطرابلس، والقاضي تاج الدين محمد بن وشاح، قاضي الحلّة، والشاعر المشهور جمال الدين بن نُباتة المصري، وشهاب الدين محمود الحلبي، والمؤرخ الكاتب الشهير صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، وفتح الدين ابن سيِّد الناس.. وغيرهم الكثير ممن عرض لهم الشاعر وذكرهم في قصائده الشعرية.

تشعبت الآراء واختلفت في تاريخ وفاة الحلّي، فقيل: توفي سنة 750هـ، وقيل سنة 752هـ، وقيل سنة 759هـ، وقيل سنة 749هـ، وهي السنة المشؤومة التي اجتاح فيها الطاعون بلدانًا كثيرة بين الشام ومصر، فقُتل فيها خلقٌ كثير ومنهم عدد كبير من الأعيان.. لكن معظم الدارسين يحددون وفاته سنة 750هـ، في بغداد بعد عودته من تطواف طويل ما بين ماردين والحلة وبعض مدن العراق..

من خلال الاطلاع الواسع على سيرة حياته المتفرقة في بطون كتب السِّيَر والتراجم، وقراءة مطاوي ديوانه الشعري الكبير، يبدو لنا الشاعر شخصية فذّة لها وزنها الاجتماعي والسياسي والأدبي. كما يبدو فتىً مقدامًا يأبى الضَّيْم ويهبُّ للذود عن نفسه وعن عشيرته.. أما في أسفاره وتنقلاته وعلاقاته، فهو رجل مجرَّب طموح، متطلع إلى المجد، يسعى إليه بكل ما أوتي من صبر ودراية وعزم وتصميم، وصولًا إلى ثلاث غايات هي: الشهرة، وتحصيل لقمة العيش بإباء وكبرياء، والخلود بمكان هادئ مستقر بعيد عن بؤر الفساد والاقتتال والقلق المصيري.

ومما يذكر في هذا الصدد مخافتُه من عبور المياه حتى ولو كان يُورد له مُلْكُ فارس.

أما مجمل خصاله النفسية، فنذكر منها:

ـ صراحته المصحوبة بنفس مرح، وتناول فكهٍ، غيرَ متورع عن ذكر الحقيقة ولو كانت جارحة.

ـ دماثة خُلق وتجنب لكل أشكال التعبير النابية وسلاطة اللسان والنَّيل من الأعراض.

ـ هدوؤه النفسي وأسلوبُه اللطيف في معاتبة

أصدقائه وأولياء أموره. وهو في غالب الأحيان راض قنوع بما يسبّبونه له، وتكاد لا تُفارقه هذه الرقّة في معاتباته الأخوان.. كقوله:

وكم قد هفَوْتَ بهُجْر الكلامِ
فاعرضتُ عن سَمْعه مسْمعي
فكنتَ كأنكَ ما قُلْتَهُ
وكنتُ كأنّيَ لم أَسْمَعِ

[ديوانه، ص 572]

وهُجْر الكلام: النابي الجارح من القول
شعور واضح بجَفْوة بينه وبين المرأة، متجهًا بنتيجتها نحو أبناء جنسه الذكور يبثهم أشواقه وصبواته. ولعل هذه الجفوة هي التي جعلت من غزله ومجونه، يستوعب الناحية الذكرية أكثر بكثير من الناحية الأنثوية. وربما كان سبب هذا الجفاء، بشاعة في الرجل على حد قول الفيروزبادي (مجد الدين) الذي لقيه في بغداد سنة 747هـ وهو زريّ الهيئة والحال، قبيح.. «وسخ العمامة، ووجْههُ أقبح ما يكون ومن رأى صورته لا يظن أنه ينظم ذلك الشعر الذي هو كالدرر في الأصداف» [نزهة الجليس 200 ـ 201] وهذا ما يسمح باحتمال بشاعة هيئته وهو في شبابه.

تضمَّن ديوانه الشعري الكبير المنشورُ في بيروت اثني عشر بابًا أو غرضًا شعريًا، هي على التوالي:
الفخر والحماسة ـ المدح والثناء ـ الوصف والطرديات ـ الإخوانيات ـ المراثي ـ الخمريات ـ الشكوى والعتاب ـ الاستهداء والاستعطاف ـ العويص والمعقَّد من النظم ـ المُلَح والأهاجي ـ الغزل ـ الآداب والزهديات.

وسأتوقف عند أربعة من هذه الأغراض، هي: المديح، والغزل، والفخر، والوصف؛ ملمًّا بالأغراض الأخرى إلمامًا سريعًا، لضيق المجال المسموح به في هذه المداخلة، محيلًا من يرغب إلى كتابي: «صفي الدين الحلّي» الصادر عن دار الكتاب اللبناني سنة 1971، وفيه دراسة تفصيلية لجميع أبواب الديوان، إلى دراسات أخرى وموضوعات مختلفة تتعلق بالشاعر وعصره وثقافته وفنونه الشعرية وأنواع كتاباته وخصائصها وفصول أخرى كثيرة.

على الرغم من أن الشاعر قد قطع على نفسه عهدًا «بألّا يمدح كريمًا وإنْ جَلّ، إلّا لِما أعدّه زادًا للمال في مديح النبي والآل» [مقدمة ديوانه]، فقد تضمَّنَ ديوانُه من شعر المدح (الثناء والشكر والهناء) مائة وسبعين صفحة، أي ما بين ربع الديوان وخمسه، وهو أكبر حيِّز اشتمل عليه شعره بين سائر أغراضه الفنية.

«والحق أن مدائحه الكبرى لم تخرج عن هذا الخط إلّا ما كان للشكر أو رد الجميل، أو التقدير. المهم أن صفي الدين لم يمدح في سبيل التكسب أو التقرب والزلفى، أو محاذرةً لمخاطر ودسائس، وأن ممدوحيه كانوا في الغالب، من علية القوم، وخاصة الذين ربطتهم به روابط مكرمات وفضائل وقيم فكرية وروحية واجتماعية» [كتابنا، صفي الدين الحلي، ص 205].

ويمكن تصنيف ممدوحيه إلى ثلاثة: الملوك، والأصدقاء، والنبي ﷺ وآله.

أما الملوك فهم: المنصور والصالح

الأرتقيان، والناصر محمد بن قلاوون، والملكان الأيوبيان: المؤيد والأفضل. وأما الأصدقاء فكانوا من الكتّاب والشعراء والأقرباء ممَّن جمعته بهم الظروف الاجتماعية، ومن قضاة وولاة وأمراء أعانوه على تذليل كثير من معوقات الحياة.

أما مدائحه في بني أرتق فقد جمعت كلَّ ما أنبتته القرائح في الأدب العربي من أوصاف الخُلُق الحميد، ففيها كرم حاتم، ووفاء السموأل، وحكمة لقمان، وشجاعة خالد. وهكذا حتى تطوف على ذرى الفضائل الإنسانية، نموذجُه في ذلك مديحُه للمنصور الأرتقي الذي أغدق عليه في قصيدته الأولى له جملة أوصاف ومعانٍ أجاد بها كما لو كان يقولها في نفسه.

ومن النادر أن يكتفي الشاعر بموصوفات وصور عقلانية محتملة، بل غالبًا ما يتجاوز فيها حدود المعقول إلى اللامعقول، تطبيقًا لصبغة المدح الشعري السائدة في عصره، كما نرى في مدح الملك المنصور الأرتقي الذي جعله الشاعر معبودًا تسجد الملوك في أعتابه، وتخدم الأقدار في ركابه:

يخضعُ هامُ الدهرِ فوقَ بابِهْ
وتَسْجُدُ الملوك في أعتابِهْ

وتَخْدمُ الأقدارُ في رِكابِهْ
تَرومُ فَضْلَ العِزِّ من جَنابِهْ
وتَستمدُّ اليُسْر بعدَ العُسْرِ

[ديوانه، ص115]

ولئن تجاوز حدود المبالغة التصويرية، من دائرة الإبداع الفني، إلى دائرة الكفر الأدبي، فإنَّ له صولاتٍ في المضمار الأول لا أراه مسبوقًا بها، كقوله وهو يمدح الملك الأرتقي المنصور غازي، من قصائده التسع والعشرين التي أنشأها له:

جَلَلْتَ حتى لو أنَّ الصبحَ لُحْتَ به
وقلتَ: قفْ، لا تَلِجْ في الليل، لم يَلِجِ

[ديوانه، ص714]

ومثله، من قصيدة ثانية:

رفقتَ بالناس في كل الامور، فقد
أضحى الزمانُ إليهم شاخصَ البصرِ

يتمتع الحلّي بقريحة مطواعة عجيبة، وبثقافة لغوية وبلاغية لا حدود لها. يتلاعب بالقريض والقوافي والتراكيب والتخيل كما يشاء، فينشئ قصائد طوالًا تتجاوز المئات من الأبيات، وأخرى قصارًا وربما مقطّعاتٍ من اثنين إلى ثلاثة وأربعة، وهكذا، وفقًا لتدفق سيل الكلام والمدّ الشعوري المؤرّق. ونمثل لذلك قصيدته البائيّة التي مدح بها الملك الصالح الأرتقي، بالغًا فيها مستوى شعريًا عاليًا من حيث وضوح الأفكار، واقتضاب المعنى، وخفّة الجمل وقصرها، إلى ندرة الخيال ولطائفه:

قالوا: هو البدرُ، قلتُ: البدرُ مُمَحَّقٌ
قالوا: هو الشمسُ، قلتُ: الشمسُ تَحْتَجِبُ

قالوا: هو الغيثُ، قلتُ: الغيثُ مُنتظر
قالوا: هو الليثُ، قلتُ: الليث يُغتصَبُ

قالوا: هو السَّيلُ، قلتُ: السيلُ مُنقطِعٌ
قالوا: هو البحر، قلتُ: البحرُ مُضطرِبُ

قالوا: هو الظلُّ، قلتُ: الظلُّ مُنتقِل
قالوا: هو الدهرُ، قلتُ: الدهرُ منقلِبُ
قالوا: هو الطودُ، قلتُ: الطودُ ذو خَرَسٍ
قالوا: هو الموتُ، قلتُ: الموتُ يُجْتَنَبُ
قالوا: هو السيفُ، قلتُ: السيف نَنْدبُهُ
وذاك من نفسه بالجود يُنْتَدَبُ
قالوا: فما منهمُ يحكيه؟ قلتُ لهم:
كلٌّ حكاه، ولكن فاته الشَّنَبُ

[ديوانه، ص198]

المعروف أن التكرار مملّ، وثقيل في الأداء اللغوي، لكنه هنا اكتسب حرارة التعبير وجمال التنويع في وحدة المدح والإعجاب، لأنه لم يقصد لذاته، بل لتعزيز المعاني وإغنائها مع حسن الديباجة ورقة القوافي.

وإذا انتقلنا إلى الشطر الآخر من مدائحه، عنيت المدح النبوي، فسنجد أن الشاعر اتبع سنّة الشعراء القدامى في عرض مشاعره التمجيدية وسرد معجزات النبي ﷺ وما رافق ذلك من نزول القرآن وجهاد طويل، وإسراء ومعراج .. وهو ما سبقه إليه شرف الدين البوصيري (ت 696هـ) والشعراء الصوفيون بعامة.. ومع ذلك فقد أضاف إلى قصائد المدح أساليب جديدة، وتطرَّق إلى معان وتصورات غاية في الجودة والابتكار، نُحيلُ من يرغب إلى كتابنا [صفي الدين الحلي، ص 219 ـ 228] وفيها: نمط المدح النبوي، ومظاهره، وقصائده، وخصائصه وإبداعاته..

ينقسم غزل صفي الدين إلى قسمين: قسم استقل في باب خاص استغرق مائة صفحة من الديوان وقسم منتشر في معظم الأبواب وبخاصة أبواب المدح والرثاء والخمريات.

كان الشاعر مرهف الحسّ، موتور العاطفة، سريع الانفعال أمام الوجه الجميل المشرق، ومفاتن الغواني التركية ونساء الأمصار اللواتي التقاهن في مجالس اللهو وسهرات الأنس والرحلات .. ولم يُعرف عنه ما إذا عاش قصة حبّ بعينها، كما هي حال عدد كبير من الشعراء الذين ذاعت أخبارهم مع محبوباتهم؛ مع أنَّ من يقرأ بعض قصائده تبهره الأوصاف الغزلية ومعالم العشق المضطرم في الأعماق.

وحصيلة ما رشح لي من سيرته وقصائده أن الحلّي لم تكن له حبيبة معروفة؛ وأغلب الظن أنه لم يعشق امرأة بعينها تملك عليه شعاب قلبه، لأنه لو فعل ذلك، لما تنوعتْ أغزاله بين مؤنث ومذكر، ولما طغى عليها القالب الشعري الجامد الجاف في كثير من الأحيان.. جلُّ ما في هذه القصائد لفظ رقيق، وصور مأنوسة يسودها التكلف في الغالب، وأحاسيس لا يمكنك رفضها.

وتبيَّنَ لنا أن غزله ينصب في كثير من القصائد، على الجمال الخارجي؛ فتغزّل بالقد والخد، والشَّعر والخصر، والعيون والشفاه.. وتغزل بالريق والعطر، واللثغ والدلع في النطق، والتثني والنعاس في الألحاظ، قلما خرج عنها إلى أبعاد إنسانية أخصب وأعمق.

ومن اللافت أنَّ أكثر غزل الصفيّ جاء بلغة المذكر وضميره، وأن أجود غزله هو الغزل المذكر، والغزل الغلماني الذي يملأ صفحات القصائد الغزلية. ومن ذلك قوله في وصف أحد المجالس من قصيدة بعنوان: «مجلس أنيق»

بلغتْ ستين بيتًا معظمها في وصف الجمال واللهو والتسرّي والتغني بجمال الوجوه والغلمان المتناوبين على الخدمة وارتفاع وتيرة الانفعال، والتلذذ بهذا الوجه أو ذاك:

أذابَ التِّبْرَ في كاسِ اللُّجَيْنِ
رَشًا بالرّاحِ مخضوبُ اليدينِ
رَخيمٌ من بَني الأعرابِ طِفْلٌ
يُجانبُ خصرهُ جَبَليِّ حُنَيْنِ
يُبدِّلُ نطقهُ ضادًا بدالٍ
ويُشرِكُ عُجْمةً قافًا بغَيْنِ
يطوفُ على الرفاقِ من الحميَّا
ومن خمرِ الرضابِ بمُسْكِرَيْنِ

[ديوانه، ص 391]

ومثل ذلك، قوله في وصف عشقٍ صارخ لأحد الصبية الذين أمضى معهم ليلة ماجنة:

وليلةَ عاطاني المُدامَ، ووَجهُهُ
يُرينا صَبوحَ الشُّربِ حالَ غبُوقِهِ
بكأسٍ حكاها ثغرُهُ في ابتسامةٍ،
بما ضمَّهُ من دُرِّه وعقيقِهِ
لقد نِلْتُ، إذْ نادَمْتُهُ، من حديثهِ
من السكْرِ ما لا نلْتُهُ من عقيقهِ
فلم أدرِ من أيِّ الثلاثةِ سَكْرَتي،
أمِنْ لحظِهِ أم لفظِهِ أم رحيقهِ
لقد بِعْتُهُ قلبي بِخَلْوةِ ساعةٍ،
فأصبحَ حقًا ثابتًا من حقوقهِ
وأصبحتُ نَدْمانًا على خسْرِ صَفْقتي،
كذا من يبيعُ الشيءَ في غيرِ سوقهِ

[الديوان، ص395]

الدرُّ، واحدته دُرَّة: اللؤلؤة .. والعقيقُ حجر كريم لونه أحمر، من أجمل حجارة المصاغ وفصوصها.

فأنتَ ترى أن الشاعر عني بالمظهر الجمالي الحسّي وانشغافه به لدرجة السُّكر، لكنه سُكْرٌ حسّي أكثرُ منه ذاتي حميم؛ وتاليًا لم يلتفت إلى معاناته العاطفية والروحية كما نجد لدى شعراء الحب الحقيقيين. ولا بد لنا ونحن في الحديث عن حب الشاعر وأساليبه الغزلية المترجحة بين التجديد والتقليد، من ذكر نونيَّة حوارية دافقة بالحب والحيوية موفيةٍ على أعذب أغراض الغزل في الشعر العربي، وقد اختارها سيد الغناء والموسيقى العربية الفنان العملاق محمد عبد الوهاب من قصائد الشعر القديم ليجعلها واحدة من أجمل أغانيه الخالدة، وهي:

قالتْ: كحَلْتَ الجُفونَ بالوَسَنِ
قلتُ: ارتقابًا لطيفِكِ الحَسَنِ
قالتْ: تسلَّيتَ بعدَ فُرقتنا؛
فقلتُ: عن مَسْكَني وعن سكَني
قالتْ: تَشاغَلْتَ عن محبَّتنا،
قلتُ: بفرْطِ البكاءِ والحَزَنِ
قالت: تناسَيْتَ! قلتُ: عافيتي!
قالتْ: تناءَيتَ! قلتُ: عن وطني
قالتْ: تخلَّيتَ! قلتُ، عن جلدي!
قالت: تَغيَّرتَ! قلتُ: في بَدَني
قالت: تخصَّصْتَ دونَ صُحْبَتنا
فقلتُ: بالغبنِ فيكِ والغَبَنِ
قالت: أذعْتَ الأسرارَ، قلتُ لها:
صيَّرَ سِرِّي هَواكِ كالعَلَنِ

قالت: سَرَرْتَ الأعداء، قلتُ لها:
تلك شيءٌ لو شئتِ لم يكنِ
قالتْ: فماذا تَرومُ؟ قلتُ لها:
ساعةَ سَعْدٍ بالوَصْلِ تُسْعِدُني
قالتْ: فَعَيْنُ الرقيب تَنْظُرُنا!
قلتُ: فإني للعَيْن لم أَبِنِ
أنحَلَتِني بالصدود منكِ، فلَوْ
ترصَّدَتْني المَنونُ، لم تَرَني

[ديوانه، ص 409 ـ 410]

«لم يكن صفي الدين أول من نهجَ الحوار في الشعر الغزلي، فقد سبقه إليه معظم الشعراء قبله، وعلى رأسهم عمر بن أبي ربيعة.. لكن صفي الدين فاقهم لطافة حوار، وجزالة تعبير، وبلاغة تركيب، كما فاقهم حشد أفكار، وسرعة بديهة وإن لم يفقهم طول نفَس وعمق خيال، ووَفْرةَ صور». [كتابنا، صفي الدين الحلي، ص 236].

لا أغالي إذا قلتُ إنَّ الفخر هو أصدق أبواب الشعر عند الحلّي لأسباب، منها: أن الشاعر نظمه وهو في ذروة انفعاله مع الأحداث التي جرت له ولقومه، وكان هو من أشجعهم وأمهرهم في الفروسية. ومنها أن هذا الشعر قيل في ريعان الشباب ؛ وما يدفعنا إلى الحديث عنه تلك العاطفة الجياشة المتدفقة في حنايا الأبيات، وتلك الروح الثائرة التي لا تهادن ولا تُواربُ، مندفعة من الأعماق إلى انتزاع المجد والعلا من أقصر الطرق وأرفعها. وما عدد الصفحات التي تضمّنها هذا الباب، والبالغ ستين صفحة، إلا دليل على صفاء شعر الفخر وخلوصه من رواسب التكرار والتقليد والمصانعة. وتُمثِّل قصيدة: «سلي الرماح» التي نظمها في صباه مفتخرًا بقومه الذين أخذوا بثأر خاله صفي الدين بن أبي المحاسن، إحدى إنجازاته الشعرية العالية، ليس في شعره فحسب، بل في قافلة أشعار الحماسة في الأدب العربي.

سَلي الرماحَ العَوالي عن مَعالينا،
واستشهدي البيضَ هل خابَ الرَّجا فينا؟
وسائلي العُربَ والأتراكَ ما فعلَتْ
في أرضِ قَبْرِ عُبيدَ اللهِ أيدينا
(...) إنَّ الزرازيرَ لمّا قام قائمُها
تَوهَّمتْ أنها صارت شواهينا
وللدماءِ على أثوابنا عَلَقٌ
بنَشْرِه عن عبير المسك يُغنينا
إنّا لقومٌ أبتْ أخلاقُنا شرَفًا
أن نبتدي بالأذى، مَن ليس تؤذينا
بِيضٌ صنائعُنا، سودٌ وقائعُنا،
خضرٌ مرابعُنا، حمرٌ مواضينا

[ديوانه، ص 20 ـ 21]

الوصف عند الحلي، فن شعري عام لكونه يجمع بين أغراض الشعر على اختلافها. ومع ذلك، فقد أفرد له بابًا خاصًا سمّاه: «في الطرديات وأنواع الصفات» قوامه أربعون صفحة ما بين قصيدة طويلة ومقطعة. وموصوفاته لا تخرج عن الخط العام الذي عرف به الوصفُ القديم أو المعاصر له. والغالب فيه أنه معيوشٌ ممارس، وليس نظريًا أو متخيلًا. وتنقسم أوصافه الشعرية إلى ثلاثة عناوين: الطرديّات، الطبيعة، وموصوفات مختلفة.

أ ـ الطرديّات: أتيح للشاعر أن يمارس الصيد ويشاهد الطيور على أنواعها .. فكانت له قصائد ومقطعات في طيور الكراكي والصقر والباز والفهد، وتوقف مليًا عند الصيد بالبندق وتأمل قسِيّه التي تقذفُ البندق .. وتوقف عند الصيد بالكلاب، فوصف أحدها بكثير من الدقة والإحاطة والأداء الفنّي الجميل، من مثل قوله:

مُختصرِ الشِّلْوِ، ثقيلِ المَحْمَلِ
مَنْفَسِحِ الهامةِ ناتي المُقَلِ

مُنْهضِمِ الخصْرِ، عَريضِ الكَفَلِ
ذي أيْطلٍ خالٍ، ومَتْنٍ مُمْتلي

ذي ذَنَبٍ سَبْطٍ، قصيرٍ أفْتَلِ
أشْلَسَ من ذفّتهِ كالمِغْزَلِ

[ديوانه، ص 283]

ب ـ الطبيعة: لم يُفرد الشاعر بابًا خاصًا لها، بل جعلها مقدمات لعدد كبير من القصائد الغزلية والمدحية، فوصف الفجر الطالع، والظلال، والسحب، والزهور، والحدائق، والليل، والرياح، والبرك، والأنهر، في مشاهد متلاحقة ومتداخلة، تنم على قدرة فائقة على اختلاس الصور ورسم الأبعاد التي تتناهى عند الذائقة الشعرية، كقوله في وصف وادٍ:

للهِ وادي الغَرْسِ حينَ حَلَلْتُهُ
زمنًا كأنَّ العيشَ فيهِ مَنامُ

(...) فالشمسُ فيهِ مدى النهارِ فطيمةٌ
والظلُّ كهلٌ، والنسيمُ غلامُ

[ديوانه، ص 281]

وأختم الكلام على الوصف بما قاله ضياء الريّس في مقالة له عن صفي الدين في أحد أعداد مجلة «الرسالة» القاهرية:

«كان لصفيّ الدين ميزتان عظيمتان في وصفه: إحداهما دقة النظر وصدق المشاهدة، والأخرى قوة الابتكار والتخيل. فقد كان يدرك بالأولى جزئيات الأمور ونواحي المناظر التي تخفى على غير الموهوب، ثم يتولى خيالُه ما أدركه، فيُحْكِمُ نَسْجَهُ ويُضْفي عليه ألوانه، ويزيد فوقه نقوشه». [العدد 29، السنة 1934، ص 146].

أنْ تزنَ شاعرًا كبيرًا من شعراء مرحلة تَبْعدُ عنا قرابة سبعة قرون، أمرٌ في غاية الصعوبة، أقلّه اختلاف المقاييس بين زماننا وتلك المرحلة؛ فأيُّ كلام يقال اليوم لا بد من أن يرتطم بجدار من المفاهيم والآراء المضطربة غير الموضوعية. كلُّ ما يسعنا فعله: محاولة التقريب بين أحكام قديمة ونظرات وآراء حديثة؛ فقد غلب على الأحكام القديمة في الشاعر التقدير الكبير والتمايزُ الفائق، فنرى الفيروزآبادي يصفه بموسوعة عصره في «علوم العربية والشعر وأن غزله أرقّ من شجر النسيم وأروقُ من المحيا الوسيم» ونرى نور الله الشُّشْتري (ت 1610م) يصفه بالشاعر الساحر، في شعراء زمانه فإذا هو بينهم بلا «قرين» . ومثله قال صلاح الدين الصفدي المتوفى سنة 764هـ/ 1362م حيث جعله «الإمام العلّامة البليغ المفوّه، الناظم الناثر، شاعر عصره على الإطلاق» وقل مثل ذلك لدى عدد آخر من دارسي زمانه.. أما في زماننا فقد جعله أديب السندبانة مارون عبود واحدًا من كبار شعراء عصره، إلّا أنه ـ أي عبود ـ

جعله من الرؤوس الصغيرة بين شعراء العربية؛ وقد حاولت أن أزنه أنا زنة تجمع بين رأي القدماء ومفاهيم العصر الحديث، فوجدتُ أن «صفي الدين الحلّي» قد أوتي إحساسًا غريبًا بمقامه المميز عن أقرانه ودوافع خفية جعلته ينساق كالملهوف، وراء قوالب تعبيرية خارقة الغرابة، بعد أن فاته الحشا الفكري الخام، وقد استُهلك في زمن العباسيين الأُوَل، وقضى الاقتتالُ الدموي الجارف والاحتلال التتري المبيد على النتف المبعثرة هنا وهناك. فكان لزامًا عليه الجريُ وراء ما تبعثر ولمُّه مع كوَم الهزال والحشرجة، وصَوْغُ ما ارتعشتْ به مخيلتُه ودَفْعُه إلى موائد الآدب ومتصيديه. وإنَّ محاولة الخروج بالصفيّ من حظيرة التقليد والاستماتة في سبيل الإبداع، إلى حظيرة الخلق والتصوير الموحي، شيء غاية في الصعوبة، ومحاولةٌ يائسة، لأن الحَلْبَة التي ارتاض فيها الحلّي، لم تكن حَلْبة أبطال، وإنّما أشبالٌ تاهت عنها لبوءاتُها، فضاعَ المعين، وزاغ البصر بين ظمأ اللحاق بالليوث، وعجز الوثوب المتّقن الجبّار» [كتابنا: صفي الدين الحلي، ص 362 ـ 363].

وقد تحصَّل لي هذا الرأي بعد الاطلاع الوافي والدراسة الشاملة لشعر صفي الدين في جميع أغراضه وفنونه ووجوه نتاجه الشعري والنثري الذي كانت تشوبه كلفة التقليد والنسج على منوال الأقدمين، على جرأة غريبة في ابتكار أساليب وأنماط بالغة الغرابة، في النظم والنثر، الأمر الذي جعله يقف شامخًا بين شعراء عصره وكتّابه، لكنه ليس كذلك في السلّم الأدبي العام في تاريخ الأدب العربي وعصوره الممتدة عشرات القرون.

آثاره

أ ـ آثاره الشعرية:

1 ـ ديوانه الشعري، وهو أكبر مؤلفاته وأوسعها على الإطلاق، طبع أربع مرات، الأولى، في دمشق سنة 1879م، والثانية، في بيروت سنة 1892م، والثالثة في النجف الأشرف سنة 1956م، أما الطبعة الرابعة فكانت في بيروت سنة 1962م. ويبلغ عدد صفحات هذه الطبعة الأخيرة 782 صفحة من الحجم الكبير، وعليها اعتمدت هذه الدراسة.

وقلما تختلف هذه الطبعات فيما بينها من حيث النص الشعري والموضوعات. جلُّ ما في الأمر أن طبعة بيروت الأخيرة جمعت الكثير من مؤلفاته الشعرية، بينما أهملت القسم الأكبر من نتاجه النثري، الذي أبقتْ عليه طبعة دمشق وطبعة النجف. وانفردتْ طبعة النجف وحدها بطبع فصل «الإحماض» الذي تحاشته الطبعات الثلاث الأخرى حرصًا على سلامة الذوق والخُلق؛ 2 ـ درر النحور في مدائح الملك المنصور، وهي قصائده المعروفة «بالأرتقيّات» التي مدح بها الملك الأرتقي المنصور نجم الدين غازي. وهي عبارة عن تسْع وعشرين قصيدة، كل واحدة منها على حرف من حروف المعجم، تبدأ به كل أبيات القصيدة وتنتهي به، وعدد أبيات كل قصيدة تسعة وعشرون بيتًا..؛ 3 ـ الكافية البديعية في المدائح النبوية، قصيدة طويلة تعدادها مائة وخمسة وأربعون بيتًا، كلها في مدح النبي، وغرضها، بالإضافة إلى المدح النبوي، حشد أكبر أنواع البديع وضروبه حيث ضمنها مائة وخمسين لونًا من ألوان البديع ومطلعها:

إن جئتَ سَلْعًا فَسَلْ عن جيرة العَلَم
واقْرا السَّلام على عُرْب بذي سَلَمِ

وقد قام صفي الدين نفسه بتأليف كتاب سماه: «النتائج الالهية في شرح الكافية البديعة» حققه ونشره حديثًا د. نسيب مشاوي، في دمشق 1982؛ 4 ـ ديوان صفوة الشعراء وخلاصة البلغاء. قال عنه علي الخاقاني، الأديب العراقي المعاصر: بأنه منظومة في علم العروض، وهي مخطوطة في مكتبة الاسكوريال بمدريد؛ 5 ـ العاطل الحالي والمرخَّص الغالي في الأزجال والكانْ كانْ والموالي: موسوعة لمختلف ضروب الشعر والغناء المكتوب بلغة العراق العامية. ولعله الكتاب الوحيد من نوعه من حيث الشمول والعمق والأصالة. قد طبع في ألمانيا سنة 1955 وحققه ولهلم هونرباخ. ثم صدر محققًا من قبل الدكتور حسين نصّار في مصر عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، عام 1981 وعدد صفحاته 168 صفحة من القطع الكبيرة.

ب ـ آثاره النثرية:

ليس للحلي نتاج نثري يذكر، إنْ هو إلّا كتيِّبات أو صفحات معدودة بعضها في تصويبات لغوية كـ «الأغلاطي» مخطوط في الاسكوريال، و«الدرّ النفيس في أجناس التجنيس»، مجموعة من الرسائل القصيرة ضمّنها بعض معاناته وأخباره ومقاماته، التي لا تتجاوز الرسالةُ منها عدد أصابع اليد من الصفحات.. وقد أشار كارل بروكلمن إلى خمسة عناوين لم يشر إليها أحد من الدارسين، وهي لا تضيف شيئًا ذا بال على نتاجه.

المصادر والمراجع

● ديوان صفيّ الدين الحلّي، دار صادر، بيروت 1961؛ ● الأيوبي، ياسين، صفيّ الدين الحلّي، (400 ص) دار الكتاب اللبناني، بيروت 1971؛ ● الكتبي، ابن شاكر، فوات الوفيات، الجزء الثاني، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت 1973؛ ● الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، الجزء الثامن عشر، باعتناء: أيمن فؤاد سيّد، فرانزشتاينر، بفسبادن، ألمانيا، 1408هـ/1988م؛ ● العسقلاني، ابن حجر، الدرر الكامنة لأعيان المائة الثامنة، الجزء الثاني، طبعة حيدر آباد. صوَّرَتْهُ دار الجيل، في بيروت، لا تاريخ، ويعود تاريخ طبعه إلى سنة 1350هـ، في مطبعة دار المعارف بحيدر آباد؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة، الجزء الأول، القاهرة سنة 1956؛ ● ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، الجزء السابع، حققه، د. محمد محمد أمين، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 1994؛ ● الأمين، السيد محسن، أعيان الشيعة، تح. حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعات، الجزء الثامن، بيروت 1406هـ/ 1986م؛ ● الخاقاني، علي، شعراء الحلّة (أو: البابليات)، الطبعة الثانية، دار الأندلس، بيروت 1964؛ ● زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، دار مكتبة الحياة، الطبعة الثانية، بيروت 1978؛ ● عبود، مارون،

الرؤوس، (المجموعة الكاملة، المجلد الأول)، دار مارون عبود، دار الثقافة، الطبعة الثالثة، بيروت 1399هـ/ 1979م؛
● مجلة «الرسالة» القاهرية، العدد 27 ـ 28 ـ 29، سنة 1948، مقالة عن صفي الدين الحلّي، بقلم ضياء الريّس؛
● الأيوبي، ياسين، آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي، جَرُّوس برسّ، طرابلس ـ لبنان، 1995.

د. ياسين الأيوبي
الجامعة اللبنانية ـ طرابلس ـ لبنان

■ أبو حليقة، رشيد الدين بن الفارس

(591هـ/1194م ـ نحو 660هـ/1261م) ■ ■ ■

طبيب وصيدلاني، ولد بقلعة جعبر (قرب مدينة الرقة بسورية) وبقي شطرًا من طفولته في مدينة الرها [طبقات الأطبّاء، 590 ـ 598]، وقد وجه الملك الكامل (615هـ/ 1218م) بتعليمه الطب وهو ما يزال دون سن العاشرة، فبدأ رحلته التعليمية من دمشق حيث تتلمذ على يد أبي سعيد (لم تذكر المصادر شيئا عنه) في قراءةٍ ودرسٍ لكتاب الفصول وتقدمة المعرفة لأبقراط (نحو 460 ـ 377ق.م)، ثم انتقل إلى القاهرة وأقام بها ليكون طبيبًا متميزًا وأثيرًا عند الملك الكامل ثم عند ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب ثم ولده الملك المعظم ترنشاه، ثم قدم خدماته الطبية لملوك الترك ومنهم الملك الظاهر ركن الدين بيبرس.

اشتُهِرَ أبو حليقة بحسن المعالجة وأساليبه المتميزة في التشخيص وتحضير الأدوية، وقد وصف بأنه أوحد زمانه في صناعة الطب [طبقات الأطباء، ص 590].

وقد عُرِفَتْ عنه دقة التشخيص ووثوقه برأيه وحكمه الطبي، فمن خصوصياته الطبية اعتباره أن كل إنسان له خصائصه وعاداته في تقبل المرض أو البُرء منه، فكان لسيرة المريض الجسدية والنفسية أهمية في تشخيصاته.

ومما تميز به هذا الطبيب قيامُهُ بتصنيع الدواء والترياقات، والترياق هو مجموعة من المعاجين التي تتميز بخواص وقائية وشفائية من السموم، وتستعمل في شفاء عدد كبير من الأمراض. ومن أهمها (الترياق الفاروق) الذي حَقَّقَ مفرداتِه ومكوناتِه واحدًا واحدًا، ويُعتَبَر من أشرف أنواع الترياقات لأنه يفرق بين البدن والسم، وهذا الترياق يتألف من أكثر من ثمانين عقارًا نباتيًا وحيوانيًا. ومن جملة استخداماته العلاجية أنَّ أبا حليقة وصفه للملك العادل (غسولاتٍ فموية) لتسكين وجع الأسنان.

وقد صنع أبو حليقة ترياقًا مختصرًا للترياق الفاروق واستخدمه في علاج الفالج (الشلل)،

وذلك لأنه حسب ابن أبي أصيبعة: «ينشئ في العصب زيادة في الحرارة الغريزية، وتقوية وإذابة البلغم الذي فيه» [طبقات الأطباء، 593]. وهذا صحيح لأنَّ مفردات هذا الترياق لها خاصة تنشيط الدورة الدموية مما يساعد على طرح نتائج استقلاب الخلية الحية وبالتالي يعود للخلية نشاطها ولا سيما الخلايا العصبية وخلايا الألياف العضلية.

واستُخدِمَ أيضًا لآلام القولنج (القولون) وتفتيت الحصاة التي تسد مجرى البول. وكان هذا الترياق ذا شهرة عظيمة في عصره. والترياق المختصر يتألف عادةً من عدد محدود من العقاقير تتراوح بين عقار واحد وبضعة عقاقير.

ويمكن أن نقول إن الطبيب أبا حليقة رشيد الدين مارس مهمات الصيدلاني بشكل دقيق أيضًا، فكان أن وضع ترياقه المذكور في آنية فضية صغيرة وكتب عليها استطباباته ومقدار الجرعة اللازم تناولها [طبقات الأطباء، 593].

وقام بتحضير دواء لأغراض مرضية متباينة، وكانت له ممارسات في مجال «الطب الغذائي» فقام بتحضير مزيج عشبي مُتَبَّل بمقادير محسوبة وطريقة حفظ محددة، واشتهرت عنه تشخيصات مرضية تتعلق بحالات نفسية.

وقد عُرِفَتْ عن هذا الطبيب أيضًا قصائد وجدانية رقيقة منها قوله:

خليلي إنّي قد بقيتُ مسهَّدًا
من الحبّ ماسورَ الفؤاد مقيَّدا

بحبّ فتاة يُخجل البدرَ وجهُها
ولا سيمَا في ليل شعْر إذا بدا

آثاره

مخطوطات كتبه مفقودة وغير مذكورة في المصادر التراثية العربية، إلا في طبقات الأطباء وهي حسب هذا المصدر.

1 - مقالة في حفظ الصحة، [طبقات الأطباء، 597؛ الأعلام، 3/ 23]؛ 2 - مقالة في أنَّ الملاذ الروحانية ألذ من الملاذ الجسمانية، [طبقات الأطباء، 597]؛ 3 - كتاب المختار في ألف عقار، وهو في الأدوية المفردة، [طبقات الأطباء، 597]؛ 4 - كتاب في الأمراض وأسبابها وعلاماتها ومداواتها بالأدوية المفردة والمركبة، طبقات الأطباء، 597؛ الأعلام، 3/ 23]؛ 5 - مقالة في ضرورة الموت، ويعيد فيها سبب الموت إلى الحرارة الخارجية والحرارة الداخلية في بَدَن الإنسان ويشير إلى ذلك في هذا البيت من الشعر:

وإحداهُما قاتلتي
فكيف إذا استجمعا

[طبقات الأطباء، 597].

المصادر والمراجع

- ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت (دون تاريخ)؛
- الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار الكتب للملايين، بيروت، لبنان.

د. بغداد عبد المنعم
جامعة حلب - سوريا

الحليمي، أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن علي

(338هـ/949م - 403هـ/1012م)

هو أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن عليّ بن محمد بن حليم المعروف بالحليمي، بفتح الحاء المهملة وكسر اللام وسكون الياء آخر الحروف الهجائيّة المنقوطة باثنتين، وذلك نسبة إلى جدّه «حليم» [عبد الكريم السمعاني، الأنساب، 1/ 250].

ولد سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة للهجرة (338هـ) بجرجان وحُمل وهو طفل إلى بُخارى وقيل وُلد بها، ولذلك فهو معروف أيضا بالبخاري والجرجاني.

نشأ صاحب الترجمة ببخارى وفيها أخذ الحديث عن الإمام أبي بكر بن محمد بن حمدان الصيرفي، وأبي عبد الله محمد بن عليّ بن الحسين الجبّاخاني، وأبي بكر القفّال، وخلفُ بن محمد الخيّام، وبكرْ بن محمد المروزي الدُّخمسيني، وأبي بكر محمد ابن أحمد بن حبيب الذي تفرّد شمس الدين الذهبي في سير أعلام النبلاء بتسميته محمد ابن أحمد بن خنب، وعلّق عليه الصفدي في الوافي بالوفيات بأنّه تحريف لـ «حبيب» وغير هؤلاء كثير، كما تفقّه الحسين الحليمي بفقه الشافعيّة على الإمام أبي بكر الأَوْدني، وأبي بكر القفّال. وقد كان المترجم له أحد الأذكياء الموصوفين، متفنّنا، سيّال الذهن، من ذوي الوجوه في المذهب حتّى صار إماما مُعظّما، مرجوعا إليه في الفقه الشافعي وفي رواية الحديث بما وراء النهر فحدّث عنه الحافظ محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نعيم بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري (ت 405هـ) وهو أكبر منه، وكذا الحافظ أبو زكرياء عبد الرحيم بن أحمد البخاري، وأبو سعد الكنجرُوذي والقاسم بن أبي بكر القفال وآخرون. [الذهبي، السير، 17/ 231]

ترجم له الصفدي في الوافي بالوفيات وقال: «كان رئيس أصحاب الحديث وأحد الشافعيّة وأنظرهُم بعد أستاذه أبي بكر القفّال، وله مصنّفات عديدة، ينقل منها البيهقي كثيرا». وذكره الحاكم أبو عبد الله الحافظ في كتابه «تاريخ نيسابور» فقال: «القاضي أبو عبد الله ابن أبي محمد الحليمي أوحدُ الشافعيين بما وراء النهر وأدبُهم وأنظرُهُم بعد أستاذيه أبي بكر القفّال، وأبي بكر الأودني.

قدم نيسابور سنة سبع وسبعين وثلاثمائة للهجرة (377هـ) حاجًا، فحدّث وخرجت له الفوائد، ثمّ قدمها سنة خمس وثمانين (385هـ) رسولا من السلطان فعقدنا له الإملاء وحدّث مدّة مقامه بنيسابور، وفي سنة تسع وثمانين وثلاثمائة (389هـ) ورد جرجان رسولا من أمير خرسان إلى قابوس بن وشمكير وكان أبو نصر الإسماعيلي محبوسا في يد قابوس مصادرًا، فأطلق عنه وسلّمه إلى عبد الله الحليمي حتّى ورد على داره، وقد

حدّث الحليمي بجرجان كثيرا في هذه السنة. وتوفي صاحب التصانيف الحسان في جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعمائة للهجرة (403هـ) وقيل في شهر ربيع الأول من السنة نفسها». وقال أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي: «أبو عبد الله الحليمي الجرجاني، بلغني أنّه ولد بجرجان سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة وحُمل إلى بخارى وهو صغير وكتب بها الحديث وتفقّه وصار رئيس أصحاب الحديث ببخارا ونواحيها، وتولّى القضاء ببلدان شتّى، وتوفي في جمادى الأولى سنة ثلاث وأربعمائة».

وكان أستاذه أبو بكر الأودني يقول: «أبو عبد الله الحليمي إمام»، ووصفه الحافظ شمس الدين الذهبي في السير بقوله: «القاضي العلّامة، رئيسُ المحدّثين والمتكلمين بما وراء النهر وله مصنّفات نفيسة».

وقال الحليمي عن نفسه: «علّق عنّي القاسم ابن أبي بكر القفال صاحب التقريب أحد عشر جزءا من الفقه».

على أشهر الأقوال توفّي صاحب الترجمة في شهر ربيع الأول من سنة ثلاث وأربعمائة للهجرة ببخارى ودفن بها [الحافظ الذهبي، السير، 17/ 231 ـ 233].

■ آثاره

1 ـ المنهاج في الدين، وهو كتاب جليل في ثلاثة مجلّدات، فيه أحكامٌ كثيرة ومسائل فقهيّة عديدة، وغيرها ممّا يتعلّق بأصول الإيمان وآيات الساعة وأحوال القيامة. وقد أخذ منه كلُّ من صنّف في شعب الإيمان، وذكره له كل من سيزكين، وصاحب كشف الظنون، وإسماعيل باشا البغدادي في هدية العارفين، ذيل كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون في الجزء الأول ص 308 وقال: «حليمي الجرجاني، الحسين بن محمد بن عليّ بن حليم المعروف بالحليمي الجرجاني الشافعي، ولد سنة (338هـ) وتوفي سنة ثلاث وأربعمائة (403هـ) وله منهاج الدين في شعب الإيمان»؛ 2 ـ شعب الإيمان، نصّ عليه الكتّاني في الرسالة المستطرفة فقال: لأبي عبد الله الحسين بن الحسن بن محمد بن حليم، (الحليمي) نسبة إلى جدّه، البخاري الجرجاني نسبة إلى جرجان لكونه وُلد بها، الشافعي العلّامة البارع رئيسُ أهل الحديث بما وراء النهر، القاضي، أحد أصحاب الوجوه وأذكياء زمانه وفرسان النظر، شعبُ الإيمان في نحو ثلاثة مجلّدات، وقد اختصرها أبو محمد عبد الجليل بن موسى القصري وغيره [محمد بن جعفر الكتاني، الرسالة المستطرفة لبيان كتب السنّة المشرّفة، ص 58].

وقال الذهبي في السير: «لم أقع للحليمي بترجمة عامّة، وله عمل جيّد في الحديث لكنّه ليس كالحاكم ولا كعبد الغنيّ، وإنّما خصصته بالذكر لشهرته. ولأبي بكر البيهقي اعتناء بكلام الحليمي، ولاسيّما في كتاب «شعب الإيمان».

وأخبر الشيخ أبو الفضل أحمد بن هبة الله بن تاج الأمناء بقراءة أبي الحجاج الحافظ في سنة (695هـ) فقال: أنبأنا عبد المعزّ بن محمد البزاز، أخبرنا أبو القاسم زاهرُ بنُ طاهر في سنة سبع وعشرين وخمسمائة

(527هـ)، أخبرنا أبو سعد محمد بنُ عبد الرحمان الطيّب، أخبرنا الإمام أبو عبد الله الحسين بن الحسن الحليمي، أخبرنا بكر بن محمد بن حمدان، حدّثنا أحمد بن الحسن، حدّثنا مقاتل ابن إبراهيم، حدّثنا نوح بن أبي مريم، عن يزيد الرقاشي، عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «لصاحب القرآن دعوة مستجابة عند ختمه»، وعلّق عليه بقوله: «هذا حديث غريب لا يثبت مثله لوهن الرقاشي ونوخ في ضبط الحديث».

■ المصادر والمراجع

● السمعاني، عبد الكريم، الأنساب، تح. وتع. عبد الله عمر البارودي، ط 1، دار الجنان، بيروت 1408هـ/ 1988م؛ ● الكتّاني، محمد بن جعفر، الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السيرة المشرّفة، دار البشائر الإسلاميّة، بيروت 1406هـ/ 1986م؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هديّة العارفين، ذيل كشف الظنون، دار الفكر، بيروت (د. ت)؛ ● الصفدي، صلاح الدين، الوافي بالوفيات، دار النشر فرانز سيتايز، فيسبادن ألمانيا 1399هـ/ 1979م.

د . حسن مزيو
جامعة الزيتونة - تونس

■ حليمي، لطف الله بن أبي يوسف بن عبد الحليم

(ت 902هـ/ 1496م)

أسرته من سيواس، ويحتمل أنه ولد في أماسيا وترعرع فيها. ويذكر اسمه في مؤلفاته أحيانا لطف الله وأحيانا أخرى حليمي. ويمر ذكر اسم والده في بعض المؤلفات وتقييدات المكتبات في شكل يوسف في مكان أبي يوسف. وهناك معلومات في بعض المصادر تشير إلى أنه جاء من بلاد العجم ونال شيئا من تحصيل العلم في إيران التي تسود فيها اللغة الفارسية.

عمل حليمي في وظيفة القضاء في عهد كل من السلطان محمد الفاتح والسلطان بايزيد الثاني. ودخل في حماية محمود باشا أحد الصدور العظام في عهد الفاتح. وفي عام 1474، عزل من منصبه وأودع السجن في طوقاط عندما كان قاضيا في سيواس، وذلك بسبب الذين افتروا عليه بُهتانا، لأنه أراد الوقوف في وجه الذين كانوا يشجعون الشهزاده بايزيد عندما كان واليا على أماسيا على شرب الخمر ولعب الميسر وغيرها من طرق الضلال. وأطلق سراحه بعد ثلاثة أشهر قضاها في السجن بعد أن ثبتت براءته. وتأثر حليمي تأثرا كبيرا للمعاملة التي تعرض لها، وبسبب خوفه من أعدائه عرض جميع هذه الاحداث على السلطان محمد الفاتح في

شكل قصيدة باللغة العربية. وفي عام 880هـ/ 1475 ـ 1476م ذهب حليمي إلى استانبول وقام بشرح قصيدته بهدف تقديمها إلى السلطان. وفي هذه الأثناء أرسل السلطان لجنة تحقيق برئاسة الوزير حمزة بك زاده مصطفى باشا إلى أماسيا. ووفقا للتقرير الذي جاء أرسل السلطان فرمانا إلى أماسيا أمر فيه بإعدام بعض الأشخاص الذين يوجدون حول الشهزاده بايزيد، كما أمر كذلك بعزل البعض الآخر.

كان حليمي صاحب معرفة جيدة باللغتين العربية والفارسية. وبالإضافة إلى ذلك كان صاحب معلومات غزيرة في مواضيع المعاجم، والأدب، والطب، والفرائض، وإذا كان عاشق جلبي يقول «إن شعره ونظمه غير مذكور» فإن المؤرخ والأديب مصطفى عالي الغليبولي ـ الذي لم يعجبه الشعراء الأتراك المشهورون مثل نجاتي، وباقي وغيرهما ـ فقد رأى أن حليمي كان صاحب ذوق شعري، ومدح أشعاره وأثنى عليها. وفي عام 882هـ/ 1477م قام بكتابة القرآن الكريم بخط النسخ. وفي العام الموالي ترجمه إلى اللغة الفارسية، وكانت توجد ترجمة القرآن العظيم بين الأسطر بخط التعليق [مكتبة متحف سراي طوب قابي، قسم خزينة الأمانات، رقم 65]. ويبين هذا العمل أنه كان كذلك خطاطا في الوقت نفسه.

لم تكن الفترة الأخيرة من حياة حليمي واضحة. وقام بتقديم الشرح الذي كتبه لمؤلف «بحر الغرائب» وكذلك كتابه المسمى «مصرِّحات الأسماء» الذي ألفه في عام 872هـ/ 1467 ـ 1468م للسلطان بايزيد الثاني. وإذا وضعنا في الاعتبار أنه أكمل الترجمة الفارسية للقرآن الكريم في عام 883هـ/ 1478م، فإنه يمكن القول أنه توفي في عهد بايزيد الثاني (1481 ـ 1512م). وورد في «كشف الظنون» أنه مات مقتولا في عام 900هـ/ 1495م [2/ 1246]. وبعد أن اعتلى بايزيد الثاني العرش أصبح كل من تاجي بك وعبد الرحمن أفندي ـ وهما من أعداء حليمي ـ من المحيطين بالسلطان في عام 887هـ/ 1482م. وبسبب الفتنة التي دبراها له تم إعدامه في العام نفسه [حسين حسام الدين، 3/ 235]. غير أنه وبسبب تأليفه لكتاب «الفرائض» في عام 902هـ/ 1496م، فإنه ينبغي أن تكون وفاته حدثت بعد هذا التاريخ. وتذكر كثير من المصادر أن حليمي توفي في عام 922هـ/ 1516م وأنه كان على قيد الحياة في عهد السلطان ياووز سليم (1512 ـ 1520م)، وهي خلطت بذلك بينه وبين حليمي جلبي ـ الذي كان أستاذا للسلطان سليم الأول ـ والذي توفي في حملة مصر في عام 1516م.

آثاره

1 ـ بحر الغرائب، كتبه المؤلف منظوما في عام 850هـ/ 1446م. ويعتقد أنه قام بتنقيحه من جديد أثناء شغله لوظيفة القضاء في سيواس. وقدمه إلى الشهزاده بايزيد والي أماسيا في تلك الفترة. وقام المؤلف بشرحه بسبب صعوبة فهمه. وتذكر بعض المصادر أنّ المؤلف لم يعط اسما لهذا الشرح ودونه تحت اسم «القائمة» أو «القاسمية»، بينما تستعمل بعض المصادر الاسم الأخير وهو «كلشن زيبا». وتوجد من هذا الشرح نسخ كثيرة في

المكتبات تحمل أسماء مثل «بحر الغرائب» و«لغات حليمي» و«شرح بحر الغرائب» و«إيضاح بحر الغرائب»، غير أن اسمه «لغات حليمي» يعتبر هو الأكثر شهرة. وفي الواقع فإن النص يعرف كذلك بهذا الاسم. ومن الجدير بالذكر أنه لا يمكن التفريق بين النسخ التي تعود إلى النصّ وتلك التي تعود إلى الشرح سواء من خلال المصادر أو من خلال المخطوطات. ويفهم أنه يستعمل اسم أحدهما في مكان الآخر. وبسبب ترتيب القسم الذي يتعلق بالقاموس في «بحر الغرائب» ترتيبا ألفبائيا في الشرح، اعتبر الشرح بهذه الخاصية أول قاموس فارسي - تركي مرتبا ترتيبا ألفبائيا. وقام المؤلف باختصار الدفتر الأول من الشرح الذي يحتوي على قسم القاموس حيث قام بالإبقاء فقط على المقابل التركي للكلمات واستبعد التوضيحات والشواهد الشعرية. وأطلق اسم «نِصَار المُلْك» (872هـ/ 1467م) الذي يقابل بحساب أبجد تاريخ التأليف [أنقرة، المكتبة الوطنية، رقم .A YZ، 1160]. ويعتبر هذا القاموس هو القاموس الفارسي - التركي الثاني الذي يؤلف منظوما في الأناضول بعد قاموس «التحفة الحسامي» لصاحبه حسام الكنوي. وهو يتكون من ثلاثة أبواب، يحتوي الباب الأول على القاموس ويتناول في الباب الثاني مختلف الفوائد والفنون الأدبية، بينما يشتمل الباب الثالث على العروض والنحو. واعتمد قاموس «بحر الغرائب» على مختلف القواميس التي كتبت من قبله. ويعتبر سواء من حيث ترتيبه أو من حيث الأمثلة والشواهد التي احتوى عليها صاحب خاصية أساسية. وأصبح نموذجا ومصدرا لبعض القواميس الفارسية التي كتبت من بعده. وتوجد منه نسخ كثيرة في مكتبات تركيا وأوروبا. وتعتبر النسخة الموجودة في المكتبة الشعبية في أماسيا [رقم 977، عام الاستنساخ هو 910] من أقدم نسخ هذا المؤلف؛ 2 - كتاب طائية الحليمي مع شرحها، هو عبارة عن شرح للقصيدة التي كتبها باللغة العربية والمتكونة من 51 بيتا والتي قام بتقديمها إلى السلطان محمد الفاتح عندما أودع السجن في طوقاط بعد أن أعفي من وظيفة القضاء في سيواس. وتوجد نسخة منه بخط يده (خط التعليق) في مكتبة السليمانية [قسم آياصوفيا، رقم 4088]؛ 3 - كلشن زيبا، مؤلف أكمله في عام 862هـ/ 1457 - 1458م. وقدمه إلى السلطان محمد الفاتح. وتمت كتابته باللغة الفارسية منظوما، وهو مؤلف يدور حول الطب. ويعرف في بعض المصادر بعنوان «القاسمية» أو «منظومة في الطب» [مكتبة السليمانية، قسم الفاتح، رقم 3639]؛ 4 - الترجمة الفارسية للقرآن الكريم، ألفه حليمي في عام 882هـ/ 1477م. وكتب في هذا المصحف معنى كل كلمة أسفل السطر. وقد انتهى من ترجمته في عام 883هـ/ 1478م. وتم وقف هذه الترجمة من قبل السلطان عثمان الثالث في عام 1171هـ/ 1757 - 1758م لـ «دائرة الخرقة النبوية». وتوجد النسخة الوحيدة منه في مكتبة متحف سراي طوب قابي [قسم خزينة الأمانات، رقم 65]؛ 5 - مختصر الأشكال وشرحه، هو عبارة عن شرح واسع كتبه المؤلف فيما بعد للمختصر الذي كتب باللغة العربية والذي يعرف كذلك بـ «فرائض حليمي» [مكتبة السليمانية، قسم الشهيد علي باشا، رقم 1110، مكتبة السليمية في أدرنة، رقم 951]؛ 6 - حاشية

حليمي على الخيالي، [مكتبة السليمانية، قسم محمود باشا، رقم 281/ 2، ورق 133، 237]. وقام سعد الدين التفتازاني بشرح رسالة نجم الدين النسفي التي تدور حول عقائد الإسلام بعنوان «شرح عقائد النسفي»، فكتب شمس الدين أحمد بن موسى الخيالي حاشية لهذا الشرح، ثم جاء حليمي وألف حاشية على حاشية الخيالي هذه المشهورة؛ 7 ـ مصرحات الأسماء، هو عبارة عن قاموس للأسماء، حيث اختار أسماء عربية من بعض المؤلفات مثل «الصحاح» للجوهري و«الجمهرة» لابن دريد و«مجمل اللغة» لابن فارس وغيرها من المؤلفات، وكان يعطي مقابل هذه الأسماء باللغة العربية وأحيانا باللغة الفارسية، وكان يضع الترجمة بين الأسطر. وقد أعده وفقا للألفبائية العربية. وفي عام 872هـ/ 1467 ـ 1468م أتم تأليفه وقدمه إلى بايزيد الثاني. وفي عام 884هـ/ 1479م استنسخت منه عدة نسخ توجد واحدة منها في مكتبة السليمانية [قسم آياصوفيا، رقم 4773، وللاطلاع على بقية النسخ أنظر: قسم لاله لي، رقم 3608/ 1؛ قسم أسعد أفندي، رقم 3275]. وبالإضافة إلى ذلك توجد مخطوطات من المؤلف في مكتبات القاهرة والنمسا؛ 8 ـ مرآة التائبين، [مكتبة السليمانية، قسم عاشر أفندي، رقم 431/ 5، ورق 156 ـ 209]. وهو مؤلف في موضوع التوبة. وكتب في عام 865هـ/ 1460 ـ 1461م باللغة الفارسية؛ 9 ـ رسالة في بيان قواعد المُعمّى، [مكتبة السليمانية، قسم عاشر أفندي، رقم 430/ 34، ورق 143 ـ 146، قسم الشهيد علي باشا، رقم 2634/ 2، ورق 181 ـ 201]. وهو عبارة عن رسالة مدعمة بالأمثلة ومشروحة باللغة التركية، تناول فيها قواعد المعمّى في اللغة الفارسية؛ 10 ـ رسالة في التجنيسات والتشبيهات والمجازات: [مكتبة السليمانية، قسم عاشر أفندي، رقم 430/ 7]. هو رسالة منظومة ومدعمة بالأمثلة (الشواهد) ومشروحة باللغة التركية، تناول فيها قواعد الجناس والتشبيه والمجاز.

المصادر والمراجع

● طاش كوبري زاده، الشقائق النعمانية، نشر أحمد صبحي فرات، استانبول 1405هـ/ 1985م، ص 382 (الهامش)؛ ● عاشق چلبي، مشاهير الشعراء، نشر G. M. Meredith-Owens، لندن 1971، ص 89؛ ● مصطفى عالي الغليبولي، كنه الأخبار ـ قسم التذكرة، إعداد مصطفى إيسن، أنقرة 1994، ص 176؛ ● قنالي زاده حسن چلبي، تذكرة الشعراء، نشر إبراهيم كتلوك، أنقرة 1978 ـ 1981، 1/ 303 ـ 304؛ ● كاتب چلبي، كشف الظنون، 1/ 225، 2/ 1246، 1315؛

● P. Charles Rieu, Catalogue of the Turkish Manuscripts in the British Museum, s. London 1888, 137-139; ● Mehmed Süreyya, Sicill-i Osmânî, Istanbul 1308-1315, II, 241; ● Hüseyin Hüsameddin, Amasya Târihi, Istanbul 1327-1335, III, 229-230, 235 ; ● Bursali Mehmed Tahir, Osmanli Müellifleri, Istanbul 1333-1342, I, 273; ● Carl Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litteratur, II, 289;

Supplementband, II. 312; • Zebîhullah Safa, Târîh-i Edebiyyât der Irân, Tahran 1332-1364 hicri-semsi, IV, 113; • Saîd Nefîsî, Târîh-i nazm ve nesr der Irân, Tahran 1343, I, 258; • Ilhâme Miftâh ve Vehhâb Velî, Nigâhî be-revend-i nüfûz ve güsteres-i zebân ve edeb-i Fârsî der Türkiye, Tahran 1374, p. 221, 337; • Muhammed Emîn Riyâhî, Zebân ve âdâb-i Fârsî der kalemrûy-i Usmânî, Tahran 1369, p. 214 ; • Ali Nakî Münzevî, «Ferhenghâ-yi Arabî be-Fârsî», Lugatnâme-i Dihhudâ, Tahran 1373, Mukaddime cildi, p. 243; • Ramazan Sesen ve diğerleri, Fihrisü mahtûtâti't-tibbi'l-Islamî, Istanbul 1984, p. 203; • Semseddin Sâmî, Kamusu'l-a'lâm, Istanbul 1306-1316, III, 1978; • Yusuf Öz, Tarih Boyunca Farsça-Türkçe Sozlükler, Doktora tezi, Ankara Universitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü, 1996, p. 121, 124-126, 133, 13, 171; • Mustafa Erkan, «Bahrü'l-Garâib», Türkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, Istanbul 1991, IV, 513; • ayni müellif, «Halîmî, Lutfullah», Türkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, Istanbul 1997, XV, 341-343.

د. أحمد أوزال
هيئة الموسوعة الإسلامية ـ استانبول
ترجمة: أنعم محمد عثمان الكباشي ـ السودان

الحليوي، محمد بن عبد السلام

(1325هـ/1907م ـ 1397هـ/1978م)

هو محمد بن عبد السلام بن أحمد بن الشيخ علي الحليوي: ناقد وشاعر ومترجم ومرب. ولد بالقيروان في 3 أوت 1907م، وفيها اختلف إلى الكتّاب، فإلى المدرسة القرآنية عهد خطيب القيروان ووطنيّها الشيخ محمد شويشة. ثم التحق بالمدرسة العربية الفرنسية حيث تخرّج منها سنة 1924 بالشهادة الابتدائية.

وبعد ثلاث سنوات قضاها في القسم الإسلامي من مدرسة ترشيح المعلمين بالعاصمة، انتُدب منذ أكتوبر 1927 للتعليم في المدارس الابتدائية بقرى بني خلاد، وقُربة، ورادس، والقيروان، إلى سنة 1945.

وكان يتابع، توازيا مع مهنة التعليم، دروس الآداب والترجمة في المدرسة العليا للغة والآداب العربية في عهد إدارة المستشرق الفرنسي ويليام مارسي (1872 ـ 1956م).

ومنها تخرج بشهادة "البروفي" في الترجمة

سنة 1930، و«الدبلوم» الأعلى للغة والآداب العربية سنة 1940.

وبداية من أكتوبر 1945م التحق بالمدرسة الثانوية التكميليّة بالقيروان إلى 1956 سنة إشرافه على إدارتها. وفي شهر أكتوبر 1960 انتدب للتدريس في المعهد الثانوي بالقيروان إلى أن أحيل على التقاعد في سبتمبر 1970. وفي غرة سبتمبر 1978 توفي بمرض السكّري، وله من العمر واحد وسبعون عاما.

وعدا مهنة التعليم التي دفعته إلى كتابة مقالات في التربية والتعليم والاجتماع حتى إنه أشرف أوائل الثلاثينات على رئاسة تحرير مجلة التعليم العربي(1920 ـ 1936)، كان له نشاط ثقافي واجتماعي تجلّى في مشاركاته في الأندية الأدبية، والجمعيات الدينية والتربوية، والهياكل النقابية، وانتخابه بعد الاستقلال أول رئيس لبلدية القيروان سنة 1957، وحضور المؤتمرات الأدبية مثل المؤتمر الثالث للأدباء العرب المنعقد بالقاهرة سنة 1957. كما أصبح عضوا في اللجنة الثقافية بالقيروان بداية من سنة 1965.

في شبابه استهواه الشعر فنظم فيه قصائد ومقطوعات متأثرا بأجواء بيئته القيروانية ذات الإرث الشعري التليد، وبمطالعاته للتراث الشعري العربي، ودواوين شعراء النهضة، وخاصة المهجريّين منهم أمثال جبران خليل جبران، وإيليا أبوماضي، وميخائيل نعيمة، وغيرهم: إلا أن شيطان النقد بهر موهبته الشعرية فانجذب إليه طبعًا وقراءةً في ذخائر التراث النقدي العربي مثل العمدة لابن رشيق (ت 456هـ) وغيره، وفي كتب النقاد العرب في العصر الحديث مثل إبراهيم المازني (ت 1949)، والعقاد (ت 1964)، وطه حسين (ت 1973). وقد كانت للعقاد مكانة خاصة عنده، إذ كان أقرب النقاد إلى وجدانه وعقله حتى إنه انتصر له من خصمه مصطفى صادق الرافعي لما هجاه بكتابه «على السفود»، فكتب يرد عليه بمقالة «سفود من رصاص»، أثارت عليه خصوم العقاد في مصر وتونس على السواء.

وكان الرافد الثالث في تكوينه النقدي قراءاته في النقد الفرنسي وأعمال أعلامه المبرّزين أمثال بوالو (ت 1711)، وتين (ت 1893)، وبرونتيير (ت 1907)، وفاغيه (ت 1916)، ولومتر (ت 1914)، ولانسون (ت 1934)، وغيرهم ممن كانوا له مرجعا في أطروحاته وخطابه النقدي.

بهذه الروافد النقدية الثلاثة، وما له من حس نقدي وذوق ورؤى جمالية، انخرط في سلك النقاد بتونس منذ أواخر العشرينات، وبالتحديد أوائل الثلاثينات مع صدور مجلة «العالم الأدبي» (1930)، ثم في مجلات: المباحث، والثريا، والندوة، والفكر، والرسالة، للزيات، وأبولو لأبي شادي، وفي صحف: الزهرة، والنهضة، والزمان، والأسبوع، والصباح، والعمل... إلخ، حيث كتب مبشرا بمنهج جديد ومقاييس معاصرة عن عديد القضايا النقدية تنظيرا وتطبيقا....

وأول ما يسترعي الانتباه عند توصيف نقد الحليوي ومنهجه وخطابه النقدي، هو أنه يشترط الحرية التي لا يكون الناقد نزيها وصادقا وجريئا وموضوعيا بدونها. يقول في مساجلة مع زين العابدين السنوسي حول ابن

رشيق ونقده: «ولست أحارب زعماء المذهب القديم في الأدب لأنهم قدماء كما ادُّعِيَ ذلك عليّ، وإنما أريد أن أكتب بحريّة عن القدماء ولو كساهم القدم ومرور العصر حلّة من القداسة، لأنّنا لا نقول بنظرية تقديس القدامى أو نظرية القائلين: «ما كان أصحّ علم من تقدم!»، لأنها نظرية لا تولّد إلّا العقم والجمود» [في الأدب التونسي، 221].

وإذا ما توافرت هذه الحرية فإن النقد تبعا لسنة التطور يحتم تناول الأدب القديم، فضلا عن الجديد، بمناهج حديثة لتتحقق الإضافة النقدية المرجوّة، والتحرر من التكرار والاجترار لمناهج بليت أساليبها وتكلّست طرقها. وهذا ما عبر عنه في مساجلته السابقة لما قال: «إننا نريد أن نعيد النظر في قيمنا الأدبية الماضية على ضوء ما حصل لدينا من النظريات والمذاهب التي استجدّت خلال ما يفصل بيننا وبينهم من الزمن: فكم من عبقرية مغمورة كشف عنها النقد الحر الحديث! وكم شخصية ضخّمها القدماء وأظهر النظر الحر فراغها وصُفورتها؟ إن مذهب التقديس يشلّ الأفكار، ويجمّد العقول: وإن الأدب العربي في تاريخه الطويل لكالمنجم البكر الذي كلّما زدنا فيه بحثا وتنقيبا أخرج لنا كنوزا تكمن في أكداس التراب» [م. س، 222 ـ 223].

بهذين الشعارين، الحرية والمنهج الحديث، دخل الحليوي عالم الأدب العربي القديم والحديث على السواء ينقد ويغربل، يقيّم ويوجه، يرشد ويدلي برأيه دون مجاملة ومماراة. فالمعري من أحب شعراء العربية لقلبه وأخفهم على نفسه، وأعلقهم بروحه، ولا معنى لما يشاع عما في أدبه من تناقض «لأن التناقض من طبيعة أصحاب الأمزجة السوداء»، ومن تشاؤم لأن تشاؤمه «من النوع الرفيع إذ كان ينطوي على الرحمة»، ثم إن لزومياته لا خطر من ورائها لأنها تعلّم الإنسان كيف يرتفع عن حقارات الدنيا وضوضائها الفارغة: فحبُّها «معناه حب الحقيقة وإيثار الحكمة. . . وحسب الرجل أن يوفّق إلى حمل الناس على التسامي بأنفسهم صُعُدا، وحسب الشاعر أن يُمدّ قراءه بزاد كهذا الزاد» [مباحث ودراسات أدبية، 10 ـ 20].

والحريري هو «إمام كبير من أئمة الأدب العربي»، و«من مفاخر هذا الأدب وكنوزه الثمينة، وفي طليعة الذين خدموه خدمة جليلة في عصر بدأت فيه الآداب العربية في التدهور، وكانت اللغة فيه مهدّدة بالفساد والضعف» [في الأدب، 230]، وليس هو من الجناة عليه كما اتهمه بعضهم لأنه في رأيه قد «جعل غاية الأديب الشعوذة اللفظية التي تكتفي بالجعجعة والطنين غير ملتفت إلى التفكير العميق والشعور الصادق [م. س]، بل إن من أبرز ميزاته تطوير فن المقامة وجعله فنا من فنون الآداب العربية التي امتازت بها على كل الآداب [م. س، 232]، كما أنه «زيادة على ما في مقاماته من الفوائد اللغوية والصور البيانية قد ابتكر شخصية أبي زيد السروجي، وهي شخصية تامة واضحة المعالم لا تقلّ روعة وصدقا عن شخصية الطفل غافروش «Gavroche» في رواية البؤساء لهيجو، أو شخصية «تارتاران» Tartarin للكاتب الفرنسي «دوديه» [م. س].

ولا يختلف نقده للمحدثين والمعاصرين عن

نقده للقدامى، فحافظ إبراهيم بعد خمس وعشرين سنة من وفاته «لم يعد يرضينا، ولم نعد نجد عنده غذاء لعواطفنا وأرواحنا... إن حافظا لم يكن من طراز أولئك الشعراء الصالحين لكل زمان ومكان الذين يستطيعون أن يقدموا للإنسانية في كل أطوارها وأجيالها غذاء فكريا وزادا روحيا، ونورا لا يزداد مع مرور الأيام إلا إشعاعا» [مباحث...، 96].

أما شوقي فسوف «يبقى مقروءا إلى جانب فحول شعراء العربية لا بالموضوعات التي نظم فيها، ولا بالأفكار التي أتى بها بل من أجل أسلوبه الشعري وموسيقى نظمه الرائعة..» [م. س، 102]، ولذلك فهو «يعدّ مفخرة من مفاخر الشعر العربي، وسيظل كذلك إلى ما شاء الله» [م. س].

وتناول بالنقد في فصول أخرى أحمد زكي أبا شادي، وإيليا أبا ماضي [مباحث ودراسات، 89 ـ 93، 103 ـ 112]، وطائفة من الأدباء التونسيين أمثال صالح السويسي، ومحمد بوشربية، وعبد الرزاق كرباكة، ومحمد العربي الكبادي، وغيرهم [في الأدب التونسي، 105 ـ 162]، لكن أبرز من حظي بنقده من هؤلاء صديقه أبو القاسم الشابي الذي خصّه بعديد المقالات جمعها في كتيب «مع الشابي» (1955) وبدراستين آخريين أوردهما في كتابه «في الأدب التونسي» بعنوان «نظرات في ديوان أغاني الحياة» [ص 9 ـ 51]، وأخرى بعنوان «صورة غريبة للشابي» [في الأدب، 259 ـ 270] علق بها على كتاب عمر فروخ «الشاعران معاصران» الذي قارن فيه بين الشابي وإبراهيم طوقان، الصادر سنة 1954 ببيروت.

ولا يظن ظان أن الحليوي قد اقتصر في نقده لصديقه الشابي، كما يحدث عادة بين الأصدقاء، على التمجيد والتنويه والإشادة بعبقريته: إذ كان أقرب إلى الموضوعية منه إلى التقريظ مع أن صديقه مازال على قيد الحياة. وسندلل على هذه الموضوعية ومقاييسه النقدية ومنهجه بدراسة عنوانها: «حول الخيال الشعري عند العرب» كتبها بعد صدوره سنة 1929 في جزئين: أولهما بعنوان «نظرة في الأدب الفرنسي»، وثانيهما بعنوان «نقد الكتاب».

في الأول ردّ على الشابي في أحكامه المعجبة إعجابا لا حدّ له بالأدب الغربي على حساب الأدب العربي. وهو إعجاب «لا يقرّه عليه التاريخ ولا يؤيّده الواقع» [مع الشابي، 8]، خاصة أن الشابي كان يجهل اللغات الغربية وآدابها إلا ما جادت به عليه الترجمات. ثم يناقشه في أخطائه المنهجية بناء على ما قرّرته المناهج العلميّة الوضعيّة عند «تين» القائل بأثر الزمان والمكان أي البيئة في الأدب والأديب، وعند برونتيير في قوله بنظرية التطور التي استقاها من داروين، فيقول له إن الأدب " ككل شيء في هذه الدنيا خاضع لقانون التطور والارتقاء، نازل عند حكم الظروف السياسية والاجتماعية للشعوب، مطبوع بطابع الجنس الذي أنتجه وأحوال البيئة التي نشأ فيها، يسري عليه ما يسري على كل شيء في الكون من رقيّ وانحطاط، ونهوض وكبوة، وهبوب وركود» [م.س، 7]. كما يؤاخذه على نزعته التعميمية إذ هو لم يذكر أيّ أدب غربي يقصد، ولا أيّ مذهب منه يعني. لذلك خصّص الجزء الأول من دراسته لاستعراض نبذة وجيزة من تاريخ الأدب

الفرنسي ومذاهبه، خاصة منها المذهب الرومنسي الذي كان يقصده الشابي دون تسميته، مع أنه أدب لم يقو على البقاء أكثر من ثلث قرن [م. س، 17].

في الجزء الثاني نقد الكتاب نقدا تطبيقيا فدافع عن الأدب العربي ضدّ كلّ من ينفي عنه كل عبقرية خلّاقة، ويصف العقلية العربية بالبساطة والانحطاط والمادية والتعلّق بالأعراض دون الجواهر، وغير ذلك من الأحكام المغرضة التي عرفت قديما عند الشعوبيين، وحديثا عند المستشرقين ومن والاهم من النقاد العرب المجددين المعجبين بالغرب ونقّاده مثل العقاد والشابي اللّذين أرجعا خلوّ أمة العرب من الخيال إلى طبيعة البلاد العربية «أو أن خيالها على الأقل كان ماديا سطحيا وضيعا لا حظّ له من العمق والاتساع» [م. س، 23] كما يتجلى في أساطير العرب، ونظرة الشعر العربي إلى المرأة والطبيعة.

وبعد أن ينكر أن تكون نظرية البيئة هي وحدها السبب الأول في نشأة الخيال واعترافه بأن مشكل الخيال مشكل غامض، يعلن رأيه في القضية فيقول: «وفي رأيي إن أكبر بلية أصيبت بها الآداب العربية فمنعتها من الانطلاق في عوالم الفكر والإبداع هي مصيبة محاكاة الأقدمين وتقليد المتأخر منهم المتقدم. وذلك من امرئ القيس إلى عصرنا الحاضر» [م. س، 25].

وحتى يكتسب شيئا من التجرُّد والموضوعية ينفي عن نفسه استنقاص عمل صديقه والتزهيد في قيمته بأن الشابي من أنصار التجديد في تونس، وهو يتنبّأ للكتاب بأن سيكون له أثر بالغ في الأدب التونسي على الرغم من أنه كان مطبّقا للنظريات الحديثة لا منظّرا.

وبعد هذه المآخذ الجوهرية ذكر أن له على الكتاب مآخذ ثانوية. منها التهجّم على العرب والإسراف حدّ الإحساس بالضجر في استعمال كلمات المادية والانحطاط والتسفّل والبساطة والسذاجة وإلصاقها بالعرب، «ذلك لأن أول الواجبات على الباحث أو الناقد هو أن يدخل إلى بحثه خالي الذهن» [م.س، 29]، وأن يتجرّد من الانحياز إلى جانب دون آخر. كما يؤاخذه لإهمال الشعراء العذريين الذين يدحضون مادية الشعر العربي، ولأخطائه في الموازنة لما قارن شعراء البدو الرحّل بلامرتين وغوته أنبغ شعراء فرنسا وألمانيا.

وفي الختام يشيد بأسلوب الشابي ولغته وتراكيبه وصوره إلى أن يقول: «إننا نعتبر كتاب الخيال الشعري طرفة فنية في الكتابة أكثر منه بحثا علميا يملي على مؤرخ الأدب نظرياته وأحكامه ويضطرّه لاعتماد آرائه واستنتاجاته، نظرا إلى كون مؤلفه لم يتحرّ فيه دقة الباحث المنزّه عن التحامل، والتسرُّع في الأحكام، والتجرّد عن الهوى: نقول ذلك لا تعصّبا للعرب ولا إيثارا لأدبهم دون غيره، أو شفقة عليه من معاول الهدم، بل نقوله انتصارا للحق ودفاعا عن أساليب البحث العلمي وطرائقه» [م. س، 34].

ومن دراساته النقدية الجديرة بالتنويه تلك التي كتبها في النقد المقارن بين الجاحظ وفولتير، وبين ابن رشيق وبوالو. فبعد أن يبحث في الدراسة الأولى عن المتشابهات بين الأولين في ظروف الحياة والمزاج الخلقي والنواحي الفكرية وفي طرائق البيان والكتابة، يجد بينهما تقاربا إلى درجة أنه، فيما يقول، «لو جاز لنا أن نأخذ بالعقيدة الهندية عن تناسخ

الأرواح لقلنا إن روح الجاحظ في القرن التاسع المسيحي حلّت في روح فولتير في القرن الثامن عشر» [مباحث، 47 ـ 48]. أما عن ابن رشيق وبوالو فينفي، رغم ما بينهما من تشابه واتفاق، عن الثاني التأثر بالأول لأن كتاب العمدة ليس من الكتب التي تفيد الأدب الفرنسي حتى يترجم إلى الفرنسية مع ما ترجم من كتب الطب والحكمة والأمثال والحكايات . . إلخ. وفي الأخير وبعد البحث والمقارنة بينهما يصل إلى نتيجة هي «أن النقد في الأدبين العربي والفرنسي لا تختلف مذاهبه في الأصول والأسس، وإن اختلفت فروعه وتفاصيله. وهذا حق، خصوصا في مناهج النقد القديمة. وليس ذلك بعجيب فإن من صفات الأدب العالي أن يكون ما يستحسن منه عند أمة هو نفس ما يستحسن عند أمة أخرى. وتلك هي سمة العالميّة التي تلتقي فيها كلّ الآداب الرفيعة الحية» [مباحث، 42]. وهكذا يكون الحليوي بهذه المقارنات من أوائل النقاد التونسيّين الذين مهّدوا لظهور النقد المقارن بتونس، ونبّهوا إلى سمة العالمية بين الآداب.

ومن القضايا الهامة التي عالجها الحليوي في أكثر من مناسبة التعريف الحديث ببعض المفاهيم مثل مفهوم الشعر والشاعر. وهو في تعريفه لهما يكثر من نعوت الشعر الخالد [في الأدب التونسي، 203]، والشعر الأصيل [مباحث، 12]، والشاعر الحق [في الأدب، 218]، والشاعر الحقيقي [مباحث، 12]، وسنكتفي من تعريفاته وإشاراته إلى وظائفهما بقوله عنهما معا: «فأين نحن من حقيقة الشعر الخالد؟ الشعر الذي هو أجلُّ وأعلى صورة يتجلّى فيها الفكر الإنساني؛ الشعر الذي يستمدّ من الوجود مادته ومن القلب وحيه، ومن الموسيقى وقعه ونغمته؛ الشعر الذي يخاطب الحواسّ بماديّة اللفظ، ويناجي الروح بنورانيّة المعاني، فيستولي على الإنسان كله جسما وروحا، ويرفعه إلى الملائكة، ويقرّبه من حظيرة القدس، فيعبُّ من نهر الحياة، وينتشي بخمرة الجمال. وأين نحن من حقيقة الشاعر؟ الشاعر الذي هو رسول الحياة لأبنائها الضائعين في دروبها الغامضة والمدلجين في ظلماتها المدلهمّة، الشاعر الذي هو رائد الحضارة، وباعث الثورة وحامل شعلة النور الإلهي إلى الأمم الراسفة في أغلال العبودية، الماشية في حالك الظلمات» [في الأدب التونسي، 203].

وتكون هذه التعاريف، وغيرها من المقاييس الجديدة التي دان بها من عوامل تفضيل شاعر على آخر مثلما فعل بعد الاستفتاء الذي قام به زين العابدين السنوسي سنة 1932 في مجلة «العالم الأدبي» لانتخاب الشعراء الثلاثة، فيؤكد أن مقياس انتخاب هؤلاء الشعراء إنما يتمثل في أنهم أولئك الذين «انتهى إليهم تمثيل عصرهم في أخلاقه وعاداته ومطامحه وأمياله ونزعاته، وبعبارة أشمل هم مرآة عصرهم ومعاصريه. . .» [مع الشابي، 40]، كما يرى أيضا «وقد يكون أصحّ مقياس تقاس به عظمة الشاعر سعة شهرته وتخطّي اسمه قصيّ الآفاق وراء مديد البحار» [م. س]. ولكن الشابي على إعجابه بمقال الحليوي يستغرب منه ذينك المقياسين لأن الأول مما يحتم عليه القول بأن الشعر يجب أن يكون خادما أمينا للتاريخ، والاعتراف بعظمة أولئك

الشعراء المزيّفين الذين تلدهم عصور الانحطاط [مع الشابي، 51 ـ 52]، وأن الثاني، وهو مقياس الشهرة، «هو في الحقيقة مقياس مريح سهل التناول. . . إلا أنه متسامح أكثر مما يجب، والمقاييس ـ عادة ـ إنما تُبنى على فكرة الضبط والدقة والإحكام» [م. س، 55].

وهكذا نرى أن محمد الحليوي قد خاض في كثير من المسائل والقضايا والمعارك النقدية. فمما حفلت به آثاره ولم نتعرض له نذكر تمثيلا لا حصرا: نقد ابن رشيق حدّ اتهامه في العمدة بالاختلال والاستطراد والفوضى والتناقض والتكرار، واعتباره عالما راوية لا نقّادة، وهو ما جرّ عليه معركة نقدية مع صديقه زين العابدين السنوسي، والصراع بين القديم والجديد، والصدق في الأدب، ولصوصية الشعر، والاتجاهات الشعرية، والشعر العمودي، والشعر الحر، والالتزام، وسمات الشعر المعاصر من تجربة ووحدة عضوية وصورة شعرية، والنقد العربي المعاصر. . . إلخ، كما نشر دراسات يعرف فيها القارئ التونسي والعربي بأعلام الأدب الفرنسي ومذاهبه مثل الرومنتيسم في الأدب الفرنسي، ولامرتين، وألفريد دي فيني، وألفريد دي موسيه. . : وألقى من محطة تونس الإذاعية أحاديث أدبية عن الأدب الفرنسي الكلاسيكي (1938 ـ 1940)، وترجم عدة قصائد عن الفرنسية حتى عُدّ من التراجمة التونسيين . . . إلخ.

ومن كل هذه المساهمات النقدية للحليوي، ما ذكرنا وما لم نذكر، ندرك أنه قد أسهم في ظهور الناقد التونسي المتخصص، سواء بتنشيط الحركة النقدية، أو بتقويم المفاهيم، أو بالتجديد في طرح القضايا والإبداع، أو بخطابه النقدي المتميز بالحماس والشدة والجرأة. أما منهجه النقدي فقد تبنّى فيه، وإن باعتدال، مقولات المنهج الوضعي كما بشر بها سانت بوف، وتين، وبرونتيير، في قولهم على التوالي بسيرة الأديب، والبيئة، والتطور. لكنه للتخفيف من جفافها العلمي أضاف إليها عنصر الذوق حسب ما ورد في ردّه على عمر فروخ الذي عاب منهجه بالبعد عن المنهج العلمي، فقال له: «نحن لا نؤمن كثيرا بهذا المنهج العلمي ودراسة الشعراء إذا لم يضف إليه عنصر الذوق» [المطوي، محمد الحليوي ناقدا وأديبا، 246].

ومن ميزات الحليوي في خطابه النقدي كذلك وفي أدبه المقالي أيضا أسلوبه الجزل الرصين، ولغته المشرقة الصافية، وتحليله الدقيق، وفكره المنطقي، وسلامة ذوقه الفني. ولا غرو في أن يكون كذلك هو الذي تغذّى بروائع التراث العربي شعرا ونثرا، ونهل من روائع الأساليب العربية الحديثة لدى طه حسين والعقاد وجبران وغيرهم، وأضاف إلى كلّ ذلك اطّلاعه على الآداب الفرنسية، والفلسفة، وعلوم التربية والنفس والجمال.

آثاره

1 ـ مع الشابي، سلسلة كتاب البعث، عدد 2، تونس نوفمبر 1955؛ 2 ـ رسائل الشابي، تونس 1966، منشورات دار المغرب العربي؛ 3 ـ في الأدب التونسي، تونس 1969، الدار التونسية للنشر؛ 4 ـ مباحث ودراسات أدبية، تونس 1977، الشركة التونسية للتوزيع؛ 5 ـ تأملات (ديوان شعري)، تونس 1987،

المؤسسة الوطنية للترجمة والتحقيق والدراسات، بيت الحكمة.

المصادر والمراجع

1 ـ الكتب:

● ابن عاشور محمد الفاضل، الحركة الأدبية والفكرية في تونس، ط1، القاهرة 1956، الدار التونسية للنشر، وط2، تونس 1972، ص 84؛ ● محمد الحليوي، رسائل الشابي، تونس 1966، منشورات دار المغرب العربي؛ ● الجابري محمد صالح، الشعر التونسي المعاصر 1870 ـ 1970، تونس 1974، الشركة التونسية للتوزيع، الفصل الرابع؛ ● محفوظ، محمد: تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1982، 2/ 168 ـ 170؛ ● المطوي، محمد الهادي، محمد الحليوي ناقداً وأديباً، تونس 1984، الدار العربية للكتاب؛ ● مواعدة محمد، حركة الترجمة بتونس، الدار العربية للكتاب، تونس 1986؛ ● كرو، أبو القاسم الشابي (موسوعة)، مج 2، تونس 1994، دار المغرب العربي؛

2 ـ الدوريات:

● الندوة، مج 4، عدد 9، ديسمبر 1956، ص 20 ـ 28 ● الفكر (عدد خاص بالأربعينية)، مج 24، عدد3، ديسمبر 1978 ● حوليات الجامعة التونسية 1978، عدد 16، ص243 ـ 250.

● Jaafar Majed, La Presse Litteraire en Tunisie de 1904- 1955, Tunes 1979.

د. محمد الهادي الطاهر المطوي
الجامعة التونسية

ابن حماد، أبو إسحاق إسماعيل بن اسحاق

(200هـ/816م ـ 282هـ/896م)

أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد بن درهم الجهضمي الأزدي مولى آل جرير بن حازم، البصري ثم البغدادي.

الأزدي: نسبة إلى الأزد إحدى القبائل اليمنية، نسب إليهم بالولاء.

والجهضمي: نسبة إلى الجهاضمة، وهي محلّة نسبت إلى الجهاضمة بطن من الأزد، ينسبون إلى جهضم بن عوف بن مالك، على ما ذكر ابن الأثير.

وأسرته من أجلّ بيوت العلم والفضل والسؤدد والجاه بالعراق: ابتداء بجد والده الإمام حماد بن زيد، أنجبت أعلاما خدموا المذهب المالكي ونشروه ورووا الحديث والسنن،

وذاع صيتهم، وتردّد العلم في طبقاتهم نحو ثلاثمائة عام من زمن جدّهم الإمام حماد بن زيد وأخيه سعيد، إلى وفاة آخر من وصف منهم بعلم المعروف ابن أبي يعلى المتوفّى قرب عام 400 للهجرة. وكان فيهم - على اتّساع الدنيا لهم - رجال صدق وخير، وأيمّة ورع وعلم وفضل.

اختلف في سنة ولادة إسماعيل بن إسحاق، فذهب ابن الجوزي والذهبي إلى أنّها سنة 199هـ، وذهب نفطويه والخطيب البغدادي وعياض إلى أنها سنة 200هـ. والراجح هو التاريخ الثاني لأنّ نفطويه معاصر له ولأنه ذكر أنه عاش 82 سنة، مع الاتفاق على أنّ الوفاة كانت سنة 282هـ ولأنّ الخطيب البغدادي أعرف بالعراقيين وعياض أعرف بأعلام المالكية.

أمّا نشأته فكانت في الجو العلمي الذي حظي فيه بتربية صالحة وعناية أسرية كان لهما الأثر في توجّهه نحو العلم الشرعي والخلق الكريم منذ زمن مبكّر، قال الحافظ الذهبي: «اعتنى بالعلم من الصغر».

حظي القاضي إسماعيل بن إسحاق بالاستفادة من كثير من مشيخة عصره أخذا ورواية، فقد طلب العلم بالبصرة وسوق العلم والثقافة بها نافقة. ثمّ انتقل إلى عاصمة الخلافة بغداد مواصلا الأخذ عن علمائها، وهي في أزهى عهود مجدها ورقيّها، وقد وصفها الخطيب البغدادي بقوله: فيها «الأحوال الجميلة والحذاق في كل صنعة، والأمن من ظهور البدع، والاغتباط بكثرة العلماء والمتعلّمين والفقهاء والمتفقّهين، ورؤساء المتكلّمين، وسادة الحساب والنحويين ومجيدي الشعراء ورواة الأخبار والأنساب وفنون الأدب».

كان من شيوخه البغداديون والوافدون على بغداد، وكان منهم من التقى به في رحلة حجه، وكان منهم الأعلام في مختلف فنون العلم والمعرفة، ولئن كان يعسر استقصاؤهم، فإننا نكتفي بإيراد ثلّة منهم: أبو العباس أحمد ابن المعذل بن يغلان العبدي البصري، شيخ المالكية بالبصرة، وأبو محمد حجاج بن منهال البصري الأنماطي (ت 216هـ) الحافظ العابد الحجة، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن مسلمة بن قعنب القعنبي المدني الامام الثبت (ت 221هـ)، وعاصم بن علي بن عاصم بن صهيب الحافظ الصدوق الواسطي (ت 221هـ)، وأبو أيوب سليمان بن حرب بن بجيل الأزدي البصري الثقة الحافظ (ت 224هـ)، وحفص بن عمر بن الحارث بن سخبرة الأزدي البصري المعروف بالحوضي (ت 225هـ)، وإسماعيل بن أبي أويس الإمام الحافظ ابن أخت الإمام مالك (ت 226هـ).

بذل القاضي اسماعيل بالغ الجهد في تدريس العلم ونشر الفقه المالكي وأصوله، وأخذت عنه طبقة عريضة يتعذّر حصر عددها، وقد سمي القاضي عياض جماعة من تلاميذه ثم قال عاطفا: «وخلق عظيم، وبه تفقّه أهل العراق من المالكية».

ومن أسماء بعض مشاهير طلبته: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي صاحب السنن الحافظ ناقد الحديث (ت 303هـ)، وأبو إسحاق إبراهيم بن حماد الأزدي شيخ الاسلام ولد أخي القاضي إسماعيل (ت 323هـ)، وأبو عبد الله إبراهيم بن محمد

نفطويه العتكي الواسطي (ت 323هـ)، وأبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم البحري، محدّث جرجان الحافظ (ت 337هـ)، وأبو علي إسماعيل بن محمد الصفار الملحي البغدادي الأديب النحوي (ت 341هـ)، وأبو بكر أحمد بن إسحاق بن أيوب النيسابوري الشافعي الصبغي المفتي المحدّث (ت 342هـ).

في سنة 246 هـ أمر الخليفة المتوكّل قاضي القضاة بـ«سر من رأى» جعفر الهاشمي أن يولي إسماعيل بن إسحاق قضاء الجانب الشرقي من بغداد إثر موت القاضي سوّار بن عبد الله، وفي سنة 262هـ جمع له قضاء الجانبين الشرقي والغربي وصار مقدما على سائر القضاة، وروي عن مكي بن أبي طالب قوله: «كان إسماعيل من سادة القضاة وعقلائهم».

وكان القاضي اسماعيل مسدّدا في قضائه عدلا عفيفا، كما شهد مترجموه.

قال عنه وكيع: «كان عفيفا صليبا فهما، من أهل العلم والحديث، من الفقهاء على مذهب مالك بن أنس، يعتلّ ويحتجّ، وعمل كتبا وحملها الناس».

وقال نصر الجهضمي: «ليس في آل حماد بن زيد رجل أفضل من إسماعيل بن اسحاق».

بعد حياة حافلة بالعمل الصالح انتقل القاضي إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد إلى رحمة ربه ليلة الإربعاء لثمان بقين من ذي الحجة سنة 282هـ ببغداد.

آثاره

كان القاضي إسماعيل في أكثر أوقاته وبعد فراغه من الخصوم متشاغلا بالعلم، وقد صرف الكثير من جهده في التأليف، وتناولت مؤلّفاته علوم القرآن، والحديث النبوي، والفقه وأصوله، والتاريخ، وأكثرها في عداد التراث المفقود ولم يصلنا منها إلّا القليل الذي طبع بعضه وتوفّر للقراء.

والمعروف من تآليفه المفيدة:

أ - في علوم القران:

1 - الاحتجاج بالقرآن؛ 2 - أحكام القرآن، قال عنه الذهبي: «لم يُسبق إلى مثله»، توجد منه قطعة مخطوطة عتيقة في 53 لوحة مبتورة الأول والاخر بخط أندلسي قديم في متحف الحضارة برقادة من ضواحي القيروان؛ 3 - القراءات؛ 4 - معاني القرآن وإعرابه، نوّه بأهمّيته أبو العباس المبرد.

ب - في الحديث:

5 - جزء حديث أم زرع؛ 6 - حديث مالك؛ 7 - زيادات الجامع من الموطإ؛ 8 - السنن؛ 9 - شواهد الموطا؛ 10 - مسند حديث ثابت البناني؛ 11 - مسند العشرة؛ 12 - العلل من روايته عن ابن المديني؛ 13 - الشفعة وما روى فيها من الآثار.

ج - في الفقه:

14 - المبسوط، موسوعة فقهية معتمدة في المذهب كثر النقل عنها؛ 15 - مختصر المبسوط؛ 16 - الفرائض؛ 17 - الأموال والمغازي.

واتّجهت بعض كتبه الفقهية إلى مناقشة بعض المذاهب، فألّف في الرد على محمد بن الحسن الشيباني وفي الرد على الإمام الشافعي

في مسألة الخمس. وله تأليف حرّر فيه الكلام على مسألة المني يصيب الثوب.

د ـ في أصول الفقه:

18 ـ كتاب الأصول.

هـ ـ وفي غير ذلك من الفنون له:

19 ـ أهوال القيامة؛ 20 ـ الأخلاق النبوية، في الشمائل، رواه عنه أبو سهل أحمد القطان (ت 350هـ)؛ 21 ـ أقضية شريح قاضي الكوفة، جمع فيه بعدّة أسانيد أحكام القاضي شريح؛ 22 ـ فضل الصلاة على النبي، رواه عنه أبو القاسم بن الجراب. اشتهر هذا الكتاب، ونقل منه ابن القيم في كتابه «جلاء الأفهام في الصلاة والسلام على خير الأنام».

نشر ببيروت سنة 1963م بتحقيق محمد ناصر الدين الألباني، وبالدمام سنة 1996م بتحقيق عبد الحق التركماني، وبالمدينة المنوّرة سنة 2000م بتحقيق حسين محمد علي شكري.

المصادر والمراجع

● الوكيع، محمد بن خلف، أخبار القضاة، عالم الكتب، بيروت؛ ● الخليلي، أبو يعلى، الإرشاد في معرفة علماء الحديث، تح. محمد سعيد إدريس، مكتبة الرشد، الرياض 1989م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ط9، دار العلم للملايين، بيروت؛ ● مصطفى عوض، وربيع عبد الباقي، الإعلام بوفيّات الأعلام، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت 1413هـ؛ ● ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية، تح. عبد الله ابن عبد المحسن التركي، هجر للطباعة والنشر، 1417هـ/ 1997م؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية د. رمضان عبد التواب، والسيد يعقوب، دار المعارف، مصر 1975م؛ ● الذهبي، أبو عبد الله محمد، تاريخ الاسلام، تح. عمر تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت 1407هـ؛ ● البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، مكتبة الخانجي، القاهرة ومكتبة العربية، بغداد 1349هـ؛ ● الذهبي، أبو عبد الله محمد، تذكرة الحفاظ، تصحيح عبد الرحمن المعلمي، دار إحياء التراث؛ ● القاضي عياض، ترتيب المدارك، تح. محمد بن تاويت وآخرين، وزارة الأوقاف بالمغرب؛ ● ابن نقطة، أبو بكر محمد، التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد، دار الكتاب العربي، بيروت؛ ● الرازي، أبو حاتم، الجرح والتعديل، تح. سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت 1414هـ؛ ● ابن فرحون، برهان الدين إبراهيم، الديباج المذهّب؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. شعيب الأرناؤوط ومن معه، مؤسسة الرسالة؛ ● مخلوف، محمد، شجرة النور الزكية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان؛ ● الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب، مكتبة القدس؛ ● السيوطي، طبقات الحفّاظ، دار الكتب العلمية، بيروت 1403هـ؛ ● الصالحي، أبو عبد الله محمد، طبقات علماء الحديث؛

● الشيرازي، أبو إسحاق، طبقات الفقهاء، دار الرائد العربي، بيروت؛ ● الأدنوي، أحمد، طبقات المفسّرين، تح. سليمان الخزي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة 1417هـ؛ ● الذهبي، العبر في خبر من غبر، تح. فؤاد سيّد، دائرة المطبوعات والنشر، الكويت 1961؛ ● ابن الجزري، غاية النهاية، ط3، دار الكتب العلمية، بيروت، 1982م؛ ● ابن النديم، الفهرست؛ ● ابن بشكوال، الفوائد المنتخبة، مخطوط الفاتيكان 128؛ ● الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، تح. فريد الجندي، دار الكتب العلمية، بيروت 1410؛ ● النباهي، أبو الحسن، المرقبة العليا، تح. المرعشلي، دار المعرفة، بيروت 1992؛ ● ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، دار الكتب العلمية، بيروت 1992؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، جمعية المستشرقين الألمانية 1381هـ .

د. محمد هشام النعسان
معهد التراث العلمي العربي
حلب - سوريا

حمّاد الرّاوية، بن ميسرة بن المبارك

(95هـ/714م - 155هـ/772م)

حمّاد بن ميسرة - وقيل ابن سابور أو ابن هرمز - بن المبارك بن عبيد الديلمي. ولد بالكوفة سنة 95 للهجرة. اختلف في ولائه، قيل كان مولى بني شيبان، وقال آخرون كان مولى مكنف بن زيد الخيل الطائي.

شهد له العلماء بأنّه كان من أعلم الناس بأيام العرب وأخبارها وأشعارها وأنسابها ولغاتها، وهو الذي جمع السبع الطوال التي عرفت بالمعلّقات.

كان لحمّاد منزلة متقدّمة لدى ملوك بني أميّة، كانوا يستزيرونه ويسألونه عن أشعار العرب وأيامهم ويغدقون عليه صلاتهم، فلمّا دالت دولتهم وقامت دولة بني العبّاس تضاءلت منزلته.

ذكروا أنه كان في أوّل أمره يصحب الصعاليك واللصوص، وأنّه نقب بيتًا ذات يوم وأخذ ما فيه فوجد فيما أخذه شيئًا من شعر الأنصار، فقرأه وأعجب به فحفظه، ومنذ ذلك الحين تغيّر مجرى حياته، فتخلّى عن حياة اللصوصية وأخذ يحفظ شعر الشعراء، وأخبار العرب وأيامها حتّى غدا من أعلم الناس بها؛ وتجلّت منذ ذلك الحين موهبته الشعرية فقال الشعر وأجاده.

لم يكن حمّاد ممّن عُرفوا بصدق التديّن، وقد ذكروا أنه كان بالكوفة ثلاثة حمّادين وهم:

حمّاد عجرد، وحمّاد بن الزبرقان، وحمّاد الراوية، وكانوا يتنادمون على الشراب ويتناشدون الأشعار، وكلّهم كانوا متّهمين بالزندقة.

لُقّب حمّاد بالراوية لمحفوظه من الشعر وروايته له، وقد سأله الخليفة الوليد بن يزيد: بِمَ استحققت هذا اللقب فقيل لك الراوية؟ فقال: لأنني أروي لكل شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين، أو سمعت به، ثمّ أروي لأكثر منهم ممّن تعرف أنّك لم تعرفه ولم تسمع به، ثم لا أُنشد شعرا قديمًا ولا محدَثًا إلّا ميّزت القديم منه من المحدث. فسأله الوليد: كم مقدار ما تحفظ من الشعر؟ فأجاب: أحفظ الكثير، وأنا أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة ـ سوى المقطعات ـ من شعر الجاهليّة. فقال له الوليد: سأمتحنك. وأمره بالإنشاد، فمازال ينشده حتّى ضجر الوليد، فوكّل به من يسمعه. فيقال إنه أنشد ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهليين، فأمر له الوليد بمائة ألف درهم.

وقد لا تخلو هذه الأخبار من مبالغة في مقدرة حماد على حفظ الشعر، ولكن من المحقق أنه كانت له ذاكرة قويّة تسعفه في حفظ الكثير من قصائد الشعر.

اتّصل حماد بملوك بني أميّة الذين عاصرهم، وكان منقطعا في أوّل أمره إلى يزيد بن عبد الملك (101 ـ 105هـ)، فلمّا توفّي يزيد وأفضت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك (105 ـ 125هـ) خاف حمّاد أن يناله منه شرّ لانقطاعه إلى أخيه يزيد قبله، فتوارى سنة في بيته، ثمّ خُيّل إليه أنّ هشاما قد غفل عنه، فدخل مسجدًا لصلاة الجمعة، فلمّا فرغ منها إذ شرطيان يقدمان عليه ويطلبان إليه المثول بين يدي والي العراق خالد بن عبد الله القسري (وفي بعض الروايات يوسف بن عمر الثقفي ولكن هذا لا يصحّ لأنّ هشام بن عبد الملك ولّاه العراق سنة 121هـ)، فلمّا وقف بين يديه قرأ عليه كتابًا من الخليفة يطلب إليه إحضار حمّاد مكرّما ووصله بمال، فلمّا قدم حمّاد على هشام سأله عن قائل بيت من الشعر خطر بباله ولم يعرف قائله، فأخبره حمّاد باسم الشاعر وأنشده تمام الأبيات، فأعجب هشام بسعة حفظه ووصله بمال وأهداه جاريتين.

ثمّ اتّصل بعد هشام بالوليد بن يزيد، فقد استدعاه من الكوفة واستنشده ما يحفظه من الشعر، فأنشده، فأعجب به الوليد، وأجزل صلته.

فلما دالت دولة بني أميّة وتولّى بنو العباس زمام الخلافة، تضاءلت مكانة حمّاد لديهم، ومع ذلك نجد له أخبارا مع المنصور ثمّ مع ابنه المهدي، وفي زمنه افتضح أمر حمّاد في انتحال الشعر ووضعه، فقد جمع المهدي بينه وبين المفضّل الضبي الراوية الموثوق بصدقه، فنحل ـ فيما يذكرون ـ حمّاد زهيرًا أبياتًا زعم أنها مقدمة قصيدته التي يقول منها:

دع ذا وعدّ القول في هرم
خير البُداة وسيّد الحَضْر

فأنكر المفضّل مقالته، واستحلفه المهدي أن يصدقه، فأقرّ أنّ الأبيات المضافة إلى القصيدة هي من وضعه، فأعلن المهدي كذب حمّاد على الناس.

وقد اتّهم المفضّل الضبّي حمّاد بوضع الشعر وانتحاله فقال: «قد سُلّط على الشعر من حمّاد

الراوية ما أفسده فلا يصلح أبدًا. فقيل له: وكيف ذلك؟ أيخطىء في روايته أم يلحن؟ فقال: ليته كان كذلك، فإنّ أهل العلم يردّون من أخطأ إلى الصواب، لا، ولكنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم، فلا يزال يقول الشعر يُشبه به مذهب رجل ويدخله في شعره، ويُحمَل ذلك عنه في الآفاق، فتختلط أشعار القدماء، ولا يتميّز الصحيح منها إلّا عند عالم ناقد، وأين ذلك؟

وممّن طعن في صحّة رواية حمّاد أيضًا ابن سلام الجمحي في مقدّمة كتابه «طبقات فحول الشعراء»، قال: «وكان أوّل من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حمّاد الراوية، وكان غير موثوق به، وكان ينحل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره، ويزيد في الأشعار». وقال أيضًا: «سمعت يونس يقول: العجب ممّن يأخذ عن حمّاد، كان يكذب ويلحن ويكسر».

وطعن ابن خلكان في معرفة حمّاد بالعربية فقال: «كان حمّاد قليل البضاعة من العربية، قيل إنه حفظ القرآن الكريم من المصحف، فصحّف في نيّف وثلاثين حرفًا».

ومهما يقل في حمّاد، فالأقوال تتفق في أنّه كان أوّل من جمع أشعار العرب وأخبارها، وهو الذي روى المعلّقات السبع. بل إننا نجد في ترجمة حمّاد في الأغاني أخبارًا تدلّ على معرفته الجيّدة بمعاني الشعر وألفاظه، وكان يتحدّى أحيانا العلماء بالعربية في تفسير بعض ألفاظ وردت في أشعار القدماء. وذكر أبو عمرو الشيباني أن أبا عمرو بن العلاء، وهو العلّامة اللغوي المشهور، ما سُئل عن حمّاد إلّا قدّمه على نفسه، وما سُئل حمّاد عن أبي عمرو بن العلاء إلّا قدّمه على نفسه. فشهادة أبي عمرو بن العلاء قد تبرىء حمّادًا من بعض ما نُسب إليه.

د. إحسان النص
نائب رئيس مجمع اللغة العربية
دمشق ـ سوريا

ابن حماد الصنهاجي، أبو عبد الله محمد

(548هـ/1154م ـ 628هـ/1231م)

أبو عبد الله محمد بن حماد بن عيسى بن أبي بكر الصنهاجي القلعي، مؤرّخ وفقيه وصوفي وشاعر وأديب وقاض. ولد حوالي سنة 548هـ/ 1154م بسوق حمزة إحدى مدن الدولة الحمادية حيث نشأ وتربّى؛ ثم انتقل إلى مدينة القلعة ليأخذ عن علمائها، وبعد ذلك انتقل إلى بجاية فأخذ بها عن شيخ الصوفية أبي مدين شعيب كتاب أبي حامد الغزالي، «المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى». وأخذ الفقه عن الفقيه ابن عبد الحق الإشبيلي من كتاب «الموطأ»، والفقيه أبي علي المسيلي، وتلقى الحديث عن

المحدّث القلعي أبي الحسن علي بن محمد ابن عبد الرحمٰن التميمي، وحفظ القرآن على القاسم بن النعمان أحد أحفاد الأمير الحمادي الناصر بن علناس [ابن عبد الملك، الذيل والتكملة، ص 332 ـ 324].

وبعد أن أكمل تحصيله العلمي على علماء بلده تنقّل بين أمصار المغرب الثقافية ليأخذ عن علمائها، فزار جزائر بني مزغنة، وتلمسان، وفاس، ثم انتقل إلى الأندلس فأخذ عن علماء مرسية وإشبيلية [الذيل والتكملة، ص 324]. وظلّ بعد هذا الانتقال يأخذ عن علماء المغرب، ويتلقى إجازاتهم مثل العالم التلمساني عبد الحق، فرد عليه شاكرا بأبيات شعرية [م. س، ص 325].

لقد دوّن ابن حمّاد تحصيله العلمي في «برنامج» ذكر فيه مشيخته ومقرآته من الكتب، فاشتمل على مائتين وعشرين كتابا كلّها مسندة إلى مؤلفيها [مخلوف، شجرة النور الزكية، ص 185]. وبعد أن أكمل تعلمه أسندت إليه خطّة القضاء فتولّاها للموحّدين في كل من المغرب والأندلس. من ذلك قضاء الجزيرة ثمّ قضاء مدينة سلا سنة 613هـ/ 1216م [الذيل والتكملة، ص 324]. واستوطن بعد ذلك مدينة مراكش إلى أن توفّي بها سنة 628هـ/ 1231م. لقد تعيّش ابن حماد من التعليم بعد سقوط دولة الحماديين، فتتلمذ على يديه الكثيرون من العلماء بالمغرب والأندلس [م. س، ص 324].

يعتبر ابن حماد من علماء القرن السابع الهجري فقد كان محدثا أديبا ومؤرّخا عالما بفنون وقواعد اللغة، والصرف، والنحو، واللغة، والأدب، والتفسير، وفقيها مطّلعا على القراءات والحديث وعلم الأصول والتاريخ. وممّا يدلّ على سعة اطّلاعه وغزارة علمه ودقّة تحقيقاته ما ذكره في برنامجه من شيوخه ومن قراءاته، فقد أثبت 242 مصنّفا درسها وأسندها كلّها إلى مؤلّفيها. وابن حماد مع سعة معرفته الفقهية واللغوية واهتمامه بالتاريخ، كان يعتبر من شعراء عصره.

ومن أشهر كتبه «أخبار بني عبيد وسيرتهم» ألّفه في حدود سنة 617هـ/ 1220م، وضمّنه عرضًا لتاريخ بني عبيد ابتداء من دعوة أبي عبد الله الشيعي وقضائه على أغالبة القيروان والأئمّة الرستميين بتهرت واستيلائه على سجلماسة، وأورد فيه روايات عن حكم أبي عبد الله المهدي وأبنائه وأخبارهم مع الثائر أبي يزيد مخلد بن كيداد الملقّب بصاحب الحمار، وتصدي أبي القاسم محمد (323هـ/ 934م ـ 335هـ/ 946م) له، وقضاء الخليفة إسماعيل المنصور عليه، كما أدرج في كتابه هذا معلومات عن انتقال المعز لدين الله من بلاد المغرب إلى مصر (361هـ/ 972م) وعن حكم الخلفاء الفاطميين بمصر بَدءًا من العزيز بالله وانتهاء بالعاضد لدين الله.

أما مصدر روايته وأخباره فهي كما يقول: «هذه جملة من أخبار بني عبيد قيّدتها في هذا التأليف، فبعضها التقطتها من متفرّقات التواليف، وبعضها عرفني به من وثقت منه بالتعريف [مقدمة أخبار ملوك بني عبيد، ص 17]، غير أنه عندما يؤرّخ للمرحلة المصرية يذكر من نقل عنهم أخباره مثل الصولي البغدادي، والقاضي أبي عبد الله بن

محمد القضاعي، وكذلك بعض من شافهه من الحجاج المغاربة، وبعض علماء القلعة الحمادية [أخبار ملوك بني عبيد، ص 58، 82].

وتعود أهمّية كتاب «أخبار بني عبيد» إلى كونه تضمن معلومات من مصادر مفقودة، ولم يعد من الممكن الرجوع إليها مثل كتاب الصولي، وتكملة المختصر لابن الوردي، وكذلك لكونه يتضمّن العديد من الروايات الشفوية والتقاييد المنقولة التي استقاها ابن حماد من مصادرها الأصلية وأشار إليها بعبارات من قبيل: «قوله، ويذكر، وكان، وحدثني الشيخ الفقيه أبو الحسن علي التميمي» فضلا عن كون الكتاب يتضمّن تفاصيل في غاية الأهمّية عن الدعوة الفاطميّة ببلاد المغرب (تونس والجزائر) وأحداث ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وهذا ما جعل منه مرجعا أساسيا للمؤرّخين الذين أتوا من بعده وفي طليعتهم ابن خلدون.

آثاره

1 ـ أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، وهو المؤلّف التاريخي الوحيد الذي وصلنا، طبع عدة مرات، ونشر بالمجلّة الآسيوية من قبل المستشرق فوندر هيدن سنة 1862م، وأكمل هذا العمل بعده شربونو فنشره في الجزائر عام 1927، ثم طبع بعد ذلك وحقّق من قبل جلول أحمد بدوي وعبد الحليم عويس، ونشره في الجزائر سنة 1984 الشيخ جلول أحمد بدوي مع ملاحق وفهارس. ولقد قامت الباحثة رافعي نشيدة، بتحقيقه ودراسته في رسالة ماجستير جامعة الجزائر؛ 2 ـ النبذة المحتاجة في أخبار صنهاجة إفريقيا وبجاية، وقد ضاعت ولم يصلنا منها إلّا ما نقله منها عبد الرحمان بن خلدون في تاريخه الكبير، أو بعض النبذ التي أثبتها المستشرق ليفي بروفانصال في كتاب أخبار البربر، الرباط 1930م، أو عرضها المستشرق عماري في المكتبة الصقليّة اعتمادا على المقاطع التي نشرها بونو في المجلّة الآسيوية (1852 ـ 1853م)؛ 3 ـ عجالة المودع وعلالة المشيع، ضمنه أخباره أيام إقامته بمدينة مرسية، ولقد وقف عليه ابن عبد الملك [الذيل والتكملة، ص 324]؛ 4 ـ علالة المشيع في الأدب والشعر؛ 5 ـ كتاب الإعلام بفوائد الأحكام، جمع فيه أقوال شيخه عبد الحق الإشبيلي؛ 6 ـ شرح مقصورة ابن دريد؛ 7 ـ شرح الأربعين حديثًا؛ 8 ـ تلخيص لتاريخ الطبري؛ 9 ـ الديباجة في أخبار صنهاجة؛ 10 ـ البرنامج الكبير.

المصادر والمراجع

● الصنهاجي أبو عبد الله محمد، أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم، تح. وتعليق جلول أحمد البدوي، الجزائر؛ ● ابن الخطيب، لسان الدين، كتاب أعمال الأعلام، ق3، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، تعليق أحمد مختار العبادي ومحمد بن إبراهيم الكتاني، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1964، ص 94 ـ 96؛ ● الغبريني، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، الجزائر 1910، ص 129؛ ● الكتاني، عبد الحي، فهرس الفهارس

والإثبات ومعجم المشايخ والمشيخات والمسلسلات، نشر إحسان عباس، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1986، ط 2، بيروت 1980، 2/ 38 ـ 39؛ ● كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، 6/ 30 ـ 31؛ ● البستاني، فؤاد أفرام، دائرة المعارف، بيروت 1958، 2/ 173؛ ● نشيدة رافعي، ابن حماد الصنهاجي وأخبار ملوك بني عبيد، دبلوم الدراسات المعمّقة، جامعة الجزائر 1979م؛ ● أبو القاسم الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، القسم الثاني، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1982 م، ص 487؛

● Ibn-Hammâd, Histoire des Obeidites (les Califes fatimides), texte et trad. par M. Vonderhyden, Faculté des Lettres, Alger, 1927;

● Cherbonneau, Documents inédits sur l'hérétique Abou-Yazid.
● Mokhallad ibn Kidad de takemendet, Trad, de la chronique d'Ibn Hammad, Trad, de deux chapitres, in Journal asiatique, T. 5/1855, PP 529-547; ● Cherbonneau, Documents historiques sur l'hérétique Abou Yézide, Trad. d'Ibn Hammad, In Revue africaine, 1869; ● Basset, Ibn Hammad, in Encyclopédie de l'Islam.

د. ناصر الدين سعيدوني
جامعة الجزائر
د. بوبة مجاني
جامعة قسنطينة ـ الجزائر

ابن حمّاد، نُعيم بن حمّاد

(ت 229هـ/843م)

أبو عبد الله نُعَيم بن حماد بن معاوية بن الحارث بن همام بن سلمة بن مالك الخُزاعي المَرْوَزيّ [معجم المؤلّفين، 13/ 113؛ الأعلام، 8/ 40؛ كشف الظنون، 2/ 1445].

وُلد في مرْوَرُوذ الشاهجان، وأقام مدة بالعراق والحجاز يطلب الحديث. ثمّ سكن مصر، ولم يزل فيها إلى أن حمل إلى العراق في خلافة المعتصم، وسئل عن القرآن: أمخلوق هو؟ فأبى أن يجيب، فحُبس في مدينة سامرا بالعراق، ومات في سجنه سنة تسع وعشرين ومائتين. وقيل: سنة ثمان وعشرين ومائتين. وقيل سنة سبع وعشرين ومائتين [الأعلام، 8/ 40؛ هدية العارفين، 2/ 497 ـ 498؛ تاريخ التراث العربي، 1/ 196؛ النجوم الزاهرة، 2/ 254].

محدّث، حافظ، فقيه، فَرَضي، أول من جمع «المسند» في الحديث النبوي الشريف. كان

من أعلم الناس بالفرائض، معدودا من علماء الأثر، صاحب العالم المشهور عبد الله بن المبارك، من الرحالة في طلب الحديث.

كانت له كتب وتعليقات في العقيدة، والفقه، وفي الرد على الجهمية، وفي الرد على أبي حنيفة النعمان، وقد ناقض الفقيه الحنفي محمد بن الحسن الشيباني (من أصحاب أبي حنيفة). ذكر ابن العماد الحنبلي في شذرات الذهب بأنه كانت له غلطات ومناكير مغمورة في كثرة ما روى، وقد رمي برواية عدد من الأحاديث المناكير [شذرات الذهب، 2/ 67؛ النجوم الزاهرة، 2/ 254؛ تاريخ التراث العربي، 1/ 196].

سمع أبا حمزة السكري، وهشيما، وطبقتهما، وروى عن سفيان بن عيينة، وعبد الله بن المبارك، وغيرهما [المرجع السابق].

حدّث عنه يحيى بن معين، والبخاري، وغيرهما [تاريخ التراث العربي، 1/ 196].

آثاره

قال صاحب عيون التورايخ عن ابن حنبل: لصاحب الترجمة ثلاثة عشر كتابا [هدية العارفين، 2/ 497 ـ 498]. ومن هذه الكتب:

1 ـ الفتن والملاحم، مخطوط، توجد منه نسخة في جامعة الرياض تحت رقم 216. وقد ذكر سزكين معلومات عنه [الأعلام، 8/ 40؛ كشف الظنون، 2/ 1445؛ معجم المؤلّفين، 13/ 113؛ تاريخ التراث العربي، 1/ 197]؛ 2 ـ الرد على الجهمية؛ 3 ـ الرد على أبي حنيفة النعمان.

المصادر والمراجع

● البغدادي، اسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين من كشف الظنون، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهيّة باستانبول سنة 1951م، وأعادت طبعه بالأوفست منشورات مكتبة المثنى، بغداد د.ت؛ ● ابن تغري بردي، المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، تح. أحمد يوسف نجاتي، مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى سنة 1375هـ/ 1956م؛ ● حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان د.ت؛ ● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة عاشرة سبتمبر 1992؛ ● سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، سنة 1411هـ/ 1991م؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة بيروت، لبنان د.ت؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، مكتبة المثنى بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان د.ت.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن حمادوش، عبد الرزاق بن محمد الدباغ

(1107هـ/1695م ـ 1197هـ/1783م)

عبد الرزاق بن محمد الدباغ المعروف بابن حمادوش الجزائري. اشتهر بالعناية بالعلوم سيما الرياضيات والفلك والطب والصيدلة، وهي العلوم التي يبدو أنه لم يتلقها على معلميه في أول حياته وإنما درسها هواية وإجازة عندما أخذ يتنقل في المراكز والبيوتات العلمية.

ولد على الراجح في مدينة الجزائر وتلقى بها مبادئ علوم الدين واللغة بعد أن حفظ القرآن الكريم على عادة أبناء بلده. ولكن مرحلة تعلمه الأولى ما تزال مجهولة عندنا لأن المصادر التي تتحدث عنها مفقودة الآن، غير أنه يمكننا استنتاج ذلك من مستوى ثقافته كما يظهر في مؤلفاته التي وصلت إلينا، ومن إشارات ذكرها بنفسه حين تحدث عن عائلته وجيله من الأدباء والفقهاء.

وينتمي ابن حمادوش في أغلب الظن إلى عائلة كانت تحترف الدباغة، وهي حرفة كانت تجلب لأصحابها دخلا طيبا لأن تجارة الجلود كانت رائجة مع أوربا، ومع ذلك فإننا لا نجد ابن حمادوش يتحدث عن هذه الحرفة وإنما تحدث عن حرفة أخرى كان يتعاطاها وهي تجليد الكتب ونسخها (الوراقة). ويبدو أنها لم تكن حرفة رابحة لأن شكواه من حالته المادية كانت مستمرة، وكانت حياته مع أهله في أشد التوتر نتيجة وضعه الاقتصادي. كما يبدو أنه فقَدَ والده صغيرا لأن عمه هو الذي زوَّجه ابنته وأسكنه منزله، ومع ذلك فإن ابن حمادوش لم يتحدث عن هذا الزواج كثيرا وإنما أكثر الشكوى من زواجه الثاني الذي كان سيئ الحظ فيه، وهو مصاهرته لعائلة أمين النحَّاسين. وبقيت حرفة التجارة ملتصقة به، فقد ذهب إلى المغرب طلبا للعلم والتجارة. وكانت الكتب من بضاعته، وكان صريحا في وصف حاله عند رجوعه من رحلته أحيانا صفر اليدين فتنغص حياته مع عائلته ولا يجد الراحة إلا في الهروب إلى دكانه حيث يشتغل بالكتب وإجراء التجارب على العقاقير، أو الخروج إلى الجبال المجاورة لرصد بعض الظواهر الطبيعية وجمع الأعشاب لقاموسه.

ورغم وضعه الاقتصادي البائس فإن ابن حمادوش كان متشبثا بقيم اجتماعية وعلمية معينة، فقد كرر الإشارة إلى حالة الفقر التي كان يعيشها وإلى اهتمامه بالعلم والكتب وتعلقه بالتجارب العلمية والتأليف فيها.

أما المرحلة الثانية من طلبه العلم فقد استقل فيها بقراءته الخاصة، إذ كان يطالع كتب الفقه والحديث والأدب والتاريخ، ولكنه كان مهتما بالدرجة الأولى بكتب التراث العلمي العربي واليوناني، فطالع إقليدس، وبول، وغاليان، وابن سينا، والانطاكي، وابن البيطار، والقلصادي، والحسن المراكشي، وأمثالهم.

وكان لا يكتفي بالمطالعة بل يقوم بإجراء

التجارب وتطبيق ما طالعه على الحياة الطبيعية من حوله. فكان يركّب المعاجين ويدرس الأعشاب ويضع موازين الماء، ويقوم برسم الرخامات الظلية بالحساب، ويرسم الدوائر لبيان اتجاهات الرياح، ويتدرب على إطلاق القنبلة (البونبة). وكلما علم بوجود عالم أو خبير في علم من العلوم يذهب إليه ويتعلم منه صنعته. وقد لخص اختصاصه بقوله ذات مرة في قوله: إنه أصبح عشابا وصيدلانيا وطبيبا في بعض الأمراض.

وقد اتسعت دائرة تعلمه عندما أخذ يتنقل في العالم العربي الخاضع في معظمه للدولة العثمانية. وأول خروج له من الجزائر كان سنة 1130هـ/ 1718م عندما أدى فريضة الحج، ورغم شبابه فإنه سجل وهو في تونس، ملاحظات تتعلق بأصل الموسيقى. وفي حجّاته الأخرى كان يسجل ملاحظاته العلمية ويؤلف الرسائل ويناقش المسائل التي لم تكن تشغل عقول جيله من المتعلمين.

ذكر ابن حمادوش بالاسم بلدانا زارها وأقام فيها كالمغرب، وتونس، والحجاز، ومصر. كما ذكر بلاد العرب والعجم، دون تحديد، وقد نفهم أنه زار أيضا الشام واسطانبول، ولا نظن أنه زار بلدانا أوربية. ونفهم من حديثه عن رحلته أنها كانت بحرية، بما في ذلك رحلته إلى المغرب. وقد يكون توقف في بعض موانئ البحر الأبيض المتوسط. غير أن الطريق البحري إلى الشرق معروف، وهو المرور بموانئ تونس وطرابلس والإسكندرية، ثم عبور مصر إلى خليج السويس والبحر الأحمر، لكن هذه التنقلات قد أكسبت ابن حمادوش معرفة عميقة بالأوضاع العامة وبالحالة العلمية التي كان مهتما بها، ومكنته من اقتناء الكتب والتعرف على تجارب العلماء القدماء والمعاصرين في الطب والصيدلة والفلك والرياضيات.

وتكشف آثاره الباقية أنه كان يكتب يومياته ويسجل ملاحظاته ويذكر من لقيهم من العلماء سواء الذين قصدهم أو الذين سمع عنهم، فجدَّ في الاتصال بهم والأخذ عنهم، وكان يلح في أخذ الإجازة من العالم الذي يقصده، ويتبع الطريق المعروفة في الاستجازة كتقديم أبيات من الشعر وقطعة من النثر، مقدما نفسه ومثنيا على المجيز، ثم يطلب منه الإجازة. وإذا زار مدينة الجزائر أحد العلماء سارع ابن حمادش إلى ملاقاته والقراءة عليه وتحصيل الإجازة منه، أو عرض تأليفه عليه وتصحيحه والسعي إلى الحصول على شهادة الشهود من العلماء على التصحيح. ولدينا أمثلة على ذلك تكشف عنها رحلته إلى المغرب ولقاؤه مع الطبيب عبد الوهاب أدراق، والفقيه محمد البناني وغيرهما، وتصحيح كتابه في المنطق على أحمد الورززي المغربي عند زيارته للجزائر، وقد شهد له على التصحيح عدد من علماء الجزائر على رأسهم المفتي أحمد بن عمار.

أنجز ابن حمادوش أعماله النظرية في الجزائر نفسها، وهذا لا يعني أنه لم يضف إلى ذلك قراءاته في البلدان الأخرى التي زارها. أما تآليفه فنعتقد أن معظمها ضائع. والغالب على الظن أن «كشف الرموز» ألفه في الجزائر، وأن «تعديل المزاج» ألفه في مصر، وأن الجزء الثاني من رحلته «لسان المقال» كتبه في المغرب، ثم أضاف إليه مواد ووثائق في

الجزائر، وكذلك كتابه في المنطق «الدرر» من إنتاجه في الجزائر. أما تأليفه في الكرة الفلكية فلا نعرف مكانه، وقد يكون ألفه في مصر.

وهناك علاقات شخصية أثرت على ابن حمادوش. فمن العلماء الذين تتلمذ عليهم وجالسهم وأشاد بهم محمد بن ميمون الذي تولى قضاء المواريث، وكان ابن حمادوش نفسه مهتما بالتركات لاتصالها بعلم الفرائض والحساب الذي ألف فيه ووضع فيه الجداول. وكان ابن ميمون شاعرا أيضا. وكانت داره منتدى أدبيا يلتقي فيه بعض أدباء الوقت. وقد لاحظ ابن حمادوش إن ابن ميمون كان يتقرب إلى الحكام. وأما الخصومة بين ابن حمادوش والشاعر ابن علي فقد كانت خصومة شخصية لأن كلا منهما لم يتنازل لصاحبه. فالأول كان معتزا بالشرف، بينما كان الثاني معتزا بالوجاهة لأنه من أصول تركية، وكان على رأس الفتوى، ولكن علاقة ابن حمادوش بابن عمار كانت حميمة مما جعل ابن حمادوش يمدح زميله بالنزاهة وصفاء القلب من الحسد. وهناك علماء آخرون يؤلفون معه نوعا من الفئة المثقفة المتجاوبة أحيانا والمتنافسة أحيانا أخرى من أجل النفوذ والجاه. وأما في المغرب فقد تأثر ابن حمادوش ببعض الشيوخ الذين وجد منهم التقدير أو نال منهم الإجازات مثل الوررزي، وأحمد بن المبارك، والبناني، وأدراق.

آثاره

تنقسم تآليف ابن حمادوش إلى علمية وأدبية، وقد عددنا له ثلاثة عشر تأليفا من الصنف الأول. ونلاحظ أن الكتب العلمية ليس لها عناوين كاملة دالة على محتواها باستثناء «الجوهر المكنون»، «بغية الأديب في علم التكعيب»، و«تعديل المزاج بسبب قوانين العلاج». أما باقي العناوين فهي تحمل عبارة: تأليف في كذا.......... وهكذا نجد له تآليف في علم الإسطرلاب، وفي القوس الراصد للشمس، وفي علم الفلك، وفي الرخامة الظلية، وفي صورة الكرة الفلكية، وفي طرق البحر، وفي الروزنامة، وفي الربع على كردفر، وفي البونبة، وفي الطاعون. وهو لم يهتم بالفقه والحديث وإنما اهتم بالنحو، والأدب، والتاريخ، والمنطق، ولذلك قلنا أن الاتجاه العقلي كان غالبا على تآليفه، أما الجزء الباقي من رحلته «لسان المقال» فهو نوع من المذكرات والشهادات. وقد ضمت الرحلة تجاربه وأخباره العلمية وكشكولا من المعلومات المنقولة.

وتدل آثاره الباقية على استمرار تأثيره. فقد ظل «كشف الرموز في الأعشاب والعقاقير» قاموسا متداولا، وطبع بالعربية عدة طبعات، كما ترجم إلى الفرنسية، ونقل عدد من الكتاب عن رحلته العادات والتقاليد الاجتماعية، واستفاد آخرون منها حياة بعض الحكام، وأخذ عنها البعض الآخر أحداث المغرب التي كان شاهد عيان لها، كما أخذوا منها سير بعض العلماء.

وقد ترجم بعض الأوربيين لابن حمادوش مبكرا، ومنهم ليكليرك الذي قدمه للقراء على أنه آخر ممثل للطب العربي [لوسيان ليكليرك، تاريخ الطب العربي، ج2، باريس، 1876]، وقام ليكليرك أيضا بالتعريف برسالة «تعديل المزاج» [نفس المرجع، ص 308، وكذلك ترجمة «كشف الرموز» إلى الفرنسية،

باريس، 1874، ص380] ونقل الكاتب الإسباني غونزاليز عن ابن حمادوش أخبار باشوات وعلماء الجزائر، وكتب غبريال كولان أطروحة الدكتوراه في الطب عن (الطبيب العربي عبد الرزاق الجزائري) [أطروحة من جامعة الجزائر، سنة 1905].

المصادر والمراجع

● الأنطاكي، داود، تذكرة أولي الألباب؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ط. دار المعارف، القاهرة، الذيل؛ ● الجامعي، عبد الرحمن، شرح رجز الحلفاوي (فتح وهران) مخطوط باريس رقم 5113؛ ● الحاج صادق، محمد، المولد النبوي عند ابن عمار، من الأبحاث المقدمة إلى لويس ماسينيون، دمشق، 1957؛ ● الحفناوي، أبو القاسم، تعريف الخلف برجال السلف، جزآن، الجزائر، 1906، 1907؛ ● ابن حمادوش، عبد الرزاق، كشف الرموز، عدة طبعات في مكتبة مطبعة رودوسي، الجزائر، 1903، 1928، وطبعة بيروت، 1996؛ ● سعد الله، أبو القاسم، عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ورحلته «لسان المقال» مجلة مجمع اللغة العربية، دمشق، ج2، م50، إبريل، 1975؛ ● م. ن، تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998؛ ● م. ن، الطبيب الرحالة ابن حمادوش الجزائري، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1982؛ ● م. ن، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج4، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1996، (عن تأليف ابن حمادوش في صورة الكرة الفلكية)؛ ● الشلاطي، محمد بن علي، معالم الاستبصار، مخطوط مكتبة الكونغرس الأمريكي، (صورة منه في مكتبة خاصة)؛ ● ابن العبري، أبو الفرج، مختصر تاريخ الدول، بيروت، 1890؛ ● العمالي، محيدة، كناس، مخطوط، مكتبة الشيخ المهدي البوعبدلي، الجزائر؛ ● غوانزاليز، جواخيم، مشاهير مسلمي مدينة الجزائر، الجزائر، 1886؛ ● كولان، غبريال، الطبيب العربي عبد الرزاق الجزائري، الجزائر، 1905؛ ● ليكليرك، لوسيان، تاريخ الطب العربي، جزآن، باريس، 1876؛ ● م. ن، كشف الرموز، الترجمة الفرنسية، باريس، 1874؛ ● ابن مراد، ابراهيم، «المصادر التونسية في كتاب الجامع لابن البيطار» في مجلة الحياة الثقافية (تونس)، عدد 8، 10ص؛ ● م. ن، «منهج ابن البيطار في معالجة المصطلح النباتي والصيدلي» في حوليات الجامعة التونسية، عدد 17، 1979؛ ● ابن المفتي، تقييدات عن علماء وباشوات الجزائر، في المجلة الآسيوية، ترجمة ديلفان Delphin، 1922؛ ● ابن ميمون، محمد، التحفة المرضية في الدولة البكداشية، تحقيق محمد بن عبد الكريم، الجزائر، 1972؛ ● نور الدين، عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر، الجزائر، 1964.

د. أبو القاسم سعد الله
جامعة آل البيت ـ الأردن

حمام، محمد مصطفى

(1324هـ/1906م - 1384هـ/1964م)

ولد في فارسكور من أقاليم محافظة الدقهيلة في 18 أغسطس 1906م، وتوفي والده وهو في سن الرابعة، فرباه جدّه لوالدته، وقد دخل الكتّاب منذ صغره، وساعده ذكاؤه على سرعة حفظ القرآن الكريم في سن مبكّرة. زار السلطان حسين كامل المدرسة الابتدائية التي يتعلّم بها حمام، فألقى حمام قصيدة ترحيب به وهو في الصف الثالث الابتدائي، فسأل السلطان عمّن نظم له القصيدة، فأخبروه أنّ التلميذ شاعر ولا يترك مناسبة في المدرسة إلّا وسجّلها شعرًا فأهداه السلطان ساعة ذهبية فاخرة، وأمر بتعليمه على نفقة الدولة حتى يتمّ دراسته العالية.

وبعد وفاة السلطان حسين تولّى السلطان فؤاد الإنفاق عليه، إلى أن قامت ثورة 1919، وكان له دور فيها فقد كان الأزهريون يحملونه على أكتافهم وهو ما يزال صغيرا فيهتف لهم، وقد استدعاه الملك فؤاد وهدّده بأن يحرمه من رعايته إن لم يبتعد عن السياسة، فلم يقبل حمام، وقد حالت وطنيته بينه وبين إتمام منحة السلطان له، وبدأ يعمل بالصحافة والأدب وهو في سنّ الثالثة عشرة لينفق على نفسه رغم أنه كان من أسرة غنية ومعروفة، وكانت أمّه ما تزال على قيد الحياة، وقد أتمّ تعليمه الثانوي ودخل مدرسة المعلّمين العليا، وقضى ستّة وعشرين عاما في وظائف الدولة في جهات مختلفة: الزراعة، والشؤون الاجتماعية، والمواصلات والبريد، مشتغلا في الوقت نفسه بالصحافة والأدب. ثم استقال من الخدمة الحكومية في 15 أكتوبر 1952م ليتفرّغ للأدب والصحافة، وقد عمل مذيعا وكان صوته مسموعًا بين حين وآخر من إذاعة القاهرة، ومكّة، والكويت. وقد توفّي بها سنة 1964م.

عُرف حمام إضافة إلى جزالة شعره بمُلَحِه وطرائفه مع أهل الأدب، وقد تمتّع بحبّه للناس والتسامح معهم، فقد كان سَمْحًا سهلًا، يحب السّهل السّمح في كل شيء.

وكانت له قدرات فائقة في حفظ الأشعار وروايتها، وله أشعار وأعمال منشورة في معظم الصحف والمجلّات، وله ديوان طبعته الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة 1974م باسم «ديوان حمام» قدّم له صديقه الشاعر العوضي الوكيل.

تزوّج حمام أربع زيجات، جمع بينهنّ جميعا، وقد أنجب منهن جميعا. وجعل لكل منهن منزلا في القاهرة، وكأنما أراد أن تكون القاهرة كلها بيتا له، فأسرة له في مصر الجديدة، وأخرى في الخليفة، وثالثة في الدقي، ورابعة في مصر القديمة. وكان تصوّر حمام عن التعدّد مبنيا على أساس صحيح لهذه السنّة التي قلّ من يوفّق لإصابتها، والقيام بحقها، فهو لم يكن «زير نساء» كما

اتّهمه البعض؛ وحينما سأله أحد أصدقائه عن ذلك، قال له: «يا صاحبي، ليست هذه زيجات بقدر ما هي مروءات».

وكانت له فلسفة في التعدّد أثبتها شعرًا، موضّحًا الطريق لمن أراد الإقدام على التعدّد ناصحًا إياه بعدم غبن الأولى وتقريب الثانية، بل إنه لا يرى إلّا التعدّد الذي يصاحبه النفع والبر والرحمة. يقول:

ومن يعدّدْ زوجا دون ملجئة
فقد أتى بضرار أو أتى ضررا
ليس التعددُ إلّا رخصةً فإذا
أسرفتَ فيها ركبت الحمقَ والخطرا
من ينتقص حقَّ أولاهُ لثانية
لم يلقَ من ربّه عفوًا إذا اعتذرا
وفي التعدّد إن أدركت حكمته
برٌّ ورحمى وجبرٌ للذي كسرا

كما كان يشدّد على ضرورة قيام العلاقة بين الشاب والفتاة في إطارها الشرعي، ويحذّر، من مغبّة اتّباع الهوى والتنقّل بين الفتيات دونما مراعاة حرمة، أو حفاظ على دين، مخوّفًا من يقدم على هذا العمل الشاذ المشين من غضب الله وانتقامه، فيقول في قصيدة له عنوانها «الحضارة الآثمة»:

قال الفتى للفتى: ما دمت تهواها
ولا ترى النورَ إلّا في محيّاها
فأْنس بها زوجة تؤويك حانيةً
وكنْ بحبّك مهواها ومأواها
فقال كلّا فما كانَ الزواجُ سوى
مغارمٍ وقيود لست أرضاها
علامَ أحبس قلبي في هوى امرأة
يظلّ محيايَ مرهونا بمحياها
وربَّ نرّية أخرجْتَ فانبعثَتْ
البؤسُ يصحبها والنحسُ يغشاها
في كلّ يومٍ فتاة فجرت غدقًا
من الوصال فروّاني ورواها
ولي من الغيد ليلٌ باسم ألقٌ
في صحبة الكاسِ أسقيها وأسقاها
قلنا: أأنتَ تباهي بالزِّنا فرحًا
أأنت تعبث بالأعراض تيّاها
فقال: بل ذاكَ شرعٌ صار متّبعًا
كم تاهَ غيري به قبلي وكمْ باهى
قلنا: ألستَ تخاف الله منتقمًا
فقال في قِحَةٍ: لا أعرف الله

تنوّع شعر حمام بين الإسلامي، والوطني، والفكاهي، والمدح، والرثاء، والغزل، والشعر الاجتماعي، والتأملي. والعاطفة الإسلامية تكاد تلازمه في معظم قصائده، وهي تعد من المحرّكات الأساسية في شعره، وله قصائد رائعة، صاغها بكلماته الرصينة العذبة، فهو يصدر في شعره عن تصوّر واضح للإسلام، ويرى أنّ الشعر الحقيقي هو ما يوحي به الوجدان وما تفيض به النفس، لا ما تهجس به من وساوس الشيطان، فيقول:

ما أنبَلَ الشعرَ إن أوحاه وجدان
وأخبَثَ الشعر إن أملاهُ شيطانُ

يقول د. محمد عبد المنعم خفاجي: «حمام كان أمير الفكاهة والدعابة والنكتة المصرية

الأصيلة، فقد كان شاعرًا وإنسانا، قريب الدمعة لا على نفسه، وإنّما على من يستأهل الدموع... وقد كان شاعرًا لا يضيق بنظم الشعر في أي مكان وعلى أية حال» [أخبار اليوم، عدد 22/ 2/ 1984، ص12].

ويقول عنه طاهر أبو فاشا: «وشعر حمام فيه يسر وسهولة، وفيه طراوة تجد فيها سماحة نفسه، وبساطتها، فهو يصدر عن طبع سمح سخيّ، ولهذا جاء شعره قريب المأخذ، سهلًا داني القطوف، وكان يطوعه بمقدرة لكل ما يعن له ويعرض من الأغراض» [الذين أدركتهم حرفة الأدب، 114].

ويقول عنه علي الجمبلاطي: «هو شاعر أصيل الشاعرية، عربي الصياغة، رقراق النظم، وفي مستوى الشعراء الظرفاء من العهدين العباسي والأيوبي» [مجلة الشبان المسلمين عدد أبريل 1965م].

ويقول د.عبد العزيز شرف: «وليس هناك مجال للشك في أنّ حمامًا شاعر عظيم، بأعظم ما في الإنسانية من معنى، ذلك أنّ رؤيته الإبداعية شديدة الإنسانية، وعميقة جدًا في الوقت نفسه حتّى توجّه في شعره نحو اكتشاف المصير الإنساني، وهي الميزة التي تعتبر القياس للشاعر الشمولي» [الأهرام، عدد 13/ 9/ 1981م، ص12].

تميّز حمام بالأخلاق الكريمة التي تمثّلت في صدقه وحلمه وصفاء قلبه وحسن صلته بالناس، كما تميّز بعفّة اللسان حتّى مع من أساء إليه. وكان من ظرفاء العصر الذين انقرضوا أو كادوا ينقرضون، فهو الجليس الأنيس، ريحانة المجلس، تتعطّر به المنتديات الأدبية، كما قيل عنه، وذلك بالإضافة إلى اتّساع ثقافته، وحفظه لمئات القصائد، وذاكرته القويّة، قال عنه العقاد: «هذا كتاب من الشعر والأدب والفكاهة والفن لا يجد الناس منه إلّا نسخة واحدة» [مقدمة ديوان حمام، بقلم الأستاذ العوضي الوكيل، ص8].

وقال عنه الدكتور خفاجي: «ومن لنا بحمام يخلفه؟ من لنا بمثله في شعره وسحره، في طرفه وسمره، وفي ذكائه ووفائه، في دعابته وفكاهته، في كل سمات الإنسان المهذّب النبيل في الحياة؟».

وقد عرف عن حمام قدرته الفائقة في تقليد الأصوات، وقد استغلّ ذلك في المداعبة، واستغلّها مرّة في الإصلاح بين الأستاذ العقاد والأستاذ محمد توفيق دياب، فقد كلم العقاد في التليفون على أنه دياب واعتذر له، ثمّ طلب ديابًا في التليفون على أنه العقاد، واعتذر له، وعاد الود بينهما بعد هاتين المكالمتين [مقدمة ديوان حمام، بقلم الأستاذ العوضي الوكيل].

وقد استكتبه الأستاذ مصطفى القشاشي صاحب مجلّة «الصباح»، فكتب عدّة مقالات، اتّهم فيها جميع أدباء العصر بسرقة المعاني من القدماء، وذكر أمثلة على ذلك، فقال مثلا إنّ العقاد سرق كذا من الشاعر فلان الأموي، والجارم اقتبس من البحتري كذا، ورامي، وعبد الرحمٰن شكري، وغيرهم، وكان يذكر أبياتا، ينسبها للقدماء تشبه تمامًا ما يقوله هؤلاء الشعراء. ولم يكن هناك سطو

ولا اقتباس وإنّما كان حمام يأخذ معنى العقاد فيصوغه صياغة محبوكة مسبوكة تشبه صياغة شاعر من القدماء، وفعل ذلك مع باقي الشعراء، وانتهت المسألة بعد التمحيص والبحث إلى أنها مداعبة من مداعبات حمام الظريف، ولكنها كشفت عن قدرته الفائقة على تقليد الأساليب [مقدمة ديوان حمام، بقلم الأستاذ العوضي الوكيل، ص7].

في الثالث والعشرين من مارس سنة 1964م توفي الشاعر محمد مصطفى حمام في الكويت أثناء زيارته لها، عن ثمانية وخمسين عامًا قضاها بين الأنس والشعر، داعيا إلى الخير والفضيلة.

آثاره

يتمثّل نتاجه الأدبي في ديوانه الشعري، وقد ضمّ أنماطا كثيرة من القصائد في شتّى الأغراض، كما أنّ له نتاجا وفيرا من المقالات المتنوّعة في شتّى فروع العلم والأدب، وهي متناثرة في الصحف والمجلات، وقلّما تجد مجلّة أو صحيفة من أوائل القرن العشرين حتّى العقد السادس منه تخلو من قصيدة أو مقال في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع لحمام، وكل ذلك يدل على نبوغه وتعدّد مواهبه.

المصادر والمراجع

● الشاعر حمام، محمد مصطفى، ديوان حمام، تقديم العوضي الوكيل، وتقديم بقلم ابنة الشاعر عزيزة مصطفى حمام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1974؛ ● دويدار، السيد دياب يوسف، قراءة نقدية في شعر محمد مصطفى حمام، التركي للكمبيوتر وطباعة الأوفست، طنطا، وتوجد نسخة بدار الكتب المصرية؛ ● عوض، طاهر عبد اللطيف، الإسلام في شعر حمام، مكتبة الكلّية الأزهرية، القاهرة، الطبعة الأولى، 1405هـ/ 1985م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، الطبعة العربية بمصر، 1927، ط1؛ ● رضوان، السيد أحمد، محمد مصطفى حمام، حياته وشعره، رسالة ماجستير، كلية اللغة العربية بأسيوط؛ ● أبو عيسى، محمد فتحي، الفكاهة بعد الجاحظ، دراسة ونقد ومقارنة، رسالة دكتوراه بكلّية اللغة العربية سنة 1973، وبها فصل خاص بشعر حمام الفكاهي؛ ● أبو فاشا، طاهر، الذين أدركتهم حرفة الأدب، ط. دار الشروق.

د. محمد أبو الأنوار
دار العلوم - جامعة القاهرة - مصر

ابن حمامة، أبو عبد الله محمد بن منصور

(ق 6هـ/12م)

هذا العالم المغربي ممن أهملتهم كتب تراجم الأعلام، رغم أنه خلف مصنفات تدل على قيمته العلمية، وإنما ذكره القسطلاني في مقدمة كتابه إرشاد الساري وذكره من المعاصرين محمد العابد الفاسي في فهرس خزانة القرويين، وعبد الله كنون في النبوغ المغربي، وكتب عنه ترجمة موجزة في دعوة الحق، وأفادني في مراسلة سنة 1402هـ أنه اعتنى بابن حمامة منذ كان طالبًا بالعكوف على مؤلفاته لاستخراج ما يفيد في الترجمة له، واعتمادًا على ما كتبه عنه العالمان المذكوران، وعلى قراءتي لبعض مؤلفات ابن حمامة، عرفت به في مقدمة تحقيق كتابه «غرر المقالة».

سمى نفسه في بعض كتبه المخطوطة بأبي عبد الله محمد بن منصور، وفي بعضها أضاف «... بن حمامة الزناتي المغراوي»، وسماه القسطلاني عند ذكره شراح البخاري: «محمد ابن منصور بن حمامة المغراوي السجلماسي».

وقد اعتبره الشيخ عبد الله كنون من أعلام المغرب في العصر المريني وعد كتبه ضمن المؤلفات العلمية التي صنفت في هذا العصر [النبوغ المغربي، 1/ 230].

وبناء على أن ابن حمامة ينقل في بعض مؤلفاته عن شارحي صحيح البخاري الخطابي (من القرن الرابع)، والمهلب (من القرن الخامس)، وبناء على أنه ذكر في أحد أسانيده الصدفي (المتوفى في سنة 514هـ) وبناء على ما أسلفنا من ذكر القسطلاني (ت 923هـ) له، فقد قدر الشيخ كنون أن عصره انحصر بين القرنين السادس والتاسع، مؤملا تقريب الشقة بين هذه الفجوة الواسعة بفضل ما يسفر عنه البحث مستقبلا.

واعتمادًا على تسميته شيخين من مشيخته مع ذكر شيخيهما في سندين له سيأتي ذكرهما وشيكا يمكننا تقريب الشقة بتقدير أن ابن حمامة كان قد عاش في النصف الثاني من القرن الهجري السادس.

لم نعرف من شيوخه إلا اثنين وعرفنا شيخيهما ضمن السندين اللذين ساقهما ابن حمامة.

فالسند الأول: أورده عند شرح حديث «الصبر عند الصدمة الأولى»، ونصه: «الشيخ الحافظ أبو الحسن علي بن عبد الرحمن عن الشيخ الحافظ أبي علي الحسين بن محمد الصدفي عن أبي الوليد الباجي عن أبي ذر...».

والسند الثاني: أورده عند شرح حديث «أفضل الفضائل أن تصل من قطعك» حيث قال: «حدثني الشيخ الصدوق علي بن أحمد بن أبي بكر الكلاعي عن الفقيه الأوحد أبي عبد الله محمد بن الطلاع عن القاضي أبي الوليد يونس بن عبد الله بن مغيث».

فقد عرفنا من هذين السندين شيخين لابن حمامة، وهما:

- الحافظ أبو الحسن علي بن عبد الرحمن الآخذ عن أبي علي الصدفي السرقسطي الساكن بمرسية شهيد وقعة كتندة سنة 514هـ.

ـ الصدوق علي بن أحمد بن أبي بكر الكلاعي الآخذ عن أبي عبد الله الطلاع القرطبي الفقيه المشاور المتوفى سنة 497هـ.

وهما سندان أندلسيان تضمنا أعلامًا من فقهاء الأندلس ومحدثيه، وقد مكنانا من تقدير عصر ابن حمامة النصف الثاني من القرن السادس الهجري كما أسلفنا. ومما لوحظ أن ابن حمامة لم يسم في كتبه ابن منظور صاحب لسان العرب المعجم اللغوي المهم، وقد عاش من سنة 630 إلى 711هـ، وهذا يدل أنه لم يدرك زمنه.

آثاره

تناولت مؤلفات ابن حمامة اللغة، والحديث، والفقه، وهو مولع بشرح الغريب وتفسير العبارات الغامضة، وقد أحصينا له ستة مصنفات اتجه فيها إلى شرح غريب ستة كتب شهيرة من كتب الحديث والفقه والأدب، فكانت بمثابة المعاجم الصغيرة الخاصة بشرح المفردات اللغوية لهذه الكتب التي كانت واسعة الرواج والانتشار، ولها مكانتها في البيئة المغربية والأندلسية التي ساد فيها المذهب المالكي.

وهذه الكتب التي شرح فيها الغريب لتيسير الفهم وتقريب المعاني، هي:

1 ـ شرح غريب صحيح البخاري [ذكر في النبوغ، 1/ 230]؛ 2 ـ شرح غريب موطإ الإمام مالك بن أنس، أحال عليه مؤلفه في شرح غريب الرسالة؛ 3 ـ شرح غريب كتاب الشهاب القضاعي في الحكم والمواعظ والوصايا والآداب. والقاضي القضاعي متوفى سنة 454هـ، ولكتابه انتشار في المغرب والأندلس، ومنه نسخة مخطوطة بالخزانة العامة بالرباط، ثانية المجموع رقم 585ك. تبدأ من اللوحة 314 إلى اللوحة 400؛ 4 ـ شرح غريب المدونة الكبرى للإمام سحنون رواية عن ابن القاسم، سماه «التهذيب لشرح ما في المدونة من الغريب»، أحال عليه في باب الزكاة من شرحه لغريب الرسالة؛ 5 ـ شرح غريب الرسالة الفقهية لابن أبي زيد القيرواني سماه «المقالة في شرح غريب الرسالة»، نشرته دار الغرب الإسلامي ببيروت، مع نص رسالة ابن أبي زيد في ط. أولى سنة 1986م ثم في ط.2 سنة 1997، تح. أ. د. محمد أبو الأجفان ود. الهادي حمّو؛ 6 ـ شرح مقامات الحريري، توجد منه نسخة بمكتبة الأسكوريال، وقد سمي «اقتراح سميري في شرح مقامات الحريري» ونسخة ثانية مبتُورة الآخر بالخزانة العامة بالرباط، برقم 1090ق.

قال في مقدمته: «إن بعض من خلص لنا وده رغب في شرح إعراب المقامات وما أشكل من إعرابها، ونسبة ما سبك من الأقوال إلى أربابها، فأجبته إجابة مسعف، وعاملته معاملة سخي مضيف».

وهو يبدأ شرح كل مقامة بإيراد سبب وضعها، ويفسر الأمثال ويذكر أصلها، ويعرض مسائل بلاغية خلال الشرح، ويستشهد أحيانًا بنصوص من الحديث النبوي وبأقوال أهل اللغة وبأشعار العرب.

ويحسن أن ننقل هنا ما قاله الشيخ عبد الله كنون عن كتاب شرح غريب حديث الشهاب: «رأيناه كتابًا قيمًا يدل على اطلاع واسع ومادة

غزيرة من معاني المفردات اللغوية وشواهدها من كلام العرب بحيث لا يقل عن أي كتاب من كتب الغريب التي ألفها الأقدمون في هذا الصدد، وقد حلي في أوله بما حليناه به هنا، وهو الفقيه الحافظ».

وابن حمامة أولى كتب الحديث الثلاثة التي شرح غريبها عناية أكثر حيث شرح نصوصها شرحًا فقهيًا، وتناول أحكامها موضحًا المعاني، مبينًا التوجيه النبوي الذي تضمنته، فألف الكتب التالية:

7 ـ الروض الأنيق، شرح فيه الموطأ؛

8 ـ حل أغراض البخاري المبهمة في الجمع بين الحديث والترجمة، ذكره أبو العباس القسطلاني في مقدمة شرحه صحيح البخاري قائلا: «للفقيه أبي عبد الله محمد بن منصور ابن حمامة المغراوي السجلماسي حل أغراض البخاري المبهمة في الجمع بين الحديث والترجمة، وهي مائة ترجمة»؛

9 ـ شرح فقهي على الشهاب أحال عليه مرات في كتابه شرح غريب الشهاب. قال عنه الشيخ كنون: «هو مفيد جدًا يتعرض فيه لبيان غرض الحديث ودلالته الفقهية بعبارة واضحة، وكثيرًا ما يستدل عليه بالآيات القرآنية، ويورد بعض الأشعار التي تناسب المعنى، وربما أشار إلى مخرج الحديث أو شاهده من رواية أخرى، والطريف أنه يطبق الحديث على واقع الحياة، فلا يبقى فيه غموض ولا إبهام».

منه نسخة مخطوطة بالقرويين ضمن مجموع من 55/ب إلى 100/ب، وصفها محمد العابد الفاسي في فهرس خزانة القرويين [304]؛

10 ـ المسائل الفقهية المنوطة بالأحكام الشرعية [كنون، النبوغ، 1/ 227].

المصادر والمراجع

● كنون، عبد الله، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ط. مكتبة المدرسة، ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت ط3، 1975؛ ● مجلة دعوة الحق المغربية، العدد 9، السنة 3، في ذي الحجة 1379، يونية 1960؛ ● رسالة إليّ في 17 صفر 1402هـ مجيبًا على أسئلتي حول ترجمة ابن حمامة وكتبه؛ ● الفاسي، محمد العابد، فهرس مخطوطات خزانة القرويين، ط1، دار الكتاب، الدار البيضاء، المغرب، 1399هـ/ 1979م؛ ● أبو الأجفان، محمد، وحمو، الهادي، مقدمة تح. الرسالة الفقهية لابن أبي زيد، مع غرر المقالة في شرح غريب الرسالة لابن حمامة، ط. دار الغرب الإسلامي، بيروت.

د. محمد بن الهادي أبو الأجفان
جامعة الإمام بن سعود ـ مكة المكرمة ـ السعودية

الحماني، أبو زكرياء يحيى

(ت 228هـ/842م)

أبو زكريا يحيى بن عبد الحميد بن عبد الرحمٰن بن ميمون الحماني، الكوفي.

قدم بغداد وحدث بها عن خلق كثير، وهو أول من صنّف المسند بالكوفة، وهو من حفاظ الحديث الرحالين، كان يحفظ عشرة آلاف حديث، يسردها سردا.

وكان من أعيان الحفاظ، ومن المحدّثين المعروفين، ولكنه ليس بمتقن، قال أبو حاتم الرازي: سألت ابن معين عن يحيى الحماني فقال: ما له، وأجمل القول فيه، وقال: كان يسرد مسنده أربعة آلاف سردا، وحديث شريك ثلاثة آلاف وخمسمائة [الذهبي، تذكرة الحفاظ، 2/ 423؛ البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، 14/ 168؛ الزركلي، الأعلام، 8/ 152].

وقال أحمد بن الزهير: سمعت يحيى بن معين يقول: يحيى بن عبد الحميد الحماني ثقة، وما كان بالكوفة في أيامه رجل يحفظ معه، وهؤلاء يحسدونه [البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، 14/ 169].

وقال ابن عدي: هو أول من صنّف المسند بالكوفة، ومسدد أول من صنّف المسند بالبصرة. وقال مطين: سألت ابن النمير عن يحيى الحماني فقال: هو أكبر من هؤلاء كلّهم فاكتب عنه، وقد عمل القراءات [الذهبي، تذكرة الحفاظ، 2/ 423].

اختلف بعض العلماء الذين عاصروه في التوثيق برواياته ونقوله، وقد ذكر الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد طائفة من الشواهد على هذا الاختلاف، فلتنظر في موضعها من الكتاب [البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، 14/ 168 ـ 176].

توفّي في شهر رمضان سنة ثمان وعشرين ومائتين للهجرة الشريفة، وكان أوّل من مات بمدينة سامراء من المحدثين الذين أقدموا [الذهبي، تذكرة الحفاظ، 2/ 423؛ كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 13/ 205؛ البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، 14/ 177؛ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 2/ 254].

سمع عددا من العلماء الأعلام وحدث وروى عنهم، ومن هؤلاء: إبراهيم بن سعد، وشريك بن عبد الله، وأبو عوانة، وحماد بن يزيد، وخالد بن عبد الله، وسفيان بن عيينة، وأبو بكر بن عياش، وأبو خالد الأحمر، وجرير بن عبد الحميد، وأبو إسرائيل الملائي، والحكم بن ظهير، ويحيى بن يمان، وأبو معاوية، وعبد الرحمٰن بن الغسيل، وقيس بن الربيع، وسليمان بن بلال، وطبقتهم [الذهبي، تذكرة الحفاظ، 2/ 423؛ البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، 14/ 167 ـ 168].

سمع منه وروى عنه جمع من علماء الحديث والرواية والفقه. ومن هؤلاء، حمدان بن علي الوراق، وأحمد بن يحيى الحلواني، ومحمد ابن عبيد بن أبي الأسد، وموسى بن هارون، وأبو قلابة الرقاشي، وعبد الله بن محمد البغوي، وأبو بكر بن أبي الدنيا، ومطين، وخلق كثير [الذهبي، تذكرة الحفاظ، 2/ 423؛ البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، 14/ 168].

آثاره

- المسند [كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 13/ 205].

المصادر والمراجع

● البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، د.ت؛
● ابن تغري بردي الأتابكي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة، 1349هـ/ 1930م؛
● الذهبي، شمس الدين، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، د.ت؛
● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة عاشرة سبتمبر 1992؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

حمدان، جمال محمود صالح

(1347هـ/1928م ـ 1414هـ/1993م)

ولد جمال محمود صالح حمدان في 4 فبراير 1928م بقرية «ناي» إحدى قرى مركز قليوب، محافظة القليوبية (مصر). ويرجع نسب عائلته إلى قبيلة «حمدان» التي نزحت من الجزيرة العربية، واستقرّت بالديار المصرية بعد الفتح الإسلامي.

كان والده مدرّسا للّغة العربية بمدارس القاهرة، ومن ثمّ أتمّ جمال حمدان دراسته الابتدائية والثانويّة بهذه المدينة، وكان طالبا متفوّقا منذ حداثة سنّه. وعقب اجتيازه مرحلة الدراسة الثانويّة توجّه صوب قسم الجغرافيا بكلّية الآداب ـ جامعة فؤاد الأوّل (القاهرة حاليا)، فقد كان يعرف هدفه وطريقه الذي رسمه لنفسه بعد أن أضحى علم الجغرافيا بمثابة مطمح آماله، وكان قد اكتشف ولوعه بهذا العلم واستعداده الفطري له.

وحصل جمال حمدان على درجة ليسانس الآداب بامتياز، فعيّن معيدا بهذا القسم بعد تخرّجه (أكتوبر 1948م). ووقع الاختيار عليه لاستكمال دراساته العليا في الخارج، حيث

التحق بجامعة ريدنج بإنجلترا، وعمل مع الأستاذ أوستين ميللر، وهو من كبار علماء الجغرافيا والأنثروبولوجيا الإنجليز المتبحّرين في دراسات الشرق الأوسط، وأنهى تحت إشرافه درجة الماجستير والدكتوراه، وعاد إلى عمله بكلّية الآداب، جامعة القاهرة، فظلّ في العمل بها حتّى استقالته منها في عام 1963 للتفرّغ للبحث والكتابة.

وجمال حمدان هو مؤسّس مدرسة متميّزة داخل الثقافة العربية المعاصرة في الفكر الاستراتيجي، قامت على نهج شامل، معلوماتي وتجريبي وتاريخي من ناحية، وعلى دمج مكتشفات علوم الجغرافيا والتاريخ والسكّان والاقتصاد والسياسة والبيئة والتخطيط والاجتماع السكاني والثقافي بشكل خاص، والاستراتيجية من ناحية أخرى، ورغم التوجّه العملي والتطبيقي لكلّ أعماله فإنّ التأسيس النظري لأكثر هذه الأعمال أهمّية، وخاصّة ملحمته الكبرى: «شخصيّة مصر، دراسة في عبقرية المكان»، وكتاب «العالم الإسلامي المعاصر»، الذي يعدّ إضافة مهمّة وبنائيّة لكلّ من فلسفة التاريخ العربية المعاصرة، وللعلوم الاجتماعية العربية.
وقد أصدر جمال حمدان أثناء عمله كأستاذ مساعد للجغرافيا في كليته كتبه الثلاثة الأولى: «جغرافية المدن»، و«دراسات عن العالم العربي»، و«أنماط من البيئات»، وقد نال جائزة الدولة التشجيعيّة عام 1959م. وأكسبته هذه الكتب الجائزة، ولفتت إليه الأنظار بالإعجاب في الأوساط الثقافية في مصر والعالم العربي. والتزم جمال حمدان بنظام صارم للعمل. وحدّد مجالات نشاطه الاجتماعي وعلاقاته الشخصيّة، فأنتج كمّا هائلا ومتنوّعا من الأعمال العلميّة.

وتفرّغ جمال حمدان إثر ذلك لإنجاز صياغته النهائية لكتاب «شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان»، الذي استغرق منه عشر سنوات، وصدر في أربعة آلاف صفحة من القطع الكبير ضمن أربعة مجلّدات.

ولعلّ الإضافة العلمية والفكرية الرئيسيّة لجمال حمدان، هي توحيده المنهجي المبكّر لكلّ العلوم الاجتماعية الكبرى تقريبا، وتجاوزه ما كان قد حقّقه علماء الجغرافيا الذين سبقوه، مستفيدا من التراث الفكري المصري القديم والحديث، فجمع بين الأصالة والحداثة، بلغة عربية فريدة.

وكانت لجمال حمدان نظراته المستقبليّة التي أسّسها على العقل الذي لا يحوّل النسبيّ إلى مطلق، بل كان يقول بنسبيّة الموجودات كلّها، وبنسبيّة المواقف الإنسانية، وبنسبيّة النظريّات. ومن هذا المنطلق كان تحليله للأمور يتّسم بالواقعيّة التي لا تشوبها الأحكام أو الأقوال المبتسرة الغامضة التي يتأوّلها كما كان الناس يتأوّلون أقوال الكهنة.

ولم يكن ينساق وراء الأيدلوجيات وعبادتها، فقد كانت مغامرة الكتابة لديه مغامرة حضارية ضخمة تقوم على العلم الذي يربط بين الواقع والحقائق باتّساق واطّراد وشمول، وهي صفات لا يبلغها العالم إلّا عند تمام إدراكه.

وفي عام 1985م حصل جمال حمدان على جائزة الدولة التقديرية للعلوم الاجتماعية. وفي العام التالي حصل على جائزة التقدّم العلمي من الكويت.

آثاره

بلغت مؤلفاته أكثر من 20 كتابا، ينقسم بعضها إلى عدّة مجلّدات ضخمة، وكتابين باللغة الانجليزية، بالإضافة إلى أكثر من 25 دراسة مطوّلة محكّمة نشرت في المجلات والدوريّات العلميّة وعدّة مجلاّت بريطانيّة وفرنسيّة، وعشرات من المقالات التي نشرت بالصحف المصريّة والعربيّة.

1 - في عام استقالته من الجامعة 1963م أصدر كتابه «المدينة العربية» كشف فيه العلاقة بين التكوين الثقافي والاقتصادي العربي الأصلي، في القرون الوسطى، وبين العلاقات الاجتماعية والسياسية والإدارية داخل بنية المجتمع العربي.

2 - وفي العام التالي أصدر كتاب «بترول العرب» ألقى فيه الضوء للمرة الأولى على أهمّية النفط الاستراتيجية والسياسية - لا الاقتصادية المجرّدة.

3 - وفي عام 1966م أصدر «أفريقيا الجديدة».

4 - ثمّ أصدر بعد نكسة 1967م الصياغة الأولى لملحمته العلميّة الضخمة، والتي كانت بمثابة مشروع عمره الأساسي، على حدّ قوله، وهو كتاب «شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان»، حيث تناول حتميّة التوحيد والتجانس دون تسطيح ولا تحجّر على مستويات الموقع وعلاقته بدوائره، والتكوين السكّاني والثقافي والاجتماعي، وحيث شخّص نقاط القوّة والضعف وقرن المحاسن بالأضداد على حدّ سواء. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغتين الإنكليزية والفرنسية في مصر.

5 - وفي كتابه «اليهود أنثروبولوجيا» كشف التشتّت الثقافي والبشري لهم، وهو الأمر الذي يحتّم التعصّب والعدوان كوسيلة من وسائل التوحيد المصطنع والتكتّل المنافي للتطوّر الطبيعي وللحقائق التاريخية.

6 - وفي العام التالي أصدر كتابه التاريخي «استراتيجية الاستعمار والتحرير»، تحدّث فيه عن جدليّة العلاقة بين تطوّر النظم الاقتصادية والثقافية والسياسية، وبين أسس قيام نظام عالمي متوازن وواقعي.

7 - وفي عام 1970م أصدر الصياغة الثانية لكتابه «شخصية مصر: دراسة في عبقريّة المكان»، حيث بدأت محاوره الأربعة في الاكتمال والنضج، المحور الجيولوجي المكاني، والمحور البشري، والمحور الاقتصادي، ثمّ المحور الحضاري.

8 - وفي العام التالي، 1971م، أصدر كتابه البالغ الأهمّية «العالم الإسلامي المعاصر»؛

9 - وألحقه في عام 1973م بكتابه التاريخي الثاني «بين أوروبا وآسيا، نظائر جغرافية».

10 - في عام 1974م، أصدر كتابه الذي استوحاه من نصر أكتوبر 1973م، وهو «6 أكتوبر والاستراتيجية العالميّة»، ألقى فيه نظرات مستقبلية صائبة على ما أصبح بداية للتغيّر الجذري في التوازن العالمي بعد ذلك، وذلك تأسيسا على معطيات الانتصار العربي الجيوستراتيجية والحضارية والاقتصادية.

المصادر والمراجع

● حمدان، عبد الحميد صالح، صاحب شخصية مصر وملامح من عبقرية الزمان، القاهرة 1993م، وقد أوردت فيه قائمة كاملة بكلّ أعمال جمال حمدان باللغة العربية وباللغات الأوروبية؛ ● حمدان، عبد الحميد صالح، جمال حمدان، صفحات من أوراقه الخاصّة، القاهرة 1996م؛ ● الغنيمي، عبد الفتاح مقلّد، جمال حمدان في ذاكرة التاريخ، القاهرة 1993م؛ ● جمال والفكر الجغرافي، مقال في مجلّة السياسة الدولية، العدد 113، يوليو 1993م؛ ● تلخيص العصر في شخصية مصر، مقال نشر في مجلّة القاهرة، العدد 138، مايو 1994؛ ● علام، محمد عبد الغني، جمال حمدان، عبقرية ضدّ الانحناء، القاهرة 1997؛ ● إيجي ناجاساوا، هذه مركزية مصر، دراسة حول «شخصية مصر» لجمال حمدان، دراسة باللغة اليابانيّة، طوكيو 1997م؛ ● حمدان، جمال، دراسة تحليلية نقدية، مقال نشر في المجلّة الدولية لدراسات الشرق لأوسط، باللغة الإنجليزية، العدد 19، الولايات المتّحدة الأمريكية 1987م؛

- Gamal Hamdan, collected work. (part 1-2), Edited by Abdel Hamid Saleh Hamdan, Prism Publications, ministry of Culture, Cairo, Egypt 2000.

د. صالح حمدان

باحث أكاديمي ـ جنيف

ابن حمدان الموصلي، جعفر بن محمد

(ق 3هـ/9م)

شاعر موصلي، ذكر بتنوع ثقافته، فقد كتب في ألوان شتى من العلوم والآداب، وغلب عليه الحديث والشعر. بل كان ناقدًا للشعر، كثير الرواية له، ومما كتبه في الأدب إلى جانب كتاباته الأخرى كتاب «الباهر في الاختيار من أشعار المحدثين» عارض به الروضة للمبرد، وهو الكتاب نفسه الذي ذكره حاجي خليفة تحت عنوان «الباهر في الأخبار» وله كتاب «الشعر والشعراء» وكتاب «السرقات» وكتاب «محاسن أشعار المحدثين» وله ديوان شعر يتضمن مائتي ورقة.

التقى ببعض شعراء عصره وأدرك أبا العباس الناشي، وتكاتبا بالشعر، وكانت بينه وبين البحتري مراسلة، ورثاه بعد وفاته بقوله:

تــعــوّلــت الــبــدائــعُ والــقــصــيــدُ
وأودى الــشــعــرُ مُــذ أودى الــولــيــد

واظلم جانبُ الدنيا وعادت
وجوهُ المركهاتِ وهُنَّ سودُ

أما منزلته العلمية ومكانته الاجتماعية فقد كان كبير المحل من أهل الرياسات بالموصل، ولم يكن بها في وقته من ينظر إليه ويفضل في علوم سواه، متقدمًا في الفقه، قويًا في النحو فيما يكتبه، عارفًا بالكلام والجدل، مبرزًا فيه، حافظًا لكتب اللغة، راويةً للأخبار، بصيرًا بالنجوم، عالمًا مطّلعًا على علوم الأوائل، عالي الطبقة منها، وكان صديقًا لكل وزراء عصره، مدّاحًا لهم آنسًا بالمبرد وثعلب وأمثالهما من علماء الوقت، وكانت له ببلده دار علم قد جعل فيها خزانة كتب من جميع العلوم وقفًا على كل طالب للعلم وكان يجتمع إليه الناس فيملي عليهم من شعره وشعر غيره.

نظم في أغراض الشعر المختلفة وكان المدح طاغيًا على موضوعه الشعري لعلاقاته الواسعة بأصحاب الرياسة والوزراء الخلفاء. وله قصيدة تتضمن مئة وخمسين بيتًا فيها بعد مدح الخليفة المعتضد، يشكو من أهل الموصل لما ناله منهم، ثم يذكر ما يحسن من العلوم الدينية والأدبية، ويتمثل بثعلب والمبرد وأمثالهما، ويدّعي معرفته إقليدس وأشكاله بقصيدة أولها:

أجدّك ما ينفكُّ طيفك ساريا
مع الليل مجتابًا إلينا الفيافيا

يذكرنا عدّ الحمى وزمَاننا
بنعمان والأيام تُعطي الأمانيا

وله قصيدة يمدح فيها القاسم بن عبيد الله يبدؤها متغزلًا بقوله:

ما شأنُ دارك يا ليلى نُناجيها
فما تجيب ولا تَرعى لداعيها

إنّا عَشيَّةَ عُجْنا بالمطي بها
كنا نحييك فيها لا نُحيّيها

وكان عفيفًا في اختيار ألفاظ غزله، وربما كان هذا بتأثير العلوم الدينية التي أتقنها وثقافته الواسعة التي قد تركت آثارها واضحةً على اتجاهه هذا، ومثال ذلك قوله:

تمكّن حبُّ علوة من فؤادي
ومُلِّكَ أمرَ غِيّي والرشاد

فوالَى بين دمعي والمآقي
وعادى بين جفني والرُّقاد

وله شعر يصف الليل وموضوعات أخرى أوردها صاحب معجم الأدباء يعبّر عن حكم وتجربة في إدراك الحياة.

ويمكن للمرء ألّا يجانب الصواب، حين يقرر أن هذا الشاعر المثقف، يقدم الدليل العملي على الحيوية الفنية والمهارة الشعرية وغزارة المعرفة التي تشكل في نسيج فريد، يبرهن أن الموهبة الشعرية، تسمو وترتفع إذا كان الشاعر عالمًا، عارفًا، يمتلك ثقافة موسوعية يستطيع أن يوظفها في بنائه الفني. وذلك كان شأن الشاعر جعفر بن محمد بن حمدان الموصلي، الذي أحسن الجمع بين الفن وبين العلم، وعبّر عنهما بمقدرة عالية، جعلته يقف بثقة بين شعراء عصره ومثقفي مرحلته التاريخية ليكون أحد الشعراء المميزين، وأحد المثقفين البارزين آنذاك. وقد كان شاهدًا على عصره عبر شعره من ناحية، وعبر إسهامه في التأليف في مجال التاريخ الأدبي من ناحية أخرى، وذلك دور فاعل يؤشر لصالحه بالتأكيد.

المصادر والمراجع

● ياقوت، الحموي، معجم الأدباء، مطبوعات دار المأمون 1924؛ ● ابن النديم، الفهرست، المطبعة الرحمانية، القاهرة 1348هـ؛ ● الزركلي، الأعلام، ط3، بيروت 1969م؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تح. محمد شرف الدين، وكالة المعارف الجليلة، المطبعة البهية، 1941م؛ ● غانم، سعيد، الحياة الأدبية في الموصل في القرن الثالث الهجري، موسوعة الموصل الحضارية، ج3، الموصل 1992م؛ ● الجلبي، بسام إدريس، موسوعة أعلام الموصل، (مخطوط).

أ. جنان هاشم عبد العزيز
الاتحاد العام للأدباء والكتاب ـ العراق

الحمداني، أبو فراس الحارث بن سعيد

(320هـ/932م ـ 357هـ/967م)

هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي، أبو فراس. ولد سنة 320هـ/932م. وقيل إن والده سمّاه الحارث وكنّاه أبا فراس أي الأسد. وقبل أن يبلغ الثالثة من عمره قتل أبوه سنة 323 هـ، قتله ابن أخيه [الكامل في التاريخ، 6/ 207؛ تاريخ الأدب العربي، 2/ 92]، وسيكون لهذا اليتم المبكّر دور في شعره حيث سيكتب قصائد في تمجيد الأمومة تثري ديوان الشعر العربي بلون جديد من ألوان الشعر.

ربّاه سيف الدولة وهو يعترف بذلك في شعره إذ يقول [من مجزوء الكامل]:

هَلْ لِلْفَصَاحَةِ وَالسَّمَا حَةِ والعُلاَ عَنِّي مَحِيدُ
إِذْ أَنْتَ سَيِّدِي الَّذِي رَبَّيْتَنِي وأَبِي سَعِيدُ

[الديوان، ص 77]

وكذلك قوله [من الخفيف]:

لم تزل مُشتكاي في كل أمر ومعيني وعدّتي ومُجيري

[الديوان، ص 122]

كان أبو فراس شاعرا أميرا، فارسا. وكان سيف الدولة يحبه ويجلّه، ويستصحبه في غزواته، ويقدّمه على سائر قومه. وقد قلّده منبج وحران وأعمالهما. فكان يسكن بمنبج ويتنقل في بلاد الشام. ويذكر ابن العديم أن أبا فراس أسهم مع ابن عمّه سيف الدولة في صدّ غزوات الروم منذ سنة 336هـ [زبدة

الحلب، 1/ 102؛ وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، ص 800 ـ 802].

جرح أبو فراس في معركة مع الرّوم وأسر، فنقل إلى خرشنة ثم إلى القسطنطينية حيث بقي أعواما. ويذهب كل من مسكويه [تجارب الأمم، 2/ 192]، وأبو الفداء [المختصر في أخبار البشر، 2/ 104]، وابن الجوزي [المنتظم، 6/ 8]، والذهبي [العبر في خبر من غبر، 2/ 290]، وابن خلكان [وفيات الأعيان، ص 802] إلى أنه أسر سنة 351هـ ثم فداه سيف الدولة سنة 355هـ بأموال عظيمة.

توفي أبو فراس مقتولا سنة 357 هـ، قتله قرغويه قائد رجال ابن أخته أبي المعالي [أخبار الدول، ص 226؛ نشوار المحاضرة، 1/ 227؛ الكامل، 8/ 588؛ تاريخ الأدب العربي، 2/ 92].

يجمع أبو فراس في شعره بين المقطعات والقصائد المطوّلة. وقد تنوعت الأغراض التي تناولها تنوّعا كبيرا. فقد طرق غرض المدح والفخر والغزل جريا على عادة الشعراء العرب. وحاكى بنية القصيدة العربية في الوقوف على الأطلال والتشبيب والنسيب. لكنه تناول مواضيع أخرى يشهد له فيها بالفضل. منها رومياته التي تعدّ أنموذجا لشعر السجون وشكوى الحال. ومنها أيضا طردياته التي يصف فيها مشاهد الصيد في دقّة متناهية. أما ما نظمه في أمّه فإنه يعدّ لونا من ألوان الشعر المبتكر الذي يحوّل قيمة الأمومة إلى رمز. وقد عبّر أبو فراس في شعره عن موقفه من الشعر ومفهومه للشعر ووظيفته.

يلاحظ المتأمّل في مسيرة الشعر العربي أن التنظيم الاجتماعي الذي تولّد نتيجة تفكّك المجتمع القبلي وبناء الدولة وهياكلها هو الذي ضيّق على الشاعر مجال المعاش ودفع به دفعا إلى تحويل الشعر إلى سلعة ذات قيمة تبادليّة. والتنظيم الاجتماعي الجديد نفسه هو الذي عصف بالمكانة التي كان الشاعر يحظى بها في مجتمع ما قبل الإسلام، وهو الذي جعل معاش الشاعر وقوت يومه بين أيدي أولي الأمر من سلاطين ووزراء وأمراء. حتى كاد الشعر يصبح معرّة وهُجْنة. وقد صدر أبو فراس عن الوعي بما آل إليه أمر الشاعر والشعر فحاول أن يتنصّل من صورة الشاعر المتكسّب المدّاح. ووصل من شدّة ضيقه بالتكسّب والمتكسّبين أن تبرّأ من الشعر والمدح في القصيدة التي مطلعها «لعل خيال العامرية زائر» [ص 102 ـ 120] إذ يقول فيها [من الطويل]:

وَلَوْلاَ اجْتِنابِي العَتْبَ من غَيْرِ مُنْصِفٍ
لَمَا عَزَّنِي قَوْلٌ ولا خانَ خاطِرُ
ولا أنَا فِيمَا تَقَدَّمَ طَالِبٌ
جَزَاءً ولا فِيمَا تَأَخَّرَ وَازِرُ
يَسُرُّ صَدِيقِي أن أُكَثِّرَ وَاصِفِي
عَدُوِّي وإنْ سَاءَتْهُ تلكَ المَفَاخِرُ
نَطَقْتُ بِفَضْلِي وامتدحتُ عَشيرتِي
ومَا أنَا مَدَّاحٌ ولا انا شَاعِرُ

[الديوان، ص 120].

لكن أبا فراس يعتبر الشعر من تمام أمجاد الفتى. ولما كان الشعر ديوان العرب وحافظ أمجادهم وأيامهم فإن فتوة الفارس والأمير لا

تكتمل إلا بحذق الأدب والدراية بالشعر. لذلك يجاهر بمفهومه للشعر قائلا [من مجزوء الكامل]:

الشِّعْرُ ديوانُ العَرَبْ
أَبَدًا وعُنْوَانُ الأَدَبْ

لَمْ أَعْدُ فِيهِ مَفَاخِرِي
ومَدِيحَ آبَائِي النُّجُبْ

ومُقَطَّعَاتٍ رُبَّمَا
حَلَّيْتُ مِنْهُنَّ الكُتُبْ

لا في المديحِ ولَا الهجا
ءِ ولا المُجُونِ ولا اللَّعِبْ

[الديوان، ص 22]

ويبدو أن أبا فراس قد سار، في شعره، على هذا النهج الذي اختاره. إذ وقَتْهُ منزلته الاجتماعية من هوان التكسّب والانتجاع بالشعر. فهو أمير وابن عمّ أمير. وهو يشترك مع سيف الدولة في النسب والحسب وفي الفروسية والدفاع عن الإمارة. لذلك عمد في مدحياته إلى المزج بين المدح والفخر. بل إنه كثيرا ما كان يعتبر مدحياته في سيف الدولة جزءا من مفاخره. فلئن كان سيف هو صاحب السلطة السياسية فإن أبا فراس يعدّ نفسه صاحب سلطة على الشعر والكلمات. وقد تطرّق إلى هذا المعنى في العديد من قصائده. من ذلك مثلا قوله [من الطويل]:

الاَ قُلْ لِسَيْفِ الدولَةِ القَرْمِ إنَّني
علَى كُلِّ شَيْءٍ غيرِ وصفِكَ قَادِرُ

فلا تُلْزِمَنِّي خِطَّةً لا أُطِيقُهَا
فمَجْدُكَ غَلَّابٌ وفَضْلُكَ بَاهِرُ

ولَوْ لمْ يكُنْ فَخْرِي وفَخْرُكَ واحِدًا
لَمَا سَارَ عَنِّي بالمَدائِحِ سائِرُ

ولكنّني لا أُغْفِلُ القَوْلَ عن فتًى
أُسَاهِمُ في عَلْيائِهِ و أُشَاطِرُ

[الديوان، ص 113]

يتناول أبو فراس في مدحياته سيف الدولة وفعاله وأمجاده وكثيرا ما يعدّد وقائعه مع الروم ومع الخارجين عليه من القبائل العربية. لكنه يذكّر سامعه بأنه شارك في بناء تلك الأمجاد وتحقيق النصر في تلك الوقائع. وبدل استخدام ضمير المخاطب المفرد يستخدم ضمير المتكلّم الجمع خالقا نوعا من التماهي بينه وبين سيف الدولة. يقول في القصيدة نفسها:

بِكُمْ وبِنَا يا سَيْفَ دَوْلَةِ هاشِمٍ
يَطُولُ بَنُو أَعْمامِنا ويُفَاخَرُ

فإنّا وإيّاكُمْ ذُرَاها وهَامُها
إذِ النَّاسُ أَعْنَاقٌ لَها وكَرَاكِرُ

لذلك صارت مدحياته في سيف الدولة جزءا ممّا كتبه في غرض الفخر. فهو يعمد، فيما هو يعدّد خصال سيف الدولة إلى ذكر خصاله هو، ويفتخر بأمجاده وبطولاته في ساحات الوغى. يقول مثلا «من الكامل»:

ولَطَالَما قُدْتُ الجِيادَ إلى الوَغَى
قُبَّ البُطُونِ طَوِيلَةَ الارسانِ

وأنا الذي ملأ البَسِيطَةَ كُلَّها
نارِي وطَنَّبَ في السَّماءِ دُخانِي

[الديوان، ص 304]

هذه العلاقة بينه وبين سيف الدولة الذي رعاه

صغيرا وأشركه في الحكم كبيرا هي التي جعلت المدح يطفح بالصدق ويتحوّل في العديد من المواضع إلى ما يشبه الغزل. فتتوالى المعاني التي درجت العرب على تناولها في الغزل والنسيب مثل العتاب والهجر والصدّ والغيرة والتحرّق على لقاء الأحبّة. يقول مثلا [من الكامل]:

إنّـي أغـارُ عـلـى مَـكَـانِـيَ أنْ أرَى
فـيـهِ رجـالًا لا تَـسُـدُّ مَـكَـانِـيـا

[الديوان، ص 304]

إن مدار ديوان أبي فراس ومحصّل أمره تمجيد البطولة والفروسيّة والشّجاعة. وقصائده تشترك في ابتناء صورة للإنسان ممجّدا أبعد ما يكون عن الضّعف والوهن أو الخوف والفزع والرّعب. لكن رومياته التي نظمها في الأسر تعدل عن هذه الصورة المثال التي عليها جريان أغلب ديوان الشعر العربي القديم. فتطفح بالحديث عن الغربة وهشاشة الكائن وحنينه وهلعه من الموت غريب الدار.

وفي هذا الباب تتنزّل روائعه التي جرت على الألسن. منها القصائد التي قالها الشاعر في مواساة أمّه، فتفنّن في تصوير حالة الفقد التي عانتها. يقول [من المنسرح]:

يـا حَـسْـرَةً مـا أكَـادُ أحْـمِـلُـهـا
آخِـرُهـا مُـزْعِـجٌ وأوّلُـهَـا

عَـلِـيـلَـةٌ بـالـشـآمِ مُـفْـرَدَةٌ
بـاتَ بِـأيْـدِي السعِـدى مُـعَـلَّـلُـهَـا

تُـمْـسِـكُ أحْـشـاءَهَـا عـلـى حُـرَقٍ
تُـطْـفِـئُـهـا والـهُـمُـومُ تُـشْـعِـلُـهَـا

إذا اطـمَـأنّـتْ وأيْـنَ؟ أو هَـدَأتْ
عَـنَّـتْ لـهـا ذُكْـرَةٌ تُـقَـلْـقِـلُـهـا

تَـسْـألُ عـنّـا الـرُّكْـبانَ جـاهِـدَةً
بـأدْمُـعٍ مـا تـكـادُ تُـمْـهِـلُـهَـا

[الديوان، ص 241]

ومنها رثاؤه لأمه حين بلغه خبر موتها وهو أسير. ومثلما وسّع أبو فراس من دائرة المدح ففتحه على الفخر، حوّل الرثاء عن مقاديره وفتحه على فكرة رثاء الميت والحي. فهو يرثي أمّه الميتة ويرثي حاله في الأسر [الديوان، ص 162]. يقول [من الوافر]:

أيـا أُمَّ الأسـيـرِ سَـقـاكِ غَـيْـثٌ
بِـكُـرْهٍ مِـنْـكِ مـا لَـقِـيَ الأسـيـرُ

أيـا أُمَّ الأسـيـرِ سَـقـاكِ غَـيْـثٌ
تَـحَـيَّـرَ لا يُـقـيـمُ ولا يَـسـيـرُ

أيـا أُمَّ الأسـيـرِ سَـقـاكِ غَـيْـثٌ
إلـى مَـنْ بـالـفِـدا يَـأتـي الـبَـشـيـرُ

أيـا أُمَّ الأسـيـرِ لِـمَـنْ تُـرَبَّـى
وَقَـدْ مُـتِّ الـذَّوائِـبُ والـشُّـعـورُ

[الديوان، ص 163]

ومنها أيضا القصائد التي نظمها الشاعر ليستحثّ سيف الدولة على افتدائه. وهو يعمد فيها إلى تصوير حاله في السجن، فيتحدّث عن الأصفاد وعن الأبواب المغلقة. يقول [من الطويل]:

أُقَـلِّـبُ طَـرْفِـي بـيـن خِـلٍّ مُـكَـبَّـلٍ
وبـيـنَ صَـفِـيٍّ بـالـحَـدِيـدِ مُـصَـفَّـدِ

دَعَوْتُكَ والأبوابُ تُرتَجُ دُونَنا
فكُنْ خيرَ مَدْعُوٍّ وأكرَمَ مُنْجِدِ

[الديوان، ص 83]

وهو يعلن أنه لا يخشى الموت. وإنما يعزّ عليه أن يموت غريب الدار أسيرا عند الروم. لأن الموت في ساحات الوغى بطولة ومجد، وميتة الأسير لا تخلو من هوان. يقول في القصيدة نفسها [من الطويل]:

دَعَوْتُكَ لِلْجَفْنِ القَرِيحِ المُسَهَّد
لَدَيَّ ولِلنَّوْمِ القَليلِ المشرَّدِ

وما ذاكَ بُخْلًا بالحياةِ وإنَّها
لأوّلُ مَبْذُولٍ لأوّلِ مُجْتَدِ

. . . .

ولكنني أختارُ موْتَ بَنِي أبي
على صَهَواتِ الخيْلِ غيْرَ مُوَسَّدِ

وتأبى وآبى أنْ أمُوتَ مُوَسَّدًا
بأيْدِي النَّصَارَى موتَ أكْمَدَ أكْبَدِ

. . . .

أُناديكَ لا أنّي أخافُ من الرّدَى
ولا أرْتجِي تأخيرَ يومٍ إلى غدِ

. . . .

ولكن أنِفْتُ الموتَ في دارِ غُرْبَةٍ
بأيْدي النَّصارَى الغُلْفِ مِيتَةَ أكْمَدِ

فلا تترك الأعْداءَ حَوْلِي ليفْرَحُوا
ولا تقْطَعِ التسْآلَ عنّي وتَقْعُدِ

[الديوان، ص 82 ـ 83]

إن الصورة التي رسمها أبو فراس لنفسه في مدائحه وفي أشعاره التي طرق فيها غرض الفخر، صورة فارس فتى لا يعرف الضعف ولا تشينه الهشاشة. فهو البطل المقدام الشجاع الكريم الذي تعرف قيمته في الشدائد وفي «الليلة الظلماء يفتقد البدر». لكنه حين غيّب في السجن رسم لنفسه صورة جعلته أقرب إلى النفس. إذ كشف في رومياته عن هشاشة بالغة. وهشاشته تلك هي التي جعلته يطوّر أبوابا طرقها غيره من قبل. من ذلك مثلا قصيدته التي حاور فيها حمامة حطّت بالقرب منه إذ هو في الأسر. يقول [من الطويل]:

أقُولُ وقدْ ناحَتْ بِقُرْبِي حَمامَةٌ
أيَا جارَتَا هلْ تَشْعُرِينَ بِحَالِي

مَعاذَ الهَوى ما ذُقتِ طارِقَةَ النَّوى
وَلا خَطَرَت مِنكِ الهُمومُ بِبالِ

. . . .

تَعالَي تَرَي روحًا لَدَيَّ ضَعيفَةً
تَرَدَّدُ في جِسمٍ يُعَذَّبُ بالِ

[الديوان، ص 238]

ولئن كان هذا الباب غير مبتكر، فقد طرقه عنترة في ما قبل الإسلام وابن دريد في بداية القرن الرابع فإن أبا فراس قد غيّر من أساليب التناول. فبنى الأبيات على المقابلة بين الأسر والحرية، وبين الضحك والبكاء، وبين الندب والسلوان. يقول:

أيَضحَكُ مَأسورٌ وَتَبكي طَليقَةٌ
وَيَسكُتُ مَحزونٌ وَيَندُبُ سالِ

والمقابلة هي التي تمكّن الشاعر من فتح هذا الباب على الفروسية والجلَد. فلقد درج

الشعراء من قبله على وصف نوح الحمام الذي يستدر دمعهم فيبكون معه. أما أبو فراس فإنه يظلّ، رغم ما يفصح عنه من هشاشة، الفارس الذي لا يجزع للمصاب. يقول:

لَقَد كُنتُ أَولى مِنكِ بِالدَّمعِ مُقلَةً
وَلَكِنَّ دَمعي في الحَوادِثِ غالِ

ولأبي فراس مقطعات عديدة يفصح فيها عن تشيّعه وولائه لآل البيت. وهو كثيرا ما يطرق هذا الباب معتبرا تشيّعه بمثابة صحيفة بها سينال الفوز يوم الدين. يقول [من الخفيف]:

لَستُ أَرجو النَجاةَ مِن كُلِّ ما أَخـ
ـشاهُ إِلّا بِأَحمَدٍ وَعَلِيِّ

وَبِبِنتِ الرَسولِ فاطِمَةِ الطُهـ
ـرِ وَسِبطَيهِ وَالإِمامِ عَلِيِّ

. . . .

بِهِمِ أَرتَجي بُلوغَ الأَماني
يَومَ عَرضي عَلى الإِلَهِ العَلِيِّ

[الديوان، ص 157].

وله قصائد قالها في الصيد واللهو باعتبار الصيد من تمام صفات الفارس في ذلك العصر. وتجسّد أرجوزته في الطرد التي مطلعها من الرجز:

ما العُمْرُ ما طالَتْ بِه الدُّهورُ
العُمْرُ ما تَمَّ بِهِ السُّرُورُ

[الديوان، ص 319 ـ 328]

مدى اقتداره على جعل الشعر ينفتح على السرد. فهو يصف الطرائد وقت ملاحقتها واصطيادها. فتتحوّل الصور التي يصف فيها الصيد إلى مشهد أقرب ما يكون إلى المعارك التي لا يمضي إليها المرء إلا بعد إعداد العدّة والعدد. فهو يصف الاستعداد للرحلة والأوامر التي يصدرها للصقّار والفهّاد والطبّاخ. ثم يصف المكان والزمان الذي تدور فيه المطاردة وكيفيات الإيقاع بالطرائد. ويتمكّن في هذا اللون من رفد الشعر ببعد قصصي يخيّل الأحداث والوقائع بواسطة التفنّن في الوصف المدقّق للطرائد والكلاب والصقور وبهجة الرفقة وتهليلهم عندما تقع الطرائد في قبضتهم.

إن طرديات أبي فراس صادرة عن فارس خاض غمار الحروب. لذلك يستعير في هذا اللون من الشعر القاموس الذي استخدمه في وصف المعارك والحروب، ويتوسّع فيه مضيفا إلى اللون الأوّل لونا جديدا.

غير أن الناظر في ديوان أبي فراس يلاحظ في يسر أن رائيته التي مطلعها [من الطويل]:

أَراكَ عَصِيَّ الدَمعِ شيمَتُكَ الصَبرُ
أَما لِلهَوى نَهيٌ عَلَيكَ وَلا أَمرُ

[الديوان، ص 157 ـ 161]

تمثّل القصيدة الجامعة لأغلب الأغراض التي طرقها في مجمل أشعاره، وتكشف مدى شاعريته واقتداره على التصرّف في الكلام. فهو لا يقف على الديار ولا يتبع سنن القول المتداولة، بل يفتتحها بمطلع غزلي ذي طابع حواري. لكن الحوار يتّخذ مظهرين: أولهما حوار ذاتي يقوم فيه الشاعر باستبطان الذات ومحاورتها. أما الثاني فهو الذي يمدّ القصيدة ببعد تمثيلي مشهدي يقوم على الحوار المباشر:

تُسائِلُني مَن أنتَ وَهيَ عَليمَةٌ
وَهَل بِفَتىً مِثلي عَلى حالِهِ نُكرُ

فَقُلتُ كَما شاءَت وَشاءَ لَها الهَوى
قَتيلُكِ قالَت أَيُّهُم فَهُمُ كُثرُ

ولئن كان الشعراء القدامى من أمثال عنترة قد درجوا على ذكر الأحبّة في المواضع التي يصفون فيها الحرب والضّراب، فإن أبا فراس لا يورد ذكر الأحبّة من قبيل الإيماءة العابرة بل يتوسّع في هذا الباب ويجعل مدار قصيدته تجسيد صورة الفارس العاشق الذي يبتغي في الحبّ ما ينشده في الحرب. يقول:

وَنَحنُ أُناسٌ لا تَوَسُّطَ عِندَنا
لَنا الصَدرُ دونَ العالَمينَ أَوِ القَبرُ

لم يكن شعر أبي فراس مجرّد قصائد قالها في مناسبات محدّدة، بل كان نوعا من التأريخ لسيرة فارس ومفاخره وأمجاده وأشجانه. لقد فتح الشعر على ما جعل منه حكاية حال. فرسم لنفسه صورة البطل الذي لا تزيده الصعاب إلا عنادا. لقد كان يفخر ببني قومه ويسهم في أمجادهم. لكن قومه هم الذين أذاقوه طعم اليتم صغيرا، وهم الذين قتلوه وهو لم يتخطّ الشباب ولم يمتّع به:

زين الشباب أبو فرا
سٍ لم يُمَتَّع بالشباب

■ آثاره

نشر ديوان أبي فراس في بيروت سنة 1873م، ثم نشر بشرح نخلة قلفاط، بيروت سنة 1900م، ونشر بتحقيق سامي الدهان في بيروت 1940م. ثم توالت طبعاته؛

1 - ديوان أبي فراس، رواية أبي عبد الله الحسين بن خالويه، وقد حققت هذه الطبعة على مخطوطة المكتبة العبدلية الصادقية التونسية المنسوخة سنة 548هـ، بيروت، دار صادر، (د. ت)؛ 2 - ديوان أبي فراس، شبكة الانترنيت، الموسوعة الشعرية، ضمن موقع المجمّع الثقافي (أبوظبي)، على شبكة الإنترنت: htll/www. cultural.org.ae؛ 3 - ديوان أبي فراس، قرص مرن، الموسوعة الشعرية، إصدار المجمّع الثقافي أبو ظبي، الإصدار الأول، سنة 1998، الإصدار الثاني، سنة 2001، الإصدار الثالث، سنة 2003.

■ المصادر والمراجع

● الحمداني، أبو فراس، ديوان أبي فراس، رواية أبي عبد الله الحسين بن خالويه، وقد حققت هذه الطبعة على مخطوطة المكتبة العبدلية الصادقية التونسية المنسوخة سنة 548هـ، بيروت، دار صادر، (د. ت)؛ ● ابن الأثير، عز الدين، الكامل في التاريخ، بيروت، مؤسسة المعارف، (د. ت)؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة عبد الحليم النجار، القاهرة، دار المعارف، ط 5، (د. ت). ج 2؛ ● التنوخي، القاضي، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تح. عبّود الشلجي، بيروت، 1971، ج 1؛ ● ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، حيدر آباد، ط 1، 1358هـ الجزء السادس؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان، ● ديوان أبي فراس، قرص مرن، الموسوعة الشعرية،

إصدار المجمّع الثقافي أبو ظبي، الإصدار الثالث، 2003، باب المراجع؛ • الذهبي، الحافظ، العبر في خبر من غبر، تح. فؤاد السيد، الكويت 1961، ج 2؛ • ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تح. سامي الدهان، دمشق، نشر المعهد الفرنسي، 1951، ج 1؛ • أبو الفداء، المختصر في أخبار البشر، القاهرة، ط 1، 1325هـ، ج 2؛ • القرماني، أبو العباس الدمشقي، أخبار الدول وآثار الأول، بغداد 1282هـ؛ • مسكويه، تجارب الأمم، القاهرة 1915، ج 2.

د. محمد لطفي اليوسفي
جامعة منوبة - تونس

ابن حمدون، أحمد بن إبراهيم

(ت 255هـ/868م)

ابن حمدون أسرة أدبيّة بغدادية عُرفت في القرن الثالث للهجرة. نبغ فيها أكثر من واحد في اللغة والكتابة والغناء ومنادمة الخلفاء. من أشهر أبنائها إبراهيم بن إسماعيل ابن دؤاد بن حمدون وأبو عبد الله أحمد بن إبراهيم البغدادي الكاتب وهو ابن إبراهيم بن إسماعيل بن حمدون وبعدهما أبو محمّد بن حمدون (ولد سنة 237هـ وتوفّي سنة 309هـ) نادم المعتمد. وأبو العنبس بن أبي عبد الله بن حمدون أحد المشهورين بجودة الغناء والصنعة. وابنه إبراهيم بن أبي العنبس صاحب صوت شجيّ وأداء جيّد وكلّهم من ندماء الخلفاء [معجم الأدباء، 1/ 168؛ دائرة المعارف، ج4].

وأبو عبد الله معروف بابن حمدون على الإطلاق، لقّب بالنّديم لأنّه كان خصيصا بالمتوكّل العباسي ونديمًا له وكان شيعيًا. تعلّم المنادمة عن أبيه إبراهيم الذي لزم المعتصم (833 - 842هـ) ثمّ الواثق (842 - 847هـ). وكان يعاتب المتوكّل في أيّام أخيه الواثق ويعابثه ويداعبه بما يضحك الواثق، ثمّ لمّا مات الواثق نادم إبراهيم بن إسماعيل بن حمدون المتوكّل (847 - 861هـ). وكان قد غضب منه لما كان بينه وبين أخيه الواثق من ميل. وأبغض ذلك. ثمّ كانت حادثة «فريدة» جارية الواثق سببا لنفي إبراهيم بن حمدون إلى السّند مدّة ثلاث سنين، بعد ضربه ثلاثمائة سوط.

أمّا ابنه أبو عبد الله بن حمدون فقد نادم بدوره المتوكّل مدّة خلافته وهي أربع عشرة سنة وشهور. ثمّ نادم المستعين مدّة خلافته وهي ثلاث سنوات ونيف، فكان ما وصله به أكثر ممّا ناله من المتوكّل. ذكره أبو جعفر العلوي في مصنّفي الإماميّة [معجم الأدباء]،

وقال عنه: هو شيخ أهل اللغة ووجههم [روضات الجنّات] وعالم بالأدب والأخبار، وهو أحد النّحاة والأدباء. يقول عنه القفطي «كان له شعر، ولم تكن له شهرة المبرّد» [إنباه الرّواة، 25] وكان بصريّ النّحو بغداديّ الإقامة.

اتّصل كأبيه إبراهيم بن حمدون بالخلفاء ونادم جماعة منهم، آخرهم المعتمد، ولم تطل منادمته للمتوكّل لحادثة نفاه إثرها عن بغداد إلى تكريت. وسبب ذلك قصّة عشق بين الفتح ابن خاقان وشاهك غلام المتوكّل. وكان الفتح يقول في الغلام أشعارا وأبو عبد الله يسعى فيما يحبّه ابن خاقان. فلمّا وصل الخبر إلى الخليفة أنكر ذلك على ابن حمدون وقال له «إنّما أردتك وأدنيتك لتنادمني ليس لتقود على غلماني» [معجم الأدباء، 1/ 165؛ الوافي بالوفيّات]. فحلف المتوكّل كذبا وحنث في قسمه، اضطرّه ذلك إلى تطليق نسائه وعتق مماليكه. ولزم الحجّ ثلاثين سنة دون انقطاع. أقام ابن حمدون بتكريت أيّاما، ثمّ جاءه زرافة سيّاف المتوكّل في اللّيل فقطع أذنه. ثمّ عاد إلى بغداد بعد مدّة فلقي إسحاق بن إبراهيم الموصلي، ولمّا كفّ بصر الموصلي لازمه ابن حمدون يخبره عن أحوال النّاس والسلطان.

أعاده المتوكّل إلى خدمته، وكان إذا دعا به قال له: «يا عبيده» على جهة المزاح. وتنادر ابن حمدون في مجلس المتوكّل بنجاح بن سلمة أحد كتاب الدّولة العباسيّة (قتل سنة 245هـ) وذكره بغير الجميل في حضرة أمير المؤمنين، فهدّده نجاح بأن يوقع بينه وبين المتوكّل. فكفّ عن التعرّض له خوفا من بطش الخليفة به ثانية.

وهبه المتوكّل جارية حسنة تدعى «صاحب» إلّا أنّ ثنيّتها كانت سوداء العارض فكرهها لذلك. ولمّا مات تزوّجت صاحب بعض العلويّين.

وكان ابن حمدون خصيصا بأبي محمد الحسن ابن علي وأبي الحسن قبله وله معه مسائل وأخبار [معجم الأدباء، 1/ 165].

أخذ عن علي بن محمد بن علي بن موسى الرّضا وكان خصيصا به. وقرأ عليه أبو العباس أحمد بن يحيى بن يسار الشيباني النحوي الشهير بثعلب (ت291هـ) قبل أن يأخذ عن ابن الأعرابي (ت 230هـ/ 846م).

نظم ابن حمدون شعرا متنوّع الأغراض. فقد قال في دير درمالس ببغداد [الدّيارات، 187].

يا دير درمالس ما أحسنك
ويا غزال الدّير ما أفتنك
لئن سكت الدّير يا سيّدي
فإنّ في جوف الحشا مسكنك
ويحك يا قلب، أما تنتهي
عن شدّة الوجد بمن أحزنك
أرفق به، بالله، يا سيّدي
فإنّه من حينه مكّنك

وذكر له ياقوت أبياتا وضعها في عتاب عليّ بن يحيى المنجّم [الدّيارات؛ معجم الأدباء].

من عذيري من أبي حسن
حين يجفوني ويصرمني؟
كان لي خلّا، وكنت له
كامتزاج الرّوح بالبدن

فـوشـي واش فـغـيّـره
وعـلـيـه كـان يـحـسـدني

إنّـمـا يـزداد مـعـرفـة
بـودادي حـيـن يـفـقـدني

ولمّا مات ابن حمدون رثاه جحظة في أماليه بقصيدة منها [الوافي بالوفيات 6/ 210؛ معجم الأدباء 1/ 170...].

أيعذب من بعد ابن حمدون مشرب
لقد كدّرت بعد الصّفاء المشاربُ

أصبنا به فاستأسد الضّبع بعده
ودبّت إلينا من أناس عقاربُ

وقطّب وجه الدّهر بعد وفاته
ومن أيّ وجه جئته فهو قاطبُ

فأخبر عليّ بن يحيى المنجّم أنّه رأى ابن حمدون بعد موته في المنام وهو يقول [معجم الأدباء، 1/ 167].

أيا عليّ ما ترى العجائبا
أصبح جسمي في التّراب غائبا
واستبدلت صاحبُ بعد صاحبا

اختلفت كتب التراجم في تاريخ وفاته فقد جاء في الوافي بالوفيّات [6/ 210] أنّه توفّي سنة أربع وستين ومائتين للهجرة. وضبط الزّركلي في الأعلام [1/ 80] تاريخ وفاته سنة خمس وخمسين ومائتين للهجرة، الموافق لسنة ثمان وستّين وثمانمائة للميلاد. بينما نقل لسان الميزان للعسقلاني عن جحظة أنّه توفّي سنة تسع وثلاثمائة وولد سنة سبع وثلاثين ومائتين وهو تاريخ أورده ياقوت على لسان جحظة لوفاة نديم آخر من نفس العائلة يدعى أبو محمّد بن حمدون.

آثاره

ذكر له من المصنّفات كتب عديدة منها:

1 ـ أسماء الجبال والمياه والأودية؛ 2 ـ كتاب بني مرّة بن عوف؛ 3 ـ كتاب بني نمر بن قاسط؛ 4 ـ كتاب بني عقيل؛ 5 ـ كتاب عبد الله بن غطفان؛ 6 ـ كتاب طيّ؛ 7 ـ كتاب شعر العجير السّلولي وصنعته؛ 8 ـ كتاب شعر ثابت بن قطنة وصنعته في رجال النّجاشي؛ 9 ـ كتاب النمرين قاسط والسلولي؛ 10 ـ كتاب بني كليب بن يربوع؛ 11 ـ نوادر الأعرابيّ؛ 12 ـ شعر بحير الشكوى وصنعته؛ 13 ـ كتاب بني عطيل.

المصادر والمراجع

● الشابشتي، أبو الحسن، الدّيارات، تحقيق كوركيس عوّاد، ط2، 1966، منشورات مكتبة المثنّى؛ ● الطّوسي، أبو جعفر، الفهرست، ط3، 1983، مؤسّسة الوفاء، بيروت؛ ● الحموي، ياقوت، معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، 20 جزءا، مطبعة المأمون؛ ● القفطي، جمال الدين، إنباه الرّواة على أنباه النّحاة، مطبعة دار الكتب المصريّة، 1952؛ ● الصّفدي، صلاح الدّين، الوافي بالوفيّات، باعتناء إحسان عبّاس، دار النشر فرانز شتايز فيسبادن، 18 جزءا، 1969؛ ● العسقلاني، لسان الميزان، 7 أجزاء، شركة علاء الدين، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط2، 1971؛ ● السيوطي، جلال الدين، بغية الوعاة: تحقيق محمّد الفضل إبراهيم، دار

الفكر، ط2، 1979؛ ● الخوانساري، الأصبهاني، روضات الجنّات، 4 أجزاء، ط2، مطبعة الحاج سيّد السّعيد طباطبائي؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هديّة العارفين بأسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين، جزءان، 1951، منشورات مكتبة البغدادي؛ ● كحّالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، المكتبة العربيّة بدمشق، مطبعة الترقّي، 1957؛ ● البستاني، فؤاد أفرام، دائرة المعارف، ج4، مقال ابن حمدون، بيروت، 1962؛ ● الزّركلي، خير الدين، الأعلام، ط10، دار العلم للملايين، بيروت، ط7، 1976.

د. زكية السائح دحماني
جامعة تونس

ابن حمدون، أبو المعالي محمد بن الحسن

(495هـ/1101م ـ 562هـ/1166م)

أبو المعالي، محمد بن الحسن بن محمد ابن علي بن حمدون البغداديّ، من أسرة كانت مشهورة بالرياسة والرواية والكتابة.

ولد في شهر رجب سنة 495هـ، في خلافة المستظهر بالله العباسي (487 ـ 512هـ)، وعاصر خلافة المسترشد (512 ـ 529هـ)، والراشد (529 ـ 530هـ)، والمقتفي (530 ـ 555هـ) وجانبا من خلافة المستنجد (555 ـ 566هـ) ومهّد له أبوه وأخواه الطريق إلى وظائف الدولة، فكانت وظيفة «عرض الجيش» التي تولّاها في عهد المقتفي إحدى درجات الترقّي في وظائف الدولة، وفي خلافة المستنجد خَلَت وظيفة «صاحب ديوان الزِمام» فتولّاها في سنة 558هـ. ولم يدم فيها أكثر من ثلاث سنوات، حيث تغيّرت نفس الخليفة عليه بعد أن وقف على حكايات ذكرها ابن حمدون في كتابه «التذكرة» على ما يقوله العماد الأصفهاني (ت 597هـ) وعنه تنقل سائر المصادر أنّ الإمام المستنجد وقف في الكتاب «على حكايات ذكرها نقلًا عن التواريخ تُوهم في الدولة غضاضة، ويعتقد للتعرّض فيها عراضة، فأُخذ من دَست منصبه وحُبس، ولم يزل في نَصَبه إلى أن رُمس». وكان موته في الحبس سنة 562هـ.

وليس بالإمكان تحديد طبيعة التُهمة التي عوقب من أجلها على وجه الدقّة، كما لا يمكن تعيين النصوص التي رأى فيها المستنجد ما ينال من شخصه أو من خلافته. وإن أظْهر ابن حمدون في الجزء الأوّل من تذكرته بعض المَيل إلى العلويين، وهو أمر موروث عن الأمراء من بني حمدان الذين يقال إنه كان ينتسب إليهم. ولعلّ ذلك يعود إلى تقصيره في عمله، أو لوشاية من أحدهم أوْهَم فيها الخليفة أنه يغمز من قناته.

ومهما كان سبب حبْسه، فقد عُرِف بالفصاحة والمعرفة التامّة بالكتابة والأدب، ووُصف بأنه كريم الأخلاق، حَسَن العشرة، وكان يقرّب أهل الأدب ويشملهم بعطفه. ويدلّ كتابه على شغفه بالأدب والتاريخ. وإنّ المادّة الغزيرة التي احتوت عليه أجزاء كتابه الخمسة تؤكّد على سعة مطالعاته، ووقوفه على عشرات الكتب القديمة من كتب الأدب والتاريخ وفروع الثقافة الأخرى، فكان كتابه ثمرة قراءاته ومطالعاته وتقييده للأخبار، والفوائد، والطرائف، والنُكت، والنوادر، والحكايات، والحِكَم، والأمثال، والمواعظ، والآداب، وكلام النبيّ، وكلام بعض الأنبياء، والخلفاء، والصحابة، والتابعين وطبقات الصالحين، والزُّهاد، والأئمّة من الفقهاء، وأشعار الحكماء، ورسوم الملوك والرعيّة والسياسة، وأدب الملوك والسلاطين والوزراء، والوُلاة، والقُضاة، والحُجّاب، وقادة الحروب، وعمّال الصدقات، ووصايا العرب، وأخبار ملوك غير المسلمين، وسياسات كسرى، والإسكندر، وأخبار الأمويين، والعباسيين، والطولونيين، وغير ذلك من أبواب كثيرة تحتوي على معلومات تاريخية وأدبية نادرة حشدها بأسلوب سَهل مُيسّر، ولُغةٍ فصيحة متينة لا يكتنفها الغموض ولا التقعّر. وقال في مقدّمته:

«هذا كتاب جمعته من نتائج الأفكار، وطُرَف الأخبار والآثار، ونَظَمْتُ فيه فريد النثر ودُرَرِه، وضمّنته مختار الشعر ومحبّره، وأودعته غُرر البلاغة وعيونها، وأبكار القرائح وعُيونها، وبدائع الحِكم وفنونها، وغرائب الأحاديث وشجونها. . .».

ومع اهتمام ابن حمدون بالفنون الأدبية، فلم يُعرف له من النَّظم سوى ثلاث مقطّعات أثبتها العماد الأصفهاني في «خريدة القصر». وقد وصف ابن خلكان (ت 680هـ) «التذكرة الحمدونية» بأنه «من أحسن المجاميع يشتمل على التاريخ والأدب والنوادر والأشعار، لم يجمع أحد من المتأخرين مثله، وهو مشهور بأيدي الناس، كثير الوجود، وهو من الكتب الممتعة». ومن مقدّمة «التذكرة» يلمس القارىء أنّ ابن حمدون كان يُعاني نوعًا من العُزلة حين جمع مادّتها، وأنّه بات يؤثّر صُحبة الكتب على صُحبة الناس، فقد «فسد الزمان، وخان الإخوان، وأوحش الأنيس، وخيف الجليس، وصار مكروه العُزلة مندوبًا، ومأثور الخلطة محذورًا».

قد اختار ابن حمدون بدايةً وخاتمةً طبيعيّتين حين ابتدأ كتابه بالمواعظ والآداب الدينية، وختمه بالأدعية، ثمّ وزّع المادّة على أبواب معيّنة، كلّها يمكن أن تنتظم تحت عنوان «الأدب»، ما عدا الباب التاسع والأربعين، من الجزء الأوّل، فهو مخصّص للتاريخ. وتُعتبر الأدعية في فواتح الأبواب من إنشائه، إلّا أنه لا يسجّل في الكتاب شيئًا من تجاربه وقضايا عصره، وليس فيه من مشاهداته إلّا اليسير، وهذا ما يؤخذ عليه، إذ إنه صرف اهتمامه إلى النقل والانتقاء من: «نهج البلاغة»، و«حلية الأولياء»، و«البيان والتبيين»، و«عيون الأخبار»، و«نثر الدرّ»، و«الأدب الكبير»، لابن المقفّع، و«كليلة ودمنة»، وكتاب «النمر والثعلب» لسهل بن هارون، وغيره.

ووصل ابن حمدون في كتابه إلى ذكر أخبار

الفاطميّين، وأورد معلومات تاريخية نادرة لا نجدها عند غيره، فمن ذلك، على سبيل المثال، الأبيات التي قالها إبراهيم الرقيق الكاتب المغربيّ في فتح مدينة صور بعد عصيان «العلّاقة» أحد البحّارة بها وإعلانه الثورة على الخليفة الحاكم بأمر الله (386 ـ 411هـ)، وإن كان يذكر الأبيات دون ذكر مناسبتها بالتفصيل، ممّا يضطرّ معه القارئ أو الباحث إلى التفتيش عن ذلك في المظانّ التاريخية الكثيرة.

وفي الأجزاء اللاحقة نجده يتحدّث عن بعض رجالات عصره حديث العارف بهم، والمتّصل بهم، ووصل بأخباره عنهم إلى العصر الزنكيّ في الموصل.

وتتنوّع النصوص التي يُثبتها ابن حمدون من ناحية الحجم، فهي أحيانا في أقلّ من سطر، مثل نصّ حديثٍ شريف، أو قول مأثور، أو حكمة أو مِثال من الأمثلة، أو فائدة. وفي بعض الأحيان يأتي النص في عدّة أسطر، أو في نصف صفحة، ولا يزيد على الصفحتين إلّا فيما ندر. وهكذا فعل في إيراد الأشعار، فهو ينتقي منها أبياتًا قليلة ومقطعات، أغلبها في بيتٍ واحد، أو بيتين. ويسرد الفوائد والأخبار والأقوال وراء بعضها، ولا يميّز النصوص عن بعضها إلّا بلفظ: «قال» أو «كتب فلان» أو «كان فلان»، وهكذا.

آثاره

1 ـ التذكرة الحمدونية، مطبوعة في 5 أجزاء؛
2 ـ حاشية ابن حمدون على شرح ميارة على منظومة المرشد المعين، مطبوعة.

المصادر والمراجع

● كشف الظنون، ص383؛ ● الأعلام، 6/ 316؛ ● معجم المؤلّفين، 9/ 217 .

د. عمر عبد السلام تدمري
الجامعة اللبنانية ـ طرابلس
لبنان

ابن حمدويه، أبو عمرو شمر

(ت 255هـ/869م)

أبو عمرو شمر بن حمدويه (ورد شمر في كتب التّراجم والأخبار إمّا بفتح الشين وكسر الميم، أو بكسر الشين وتسكين الميم) الهروي نسبة إلى هراة بخراسان، نحويّ، أديب راوية للأخبار والأشعار. تجمع كتب التراجم على أنّه كان عالما فاضلا وثقة حافظا للغريب من اللغة والحديث.

رحل إلى العراق في بدء شبابه، فأخذ عن أشهر علماء اللغة والأدب، وسمع دواوين الشعر وكتب الحديث.

لقي ابن الأعرابي (ت 230هـ) وسمع منه الأشعار وتفسير غريبها [تهذيب اللّغة، الأزهري، ص21]، كما لقي جماعة من أصحاب أبي عمرو الشيباني (ت 206هـ)، وأبي زيد الأنصاري (ت 215هـ) وأبي عبيدة (ت 209هـ) والفرّاء (ت 207هـ) منهم الرّياشي (ت 257هـ) وأبو حاتم السجستاني (ت 250هـ) وأبو نصر الباهلي (ت 231هـ) غلام الأصمعي، وسلمة بن عاصم (ت 310هـ).

ثمّ لمّا رجع إلى خراسان لقي أصحاب النّضر ابن شميل البصري (ت 203هـ) والليث بن المظفّر، استكثر منهم [القفطي، إنباه الرّواة، 2/ 77].

ولدى عودته إلى هراة واستقرار أمره بها ألّف كتابا كبيرا في اللغة وضعه مرتّبا على حروف المعجم، وابتدأه بحرف الجيم، فأشبعه وجوّده. ويذكر القفطي أنّه في تطويله في الشواهد والشعر والرّوايات الجمّة التي أخذها عن أئمة العرب من اللغويّين والمحدّثين ورواة الأخبار والأشعار، وأنّه أودعه من تفسير القرآن بالرّوايات عن المفسّرين ومن تفسير غريب الحديث أشياء لم يسبقه إلى مثلها أحد تقدّمه ولا أدرك فيه شأوه من بعده.

على أنّه لمّا أكمل كتابه هذا ضنّ به في حياته، ولم ينسخه طلابه، ولم ينتفع به إلى أن حملته مياه نهر النهروان في حادثة فجّر فيها الماء من النهروان على معسكر، فغرق كتاب شمر في جملة ما غرق من سواد المعسكر ومتاعه.

قال الأزهري في التهذيب: ورأيت أنا من أوّل ذلك الكتاب تفاريق أجزاء بخطّ محمد ابن قسورة، فتصفّحت أبوابها فرأيتها في غاية الكمال [التهذيب، الأزهري، 1/ 25].

وتذكر بعض الرّوايات أنّ من أقاربه من أخذ كتاب الجيم هذا قبل الحادثة المذكورة فاختزله. على أنّه لم يصل منه إلا بعض نتف [البلغة في تاريخ أئمة اللّغة للفيروزبادي، 95].

■ آثاره

1 ـ كتاب الجيم، هو معجم حوى مادة غزيرة، فيما يذكر من خلال الرّوايات، تقوم على تفسير غريب القرآن.

ويعتبر شمر من أبرز من ألّف في تفسير الغريب. ويذكر الأزهري أن شمر، مع كثرة علمه وسماعه، لما ألّف «كتاب الجيم» لم يخله من حروف كثيرة من كتاب اللّيث بن المظفر عزاها إلى محارب وهو في الأغلب رجل من أهل مرو كان شمر سمع كتاب اللّيث منه؛ 2 ـ كتاب غريب الحديث، لا يمتنع أن يكون هذا الكتاب قسما مكمّلا لكتاب الجيم أو مقتطعا منه. فقد كان بعض العلماء يجمع بين غريبي القرآن والحديث وكان البعض الآخر يفرّق ويفصل؛ 3 ـ كتاب السّلاح، ذكره ياقوت في معجم الأدباء، والسّيوطي في بغية الوعاة، وبروكلمان [179 S.I.] ونجد نقولا عنه في تهذيب الأزهري؛ 4 ـ كتاب الأمثال، نسبة إليه الميداني [بروكلمان، 179، S.I.؛ تاريخ التراث العربي مج8، 1/ 340؛ مجلة المورد المجلّد 3، عدد2، 197، مقال بعنوان مصادر الميداني في كتابه مجمع الأمثال لعبد الرحمٰن التكريتي]؛ 5 ـ كتاب الجبال والأودية، ذكره

ياقوت والسيّوطي؛ 6 ـ كتاب الحيّات، ذكر الأزهري في التّهذيب نقولا منه.

المصادر والمراجع

● الأزهري، تهذيب اللغة، 1/ 21، 25، 30، 2/ 219، 420، ● الأنباري، نزهة الألباء، ص196 ـ 197؛ ● بروكلمان، الملحق، 1/ 179؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، ص1205؛ ● الزركلي، الأعلام، 3/ 253؛ ● سزكين، تاريخ التّراث العربي، مج 1/ 339 ـ 341؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، 2/ 4 ـ 5؛ ● الفيروزبادي، البلغة في تاريخ أئمة اللغة، ص94 ـ 95؛ ● القفطي، إنباه الرّواة، 2/ 77 ـ 78؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، 4/ 306 ـ 307؛ ● ياقوت، معجم الأدباء، 11/ 274 ـ 275.

د. خالد ميلاد

الجامعة التونسية

ابن حمدي، بَابَه بن محمذن

(1253هـ/ 1837م ـ 1316هـ/ 1898م)

راجع: الحاجي، بابا بن محمذن بن حمدي بن المختار.

ابن حمديس الصقلي، عبد الجبار أبو محمد بن أبي بكر

(447هـ/ 1055م ـ 527هـ/ 1133م)

هو عبد الجبار أبو محمد بن أبي بكر الأزدي، شاعر صقليّ ولد بسرقوسة على الساحل الجنوبي الغربي من الجزيرة عام 447هـ/ 1055م، لا تذكر كتب التراجم كثيرا عن حياته بصقلية المسلمة ولا عن الذين درس عليهم. كان عمره يناهز الست سنوات 454هـ/ 1061م حين بدأ النورمان غزو صقليّة ولقد دام حصارها الفعلي وفتحها ثلاثين عاما من 454هـ/ 1061م إلى 484هـ/ 1091م. وقد يكون ذلك من الدوافع على خروجه منها

عام 471هـ/ 1079م خروجا نهائيا أي قبل سقوط سرقوسة بأيدي النورمان بثلاث سنوات 474هـ/ 1082م، وتشكّ كثير من المصادر في أنّ ابن حمديس عاد إلى هذه الجزيرة. وبعض الأخبار تقول إنّ المركب الذي كان يقلّه وهو راجع إليها قد غرق وقد نجا الشاعر وماتت جارية له يذكرها في شعره بحرقة.

وحين غادر ابن حمديس صقلية مرّ بإفريقيّة وهو في طريقه إلى الأندلس أين اختار إشبيلية عاصمة العباديين وكان ملكها وقتئذ الشاعر المعتمد ابن عباد (ت 488هـ/ 1095م). ويبدو أنّ ابن حمديس ظلّ وقتا في إشبيلية قبل أن يلتقي ملكها الشاعر وحين التقاه قرّبه وجعله من شعرائه ونحن نجده يمدحه إثر موقعة الزلاقة 479هـ/ 1086م التي تغلّب فيها المسلمون على ألفونس السّادس Alphonse 6.

ولمّا استولى المرابطون على إشبيلية وسُيِّرَ الملك إلى أغمات أسيرا (484هـ/ 1091م) غادر ابن حمديس الأندلس في نفس العام إلى إفريقيّة. وقد يكون خروج بعض أهله إثر بسط النورمان نفوذهم على الجزيرة قد شجّعه على اختيار إفريقيّة، فقد ذكرت كتب التراجم أن عمّة ابن حمديس وقد كانت شاعرة هاجرت مع أبنائها إلى صفاقس وأنها زوّجت ابنها أبا الحسن أخت الشاعر. وبالفعل نجد ابن حمديس في صفاقس، وقابس، والمهدية بتونس ولكن أيضا ببجاية، وتاجنة، وسبتة، وبونة بل بأغمات حيث أسر المعتمد بن عباد صاحب نعمته القديم فقد ظلّ يلازمه بها حتّى مات.

وبعد وفاة المعتمد غادر المغرب إلى إفريقية من جديد فاتصل ببني حمّاد ومدح الأمير الخرساني والشّاعر المنصور بن ناصر علنّاس (ولايته: 481هـ/ 1088م - 498هـ/ 1105م) ووزراء بني علّناس المعروفون ببني حمدون في بجاية والقلعة ومدح من بني خراسان الأمير أحمد بن العزيز بن خراسان الذي حكم تونس بين 500هـ/ 1106م - 107م. كما اتصل ببني زيري بالمهدية فمدح يحيى بن تميم الذي دامت ولايته من 501هـ/ 1108م إلى 509هـ/ 1116م وعلي بن يحيى (ولايته بين 509هـ/ 1116م و515هـ/ 1121م)، وعايش ابن حمديس عام (511هـ/ 1117م - 18م) مع هذا الأمير انتصارا على النورمان مغتصبي وطنه حين انكسرت شوكة روجار الثاني Roger II على يد الأسطول الصنهاجي وقد جاء جيش النورمان لنصرة رافع صاحب قابس ولإضعاف شوكة يحيى كما عاش وهو يمدح الحسن بن علي بن يحيى موقعة أخرى انكسر فيها جيش روجار الثاني حين تعرض الأسطول إلى عاصفة أغرقت أغلبه عام 517هـ/ 1123م وقد كان في طريقه إلى المهدية. وقضى على عدد من الفرسان بعد أن دخلوا قصر الديماس وحوصروا فيه [القصيد، 143].

غادر ابن حمديس المهدية إلى بجاية وربّما أدرك أن قرارها لن يقرّ بعد تلك الأحداث، فأقام بها يمدح أصحابها إلى أن توفي في رمضان 527هـ/ 1133م ودفن بها وقيل إنّه دفن بميّورقة. لابن حمديس ولد اسمه محمد قيل عنه إنه: «أشعر من والده» [خريدة، 2/ 207].

أهم الأغراض في ديوان ابن حمديس: المدح، ورثاء الوطن صقلية، والحنين إليه، والوصف، بالإضافة إلى شعر أخلاقي حكمي وزهدي، وله غزل قليل جيّد. تقرب مدحياته من قصائد كبار المدّاحين بالمشرق العربي من أمثال أبي تمام، والمتنبي خاصة.

وشعره المدحي متطور، إذ القصائد التي قالها في بني حمّاد وبني زيري أحكم صنعة وأعمق معنى من قصائده في ابن عبّاد مثلا على أهميتها. وإذا كان الوصف في ديوانه عنوان تبريز فإنّه لم يكن متأثرا بالمرحلة الأندلسيّة إذ فيه ضغط أكثر للثقافة المشرقية وبحث في تلك الأطر عن التمييز. أما شعر الحنين ورثاء البلدان فلقد دارت معانيه حول انقلاب الأوضاع من عزة ونصرة إلى انكسار وذلّة ورافقه يأس من عودة الوطن. وعموما فإن شعر ابن حمديس يكشف عن حسن اختيار العبارة وعن بحث لا تكلّف فيه عن عناصر الصورة وعن عمق من المعاني لا يصل إلى أغوار ما وصل إليه أصحاب التوليد المعنوي كأبي الطيب ولكن فيه محاولة لتجاوز الفكرة البسيطة.

آثاره

لم يصلنا من ابن حمديس غير ديوان شعر، قال الأزدي إن الشاعر جمعه بنفسه وإنه رآه بين أيدي معاصريه [بدائع البدائه، 38]. نشر الأستاذ ميشيل أماري Amari بعض قصائده ذات الصلة بصقلية في Biblioteca-arabo sicula عام 1857 بلايبزيغ Leipzig ثم ترجم إلى الإيطالية 1881-82 ونشر بعد ذلك ترجمة ابن حمديس في storia dei Musulmani di sicilia، ثمّ نشر الديوان كاملا تلميذه سكيابارلي schiaparelli عام 1897 بروما وترجمه إلى الإيطالية، اعتمادا على مخطوط بالفاتيكان وآخر بالمتحف الآسيوي ببطرسبرغ وعام 1960، أعاد إحسان عباس طبع الديوان اعتمادا على نسخة وحيدة هي نسخة الفاتيكان، وأضاف إلى المنشور قصائد أخرى من مصادر مختلفة لم يتسن لسكيابارلي الاطلاع عليها فضم الديوان 370 قصيدة ومقطوعة في 589 ص، ورُتّب الديوان على حروف الهجاء.

المصادر والمراجع

● ابن حمديس الصقلي، الديوان، تح. إحسان عباس، دار صادر بيروت 1960؛ ● السلفي، معجم السفر، أخبار عن بعض مسلمي صقلية من حوليات كلية الآداب، جامعة عين شمس، عدد 3، 1955، تح. امبرتو توريزيتانو، ص 86؛ ● ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تح. إ. عباس، الدار العربية للكتاب، ليبيا - تونس 1979، ق 4، مج 1، 320 - 342؛ ● العماد الأصفهاني، خريدة القصر، تح. آ. آذرنوش، الطبعة التونسية 1968، 2/ 194 - 207؛ ● ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، ط. مصر 1278م، 38؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، ط. السعادة، القاهرة 1367هـ، 2/ 121؛ ● ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، نشر Coderia، مدريد 1887 - 89، 2/ 178؛ ● ابن سعيد، رايات المبرزين وغايات المميّزين، ط. مدريد

1941، ص 112؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، ط. اسطنبول - دمشق 1931 - 59، 22/ 565؛ ● النويري، نهاية الأرب، ط. غرناطة 1917 - 19، 1/ 105؛ ● العمري، مسالك الأبصار، مخ. المكتبة الوطنية، باريس رقم 2327 ور. 74، 77؛ ● المقري، نفح الطيب، ط. بيروت 1388هـ؛ ● الشيخ محمد النيفر، عنوان الأريب، ط. تونس 1351هـ، 1/ 125؛ ● السقا والمنشاوي، ترجمة ابن حمديس الصقلي، القاهرة 1929؛ ● السنوسي، زين العابدين، في الأدب العربي وديوان ابن حمديس، تونس 1952؛ ● البستاني، فؤاد، دائرة المعارف، ط. بيروت 2/ 469 - 471؛ ● الهادي روجي إدريس، الدولة الصنهاجية، تع. حمادي الساحلي، دار المغرب الإسلامي، بيروت 1992، 1/ 314، 325، 364 - 365، 370، 372 - 373، 375، 379، 394، 2/ 142، 416 - 417؛

● دائرة المعارف الإسلامية، 2/ 406.

- Amari (M): storia dei Musulmani di Sicilia 2 éd. revue par C.A. Nallino. 3 tomes en 7 vol. CATANE 1937-1939. 2/602; ● Amari (M): Biblioteca Arabo-Sicula; textes arabes. Leipzig, 1857; pp. 607-08; ● Gabrieli (F): Ibn Hamdis. Mazara. 1948; ● Brockelman: G. A. L, 1/269-270, S : 1/474; ● U. Rizzitano: Art: Ibn Hamdis. Encyclopédie de l'Islam (n.e) : 3/806-07.

د. توفيق قريرة
جامعة منوبة - تونس

ابن حمزة، أبو إدريس يحيى

(669هـ/1270م - 749هـ/1348م)

أبو إدريس يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم الحسيني العلوي الطالبي من أكابر أئمّة الزيديّة وعلمائهم في اليمن ومن سلالة الإمام علي بن أبي طالب. ولد بصنعاء في 17 صفر 669هـ/ 15 أكتوبر 1270م وتلقّى العلم في حداثة سنّه على مشاهير علماء اليمن ثمّ أخذ عن أبي طالب المكّي ثمّ الغزالي (ت 505هـ) والشهرستاني (ت 548هـ) كما أخذ عن الإمام يحيى بن محمد السرّاجي والفقيه عامر بن زيد الشمّاخ. ولمّا توفّي الإمام المهدي بن محمد المطهّر سنة 727هـ/ 1326 - 1327م أظهر ابن حمزة الدعوة وتلقّب بالمؤيّد بالله أو المؤيّد بربّ العزّة، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وانتصر للمنهج العقلي، وحارب الباطنيّة وعلى رأسهم داعيتهم علي بن إبراهيم الهمداني، وعارضه

في دعوته كثيرون أبرزهم الإمام علي بن صلاح بن إبراهيم بن تاج الدين، والإمام الواثق المطهّر بن محمد بن المطهّر صاحب الرسالة المتداولة التي شرحها الحيمي، وأحمد بن علي بن أبي الفتح الديلمي، لكنّ جلّ أهالي الديار اليمنيّة أجابوا دعوته غير آبهين لغيره. واستمرّ صاحب الترجمة على تلك الحال إلى أن توفّي سنة 749هـ/ 1348م في حصن هران قرب ذمار، وهناك دفن وقبره اليوم مشهور وعليه كتبت قصيدة مطلعها:

نورُ النبوّة والهدى المتهلّلِ
أوما كلاكله ولم يتحوّلِ

وقد عرف هذا الإمام بعدله وإنصافه وزهده في الدنيا وإجابة الدعاء ووفرة الكرامات، وكان لا يقدم على التكفير والتفسيق بالتأويل، كثير الذود عن أعراض الصحابة وأكابر العلماء، متواضعا لا يدلي برأي في موضوع إلّا بعد التروّي والاستناد إلى اللغة والبلاغة، وإذا أدلى به احترز وقال في الأخير: «والأرجح عندنا هو...».

■ آثاره

وضع ابن حمزة مؤلّفات كثيرة ومتنوّعة الأغراض، تكشف عن غزارة علميّة وقد تناول فيها بالدرس الفقه وأصوله، والتصوّف، والمنطق، والحديث، وعلم الكلام، والنحو، والبلاغة، والأدب، وناقش من خلالها الآراء الكلاميّة المتّصلة بحقيقة العلم لدى الأشعريّة والمعتزلة والفلاسفة مفضّلا مذهب المعتزلة لما بينه ومذهب الزيديّة من وثيق الصلات، وظلّ حضوره في مجال الكلام متميّزا وأثره بالغا. وقيل بأنّ ما تركه صاحب الترجمة بلغ مائة مجلّد، وبأنّ عدد كراريسه ربا على عدد أيّام عمره، وقد وصلنا منها ما يناهز الأربعين عنوانا نوردها كالتالي:

1 - الشامل لحقائق الأدلّة العقليّة وأصول المسائل الدينيّة، وهو في أصول الدين ويقع في 4 مجلّدات؛ 2 - نهاية الوصول إلى علم الأصول، في أصول الدين أيضا وبه 3 مجلّدات؛ 3 - التمهيد لعلوم العدل والتوحيد، جزآن؛ 4 - الحاوي في أصول الفقه، 3 مجلّدات؛ 5 - المحصّل في كشف أسرار المفصّل، وهو في النحو ويضمّ 4 أجزاء؛ 6 - شرح الكافية لابن الحاجب؛ 7 - الطراز المتضمّن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، بلاغة، طبع بمصر سنة 1332هـ/ 1914م؛ 8 - الإيجاز لأسرار كتاب الطراز، بلاغة؛ 9 - الانتصار على علماء الأمصار في تقرير المختار من مذاهب الأئمّة وأقاول الأمّة، فقه، 18 مجلّدا؛ 10 - تصفية القلوب من أدران الأوزار والذنوب، تصوّف؛ 11 - الاختيارات المؤيّديّة، فقه؛ 12 - الدعوة العامّة؛ 13 - الرسالة الواعزة لذوي الألباب؛ 14 - الأنوار المضيّة في شرح الأحاديث النبويّة على السيلقيّة وتعرف لدى المحدّثين بالودعانيّة، جزآن؛ 15 - مختصر الأنوار المضيّة؛ 16 - خلاصة السيرة، سيرة ابن هشام؛ 17 - اللباب في محاسن الآداب؛ 18 - الإفحام لأفئدة الباطنيّة الطغام، نشره علي سامي النشار وفيصل عون بمنشأة الإسكندريّة، د.ت؛ 19 - مشكاة الأنوار في الردّ على الباطنيّة الأشرار؛ 20 - المعالم الدينيّة، عقائد؛ 21 - الإيضاح لمعاني المفتاح للفضل بن أبي السعد العصيفري،

فرائض؛ 22 ـ طوق الحمامة في مباحث الإمامة؛ 23 ـ الديباج الوضي في شرح نهج البلاغة الرضي؛ 24 ـ العمدة، فقه الزيديّة، 6 مجلّدات؛ 25 ـ الحاصر لمقدّمة طاهر، شرح على مقدّمة طاهر بن أحمد بن بابشاذ بن داود المصري النحوي، في النحو؛ 26 ـ التحقيق في التكفير والتفسيق، أصول الدين؛ 27 ـ الاقتصاد، نحو؛ 28 ـ المنهاج، نحو؛ 29 ـ الفائق المحقّق في علم المنطق؛ 30 ـ الجواب القاطع للتمويه عمّا يرد على الحكمة والتنزيه؛ 31 ـ الكاشف للغمّة والاعتراض عن الأمّة؛ 32 ـ الجواب الرائق في تنزيه الخالق؛ 33 ـ الجوابات الوافية بالبراهين الشافية؛ 34 ـ الرسالة الوازعة لذوي الألباب عن فرط الشك والارتياب؛ 35 ـ الرسالة الوازعة للمعتدين عن سبّ أصحاب سيّد المرسلين، طبع بمصر سنة 1348هـ؛ 36 ـ المعيار؛ 37 ـ العدّة في المدخل إلى العمدة؛ 38 ـ الوعد والوعيد؛ 39 ـ الكوكب الوقّاد في أحكام الاجتهاد؛ 40 ـ مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنيّة الأشرار؛ 41 ـ مشكاة الأنوار للسالكين مسالك الأبرار.

المصادر والمراجع

- الشوكاني، البدر الطالع، ط. بيروت، د.ت، 2/ 331 ـ 332؛ ● الزركلي، الأعلام، ط. بيروت 1986، 8/ 143؛ ● كحّالة، معجم المؤلّفين، ط. دمشق، د.ت، 13/ 195؛ ● صبحي، أحمد محمود، الإمام المجتهد يحيى بن حمزة وآراؤه الكلامية، ط. بيروت 1990؛
- Brockelmann, G. A. L. 2/186, 238, S II/234, 242.

د. محمد الأزهر باي
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن حمزة البصري، أبو قاسم علي

(ت 375هـ/985م)

تختلف المصادر القليلة التي ترجمت له في كنيته، فبعضها يكنّيه بأبي القاسم، وبعضها الآخر بأبي النعيم، والأرجح أبو القاسم. وهو لغوي، وأديب، وناقد.

عاش في القرن الرابع الهجري الذي فقدت فيه الخلافة العباسية هيبتها وصار الخلفاء شبه موظفين تحت إمرة أصحاب السلطان من الأتراك والبويهيين الذين كانوا يعزلون الخلفاء ويولونهم. وقد استولى البويهيون (321هـ/ 934م ـ 447هـ/ 1056م) على الحكم في بلاد فارس ثم العراق. وعلى الرغم من أن هذا القرن قد شهد جوا سياسيا مضطربا، فإنه عرف ازدهارا ثقافيا وتطورا فكريا وتقدما

علميا. وانتقل الفكر العربي الإسلامي فيه من عصر الاقتباس والترجمة إلى عصر الإبداع والإنتاج الأصيل، بفضل تمازج الخلفيات الثقافية للشعوب التي اعتنقت الإسلام في القرون الثلاثة السابقة.

في هذا القرن المضطرب سياسيا والمزدهر ثقافيا عاش علي بن حمزة البصري. أخباره نادرة، وأصله من البصرة، وتنقل كثيرا فسكن بغداد مدة، وأقام في صقلية، وفيها توفي. كانت له صداقة مع الشاعر أبي الطيب المتنبي، وعندما ورد المتنبي بغداد نزل ضيفًا عليه. وكان راوية المتنبي في صقلية. وقد روى عنه اللغوي ابن جنّي شيئا من أخبار المتنبي وغيرها. وقال عنه ياقوت في معجم الأدباء: «كان أحد أعيان أهل اللغة الفضلاء المتحققين العارفين بصحيحها من سقيمها».

ومن أهم كتب ابن حمزة البصري «التنبيهات على أغاليط الرواة»، نبّه فيه على الأغلاط اللغوية التي وقعت في الكتب التالية: النوادر لأبي زياد الكلابي، النوادر لأبي عمرو الشيباني، النبات لأبي حنيفة الدّينوري، الحيوان للجاحظ، الكامل للمبرد، الفصيح لثعلب، الغريب المصنّف للقاسم بن سلام، إصلاح المنطق لابن السكّيت، المقصور والممدود لابن ولاد.

ومن أحكامه النقدية الطريفة في هذا الكتاب قوله عن أبي العباس المبرّد بعد أن تطرّق إلى أغلاطه الناتجة عن التصحيف: «وكان أبو العباس صحفيا، ومن نقل اللغة عن الصُّحف صحّف».

آثاره

1 ـ كتاب الآباء والأمهات؛ 2 ـ نوادر في النحو؛ 3 ـ التنبيهات على أغاليط الرواة، ويقع هذا الكتاب في مجلد يشتمل على عدة أجزاء، وتوجد منه أو من بعض أجزائه نسخ خطية في مكتبة المتحف البريطاني بلندن (رقم 3081 شرقية)، وفي دار الكتب المصرية (رقم 502)، وفي مكتبة جامعة لايدن بهولاندة (رقم 445)، وفي ستراسبورغ [بروكلمان]، وفي المكتبة التيمورية [مجلة المجمع العلمي العربي، 3/ 340]. أما النسخة المطبوعة فقد اعتمدت على نسخة خطية واحدة هي نسخة دار الكتب المصرية، وتنقصها التنبيهات على الأغلاط الواقعة في نوادر الكلابي، ونوادر الشيباني، وكتاب النبات...

المصادر والمراجع

1 ـ الكتب:

● الحميدي، جذوة المقتبس، تح. محمد ابن تاويت الطنجي، القاهرة 1952م، 173 (ضمن ترجمة ثابت بن محمد الجرجاني)؛ ● الخوانساري، روضات الجنات، تح. أسد الله إسماعيليان، بيروت دار الكتاب العربي، (مصور عن طبعة الحيدرية في طهران 1390هـ)، 5/ 229؛ ● ياقوت، معجم الأدباء، بيروت 1400هـ/ 1980م، دار الفكر، 13/ 208 ـ 211؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، تح. محمد أبوالفضل إبراهيم، (د. ت)، المكتبة العصرية، 2/ 165؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيات، باعتناء محمد الحجيري،

شتوتغارت 1411هـ/ 1991م، دار فرانز ستاينر، 12/ 74؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، بيروت 1402هـ/ 1982م، دار الفكر، 108، 1209، 1274، 1461، 1466، 1980؛ ● البغدادي، إيضاح المكنون، بيروت 1402هـ/ 1982م، دار الفكر، 1/ 322، 2/ 260؛ ● م. ن، هدية العارفين، بيروت 1402هـ/ 1982م، دار الفكر، 1/ 682؛ ● عبد البديع السيد، فهرس المخطوطات المصورة، القاهرة 1956 ـ 1963، دار الكتب، 1/ 347؛ ● فهرست الخديوية، 4/ 221؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، بيروت 1414هـ/ 1993م، مؤسسة الرسالة، 2/ 436؛ ● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت 1986، 4/ 283.

2 ـ الدوريات:

● مجلة المجمع العلمي العربي، 3/ 340؛ ● رزوق، مجلة المورد، مج 3، 1/ 264.

● Brockelmann, S, I Rieu, 167, 177; Manuscripts Arabic 572, 573.

د. علي القاسمي
منظمة الأسيسكو ـ المغرب

ابن حمزة الدمشقي، إبراهيم بن محمد

(1054هـ/ 1644م ـ 1120هـ/ 1708م)

إبراهيم بن محمد بن محمد بن محمد ابن حسين بن حمزة، الحنفي الحسيني، حراني الأصل، دمشقي المنشأ [الزركلي، الأعلام، 14/ 68؛ البغدادي، هدية العارفين، 1/ 37؛ كحالة، معجم المؤلفين، 1/ 1051].

ولد بدمشق سنة أربع وخمسين وألف، وتوفي بمنزلة الحاج، أو منزلة ذات حج، عند رجوعه من مكة المكرمة قافلا من الحج في شهر صفر سنة عشرين ومائة وألف للهجرة النبوية الشريفة [البغدادي، هدية العارفين، 1/ 37؛ الزركلي، الأعلام، 1/ 68].

كان عالما بالحديث النبوي الشريف، له إلمام بالغ بالنحو، متمذهبا بمذهب أبي حنيفة النعمان. تعلّم بدمشق التي نشأ بها، وولي بعض الأعمال، وسافر إلى بلاد مصر، فأخذ من علمائها وأعلامها، ثمّ سافر إلى بلاد الروم [الزركلي، الأعلام، 1/ 68].

كانت له بعض الأنشطة والمهمّات النقابية، فقد ولي نقابة الأشراف بمصر عام 1093هـ، ثم النقابة بدمشق لعدّة مرّات.

أخذ العلم عن كثير من العلماء، فقد بلغ عدد شيوخه ثمانين شيخا [الزركلي، الأعلام، 1/ 68].

آثاره

له عدة آثار منها:

1 ـ البيان والتعريف في أسباب الحديث الشريف، أو التبيان والتعريف في أسباب ورود الحديث، جزآن يقعان في مجلّد ضخم، وهو مرتّب على حروف المعجم [كحالة، معجم المؤلّفين، 1/ 105؛ البغدادي، إيضاح المكنون، 3/ 68، 207؛ الزركلي، الأعلام، 1/ 68]؛ 2 ـ حاشية على شرح الألفية لابن المصنّف في النحو، لم تكمل [البغدادي، هدية العارفين، 1/ 37؛ كحالة، معجم المؤلّفين، 1/ 105؛ البغدادي، إيضاح المكنون، 3/ 120؛ الزركلي، الأعلام، 1/ 68].

المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين من كشف الظنون، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية باستانبول سنة 1951، وأعادت طبعه بالأوفست منشورات مكتبة المثنى، بغداد، د.ت؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة عاشرة سبتمبر 1992؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن حمزة المغربي، علي بن ولي

(ق 10هـ/16م)

هو علي بن ولي المعروف بابن حمزة المغربي، علّامة رياضي اشتهر في القرن العاشر الهجري ـ السّادس عشر الميلادي. لا تخبرنا المصادر عن تاريخ ولادته، إلّا أنّه من الثّابت أنّه ولد بالجزائر عن أب جزائري وأمّ تركيّة حيث أحسن أبوه تأديبه وتعليمه طوال فترة تنشئته.

تعلّم ابن حمزة في صباه القرآن وحفظ الحديث، وأظهر موهبة كبيرة في علم الرّياضيّات، فلمّا وصل العشرين من عمره لم يكن بالجزائر معلّم أهل له، فعزم الأب أن يرسله إلى استنبول عند أهل أمّه ليتعلّم هناك العلم على يد علماء عاصمة الدّولة العثمانيّة.

عرف ابن حمزة خلال فترة دراسته بحسن السّيرة والسّلوك وجودة القريحة. ولقد وصل ابن حمزة مرتبة عالية في استنبول حتّى ألحق

بعمل كخبير في الحسابات بديوان المال في قصر السّلطان العثماني. كما هيّأه إتقانه اللّغتين العربيّة والتّركيّة أن يدرّس علوم الرياضيّات لأبناء استنبول والوافدين عليها من أبناء الدّولة العثمانيّة. وأثناء تدريسه عرف ابن حمزة كأحد العلماء الّذين يتحرّون الدقّة والصدق في الكتابة والأمانة في النّقل ولقد لقّب بـ«النسّاب» لأنّه كان ينسب كلّ مقالة أو بحث إلى صاحبه بل فوق ذلك ينوّه بفضله. فقد نوّه بالعلماء الّذين نقل عنهم فكان يقدّم الشّكر والعرفان لكلّ من نقل عنهم مثل سنان ابن الفتح، وابن يونس، وابن الهائم، وأبي عبد الله بن غازي المكناسي المغربي، والكاشي، ونصير الدين الطوسي، والنسوي وغيرهم.

مكث ابن حمزة في منصبه حتّى بلغه وفاة أبيه، فاستقال من عمله رغبة في أن يرعى أمه الّتي أصبحت وحيدة. وفي الجزائر عمل ابن حمزة في حوانيت أبيه الّتي كان يؤجّرها لتجّار صغار فترة من الزمن. لكنّه ما لبث أن باعها، كما باع البيت أيضا، وذلك بعد أن قرّر أن ينتقل هو وأمه إلى مكّة لأداء فريضة الحجّ والإقامة بجوار البيت الحرام.

وفي مكّة جلس ابن حمزة لتدريس علم الحساب للحجّاج فكان من المدرّسين المتميّزين في هذا المجال. وكان ابن حمزة يركّز في تدريسه على المسائل الحسابيّة الّتي يستعملها النّاس كلّ يوم، وكذلك المسائل الّتي تدور حول أمور الإرث.

وقد صادف ذات يوم أن سأله أحد الحجّاج الهنود عن مسألة في الإرث احتار الرياضيّون الهنود فيها، وكان نصّها: «رجل توفّي، وترك وراءه تسعة أولاد، ورثوا عنه إحدى وثمانين نخلة، الأولى تعطي رطلا واحدا من التّمر كلّ سنة، والثّانية رطلين كلّ سنة، والثّالثة ثلاثة أرطال كلّ سنة، وهكذا... إلى النّخلة الحادية والثّمانين، فهي تعطي واحدا وثمانين رطلا من التّمر في السّنة». والمطلوب هو تقسيم النّخلات بحيث تكون أنصبتهم متساوية من التّمر، وأن يكون لدى كلّ ولد تسع نخلات. فقام ابن حمزة برسم جدول سلّمي أوضح فيه نصيب كل من الورثة. فجاء الجدول كما يلي:

فجعل ابن حمزة ترتيب الأرقام يبدأ بواحد في العمود الأوّل في الصفّ الأوّل ويسير بزيادة واحد حتّى ينتهي إلى العمود التّاسع برقم تسعة، ثمّ يبدأ بالرّقم عشرة في العمود الثّاني في الصفّ الثّاني ويسير بزيادة واحد حتّى ينتهي إلى العمود التّاسع برقم سبعة عشر، ثمّ يضع الرّقم ثمانية عشر في العمود الأوّل ليكمّل الصفّ الثّاني، ويبدأ العمود الثّالث في الصفّ الثّالث بالرّقم تسعة عشر ويسير بزيادة واحد حتّى ينتهي إلى العمود التّاسع برقم خمسة وعشرين، ثمّ يضع الرّقم ستّة وعشرين والرّقم سبعة وعشرين في العمودين الأوّل والثّاني على التّوالي ليكمّل الصفّ الثّالث، ويستمرّ هكذا في بقيّة الجدول.

وبذلك يكون الفرق بين أيّ رقمين في كلّ صفّ من المثلّثين واحدا. والفرق بين أيّ رقمين في كلّ عمود من المثلّثين ثمانية. وكذلك الفرق في الصفّوف بين أيّ رقمين

يفصلهما الخطّ المائل. أمّا الفرق في الأعمدة بين الأرقام أعلى الخطّ المائل وأسفلها فهو سبعة عشر. فإذا ما جمعت الأرقام في كلّ عمود كان عدد أرطال التّمر 369 رطلا لكلّ ولد بالتّساوي. وقد عرفت هذه المسألة بالمكيّة، وصارت تداول بين التّجّار كلّ بحسب مسألته في جدول يضع أعمدته ما يتّفق وعدد الأنصبة.

ولمّا بلغ الوالي العثماني بمكّة حلّ هذه المسألة، طلب منه أن يعمل في ديوان المال، فمكث فيه نحو خمسة عشر عاما. وخلال تلك الفترة عكف ابن حمزة على دراسة المتواليات العدديّة، والهندسيّة، والتّوافقيّة دراسة عميقة قادته في نهاية المطاف إلى وضع أسس علم اللوغاريتمات وهو العلم الّذي خدم العلوم التطبيقيّة خدمة عظيمة. فقد توصّل ابن حمزة المغربي لإيجاد العلاقة بين المتواليتين العدديّة والهندسيّة، وذلك بتحويل عمليّتي الضّرب والقسمة إلى عمليّتي جمع وطرح. وكان هدفه منها تبسيط الحسابات المعقّدة في العلوم الطبيعيّة، والهندسيّة، والحسابات التجاريّة، والأرباح المركّبة. فجاء قانونه يقول: «إنّ أسّ أساس أيّ حد، من حدود متوالية هندسيّة، تبدأ بالواحد الصحيح، يساوي أساس الحدّين اللّذين حاصل ضربهما، يساوي الحد المذكور ناقصا واحدًا»، وذلك كما يلي:

المتوالية الهندسيّة: 1، 2، 4، 8، 16، 32، . . .

المتوالية العدديّة: 1، 2، 3، 4، 5، 6، . . .

وحدود المتوالية العدديّة هي أسّ الأساس في حدود المتوالية الهندسيّة، وأساس المتوالية الهندسية هو 2. والعلاقة بين المتواليتين تظهر في الأمثلة التّالية:

العدد 16 يقابله العدد 5 في المتوالية العدديّة، والحدّان اللّذان حاصل ضربهما 16 في المتوالية الهندسيّة هما 8 و2، وما يقابلهما في المتوالية العدديّة هو 4 و2. وهذا يعني (2 + 4 ـ 1) = 5. وكذلك العدد 32 يقابله العدد 6 في المتوالية العدديّة، والحدّان اللّذان حاصل ضربهما 32 في المتوالية الهندسيّة هما 8 و4، وما يقابلهما في المتوالية العدديّة هو 4 و3. وهذا يعني (4 + 3 ـ 1) = 6. وقد شكّلت نتائج ابن حمزة هذه حجر الأساس الّذي اعتمد عليه العالم «نابير» الاسكتلندي لتطوير علم اللوغاريتمات الّذي ظهر بعده بأربعة وعشرين عاما.

وقد عاش ابن حمزة في مكّة يكمّل بحثه في المتواليات، ثمّ غادرها بعد وفاة أمّه ومواراتها الثّرى. ولا تخبرنا المصادر عن تاريخ وفاة ابن حمزة، أو مكان وفاته، كما لا يذكر من مؤلّفاته سوى كتابه الوحيد «تحفة الأعداد لذوي الرّشد والسّداد» الّذي وجدت نسخ منه بالتركيّة في استنبول، بعضها يحمل على غلافه هذا العنوان، وبعضها يجعل العنوان «كتاب في علم الحساب»، ومحتوى المؤلّفين واحد. فالكتاب مرتّب في مقدّمة، وأربع مقالات، وخاتمة المقدّمة تشمل تعريفا بالحساب، وأصول الترقيم، والتّعداد، والمقالة الأولى خاصّة بالجمع والطّرح

والضّرب والقسمة. والمقالة الثّانية في الكسور، والجذور في مخارج الكسور، وكيفيّة إجراء العمليّات الحسابيّة الأربعة، واستخراج الجذر التّربيعي، وكيفيّة إجراء الأعمال الأربعة للأعداد الصم، واستخراج جذور الأعداد المرفوعة إلى القوّة الثّالثة والرّابعة. والمقالة الثّالثة في كيفيّة استخراج قيمة المجهول، باستعمال التّناسب، وطريقة الخطأين، وطريقة الجبر والمقابلة. والمقالة الرّابعة في مساحات الأشكال والأجسام. وفي الخاتمة أورد ابن حمزة المسألة المكيّة، وبعض المسائل الّتي يجد النّاس في حلّها طرافة ورياضة فكريّة مثل المربّعات السحريّة.

المصادر والمراجع

● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1977م؛ ● الزركلي، الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرّجال والنّساء من العرب ومن المستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت، 1980م.

د. هاني محيي الدين عطيّة
جامعة القاهرة ـ مصر

ابن حمزة، الإمام المؤيّد بالله يحيى

(669هـ/1270م ـ 749هـ/1348م)

الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة بن علي بن ابراهيم بن محمد بن إدريس بن علي بن جعفر بن علي، وينتهي نسبه إلى الحسين السبط ابن علي بن أبي طالب ﷺ.

من أجلاء حكام اليمن وعظمائهم، عالم مجتهد مبرز في كثير من العلوم العقليّة والنقليّة، ولد بمدينة صنعاء في 27 من شهر صفر. حفظ القرآن واشتغل بالمعارف الإسلاميّة من صغره، أخذ العلم عن جماعة من علماء وصلحاء عصره منهم الإمام يحيى ابن محمد السراجي، والفقيه عامر بن زيد الشماخ وغيرهما [الشوكاني، البدر الطالع، ص 849 ـ 850؛ الأكوع، هجر العلم، 1/ 501؛ الحبشي، مصادر الفكر العربي الإسلامي، ص 564].

دعا لنفسه بالإمامة سنة 729هـ وقيل سنة 730هـ، وقد عارضه أكثر من إمام منهم علي ابن صلاح اليحيوي، والمطهر بن محمد بن المطهر بن يحيى، وأحمد بن علي الفتحي، فنتج عن ذلك حروب وقتال سالت فيها الدماء وأزهقت فيها النّفوس، حتّى ملّ النّاس ذلك القتال وفضّلوا الصلح. أمّا صاحب الترجمة فأعفى نفسه من الإمامة، وانصرف للعلم

والتأليف، وانتقل إلى مدينة ذمار واستقرّ بها في قصر «هرّان» إلى أن توفي في 29 من شهر رمضان [الأكوع، هجر العلم، 1/ 501 ـ 504؛ الحبشي، مصادر الفكر، ص 564؛ العمري، مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني، ص 176؛ أحمد محمود صبحي، في علم الكلام، ص 468].

له كتب ومصنّفات كثيرة وحافلة في جميع الفنون ولعلّ أشهرها كتاب «الانتصار» وهو في الفقه، وقيل إنّه من أعظم كتب الفقه عند الزيدية، بل لقد وُصف بأنّه لا نظير له في كتب المتقدّمين والمتأخرين، وهو في 18 مجلّدا، وعنوانه «الانتصار الجامع لمذاهب علماء الأمصار في تقرير المختار من مذاهب الأئمّة وأقاويل علماء الأمّة في المباحث الفقهيّة والمضطربات الشرعيّة». الموجود منه في المتحف البريطاني سبعة مجلّدات هيَ: الثاني، والثالث، والخامس، والسادس، والثامن، وهي بخطّ المؤلّف، وكذا السادس عشر، والسابع عشر، وفي مكتبة الجامع الكبير بصنعاء خمسة أجزاء، هي: الثاني، والخامس، والثامن، والحادي عشر، والخامس عشر [العمري، المرجع المذكور، ص 177 ـ 183].

آثاره

1 ـ كتاب الانتصار (في الفقه)؛ 2 ـ الاختيارات، في مجلّدين (في الفقه) مخطوط بإحدى مكتبات الهند؛ 3 ـ الأزهار الصافية شرح مقدّمة الكافية (في النحو) جاء في مجلّدين، منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع الكبير بصنعاء، برقم (392) الكتب المصادرة؛ 4 ـ أطواق الحمامة في حمل الصحابة على السلامة، مخطوط بمكتبة آل ابن يحيى بمدينة تريم بحضرموت، وبمكتبة الأحقاف بتريم برقم 2707؛ 5 ـ الإفحام لأفئدة الباطنيّة الطغام، منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجامع بصنعاء، مطبوع، وميكروفيلم بدار الكتب، وهو في الردّ على الباطنيّة في الأسرار الإلهيّة والمباحث الكلاميّة؛ 6 ـ الأنهار الصافية شرح الكافية، في مجلدين؛ 7 ـ الأنوار المضيئة شرح الأخبار النبويّة شرح الأربعين الحديث السليقية لأبي القاسم زيد بن عبد الله بن مسعود السليقي، في مجلّدين؛ 8 ـ الإيجاز لأسرار كتاب الطراز في علوم البيان ومعرفة إعجاز القرآن، نسخة مخطوطة بخط المؤلف في 160 ورقة بمكتبة جامع برقم 4 بلاغه، ونسخة أخرى بمكتبة دار الكتب برقم 4299، وميكروفيلم 265؛ 9 ـ التحقيق في أدلّة التكفير والتفسيق، في مجلّدين، مخطوط، وميكروفيلم بدار الكتب 91؛ 10 ـ تصفية القلوب عن درن الأوزار والعيوب، سار فيه على نمط الغزالي في إحياء علوم الدين، مخطوط؛ 11 ـ التمهيد في علم العدل والتوحيد، مخطوط بمكتبة الجامع بصنعاء 61، علم الكلام، وميكروفيلم 138 دار الكتب؛ 12 ـ الجوابات الوافية بالبراهين الشافية، مخ؛ 13 ـ الجواب القاطع للتمويه عما يردّ على الحكمة والتنزيه، مخ؛ 14 ـ الجواب الناطق بالصواب القاطع لعرى الشكّ والارتياب، مخ؛ 15 ـ الحاصر لفوائد المقدّمة في علم الإعراب، شرح المقدّمة المحسنيّة في علم العربيّة لابن بابشاذ المتوفّى سنة 469هـ، مخ؛ 16 ـ الحاوي لحقائق

الأدلّة الفقهيّة وتقرير القواعد القياسيّة في أصول الفقه، في ثلاثة مجلّدات؛ 17 ـ الديباج الوفي بشرح نهج البلاغة وكلام الشريف الرضي، في ثلاثة مجلّدات، مخ؛ 18 ـ الرسالة الوازعة لذوي الألباب عن فرط الشك والارتياب، مخ؛ 19 ـ الرسالة الوازعة للمعتدين عن سب صحابة المرسلين، مطبوع؛ 20 ـ الشامل لحقائق الأدلّة العقليّة وأصول المسائل في أصول الفقه، في ثمانية مجلّدات، مخ؛ 21 ـ الطراز في علوم البلاغة والإعجاز، في ثلاثة مجلّدات، ط؛ 22 ـ العدّة في المدخل إلى العمدة، قال المؤرّخ زباره إنّه في الفقه مختصر بالغ الأهميّة؛ 23 ـ عقد الآلي في الرد على أبي حامد الغزالي، في مجلّد، مخ؛ 24 ـ العمدة في الفقه، في ستة مجلّدات اشتمل على جميع إيرادات المذاهب بالحجج والشواهد من الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة والقياسات؛ 25 ـ الفائق المحقق في علم المنطق، في مجلّد؛ 26 ـ القسطاط (في علم الكلام)، في مجلّدين؛ 27 ـ الكوكب الوقاد في أحكام الاجتهاد، مخ؛ 28 ـ اللباب في محاسن الآداب، مخ؛ 29 ـ المحصل في كشف أسرار المفصل، شرح فيه كتاب المفصل في صناعة الاعراب للزمخشري، في أربعة مجلّدات، مخ. بمكتبة الجامع صنعاء برقم 98 أدب؛ 30 ـ مشكاة الأنوار الهادمة لقواعد الباطنيّة الأشرار، في مجلّد، مخ؛ 31 ـ مشكاة الأنوار للسالكين مسالك الأبرار، مخ. بالجامع بصنعاء؛ 32 ـ المعالم الدينيّة في العقائد الإلهيّة، ط؛ 33 ـ المعيار لقرائح النظار في شرح حقائق الأدلّة الفقهيّة وتقرير القواعد القياسيّة، في مجلّد؛ 34 ـ المنهاج الجلي في شرح جمل الزجاجي (في النحو)، مخ. بمكتبة الجامع بصنعاء برقم 66 نحو؛ 35 ـ نهاية الوصول إلى علم الأصول، في ثلاثة أجزاء؛ 36 ـ خلاصة السيرة، لخص فيه سيرة ابن هشام؛ 37 ـ وله عديد الرسائل، والردود على عديد الأسئلة، وعديد الفتاوى والوصايا وغيرها وكلّها مخطوطة، وقد ورد ذكر أغلبها عند الحبشي في كتابه مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن [آثار صاحب الترجمة نقلا عن: الشوكاني، البدر الطالع، ص 850؛ الأكوع، هجر العلم، 1/ 504 ـ 506؛ العمري، المرجع المذكور، ص 177؛ الحبشي، المرجع المذكور، ص 565 ـ 570؛ قائمة المخطوطات العربيّة، دار الكتب، القاهرة، ص 75؛ وفهرست الكتب المخطوطة بمكتبة الأحقاف بتريم، ص 119].

المصادر والمراجع

● الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تح. د. حسين بن عبد الله العمري، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، 1998م؛ ● الأكوع، اسماعيل بن علي، هجر العلم ومعاقله في اليمن، الطبعة الأولى، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1995م؛ ● الحبشي، عبد الله محمد، مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، مركز الدراسات اليمنيّة، صنعاء، بدون تاريخ؛ ● العمري، حسين بن عبد الله، مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني، دار المختار، دمشق، 1980؛

● صبحي، أحمد محمود، في علم الكلام، ط3، دار النهضة العربيّة، بيروت، 1991م؛ ● دار الكتب والوثائق القوميّة، مراقبة المخطوطات، قائمة بالمخطوطات العربيّة المصوّرة بالميكروفيلم من اليمن، مطبعة دار الكتب، القاهرة، 1967م؛ ● فهرست الكتب المخطوطة بمكتبة الأحقاف بتريم للمؤلّفين اليمنيّين، المركز اليمني للأبحاث الثقافيّة والآثار والمتاحف، حضرموت، سيئون 1988م.

د. محمد عبد الله بن هاوي باوزير
جامعة عدن ـ اليمن

الحمزي، عماد الدين إدريس

(حوالي 673هـ/1274م ـ 714هـ/1314م)

هو المؤرّخ الشريف عماد الدين إدريس ابن جمال الدين علي الحسني اليمني الحمزي، من أمراء الأشراف الزيديّة في اليمن. كان في نفس الوقت أحد رجال الدولة الرسوليّة التي حكمت هذا البلد من 626هـ/ 1229م إلى 858هـ/ 1454م. ولد المؤلّف سنة 673هـ/ 1274م في بيت أحد زعماء الأشراف بني حمزة، الأمير جمال الدين علي ابن عبد الله. ويمثّل بنو حمزة إلى جانب بني القاسم أشراف اليمن. وهم حملة المذهب الزيدي المنسوب لزيد بن علي بن الحسين، ومنهم أئمّة الدولة الزيديّة التي قامت باليمن على أساس مذهبي شيعي منذ سنة 284هـ/ 899م على يد الهادي إلى الحقّ يحيى بن الحسين (ت 298هـ/ 910م)، وقد دخلت هذه الدولة في منافسات مع الدول السنّيّة المتعاقبة على حكم اليمن منذ أيّام بني زياد (205هـ/ 820م ـ 402هـ/ 1011م) إلى أيّام بني رسول الذين عاصر المؤلف ثلاثة من سلاطينهم. وقد كان نفوذ الأئمّة الزيديّة في اليمن يتقلّص بامتداد نفوذ الدول السنّيّة المنافسة لها كما هو الشأن بالنسبة للدولة الرسوليّة في أيّام قوّتها. بل إنّ رجال الأشراف أنفسهم كانوا يهادنون هذه الدول أو يدخلون في خدمتها مثلما حصل لعماد الدين إدريس الذي أصبح زعيم بني حمزة سنة 699هـ/ 1299 ـ 1300م ودخل في خدمة السلطان الرسولي المؤيد داود(حكم ما بين 696هـ/ 1297م ـ 721هـ/ 1321م) دون أن يتحوّل عن مذهبه. وقد منحه السلطان الرسولي الإقطاعات مثل لحج وأبين (جنوب اليمن) ثمّ القحمة (شمال اليمن) وكلّفه بعديد المهام العسكريّة. كما برزت هذه العلاقة في قصائد المدح التي أنشدها عماد الدين إدريس في عدّة مناسبات في البلاط الرسولي.

رغم مهامه العسكرية لم ينشغل عماد الدين إدريس عن الحياة العلميّة مثله في ذلك مثل أغلب أئمّة الزيديّة وأغلب سلاطين بني رسول

الذين ساهموا مساهمة كبيرة في حركة الإنتاج الفكري في اليمن وخاصّة خلال القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد. ويتبيّن من أشعاره ومن تاريخه أنّه كان واسع الثقافة مطّلعا على أحوال بلاده وتاريخها وعلى أحوال البلاد الإسلاميّة من خلال ما توفّر له من مصادر اعتمدها في وضع مؤلفاته. على أنّنا لا نعرف من مساهماته سوى بعض القصائد الشعريّة إلى جانب مؤلّفه التاريخي المسمى «كنز الأخيار في التواريخ والأخبار».
كتب المؤرّخ اليمني علي بن الحسن الخزرجي (ت 812هـ/ 1409م) متحدّثا عن عماد الدين إدريس قائلا: «وكان الشريف إدريس من أعيان الرجال جامعا لخصال الكمال فارسا هماما شجاعا مقداما أديبا أريبا عاقلا لبيبا جوادا كريما عفيفا حليما جامعا لأشتات العلوم من المنثور والمنظوم، وهو مصنّف كتاب كنز الأخيار في التواريخ والأخبار. وله غيره من التصانيف المفيدة لا سيما في التاريخ» [العقود اللؤلؤيّة، 1/ 270]. وفي موضع آخر يقول المؤرّخ نفسه: «...وكان شريفا ظريفا شجاعا كريما جوادا متلافا. وكان عالما لبيبا عاقلا أريبا متّصفا بصفات الإمامة. وكان شاعرا فصيحا بليغا..... وهو مصنّف كنز الأخيار في معرفة السير والأخبار. وهو كتاب حسن ممتع. وله عدّة تصانيف في فنون كثيرة». [العقود اللؤلؤيّة، 1/ 336]. وقد أورد الخزرجي مقتطفات من شعر عماد الدين إدريس وهي في مدح سلاطين بني رسول، لكنّه لا يذكر أسماء «التصانيف المفيدة» التي ينسبها له. كما يشير صاحب الترجمة نفسه في خاتمة كتابه أنّه اعتمد على مصنّفاته الأخرى في وضع «كنز الأخيار». وفي ذلك يقول: «اجتهدنا في الاحتراز في النقل وأكثر الكتب التي نقلنا منها من أعمالنا» [تاريخ اليمن، ص148].

ينتمي كتاب عماد الدين إدريس المذكور إلى صنف التواريخ الإسلاميّة العامّة، وقد «أخذه من تاريخ محمّد بن جرير الطبري وتاريخ ابن الأثير وتاريخ المسعودي..» يحيى بن الحسين، (ت نحو 1100هـ/ 1688م) [غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تحقيق سعيد عاشور القاهرة 1968، 1/ 492]. وفي وصف هذا الكتاب يقول المؤرّخ اليمني يحيى بن الحسين: «...وهو أربعة أجزاء: الأوّل في سيرة النبي ﷺ والخلفاء من بعده، والثاني في أخبار الملوك من معاوية إلى قريب المائة الثانيّة، والثالث في أخبار بني العبّاس وغيرهم من ملوك الشام والعبيديّة بالمغرب ومصر والقرامطة وحروب الإفرنج في الشام، وفي آخره نبذة مختصرة في أخبار اليمن وملوكه خاصّة إلى زمن المؤلّف المذكور، والرابع في ذكر ملوك حمير التبابعة قبل النبوّة، ثمّ ما جرى من فتنة الخوارج أيّام أمير المؤمنين علي عليه السلام وما بعدها...» [غاية الأماني، 1/ 490 - 491].

ويعتبر القسم الخاص بتاريخ اليمن أهمّ ما جاء في كتاب «كنز الأخيار». وقد قدّم المؤلّف لهذا القسم بقوله: «.. وإذا قد أتينا على ما ذكرناه من أخبار الملوك والممالك في العالم، فنختم هذا الباب بجمل مختصرة من أخبار اليمن خاصّة ومن وليه من عهد رسول الله ﷺ إلى وقتنا هذا مفردا..» [تاريخ اليمن، ص 24]. أمّا أهميته فتعود إلى معاصرة المؤلف لجزء من الأحداث المذكورة ومشاركته في البعض منها باعتباره أحد أمراء

الأشراف، ثمّ باعتباره أحد رجال الدولة الرسوليّة. وتبدأ مشاركته في الأحداث اليمنيّة منذ طفولته عندما تركه والده رهينة لدى والي صنعاء الرسولي سنة 679هـ/ 1280 ـ 81م [كنز الأخيار، ص113]. لذلك يمكن القول بأنّ ما كتبه عن عصره يعتبر من أهمّ المصادر اليمنيّة لتلك الفترة. وبالإضافة إلى معاينته ومعاصرته للأحداث، فإنّ الانتماء الزيدي من جهة والولاء الرسولي من جهة ثانية يفرضان عليه الاعتدال في مواقفه من الطرفين.

كما تعود أهميّة إدريس الحمزي أيضا، إلى كونه يرسم في القسم الخاص باليمن من كتابه خطّة لمن سيكتب من بعده من المؤرخين اليمنيّين. فهو يبدأ بالحديث عن تاريخ هذا القطر منذ بداية الإسلام نقلا عن المؤلفات السابقة، ثمّ يذكر بإسهاب بعض أحداث عصره مرتّبة على طريقة الحوليات حسب الأيام والأشهر والسنين إلى سنة714هـ/ 1314م. لقد كان هذا القسم مثالا للنزعة المحليّة التي ستبرز بوضوح في المؤلفات المتأخرة عن عماد الدين إدريس والتي لا تهتمّ بالأحداث الخارجيّة إلّا إذا كان لها تأثير مباشر على اليمن. هذه الخطّة سنجدها عند ابن عبد المجيد الذي اعتمد «كنزالأخيار» كمصدر من مصادره في كتاب «بهجة الزمن في تاريخ اليمن» [تحقيق عبد الله محمّد الحبشي ومحمّد أحمد السنباني، صنعاء 1988]، كما سنجدها في كتاب الخزرجي «العسجد المسبوك في مَنْ ولي اليمن من الملوك» (دمشق1981)، ونجدها أيضا في «قرّة العيون في أخبار اليمن الميمون»، [تحقيق محمّد بن علي الأكوع الحوالي، بيروت 1988] لابن الديبع الشيباني.

كما أنّ الخطّة العامة للكتاب التي اهتمّت بالتاريخ الإسلامي العام ثمّ بأخبار اليمن سوف تجد من يعمل بها بعد عماد الدين إدريس. وأحسن دليل على ذلك كتاب «العسجد المسبوك والجوهر المحبوك في أخبار الخلفاء والملوك»، والذي ينسب حينا للخزرجي وحينا للسلطان الأشرف الرسولي (ت 803هـ/ 1400م). وممّا يدلّ على معرفة مؤرخي اليمن لكتاب «كنز الأخيار» وتداوله فيما بينهم أنّ السلطان الرسولي الأفضل عبّاس (ت 778هـ/ 1377م) قد وضع له تلخيصا يحمل عنوان «نزهة الأبصار في اختصار كنز الأخيار» [ذكره الخزرجي، العقود، 2/ 135].

أمّا فيما يتعلّق بنسخ الكتاب التي وصلتنا فهي قليلة وغير كاملة. ومن بينها نسخة المكتبة البريطانيّة في لندن تحت رقم or.4581. كما توجد نسخة أخرى محفوظة في مكتبة ممتاز العلماء بمدينة لكهنو بالهند، ومنها نسخة مصوّرة في معهد المخطوطات العربيّة بالقاهرة تحت رقم 1184 تاريخ، وأخرى في بيت السيد عبد الله الجلالي في صنعاء [أيمن فؤاد سيد، مصادر، ص 139]. على أن المطبوع من مؤلفاته هو القسم الخاص من تاريخ اليمن من كتاب «كنز الأخيار في معرفة السير والأخبار»، دراسة وتحقيق عبد المحسن مدعج المدعج، الكويت 1992. وهو الجزء المحفوظ في المكتبة البريطانيّة في لندن.

المصادر والمراجع

● الخزرجي، علي بن الحسن، العقود اللؤلؤيّة في تاريخ الدولة الرسوليّة، تح.

محمّد بن علي الأكوع الحوالي، بيروت 1983، 1/ 270، 272، 282، 289 - 291، 294، 300، 315 - 317؛ ● ابن الحسين، يحيى، غاية الأماني في أخبار القطر اليماني، تح. سعيد عاشور، القاهرة 1968، ص 491 - 492؛ ● اليماني، تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد، بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تح. عبد الله محمّد الحبشي، محمّد أحمد السنباني، صنعاء 1988، ص 165، 202 - 203، 226 - 227، 232 - 233، 244، 258 - 259، 264، 266 - 267؛ ● ابن حجر، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، بيروت، دار الجيل، 1/ 345 - 346؛ ● كارل بروكلمان، الأدبيات اليمنيّة في المكتبات والمراكز الثقافيّة العالميّة، ترجمة صالح بن الشيخ أبو بكر، صنعاء 1985، ص 184 - 185؛ ● العمري، حسين بن عبد الله، مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني، دمشق 1980، ص 54 - 55؛ ● سيّد، أيمن فؤاد، مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي، القاهرة 1974.

د. محمد سعيد
الجامعة التونسية

ابن حمشاذ، أبو الحسن المعدّل علي

(258هـ/ 872م - 338هـ/ 950م)

أبو الحسن المُعدّل علي بن حمشاذ بن سختويه بن نصر النيسابوري (وقيل: علي بن محمد بن سختويه)

محدّث، حافظ، مفسر، عدل، ثقة، صالح، من كبار العلماء، وأحد الأئمة البارزين، من أهل نيسابور.

رحل إلى بلدان كثيرة، وسمع من شيوخها وعلمائها [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 2/ 348؛ كحالة، معجم المؤلفين، 7/ 5؛ ابن كثير، الهداية والنهاية، 15/ 202؛ البغدادي، إسماعيل باشا، هديّة العارفين، 1/ 679].

توفي فجأة في الحمام في الرابع عشر من شهر شوال سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة للهجرة. وقد كان له ثمانون سنة [كحالة، معجم المؤلفين، 7/ 58].

كان شديد الإتقان والحفظ، كثير العبادة والصيانة والخشية لله تبارك وتعالى، أثنى عليه معاصروه وحمدوا سيرته.

فقد قال عنه أحمد بن إسحاق الضبعي: صحبت علي بن حمشاذ في الحضر والسفر فما أعلم أنّ الملائكة كتبت عليه خطيئة [ابن العماد، شذرات الذهب، 2/ 348؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 15/ 202؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 12/ 69].

وقال عنه أبو أحمد الحاكم: ما رأيت في مشايخنا أثبت في الرواية والتصنيف منه. وقال ولده: ما علمت أبي ترك قيام الليل [الذهبي، تذكرة الحفاظ، 3/ 856].

دخل مكّة المكرّمة سنة سبع وسبعين ومائتين، فحجّ بها وسمع من بعض أعلامها [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 12/ 69].

سمع الفضل بن محمد الشعراني، وإسماعيل القاضي، وإبراهيم دُيَزيل بهمذان، والحارث ابن أبي أسامة ببغداد، ويحيى بن أيّوب العلّاف بمكة المكرّمة، وسمع «المسند» من تميم بن محمد بطوس، والحسين بن الفضل المفسر، وعلي بن عبد العزيز، وغيرهم من طبقاتهم [الذهبي، تذكرة الحفاظ، 3/ 855؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 12/ 69].

حدّث عنه أبو أحمد الحاكم وقرّظه وبالغ في تعظيمه، وروى عنه أبو عبد الله بن مَنْدة، وأبو طاهر بن محْمِش، وآخرون [الذهبي، تذكرة الحفاظ، 3/ 855 ـ 856؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 12/ 70].

آثاره

1 ـ المسند الكبير في الحديث، في أربعمائة جزء؛ 2 ـ الأنوار، وقيل الأحكام، في مائتين وستين جزءا؛ 3 ـ تفسير القرآن، في مائتين وثلاثين جزءا، في عشرة مجلّدات [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، 2/ 348؛ كحالة، معجم المؤلفين، 7/ 58؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 15/ 202؛ البغدادي، هديّة العارفين، 1/ 679].

المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنّفين من كشف الظنون، دار الفكر، سنة 1402هـ/ 1982م؛ ● الذهبي، شمس الدين (ت 748هـ/ 1347م)، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي؛ ● الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تح. محب الدين العَمْرَوي، دار الفكر، بيروت، لبنان 1417هـ/ 1997م؛ ● ابن العماد، الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. لجنة إحياء التراث العربي في دار الآفاق الجديدة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان؛ ● ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء، البداية والنهاية، تح. د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، مصر 1419هـ/ 1998م؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بغداد، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن الحمصي، شهاب الدين أحمد بن محمد

(841هـ/1437م - 934هـ/1527م)

شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الشهير بـ «ابن الحمصي»، أصله من حمص، وُلد وتوفي بدمشق. ويمكن استخراج سيرته وأعماله من ثنايا كتابه الذي وَصَلَنا: «حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران»، فهو يتضمّن معلومات كثيرة قيّدها في مواضع متفرّقة أثناء الحوادث والأخبار والوفيات، وهي في مُعظمها وردت عَرَضًا، أو مُلحقةً بأخبار أخرى، لكنّها تغطي مراحل من سنّي حياته الطويلة التي امتدّت ثلاثًا وتسعين سنة، وترسم لنا تصوّرا واقعيًا عن نشأته، وتربيته، وسلوكه، وثقافته الدينيّة، ومعارفه الفكريّة والأدبيّة، وعلاقاته، وخُلُقه، ومكانته في مجتمعه، ومستوى معيشته، ووظائفه، ومناصبه، واهتماماته وأسفاره، ومشاركته في الأحداث.

ويمكن القول إنّ ابن الحمصي يزاحم قرينيه ومعاصريه: ابن طولون الدمشقي في الشام، وابن إياس في مصر، بل إنه يتميّز عنهما بأنّه انتقل من دمشق إلى القاهرة وأقام فيها عشر سنين، فأرّخ لأحداثها شبه اليومية، كشاهد عيان، ومُشارك أحيانًا، إذ كان واحدًا من المتردّدين على مجلس السلطان بقلعة القاهرة، ومن جملة العلماء والخطباء المفضّلين لدى السلطان «الغوري»، وعاد إلى دمشق فواصل التدوين التأريخي.

وعلى العكس من ذلك، فإنّ ابن إياس بقي مقيما في مصر ولم يسافر إلى دمشق أو إلى أي بلد غيرها من بلاد الشام، ولذا جاء كتابه «بدائع الزهور» - على أهمّيته - يكاد خاصًا بتاريخ مصر، ولم يستحوذ من تاريخ بلاد الشام إلّا على النزر اليسير، وكذلك هو الحال عند ابن طولون، فهو لم يسافر إلى مصر ليدوّن أخبارها، ولهذا جاء كتابه «مفاكهة الخِلّان» خاصًا - إلى حدّ بعيد - بتاريخ دمشق أوّلًا، وبلاد الشام ثانيا.

ومن هنا تأتي أهمّية «تاريخ ابن الحمصي» الذي أرّخ فيه للشام ومصر بقدرٍ متوازن تقريبًا، وبحياديّة تامّة، فلم ينقل من كُتب غيره من السابقين أو المعاصرين، وأثبت أنه أحد عمالقة المؤرّخين الذين ردموا الهُوّة الواقعة بين أواخر سلطنة المماليك، وبدايات الحكم العثماني في بلاد الشام ومصر، فجاء كتابه مصدرًا أساسيًا عن تلك الفترة التي لم يعايشها إلّا ثُلّة قليلة من المؤرّخين، بخلاف ما كان عليه الحال في المراحل الأولى من العصر المملوكي، حيث المؤرّخون الكبار لموسوعاتهم الضخام.

وقد أشار في مقدّمة كتابه إلى أنه جمع فيه الحوادث والوفيات اعتبارًا من تاريخ مولده سنة 841 هـ مفصّلا في كلّ سنة على ما وقع له وحرّره وشاهده واعتمده، وأنّه يَحسُن أن يكون ذيلًا على تاريخ ابن حجر العسقلاني

المعروف بـ«إنباء الغمر» الذي وصل فيه إلى سنة 850هـ.

وكان «ابن الحمصي» كلّما تقدّمت به السنّ تزداد معارفه ومطالعاته، وهذا تعكسه كمّية المعلومات التي تزايدت في النّصف الثاني من الكتاب، فأصبحت حوادث السنّة الواحدة تستغرق أكثر من عشر صفحات، وذلك اعتبارا من سنة 899هـ. وزادت على العشرين صفحة في سنة 904هـ وما بعدها.

واعتمد على كتابه كلّ من ابن طولون في «مفاكهة الخلّان»، والغُزّي في «الكواكب السائرة»، وابن الحنبلي في «دُرَر الحَبَب في تاريخ أعيان حلب»، والبُصْرَويّ في تاريخه المعروف بـ «تاريخ البُصْرويّ».

■ آثاره

1 ـ التاريخ الكبير، ذكره كثيرًا في «حوادث الزمان»، أرّخ فيه لما قبل سنة 848هـ إلى ما بعد سنة 905هـ؛ 2 ـ حوادث الزمان ووفيّات الشيوخ والأقران، مختصر من التاريخ الكبير، ونسخ بخطّه؛ 3 ـ شرح أدب القضاة، من تأليف شيخ الإسلام زكريا الأنصاري (ت 29هـ)؛ 4 ـ شرح الورقات، لمحمد بن محمد بن علي المصري الشهير بـ«إمام الكامليّة» (ت 874هـ)؛ 5 ـ نظم، لمفتي الشام محمد بن عبد الله الزُّرَعي الشهير بـ«ابن قاضي عجلون» (ت 876هـ)؛ 6 ـ شرح بعض مؤلفات عبد الرحمٰن بن خليل بن سلامة الأذرعي القابوني (ت 869هـ).

■ المصادر والمراجع

● الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب، 8/ 201؛ ● الغزّي، الكواكب السائرة، 2/ 97؛ ● ابن الحمصي، حوادث الزمان ووفيّات الشيوخ والأقران، 3 مجلّدات، بتحقيقنا، طبعة المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، 1419هـ/ 1999م.

د. عمرعبد السلام تدمري
الجامعة اللبنانية ـ طرابلس ـ لبنان

■ الحمصي، قسطاكي بن يوسف بن بطرس

(1274هـ/1858م ـ 1360هـ/1941م)

قسطاكي بن يوسف بن بطرس بن يوسف الحمصي، كاتب ومؤلف، يعتبر مؤسس النقد الأدبي في سورية، وصاحب أول محاولة عربية في العصر الحديث لوضع أسس علم النقد ونظرية النقد الأدبي.

ولد وتوفي بحلب (4/ 2/ 1858م ـ 9/ 3/ 1941م). تنتمي أسرته إلى آل مسعد بحمص،

ومنها هاجر أجداده إلى حلب منتصف القرن السادس عشر ميلاديا. تعلم في مدرسة القديس فرنسيس ولم تكن دراسته منتظمة، وتلقى دروسا خاصة في العروض، وتابع دراسة العربية بنفسه وتبحر في النحو واللغة، وكانت له مداولات لغوية مع كبار علماء العربية في عصره، وانتخب عام 1919م. عضوا في المجمع العربي بدمشق.

أتقن الفرنسية وترجم عنها، وتلقى دروسا في الفلسفة على يد الأستاذ جاكمان في مرسيليا بفرنسا، كما أتقن الإيطالية وله إشارات إلى الكوميديا الإلهية في نسختها الأصلية. ارتحل إلى الآستانة وتردد على مصر وفرنسا وإيطاليا وبريطانيا.

وفي شبابه مارس العمل التجاري والمالي تجاوبا مع أوساط أسرته التي امتازت بالوجاهة والثروة في حلب، وامتلكت مصرفا كبيرا وأدارت تجارة واسعة. ولكنه انصرف بعد ذلك إلى التحصيل اللغوي والأدبي النقدي. ونظم الشعر ونشر مقالات في موضوعات وطنية واجتماعية وأخلاقية ودينية.

وفي سنة 1905 توجه إلى مصر، واختلط بأوساطها الأدبية، وساعده صديقه إبراهيم اليازجي على الوصول إلى أفضل المنابر الفكرية العربية آنذاك، فنشر مقالات وقصائد في مجلة «المجمع العلمي العربي» و«الهلال» و«الآثار» و«المقتبس» و«النفائس العصرية». وله مراسلات ومداولات شعرية مع اليازجي، وبعد وفاة الأخير عام 1906 تولى قسطاكي الإشادة به، ووقف بالمرصاد لناقديه وخصومه.

كان وطنيا مخلصا عربي النزعة، وكثيرا ما ردد في المجالس قولته المعروفة: «ليست حلب وحدها وطني، بل سورية والبلاد العربية جمعاء». وكان له إسهام في العمل العام، وعمل نائبا لرئيس بلدية حلب، ثم رئيسا بالوكالة مدة طويلة [حلاق، أعلام العرب...، 1976 ـ 1977، ص23 ـ 30].

ويعتبر كتابه «منهل الوراد في علم الانتقاد» جزآن (1907)، أول كتاب أفرد للنقد الأدبي في العصر الحديث [الحسيني، النقد...، ص78]. و«أول كتاب عربي حاول إرساء قواعد النقد على أسس علمية» [جميل صليبا، اتجاهات...، ص59]. وهو أهم أعمال المؤلف، وقد حاول فيه أن يضع كتابا في قواعد النقد «علم الانتقاد». وأشار في مقدمة كتابه إلى أنه ينشئ علما جديدا لم يسبقه إليه أحد من قبل ولم يجد في كل ما قرأه من كتب العرب والأجانب، ولا سيما أهل النقد من الفرنسيين، تأليفا نظريا يلبي الحاجة إلى بيان أسس النقد وقواعده. وفي الجزء الأول استعرض تاريخ النقد وقواعده عند الأمم، كما عرض بإيجاز لتاريخ النقد العربي قديما وحديثا، وقرر أن العرب «لم يكتبوا في هذا الفن شيئا» [ص29] واستثنى صديقه إبراهيم اليازجي، ثم أكمل تاريخ النقد العالمي وخص الفرنسيين بالإعجاب.

وانتقل فيما بعد إلى تأسيس أركان النقد، مراوحا بين مفهوم النقد الأدبي، وأشكال النقد الأخرى كالنقد العلمي والفني والتاريخي والأخلاقي. واعتبر «النسبة» هي الركن الأول، أي صحة نسبة الأشياء بالتزام الحقيقة، واعتبر «صدق الإرادة» الركن الثاني.

وفي مجال قواعد الانتقاد فقد جعلها على ثلاث درجات: الشرح والتبويب والحكم. وكان موقفه من التبويب قاطعا في التفريق بين الأجناس الأدبية وإن كانت فكرته عنها مشوشة. ثم وضع رتبا للشعر وطبقات، وجعل «الحكم» الدرجة الأخيرة العالية في سلم النقد ووضع له خمس قواعد هي: نقد المقبول والمصنوع، ونقد القائل والصانع، ونقد المقول فيه والمحكي عنه، ونقد الزمان ونقد المكان. ثم حدد الشروط العلمية والخلقية للناقد بما لا يخرج عن المرددات الكلاسية المألوفة. ثم وقف عند وظيفة النقد ورأى فيها ثلاثة أوجه:

1 ـ كشف أسرار الكاتب وميوله والمستور من حاله.

2 ـ منع الفوضى ومكافحة المشعوذين وسنّ شرع لكل كاتب عماده احترام القارئ.

3 ـ إدراك أوجه الجمال في الكلام.

وبعد حوالي ثلاثين سنة من إنجاز الجزأين الأول والثاني أصدر عام 1935 الجزء الثالث، وحاول فيه أن يطور المقولات السابقة، وأوغل في التعريفات والتصنيفات والشروط إيغالا شديدا كأنما العملية هي تخطيط منطقي. ويبدو أن السنوات الثلاثين الماضيات والتطورات الأدبية التي حدثت فيها، لم تغير شيئا في سكونية تقربه من موضوعه وعزمه على التخطيط الجازم لأشكال النقد وفنون الأدب. ويبقى كلامه كله طبعا في حدود نظرية النقد والأدب. وكما هو متوقع كانت محاولته الموازنة بين فنون الشعر أفضل مما كتبه في النثر والروايات. وكان أضعف ما في الكتاب طريقة المؤلف في شرح تقسيماته وتطبيقها والتمثيل لها، «فكان كمعلم المنطق الذي يعرف أشكال القياس ولا يجيد تطبيقها». [صليبا، اتجاهات...، 91].

وفي هذا الجزء الثالث من الكتاب بحثٌ مطوَّل عن «الموازنة بين الألعوبة الإلهية ورسالة الغفران» [ص 154 ـ 246]. وتنحو هذه الموازنة منحى تاريخيا ونقديا ومقارنيا، وجداليا أيضا. وغرضه أن يثبت بصريح العبارة أن دانتي سرق «رسالة الغفران» من أبي العلاء المعري بعد أن اطلع عليها، وأنه قصر عن شأوها وتخلف عنه في السمو والبيان. وفي المقدمة يذكر أنه منذ ثلاثين سنة خلت، كان أول من نبه إلى اقتباس دانتي من المعري، وظل منذ ذلك الحين يتحين الفرص إلى أن اكتملت له هذه الدراسة. وتعتمد الدراسة فعلا على قراءة جادة للعملين العظيمين، وعلى رسم ظروف نشأتهما وأهدافهما، وعلى جمع الشواهد التاريخية لتأثر الألعوبة الإلهية برسالة الغفران، وكذلك على اقتفاء بعض المشاهد عند دانتي وبيان مدى مطابقتها مع مشاهد المعري، ويؤكد مثلا المشابهة بين جولات ابن القارح مع الشعراء وجولات فيرجيل ومشاهد الشعراء الوثنيين عند دانتي [3/ 209].

ويبدو الناقد العربي متحمسا جدا لقضيته وجازما، ويخلط الشواهد التاريخية بالجدال والمنافحة. وعنده أن «الألعوبة الإلهية هي بنت رسالة الغفران، لا يسترها ما ألقاه دانتي عليها من جلابيب الظلمات. وكان الأجدر به أن يسمي أبا العلاء قائده ومرشده، لا فيرجيل...» [3/ 214].

وعلى الرغم من أن موضوع تأثر دانتي بأبي

العلاء كان قد انتشر انتشارا واسعا في المجالات الأدبية العربية في الثلاثينات، فإنه يمكن اعتبار هذه الدراسة بحجمها وجديتها وشواهدها العينية: «أول دراسة تطبيقية مفصلة حول موضوع محدد في الأدب العربي المقارن». [الخطيب، آفاق...، ص143]، على الرغم من أن المؤلف يفتقر إلى أدوات المقارنة العلمية.

والخلاصة أن معظم الذين كتبوا عن الحمصي، لم ينكروا ريادته في التأسيس لعلم النقد، وإن كانوا قد آخذوه بعدم التفريق بين النقد الأدبي والنقد العام، وتركيزه على المنطقية والمحاكمة العقلية، وإنكاره التذوق الأدبي، وتأثره بالأفكار الفرنسية على الرغم من زعمه أن النقد الفرنسي لم يطرق موضوع النقد الذي طرقه المؤلف. وقد عذره الجميع لأنه رائد وسابق ومبتكر.

والحق أنه في تقييم إنتاجه يجب أن نتذكر أنه فعلا كان سابقا في مفهوم التنظير النقدي والأدبي وسط تيار نقدي عربي متركز حول التأثرية والتذوقية، وأنه كان واسع الإحاطة بتاريخ النقد عند العرب والإفرنج أي وضع التجربة العربية النقدية في إطارها التاريخي والعالمي، وأنه ركز على الناحيتين العقلية والأخلاقية، وهو تقرب شاركه فيه كثيرون من رواد النهضة وفي مقدمتهم روحي الخالدي ونجيب الحداد. وإلى جانب ذلك تسجل له محاولة وضع النقد الأدبي في إطاره العام من مفهوم النقد بأشكاله الفكرية والاجتماعية والسياسية. ولكن مما يلاحظ أن كتاب أرسطو في فن الشعر لم يحظ باهتمامه، وهو أساس النقد الغربي النظري، كما أن تطبيقاته دلت على غلبة منطقيته على ذائقته الأدبية، وكانت تقسيماته حادة جدا، وكذلك كان أسلوبه اللغوي وأداؤه. ثم إنه عانى مما عاناه معظم رواد النهضة من ناحية عيوب البداية في تقحّم موضوعات لم تكن مألوفة سابقا في التأليف العربي، وفي اعتداد كل منهم بما قدمه وفقدان الحوار والتفاعل في جهودهم.

آثاره

1 ـ السحر الحلال في شعر الدلال (خاله جبرائيل الدلال)، حلب 1903، مصر 1907؛ 2 ـ مختارات من شعر قسطاكي الحمصي، ج1، الكلمة، حلب 193؛ 3 ـ أدباء حلب ذوو الأثر في القرن التاسع عشر، ط1، 1925، ط2، الكلمة، 1968 ـ 1969؛ 4 ـ أناشيد من العهد القديم، ملحمة شعرية من 1500 بيت، الكلمة، 1973؛ 5 ـ منهل الورّاد في علم الانتقاد، ج1 ـ 2، القاهرة 1906 ـ 1907، ج3، حلب 1935 (حددت التاريخ من خلال نسخة للمؤلف مهداة إلى رئيس الجمهورية السورية آنذاك عام 1935)، وله مقالات عديدة، وأشعار كثيرة مخطوطة.

المصادر والمراجع

● سركيس، معجم المطبوعات، 797؛ جامع التصانيف 13؛ ● الزركلي، الأعلام بيروت، 5/ 197؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، بيروت، 8/ 132؛ ● ذكرى قسطاكي بك الحمصي، الكلمة (عدد خاص)، 7 ـ 8 ـ 9/ 1941؛

● ذكرى قسطاكي بك الحمصي، الكلمة (عدد خاص بمناسبة مرور خمسين عاما على وفاته)، 10 ـ 11 ـ 12/ 1941؛ ● عبد الله يوركي حلاق، من أعلام العرب في القومية والأدب، حلب، الكلمة 1977، 23 ـ 30؛ ● التنوخي، محمد، قسطاكي الحمصي شاعرا وناقدا وأديبا، بيروت 1969؛ ● الحسيني، إسحق، النقد الأدبي المعاصر في الربع الأول من القرن العشرين، القاهرة 1967، ص 77 ـ 83؛ ● صليبا، جميل، اتجاهات النقد الحديث في سورية، القاهرة 1969، ص 89 ـ 110؛ ● الكيالي، سامي، الأدب العربي المعاصر في سورية، دار المعارف بمصر، ص 93 ـ 97؛ ● الخطيب، حسام، آفاق الأدب المقارن عربيا وعالميا، دمشق ـ بيروت 1992، ص 143... إلى آخره.

د. حسام الخطيب
جامعة الإمارات

الحمصي، أبو منصور كمال الدين المظفّر بن علي

(ت 612هـ/1215م)

كمال الدين المظفّر بن علي بن ناصر القرشي، أبو منصور الحمصي، طبيب، أديب ولد في النصف الثاني من القرن السادس الهجري، في مدينة حمص، سوريا، ونشأ فيها، ثمّ ارتحل إلى مدينة دمشق في عمر مبكر واستقرّ فيها، وبدأ مسيرته التعليمية بتلقي العلوم الطبية من قبل الشيخ الطبيب رضي الدين الرحبي (ت 631هـ/ 1233م) والذي يعتبر أحد أركان التعليم الطبي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري. ولم يكتف بذلك بل تتلمذ أيضًا للطبيب بهاء الدين محمود بن منصور الطبري المخزومي، من أطباء القرن السادس الهجري، وقرأ عليه كتاب «القانون» لابن سينا، ولم يتمّه لسفر أستاذه الطبري إلى بلاد الروم عام 608هـ، كما اهتمّ بالأدب وفنونه، فدرسه بإشراف اللغوي الحافظ المحدّث، التاج الكندي زيد ابن الحسن النحوي (ت 613هـ) الذي كان حجّة زمنه في القراءات والنحو واللغة والشعر، فالطبيب كان لا بد له من أن يستوعب عدّة علوم أساسية تفيده في مهنته. وهذه المصادر المعرفية المتعدّدة التي أتقنها جعلت منه طبيبا مشهورا ومعروفا بالإضافة إلى صفاته الشخصية والتي أطنب ابن أبي أصيبعة في وصفها: «كان كثير الخير، وافر المروؤة، كريم النفس، محتالا لاصطناع المعروف» [عيون، ص682] فتسابق الجميع من الملوك والكبراء يطلبونه في المداواة والعلاج وللاستفادة من علومه الطبية لما ظهر من علمه، وبان من فضله [عيون، ص 682]،

وزاد من شهرته تعففه الزائد من التكسّب والارتزاق من مزاولة عمله الطبي، فكان يعالج المرضى بدون استثناء ويصف لهم الأدوية والعلاجات اللازمة مجانا بدون أجر، احتسابا لوجه الله تعالى، فضرب أروع الأمثلة في الإيثار ومنفعة الآخرين، على الرغم من العروض المغرية التي كانت تعرض عليه من علية القوم والأمراء، للعمل معهم ضمن صحبتهم أو حاشيتهم، وأن يلتزم بمرافقتهم، مقابل مكافآت ضخمة، ولكنه كان يرفض ذلك بإباء كما يذكر ابن أبي أصيبعة: «وطلبه الملك العادل أبو بكر بن أيوب وغيره ليخدمهم ويبقى معهم في الصحبة فما فعل» [عيون، ص 682]، معتبرا بأنّ عمله الطبي يحتم عليه تقديم خدماته مجانا للمرضى بدون مقابل، والجدير بالذكر أنّ بعض الأطباء العرب القدامى كانوا ينحون هذا المنحى، ويكرهون التكسّب بصناعة الطب، كما قال أبقراط: «فلذلك لا يفي شيء وإن كثر بأجرة الطبيب، ولكن على الله ﷻ، وما حصل له فينبغي أن يكون على وجه الهدية والصلة» [مقالة في التطرق بالطب إلى السعادة لعلي بن رضوان، تح. سلمان قطاية، مجلّة تاريخ العلوم العربية، م 2، ع 2، 1978، ص 68].

كما كتب الطبيب عبد الودود بن عبد الملك، عاش في أوائل القرن السادس الهجري «رسالة في ذم التكسّب بصناعة الطب» [مختارات من المخطوطات العربية النادرة في مكتبات تركيا، إعداد رمضان ششن، منشورات مركز الأبحاث للتاريخ والثقافة والفنون والثقافة الاسلامية، استانبول 1997، ص 585].

وامتثالا لهذا الاتجاه، كان كمال الدين الحمصي يتردّد إلى البيمارستان الكبير النوري الذي أنشأه الملك العادل نور الدين زنكي (ت 569هـ/ 1174م) لمعالجة المرضى مجانا، حتّى ألزم بأن يأخذ جامكية (وهو ما يرتب من مال ومطعم وملبس وغير ذلك لمماليك السلطان، ويقال أيضًا لرواتب الموظّفين والمدرسين) [نزهة النفوس والابدان في تواريخ الزمان، الخطيب الجوهري، وزارة الثقافة، مركز تحقيق التراث، دار الكتب، مصر، 1970، 1/ 350] وجراية، واستمرّ يعمل فيه حتّى وفاته.

واعتمد كمال الدين الحمصي في أكثر معيشته ومورد رزقه على التجارة، فقد كان محبّا لها، واستطاع أن يجمع بين التجارة والعمل الطبي من غير أن يشتط أحدهما على الآخر، وقد حصل على مكانة اجتماعية مرموقة، وكان احتراف الطب إحدى الوسائل لدخول الخاصة، وهذا يعود إلى أنّ الحكام كانوا يخافون على صحّتهم، ويحرصون على وجود الأطباء بجوارهم دائما.

وكعادة أطباء بلاد الشام في القرن الخامس والسادس الهجري، افتتح كمال الدين الحمصي دكانا في سوق الخواصين [ولاة دمشق في عهد المماليك، محمد أحمد دهمان، دار الفكر، دمشق، 1984، ص105، حاشية 2]، وهي أشبه بالعيادة الخاصّة المعروفة في وقتنا الحاضر يستقبل فيها المرضى ويعالجهم، ولا يمنعه ذلك من ممارسة أعماله التجارية فيها، وأن تكون في بعض الأحيان مقرّا لاجتماع العلماء ورجال الأدب والفكر، ووصف بأنه من الفضلاء

المشهورين، والعلماء المذكورين [عيون، ص682].

توفي كمال الدين الحمصي الذي أطلق عليه إسماعيل باشا البغدادي لقب نزيل دمشق [هدية العارفين، 6/ 463]، في عام 612هـ وذلك في العقد السادس من عمره، وهو في أوج عطائه، ولم يعمّر طويلا.

آثاره

يمكن وصف المؤلّفات الطبية التي تركها كمال الدين الحمصي بالصبغة العملية التجريبية، فهذا الطبيب اللامع كان يتّصف بنزعة سائدة غلبت على أطباء زمنه ألا وهي نزعة المحافظة على القديم والاتجاه إلى التجميع والتركيب والشروح والمبسطات وشرح الشروح [الذاكري، محمد فؤاد، الصناعة الطبية في بلاد الشام، مجلّة آفاق الثقافة والتراث، العدد40، شوال 1423هـ/ 2003م، ص176]، وكان يلتزم بنزعة المحافظة على القديم والاتجاه إلى الشرح والاختصار والتعليق على كتب سابقيه من الأطباء كالرازي، وابن سينا، وحنين بن إسحق، مع تسجيل مشاهداته وملاحظاته الخاصة حول الامراض ومعالجتها من الناحية العلمية، بدون الخروج عن الاطار النظري الذي رسمه أسلافه من الأطباء، ومؤلفات كمال الدين الحمصي هي:

1 ـ مقالة في الباه، وهي مستقصاة في فنّها [كشف الظنون، 2/ 436]؛ 2 ـ شرح كتاب العلل والأعراض لجالينوس؛ 3 ـ الرسالة الكاملة في الأدوية المسهّلة؛ 4 ـ اختصار كتاب الحاوي للرازي، ويذكر ابن أبي أصيبعة بأنه لم يتمّه [عيون، ص683]؛ 5 ـ مقالة في الاستسقاء؛ 6 ـ تعاليق الكليات من كتاب القانون؛ 7 ـ تعاليق في الطب؛ 8 ـ تعاليق في البول، ويذكر ابن أبي أصيبعة بأنه قد ألّفها في أوّل رجب سنة 603هـ؛ 9 ـ اختصار كتاب المسائل لحنين بن اسحق، ويعلّق ابن أبي أصيبعة بأنّه قد أجاد فيه [عيون، 683].

المصادر والمراجع

● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح. نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت 1965، ص 682 ـ 683؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين أسماء المؤلّفين وآثار المصنّفين، دار الكتب العلمية، بيروت 1413هـ/ 1992م، 6/ 463؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الكتب العلمية، بيروت 1413هـ/ 1992م، 1/ 885، 2/ 1783؛ ● الذاكري، محمد فؤاد، الصناعة الطبية في بلاد الشام، مجلّة آفاق الثقافة والتراث، العدد 40، شوال 1432هـ/ 2003م، ص 171؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة 14، بيروت 1990، 7/ 256؛ ● السامرائي، كمال، مختصر تاريخ الطب العربي، دار النضال، بيروت 1410هـ/ 1990م، 2/ 525؛ ● الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، الوافي بالوفيات، تح. أحمد الأرناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت 1420هـ/ 2000م، 25/ 394؛

● عيسى، أحمد، تاريخ البيمارستانات، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1402هـ/ 1982م، ص217؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت د.ت، 12/ 300.

د. محمد فؤاد الذاكري
باحث في التراث العلمي العربي ـ سوريا

الحمصي، هلال بن أبي الهلال

(ت. نحو 371هـ/981م)

هلال بن أبي الهلال الحمصي، مترجم، ورياضي. ذكر النديم في كتابه الفهرست ابن أبي الهلال الحمصي ضمن قائمة أسماء النقلة من اللغات المختلفة إلى اللسان العربي، وأشار أنّ كتاب المخروطات لابلونيوس قد ترجم منه ابن أبي هلال الحمصي الأربع مقالات الأولى، وذلك بين يدي المهندس أحمد بن موسى بن شاكر في بيت الحكمة ببغداد.

ويصف ابن أبي أصيبعة في كتابه عيون الأنباء ابن أبي الهلال الحمصي بقوله: «كان صحيح النقل، ولم يكن عنده فصاحة، ولا بلاغة في اللفظ».

توفي ابن أبي الهلال الحمصي نحو عام 371هـ.

آثاره

لم تذكر لنا التراجم أي كتاب من تأليف ابن أبي هلال الحمصي، سوى ترجمته المقالات الأربع الأولى من كتاب المخروطات لابلونيوس، الذي جمعه باوطوقيوس.

المصادر والمراجع

● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تح. رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 280؛ ● حميدان، زهير، أعلام الحضارة العربية والإسلامية، وزارة الثقافة، دمشق 1996م، 2/ 506؛ ● طوقان، قدري، تراث العرب العلمي في الرياضيات والفلك، المقتطف، 1941م، ص 110؛ ● القفطي، جمال الدين، إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مطبعة السعادة، مصر 1909م، ص62؛ ● النديم، أبو الفرج، الفهرست، تح. رضا تجدد، طهران، ص 326.

د. محمد هشام النعسان
معهد التراث العلمي العربي
حلب ـ سوريا

الحملاوي، أحمد

(1273هـ/1856م ـ 1350هـ/1932م)

ولد الشيخ أحمد الحملاوي بإحدى قرى مركز بلبيس، محافظة الشرقية، وتخرج في مدرسة دار العلوم سنة 1888م، وعين مدرسا في مدرسة المبتديان الناصرية الابتدائية، وكان أول الفائزين في مسابقة للتعين مدرسا للغة العربية بمدرسة دار العلوم الخديوية (كلية دار العلوم ـ جامعة القاهرة الآن) وعمل بها عدّة سنوات، ثم قامت وزارة المعارف بنقله إلى مدرسة المنصورة الثانوية.

وفي عام 1898م ترك وزارة المعارف لأمر يتعلق بالحرص على كرامته، واشتغل بالمحاماة، ولم يمنعه الاشتغال بها من الحنين إلى العلم، فالتحق بالأزهر الشريف، ونال «شهادة العالمية»، وربما كان أول من نال الشهادتين: شهادة دار العلوم، وشهادة الأزهر الشريف. ثم اشتغل بعد ذلك بالتدريس في الأزهر، لمواد الخطابة والتاريخ والرياضة، وكان أول من فكر في بعث قسم الوعظ والإرشاد.

وفي سنة 1902م أسندت إليه نظارة مدرسة عثمان باشا ماهر التي تجري مناهج الدراسة بها على نمط الدراسة بالأزهر، ولبث فيها ستة وعشرين عاما، فلم يتركها إلا عام 1928م طلبا للراحة بعد أن أدى رسالته على خير وجه.

وكان حصاد تدريسه بمدرسة دار العلوم تأليف كتاب في البلاغة أسماه «زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع» حظي بشهرة واسعة في المعاهد العلمية. وواضح من العنوان الذي جاء بأسلوب السجع انتماء الشيخ الحملاوي إلى مدرسة المتأخرين من علماء العربية وكتابها، وهي المدرسة التي ساد منهجها وأسلوبها لعدّة قرون، ولم يبدأ التحرر من آثارها وطرائق تعبيرها إلا مع بدايات القرن العشرين. ولا ينتمي الحملاوي إلى هذه المدرسة بالتزام السجع في عنوان الكتاب. وكلمته الافتتاحية فحسب، وإنما ينتمي إليها كذلك بأسلوب تفكيره ومنهجه في التأليف. فالكتاب يمثل عرضا مبسطا مختصرا لما كتبه السابقون من علماء البلاغة، وخاصة المتأخرين منهم، وفي مقدمتهم أبو يعقوب السكاكي (ت 626هـ) وشراحه أمثال الخطيب القزويني (ت 739هـ) وسعد الدين التفتازاني (ت 791هـ) وغيرهما. وطريقة الحملاوي إحدى طريقتين سادتا عالم تأليف الكتب في العصور المتأخرة، فهي إما أن تنحو منحى الشرح المسهب لما قال المتقدمون والتعليق عليه، وإثارة مناقشات لفظية حول بعض عباراته، وإما أن تكون اختصارا لما قالوه بأسلوب المتون، التي يسهل على الذاكرة حفظها. وعمل الشيخ الحملاوي في «زهر الربيع» من هذا القبيل كما أشرنا لكن مع الحرص على هضم الفكرة والتعبير عنها بأسلوبه، وقد أعقب كل موضوع من

الموضوعات بتمرين، شأنه شأن الكتب المدرسية المؤلفة وفقا لما تدعو إليه المناهج التربوية العصرية.

يعتمد الحملاوي في كتابه تقسيم المتأخرين للدرس البلاغي، وتوزيع مباحثه بين ثلاثة علوم أساسية، هي المعاني، والبيان، والبديع. ويسبق ذلك كله حديث يتناول معنى الفصاحة والبلاغة وشرائط تحقق كل منهما، ويأتي في أعقاب ذلك حديثه عن علم المعاني، أو «الفن الأول» من فنون البلاغة، كما آثر تسميته بذلك، فيقسم الكلام إلى خبر وإنشاء. ويمضي أولا مع ما يتعلق بالأسلوب الخبري، فيعرض أولا لمعنى الإسناد، ويذكر أنه «ضمّ كلمة أو ما يجري مجراها إلى أخرى، أو ما يجري مجراها على وجه يفيد الحكم بإحداهما على الأخرى، ثبوتا أو نفيا». وبعد أن يشير إلى أحوال الإسناد الخبري، وتقسيمه إلى جملة اسمية وجملة فعلية، يتناول أحوال المسند إليه من الذكر والحذف، والتعريف بكل أنواعه، والتنكير، والتقديم، والتقييد بمختلف أنواع التوابع. ثم يتناول أحوال الطرف الآخر من ركني الإسناد، وهو المسند، ثم أحوال «متعلقات الفعل» أو مكملات الجملة.

وتتوالى معالجة الحملاوي لمباحث علم المعاني، فيتحدث عن أسلوب القصر بتقسيماته المتعددة عند البلاغيين، وأنواع الأسلوب الإنشائي ودلالاتها المجازية في السياقات المختلفة، وخروج الكلام على مقتضى الظاهر، وأسلوب الالتفات. وينتهي أخيرا بالحديث عن الفصل والوصل، ثم الإيجاز والإطناب والمساواة.

وبنفس النهج الملتزم بفكر المتأخرين من علماء البلاغة عالج الحملاوي مباحث الفن الثاني من البلاغة، وهو البيان، فاستهل حديثه بمبحث الدلالة وأنواعها، ممهدا بذلك للحديث عن التشبيه بتقسيماته التقليدية. وبالمثل يأتي حديثه عن المجاز بنوعيه: المجاز المرسل والاستعارة، ويقسم الأخيرة إلى أقسامها المعروفة في كتب البلاغة ... إلى أن ينتهي هذا الفن بالحديث عن الكناية.

أما الفن الثالث والأخير فهو البديع، وقد أفاض الحملاوي في الحديث عن ظواهره بالغة الكثرة حتى استغرقت من صفحات الكتاب ما يقارب الفنين السابقين. والواقع أنه لم يكتف بما ذكره السكاكي والقزويني والتفتازاني في هذا الصدد، وإنما طوّف بما كتبه الذين شغفوا بالظواهر البديعية في القرون الثلاثة الأخيرة، وافتتنوا في تشقيقها وتفريعها. ويكاد الحملاوي، لا يترك شاردة ولا واردة في هذا الباب، مما سجله أولئك البديعيون، إلا أشار إليه، وكأنما استبدت به فكرة الجمع والاستقصاء لكل ما جاء تحت اسم البديع، حتى لو كان بعض هذه الظواهر بالغ الغرابة، ولا ينبغي أن يعد ظاهرة أصلا، كذلك النوع الذي يسمى «التهذيب والتأديب». والطريف أنه أشار في صدر الحديث عنه بأنه «ليس له شاهد يخصه، لأنه وصف يعمّ كل كلام منقح محرر»، ثم شرع في تعريفه، فذكر أنه «ترديد النظر في الكلام بعد الفراغ منه، وإمعان الفكر في تهذيبه وتنقيحه، نثرا كان أو نظما، وتغيير ما يجب تغييره، وكشف ما يشكل من غريب معانيه وإعرابه، وطرح ما يتجافى عن مضاجع الرقة من غليظ الألفاظ» [زهر الربيع، ط. الثانية، 1333هـ/ 1915م، ص 188].

ولا يسع المرء إلا أن يتساءل عن كيفية اعتبار هذه العملية الذهنية المحض ظاهرة بديعية، في حين أن مفهوم الظاهرة في هذا السياق إنما يعني خاصية أسلوبية ذات كيان محسوس في بناء العبارة وصياغتها. ولو أن الحملاوي تحرر من قبضة التبعية المطلقة لكل ما هو موروث، والتسليم به، والإذعان له لاستبعد مثل هذه الظاهرة وما كان على شاكلتها مما يقوم على التمحل والتكلف، أو يشوبه التداخل مع ظواهر أخرى، ولا اختلاف بينها إلا في الاسم فقط، أما الجوهر والمضمون فواحد.

والواقع أن هذه النظرة التقليدية للرجل، المحكومة بالدوران في أفق الموروث البلاغي لا تقتصر على دراسته لظواهر علم البديع، وإنما تشمل كذلك علمي المعاني والبيان وإن كانت أكثر ظهورا في البديع. فلم يحاول أن يناقش بعض الأفكار التي قال بها أولئك العلماء المتأخرون في أيّ من علمي المعاني والبيان، بل إنه لم يستطع أن يخرج في استشهاداته الشعرية في مباحث العلوم الثلاثة جميعا عما تناقله مؤلفو تلك العصور المتأخرة، وقد كان بين يديه ـ عند إعداد الطبعة الثانية للكتاب التي ظهرت في عام 1915م والتي نوه على غلافها بما أجرى فيها من تنقيح، وما أضاف إليها من زيادات ـ أشعار شوقي، وحافظ إبراهيم، وخليل مطران، والعقاد، وشكري، ومع ذلك لا نصادف نماذج من شعر أي شاعر منهم.

على أن ذلك لا يغضّ من جهد الرجل وعطائه العلمي، فقد كان متوائما مع المناخ العام للعصر، وطبيعة التطور الفكري والتعليمي السائدة في ذلك الوقت.

وكان من نتاج عمله بالتدريس في مدرسة دار العلوم أيضا كتاب في علم آخر من علوم اللغة العربية التي عهد إليه بتدريسها، ذلك هو علم الصرف. وقد جاء عنوان الكتاب مسجوعا كذلك كنظيره السابق في البلاغة فهو «شذا العرف في فن الصرف»، وصدر فيه عن المنهج الفكري نفسه الذي صدر عنه في «زهر الربيع»، فهو يمثل خلاصة فكر علماء اللغة والنحو في علم التصريف استوعبه المؤلف من مصادره الأساسية، وصاغه بأسلوبه في عبارات مركزة، تضم القواعد الصرفية وأمثلتها الموضحة لها. ولا يخلو هذا الضرب من التأليف من مزية، فهو يستحضر المعرفة العلمية المعينة في حيز محدود، لكنها مزية تحمل في باطنها جانبا سلبيا، إذ تكون وجازة العبارة عاملا قويا في استظهارها، على نحو يرهق الذاكرة ويجهدها، ولا يترك للقارئ فرصة للتأمل والفهم والمراجعة.

والكتاب يشتمل ـ فيما عدا المقدمة التمهيدية الخاصة بتحديد معنى الصرف، وتقسيم الكلمة والميزان الصرفي ـ على ثلاثة أبواب رئيسية: الأول عن الفعل وما يتصل به من حيث الزمن، والصحة والإعلال، والتجرد والزيادة .... الخ.، والثاني عن الاسم فيتناوله من جوانب متعددة على غرار ما فعل بالفعل من حيث الجمود والاشتقاق والتذكير والتأنيث..... الخ .والثالث عن أحكام تعم كليهما مثل حروف الزيادة ومواضعها وأدلتها وأنواعها والإعلال والإبدال وأنواعهما، والإدغام ..الخ. وتحت كل باب من هذه الأبواب تقسيمات فرعية، وفصول وتنبيهات حاول بها المؤلف أن يضبط المادة العلمية

التي يعالجها، وييسرها أمام القارئ...

وكما حرص على دعم المباحث البلاغية بتمرينات يوردها عقب كل مبحث، كذلك استخدم الأسلوب نفسه في الموضوعات الصرفية.

والأمر يختلف هنا عما هو عليه في «زهر الربيع»، فالدرس البلاغي يتسع للتذوق والتحليل، والاجتهاد بالرأي، والاعتراض والمناقشة، باعتبار أن المادة المدروسة نشاط إبداعي متجدد، في حين أن الدراسة الصرفية تلتزم بقواعد ثابتة لمفردات اللغة لا مجال فيها للقول بالرأي إلا في إطار محدود للغاية. لذا نرى أن كتاب «شذا العرف» كتاب جامع لأصول القواعد الصرفية، وكان من الغنى والدسامة أن دعا أحد الباحثين الأكاديميين مؤخرا إلى شرحه والتعليق عليه.

آثاره

1 - زهر الربيع في المعاني والبيان والبديع، القاهرة، ط. أولى 1905، ط. ثانية 1333هـ/ 1915م؛ 2 - شذا العرف في فن الصرف، تح. حسني عبد الجليل، مكتبة الآداب، (د.ت)؛ 3 - مورد الصفا في سيرة المصطفى؛ 4 - ديوان شعر في مدح الرسول ﷺ.

المصادر والمراجع

● حسني عبد الجليل، مقدمة لكتاب شذا العرف، ص 5؛ ● عبد الجواد، محمد، تقويم دار العلوم، صدر بمناسبة 85 عاما على إنشاء مدرسة دار العلوم، ص 338.

د. شفيع السيد
جامعة القاهرة ـ مصر

حمود، رمضان، ابن سليمان بن قاسم

(1324هـ/ 1906م - 1348هـ/ 1929)

هو حمود بن سليمان بن قاسم، رمضان لقبا. ولد بمدينة غرداية، جنوب الجزائر، سنة 1324هـ/ 1906م، في بيئة محافظة، عرف أهلها بتمسكهم الشديد بالدين وبغيرتهم المتقدة على الإسلام، وقد حددت هذه البيئة خطواته، ووجهت تفكيره ونظراته، فكان منه هذا الشاب الذي اعتنق الإصلاح في جميع أفكاره، ودعا إلى الثورة في مقالاته وأشعاره.

ولما بلغ السادسة من عمره، رأى والده أن يصطحبه معه إلى مدينة غليزان غرب الجزائر، حيث كانت تجارته. وإذا بحمود يلتقي بالغربة وهو ما يزال طري العود، وعرف الاعتماد على النفس وهو أحوج ما يكون إلى رعاية الأم وحنانها.

ويلتحق حمود بإحدى المدارس الفرنسية، ويصبح - وقد شهد له بالذكاء والنبوغ منذ الصغر - مثالا للنشاط والانضباط في فصله.

و لكنه يصطدم منذ مراحل التعليم الأولى بمأساة التعليم في الجزائر المستعمرة، حيث يغدو التلميذ في أغلب الأحيان ممزقا بين تعليمين: أحدهما فرنسي، عصري المناهج والأساليب، ولكنه يهدم الروحيات، ومقومات الشخصية الجزائرية، وثانيهما عربي حر تعرف به الكتاتيب والمساجد وبعض المدارس الحرة، ولكنه عقيم الأساليب، ضعيف المناهج، يساق فيه التلميذ بالعصا، وتقحم المعلومات في عقله الصغير بالحفظ الببغاوي.

لذلك قرر والد حمود أن يبعث بابنه إلى تونس، وكانت تونس آنئذ قبلة لكل شغوف بالمعرفة، وانضم حمود إلى أفراد البعثة التعليمية التي يترأسها الشيخ أبو اليقظان، والشيخ أبو اسحاق اطفيش، والشيخ محمد الثميني.

وترسم تونس في حياة حمود خطا فاصلا بين حياتين، وتستقبل فيه شابا في السادسة عشرة من عمره، ينبض كل عرق فيه بحب المعرفة، فراحت تبنيه أدبيا وفكريا واجتماعيا وسياسيا. . فكونته المطالعة والأندية الأدبية، وأبرزت مواهبه الشعرية، ورباه مشايخه في البعثة، وزرعوا فيه حب الاستقامة خلقا ودينا، وبثوا فيه حب التضحية في سبيل الوطن.

وتقلب هناك في عدة مدارس : مدرسة السلام، المدرسة القرآنية الأهلية، فالمدرسة الخلدونية، ثم الجامع الأعظم، جامع الزيتونة.

ولكن التقاليد الجزائرية التي كانت تحتم على الشاب التزوج مبكرا حرمته من أن يستزيد علما، فرجع إلى الجزائر وهو أشد ما يكون إلى استكمال دروسه، وفي نفسه تحسر وتفجع.

على أن حمود وهو ما يزال في تونس تلميذا مبتدئا، لم يقتصر على ما تمده به المدرسة من زاد، فقد كان يعمر أوقات فراغه بالتمرين على الكتابة، والخطابة، والشعر. وكون مع بعض إخوانه الطلبة في البعثة جمعية أدبية وطنية [الفتى، ص26].

تلك إذن كانت حياة حمود التعليمية، وهي ليست بذات غنى من حيث مدتها وتنوعها، غير أن حمود بما أوتيه من ذكاء حاد، وطموح فوار، دفعاه إلى أن ينكب على ثقافة عصامية أساسها المطالعة باللغتين العربية والفرنسية في كتب التاريخ والأدب والسياسة.

وعاد إلى الجزائر، واستقر بمسقط رأسه غرداية، وراح يشارك في إصلاح المجتمع الجزائري باندفاع وحماسة، وأثرى الصحف الوطنية بمقالاته وشعره، نشر أولياتها في جريدة «الشهاب» للشيخ ابن باديس، ثم في جريدة «وادي ميزاب» للشيخ أبي اليقظان. وألف في هذه الأثناء أيضا كتابيه «بذور الحياة» و«الفتى».

ولكن مرض السل الذي بدأ ينهش رئتيه وهو ما يزال طالبا بتونس لم تسلمه مخالبه إلا بعد أن مزقته، وأعيى الأطباء داؤه فما كان ينتصح لنصحهم حين أرشدوه إلى الابتعاد عن كل تعب فكري أو جسماني. وقد اختضرته المنية وهو في الثالثة والعشرين من عمره.

أول ما يلفت النظر في شخصية حمود هو هذه

الثورة التي عرف بها في أفكاره، ثورة على الجمود الفكري، ثورة على التقليد الغربي، ثورة على العمود الشعري، ثورة على الاستعمار الفرنسي. ونحسب بأن هذه الروح الثائرة تعود إلى ما عرف به حمود منذ صغره من طموح منقطع النظير، وإباء يكاد يكون كبرا، وشغف بالاستقلال الفكري رآه بعضهم طيشا وغرورا، فإنه «كان يرى منذ صغره أن المرء لا ينجح في حياته ولا يبلغ غايته إلا باتخاذه رأيا خاصا تزنده قريحته الوقادة، فإن أصاب المرمى فذاك، وإن أخطأ فالتجربة تربيه وتهذبه» [الفتى، ص6].

وكان له موقف التحدي من التعليم المكتبي عندما لمس عقمه، وتألم من فظاعة وسائله.

هذا الميل المسيطر على نفسه هو ما يفسر لنا شغفه بمطالعة سير العظماء من الرجال، شرقية كانت أم غربية.

من القراءة الأولى لشعر حمود يتجلى، وقد ملك عليه إصلاح شعبه وأمته تفكيره، وكأن الفكرة الإصلاحية قد امتزجت بدمه، فأعطاها كل ما يملك من قواه، ولم يثنه من عزمه مستعمر حاول إيذاءه مرارا، ولا جامد ناصبه العداء جهارا، بل، ولا ما عاناه من عذاب علة دائمة نهشت رئته، وقد تطلع حمود إلى شرف الكفاح في الميدان الإصلاحي، وتوطدت الصلة بينه وبين زعماء الحركات الوطنية شرقا وغربا، يقرأ لهم ويدرس حياتهم بشغف.

ووفقا لطبيعة حمود التي كانت تكره التكلف والتصنع، وتمقت التقليد والاجترار، ثار على الموضوعات التقليدية التي كان ومازال الكلاسيكيون يشغفون بها كالمدح والرثاء والغزل. وقد علل ثورته ضد هذه الموضوعات حين قال: «إن الرثاء والمديح ووصف القصور والمراقص والمعارضة والافتخار بمن سبق من الأمم البائدة، إن لم يكن عظة تاريخية، نحن في غنى عنها ما دام الشرق كله أو جله يئن تحت نير الغرب الثقيل، وما دمنا ننظر إليه نظر العبد لسيده، والضعيف للقوي الجبار.

ولئن عرف بإنتاجه الأدبي المتنوع مقالة، وشعرا، وقصة، وخواطر، فإن أبرز هذه الفنون جميعها عنده هي آراؤه النقدية المتعلقة ببعض القضايا الأدبية، لما امتازت به من أصالة وعمق وبُعد رؤية.

وانطلاقا من هذا المبدأ راح يدعو إلى وضع الشعر العربي في إطاره الصحيح، ليتماشى مع واقع الأمة العربية التي أخذت عينيها للنهضة، وفي هذا السبيل كان لا بد من تصحيح بعض الأحكام النقدية التقليدية التي ما تزال ملتصقة بعمود الشعر أيما التصاق، تنظر إليه في الأغلب الأعم من جانبه الشكلي، حتى استحال إلى عبث كلامي بين يدي بعض المبالغين الذين اعتبروا الزخرفة الكلامية، والمحسنات اللفظية، نهاية البراعة في التجربة الشعرية. وهؤلاء في نظر حمود هم الذين خنقوا أنفاس الشعر العربي حين قتلوه «.. بالتحسينات الكاذبة، والاستعارات الفارغة، والتشبيهات المملة، وإفراغ المعنى القبيح في اللفظ المليح، وإلزام ما لا يلزم، وتعقيد العبارات، والإتيان بالكلمات الغريبة الغليظة الشبيهة بصلب الحجر» [بذور الحياة، ص111].

ومن ثم كان على حمود أن يوجه نقده مباشرة إلى رائد المدرسة التقليدية أو مدرسة الإحياء،

أحمد شوقي الذي كان في هذه الأثناء يستقطب الأنظار، ويقبل الإمارة، وكان له في الجزائر صيت لا يقل عن ذلك الصيت الذي اكتسبه في المشرق. فقد كانت الصحافة الإصلاحية شديدة الاهتمام بشعره. ولم يكن إذا من الصدفة أن يجيء نقد حمود لشوقي في هذه الفترة بالذات، بل هو فيما نحسب استجابة فورية للدعوة التي وجهها «الشهاب» للأدباء ليكتبوا عن شوقي بمناسبة الاحتفال بإمارته [الشهاب، ع81، وبداية من 82، مقالات حمود عن شوقي]

ومما اهتم به حمود تجديد شكل القصيدة العربية وتحريرها من أسر الوزن والقافية، وليس من الصعب بعد كل الذي علمنا من نزعته التجديدية، وإدراكه الواعي لدور الشعر في تطوير حياة الأمة العربية، أن نفهم لماذا هاجم المفهوم التقليدي الذي يعتبر الوزن والقافية خصائص مميزة جوهرية لعملية الإبداع الشعري.

لعلنا نستطيع القول بأن رمضان حمود يعتبر بالنسبة للأدب الجزائري الحديث رائدا في ميدان النقد الأدبي، ولا سيما في مجال نقد الشعر، فقد عالج قضايا جوهرية، منها: رسالة الشعر ودوره في الحياة، وأوضح ما في المضامين التقليدية من قصور لمجاراة القرن العشرين، كما عالج بعض القضايا المعنوية، منها العاطفة ودورها في الشعر، وقضية الصدق الفني واللغة الشعرية وكيف يجب أن تكون، والبنية الشعرية وماهية الشعر فنيا.

آثاره

بالرغم من أنه لم يعش أكثر من ثلاثة وعشرين عاما، ومع ذلك فقد ترك من الآثار الأدبية ما يدل على عبقرية ونبوغ كبيرين، وهي كالتالي:

1 ـ حوالي ثلاثين قصيدة شعرية نشرها في الصحافة الجزائرية، و قد جمعها د. محمد ناصر في كتاب ألفه عن المترجم له تحت عنوان «رمضان حمود، الشاعر الثائر» طبع مرتين في الجزائر، صدرت الطبعة الأخيرة عن ش.و.ك الجزائر سنة 1985م؛ 2 ـ بذور الحياة، جمع فيها خواطره في الاجتماع، والسياسة، والأدب، ويشتمل على مقالاته النقدية التي تعتبر من أوائل ما كتب في الأدب الجزائري في موضوعها. نشر الكتاب لأول مرة عن المطبعة العربية بالجزائر سنة 1927م، وأعاد طبعه و نشره د. محمد ناصر ضمن كتابه عن رمضان حمود؛ 3 ـ الفتى، محاولة قصصية، روى فيها رمضان حمود سيرته الذاتية، ونشرت بالجزائر سنة 1928م، وهي تعد من أوائل ما كتب في هذا الصدد في الأدب الجزائري، وقد أعيد نشرها في كتاب د. محمد ناصر عن رمضان حمود.

المصادر والمراجع

● الزاهري، محمد السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، تونس، 1926م، 1/ 169 ـ 176؛ ● ناصر، د. محمد، رمضان حمود الشاعر الثائر، م.و.ك، الجزائر، 1985م (كله)؛ ● خرفي، د. صالح، حمود رمضان م. و. ك، الجزائر (1985 كله)؛ ● ناصر، د. محمد، الشعر الجزائري الحديث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ص 199 ـ 204؛ ● ناصر، د. محمد، الشعر الجزائري من الرومانسية

إلى الثورية (مخطوط)، مكتبة محمد ناصر؛ • الجابري، د. محمد صالح، النشاط الفكري والعلمي للمهاجرين الجزائريين بتونس، ش. و. ن. ت، الجزائر، 1983م، ص 7، 38، 56؛ • جمعية التراث، معجم أعلام الإباضية، (قسم المغرب)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000م، ص 129 ـ 130.

د. محمد ناصر
جامعة الجزائر

الحَمَوي الرومي، أبو إسحاق إبراهيم بن سليمان

(652هـ/1254م ـ 732هـ/1332م)

أبو إسحاق إبراهيم بن سليمان المِنْطيقيُّ، الحموي، القُونوي، رضي الدين، المعروف بالرومي، ويعرف كذلك بالآب كَرْمي، نسبة إلى بلدة صغيرة تسمى آب كَرْم من قونيَة (من بلاد آسيا الصغرى) [معجم المؤلفين، 1/ 35؛ الأعلام، 1/ 41؛ المنهل الصافي، 1/ 49؛ البداية والنهاية، 18/ 348].

فقيه على مذهب الإمام أبي حنيفة، مفسّر للقرآن العظيم، عالم بالحديث النبوي الشريف، نحوي، جدلي، إمام في المنطق، كان عالما إماما فاضلا، رأسا في العلوم العقلية، متواضعا ديّنا كثير العبادة والورع والتُقى.

أصله من مدينة حماة السورية، وسكن دمشق فدرس بها إلى أن مات بها ليلة الجمعة سادس عشرين من شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين وثلاثين وسبعمائة للهجرة النبوية الشريفة، وقد جاوز الثمانين، وقد ذكر ابن كثير بأنه بلغ من العمر ستا وثمانين سنة، ودفن بمقابر الصوفية المعروفة، وكانت جنازته مشهودة [المنهل الصافي، 1/ 49؛ معجم المؤلفين، 1/ 35؛ الأعلام، 1/ 41؛ الدرر الكامنة، 1/ 27؛ البداية والنهاية، 18/ 348].

أثنى عليه جماعة من العلماء الأعلام، وحجّ إلى بيت الله الحرام سبع مرات [المنهل الصافي، 1/ 49].

قرأ عليه جماعة من فضلاء دمشق وأعيانها، ودرس بالقَيْمازيّة (نسبة للأمير صارم الدين قَيْماز النجمي (ت 596هـ)، وهي من مدارس الحنفية بدمشق، وكانت بالمناخلية، ثم درست عندما وسع الطريق) [أحمد يوسف، تح. المنهل الصافي، 1/ 49؛ البداية والنهاية، 18/ 348].

وقد ترك هذه المدرسة لولده، ثم درّس بها بعد موت ولده مدّة، وانتفع به الطلبة، وأفاد الخاصة والعامة [المنهل الصافي، 1/ 49 ـ 50].

آثاره

له آثار كثيرة ومشهورة، منها:

1 ـ شرح الجامع الكبير في فقه الحنفيّة للإمام أبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني (ت 189هـ)، وهذا الشرح يقع في ستة مجلّدات [سزكين، تاريخ التراث العربي، 3/ 54 ـ 55؛ حاجي خليفة، كشف الظنون، 1/ 567، 569]، وقد ورد في كتاب إيضاح المكنون بعنوان «التقرير في شرح الجامع الكبير» [البغدادي، إيضاح المكنون، 3/ 314]؛ 2 ـ شرح منظومة النسفي في الخلاف، تقع في مجلّدين، وعدد أبياتها 2660، ولها شروح كثيرة، والنسفي هو أبو حفص عمر بن أحمد (ت 537هـ) [معجم المؤلفين، 1/ 35؛ الأعلام، 1/ 41؛ المنهل الصافي، 1/ 49].

المصادر والمراجع

● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان د.ت؛ ● ابن تغري بردي الأتابكي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تح. أحمد يوسف نجاتي، مطبعة دار الكتب المصرية، الطبعة الأولى 1375هـ/ 1956م؛ ● حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان؛ ● ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت 852هـ)، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، دار الجيل، بيروت، لبنان د.ت؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة عاشرة سبتمبر 1992م؛ ● سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، الرياض، السعودية، 1411هـ/ 1991م؛ ● ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء، البداية والنهاية، تح. د. عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، مصر 1419هـ/ 1998م؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

الحموي، صلاح الدين بن يوسف الكحال

(ت 696هـ/1296م)

صلاح الدين بن يوسف الكحال، طبيب من الرعيل الأخير من الحكماء العرب نشأ في مدينة حماة، في وسط بلاد الشام (سوربة حاليا)، تتلمذ على يد والده وأخذ ونقل عنه كثيرا من الأدوية والعقاقير المستعملة في علاج أمراض العيون. اطّلع على جلّ ما ترجم وكتب قبل عهده وخاصة سابقيه من عمالقة الطب العربي، ويظهر ذلك في كتابه «نور العيون وجامع الفنون» الذي قمت بتحقيقه مع الأستاذ الدكتور محمد رواس قلعه جي، ونشره مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية في الرياض عام 1407هـ/ 1987م. وذكر عنه أمين أسعد خير الله في كتابه «الطب العربي» أنه أكبر مؤلف جامع لأمراض العيون.

ولم يكتف صلاح الدين بن يوسف بعلم الطب كعلم تطبيقي بل درس فلسفة الطب ويظهر في كتابه أنه برع في ذلك، فقد عرّف أسباب تعدّد ألوان العين، وتحدّث بعمق عن آلية الإبصار، وعن نظرية انكسار الضوء، وكان له في ذلك رأي يعتبر هو الأصحّ علميًا اليوم.

ويمكن لقارىء الكتاب أن يلمس مدى اطّلاعه على ما يكتبه سابقوه فقد اقتبس في كتابه عن أربعة وتسعين مؤلّفا ممّن سبقوه من يونان وفرس وعرب، ونقل عن واحد وثلاثين كتابا وأقرباذينًا، وقد أودع ذلك كلّه في كتابه الذي لم يتقدّم من الكتب ما يفوقه ولا ما يوازيه، بل وقطع الطريق على كثير ممّن فكّروا في التأليف في طب العيون فلم يظهر بعده من الكتب إلّا «كشف الرين في أحوال العين» الذي كتبه ابن الأكفاني حوالي 1348هـ. و«العمدة الكحلية في الأمراض البصرية» الذي ألّفه إبراهيم بن صدقة الشاذلي» في أواخر القرن الرابع عشر الميلادي و «وقاية العين» الذي كتبه نور الدين علي المناوي في القرن الخامس عشر الميلادي و«رسالة في طب العيون» التي وضعها حسين الوفائي البغدادي. ويلاحظ أنه لم ينقل عن معاصرَيْه ابن النفيس مؤلّف كتاب «المهذب في الكحل المجرّب» أو خليفة بن أبي محاسن الحلبي مؤلّف «الكافي في الكحل» إما لأسباب شخصية وإما لأنه خشي أن ينقل ما لم يثبت صحة أو زيف ما كتباه.

ويعتبر لوسيان لوكلير أوّل المستشرقين الذين لفتوا الأنظار إلى الكتاب والمؤلّف، ثمّ ذكره هيرشبرغ في موسوعته الشهيرة «تاريخ طب العيون»، ثم كتب عنه كتابا مفصّلا مع كل من المستشرقين ليبرت وميتفوخ.

ويمتاز كتاب «نور العيون وجامع الفنون» بأنّه:

1 ـ يعد بحق تلخيصًا لكل ما كتب قبله في طب العيون.

2 ـ قد عزا كلّ معلومة إلى مصدرها، تقديرًا لعلم الأوائل اعترافا بفضلهم.

3 ـ حسن الترتيب والتنسيق، وهو أمر كان مفتقدًا في جلّ الكتب القديمة.

4 ـ أول كتاب فيما نعلم، يحوي رسما توضيحيًا لتشريح العين، وذلك برسم مقطع للعين في نهاية المقالة الأولى، وقد نشر هذا المقطع بانسيه وشرحه هيرشبرغ بإسهاب في كتابه الموسوعي.

5 ـ أول كتاب في طب العيون ـ فيما نعلم ـ يضع رسوما توضيحية لشرح نظرية الإبصار وذلك في المقالة الثانية، وقد اقتبس القسم الأعظم من هذه الأشكال عن إقليدس وجالينوس ورسم هو بعضها.

6 ـ وضع رسوما توضيحية لثماني عشرة آلة جراحية.

ويقع الكتاب في عشر مقالات:

المقالة الأولى: يذكر فيها المؤلّف حد العين وطبيعتها وتشريح أجزائها وتتألّف هذه المقالة من ثلاثة وعشرين بابًا ويوجد في نهاية المقالة رسم توضيحي لطبقات العين يعتبر بحق من أجمل ما رسم في تشريح العين.. ولسوء الحظ لم تحز هذه الصورة المكانة اللائقة بها عند المؤرّخين العرب.

المقالة الثانية: في أمر البصر ومذاهب الحكماء في كيفية إدارة المبصرات، ويتألّف من خمسة أبواب.. ولا يذكر أنّ بعض التفسيرات العلمية لظاهرة الرؤية عند المؤلّف لازالت مقبولة علميًا حتّى هذا التاريخ.

المقالة الثالثة: يذكر فيها المؤلّف أجناس الأمراض وأسبابها وعلاماتها وأوقاتها وكيفية استعمال الأدوية والقوانين التي يجب على الطبيب أن يستعملها عند كل استفراغ. ويتألّف من تسعة أبواب.

المقالة الرابعة: ويذكر فيها المؤلّف قوانين حفظ صحّة العين ثم أمراض الجفن وأسبابها وأنواعها ومداواتها وتتألّف من خمسة وعشرين بابًا.

المقالة الخامسة: ويذكر فيها المؤلّف أمراض المآق وأسبابها ومداواتها، وتتألّف من أربعة أبواب.

المقالة السادسة: يذكر فيها المؤلّف أمراض الملتحمة وأسبابها وأنواعها ومداواتها، وتتألّف من اثني عشرة بابًا.

المقالة السابعة: يذكر فيها المؤلّف أمراض الطبقة القرنية وأسبابها وأنواعها ومداواتها، وتتألّف من اثني عشر بابًا أيضًا.

المقالة الثامنة: يذكر فيها أمراض الطبقة العنبية والماء العارض في وجه الحدقة وأسبابها وأنواعها ومداواتها وتتألّف من خمسة أبواب.

المقالة التاسعة: يذكر فيها المؤلّف أمراض الخفية عن الحس وأسبابها وأنواعها ومداواتها، وتتألّف من عشرين بابًا.

المقالة العاشرة: يذكر فيها المؤلّف الأدوية المفردة المستعملة في العين وقواها ورتبها على أحرف المعجم وتعتبر هذه المقالة بحق مرجع المراجع لكل الأدوية المفردة المستعملة في طب العين حتّى تاريخ حياة المؤلّف.

وللكتاب على ما نعلم أربع مخطوطات:

1 ـ مخطوطة باريس المحفوظة في المكتبة الوطنية برقم 1042 وهي أقدم النسخ 1127هـ

وأكملها إذ أنها تحتوي على جميع الرسوم التوضيحية التشريحية منها والهندسية وآلات الجراحة، وتتألّف من 178 ورقة Folio، وفي كل صفحة 27 سطرًا وفي كل سطر 13 ـ 15 كلمة.

2 ـ مخطوطة مكتبة غوتا رقم 1994، مجهولة تاريخ النسخ غير أنه يبدو أنها أحدثها وقد أسقط ناسخها جميع الرسوم التوضيحية وتتألّف من 150 ورقة Folio، في كل صفحة 21 سطرًا وفي كل سطر 10 ـ 12 كلمة.

3 ـ مخطوطة مكتبة الاسكندرية رقم 1098، نسخت عام 1154هـ واسم ناسخها غير مقروء ومكتوب بخطين مختلفين وتتألّف من 230 ورقة Folio، وفي كل صفحة من خط الناسخ الأول 17 سطرا وفي كل سطر 7 ـ 9 كلمات، وفي كل صفحة من خط الناسخ الثاني 15 سطرًا وفي كل سطر 7 ـ 10 كلمات، وقد أحاط الناسخان كل صفحة من صفحاتها بإطار، ولكنّهما أسقطا جميع الرسوم التوضيحية حتّى مقطع العين في نهاية المقالة الأولى، كما وقع في المخطوطة سقط كثير يصل أحيانا إلى فصول بل مقالات كاملة.

4 ـ مخطوطة استانبول، حميدية، 1038.

المصادر والمراجع

● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، 5/ 23، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1957؛ ● الشطي، د. أحمد شوكت، الطب عند العرب، مؤسسة المطبوعات الحديثة، دمشق د.ت؛ ● السامرائي، د. كمال، موجز تاريخ الطب العربي، 2/ 520، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، سلسلة دراسات 1985؛

- Lucien le Clerc: Histoire de médecine arabe Vol 11, pp 205-206.
- J. Hirschberg: History of Ophtalmology, Vol 11, English translation by Frederick C. Blodi, MD, J.P. Waynborgh Verlag. Bonn 1985.
- Die Arabishen Augenarzte, Hirschberg, J. Lippert and E. Mattwock, Leipzig 1905.
- Amin A. Khairallah: Outline of Arabic contribution to medecine, Librairie Du Liban, 1940 .

أ. د. محمد ظافر الوفائي
طبيب كحّال ـ دمشق
سوريا

الحموي، أبو عبد اللـه ياقوت بن عبد اللـه

(575هـ/1179م ـ 626هـ/1229م)

أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله المستعصمي الرومي، جمال الدين الحموي البغدادي، عالم جغرافي ومؤرّخ وأديب إسلامي عاش في القرن السادس الهجري، ولد في بلاد الروم، آسيا الصغرى، وإليها نُسب ثم نقل كأحد الموالي إلى حماة وبها عاش وترعرع وإليها نُسب أيضًا.

لا تذكر المصادر شيئا عن أسرته الرومية الأصل أو بلده أو أبيه، كل الذي ورد أنه وقع أسيرا وهو صغير من غير معرفة اسم الذي أسره، فكان ضمن الرقيق الذين تمّ جلبهم إلى بغداد حيث اشتراه التاجر عسكر بن أبي نضر. وسمّي ياقوتا، وهو من أسماء الأحجار الكريمة التي كانت تطلقها العرب على الرقيق. ثمّ ألحق اسم عبد الله كعبد من عباد الله، ثمّ ألحق به لقب الحموي للدلالة على اسم مولاه. وقد بقي ياقوت متحمّسا للإسلام وأهله. كما اهتمّ سيّده عسكر الحموي بتعليمه لما رأى عليه سمات الذكاء فتتلمذ على لغويين كالعكبري، وابن يعيش، كما ائتمنه على ماله فاعتمد عليه في معاملاته وحساباته، حيث كان التاجر عسكر أمّيًّا لا يقرأ ولا يكتب.

وأثناء ملازمة ياقوت لسيده عسكر في أعمال التجارة، سافر معه إلى مختلف أصقاع الأرض. فتردّد على جزيرة كيش (جزيرة في وسط البحر الهندي، أهلها فرس)، ثم إلى عُمان، وكان أكثر أهلها خوارج إباضية، ثم كان يعود إلى الشام وهي تحت حكم الأيوبيين. وفي سنة 596هـ/ 1199م قرر التاجر عسكر أن يعتق ياقوتا لوجه الله، فرغب ياقوت في تغيير اسمه إلى يعقوب، إلّا أنه ظلّ يعرف بين معاصريه باسمه الأوّل ياقوت. وقد احترف ياقوت مهنة نسخ الكتب فتكوّنت لديه ملكة علمية كبيرة. ثم بدأ يبيع الكتب في بغداد ممّا دفع به إلى الاطّلاع على عدد كبير من المخطوطات النادرة وسهل عليه التعرّف على كبار العلماء في العالم الإسلامي.

اتّخذ عسكر الحموي من ياقوت شريكا له بالمضاربة بعد عتقه، فأعطاه من ماله وسافر إلى كيش للتجارة، وعند عودته سنة 606هـ/ 1209م وجد أنّ مولاه قد توفّي فأعطى زوجة مولاه وأولاده ما رضوا به، وأبقى معه ما تبقى من المال ليتاجر به. واختار لنفسه تجارة الكتب التي وجد أنها مربحة فكسب منها. فسافر إلى معظم بقاع العالم الإسلامي للتجارة وللعلم في آن واحد، فبدأ جولاته برحلة إلى الشام مارًّا بتبريز والموصل، ومن الشام توجّه إلى مصر مارًّا بفلسطين، وبعد ثلاث سنوات عاد من مصر إلى دمشق، ثمّ اتّجه إلى حلب واربيل وأرمية وتبريز ثم إلى شرق إيران. وفي نيسابور وقع في هوى فتاة

منها فأقام هناك عامين، ثم غادرها إلى رات وسرخس، وانتهى إلى مرو حيث أمضى عامين بين المكتبات المشهورة في طشقند، ومرو، وبلخ وتعرَّف على ما فيها من كتب، فكان يحمل الكتب إلى البلاد ثم يعود حاملا منها الكتب أيضًا. وكانت هذه الرحلات تدفعه إلى المزيد من الاطّلاع والبحث في موارد الثقافة الإسلامية، ومعرفة أسماء العلماء الذين يودّون شراء كتب العلم.

وفي عام 609هـ/ 1212م وأثناء واحدة من سفراته إلى حلب، التقى برجل يدعى أبا علي القيلوي يعمل وسيطا في شراء الكتب لصالح القفطي وزير حلب آنذاك. فأدخل ياقوتا عليه يحمل ما جمعه من الكتب. ويذكر القفطي في «إنباه الرواة» عن هذا اللقاء قوله: «فلم يكن فيها سوى كتابين ابتعتهما منه، وتأمّلته في منظره ومخبره فتوسّمت فيه أمورا لم يخب حدسي فيها وعلمت أنه لا يصلح للعشرة». وكان أن عاد ياقوت إلى حلب بعد ذلك سنة 613هـ/ 1216م، ومعه كتب، فاجتمع بالقفطي وسمع منه شعره، ثمّ توجّه إلى دمشق، وفي بعض أسواقها قادته الأقدار إلى لقاء بغدادي يتعصّب لأحد الصحابيين، فتناظرا، وجرى بينهما ما دفع ياقوتًا إلى ذكر الصحابي بسوء، مما أثار عليه حفيظة أهالي دمشق فهمُّوا به وكادوا يقتلونه. وبلغ خبره والي دمشق المعتمد الموصلي فطلبه فخاف وفرّ إلى حلب ناجيا بنفسه. ومن حلب رحل إلى الموصل فإربل ثم توجّه نحو خراسان بحيث لم يمر ببغداد خشية أن يلقى فيها المناظر البغدادي فيعرفه وينقل خبره فيقتل.

وظلّ ياقوت على هذا النحو يتنقّل بين خراسان، ومرو، ونسا، وخوارزم، وهو يقوم بالتأليف والمطالعة والنسخ وبيع ما يستخدمه أو يبتاعه، على أنّ أكثر إقامته كانت في مرو. ولكن في سنة 616هـ/ 1219م، اضطرّ إلى ترك مدينة مرو، حيث قابل مخاوف كثيرة من التتر بمعاملتهم الوحشية للعلماء والمكتبات. فيذكر في كتابه «معجم البلدان»: «وأقمت بها ثلاثة أعوام... ولولا ما عرا من ورود التتر إلى تلك البلاد وخرابها لما فارقتها إلى الممات، لما في أهلها من الرفد ولين الجانب وحسن العشرة وكثرة كتب الأصول المتقنة، فإني فارقتها وفيها عشر خزائن للوقف لم أر في الدنيا مثلها كثرة وجودة». فصار يتنقّل من مكان إلى آخر مبتعدا عنهم. فانتقل إلى نسا، ثم منها إلى خوارزم، وقد وصلها أيام الشتاء القارسة، وحاول فيها الكتابة والتأليف ولكنه لم يستطع، فيقول في ذلك: «وقد اجتهدت أن أكتب شيئا بها، فما كان يمكنني لجمود الدواة حتّى أقربها من النار وأذيبها. وكنت إذا وضعت الشربة على شفتي التصقت بها لجمودها على شفتي». ولم يطل مقامه في خوارزم، إذ هاجمها التتر، ففرّ منها تاركا ما لديه، واتّجه منها إلى الغرب مقاسيا في رحيله التعب والخوف، إلى أن وصل إلى إربل سنة 617هـ. ولكن لم يطب له المقام بها، فتركها إلى الموصل ومنها كتب رسالة إلى القفطي يروي فيها قصته وسأله الحضور بحضرته. ثم رحل إلى الموصل، ثمّ إلى سنجار، ومنها إلى حلب. وفي حلب رحب به الوزير القفطي، وسمح له بالإطّلاع على الكتب قدر ما يريد. كما وجد في كنف

القفطي ما نشده من راحة فأخذ يجتمع بالعلماء والكتّاب ويقرأ الكتب وينسخ حتّى تمكّن من تجميع مال وفير، فسافر ببضاعة من الخام إلى مصر وعاد منها ببضاعة أخرى ربح منها.

وقد فرغ ياقوت الحموي من مسودة كتابه «معجم البلدان» في حلب عام 621هـ، وأهداه بخطّه إلى خزانة القفطي، ثم عمد إلى تبييض الكتاب سنة 625هـ. وكانت هذه آخر أعماله إذ توفّي في حلب في العشرين من رمضان سنة 626هـ. وأوصى إلى العز بن الأثير المؤرّخ بأوراقه ومجموعاته ليسيِّرها إلى بغداد.

اشتهر ياقوت الحموي خاصّة بعملين مرجعيين هما «معجم الأدباء» و«معجم البلدان»، ففيما يخصّ الكتاب الأوّل فقد كان ياقوت قد اطّلع على جهود سابقيه في هذا المجال وهي خاصَّة كتب محمد بن عبد الملك التاريخي، ومحمد بن يزيد المبرد، وأبي عبيد الله االمرزباني، وأبي سعيد السيرافي، وأبي بكر الزبيدي، وعبد الرحمٰن الأنباري. ولاحظ بحق قلّة المادة في بعضها إما لصغرالحجم أو لقلّة التراجم وكثرة الحكايات، وقرّر الاعتماد على كل هذه الكتب وعلى مئات الكتب الأخرى، ومنها الأنساب للسمعاني وهو كتاب له أهمّيته بالنسبة لأعلام المشرق الإسلامي من مدن كثيرة، مثل هراة، وبلخ ومن أقاليم خراسان وخوارزم، وكذلك كتاب تاريخ نيسابور للحاكم النيسابوري. ومن مصادره كتب التراجم المتخصّصة، مثل كتاب أبي جعفر الطوسي في أخبار مصنّفي الإمامية، وكتب التراجم المرتبطة بمكان محدد مثل تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، وكتب الأدب مثل كتب أبي حيان التوحيدي ومنها كتاب الوزيرين. ومن مصادره كتب اللغة مثل الخصائص لابن جني، وكتب الموازنة بين اللغات، مثل كتاب حمزة الإصفهاني في الموازنة بين العربية والفارسية. ومن مصادره، الكتب البيبليوغرافية مثل الفهرست لابن النديم. ومن مصادره ما هو شفوي يدلّ عليها قوله من أمثال: حدّثني أو أنبأني.. ولم يتقيّد ياقوت بحدود جغرافية ضيّقة، ويقول: «لم أقصد أدباء قطر ولا علماء عصر ولا إقليما معينا ولا بلدا مبينا، بل جمعت للبصريين والكوفيين، والبغداديين، والخراسانيين، والحجازيين، واليمنيين، والمصريين، والشاميين، والمغربيين، وغيرهم على اختلاف البلدان وتفاوت الزمان».

وهكذا نجد في «معجم الأدباء» تراجم لعلماء من آسيا الوسطى وإيران والأقاليم العربية في آسيا وإفريقيا، كما نجد تراجم للأندلسيين والصقليين؛ وتضمن «معجم الأدباء» معلومات مهمّة عن المؤلّفات، فاهتمّ مع كل عالم بذكر مؤلفاته، ولديه بعض المعلومات عن النسخ وتعددها وغير ذلك مما يفيد في توثيق نصوص طويلة مثل مناظرة أبي سعيد السيرافي، ومتى ابن يونس القنائي، حول النحو والمنطق، نقلها ياقوت من كتاب «الإمتاع والمؤانسة» لأبي حيان التوحيدي. وتضمّ التراجم المفصّلة نسبيًا نصوصا أدبية من عيون الشعر والنثر، أما «معجم البلدان» فموضوعه، كما ذكر ياقوت «أسماء البلدان والجبال والأودية

والقيعان والقرى والمحال والأوطان والبحار والأنهار والغدران»؛ وهو كتاب يستوعب كلّ أنحاء العالم الإسلامي والمناطق المتاخمة والمتداخلة معه في الأحداث التاريخية، من ذلك الأماكن المهمّة في جزيرة العرب مثل مكة المكرّمة، وفي العراق مثل بغداد، وفي بلاد الشام مثل دمشق وحلب، وفي مصر مثل الفسطاط وفي المغرب العربي مثل تونس، وفي الأندلس مثل طليطلة. وكذلك أسماء المناطق التي كانت في بعض المراحل التاريخية من أقاليم الدولة الإسلامية، مثل «تفليس» وبلاد الكُرج أي جورجيا، وكذلك البلاد التي تضمن جماعات من المسلمين وإن كان الحكم فيها لغيرهم، مثل بلاد«الخزر» التي كان ملكها وحكامها يهودا، وكذلك البلاد التي كانت خارج العالم الإسلامي وعلى حدوده مثل بلاد «الروس» و«الصقالبة». ولكن حجم المعلومات عن آسيا الوسطى كبير، ويظهر في مداخل كثيرة منها: تركستان، طراز، اسبيجاب، فاراب، أطرار. وتتّصل بهذه المنطقة كاشغر التي توجد حاليا في داخل جمهورية الصين وتسكنها جماعات من المسلمين. وتدخل في هذا الجانب تلك المعلومات عن المناطق الحضارية القديمة في آسيا الوسطى، مثل الصُّغد. وعن شعوب لا نكاد نجد عنها معلومات إلّا بصعوبة مثل شعب اللان بالقرب من تفليس في القوقاز. كما نجد معلومات مهمّة عن مدن إفريقية إسلامية مثل كاكُدَمَ في أقصى المغرب جنوبي البحر متاخمة لبلاد السودان.

وقد اعتمد ياقوت مصادر متنوّعة منها كتب الجغرافيين السابقين كالاصطخري، وأبي زيد البلخي، وكتب الرحالة وفي مقدمتها رحلة ابن فضلان إلى بلاد الصقالبة أي السلاف الجنوبيين وبلاد الروس، وتعدّ هذه الرحلة من أهمّ الوثائق المبكرة عن هذه المناطق. كما اعتمد على معاجم لغوية ككتاب «العين» للخليل بن أحمد، و«تهذيب اللغة» للأزهري، و«الصحاح» للجوهري، وعلى كتب الأدب والتاريخ..

تضمّنت خطّة المؤلّف العناية بما يأتي: الضبط الدقيق للاسم ببيان الحركات، تأصيل الاسم العربي والمعرَّب ومعناه، تحديد موقعه بدقّة والأماكن القريبة منه، خصائص المكان الطبيعية، نمط الحياة فيه، الأعلام المنسوبون إليه وأهمّيتهم، الأشعار التي قيلت فيه. وإلى جانب هذا كلّه، يعطي «معجم البلدان» معلومات مهمّة عن تأصيل أسماء الأماكن، من ذلك تلك الأماكن في آسيا الوسطى التي ترجع إلى لغات تركية قديمة وإلى لغة الصغد، وكذلك إلى الفارسية أو اليونانية، وشرحه لها يكشف عن معرفة لغوية واسعة ومناسبة، من ذلك شرحه لمداخل مثل كاوخُوَاره وتأصيلها الفارسي، وطرابلس وكونها عند الإغريق تعني المدن الثلاث أو المدينة المثلثة.

إن «معجم البلدان» له أهمّية كبيرة في شرح كلمات حضارية، ومنها مصطلح «البريد» والمسافة التي يدل عليها، وكذلك الطول بمعنى خطّ الطول والعرض بمعنى خط العرض، وكذلك الصلح في سياق كيفية دخول البلد في الدولة الإسلامية والسلم بمعنى عدم الحرب ومفهوم الخراج والغنيمة، وغير ذلك. وكلمة جغرافيا أي وصف

الأرض، والفرسخ وهو فارسي معرّب وكلمة فَرْسَنْك، والميل، والرستاق ويتضمّن سياق شرحه بيان لكلمات أخرى: البحر المحيط سماه اليونانيون أقيانوس والكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى، وبعض هذه المصطلحات محلّية، مثل مصطلح المخلاف والجمع مخاليف وأكثر ما يقع في كلام أهل اليمن، وقد يقع في كلام غيرهم على جهة التبع لهم. وشرح شرحا وافيا لمصطلحات تغيّرت دلالاتها مثل «ثغر» ومصطلح «عاصمة».

آثاره

1 ـ معجم البلدان، طبع لأوّل مرة في ليبسك سنة 1866 ـ 1870م في ستة أجزاء ضخمة، بتحرير المستشرق الألماني وستنفيلد، ثمّ أعيد طبعه بمصر سنة 1909م، دار صادر ودار بيروت 1955م ببيروت وما بعدها. وطبع ملخصا في ليدن سنة 1850م في 4 مجلّدات، بعنوان «مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» بتحرير صفي الدين بن عبد الحق (ت 739هـ)، وطبع بعناية أمين الخانجي، ومعه ذيل اسمه «منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان»، مطبعة السعادة، مصر 1324هـ/ 1906م، وطبع مختصرا باسم «من كتاب معجم البلدان»، تح. عبد الإله نبهان، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1982م؛ 2 ـ معجم الأدباء أو إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، طبع بتحرير مارغليوث عن مركز ليدن ولندن، وفي مطبعة هندية بالقاهرة سنة 1909م. ثم طبع بتحرير مارغليوث وعناية أحمد فريد رفاعي في دار المأمون بالقاهرة سنة 1357هـ/ 1938م، وأعيد طبعه في دار إحياء التراث العربي، في 10 مجلّدات، د.ت؛ 3 ـ المشترك لفظا والمختلف صقعا، طبع بتحرير وستنفيلد بغوتنجن سنة 1846م، ثم أعيد طبعه مصورا في مكتبة المثنى ببغداد، دت؛ 4 ـ المبدأ والمآل في التاريخ، مفقود؛ 5 ـ معجم الشعراء، مفقود؛ 6 ـ أخبار المتنبي، مفقود؛ 7 ـ أسرار الحكمة، مفقود؛ 8 ـ مجموع كلام أبي علي الفارسي، مفقود؛ 9 ـ تحفة الأنباء وأخبار الأدباء، مفقود؛ 10 ـ المقتضب في النسب؛ 11 ـ كتاب الدول، مفقود..

المصادر والمراجع

● ياقوت الحموي، معجم الأدباء، 20ج، تح. محمد فريد الرفاعي، دار المأمون، القاهرة 1357هـ/ 1938م؛ ● م.ن، معجم البلدان، تح. عبد الإله نبهان، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق 1982م؛ ● ابن كثير، البداية والنهاية في التاريخ، مطبعة مصر 1358هـ؛ ● ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، دار المسيرة، بيروت 1399هـ/ 1979م؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت 1969م؛ ● زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، مجلّدان، دار مكتبة الحياة، بيروت 1978م، ط2، ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر. عبد الحليم النجار، دار المعارف بمصر، القاهرة 1961م؛ ● دائرة المعارف الإسلامية، تر. محمد ثابت الفندي وآخرون، القاهرة

1957م؛ ● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط7، بيروت 1986؛ ● فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، دار العلم للملايين، بيروت 1975م؛ ● إقبال، أحمد الشرقاوي، معجم المعاجم، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1993؛ ● نيقولا، ناهض، الموسوعة العربية، مصوّرة بالألوان، ليميتد، قبرص 1998م، الشركة الشرقية للمطبوعات، ش.م.م، استرن بيبليشر أند دستروبيوتر كمباني Eastern Publishers and Distrubitor CO/1; id cyprus.

د. محمود فهمي حجازي
جامعة نور مبارك ـ قازخستان
د. محيي الدين عطية
جامعة القاهرة
د. حلّام الجيلالي
جامعة سيدي بلعباس ـ الجزائر

ابن أبي حميد، حميد أبو عبيد الخزاعي الطويل

(68هـ/687م ـ 142هـ/760م)

حميد بن أبي حميد أبو عبيد الخزاعي، البصري الطويل، الإمام الحافظ التابعي المحدّث، وهو مولى طلحة الطلحات، وقيل مولى سلمى، اختلف في اسم أبيه، فقيل هو تيرويه وقيل تير، وقيل زاذويه أو ابن زاويه، وقيل هو داور أو مهران أو طرخان أو مخلّد أو عبد الرحمٰن، ولم تلتق المصادر على واحد منها. كان والده من سبي كابل في سنة أربع وأربعين. قال حاشد ابن إسماعيل البخاري سألت إبراهيم بن حميد الطويل: ما اسم جدّك؟ قال: لا أدري.

ولد حميد الطويل سنة ثمان وستّين للهجرة عام وفاة ابن عباس. كان صاحب حديث ومعرفة وصدق. قال الأصمعي: رأيت حميدا ولم يكن بطويل، ولكن كان طويل اليدين، وكان قصيرا ولم يكن بذلك الطويل. ولكن كان له جار يقال له حميد القصير، فقيل له حميد الطويل ليُعرف من الآخر [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 6/ 163 ـ 164؛ الذهبي، ميزان الاعتدال، 1/ 610].

كان حميد الطويل بصريًا تابعيًا، وهو خال حمّاد بن سلمة. كان معروفا بعلمه بين أهل البصرة. قال فيه إياس: إن أردت الصلح، فعليك بحميد الطويل، تدري ما يقول لك؟ يقول لك: اترك شيئا ولصاحبك مثل ذلك. قال معاذ بن معاذ: قال حميد للبتّي يعني عثمان: إذا أتاك الناس فاحملهم على أمر واحد، لا، ولكن خذ من هذا ومن هذا فاصلح بينهم. قال: فقال البتّي: لا أطيق سحرك. قال: كان حميد مصلح أهل البصرة [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 6/ 167 ـ 168].

مات حميد الطويل وهو يصلّي في المسجد في جمادى الأولى سنة أربعين ومائة، وقال يحيى ابن سعيد: مات حميد سنة اثنين أو ثلاث

وأربعين في آخرها، وروي عن ابراهيم بن حميد قال: مات أبي سنة ثلاث، وقد أتت عليه خمس وسبعون سنة [م.ن، 6/ 167 ـ 168].

وذكر ابن الأثير أنه مات وله سبع وسبعون سنة، وقيل خمس وسبعون [ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 4/ 369].

وعن زهده وكثرة تعبّده قال ابن العماد: مكث حميد الطويل، أربعين سنة يصوم يوما ويفطر يوما، ويصلّي الفجر بوضوء العشاء [ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، 2/ 198 ـ 199؛ الزركلي، الأعلام، 2/ 283].

أمّا شيوخه فقد سمع حميد بن أبي حميد الطويل من أنس بن مالك، وعبد الله بن شقيق العقيلي، والحسن، وأبي المتوكّل؛ وعكرمة، وموسى بن أنس، وثابت البناني، وابن أبي مليكة، وبكر بن عبد الله، ويوسف ابن ماهك، وكثيرون غيرهم [الذهبي، تذكرة الحفاظ، 1/ 152].

وروى عن حميد الطويل عاصم بن بهدلة، وشعبة وزياد بن سعد، وابن جريج والسفيانان، والحمادان، حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، واسماعيل بن جعفر، وأبو إسحاق الفزار، وخالد بن عبد الله، وزائدة، وزهير بن معاوية، وبشر بن المفضّل، وخالد ابن الحارث، وأبو خالد الأحمر، وعبّاد بن العوام، وابن المبارك، وعبد الأعلى السامي، وعبد العزيز الدراوردي، وعبد الوهاب الثقفي، ويحيى القطان، وأبو بكر بن عياش، ويزيد بن هارون، ومحمد بن أبي عدي، ومروان بن معاوية، ومحمد بن أبي عيسى بن سميع، ومعاذ ابن معاذ، ومحمد بن عبد الله الأنصاري، ويحيى بن سعيد الأنصاري [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 6/ 163 ـ 164].

وأوردت كتب التراجم عديد الروايات في بيان مكانة حميد الطويل العلمية، ونورد ما كان منها محلّ اتّفاق:

روى يحيى بن أبي بكر عن حمّاد بن سلمة قال: أخذ حميد الطويل كتب الحسن فنسخها ثمّ ردّها عليه. وروى الأصمعي عن حماد بن سلمة قال: لم يدع حميد لثابت البناني علما إلا حفظه منه ووعاه. وقال أبو حاتم الرازي، عن حميد الطويل، هو ثقة لا بأس به. وقال ابن خراش عنه إنه ثقة صدوق، وعامّة حديثه عن أنس إنّما سمعه من ثابت. وقال زهير بن معاوية: قدمت البصرة فأتيت حميدا الطويل وعنده أبو بكر بن عياش فقلت له: حدّثني. فقال: سل، قلت: ما معي شيء أسأل عنه. قال: فحدّثني بثلاثين حديثا، قلت: فحدّثني بسبعة وأربعين حديثا. ما أراك إلّا قد قاربت فجعل يقول: سمعت أنسا والأحيّان يقول: قال أنس، فلمّا فرغ قلت: أرأيت ما قد حدثتني به عن أنس بن مالك أنت سمعته منه؟ فقال أبو بكر: هيهات فاتك ما فاتك، يقول: كان ينبغي لك أن توقفه عند كل حديث وتسأله. فكان حميد وجد في نفسه فقال: ما حدّثتك بشيء عن أحد فعنه أحدثك [م.ن، 6/ 164 ـ 165].

ورغم اهتمام حميد بالرواية نجد بعض معاصريه يشكّك في صحّة ضبطه للأحاديث، لأنّه كان، في نظرهم، يخلط في الرواية. قال ابن عيينة: يقال اختلط على حميد ما سمع من أنس ومن ثابت. وقال مؤصل بن اسماعيل: عامّة ما يروي حميد

عن أنس سمعته من ثابت، وقال يحيى القطان: كان حميد إذا ذهبت إليه أنوقّفه على بعض حديث أنس يشكّ فيه، وروى أبو عبيدة عن شعبة قال: لم يسمع حميد عن أنس إلّا أربعة وعشرين حديثا، والباقي سمعها من ثابت، أو ثبته فيها ثابت. وقال شعبة: كل شيء سمع حميد من أنس خمسة أحاديث، ثم قال: سمعت حبيب بن الشهيد يقول لحميد، وهو يحدّثني: انظر ما تحدّث به شعبة فإنّه يرويه عنك. ثمّ يقول لي: إنّ حميدا رجل نسي، فانظر ما يحدّثك به. وقال عفّان عن يحيى بن سعيد قال: كنت أسأل حميدا عن أنس من فتيا الحسن فيقول: نسيته [م. ن، 6/ 165؛ الذهبي، ميزان الاعتدال، 1/ 610].

المصادر والمراجع

● ابن الأثير، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، ط4، 1403هـ/ 1983م، 4/ 369؛ ● الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تح. عليّ أبو زيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1402هـ/ 1982م، 6/ 163 ـ 169، ● ميزان الاعتدال، دار المعرفة، بيروت، م1، ص610؛ ● الحنبلي، ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تح. الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط1، 1408هـ/ 1988م، دمشق، بيروت، 2/ 198 ـ 199؛ ● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط8، 1989م، 2/ 283.

د. حراث بوعلاقي
مركز الدراسات الإسلامية
القيروان ـ تونس

الحُمَيْدي، عبد الله بن الزبير

(ت 219هـ/834م)

هو عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبد الله بن أسامة الحُمَيْدي القرشي الأسدي، وكنيته أبو بكر.

ينسب الحميدي إلى حميد بن زهير بن الحارث بن الأسد بن عبد العزّى المكي. وهو الإمام الحافظ الفقيه صاحب المسند [الزركلي، الأعلام، 4/ 87؛ الذهبي، سير الأعلام النبلاء، 10/ 616]، والحميدي ينسب إلى قبيلة الحميدات، [السمعاني، الأنساب، 2/ 260].

ذكر السبكي أن الحميدي صاحَبَ الشافعي إلى مصر وتفقه عليه [طبقات الشافعية، 2/ 140]. ثم استقر في مكة. قال الذهبي: «لما توفي الشافعي أراد الحميدي أن يتصدر موضعه فتنافس هو وابن عبد الحكم على ذلك وغلبه ابن عبد الحكم على مجلس الإمام. ثم إن الحميدي رجع إلى مكة وأقام بها ونشر العلم» [الذهبي، م. س، 10/ 619].

وقال الصفدي: عبد الله بن الزبير بن عيسى الإمام القرشي الحميدي محدث مكة وفقيهها [الوافي بالوفيات، 17/ 179].

وقال فيه الحاكم أبو عبد الله: الحميدي مفتي أهل مكة ومحدثهم وهو لأهل الحجاز في السنة كأحمد لأهل العراق [السبكي، طبقات الشافعية، 2/ 140، ترجمة عدد 31]، وقال السمعاني: «استقر بمكة ومات بها سنة 219هـ» [الأنساب 2/ 269].

وروى الحميدي عن عدة شيوخ منهم إبراهيم ابن سعد، وأبو ضمرة أنس بن عياض، وبشر ابن بكر التنيبي، وأبي أسامة حماد بن أسامة، وسفيان بن عيينة، وعبد الله بن الحارث الجمحي الخاطبي، وعبد الله بن الحارث المخزومي، وعبد الله بن رجاء المكي، وأبي صفوان عبد الله بن سعيد الأموي، وعبد الله ابن يرضا المدني مولى بني ليث، وعبد الرحمٰن بن سعيد بن عمار المؤذن، وعبد العزيز بن أبي حازم، وعبد العزيز بن عبد الصمد العمّي، وعبد العزيز بن محمد الدوراوردي، وعلي بن الحميد بن زياد بن صيفي، وفرج بن سعيد المأربي اليماني، وفضيل بن عياض، ومحمد بن إدريس الشافعي، ومحمد بن عبيد الطنافسيّ، ومروان ابن معاوية الفزّاري، ووكيع بن الجراح، والوليد بن مسلم، ويعلى بن عبيد الطنافسيّ، وغيرهم [المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، 14/ 512 ـ 513].

ومن أشهر تلاميذ الحُميدي: البخاري، وإبراهيم بن صالح الشيرازي، وأبو الأزهر أحمد بن الأزهر النيسابوري، وإسماعيل بن عبد الله الأصبهاني، وبشر بن موسى الأسدي، وسلمة بن شبيب النيسابوري، وأبو زرعة عبد الله بن عبد الكريم الرازي، وعبد الله بن فضالة بن إبراهيم النسائي، وأبو حاتم محمد بن إدريس الرازي، ومحمد بن عبد الله ابن سنجر الجرجاني نزيل المغرب، ومحمد ابن عبد الله بن عبد الرحيم الترقي، ومحمد ابن علي ميمون الرقي، ومحمد بن يحيى الذهلي، ومحمد بن يونس النسائي، ومحمد ابن يونس الكديميّ، وهارون بن عبد الله الحمّال، ويعقوب بن سفيان، ويعقوب بن شيبة، ويوسف بن موسى القطان [المزي، م. س، 14/ 513؛ الذهبي، السير، 10/ 616 ـ 617].

وقد اجتمعت كلمة المحدثين على التنويه بالمكانة العلمية للحُميدي. وهذه عينات من شهاداتهم: قال أحمد بن حنبل: الحميدي عندنا إمام جليل. وقال أبو حاتم: «أثبت الناس في ابن عيينة الحميدي، وروى عن الربيع قال: سمعت الشافعي يقول: ما رأيت صاحب بلغم أحفظ من الحميدي، كان يحفظ لابن عيينة عشرة آلاف حديث. وقال ابن حبان: جالس الحميدي ابن عيينة عشرين سنة. وقال محمد بن إسحاق المروزي: سمعت اسحاق بن راهويه يقول: الأئمة في زماننا الشافعي والحميدي وأبو عبيد. وقال يعقوب ابن سفيان: حدثنا الحميدي وما لقيت أنصحَ للإسلام وأهله منه. وقال الحاكم أبو عبد الله: الحميدي مفتي أهل مكة ومحدثهم وهو لأهل الحجاز في السنة كأحمد بن حنبل لأهل العراق. وقال السراج: سمعت إلى إسماعيل يقول: الحميدي إمام في الحديث» [السبكي، طبقات الشافعية، 2/ 140].

وقال عبد الرحمٰن بن أبي حاتم: حدثنا محمد ابن عبد الرحمٰن الهروي قال: قدمت مكة سنة ثمان وتسعين ومات في أولها سفيان بن عيينة قبل قدومنا بسبعة أشهر، فسألت عن أجلّ أصحاب ابن عيينة فذكر لي الحميدي فكتبت. حدثت ابن عيينة عنه. وروى يعقوب الفسوي (ابن سفيان المتقدم) عن الحميدي قال: كنت بمصر وكان لسعيد بن منصور حلقة في مسجد مصر ويجتمع إليه أهل خراسان وأهل العراق فجلست إليهم فذكروا شيخنا لسفيان فقالوا: كم يكون حديثه؟ فقلت كذا وكذا، فسبّح سعيد بن منصور وأنكر ذلك وأنكر ابن ديسم، وكان إنكار ابن ديسم أشد علي فأقبلت على سعيد فقلت: كم تحفظ عن سفيان عنه؟ فذكر نحو النصف مما قلت. وأقبلت على ابن ديسم، فقلت: كم تحفظ عن سفيان عنه؟ فذكر زيادة على ما قاله سعيد نحو الثلثين مما قلت أنا. فقلت لسعيد: تحفظ ما كتبت عن سفيان عنه؟ فقال: نعم. قلت: فعدّ، وقلت لابن ديسم: فعدّ ما كتبت قال: فإذا سعيد يغرب عن ابن ديسم بأحاديث وابن ديسم يغرب على سعيد في أحاديث كثيرة، فإذا قد ذهب عليهما أحاديث يسيرة فذكرت ما ذهب عليهما، فرأيت الحياء والخجل في وجوههما [الذهبي، م. س، 10/ 618؛ المزي، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، 14/ 514 ـ 515].

ورُوِيَ عن علي بن خلف قال: سمعت الحميدي يقول: ما دمت بالحجاز وأحمد بن حنبل بالعراق وإسحاق بخراسان لا يغلبنا أحد. وقال عنه البخاري: الحميدي إمام في الحديث، فكان إذا وجد الحديث عنه لا يحوجه إلى غيره من الثقة به، وقد روى عنه البخاري خمسة وسبعين حديثا [المزي، م. س، 5/ 215].

ويكفي في شرف الحُميدي وعلوّ منزلته في الحديث أنه كان رفيقا للإمام الشافعي في سماع الحديث عن ابن عيينة، وشيخا للإمام البخاري في الحديث. ذكر ابن حجر أن الحميدي من شيوخ البخاري في الفقه والحديث [تهذيب التهذيب، 5/ 215 ـ 216]. ومما يعاب عن الحميدي أنه كان كثير الغضب، فكان لا يملك نفسه إذا انفعل فيرد على مخالفه بفاحش القول. ذكر السّبكي أنه تنازع ابن عبد الحكم والبويطي في مجلس الشافعيّ فقال البويطي: أنا أحق به منك وقال الآخر كذلك، فجاء الحميدي وكان تلك الأيام بمصر فقال: قال الشافعي: ليس أحد أحق بمجلسي من يوسف البويطي وليس أحد من أصحابي أعلم منه. فقال ابن عبد الحكم: كذبت فقال له الحميدي: كذبت أنت وأبوك وأمك [طبقات الشافعية، 2/ 121؛ حبيب الرحمٰن الأعظمي، مقدمة مسند الحميدي، ص 7].

وروى أحمد بن حنبل عن بشر الأفوه الذي أنكر حديث «ناضرة إلى ربها ناظرة» بقوله: ما أدري ما هذا؟ فوثب عليه أهل مكة والحميدي معهم فأسمعوه فاعتذر، فلم يقبل منه. وقال الدارقطني: وجدوا عليه في المذهب فحلف واعتذر إلى الحميدي فلم يقبل منه بل كان يقول: إنه جهمي لا يحلّ أن يكتب عنه وكان بشر ينكر ما نسب إليه بقوله: معاذ الله أن أكون جهميّا [مقدمة مسند الحميدي، ص 7 ـ 8].

آثاره

ذكر حبيب الرحمٰن الأعظمي في مقدمة مسند الحميدي عن تصانيفه المنسوبة إليه قال: ذكر ابن أبي حاتم أنّ محمد بن عميرة أبا بكر الطبري روى عن عبد الله بن الزبير الحميدي كتاب:

1 ـ الرد على النعمان؛ 2 ـ كتاب التفسير عن الحميدي؛ 3 ـ المسند، رواه عنه أبو اسماعيل السلمي المتوفي سنة 280هـ [م. س، ص 8].

وقام الأعظمي بتحقيق هذا المسند من نسخ أربع عثر على الأولى في مكتبة دار العلوم بديوبند الهند وكتبت هذه سنة 1324هـ. ووجد الثانية بالمكتبة السعيدية بحيدرآباد وكتبت سنة 1311هـ. ووجد النسخة الثالثة بمكتبة الجامعة العثمانية وهي أقدم من النسختين السابقتين لأنها كتبت قبل سنة 1159هـ. وعثر على النسخة الرابعة وهي مصورة بدار الكتاب الظاهرية بدمشق.

والكتاب موضوع على مسانيد الصحابة وهو غير مبوب على أبواب الفقه مما ألجأ المحقق إلى إلحاق النص بفهرس مرتب على أبواب الفقه، وعن أهم المواضيع الفقهية التي أورد فيها الحميدي رواياته الحديثية [المقدمة، ص 2 ـ 4].

المصادر والمراجع

● الحميدي، عبد الله بن الزبير، المسند، تح. حبيب الأعظمي، دار الكتب العلمية بيروت، ط 1، 1409هـ/ 1988م، 1/ 1 ـ 9؛ ● السمعاني، عبد الكريم، الأنساب، تح. عبد الله عمر البارودي، دار الجنان بيروت ط 1، 2/ 268 ـ 269؛ ● المزي، أبو الحجاج يوسف، تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تح. بشار عواد، مؤسسة الرسالة بيروت ط 2، 1413هـ/ 1992م، م 14، ص 512 ـ 515؛ ● الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تح. الأرنؤوط محمد، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1402هـ/ 1982م، 10/ 616 ـ 621؛ ● السبكي، عبد الوهاب، طبقات الشافعية، تح. عبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى الحلبي ط 1، 1383هـ/ 1964م، 2/ 140 ـ 141؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت 5/ 54؛ ● الزركلي .الأعلام، ط 14، دار العلم للملايين، بيروت 1999، 4/ 87.

د. حراث بوعلاقي
مركز الدراسات الإسلامية ـ القيروان ـ تونس

الحُمَيْدِي، محمد بن فتوح بن عبد الله الأزْدِي

(420هـ/1029م - 488هـ/1095م)

محمد بن فَتُّوحِ بنِ عبدِ الله الأزدِي المعروفُ بالحافظ الحُميدي، مؤرخ أديب، وفقيه محدث. كان ظاهريَّ المذهب، منقطعًا للعلم زاهدًا.

ولد بِمَيُورْقَة، وهي جزيرة قريبة من بَرِّ الأندلس. تلقَّى العلم بالأندلس، فسمع أولَ أمره، من الفقيه أبي القاسم أَصْبَغ، كما روى عن ابن أبي زيد القيرواني «رسالتَه» و«مختصرَ المدونة» وسمع من الحافظ ابنِ عبدِ البَرِّ. غير أن أبرز أساتذته بالأندلس هو ابنُ حزم؛ «لازَمه، وقرأ عليه مصنفاته، وأكثرَ من الأخذ عنه، وشُهِر بصحبته» [نفح الطيب 2/ 113]، وعنه أخذ المذهب الظاهري. وشرع في التأليف، ثم رحل إلى المشرق العربي سنة 448هـ/ 1056م، فزار مصر ومكة، ودمشق، وأقام مُدةً بواسط قبلَ أن يستقر في بغداد بقية حياته. لقي في رحلته هذه كثيرًا من العلماء أخذ عنهم وأخذوا عنه، منهم الضَّرَّاب القضاعي، والحافظُ أبو بكر الخطيب البغدادي، وأبو نصر بن ماكُولا. وقد أجملَ المَقَّري وصفَ الحُميدي عند مترجميه بقوله: «وكان ورِعًا ثِقةً، إمامًا في علم الأدب والعربية» [نفح الطيب 2/ 113].

آثاره

خلَّف الحُميدي كُتبًا عديدة متنوعة الموضوعات، يجمع بينها الاهتمامُ بالرواية والتوثيق. منها ما هو معروفٌ اليوم، ومنها ما ذكرته كتبُ التاريخ وما زال في حكم المفقود. والمطبوع منها، فيما نعلم، ثلاثة كتب: «جذوة المقتبس»، و«تفسير غريب ما في الصحيحين؛ البخاري ومسلم»، و«تسهيلُ السبيل إلى تعلُّم التَّرسيل». وهي كافية في رسم شخصية هذا العالم في منحاها التأريخي، واللغوي، والبلاغي.

1 - «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس وأسماء رواة الحديث وأهل الفقه والأدب وذوي النباهة والشعر» (مراجعة وتصدير محمد بن تاويت الطنجي، ط. مكتبة الخانجي، القاهرة، 1372هـ).

كتاب تراجم ألَّفه الحُميدي أثناء إقامته بالعراق سعيًا منه لتعريف أهل المشرق بأعلام الغرب الإسلامي. وقد جاءت تراجمه متفاوتةً بسبب قلة ما توفر للمؤلف من مصادر الأخبار بعيدًا عن الأندلس، من جهة، وبسبب رغبته في استقصاء الأعلام في ميادين متعددة متباعدة، من جهة أخرى. بل سجل الدارسون أخطاءً وسوءَ تقدير [خورشيد، ودوزي، في موجز دائرة المعارف]. وقد أدركَ المؤلف نفسُه الأثر المحتمل للصعوبات التي كانت تحف به فاعتذر، في مقدمته، عما يعتور الكتاب من اختلال ونقص.

ومع ذلك فإن كتاب الجذوة يتميز بقدرٍ كبير

من الأصالة، فقد نقلَ عن مصادر صارت مفقودة، وسجَّل معرفةَ المؤلف المباشرة برجال عصره. وهو معتدل في مضمون نقوله وتحليلاته. يهتم الحميدي، كعادةِ المحدِّثين، بمسار انتقال المعرفة من الشيوخ إلى التلاميذ، أي بمسار الرواية دون الدخول في التحليل أو التأويل. وقد صَار مَرجعًا أساسيًا لمؤرِّخي الأندلسِ بعده.

ويخالط عملَ الحميدي في التراجم اهتمامٌ بالأدب واللغة؛ «يعنى بنقل النادرة الأدبية والبحث اللغوي والبيت أو الأبيات من الشعر» [م. ابن تاويت، م.س]؛ 2 ـ «تسهيل السبيل إلى تعلُّم الترسيل، ط. معهد العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت، سلسلة عيون التراث، المجلد 8 (مصورة عن مخطوطة أحمد الثالث 2351 اسطانبول 1405). يشُكُّ ابن تاويت في انتماء أُسلوبه إلى الحميدي [م.س].

يتكون «التسهيل» من مقدمة في مفهوم البلاغة والبيان والفصاحة وما يتصل بها من «صفات الظرف والعلم والأدب»، وأدوات الكتابة. تليها ثمانية أبواب تدور حول أنواع الخطابات المناسبة للمقامات المختلفة، من خلال أمثلة متعددة: من «الأدعية» إلى «أحوال السرور» إلى «اللقاءات» و«تسلية المحزون»، وصولا إلى «أسباب الوداد ونتائج حسن الاعتقاد»، و«مفردات التعزية» و«مفردات نوادر المخاطبات».

يرى الحميدي أن عمله يقدم «فصولا تكوِّنُ قوانين لمن أراد تحسينَ لفظه، وتقويم لسانه، ومداراةَ أهل زمانه، بحسن التلقي لهم، وجميل التحفي بهم، فيقوى بذلك لسانه إن خاطب، ويتسع فكره إن كاتب» [المقدمة].

يعتبر هذا الكتاب مساهمة حقيقية في تاريخ أدب الكِتابة. قال سيزكين في تقديمه: «... هو من النوادر الهامة التي تأخذ مكانًا خاصًا من مراحل تطور هذا الميدان». فقد جاء بعد «عمدة الكاتب» لأبي جعفر أحمد بن إسماعيل النحاس (ت 338هـ/ 950م)، و«موارد البيان» لأبي الحسن علي بن خلف (كان حيًا في النصف الأول من القرن الخامس)؛ 3 ـ تفسير غريب ما في الصحيحين؛ البخاري ومسلم، تح. زبيدة محمد، مكتبة السنة، القاهرة، 1995.

ألف الحميدي تفسير غريب ما في الصحيحين بعد الفراغ من «الجمع بين الصحيحين» مساعدةً للقارئ، فلا يتوقفُ المستفيدُ له من مُطالعته، ولا ينقطعُ بالتفتيش لما أشكلَ عليه في دراسته [المقدمة]. فهو معجم خاصٌ بذلك المتن.

ويتراوح الشرح بين ثلاثة مستويات: 1) إيراد معنى واحد حقيقي أو مجازي للكلمة، مثل: أ ـ العيْلةُ: الفقر والحاجة، ب ـ والزَّيْغُ: الميل عن أمر الله». 2) إيراد المعنيين معًا: «الوَجه: معروف، والوجه، أيضًا: الجاهُ». [ص 35]. 3) اعتمادُ المجال التداولي للكلام في تفسير الغريب، مثل: «ولا صَفَرَ: يُقال: كانت العربُ ترى أن في البطنِ حيةً تصيبُ الإنسانَ إذا جاع وتُؤذيه، وذلك مذكورٌ في أشعارهم، وقيل معنى ذلك تأخيرُهم تحريمَ المحرَّم إلى صَفَرَ، وفي «المُجملِ»: إن «الصَّفَر» دابةٌ في البطنِ تصيب الماشية والناس، يقالُ، منها: رجلٌ مَصفورٌ» [ص 304]؛ 4 ـ الجمع بين الصحيحين،

أي بين صحيح البخاري وصحيح مسلم. اقتصرَ فيه، كما قال في مقدمة "تفسير غريب ما في الصحيحين" [ص 23]، "على مُتونِ الأخبارِ بالحفظِ والتذكار". منه نسخ مخطوطة في برلين، والقاهرة، ودمشق، والموصل وغيرها [محمد بن تاويت، م. س]؛ 5 ـ الذهب المسبوك في وعظ الملوك. نصائح ومواعظ للملوك والولاة يرويها الحميدي عن شيوخه. ذكر ابنُ تاويتُ أن منه نسختين في دار الكتب المصرية؛ إحداهما في مكتبة تيمور برقم 280 مجاميع [م. س، ص 9]؛ 6 ـ بُلْغةُ المستعجِل في معرفة جُملٍ من التاريخ. قال ابن تاويت: منه نسخة قيمة في مكتبة جامعة أنقرة يبتدئ بالسيرة النبوية وينتهي بسنة 487هـ في خلافة المستظهر [م. س]؛ 7 ـ التذكرة، مختارات في الأخلاق والآداب كتبها بمصر. منها نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية، ضمن مجموع 1558 مصطلح الحديث [م، س]؛ 8 ـ منظومة دالية في الرد على من عاب الحديث وأهله، مخ. مكتبة غوطة تحت رقم 613/ 2 [م.س].

ومن المؤلفات التي نسبتها إليه كُتب التراجم والفهارس مما لم يكشف عنه فيما نعلم:

1 ـ من ادعى الأمان من أهل الإيمان؛ 2 ـ الأماني الصادقة؛ 3 ـ مخاطبة الأصدقاء في المكاتبات واللقاء؛ 4 ـ ما جاء من النصوص والأخبار في حفظ الجار؛ 5 ـ أدب الأصدقاء؛ 6 ـ ذم النميمة؛ 7 ـ تحفة المشتاق في ذكر صوفية العراق؛ 8 ـ المؤتلف والمختلف؛ 9 ـ وفيات الشيوخ؛ 10 ـ المتشاكه في أسماء الفواكه؛ 11 ـ نوادر الأطباء.

وذكر ابن شاكر له ديوانَ شعر، وقال الذهبي في سير النبلاء أن له شعرًا [ابن تاويت، م. س. عن: معجم الأباء، سير النبلاء، التذكرة، عيون التواريخ، فهرست ابن خير].

المصادر والمراجع

● المقَّري، أحمد بن محمد، نفح الطيب، تح. إحسان عباس، دار صادر، 1968، 2/ 112 ـ 115، 4/ 337 ـ 338؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح. إحسان عباس، دار صادر بيروت 1972، 4/ 282 ـ 284، ومواضع أخرى؛ ● ابن عميرة، بغية الملتمس، في تاريخ رجال أهل الأندلس، دار الكتاب، القاهرة، 1967، رقم 257؛ ● ابن سعيد، المغرب في حلي المغرب، تح. شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، 1978، 2/ 467 ـ 468؛ ● السيوطي، طبقات الحفاظ، ط. مكتبة الثقافة، بور سعيد، 1996، رقم 1008، ص 486؛ ● طاش كبري زاده، مفتاح السعادة، دار المعرفة العلمية، بيروت، 1985؛ ● رحاب، خضر عكاوي، "الحميدي" في موسوعة عباقرة الإسلام، دار الفكر، بيروت، ص 151 ـ 153؛ ● الطنجي، محمد بن تاويت، تصدير جذوة المقتبس، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1372؛ ● موجز دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة، ط 1998، 14/ 4345؛ ● الزركلي، الأعلام، ط3، 7/ 218 ـ 219؛ ● ابن بشكوال، الصلة، رقم 1114؛ ● سير النبلاء مخ. مجلد 15؛ ● ابن خليفة،

فهرسة، 226، 385؛ ● الذهبي، تذكرة الحفاظ، حيدر آباد، 4/ 17؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة؛ ● ابن الأثير، الكامل؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب؛ ● ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج11، الورقة 25أ؛ ● دائرة المعارف الإسلامية.

د. محمد العمري
جامعة فاس ـ المغرب

ابن الحميّر، توبة

(ت 85هـ/704م)

انعقد إجماع القدماء على اسمه واسم أبيه: توبة بن الحميّر، واختلفوا في أسماء أجداده؛ فقيل: الحمير بن ربيعة أو «حزم» أو «حزن». بيد أن الذي لاخلاف فيه أنه من «خفاجة»، وهم بطن من بني عقيل بن كعب من قيس عيلان العدنانيين. كنيته «أبو حرب»، واسم أمه «عامرة» أو «زبيدة» بنت والبة بن الحارث.

كان من مخضرمي العهدين الراشدي والأموي، واشتهر في الأخير. سيرته ليست واضحة كثيرًا سوى ما يستفاد من أقوال صاحبته «ليلى الأخيلية»، التي شهرت به وشهر بها وكانت العلاقة بينهما عذرية عفيفة، ومن بعض الروايات. هو في مراثي ليلى فتىً سخي كريم شجاع «سبط البنان، حديد اللسان، شجي الأقران، كريم المخبر، عفيف المئزر، جميل المنظر»، وإن اعترفت بأنه «كان فتىً له جاهلية»، وأنه كان فاجرًا. تقول:

فنعمَ فتى الدنيا وإن كان «فاجرًا»
وفوق الفتى إن كان ليس بفاجر

أما هو، فيقول:

وقد زعمت لي بأنني فاجر
لنفسي تُقاها أو عليها فجورها

أما الرواة، فوصفوه بالشرير، وأنه يغير على بني الحارث بن كعب وخثعم وهمدان، وعلى قضاعة وجوارها في عهد معاوية؛ وأنه كان لصًا «خاربًا» (الخارب: سارق الإبل خاصة). وعن هذا سأل كل من معاوية بن أبي سفيان، ومروان بن الحكم ليلى، فأجابت: «والله ما كان خاربًا، ولا للموت هائبًا، ولكنه كان فتى له جاهلية. ولو طال عمره، وأنساه الموت لارعوى قلبه، ولقضى في حب الله نحبه، وأقصر عن لهوه».

أهم ما في سيرته حبه ليلى الأخيلية بعد أن رآها وهو عائد من الغزو إذ كانت في النساء اللائي خرجن لاستقبال القادمين، فعلقها وتولّه بها ولهًا شديدًا، وكذلك هي؛ فجعل يزورها، وينظم فيها الشعر. ثم خطبها إلى أبيها فأبى أن يزوّجه إياها، وزوّجها رجلًا من بني الأذلع. وعلى الرغم من هذا ظل يزورها،

فعاتبه بعض أهلها وقومها على ذلك فلم يعتب، وشكوه إلى قومه فلم يرعوِ، فرفعوا أمره إلى السلطان، فأهدر دمه إن جاءهم.

يقال إن زوج ليلى كان غيورًا ينأى بها عن الناس، فحلف لئن لم تعلمه بمجيء توبة ليقتلنها، ولئن أنذرته ليقتلنها أيضًا. لهذا خرجت إلى لقاء توبة «سافرة» مرة بعد أن كان يلقاها «مبرقعة». فلما رآها أدرك أنها لم تفعل هذا إلا لأمر مهم، وأنه قد رصد، فنكص حالًا ونجا، وقال:

وكنت إذا ما زرتُ ليلى تبرقعتْ
فقد رابَني منها الغداةَ سفورها !

ليس ثمة من أخبار عنه بعد زواج ليلى، وإن يستشف من قولها الآتي جوابًا عن سؤال للحجاج بن يوسف، أنه تزوج:

وذي حاجة قلنا له: لا تبُحْ بها
فليس إليها، ما حييتُ، سبيل

لنا صاحبٌ لا ينبغي أن نخونَه
وأنتَ لأخرى فارغٌ وحَليل

وقد ألف الزبير بن بكار في عشقهما كتاب «أخبار ليلى وتوبة».

ومن المهم في سيرته، كذلك، مقتله بيد نفر من بني عوف بن عامر، وهم من بني عقيل كما «خفاجة» أيضا، نتيجة لما كان بينهم من نزاع ولحاء. ولمقتله قصة طويلة مفصلة عُني الرواة بها كثيرًا واختلفوا فيها وفي تاريخ حدوثها. فمن قائل إنها كانت عام 70 أو 71 أو 73 أو 75هـ. أما المعاصرون، فجعلها عبد العزيز الميمني عام 70، وجعلها لويس شيخو وبروكلمان وخير الدين الزركلي عام 85هـ. أما المستشرق الإيطالي كارلو نالينو فخالف القدماء والمعاصرين جميعًا، ولم يحدد سنة بعينها، بل ذهب إلى أنها كانت في خلافة معاوية مما حمل محقق ديوانه على أنه يجتهد ويرجح أنها كانت عام 55هـ اعتمادًا على رواية صاحب الأغاني «ثم إن بني عامر بن صعصعة صاروا في أمرهم إلى مروان بن الحكم - وهو والي المدينة لمعاوية بن أبي سفيان - فقالوا: ننشدك الله أن تفرق جماعتنا، فعقل توبة وعقل الآخرين معاقل العرب مائة من الإبل، فأدتهما بنو عامر».

آثاره

لتوبة ديوان شعر مطبوع، لكن المحقق يرى «أن الذي بين أيدينا من شعره لا يمكن أن يكون كل ما قال، فلا بد أن يكون قد ضاع منه ما ضاع» ربما لأن جمعه تأخر إلى القرن الرابع الهجري، أو لاختلاط بعضه بشعر العذريين، من مثل: ابن الدمينة، ومجنون ليلى، ومجنون لبنى، وجميل بثينة.

النصوص الخمسة التي يضمها ديوانه الأصل غزلية كلها في معشوقته ليلى. وهو يبدو في بعضها (الحائية) طويل النفس، وكلها تتحدث عن حبه الشديد لها إلى هذا الحد:

ولو أن ليلى الأخيلية سلمت
عليّ ودوني جندل وصفائحُ

لسلّمت تسليم البشاشة أو زقا
إليها صدًى من جانب القبر صائحُ

كما تحدثت عن معاناته من هواها، وعن معاناتهما معًا من أهلها وقومها والوشاة

والكاشحين بمرارة وأسىً وعاطفة جياشة، وبأسلوب تقريري يقلّ فيه التصوير، وبلغة تجمع بين البساطة والجزالة لا سيما في النص الرابع الذي مطلعه:

رماني وليلى الأخيلية قومُها
بأشياءَ لم تُخلق ولم أدرِ ماهيا

وهذا النص هو ثاني النصوص طولًا.

أما ليلى، فظلت وفيّة له، ونافحت عنه كثيرًا بعد موته، ورثته في ديوان كامل بشعر يجمع بين الرثاء والغزل بحيث يصدق عليه ما يعرف حديثًا «المرثاة الغزلية».

المصادر والمراجع

● الآمدي، المؤتلف والمختلف، تح. عبد السّتار فرّاج، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1961، ص 91؛ ● الأصفهاني، أبو الفرج، الأغاني، مصورة دار الكتب المصرية، 11/ 204 ـ 250؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر. عبد الحليم النّجار، دار المعارف، القاهرة (د.ت)، 1/ 234 ـ 235؛ ● ابن الحميّر، توبة، ديوان توبة بن الحميّر، تح. خليل إبراهيم العطّية، دار صادر، بيروت 1998؛ ● الحصري القيرواني، زهر الآداب، نشرة زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، الطبعة الرابعة 1972، ص 998 ـ 1010؛ ● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة 1980، 2/ 89 ـ 90؛ ● الميمني، عبد العزيز، سمط اللآلي، للبكري هامش 2، 1/ 120، دار الحديث للطباعة، بيروت، ط 2، 1984؛ ● بابتي، عزيزة، معجم الشعراء المخضرمين والأمويين، دار صادر، بيروت 1998، ص 70 ـ 72؛ ● ابن قتيبة الدينوري، الشعر والشعراء، تح. أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة 1966، ص 445 ـ 447؛ ● الأخيليّة، ليلى، ديوان ليلى الأخيلية، تح. واضح الصمد، دار صادر، بيروت 1998م؛ ● نالينو، كارل، تاريخ الآداب العربية، دار المعارف، القاهرة 1970، ص 137.

د. يوسف بكار
جامعة اليرموك ـ اربد ـ الأردن

الحميري، أبو سعيد نشوان بن سعيد

(ت 573هـ/1178م)

هو أبو سعيد نشوان بن سعيد الحميري، ينتهي نسبه إلى ذي مراثد أحد ملوك اليمن؛ وإلى الملكة بلقيس، فهو من بيت عريق في الملك والعلم. والظاهر أنه ولد في «حُوث» شمال صنعاء بدليل قوله:

بشاطئ حوث من ديار بني حرب
لقلبي أشجانٌ معذِّبة قلبي.

لكن المصادر لم تورد تاريخ ولادته، على أن أحد الباحثين افترضو أنها كانت عام 500هـ. ويمكن تقسيم حياته إلى ثلاث مراحل:

الأولى: اتسمت بطلب العلم وتحصيل المعارف والسعي إلى تكوين نفسه علميًا، فحفظ القرآن ودرس علومه والفقه وأصوله، وألمّ بعلوم اللغة العربية، حتى برز في النحو والصرف وعلم التاريخ والأنساب والفلسفة والملل والنحل المختلفة. وبالجملة فقد أصبح نشوان دائرة معارف إسلامية تتناسب مع معارف عصره، ومن كبار الزيدية الذين يقدمون أقوال الإمام الهادي يحيى بن الحسين (ت 298هـ) على سائر فقهاء الإسلام [معجم الأدباء، 19/ 218؛ بغية الوعاة، ص 403]. وعلى الرغم من أن المؤرخين لم يفصحوا عن شيوخه، إلا أنهم يقولون: «إنه أخذ من علماء عصره المبرزين» الذين كانت تعجّ بهم اليمن، علاوة على تأثره بآراء القاسم البلخي (ت 319هـ) ومدرسة بغداد الاعتزالية، وأبي الحسين الهمداني (ت 336هـ) ومطرف بن شهاب، ومسلم اللحجي (ت 554هـ)، وفي هذا الدور بلغ نشوان قمة التحصيل العلمي حتى تمكن من الدخول في مجادلات ومناظرات مع علماء عصره الذي كان يضم شتى المذاهب مثل المطرفية، والجارودية، والإسماعيلية، والخوارج. وكان لنشوان قصب السبق في تلك المناظرات وإن كان يؤخذ عليه تعصبه للقحطانية وافتخاره بها على العدنانية، وأنه سليل ملوك حمير، وتبابعة قحطان، يقول:

نسبٌ كأنَّ عليه منْ شمس الضحى
نورًا ومن فلق الصباح عمودًا

[عمارة، المفيد، ص 298]

الثانية: اتسمت بالجهاد والكفاح، إذ بدأ فيها نشوان الدعوة إلى مذهبه الزيدي، ومحاولة تطبيق ما اعتقد أنه صواب من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونشر الأصول الخمسة، وإقامة دولة زيدية تتبنى أفكار العدالة الاجتماعية والشورى، يقول:

مذهبي التوحيدُ والعدلُ الذي
هو في الأرض الطريق البيِّن

وقد عاصر نشوان ثلاثة من حكام اليمن، يمثل كل منهم تيارًا فكريًا متميزًا، وكل منهم له منطلقاته النظرية، وإن كانوا جميعا يحتمون بعباءة الإسلام، وهم:

أ ـ علي بن مهدي الحميري:

حنفي في الفروع، خارجي في الأصول، كان رجلًا صالحا، ذهب إلى الحج، فالتقى علماء العراق، فتضلع في معارفهم، ثم عاد إلى اليمن فاعتزل وانحاز إلى طريق الصوفية، وفي عام (545هـ) بايعه عدد كبير من الأنصار واستطاع أن يستولي على "زبيد" وقد استنجد أهلها بالإمام أحمد بن سليمان صاحب صعدة فلم ينجدهم، وتم لعلي بن المهدي الاستيلاء عليها وحكمها وتوفي عام (554هـ) [عمارة، المفيد، 229؛ بهجة الزمن، ص 72 ـ 76].

ب ـ السلطان حاتم بن عمران اليامي:

بايعته همدان بالإمامة، واستطاع أن يدخل صنعاء عام (533هـ) ووقعت بينه وبين الإمام أحمد بن سليمان معارك طويلة، ويعد حاتم وأسرته ممثلين للتيار الإسماعيلي الفاطمي الذي أسس دولة في اليمن. توفي سنة 556هـ [الهمداني، الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن].

ج ـ الإمام أحمد بن سليمان:

وهو أحد الأئمة الزيدية، وقد وجد فيه نشوان ضالته المنشودة، فتعاون معه على القيام بأمر الإمامة، وناصره مناصرة قوية، ووقف يعضده بقصائده الملتهبة وسيفه البتار.

وفي هذه المرحلة هاجم نشوان الأشراف القاسميين الذين كانوا يدّعون أن الحسين بن القاسم العياني (ت 404هـ) حي لم يقتل وأنه المهدي المنتظر، ودخل معهم في مناظرات عنيفة وصلت إلى التشكيك في الأنساب، قال عبد الله بن القاسم يشتم نشوان:

أما الصَّحيح فإن أصلَك فاسدٌ
وجزاك منَّا ذابلٌ ومهنَّد

فرد نشوان مدافعا عن نفسه:

من أين يأتيني الفسادُ وليس لي
نسبٌ خبيث في الأعاجم يوجد

لا في علوج الروم جدٌّ أزرق
أبدًا ولا في السود خال أسود

وقد كان هجوم نشوان على «القاسميين» الذين كانوا يعارضون إمامة أحمد بن سليمان، تعضيدا لموقف الأخير، وفي الوقت نفسه توهينًا لموقف القاسميين. ولكن المودة والصفاء لم تدوما بين الصديقين، فوقعت بينهما خلافات عقدية وسياسية لا سيما فيما يتعلق بقضية الإمامة، إذ إن الإمام أحمد ـ ومعه الزيدية ـ يحصران الإمامة في أولاد الحسن والحسين، ويتعالى بنسبه على أهل اليمن، ووصل به الأمر أن أفتى بعدم زواج الفاطميات من غير الفاطميين [شايف، الإمام الهادي، ص 261].

ويرى نشوان أن الإمامة يجب أن تكون لأكرم الخلق من المسلمين، على أن تتوافر فيه شروط، العلم، والعفة، والشجاعة، والإقدام، والنبل، والعدل، فمن كان أتقى الناس، وأكرمهم عند الله وأعلمهم بطاعته، كان أولاهم بالإمامة، والقيام في خلقه كائنا من كان منهم، عربيا كان أو أعجميا [الحور العين، ص 204]، مع استبعاد شرط القرشية، وهذا ما ذهب إليه غيلان الدمشقي (ت 105هـ)، وجهم بن صفوان (ت 128هـ) وبعض المعتزلة، وجميع الخوارج.

وقد اتخذ نشوان من شعره وسيلة لنشر مذهبه،

فيقول مثلا:

إن أولى الناس بالأمر الذي
هو أتقى الناس والمؤتمنْ

كائنا من كان لا يجهل ما
ورد الفرضُ به والسُّنن

أبيضُ الجلدة أو أسودها
أنفُه مخرومة والأذنْ

ولم يتوقف نشوان عند هذا الحد، بل هاجم بعض المقلدين الجامدين من الزيدية، الذين يتوقفون عند نصوص آل البيت، مع إغفال النظر إلى التراث الإسلامي، يقول:

إذا جادلتُ بالقرآن خصْمي
أجابَ مجادلاً بكلام يحيَى

فقلت كلامُ ربك عنه وحيٌ
أتجعلُ قول يحيى عنه وحيًا

[عمارة، المفيد، ص 299]

وأدى هذا الخلاف بين نشوان والإمام أحمد، إلى اتساع الهوة بينهما، وقد جرت بينهما مناظرات حامية، وخصومات علمية، وهذا ما دفع نشوان إلى أن يطلب الإمارة لنفسه، ويضيف إلى مجده العلمي مجدًا ملوكيا، لا سيما ومقوماتها متوافرة فيه، فهو الأمير الشجاع، سليل الملوك.

فبدأ يتنقل في البلاد، يطلب العون من الأمراء، حتى وصل إلى شرق اليمن فنصبه أهل بيحان ملكًا عليهم [عمارة، المفيد، ص 303]، ولكن لم يدم له الملك طويلا فعاد ثانية يحتمي بحصن العلم والقراءة والاطلاع.

المرحلة الثالثة: في هذا الدور يعود نشوان إلى نفسه، ويزهد في الملك والإمارة، ويجد ذاته في العلم والزهد، والعكوف على العبادة، فيعفو عمن ظلمه، ويتصالح مع الإمام أحمد بن سليمان، ويسجل ذلك بقوله: كنت أتعقب النقائض بيني وبين الأشراف الهاشميين، وذلك قبل بلوغ المآرب، فأما اليوم وقد رددت على الأشد، وأتاني نذير الشيب، فتحليت بحلية الوقار... ثم يضيف: اللهم إني إليك تائب، ومن لم يتب من عبادك فهو خائب [الحور العين، ص 48].

وكان نشوان خطيبا مفوها، وشاعرًا فحلًا، وفقيهًا نبيلًا، وعالما متفننا، عارفا بالنحو والأصول والفروع، يدين بمنطق العقل، ويعد أحد العباقرة الذين ينشدون الحقيقة. وقد صار له فرقة تسمى النشوانية نادت بمذهبه في الإمامة.

ويرى بعض الباحثين أنه يعد أول من دعا إلى النظام الجمهوري بسبب رأيه في الإمامة. [الشامي، تاريخ الفكر، ص 243]، لكن الحقيقة أن الخوارج كانوا أسبق إلى ذلك.

وتجمع المصادر على أن نشوان الحميري توفي عام 573هـ/ 1178م، ودفن في حميدان بصعده، وقبره معروف يزار إلى اليوم.

آثاره

نبغ الأمير نشوان الحميري في علوم كثيرة، وترك مؤلفات عظيمة، تتناول أغلب المعارف الإسلامية وهي:

1 ـ شمس العلوم، معجم لغوي رتبه على حروف المعجم، وجعل لكل حرف من حروف المعجم كتابًا، ثم جعل له ولكل

حرف معه بابًا، ثم جعل لكل باب من تلك الأبواب شطرين، أحدهما للأسماء، والآخر للأفعال، مقدمًا الأصلي على المزيد مبتدئًا في أول كتاب بالمضاعف، جاعلًا لكل كلمة من الأسماء والأفعال وزنًا ومثالًا، مرتبًا الكلمات في كل وزن، ومشيرًا إلى حرفها الأخير... فهو معجم يمتاز عن غيره من المعاجم اللغوية بترتيبه وبأنه يتضمن فوائد علمية وطبية، وفقهية وتاريخية وجغرافية، كما يتكلم على النجوم وأحكامها، والعروض وأوزانه، وكثيرًا ما يستشهد بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويتعرض للقراءات وأوجهها الإعرابية. فالكتاب معجم لغة وعلم على نحو دوائر المعارف العصرية.

يقول نشوان واصفا كتابه: وقد أودعت كتابي هذا ما سنح من ذكر ملوك العرب، أهل الرياسة والحسب... وما عرض ذكره من منافع الأشجار، وطبائع الأحجار، وضمنته من علم القرآن، والتفسير أيسر اليسير، وأودعته ما وافق من الأخبار والأنساب، وعرض من علم الحساب، وضمنته ما عنّ من أصول الأحكام، والحلال والحرام، وأسندت ما رويت إلى أهل الفضل والعلم والإيمان، من أخبار الصحابة والذين اتبعوهم بإحسان، وأودعته ما لا بد من تفسيره من علم النجوم... [شمس العلوم، ص 36 ـ 37].

وهو في مجلدين، نشر القاضي عبد الكريم الجرافي من أول الكتاب حتى نهاية كتاب الشين [ص 452]، ط. البابي الحلبي، القاهرة، د.ت. ثم أعيد طبع المجلدين كما هما في عالم الكتب ببيروت د.ت. ونشره المستشرق تستر شتين zettersteen من أول الكتاب إلى آخر كتاب الجيم، ليدن، 1953. واقتطف منه عظيم أحمد، منتخبات في أخبار اليمن، ليدن، 1916. ثم نشرت وزارة الثقافة باليمن هذه المنتخبات في ط2، صنعاء، 1981. وأخيرًا قام مجموعة من الباحثين اليمنيين هم: حسين العمري، مطهر الإرياني، يوسف عبد الله، بتحقيق الكتاب كاملًا تحقيقا علميا ممتازا ونشر في 12 مجلدا، دار الفكر دمشق 1999. واختصره ابنه محمد باسم «ضياء العلوم»، مخطوط، بالجامع الكبير رقم 29 لغة.

2 ـ الحور العين، الناظر في هذا الكتاب يحار في تصنيفه فهو يشتمل على تفسير لمعاني الكلمات العربية وأمثالها، ويستشهد على ذلك بأقوال العرب وأشعارهم في الجاهلية والإسلام، ويجد لنفسه سندًا في آيات القرآن الكريم، ويتناول أمثال العرب السائرة، ويتطرق إلى الحديث عن حكمائهم وشعرائهم وأدبائهم، ثم يشير إلى أديان العرب في الجاهلية، ومذاهب اليونان والفرس وفرق المجوس، ويعرض لآراء القائلين بحدوث العالم وقدمه، ثم يتعرض إلى فرق اليهود ومذاهب النصارى ويتوقف طويلا أمام الفرق الإسلامية من معتزلة، وخوارج، وشيعة، لا سيما الزيدية. ويفيض في شرح عقائدهم وأصولهم. وهذا الكتاب نستطيع أن نعدّه مرجعا في علوم اللغة العربية، وفي الديانات الأرضية، والمذاهب الكلامية والمثال العربية.

وقد حققه كمال مصطفى، وقدم له زاهد الكوثري، ط. الخانجي، القاهرة، 1948، ط 2، المكتبة اليمنية صنعاء، 1985.

3 ـ القصيدة الحميرية، نشرت باسم: ملوك حمير وأقيال اليمن، وخلاصة السيرة الجامعة، تح. علي المؤيد، وإسماعيل الجرافي، القاهرة، 1378هـ؛ 4 ـ التبيان في تفسير القرآن، مخ. برلين 916؛ 5 ـ العدل والميزان في موافقة القرآن، مخ؛ 6 ـ التذكرة في أحكام الجواهر والأعراض، مخ؛ 7 ـ صحيح الاعتقاد وصريح الانتقاد، مخ؛ 8 ـ التبصير في الدين، مخ [الحبشي، مصادر الفكر 16، 96، دون أن يشير إلى أرقامها].

■ المصادر والمراجع

● عمارة، نجم الدين، المفيد في أخبار صنعاء وزبيد، تح. محمد الأكوع، مطبعة العلم، القاهرة، 1979؛ ● الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، ج19، ط. دار المأمون، القاهرة، د.ت؛ ● القفطي، إنباه الرواة، ج1, 4، تح. أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب، القاهرة 1950 ـ 1973؛ ● السيوطي، بغية الوعاة، مطبعة السعادة، القاهرة، 1326هـ؛ ● ابن الديبع، عبد الرحمٰن، قرة العيون، تح. محمد الأكوع، المكتبة اليمنية، صنعاء، 1988؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، ج5، ت. رمضان عبد التواب، دار المعارف بمصر، د. ت؛ ● زيدان، جورجي، تاريخ آداب اللغة العربية، ج3، تعليق شوقي ضيف، دار الهلال، القاهرة د.ت؛ ● الحبشي، عبد الله، مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، مركز الدراسات، صنعاء، د.ت؛ ● الزركلي، الأعلام، ج 8، دار العلم للملايين، بيروت 1980؛ ● عبد المجيد، عبد الباقي، بهجة الزمن في تاريخ اليمن، دار الكلمة، صنعاء، 1985؛ ● الشامي، أحمد، تاريخ اليمن الفكري، ج1، ج2، دار النفائس، بيروت 1987؛ ● شايف، عبد الفتاح، الإمام الهادي، بيروت، 1410هـ/ 1989م؛ ● العمري، حسين وآخرون، مقدمة المجلد الأول لشمس العلوم، دار الفكر، دمشق، 1999.

د. محمد عبد الرحيم الزيني
جامعة صنعاء ـ اليمن

■ الحِمْيَري، أبو عثمان يَزيد بن ربيعة بن مُفرّغ

(ت 69هـ/688م) ■ ■ ■

هو يَزِيْدُ بن رَبيعة بن مُفَرّغ الحِمْيَري. وثمة مَنْ يرى أن أباه زيادٌ، وليس ربيعة [معجم الأدباء، 6/ 2837]. ولكن ابن خِلِّكان يقول: «وأكثر العلماء يقولون هو يزيد ابن ربيعة بن مفرغ، ويسقطون زيادًا» [وفيات الأعيان، 6/ 342].

وكنيته يزيد بن مفرغ أبو عثمان. ولقب جده بمفرغ، بكسر الراء، لأنه راهَنَ على سقاء لبن أن يشربه، فشربه حتّى أتى عليه.

وهناك خلاف في نسب الشاعر إلى حمير، رغم شيوع ذلك في كثير من المصادر، فقد روى الأصبهاني عن ابن الكلبي وأبي عبيدة أنّ الجدَّ مُفرِّغًا كان شعاباً بتبالة في الحجاز، فادَّعى أنه من حمير. ويذهب النوفلي إلى أنّ آل مفرغ في البصرة ليسوا من حمير [الأغاني، 18/ 254؛ جمهرة أنساب العرب، 436]. أما ابن سلام الجمحي، فيروي عن يونس بن حبيب أن يزيد بن ربيعة ابن مفرغ كان رجلا من أهل يحصب [طبقات ابن سلام، 1/ 686]. ويحصب عشيرة من حمير. ويروي أن مفرغا جد يزيد الثاني كان عبدًا للضحَّاك بن عبد عوف الهلالي، فأنعم عليه [الشعر والشعراء، 360].

والراجح أن يزيد بن مفرغ ولد في البصرة. وكان رجلًا شريرًا هَجَّاء للناس. وكان حليفا لقريش ولآل خالد بن أسيد بن عبد شمس خاصة [طبقات ابن سلام، 1/ 686؛ الأغاني، 18/ 254].

وجل أخبار يزيد تتركّز حول صحبته لعباد بن زياد بن أبيه إلى خراسان، وتركه صحبة سعيد ابن عثمان بن عفان، ثم هجائه لآل زياد، وحبسه في سجستان والبصرة، وتدخّل جماعة من اليمن وقريش للإفراج عنه عند يزيد بن معاوية، وتنقّله بين البصرة، والشام، والموصل، وكرمان، وخراسان، وموته بالأهواز في العام 69هـ/ 688م.

فقد روت المصادر أن سعيد بن عثمان بن عفان طلب استصحاب يزيد بن مفرغ إلى خراسان، فأبى، وفضل صحبة عباد بن زياد ابن أبيه، الذي كان على سجستان. فحذر سعيد الشاعر من لؤم عباد وغدره.. وصدقت ظنون سعيد، إذ وقعت جفوة بين يزيد وعباد، وسخر يزيد من طول لحية عباد في شعر له قال فيه:

ألا ليتَ اللِّحى كانتْ حشيشًا
فنعلفُها خيولَ المُسْلمينا

وعلم عبّاد بذلك، فغضب من يزيد، وأمره ببيع سلاحه وخيله وأثاثه، بل أجبره على بيع غلامه «برد» وقينته «الأراكة». وفي ذلك يقول يزيد:

شريتُ بُرْدًا ولو ملكتُ صفقتَهُ
لما تطلَّبتُ في بيعٍ له رشدا
لولا الدعيُّ ولولا ما تعرّضَ لي
من الحوادثِ ما فارقتُهُ أبدا

ويقول متحسّرا على تركه سعيدا:

قلتُ والليلُ مُطْبِقٌ بعراهُ
ليتني متُّ قبل تَرْكِ سعيدِ
ليتني متُّ قبل تركي أخا النَّجْـ
ـدةِ والحزمِ والفعالِ الشديدِ

ويروي أنّ يزيد تلطَّفَ لعباد، فأخرجه من سجنه، فأتى الشام، وراح يهجو في مدنها ابني زياد: عبادا وعبيد الله، ويتجاوز بني زياد إلى أبي سفيان، ويقذفه بالزنى. ولفظته الشام فجاء إلى البصرة، وكان عبيد الله بن زياد يطلبه، فاستجار يزيد بن مفرغ بالأحنف ابن قيس، فلم يُجِرْهُ، وأتى خالد بن أسيد فلم يجره، ولاذ بابن معمر وطلحة الطلحات

فوعداه، ولم يفعلا، ولاذ بالمنذر بن جارود العبدي فأجاره. ولكن عبيد الله بن زياد لم يرعَ هذا الجوار، وأخذ ابن مفرغ وسجنه. وفي شعر يزيد ما يؤكّد واقعة الاستجارة تلك، وواقعة الغدر أيضًا [ديوانه، تح. أبو صالح، 238]. . وكتب عبيد الله إلى يزيد ابن معاوية يستأذنه بقتله، فأشار يزيد بالتنكيل دون القتل. فأمر بأن يطاف بيزيد في شوارع البصرة، مقرونًا إلى هرّة وخنزيرة، بعد أن سُقي نبيذًا مخلوطا بالشبرم، فسلح يزيد على نفسه، ثم أمر بأن يغسل فغسل، فقال يزيد في ذلك مخاطبًا عبيد الله:

يغسلُ الماءُ ما فعلْتَ وقولي
راسخٌ منكَ في العظام البوالي

ثم ردّه إلى السجن. وهنا يسوق أبو الفرج الأصبهاني ثلاثة أبيات بالفارسية قالها يزيد، تدل على معرفته بفارسية ذلك الزمان.

وفي أخباره أنّه كتب بعض هجائه في آل زياد على حيطان الخانات في سجستان، فأمر بأن يمحو ما كتب بأظافره. فكان يفعل ذلك حتّى ذهبت أظافره. ولا ندري ما المدة التي قضاها يزيد في حبسه، ولكن المصادر تذكر أنه لما طال حبسه، بعث إلى أقاربه اليمانية في الشام، ليشفعوا له عند يزيد بن معاوية، وفي ذلك يقول مخاطبا مبعوثيه:

قُوموا فقولوا: أميرَ المؤمنين لنا
حقٌّ عليكَ ومَنٌّ ليسَ كالمِنَنِ
فاكففْ دهيَّ زيادٍ عن اكارِمِنا
ماذا تزيدُ على الأحقادِ والمِحَنِ

ودخل أقارب يزيد على الخليفة بدمشق، فأمر بتخلية سبيله وإحضاره إليه، وعاتبه على بعض شعره الذي هجا به معاوية، فأنكر ما عزي إليه، وقال: هذا الشعر لعبد الرحمن بن الحكم، وقد نَسِبَ إلي زُوْرًا. فقال له يزيد: عفوتُ عنكَ جرمكَ، إذهبْ، إلى عبيد الله واعتذِرْ له، واخترْ أيَّ بلد تشاء لتقيم به. فاختار الموصل، ثم ارتاح للبصرة، وذهب إليها، ومنها اتّجه إلى كرمان، حيث عبيد الله ابن شريك الأعور، فوهبه هذا جائزة وقطيعة.

وثمّة رواية أخرى تنسب الإفراج عن يزيد بن مفرغ إلى جماعة من قريش، كان قد استجار بهم يزيد، ذهبت إلى يزيد بن معاوية بالشام، فأرسل معها رجلًا اسمه خمخام من حمير، ومعه كتاب إلى عبيد الله بالبصرة الذي طلب منه الكف عن هجاء بني زياد، وخيّره بلدًا يختاره ليقيم فيه [الأغاني، 18/ 279، 375].

ويروي أبو الفرج الأصفهاني عن أبي عبيدة أنّ يزيد كان يهوى أناهيد بنت الأعنق، وكان الأعنق دهقانا من الأهواز. . وكان لها أخوات يقال لهنّ: أسماء والجمانة وأخرى قد سقط اسمها، فكان يذكرهن جميعًا في شعره. ومن ذلك قوله في أناهيد:

سيْري اناهيدُ بالعيرين آمنةً
قد سَلَّمَ اللهُ من قومٍ بهم طبعُ
لا باركَ اللهُ فيهم معشرًا جُبُنًا
ولا سقى دارَهم قطرًا ولا رُبِعوا

[الأغاني، 18/ 289؛ الخزانة، 4/ 433].

وروى البلاذري أنّ ابنَ مفرِّغ عشق امرأةً من الأهواز، وكان يَدَانُ وينفق عليها، ولما كثر دينه أخذه غرماؤه غير مرة، وشكوه الى عبيد الله بن زياد، فأمر ببيعه، وفداه عبيد الله بن أبي بكرة بثمانين ألف درهم، فقال يزيد بن

مفرغ يمدح عبيد الله هذا، واسمه أبو حاتم:

لو شئتِ أن تغني ولم تنصبي
عشتِ بأسبابِ أبي حاتمِ

عشتِ بأسبابِ الجوادِ الذي
لا يختم الأموالَ بالخاتمِ

الواهبِ الجردَ بأرسانِها
والحاملِ الثقلَ عن الغارمِ

[أنساب الأشراف، 1/ 501]

ولو عدنا إلى شعر يزيد في عباد، وعبيد الله ابني زياد، وبني جذيمة الذين غدروا به، ها هو ذا يشنّع على عبيد الله بن زياد فساد ذمته، وكونه عاش عبدا لا نسَب شريفًا له، فهو ملحق كأبيه إلى أبي سفيان، وهو في موته في يوم الزاب لم يكن يدافع عن ملك له، ولا عن عشيرة يمُتُّ لها بنسب، إنه ليس من نزار ولا من اليمن، بل هو صخرة رمي بها في شعب صغير، ولهذا لم تشق الثياب عليه النساء، ولم تبكه النائحات، ولم تحزن عليه الجياد، كما تحزن عادة عند موت فرسانها، يقول يزيد بن مفرغ:

إنَّ الذي عاشَ ختَّارًا بذِمَّتِهِ
وعاشَ عبدًا قتيلُ اللهِ بالزابِ

العبدُ للعبدِ لا أصلٌ ولا طرَفٌ
ألوتْ به ذاتُ أظفارٍ وأنيابِ

لا أنتَ زاحمْتَ عن مُلْكٍ فتمنعُهُ
ولا مَتَتْ إلى قومٍ بأسبابِ

لا مِنْ نزارٍ ولا مِنْ جذمِ ذي يمنٍ
جلمودةٌ أُلقِيَتْ مِنْ بينِ ألهابِ

ما شُقَّ جيبٌ ولا ناحتْكَ نائحةٌ
ولا بَكَتْكَ جيادٌ عندَ أسلابِ

[ديوان يزيد بن مفرغ، 81 ـ 83].

ويروى أن عبيد الله قال: ما هجيت بشيء أشد علي من قول ابن مُفرِّغ:

فكِّر ففي ذاكَ إنْ فكَّرْتَ مُعْتَبَرُ
هلْ نِلْتَ مكرمةً إلا بتأميرِ

عاشتْ سُمَيَّةُ ما تدري وقدْ عمرتْ
أنَّ ابنَها منْ قريشٍ في الجماهيرِ

[ديوان يزيد، 140].

وواضح هنا أن ابن مفرغ يشنع على عبيد الله نسبه وزعامته. وسميَّةُ في هذا الشعر هي أم زياد بن أبيه وفي البيت الثاني إشارة إلى قصة الاستلحاق التي ألحق فيها زياد بنسب أبي سفيان. والشاعر لا يكتفي بهذه المعاني من الهجاء، بل يتجاوزها إلى معاني اللؤم والبخل، اللذين اتّصف بهما عباد وعبيد الله ابني زياد.. الخ.

وقال يزيد يهجو بني جذيمة:

غدرتْ جذيمةُ غدرةً مذكورةً
طوقَ الحمامةِ يعرفون بها ضُحَى

سائِلْ بني الجارودِ أينَ نزيلُهم
أغدا مع الغادينَ يومًا أوْ ثَوَى

لا يبعُدُ الجارُ الذي أسلمتُمُ
زينَ المجالسِ، والفتى كلُّ الفتى

ويشير الشاعر هنا إلى واقعة لجوئه إلى المنذر ابن الجارود، الذي أجاره من عبيد الله، كما ذكرنا، ولكن عبيد الله أخذه من بيته.

وجذيمة هي القبيلة التي ينتهي إليها نسب المنذر هذا [ديوان يزيد، 238 ـ 239].

وكان ممّن مدحهم يزيدُ بن مفرغ، سعيد بن عثمان بن عفان، ومروان بن الحكم. وها هو ذا يقول في سعيد الذي أبى صحبته إلى خراسان فندم، وذلك بعد نسيب تقليدي بأمامة:

لَهْفي على الأمرِ الذي
كانتْ عواقِبُهُ ندامَهْ

تركي سعيدًا ذا الندى
والبيتُ ترفعُه الدِّعامهْ

ليثًا إذا شهدَ الوغى
تَرَك الهوى ومَضَى امامهْ

فُتحتْ سمرقندٌ له
وبَنَى بِعَرْصَتِها خِيامَهْ

وينهي يزيد قصيدته هذه ببيت أصبح مسير المثل وهو قوله:

والعبد يقرع بالعصا
والحرُّ يكفيهِ الملامهْ

[ديوان يزيد، 209 ـ 211، 215].

والمعروف أن ابن قتيبة قد امتدح قصيدة يزيد السابقة، ووصفها بأنّها أجود شعره [الشعر والشعراء، 1/ 361].

أما غزل يزيد، فيلاحظ فيه النساء اللاتي وقع التغزّل بهنّ، فمنهن أناهيد، وجمانة، وسلمى، وزينب، وأسماء.. الخ. والراجح أنّ هذه أسماء لا تجري على وجه الحقيقة. والرواة يحدّدون أناهيد «حبيبة» للشاعر، على الرغم من أنّها لم تذكر سوى مرة واحدة فيما وَصَلَ إلينا من شعره، فهو يقول مثلا:

سيري أناهيدُ بالعَيْرَيْنِ آمنةً
قد سَلَّمَ اللهُ مِنْ قومٍ لهم طَبَعُ

[ديوانه، 146].

أما الجمانة فقد قال فيها:

سما برقُ الجمانةِ فاستطارا
لعلَّ البرقَ ذاكَ يحورُ نارا

ديارًا للجمانةِ مُقْفراتٍ
بَلِينَ وهِجْنَ للقلبِ ادِّكارا

فلمْ امْلِكْ دموعَ العينِ منّي
ولا النفسَ التي جاشَتْ مِرارا

فقلتُ لصاحبي عرِّجْ قليلًا
نذاكِرْ شوقَنا الدُّرُسَ البَوارا

بآيةِ ما غَدَوا وَهُمُ جميعٌ
فكادَ الصبُّ ينتحرُ انتحارا

[ديوانه، 131 ـ 132].

وربّما كان الشاعر هنا يكني عن أناهيد بجمانة، وهو في غزله هذا لا يخرج عن تقاليد الغزل الجاهلي الذي يتصدّر القصيدة. ولكن رغم ذلك، فإننا نرى أن ما وصلنا من غزل هذا الشاعر لا يتلاءمُ مع وَصْفِهِ بأنه كان شاعرًا غَزِلًا، كما وصفه أبو الفرج الأصفهاني [الأغاني، 18/ 254].

آثاره

يروى عن الشاعر أنه هو الذي وضع سيرة تبع وأشعاره [الأغاني، 18/ 255؛ معجم الأدباء، 6/ 2837]. وهو كتاب لم يصل إلينا.

وكذلك لم يصل إلينا ديوان هذا الشاعر بصنعة أي من علماء التراث. ولكن ابن خير الاشبيلي يشير إليه على أنه مما رواه عن شيوخه. وهذا يعني أنه كان موجودا في القرن السادس الهجري [فهرست ابن خير، 397].

وفي زماننا وقعت ثلاث محاولات لجمع شعر يزيد، نهض بالأولى المستشرق الفرنسي «شارل بلّا» الذي قدم لجمعه بدارسة عن يزيد وشعره، ونشر عمله ذاك في الصحيفة التذكارية لماسينيون [تاريخ التراث العربي لسزكين، 2/ 20]. وهي محاولات تشكو من كثير من التصحيف والتحريف الذي لازم شعر الشاعر. وتعقب ذلك كله المحقق د. عبد القدوس أبو صالح في مقدمته لديوان يزيد.

أما المحاولة الثانية فقد قام بها داود سلوم من العراق، ونشر شعر يزيد في بغداد سنة 1968م.

وكانت المحاولة الأخيرة للباحث عبد القدوس أبي صالح، وظهرت للنور في بيروت عام 1975م. وقد جمع أبو صالح من شعر يزيد 367 بيتا، توزّعت على 64 قصيدة ومقطعة. وكان أكثر تلك الأبيات رواية أبي الفرج في كتابه الأغاني. والحق أنّ هذه المحاولة هي أجود وأكمل وأدق من المحاولتين السابقتين [مقدمة الديوان، 9/ 49].

ويرى محقق هذا الديوان (أبوصالح) أن رواة الشيعة انصرفوا عن رواية شعر ابن مفرغ لمدحه بني أميّة، واكتفوا بترديد هجائه لآل زياد بن أبيه، وخاصة عبيد الله الذي عمل على قتل الحسين في كربلاء [المقدمة، 10].

المصادر والمراجع

● الجمحي، ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، تح. محمود شاكر، ط2، القاهرة 1974، 2/ 681، 686 ـ 693؛ ● ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تح. أحمد شكار، ط2، القاهرة، 1966، 360 ـ 364؛ ● الأصبهاني، أبو الفرج، الأغاني، ط. دار الكتب، القاهرة، 18/ 254 ـ 298؛ ● الإشبيلي، ابن خير، فهرسة ابن خير، بيروت، 1399هـ/ 1979م، 397؛ ● الحموي، ياقوت، معجم الأدباء، تح. إحسان عباس، بيروت، 1993، 6/ 2837 ـ 2838؛ ● ابن خلّكان، وفيات الأعيان، تح. احسان عباس، بيروت، 6/ 342؛ ● البغدادي، خزانة الأدب، تح. عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1402هـ/ 1981م، 4/ 325 ـ 334؛ ● سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، الترجمة العربية، الرياض، 1403هـ/ 1983، 2/ 17 ـ 20؛ ● سلوم، داود، شعر يزيد بن مفرغ الحميري، بغداد، 1968؛ ● عبد القدوس، أبو صالح، ديوان يزيد بن مفرغ الحميري، بيروت، 1395هـ/ 1975م.

د. عادل عطا الله الفريجات
دمشق ـ سوريا

حميّين، محمد الأمين بن أحمد

(1292هـ/1875م - 1382هـ/1962م)

محمد الأمين الملقّب حميّين بن أحمد ابن محمدي بن سيدي عبد الله العلوي، عالم مدرّس ومؤلّف، وشيخ تربية ومتصوّف مشهور، ألّف في التصوّف والسير، ولد بمنطقة القبلة بالجنوب الغربي من بلاد شنقيط، وبها نشأ في بيت علم وتصوّف، تربّى تربية دينيّة وصوفيّة على يد والده أحمد بن محمدي الملقّب آب (ت 1323هـ). حفظ القرآن في سنّ مبكّرة، ودرس علوم الشرع والعربيّة، فكان شيخه الأوّل في العلم، قبل أن يلتحق بأشهر أساتذته أبد بن سيد أحمد بن محمود العلوي (ت 1329هـ)، ومثلما أخذ العلم عن والده تربّى عليه تربية صوفيّة أهّلته للخلافة.

عرف حميين بالعلم والورع والتصوّف والزهد، فحظي بقبول أفراد قبيلته وإجماع أهل الرأي والتصوّف فيها. انتصب للتدريس والتربية فتخرّجت به جماعة من العلماء منهم محمد عبد الرحمن بن السالك الملقّب النح (ت 1398هـ)، وعبد الله بن اباه (ت 1375هـ)، ومحمد عالي بن فتى (ت 1394هـ)، ومحمد عبد الله بن أحمد فال وغيرهم.

تنقّل حميين بين منطقتي القبلة وتيرس، وحاز إجماعا من قبيلته وإقبالا من مريدي طريقته التجانية جعلا أعيان قبيلته يصفونه بأنّه «الشيخ الذي لم تجتمع القبيلة على شخص مثلما اجتمعت عليه»، وقد كانت له علاقات وطيدة بعلماء وأشياخ الطريقة التيجانية بالسنيغال مثل الشيخ ابراهيم انياس الكولخي (ت 1395هـ) والشيخ أحمدو وبنيه، والحاج عمار مالك سي وغيرهم.

حجّ البيت الحرام عام 1324هـ، وفي طريقه مرّ بالمغرب، والتقى بعلماء أجلّاء كانت له بهم صِلات من أمثال أحمد بن الشمس الحاجي مقدم زاوية الشيخ ماء العينين بفاس، وسيدي أحمد جسوس الرباطي، وسيدي أحمد السكيرج قاض أسطات.

عاصر حميّين دخول المستعمر الفرنسي إلى البلاد الموريتانيّة، وكان على صِلة بأمراء الترارزة المعاصرين له كأحمد سالم الثاني (ت 1323هـ)، وأحمد سالم بن ابراهيم السالم (ت 1348هـ)، وأحمد بن إديد (ت 1363هـ)، وكانت له معهم مواقفه المشهورة في ردّ المظالم التي كانت تحلّ بمن يلجؤون إليه طلبا لرفع الظلم عنهم، لما كان يحظى به من احترام وثقة لدى هؤلاء الأمراء.

آثاره

اشتغل حميين بالتدريس والتربية الصوفيّة وأمور أهل الطريقة عن التأليف، ولذلك اقتصر تأليفه على مؤلّفين مخطوطين:

1 ـ إفادة الغائب والجلاس في مناقب والدنا وشيخنا أبي العباس، وهو ترجمة لسيرة والده وشيخه أحمد بن محمدي (بدي) جريا على تقليد وضع التراجم للمشاهير وأصحاب الخلافة من المتصوّفة. ويعدّ هذا المخطوط وثيقة تاريخيّة عن منطقة القبلة لما كان يحتلّه بدي من مكانة علميّة وصوفيّة في هذه المنطقة، في ظلّ ندرة الوثائق التاريخيّة المتناولة لتاريخ بلاد شنقيط؛ 2 ـ الجيوش الطلع في شرح المرهفات القطع، هو شرح لنظم الحاج محمد بن عبد اللّه إيناس الكولخي المعنون بـ «المرهفات القطع»، الذي كان ألّفه في الردّ على بعض الفقهاء الرافضين للتصوّف، المنكرين لكرامات أهله، فجاء مخطوط حميين شرحا لهذا النظم وإغناء لخطابه في الردّ على الفقهاء الذين ناهضوا الطريقة التيجانيّة والتصوّف عامّة، وهي المناهضة التي كان من أشهر فقهائها محمد الخضر بن ماياب الجكني (ت 1354هـ)، وقد دخل في هذا الصراع من الجانبين أكثر من فقيه ومتصوّف، وقد ألّف حميين كتابه سنة 1348هـ فكانت أهمّيته التاريخيّة في أنّه يضيء للباحث جوانب مهمّة من تاريخ العلاقة ما بين الفقهاء والمتصوّفة في بُعدها القائم على التوتّر والرفض لا القائم على الانسجام والتصالح، فقد كانت هذه الفترة في تاريخ العلاقة من أهمّ الفترات التي ظهرت فيها مؤلّفات فقهيّة تناهض الخطاب الصوفي وأخرى صوفيّة تردّ عليها، وتسعى إلى احتواء خطابها.

المصادر والمراجع

- المختار بن حامد، مقدّمة ابن حامد، جزء ادوعل، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، نواكشوط، ص 60.

د. محمد الأمين ولد مولاي ابراهيم

جامعة نواكشوط ـ موريتانيا

حناء جورج

(1311هـ/1893م ـ 1389هـ/1969م)

ولد جورج حنا في الشويفات قرب العاصمة بيروت وتلقى دروسه الابتدائية في مدرسة سوق الغرب الثانوية، وتابع تحصيله العالي في الجامعة الأميركية في بيروت، فنال منها شهادة بكالوريوس علوم سنة 1911 ثم شهادة الطب سنة 1916.

خدم في الجيش العثماني طبيبًا خلال الحرب الكونية الأولى. ولكنه أُسر من قبل الجيش البريطاني العام 1918 في معركة أريحا. وأُفرج عنه بعد شهر، شريطة أن يخدم في الجيش المصري. فبقي في الخدمة سنة كاملة عاد بعدها إلى الشويفات. ثم سافر إلى باريس ليتخصص بالأمراض النسائية وفن

التوليد. وبعد سنة عاد إلى بيروت حيث أسس مستشفى للتوليد في حي مار نقولا.

لم يكتف الطبيب النسائي بمهنته، بل كان له نشاطه الأدبي والاجتماعي فهو روائي عالج فن القصة وكتب عددًا من الروايات، وانخرط في حركة أنصار السلام، ورأس جمعية الصداقة السوفياتية ـ اللبنانية، كما قام بعدة رحلات إلى الغرب والشرق، وكتب عن انطباعاته عن موسكو، وبرلين، وهنغاريا، والصين الشعبية، وألبانيا..
وكذلك كان عضوًا في الجمعية الطبية اللبنانية، وعضوًا في المجلس الدائم لحركة السلم العالمية، ونشط في غير جمعية أدبية.
وتُنسب إليه بعض المقالات التي نشرها تحت اسم مستعار (ابن سينا) في خلال عهد الانتداب. كما استعمل اسمًا مستعارًا آخر هو «الحارث بن يحيى» الذي وضعه على كتابه «من الاحتلال إلى الاستقلال» في طبعته الأولى التي صدرت العام 1944. ومن اسم الحارث أخذ اسم «الحارثيات» لمجموعة كتبه التي ظهرت بهذا العنوان.

وكانت وفاة الدكتور جورج حنا في العام 1969 ودفن في الشويفات في مدافن الأسرة.

وبمناسبة بلوغه السبعين كرّمه أصدقاؤه. ونشرت مجلة «الطريق» وقائع ذلك التكريم في عددها 1 ـ 2 (ك2، شباط) 1962، فقال فيه الأديب رئيف خوري متحدثًا عن حياة مجيدة من الدأب والنضال: «سبعون سنة.. سبعون مخصبة توالت فيها علينا المواسم الطيبة، يتحفنا بها الدكتور جورج حنا علمًا وأدبًا ونورًا ومعرفة وجمالًا، وأداته في هذا العطاء مضاعفة: أداةُ الطبيب الذي يرعى الأمهات ويكون على يديه جديد الحياة، وقلمُ الأديب الذي يغذو الفكر ويفتح البصائر وبالتالي يدل على الحياة ويُولَدُ على يديه جديدُ الحياة..».

وعدّه النائب الدكتور هاشم الحسيني «أمثولة الجيل الطالع..وروحه الحساسة جعلته أديبًا كبيرًا جنّد قلمه لنصرة الحق ودفع الظلم وزهق الباطل..».

وصوّرته الأديبة السيدة زاهية سلمان بأنه «طبيب يعشق الحرية»، واعتبره الشيخ الأديب عبد الله العلايلي «رجلًا جاء والنضال على موعد، والدعوة الاستقلالية على ميلاد، والتضحية النبيلة للحرية كأنها تضحية الاستشهاد..».

أما هو فقال عن نفسه: «مذ أمسكت بالقلم جعلت القلم لساني الناطق. وأبيتُ عليه أن ينطق إلا بما يمليه قلبي وعقلي وحسي، فإن أخطئ فذنبي أني إنسان لا يجل عن الخطأ».

«عالجتُ شؤون السياسة فاحمرّتْ عليّ عيون محترفي السياسة.. وعالجتُ شؤون الطائفية والدين فهرطقني فريسيو الطائفية والدين وسدوا عليّ أبواب السماء، كما لو كانت السماء من ممتلكاتهم الخاصة، وهم يحملون مفاتيحها.. وعالجتُ دنيا المرأة، فارتضت مني دنيا المرأة، وسفّهني مستعبدو المرأة.. وعالجتُ العقائد والفكر، فثار عليّ الهازلون بالعقائد والفكر.. حسبي أني كوفئتُ على محبتي للانسان بمحبة من أحبوني وهم، ولا غرو، ليسوا قليلين..» [مجلة الطريق، عدد 1 و2، ك2 وشباط 1962، ص 131 ـ 149].

كان جورج حنا ماسونيًا لفترة طويلة ثم ارتدّ عنها، وعن سبب ارتداده يقول: «إنه ما دامت الماسونية مقتصرة على البرّ والإحسان والتبشير بالفضيلة والأخوة الإنسانية والمناقبية، ولبس في أعمالها شيء من الإيجابية العملية، ولا شيء يمتُّ للسياسة وشؤون الحياة بصلة أو يمتُّ إلى الثورة الاجتماعية (الثورة الفكرية على الأقل) فلن أرى أي موجب لابقائها حركة سرية. فلتكن إذن كسائر جمعيات البرّ والإحسان، ذلك خيرٌ لها وأبقى [الحارثيات، الماسونية بين حياتها وواقعها، ص 7 ـ 20].

وقد نادى بالعلمانية وطالب بإلغاء الطائفية التي نصّ عليها الدستور اللبناني، وبجعل الفوز بالمناصب الحكومية والخاصة للأهلية العلمية أو التقنية، لا للأهلية المذهبية الموروثة من تقاليد الشرق القديم البالية وهي علّة العلل. ورأى في الطائفية «خطرًا على لبنان سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا ومصيريًا»، وأن الوسيلة الوحيدة لالغائها وتطهير النفوس منها هي «شطب النص عليها في القوانين والدساتير» [الحارثيات، علمنة الدولة، 1946، ص 365 ـ 368].

ومع أنه ينادي بالعلمنة إلا أنه ليس ضد الدين يقول: «لا يحسبنَّ أحد أننا نتعرض للدين باعتباره رسالة سماوية تهذب الروح وتحمل المثل العليا . . إن الدين شيء والطائفية شيءٌ آخر. . نحارب الطائفيين دون أن نتعرض لصُلب العقيدة الدينية» [من المقالة نفسها علمنة الدولة].

واكتشف جورج حنا وَهْم ما كان يتعلمه ـ ويعلمه أحيانًا ـ في المحافل من أن الماسونية تتطلع إلى أن تنصهر الطوائف كلها في بوتقة إنسانية دينُها المحبة فيعيش تحت سقف واحد: المسيحي، والمسلم، والدرزي، واليهودي (الاسرائيلي) . . ذلك أن اليهود لم يتقيدوا في ممارستهم بهذه المثاليات، لا بل أفصحوا عن شهوانيتهم العدوانية في بروتوكولاتهم المشهورة. ولذلك يُعلن على رؤوس الأشهاد «لو كنتُ يهوديًا لمزَّقتُ بيدي بروتوكولات صهيون. . ودعوت بني قومي إلى محبة الإنسان والتعايش مع سائر الناس» [الحارثيات، ص 135]. ويقول أيضًا: «لو كنت يهوديًا . . بيّنت لهم أيضًا أن جزيرةً معادية في قلب قارة عربية مكتوب لها الفناء، إذا استمروا هم في نظرتهم العدائية التي رسختها فيهم التعاليم الصهيونية» [الحارثيات، ص 136].

وهو إذ يتشبث بمبادئ الماسونية المثالية القائمة على الاخاء والمحبة والمساواة، يدعو اليهود إلى التخلي عن أطماعهم بموطنِ شعب آخر لأن الأرض ملك للجميع وهم إخوة على صعيدها كلها لا على جزء منها، حتى لو وطِئتْه أقدامهم لحين، منذ آلاف السنين. ويقول: «لو كنت يهوديًا . . لاعتبرت هذا البلد بلدي بالذات (فلسطين)، وأخلصتُ له كأخلص أبنائه، وعايشتُ شعبه معايشة أخوية إنسانية . . وبذلتُ من مالي وروحي ما يؤهلني لأن أعيش مواطنًا إنسانيًا فاضلًا في عالم إنساني فاضل» [الحارثيات، ص 137].

من هنا إصراره على اليهود أنفسهم أن يتخلوا عن الصهيونية عقيدةً ويلتزموا اليهودية دينًا سماويًا مثاليًا، ويأخذوا الماسونية كما كانت عند نشأتها الأولى زمن الملك سليمان نقية

القلب والوجه واليدين . . يقول: «ولو كنت يهوديًا . . قاومت كل دعوة تدعوني إليها الصهيونية» [الحارثيات، 136 ـ 137].

هذا وكان جورج حنا مجاهدًا وطنيًا حرّ الرأي والعقيدة، عاشقًا للاستقلال والسيادة، عاملًا على إعلاء شأن الفكر وحمل مشاعل المعرفة ونشر ألوية السلام في لبنان وفي العالم أجمع.

يقول من كتاب «الإنسان العربي قديمه وجديده» محددًا ماهيته:

. . . «إن الإنسان العربي الجديد هو قبل كل شيء من عرف نفسه . . وأدرك أنه هو سيّد نفسه وسيد مشيئته وصانع مصيره».

«هو الإنسان الذي يرفض الخضوع على العماء لمتزعم أو مخدوم . . إذا أراد هذا المتزعم أو المخدوم أن يفرض عليه ما لا يرضاه هو، بكامل وعيه وإرادته. والذي بدأ يثور ضد قانون جائر، تسنُّه هيئات سياسية لمصلحة فئة من الناس، لكونها ذات قوة ونفوذ وتأثير، في سن القوانين، وعلى من يسنون القوانين» [ص 131 ـ 132].

ويقول من كتاب «العقدة اللبنانية»، متطرقًا لكيفية حلها:

«. . لا يمكن حل العقدة اللبنانية إلا إذا توحدت برامج التعليم في المدارس الرسمية والمدارس الخاصة كذلك. إن النشء اللبناني يجب أن يتربى تربية وطنية واحدة، وأن تكون ثقافته ثقافة وطنية واحدة. إن الوطنية زرعٌ ينمو في الأراضي البكر أكثر مما ينمو في الأراضي التعبة، فالأطفال والأولاد الذين يربون على مقاييس ثقافية مختلفة، لا يُنتظر منهم ـ متى كبروا وشبّوا ـ تكوين ثقافة وطنية واحدة، ولا أن يكون عندهم شعور وطني واحد . .» [ص 60 ـ 61].

ومن الحارثيات (المجموعة الكاملة) ومن «كتاب مفتوح إلى المواطن اللبناني» نقتطف الآتي: «أتريد أيها المواطن العزيز أن أدلك على طريق الخلاص. . الطريق التي إذا عرفها من جاوزوا سن الشباب، فإنهم أضعف من أن يمشوها؟»

«أول ما يجب أن تعرفه وتؤمن به . . أنك أنت مصدر كل سلطة في بلادك . . وأن ما من أحد، في إمكانه أن ينفعها أو يضرها، إذا لم يضمن تأييدك أو يأمن شرّك، وأن الرؤساء والحكام والنواب، ليسوا غير موكلين منك، إذا تكلموا فباسمك، وإذا عملوا فباسمك. . وأن الرأي العام هو أنت . . ومغذي الخزينة هو أنت . . ولولاك لما كانت الأمة ولا كانت الدولة، ولا كان الحكام ينعمون بالسلطة ويتمتعون بخيرات أنت توجدها.

هذا هو أنت أيها المواطن العزيز، وبسبب ما هو أنت، فإنك المسؤول الأول عما يحدث من خطأ أو شر. . كما أن الفضل الأول يعود إليك. في ما يؤتى في بلادك من خير» [ص 355].

ومن نشاطه في مجلس السلم العالمي تقليده الشاعر التركي الكبير ناظم حكمت ميدالية المجلس، وقال مخاطبًا إياه:

«أيها الصديق العزيز ناظم، إنني عاجز عن تقديم ما تستحقه من الشكر لتحملك المشاق من أجل حمل هذا الوسام الذي تفضل مجلس السلم العالمي وشرفني به. إن لبنان

الذي أحبَّك قبل أن يعرفك، والذي غنّى وما زال يغني أشعارك النابعة من صميم قلبك، والذي كان يرافق مراحل حياتك مرحلة مرحلة، يرحب بك أجمل ترحيب، وينثر عليك العطر الفواح من عبير أرزه. لقد طالما تطلع شعب لبنان إلى يوم يراك في ربوعه. فإذا بهذا اليوم يطل ساعة قدومك. ولست مغاليًا إذا قلت إن الأسبوع الذي قضيته معنا يصح أن يطلق عليه: أسبوع ناظم حكمت في لبنان. وهو عيد للشعر وللثقافة المكافحة» [الطريق، العدد السادس، السنة 61 تشرين ثاني كانون أول/ نوفمبر ديسمبر 2002، ص 84 ـ 85].

آثاره

1 ـ الإنسان العربي، قديمه وجديده، دار العلم للملايين، طبعة أولى، 1964؛ 2 ـ خواطر حول الجمهورية العربية المتحدة، دار بيروت للطباعة والنشر، مطبعة كرم، بيروت، 1958؛ 3 ـ معنى القومية العربية، طبعة ثانية؛ 4 ـ ضجة في صف الفلسفة، الطبعة الأولى 1952، والطبعة الثانية 1956، دار العلم للملايين؛ وطبعة خامسة، دار الثقافة، مطبعة كرم، بيروت 1967؛ 5 ـ واقع العالم العربي، ط. أولى 1953، ط. ثانية 1954، ألحق بها فصل خاص بالتطورات الأخيرة في العالم العربي، دار العلم للملايين، بيروت؛ 6 ـ اللبنانيون، نشر وتوزيع دار الثقافة، بيروت، 1966؛ 7 ـ قبل المغيب، تجارب وذكريات من حياتي؛ 8 ـ الحارثيات، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لا تاريخ، مطبعة كرم.

وهذه الطبعة جمعت في كتاب واحد ما كان نشره متفرقًا في اثني عشر جزءًا بعد أن نفذت نسخ الطبعات السابقة كلها. وقد حذف منها ما كتبه عن رحلاته إلى الخارج، لكي يصدره في مجموعة أخرى.

وقسم الكتاب إلى قسمين: الأول ينتظم البحوث الاجتماعية والفكرية والأدبية، والقسم الثاني ينتظم البحوث السياسية. ومنها: الوعي الاجتماعي، الجديد في الواقع العربي، الوعي السياسي، المنبر الذي اخترناه ـ العقدة اللبنانية ـ أحلاف أم أشراك .. وقود للنار والنور ـ هرطقات فريسية ـ هذه الإنسانية ... وكانت نشرت بين عامي 1950 و 1957؛ 9 ـ عامان (رواية)، بيروت، دار الثقافة، 1960؛ 10 ـ كهان الهيكل (رواية)، بيروت، دار العلم للملايين، 1950، وطبعة ثانية 1953، وطبعة ثالثة 1956؛ 11 ـ لاجنة (رواية)، بيروت، 1953؛ 12 ـ عبيد الجباه (رواية)، بيروت، 1955؛ 13 ـ أنا عائد من برلين، بيروت، 1952؛ 14 ـ يوميات هنغاريا، بيروت، 1956؛ 15 ـ في موسكو مرة ثانية، بيروت، 1955؛ 16 ـ ألبانيا بلاد النسور، بيروت، دار الثقافة، 1960؛ 17 ـ أنا عائد من موسكو، بيروت، مطابع الكشاف، 1947؛ 18 ـ معنى الثورة، دار بيروت للطباعة والنشر، 1957، 130ص؛ 19 ـ العقم والسلالة البشرية، دار الريحاني، بيروت، 1936؛ 20 ـ من الاحتلال إلى الاستقلال، الطبعة الأولى، 1944، وظهرت بتوقيع الحارث بن يحيى ومنه أخذت كلمة الحارثيات التي استعملها بعد ذلك، والطبعة

الثانية 1946، دار الفنون، بيروت؛ 21 ـ على أبواب السماء، حوار؛ 22 ـ أحاديث مع المرأة العربية، بيروت، دار العلم للملايين؛ 23 ـ طريق الخلاص، بيروت، دار الأحد، 1948؛ 24 ـ المرأة جسد وروح، بيروت، دار العلم للملايين، 1950، طبعة أولى وطبعة ثانية، 1954؛ 25 ـ قصة الانسان، بيروت، طبعة أولى، 1949، وطبعة ثانية 1952. عرض تحليلي لنضال الإنسان في سبيل تحقيق العدالة الاجتماعية وإقامة المجتمع الأفضل؛ 26 ـ تامارا والسفير، بيروت، 1955.

المصادر والمراجع

● تكريم الدكتور جورج حنا لبلوغه السبعين، مجلة الطريق، عدد 1-2 (ك2 شباط) 1962، كلمات لكل من:

● خوري، رئيف، حياة مجيدة من الدأب والنضال؛ ● الحسيني، هاشم، أمثولة الجيل الطالع؛ ● سلمان، السيدة زاهية، طبيب يعشق الحرية؛ ● العلايلي، عبد الله، رجل جاء والنضال على ميعاد؛ ● ثابت، أنطون، رجل عاش للسلام والأدب والفكر؛ ● داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية، المطبعة الألفية، مكتبة لبنان، ناشرون، الطبعة الأولى 2000، ص 726 ـ 728؛ ● سليمان، سهيل، أثر البنائين الأحرار في الأدب اللبناني (1860 ـ 1950)، مؤسسة نوفل، بيروت، الطبعة الأولى، 1993، ص 106 ـ 107، 580، 584؛ ● الباشا، محمد خليل، والبعيني، نجيب حسين، معجم المؤلفين في الشوف والمتنين وقضاء عاليه، مؤسسة نوفل، 1969، ص 261 ـ 263.

د. نزيه كبارة
الجامعة اللبنانية

ابن الحنائي، قنالي زاده علي أفندي

(916هـ/1510م ـ 979هـ/1572م)

ولد في عام 916هـ الموافق لـ عام 1510م في أسبرطة. ووالده هو أمر الله أفندي، وكان يعرف باسم مستعار وهو «ميري» وعمل في مختلف مناصب القضاء. وجدّه هو عبد القادر حميدي. وبسبب أن عبد القادر أفندي الذي كان يقيم في أسبرطة، يستعمل الحناء، أطلق على حفيده لقب «ابن الحنائي» (في اللغة التركية: قنالي زاده، حناوي زاده). وعمل عبد القادر أفندي أستاذا للسلطان محمد الفاتح مدة من الزمن. وكان قريبا منه جدا. وفي فترة لاحقة شغل منصب القضاء العسكري. ثم عاد بعد ذلك إلى

أسبرطة وتوفي فيها. ويذكر إبراهيم كتلك أن عبد القادر أفندي عمل بالقضاء والقضاء العسكري، وأنه لم يكن أستاذا للفاتح.

تلقى علي أفندي تعليمه الأول في أسبرطة. ثم ذهب بعد ذلك إلى استانبول، وواصل تعليمه تحت إشراف أحد أقربائه وهو قدري أفندي الذي كان قاضيا عسكريا. وبعد أن تلقى دروسا من كل من معلول أمير أفندي المدرس في مدرسة محمود باشا، وسنان أفندي المدرس في مدرسة داود باشا، ومرحبه أفندي المدرس في مدرسة علي باشا، دخل مدرسة الفاتح وهناك استفاد من قرا صالح أفندي، ومن جفي زاده محيي الدين محمد أفندي الذي كان عالما مشهورا في فترته. وفي عام 945هـ/ 1538م أصبح معيدا.

استغرق تعيين قنالي زاده علي أفندي في التدريس لأول مرة زمنا قليلا وذلك بسبب عدم وجود كلفة بين أستاذه جفي زاده وأبي السعود أفندي. وبعد أن تم تعيينه في عام 950هـ في المدرسة الحسامية في أدرنة، عيّن في عام 953هـ مدرسا في مدرسة حمزة بك في بورصة، وبعد عامين تم توظيفه في مدرسة وليّ الدين أوغلي أحمد باشا في بورصة أيضا. وفي عام 957هـ/ 1550م عين في مدرسة رستم باشا في كوتاهية، وبعد عام تم تعيينه في مدرسة رستم باشا التي توجد باستانبول. وفي عام 960هـ/ 1553م عيّن في مدرسة حصكي. وبعد ثلاثة أعوام تم تعيينه في مدرسة صحن ـ ثمان. وفي شهر محرم من عام 966هـ الموافق لشهر أكتوبر من عام 1558م عين في مدرسة السليمانية.

عقب ذلك عمل قنالي زاده علي أفندي في القضاء، وذلك في الفترة الممتدة من عام 970هـ/ 1562م إلى عام 978هـ/ 1570م في كل من الشام والقاهرة وحلب وبورصة وأدرنة واستانبول. وأصبح أخيرا في شهر محرم من عام 979هـ الموافق لشهر يونيو من عام 1571م قاضيا عسكريا للأناضول في مكان عبد القادر شيخي أفندي. ويعتقد أنه توفي في 6 رمضان 979هـ الموافق لـ 22 يناير 1572م نتيجة إصابته بمرض النقرس أثناء الإعداد لحملة في مشتى أدرنة عندما كان مرافقا للسلطان سليم الثاني، وذلك إبّان توليه لمنصب القضاء العسكري في الأناضول. وتم دفنه في مقابر ناظر بالقرب من تربة سيد جلالي التي تقع على طريق استانبول. ويذكر عطائي أن علي أفندي قتل عمدا من قبل أحد الأطباء اليهود [ذيل الشقائق، 1/ 168]. ويبيّن إسماعيل حقي أزون جارشي في اثنين من مؤلفاته تاريخا ومكانا مختلفين عمّا ذكرته المصادر الأخرى فيما يتعلق بوفاة علي أفندي. ويوضح طيب كوك بلجن أن قبر علي أفندي يوجد في مقابر لاله شاهين باشا.

تذكر المصادر أن جميع أبنائه شعراء وعلماء وهم: حسن چلبي (ت 1012هـ/ 1604م)، ومحمد فهمي أفندي (ت 1004هـ/ 1596م)، وحسين فوزي أفندي. كما تذكر أن علي أفندي كان صاحب معلومات في جميع المواضيع، وبصفة خاصة في التفسير والفقه والفلسفة والرياضيات والبلاغة، كما يحتل مركزا طليعيا في الإنشاد. وذكر كاتب چلبي بحقه أنه «عالم تركي باحث عن الحقائق، ومن الذين لم يولدوا سوى مرة واحدة»

[ميزان الحق، ص 19]، ويذكر عنه كذلك أنه كان صاحب فضيلة وأخلاق حميدة وإنسانا بكل ما تحمل الكلمة من معانٍ. وكان كذلك عارفا باللغتين العربية والفارسية بجانب اللغة التركية، وكان يقول الشعر بهذه اللغات الثلاث. وكانت أشعاره تتميز بالعبارات الحرة والألفاظ السليمة التي استعملها في مكانها المناسب. ومن جانب آخر تأثر علي أفندي بالشاعر أمري، لذا أصبح مولعا بما هو مبهم. وعمل على إدخال هذا النوع في الأدب التركي ونشره. ويوجد له عدد كبير من المقطوعات الأخرى، بجانب أنه كتب شعرا في غرض الغزل والقصيدة.

آثاره

أ ـ مؤلفاته باللغة التركية:

1 ـ أخلاق علائي، يحتل هذا الكتاب مكانة مهمة بين المؤلفات التي تمت كتابتها باللغة التركية فيما يتعلق بموضوع الأخلاق. وتوجد منه في مكتبات استانبول فقط أكثر من سبعين نسخة. وكتب علي أفندي كتابه هذا في عام 971هـ/ 1564م أثناء عمله في منصب القضاء في الشام. وقام بإهدائه إلى علي باشا بكلربكي سوريا، ولهذا السبب أسماه «أخلاق علائي». وحسب تعبير المؤلف فإن هذا الكتاب يدور حول «الحكمة العملية»، ويتكون من مقدمة وثلاثة كتب (أقسام). وتشتمل المقدمة على المصطلحات التي تتعلق بعلم الأخلاق وفوائد هذا العلم والأخلاق النظرية والعملية ومسائل الروح والتربية. ويختتم المقدمة ببيان أن الإنسان يعتبر أشرف المخلوقات. وتناول في القسم الأول الذي حمل عنوان «علم الأخلاق»، مواضيع الأخلاق الفردية. كما اشتمل على أنواع الطبائع (السجايا) والفضائل وأمراض الروح التي تعيق الحصول على هذه الفضائل، وأصول علاج ذلك، وتربية اللسان وآداب الكلام. أما القسم الثاني فأعطاه اسم «علم تدبير المنزل»، تطرق فيه بوجه عام إلى الأمور التي تتعلق بأخلاق العائلة. وحمل القسم الثالث عنوان «علم تدبير المدينة»، وتناول فيه بصورة عامة مواضيع أخلاق الدولة. وأضاف علي أفندي في نهاية هذا القسم ملحقا عبارة عن رسم بياني يتعلق بـ «دائرة العدالة»، وتكامل الدولة والجيش والشعب. وأراد من ذلك أن يخبر أن الملك يقوم بالعدالة ويدوم بها.

خرج كتاب «أخلاق علائي» إلى الوجود بعد أن استفاد من الذين التزموا الأخلاق الإسلامية، وكذلك من أفكار ممثلي جميع المدارس الصوفية والفلسفية المشهورة، وهو ليس كما ادعى البعض كونه ترجمة تمت لكتب الأخلاق القديمة، والتي تم تأليفها من قبل، ومعظمها باللغة الفارسية. وهو أيضا لم يكن مدوّنة تم نقلها من هذه الكتب. بل هو كتاب أخلاق تميّز بلغته وأسلوبه ومنهجه وترتيبه. وعند تناول علي أفندي للأخلاق النظرية قام بتشخيصها بالعديد من القصص الواقعية. وقد جمّل علي أفندي كتابه وزيّنه بمثنويات فارسية وأشعار عربية وقطع وأبيات تركية. واستخدم المؤلف أسلوبا رفيعا في كتابته، مثله في ذلك مثل بقية كتبه، وذلك بسبب كونه كان شخصا أديبا وصاحب ثقافة إسلامية واسعة. وكان يستعمل عبارات مسجعة أحيانا. وتمت طباعة الكتاب مع تركيته العثمانية مرة واحدة [بولاق 1248]. وقد

تم اختصار «أخلاق علائي» من قبل كل من أحمد رفعت بعنوان «بيركزار أخلاق» [هانيا 1291؛ استانبول 1315، 1318]، وعثمان زاده أحمد طيب بعنوان «خلاصة الأخلاق».

ذكرت المصادر أن لعلي أفندي ديوانا، غير أنه لم يتمّ العثور على نسخته المخطوطة. ويوضح سعد الدين نزهت إرغون أنه لم ير ديوان علي أفندي، إلّا أنه قابل أشعاره في مختلف المجلات؛ 2 ـ منشآت قنالي زاده، [مكتبة السليمانية، قسم أسعد أفندي، رقم 3300، 3314]؛ 3 ـ المعميات، [مكتبة نور عثمانية، رقم 4289]؛ 4 ـ تاريخ قنالي زاده، [مكتبة راغب باشا، رقم 984].

ب ـ مؤلفاته باللغة العربية:

5 ـ الإسعاف في أحكام الأوقاف، كتاب يتناول فيه الأحكام الفقهية التي تتعلق بالإيجار والاستبدال [مكتبة السليمانية، قسم الشهيد علي باشا، رقم 185، قسم حاجي محمود أفندي، رقم 1076]؛ 6 ـ رسالة في الأوقاف، [مكتبة السليمانية، قسم دغوملي بابا، رقم 446/ 9؛ مكتبة عاطف أفندي، رقم 1778/ 6]؛ 7 ـ حاشية على أنوار التنزيل، عبارة عن حاشية لمؤلف البيضاوي [مكتبة الدولة ببايزيد، قسم ولي الدين أفندي، رقم 81؛ مكتبة متحف سراي طوب قابي، قسم أحمد الثالث، رقم 1541/ 47]؛ 8 ـ طبقات الحنفية، مؤلف تم فيه تصنيف الفقهاء إلى ثلاث طبقات حسب اجتهاداتهم في الدين والمذاهب والمسائل [مكتبة السليمانية، قسم حاجي محمود أفندي، رقم 4662؛ مكتبة متحف استانبول للآثار، رقم 411]. وتم نشر هذا المؤلف من قبل أحمد نيله، غير أنه نسبه خطأ إلى طاش كوبري زاده [الموصل 1954، 1961]؛ 9 ـ حاشية على الدرر، هو عبارة عن حاشية لمؤلف ملا خسرو [مكتبة الدولة ببايزيد، قسم ولي الدين أفندي، رقم 1107، 111]؛ 10 ـ حاشية على الكشاف، هو عبارة عن حاشية لمؤلف الزمخشري المشهور [مكتبة السليمانية، قسم مهريشاه سلطان، رقم 3913؛ قسم أسعد أفندي، رقم 1556/ 1]؛ 11 ـ قصيدة ملمع، عبارة عن نعت مؤلف من ثلاثة وستين بيتا. وتم نشره من قبل حسن آقصوي [انظر البيلوغرفيا].

المصادر والمراجع

● عالي، مصطفى، كنه الأخبار، مكتبة جامعة استانبول المركزية، المخطوطات التركية، رقم 5959، ورق 405ب ـ 406ب؛ ● قنالي، زاده، تذكرة الشعراء، نشر إبراهيم كتلوك، أنقرة 1978 ـ 1981، 2/ 652 ـ 691، 779 ـ 783، وبالإضافة إلى ذلك أنظر: مقدمة الناشر، 1/ 8؛ ● نوعي زاده عطائي، ذيل الشقائق، استانبول 1268، 1/ 165 ـ 168؛ ● كاتب چلبي، ميزان الحق في اختيار الأحقّ، نشر أورخان شائق كوك ياي، استانبول 1972، ص 19؛

● Mehmed Süreyya, Sicill-i Osmani, Istanbul 1308-1315, III, 501; ● Sadeddin Nüzhet Ergun, Türk Sairleri, Istanbul 1936, I, 414-420 ; ● Ali Nihad Tarlan, Divan Edebiyatinda Muamma, Istanbul 1936, p. 4-5 ; ● Mehmet Ali Ayni, Türk Ah-

lakçilari, Istanbul 1939, p. 81-87 ; • Uzunçarsili, Osmanli Tarihi, Ankara 1975, II, 675-677; • Uzunçarsili, Ilmiye Teskilati, Ankara, 1965, p. 234 ; • Hasan Aksoy, Kinalizade Ali Celebi: Hayati Ilmi Edebi Sahsiyeti Arapça Eserlerinin Istanbul Kütüphanelerinde Mevcut Yazma Nüshalari (Master, 1976), Istanbul Universitesi- Edebiyat Fakültesi; • Hasan Aksoy, «Kinalizade Ali Celebi ve Mülemma' Na'ti», Marmara Universitesi Ilahiyat Fakültesi Dergisi, vol. 5-6, 1988, p. 125-133; • Ayse Sidika Oktay, Kinalizade Ali Efendi ve Ahlak-i Alâi (Doktora, 1996), Marmara Universitesi Sosyal Bilimler Enstitüsü; • Ferid Kam, «Kinalizade Ali Celebi», Darülfünun Edebiyat Fakültesi Mecmuasi, I/4 (Eylül 1332), p. 357-359; • Yusuf Ziya, «Kinalizade Ali Efendi'nin Terbiye Telakkisi», Mihrab Mecmuasi, vol. 4, Istanbul 1340 ; • Celal Saraç, «Ahlak-i Alâi», Islam Ilimleri Enstitüsü Dergisi, I, Istanbul 1959, p. 19-28; • Abdülhak Adnan Adivar, «KinalizadeAli Efendi», Islam Ansiklopedisi, Istanbul 1967, VI, 709-711 ; • Mehmed Cavusoğlu, «Kinalizade», Encyclopaedia of Islam (new Edition), V, 115-116; • M. Tayyib Gikbilgin, «Edirne», Türkiye Diyanet Vakfi Islam Ansiklopedisi, Istanbul 1994, X, 428.

د. حسن آقصوي

ترجمة: أنعم محمد عثمان الكباشي - تونس

■ الحنّاطي، أبو عبد الله الحسين

(ت. بعد 400هـ/1010م) ■ ■ ■

هو أبو عبد الله الحسين بن محمد بن الحسن الطبري، الشافعي، المعروف بالحناطي [كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 4/ 48].

والحناطي نسبة لجماعة من أهل طَبَرِسْتَان، منهم هذا الإمام، ولعل بعض آبائه كان يبيع الحنطة [السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 3/ 367؛ النووي، محيي الدين، تهذيب الأسماء واللغات، القسم الأول، الجزء الثاني، ص 254].

كان الحناطي فقيها مفتيا على مذهب الإمام الشافعي، وكان إماما جليلا، وعالما بارزا، له المصنفات النفيسة، والمسائل الغريبة المهمة، والأوجه المنظورة. كما كان - رحمه الله - رجلا حافظا لكتب الشافعي، ولكتب أبي العباس [السبكي، طبقات الشافعية

الكبرى، 3/ 367؛ النووي، محيي الدين، تهذيب الأسماء واللغات، القسم الأول، الجزء الثاني، ص 254].

قدم بغداد وحدَّث بها، وتوفي فيما يظهر بعد الأربعمائة بقليل أو قبلها بقليل والأول أشهر. وفي كشف الظنون: توفي سنة 495 للهجرة الشريفة، [كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 4/ 48؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 3/ 367].

حدَّث ببغداد عن عبد الله بن عَدِيّ، وأبي بكر أحمد بن إبراهيم الإسماعيلي، وغيرهما. قال الخطيب البغدادي في كتابه تاريخ بغداد: حدثنا عنه أبو منصور محمد بن أحمد بن شُعيب الرُّويانيّ، والقاضي أبو الطيب الطَّبري، وغيرهما [السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 3/ 367؛ البغدادي، تاريخ بغداد، 8/ 103]. ومن الغرائب والمسائل عن الحناطي كما ذكرها السبكي في طبقات الشافعية الكبرى:

ـ أن من صلى في فضاء من الأرض بأذان وإقامة، ثم حلف أنه صلى في جماعة أنه يَبَرُّ، لقوله ﷺ: «إن الملائكة تصلي خَلْفَهُ»، ووافقه الشيخ الإمام أبي رحمه الله [السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 3/ 368؛ النووي، محيي الدين، تهذيب الأسماء واللغات، القسم الأول، الجزء الثاني، ص 254].

ـ أنه لا يجوز جعل الذهب والفضة في كاغد كتب عليه بسم الله الرحمن الرحيم، وقد أقره السبكي على ذلك [السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 3/ 368؛ النووي، محيي الدين، تهذيب الأسماء واللغات، القسم الأول، الجزء الثاني، ص 254].

ـ أن من قال لغريمه: أَحْلَلْتُكَ في الدنيا دون الآخرة، برئ في الدارين، لأن البراءة في الآخرة تابعة للبراءة في الدنيا. وقد علق السبكي على هذا القول بأنه فيه نزاع، وذلك بأنه لا يلزم من البراءة في الدنيا البراءةُ في الآخرة، وإنما هو كتأجيل الدَّيْن، ولا يعني ذلك صيرورته مؤجلا، وأن الحالَّ لا يُؤَجَّل، وإنما يعني نحو الوصية، أو نذر تأخير المطالبة، وكأن الدائن ترك حقه من المطالبة في الدنيا، وبقي له المطالبة في الآخرة، أي أن الدَّيْن يبقى في ذمة المدين في الآخرة، ولا يسقط عنه إلا بالبراءة الكلية التي لا يتبعه معها في دنيا ولا أخرى، فمعنى الإبراء في الدنيا ترك حق المطالبة في الدنيا فقط. [السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 3/ 368 ـ 369؛ النووي، محيي الدين، تهذيب الأسماء واللغات، القسم الأول، الجزء الثاني، ص 254] أم من تحقق موته في مرضه فلا تصح وصيته. [السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، 3/ 369؛ النووي، محيي الدين، تهذيب الأسماء واللغات، القسم الأول، الجزء الثاني، ص 254].

آثاره

1 ـ الكفاية في الفروق؛ 2 ـ الفتاوى، [كحالة، معجم المؤلفين، 4/ 48].

المصادر والمراجع

● البغدادي، الخطيب، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان؛ ● حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله، كشف

الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د.ت بعد اعتماده؛ ● السبكي، تاج الدين، (ت 771هـ)، طبقات الشافعية الكبرى، تح. محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، أولى، سنة 1382هـ/1964م؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، مكتبة المثنى بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان؛ ● النووي، محيي الدين بن شرف (ت 676 هجرية)، تهذيب الأسماء واللغات، قوبل على غير نسخة، وعنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، ويطلب من دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد

(164هـ/780م ـ 241هـ/855م)

هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، أصله من بني شيبان. ولد في بغداد سنة 164هـ/ 780م، وتوفي في بغداد سنة 241هـ/ 855م.

درس ببغداد اللغة والحديث، وبعد أن برع فيهما، بدأ رحلاته العلمية الطويلة التي تجاوز بها العراق، وفارس، وخراسان، والمغرب، والجزائر، والشام حتى وصل اليمن ومكة. سمع في صنعاء المفسّر والمحدّث عبد الرزاق ابن همام، وكان يدين بثقافته الفقهية ـ في المقام الأول ـ إلى شيوخه الذين أخذ عنهم في الحجاز وفي بغداد بعد عودته إليها. ولقد تأثر ابن حنبل بدروس سفيان بن عيينة الذي كان حجّة مدرسة الفقه في الحجاز، أكثر من تأثره بدروس أبي يوسف القاضي. وحضر أيضًا في بغداد بعض دروس الشافعي في الفقه وأصوله، ووقع مع الخليفتين المأمون والمعتصم في محنة.. لأنه رفض رأي المعتزلة الذي اعترفت به الدولة حول القول بخلق القرآن. ولم يبدأ ابن حنبل دروسه من جديد إلّا في عهد الخليفة المتوكل الذي رجع إلى مذهب أهل السنة فالتقى حوله عدد كبير من التلاميذ.

وابن حنبل مؤسس المذهب الرابع في الفقه السني، وهو مذهب يفضله أصحاب الحديث، ويستنبط الأحكام من القرآن والسنة، ولا يعتمد على الرأي إلّا في حالات الضرورة، وعلى الرغم من أن رأيه العقيدي مدوّن في مؤلفه «كتاب السنة» فإن أكثر القضايا الفقهية عنده في صيغة إجابات على أسئلة تلاميذه.

وقد قام هنري لاوست وهو متخصص هام في

هذا المجال بدراسات عميقة أثبت بها أنه لا يوافق الحقيقة ما أشيع عن الحنابلة من أنهم يبالغون في تشبيه الله، وأن نزعتهم سلفية صارمة لا تقوى على الحياة، وتسودها روح الصرامة والتعصب ويفتقرون افتقارًا أساسيًا إلى القدرة على التكيف الاجتماعي، وهم عاجزون باستمرار عن قبول النظام القائم. وتبع مذهب أحمد بن حنبل كثير من الناس في العراق والشام والحجاز إلى المائة التاسعة؛ ولم يزل لهذا المذهب أتباع بعد ذلك حتى جدده محمد بن عبد الوهاب وبعث فيه نسمات غضة من الحياة في نجد.

كانت ملامح النبوغ ظاهرة على أحمد بن حنبل، فقد بدأ يسمع الحديث ببغداد وهو ابن ست عشرة سنة. وفي العشرين من عمره أخذ يطوف بالبلاد في طلب العلم. وقد توقع الهيثم ابن جميل نبوغه مبكرًا فقال: إن عاش يكون حجة على أهل زمانه.

وقد جاء عنه قوله: «طلبت الحديث وأنا ابن ست عشرة سنة، ومات هُشيم وأنا ابن عشرين سنة .. وكتبنا عنه كتاب الحج نحوًا من ألف حديث، وبعض التفسير، وكتاب القضاء، وكتبًا صغارًا تتجاوز ثلاثة آلاف حديث»، بيد أنه يقول في موضع آخر: «أول ما طلبت الحديث ذهبت إلى أبي يوسف القاضي ثم طلبنا بعده فكتبنا على الناس»، ويظهر أن علاقته بأبي يوسف قد استمرت طويلًا حتى أنه كتب عليه ثلاثة قماطر من العلم في ثلاث سنوات. وكانت علاقته به متينة حتى أنه كان يفضله على أبي حنيفة ومحمد بن الحسن الشيباني ويقول: «وكان أبو يوسف أميل إلينا من أبي حنيفة ومحمد».

كان أحمد بن حنبل مجتهدًا مطلقًا، أي صاحب ملكة كاملة في الفقه والنباهة وفرط البصيرة والتمكن من الاستنباط المستقل به من أدلته. وكان جليلًا عند العلماء، ونبيلًا عند المحدثين والفقهاء، وقد كرّس نفسه وحياته للعلم والمعرفة والارتفاع عن صغائر الأمور، والسموّ عن أمور وجاذبية الدنيا بحيث قال عنه أبو داؤود السجستاني: «لقيت مائتين من مشايخ العلم، فما رأيت مثل أحمد بن حنبل، لم يكن يخوض في شيء مما يخوض فيه الناس من أمر الدنيا، فإذا ذكر العلم تكلم».

وقد تمتع بذاكرة قوية وكانت حافظته جلية. فقد جاء عنه قوله: حفظت كل شيء سمعته من هُشيم، وهُشيم حي قبل موته.

وجاء عن عليّ المديني قوله: «ليس في أصحابنا أحفظ من أبي عبد الله أحمد بن حنبل. إنه لا يحدث إلّا من كتابه، ولنا فيه أسوة حسنة».

ويتضح أن ابن حنبل قد نال تقدير وإعجاب معاصريه من العلماء والفقهاء الذين شهدوا بعلمه الغزير وورعه وتقواه، فقد قال عنه مهنا ابن يحيى الشامي: «ما رأيت مثل أحمد بن حنبل في علمه وفقهه وزهده وورعه».

وقال قتيبة بن سعيد: لولا أحمد بن حنبل لمات الورع، وكان متواضعًا يكره أن يتخطى الناس في مجلس، وعرف بالأمانة والعفة والتصدي للترف، وصبر على الفقر وكان يردد «إذا لم يكن عندي قطعة خبز أفرح» وإلى هذا كان مهيبًا جليل القدر، فقد قال أبو عبيد القاسم بن سلام: «جالست أبا يوسف القاضي ومحمد بن الحسن ويحيى بن سعيد

وعبد الرحمٰن بن مهدي، فما هبت أحدًا في مسألة ما هبت أبا عبد الله أحمد بن حنبل».

واعتمد محمد بن إدريس الشافعي على ابن حنبل في أخذ الأحاديث الصحيحة إذ جاء عنه قوله لابن حنبل: يا أبا عبد الله، أنت أعلم بالأخبار الصحاح منّا، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني حتى أذهب إليه كوفيًا كان أو بصريًا أو شاميًا.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: جميع ما حدّث به الشافعي في كتابه، فقال: حدّثني الثقة أو أخبرني الثقة فهو أبي رحمه الله، وقد قال أحمد عن الشافعي: استفاد منّا الشافعي ولم نستفد منه.

ولقد نال ابن حنبل ثناء وإكبار أغلب علماء الزمن الذي عاش فيه من محدثين وفقهاء، إذ يقول إدريس بن عبد الكريم المقري الحداد: رأيت علماءنا.. فيمن لا أحصيهم من أهل العلم والفقه، يعظّمون أحمد بن حنبل ويجلّونه ويوقرونه ويبجلونه ويقصدونه للسلام عليه.

لم يهتم ابن حنبل للتعب والجهد في خروجه للعلم، وبقي عفيفًا رافضًا لأخذ المال من أي كان رغم ظروفه الصعبة، وكان يرفض مال السلطان، ويفخر بعفته ولا يكلم ولديه وذويه إن أخذوا شيئًا من السلطان ! فقد جاء عن إسحاق بن موسى الأنصاري: دفع اليّ المأمون مالا أقسمه على أصحاب الحديث، فإن فيهم ضعفاء فما بقي منهم أحد إلّا أخذ إلّا أحمد بن حنبل فإنه أبى.

ويلاحظ أن علمه في زمنه، كان هو الأساس والمرجع للناس إن هم اختلفوا. كما يلاحظ أنه كان صبورًا على الوحدة، فقد جاء عن ابنه عبد الله قوله: «كان أبي أصبر الناس على الوحدة، لم يره أحد إلّا في مسجد أو حضور جنازة أو عيادة مريض، وكان يكره المشي في الأسواق»، وكان دقيقًا في أخذه الأحاديث ويسأل عن العلم وهو في قمة محنته:

«أدخل أحمد بن حنبل على الخليفة، وكانوا هوّلوا عليه، وقد كان ضرب عنق رجلين، فنظر أحمد إلى أبي عبد الرحمن الشافعي، فقال: أي شيء تحفظ عن الشافعي في المسح؟ فقال ابن أبي داؤود: أنظروا رجلا هو ذا يقدم لضرب عنقه يناظر في الفقه».

ويظهر أن غضبه للحق وصبره في المحنة وفرض الإقامة الجبرية عليه ورفضه مال السلطان ونزاهته وشجاعته، أمور جعلت الناس تنسج عنه كرامات بعد رحيله.

لقد ظلّ ابن حنبل يعتذر عن العمل مع السلطان إلّا بشروطه، وظلّ لا يأخذ مال السلطان، وإن اضطر لأخذه يتصدق به على الفقراء والمحتاجين، فقد وجه إليه المتوكل عشرة آلاف درهم، فقال لابنه: «يا صالح خذ هذه فصيّرها عنك». قال صالح: فصيرتها عند رأسي فوق البيت، فلما كان السحر، إذ هو ينادي يا صالح، فقمت إليه، فقال: يا صالح ما نمت ليلتي هذه، فقلت: لم ؟ فجعل يبكي، وقال: سلمت من هؤلاء، حتى إذا كان آخر عمري بليت بهم، قد عرضت على أن أفرق هذا الشيء إذا أصبحت».

وبقي أحمد بن حنبل يجهر برأيه ويفصح عن شجاعة في قول الحق، إذ كتب للمتوكل: «قد

كان الناس في خوض من الباطل واختلاف شديد يغتمسون فيه حتى أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين فنفى الله بأمير المؤمنين كل بدعة، وانجلى عن الناس ما كانوا فيه من الذل وضيق المجلس».

وكتب إليه عن القرآن الكريم: ..وقد روي عن غير واحد ممن مضى من سلفنا أنهم كانوا يقولون: القرآن كلام الله ليس بمخلوق، وهو الذي أذهب إليه، لست بصاحب كلام، ولا أدري الكلام في شيء من هذا إلّا ما كان في كتاب الله أو حديث عن النبي ﷺ أو عن أصحابه أو عن التابعين (رحمهم الله).

وتجدر الإشارة إلى أن أحمد بن حنبل قد أدرك من أتباع التابعين ما لا يحصون كثرة، وكان لا يجد بأسًا في أخذ الحديث عن امرأة وهو مؤشر على سعة أفقه، ولقد كان يردد كثيرًا في سجوده: اللهم كما صنت وجهي على السجود لغيرك فصُنْ وجهي عن المسألة لغيرك.

أحصى ابن النديم مؤلفات ابن حنبل في الكتب التالية: كتاب العلل، كتاب التفسير، كتاب الناسخ والمنسوخ، كتاب الزهد، كتاب المسائل، كتاب الفضائل، كتاب الفرائض، كتاب المناسك، كتاب الإيمان، كتاب الأشربة، كتاب طاعة الرسول، كتاب الردّ على الجهمية، كتاب المسند، يحتوي على نيف وأربعين ألف حديث.

ويبدو أن موقف ابن حنبل في المحنة، ذلك الموقف الذي وصفه بشر بن الحارث: «أدخل أحمد بن حنبل الكير فخرج ذهبة حمراء»، والقول: محنة ابن حنبل لولاها لصار الناس جهمية.. والقول: «لولا أحمد بن حنبل وبذل نفسه لما بذلها لذهب الإسلام». أمور ترينا تقدير الفقهاء والناس له في زمنه، وتشير إلى دور الفقيه الاجتماعي والسياسي في حضارتنا وفي تاريخ الأمة، فنحن نعلم الآن أن أحمد ابن حنبل قد خاض غمار الصراعات الثقافية والسياسية منذ وقت مبكر نسبيًا، إذ الراجح أنه كان بين قادة حركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي سيطرت ببغداد بعد مقتل الأمين عام 198هـ، والتي قاومت الفوضى الداخلية، ونجحت في منع المأمون من دخول العراق حتى العام 202هـ، ومن هنا فإن نزاعه وزملاءه مع المأمون والعصبة القادمة معه نزاع قديم، ربما عاد إلى أيام هارون الرشيد.

وقد غطت مسألة خلق القرآن التي صرف المأمون الأنظار إليها الجوانب الهامة الأخرى، لكن تلك الجوانب برزت في كتب أحمد وزملائه وتلاميذه، فقد كتب أحمد رسالة في «الرد على الجهمية والزنادقة» ذكر فيها زنادقة الشعوبية، وقال في عقيدته التي رواها عنه تلميذه أحمد بن جعفر الأصطخري بعد ذكر الإيمان والإسلام، وعدم تكفير أهل القبلة: «ونعرف للعرب حقها وفضلها وسابقتها، ونحبهم لحديث رسول الله: حبهم إيمان، وبغضهم نفاق، ولا نقول بقول الشعوبية وأراذل الموالي الذين لا يحبون العرب..» وقد جمع أحمد بن حنبل وتلاميذه أحاديث وآثارًا كثيرة في فضل العرب، وفي ذم كارهيهم من مثل: «...من أحبَّ العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، وأحبوا العرب وبقاءهم نور في

الإسلام» و«إذا ذلّت العرب ذلّ الإسلام» و«يا سلمان لا تبغضني يفارقك دينك ! فقال: يا رسول الله، كيف أبغضك وبك هداني الله؟ قال: تبغض العرب».

وهذا يؤشر أن فكر ابن حنبل في أبرز جوانبه متشبث بالعروبة والعربية والتكامل والتناغم بين العروبة والإسلام.

ويبرز فكر ابن حنبل الاجتماعي في كتاب «الزهد»، فمن المعروف أن اتجاه الزهد كان من فكرة أن المال الزائد قد يلهي عن ذكر الله، وبذلك تصبح الثروة خطيئة، أضف أن الزهد في الإسلام لا يدعو إلى الانقطاع عن الدنيا ولم يكن خاليًا من الموقف الاجتماعي، لأن الدعوة إلى الزهد كانت تحتوي على مقاومة لمظاهر الثراء الشديد، وقد أدرك ابن حنبل هذا الأمر بدقّة وفهم ووظفه بمهارة، ولذا يركز على أن الإسلام يتضمن دعوة تقوم على أساس تنسكي قوي، فيورد مثلًا في كتاب الزهد: «دخل النبي محمد ﷺ على عثمان بن مظعون، وهو في الموت فأكبّ عليه يقبله، ويقول: رحمك الله يا عثمان ما أصبت من الدنيا ولا أصابت منك».

ويورد ما مفاده: أن النبي محمد ﷺ قال: «تبًا للذهب، تبًا للفضة»، فشقّ ذلك على أصحاب النبي ﷺ فقالوا: أيّ مال نتخذ ؟ فقال عمر ﷺ: أنا أعلم لكم ذلك، فقال: يا رسول الله إن أصحابك قد شقّ عليهم، فقالوا: أي مال نتخذ؟ قال: «لسانًا ذاكرًا وقلبًا شاكرًا، وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على دينه».

وينقل حديث أبي ذر الغفاري الذي يقول فيه: «إن خليلي عهد إليّ أيما ذهب أو فضة أوكى عليه، فهو جمر على صاحبه يوم القيامة حتى يفرغه في سبيل الله». كما يورد عنه قوله عن الدنيا: «المخفف فيها أهون من المثقل».

وحقًا أن أحمد بن حنبل، قد ارتفع بروحه وحقق سموًا كبيرًا رفع من منزلته كمفكر وإنسان معًا، بحيث يحق لنا أن نشعر بالزهو ونحن نرى فيه تمسكه بحرية الرأي والعقيدة، وتكريس حياته للعلم والمعرفة، دون أن يغمض العينين عن شؤون مجتمعه، وتمسكه بجمر المبادئ وشرف العقيدة، والتأسيس للأصول في الفقه، بحيث استحق وعن جدارة أن يظلّ رمزًا لوعي وصفاء وصدق وشجاعة العالم الحصيف، والمحدث الثقة في تاريخ الأمة، وكفى بذلك آية.

آثاره

1 ـ الورع والإيمان، القاهرة، 1340هـ؛ 2 ـ كتاب الزهد، دار الكتب العلمية، بيروت 1978م؛ 3 ـ كتاب السنّة، مكة المكرمة، 1349هـ، والقاهرة (بدون تاريخ)؛ 4 ـ المسند، 6 أجزاء، القاهرة، 1313هـ؛ 5 ـ كتاب الصلاة، القاهرة، 1322، 1323هـ؛ 6 ـ محنة ابن حنبل، لابن عمه أبي علي حنبل بن إسحاق بن حنبل (ت 273هـ/ 886م) طبع بالقاهرة (بدون تاريخ)؛ 7 ـ مناقب أحمد بن حنبل، لابن الجوزي (ت 597هـ/ 1200م)، طبع بالقاهرة 1932م؛ 8 ـ أحمد بن حنبل، محمد أبو زهرة، القاهرة، 1949م؛ 9 ـ أحمد بن حنبل والمحنة، علي عبد الحق، القاهرة، 1958م؛

10 ـ خصائص المسند، أبو موسى المديني (ت 557هـ/ 1162م)، تح. أحمد محمد شاكر، «في مقدمة تحقيق المسند»، القاهرة، 1949م؛ 11 ـ كتاب الردّ على الزنادقة والجهمية فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه غير تأويله، تحقيق وترجمة إلى التركية من قبل: قوام الدين [سزكين، تاريخ التراث العربي، المجلد الأول، الجزء الثالث، الفقه، ص 223].

المصادر والمراجع

● أبو نعيم، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988، 9/ 161، 233؛ ● ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، ص 320؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح. د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، المجلد الأول، ص 63 ـ 65؛ ● الزركلي، الأعلام، ط 3، 1/ 192 ـ 193؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة د. عبد الحليم النجار، ط 2، دار المعارف بمصر، ص 308 ـ 313؛ ● سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، ترجمة د. محمود فهمي حجازي، المجلد الأول، ج 3، الفقه، ص 215 ـ 227.

د. نجمان ياسين
جامعة الموصل ـ العراق

ابن حنبل، أبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد

(213هـ/828م ـ 290هـ/903م)

عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل، بن هلال بن أسد [الخطيب، تاريخ بغداد، 9/ 375] أبو عبد الرحمن، الذهلي [الذهبي، سير، 11/ 62] الشيباني البغدادي، المروزي الأصل [الذهبي، تذكرة، 2/ 665]. يرجع نسبه إلى قبيلة بني شيبان العدنانية.

محدّث، علم، مشهود له بالتمكّن من علم الرجال والعلل، وارتبطت شهرته خاصّة بروايته لمسند أبيه، وزيادته على مصنّفاته.

ولد ببغداد في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ومائتين 213هـ في عصر الخليفة المأمون (ت 218هـ) الذي قامت في أيامه فتنة القول بخلق القرآن. وأمّه ريحانة، تزوجها أحمد بعد موت عباسة أمّ صالح، فولدت له عبد الله ولم يولد له منها غيره.

نشأ في بيت علم وزهد وصلاح، وتولّى أبوه رعايته وتعليمه منذ صغره، وهو أعظم شيخ له في مرحلتي الكتّاب والطلب. وكان حريصًا على توجيهه فينتقي له شيوخه حتّى أنه لم يكتب عن أحد ـ في أوّل أمره ـ إلّا من أمره أبوه أن يكتب عنه [ابن حجر، تهذيب،

5/ 143] وقد منعه من الأخذ عن علي بن الجعد بن عبيد الجوهري البغدادي (ت 330هـ) [الذهبي، التذكرة، 2/ 665] وذلك لبدعته [ميزان الاعتدال، 3/ 116]، كما حذره من كتابة أحاديث الرواة الأقدمين غير الثقات، قال عبد الله: نهاني أبي أن أكتب من حديث خارجة بن مصعب بن خارجة أبي الحجاج السرخسي (ت 168هـ) شيئا [العقيلي، الضعفاء، 2/ 26] لأنه كان يدلس عن الكذابين [ابن حجر، التقريب، ص 186]. ومن مظاهر عناية أحمد بابنه ورعايته العلميّة له أنه كان يكرر عليه مسموعاته ليتقن تحمّلها وليجوّد عمله، قال عبد الله: كلّ شيء أقول قال أبي، قد سمعته منه مرّتين أو ثلاثا وأقلّه مرّة [الخطيب، تاريخ بغداد، 9/ 376].

ويسّرت له حظوته عند أبيه التبكير في السماع كما هو ملاحظ في أخذه عن إسحاق بن إسماعيل الطالقاني (ت 225هـ) قبل أن يتجاوز الثالثة عشرة من عمره، ونوّه شيوخه بمواظبته على طلب الحديث في العراق وغيرها [الذهبي، السير، 11/ 65] وهذا يدلّ على ارتحاله للسماع خارج بلده، ولكن لم تصلنا تفاصيل ذلك، وفي روايته لكتب أبيه تسمية لبعض المدن التي دخلها أيام تلمذته منها الكوفة التي أخذ فيها عن أبي بكر بن أبي شيبة (ت 235هـ) [المسند، 5/ 287] ومكّة التي سمع بها من أبي يوسف يعقوب بن حميد ابن كاسب (ت 241هـ) [الزهد، 1/ 73]، كما تلقّى عن زكريا بن يحيى بن حمويه بواسطة [الزهد، 2/ 164، ط. دار النهضة، 1981م].

ويبدو من هذا أنّ رحلته كانت بعد تجاوزه العشرين من العمر، وممّا يفسّر هذا علوّ المركز العلمي لبغداد وقتئذ حيث هي عاصمة العلم ومثابة شيوخه ومحطّ رجال الطلبة، ولا يتهيّأ خروج أبنائها منها للقاء محدّثي الأمصار إلّا في سنّ متأخرة نسبيًا. وفي أخبار المترجم له ما يفيد أنه كان يكاتب بعض علماء المدن لينتفع بعلمهم في معرفة الرواة ونقدهم [العقيلي، الضعفاء، 2/ 118، 171، 259].

له مشيخة كبيرة نرى اتّساع محيطها في زوائده على كتب أبيه وفي الروايات التي تعدّدت مصادره فيها فسمعها من أبيه ومن غيره، وأعلى طبقاته في السماع صغار شيوخ أبيه، وأغلب من أخذ عنهم من الثقات وهذا من أثر والده في توجيهه.

بلغ عدد من روى عنهم في المسند ستة وخمسين ومائة (156) رجل، منهم خمسة وتسعون روى عنهم في زوائده، والبقيّة ليست أحاديثهم من الزوائد [عامر حسن صبري، زوائد عبد الله بن أحمد، 15 ـ 63].

ويلاحظ أنّ عبد الله لم يلتزم ـ بعد زوال المحنة ـ بمنهج والده في ترك الرواية عمّن أجاب في فتنة خلق القرآن، أعذارا لهم، إذ نجده يروي في زوائده عن أبي معمّر اسماعيل ابن إبراهيم الهذلي، وأبي كريب محمد بن العلاء، ويحيى بن معين الذين كان أحمد لا يعذرهم في إجابتهم في الفتنة وعدل عن التحديث عنهم.

ومن أعيان أساتذته: ـ والده الذي تخرّج عليه في الحديث وقرأ عليه عامّة تصانيفه [الخطيب، تاريخ بغداد، 9/ 375]. ولم يكن في الدنيا أحد أروى عن أبيه منه [ابن

حجر، تهذيب، 5/ 142]، ولما سئل عبد الله عن مقدار ما أخذ عن والده قال: سمعت منه مائة ألف وبضعة عشر ألفا [الذهبي، تذكرة، 2/ 665]، ويحيى بن معين (ت 233هـ) أستاذ عصره في الجرح والتعديل، وأكثر ما أخذ عنه عبد الله يتعلّق بالنقد، والحافظ أبو بكر بن أبي شيبة صاحب المصنّف (ت 235هـ)، وأبو خيثمة زهير بن حرب محدث بغداد (ت 234هـ)، وعثمان بن محمد بن أبي شيبة أبو الحسن صاحب المسند والتفسير (ت 239هـ).

بلغ درجة أكابر المحدثين. شهد له أبوه بالتمكّن وسعة الحفظ فذكر أنه وعى علما كثيرا، وأنه محظوظ من علم الحديث، ولا يكاد يذاكره إلّا بما لا يحفظ [تاريخ بغداد، 9/ 376]. ووصفه الذهبي بالإمام الحافظ الحجّة محدّث العراق [تذكرة، 2/ 665] وترجم له في المعين في طبقات المحدّثين [ص 155]. وفي تذكرة الحفاظ، وقال عنه ابن عدي: نبل بأبيه وله في نفسه محلّ في العلم [ابن حجر، تهذيب، 5/ 143].

وعامّة النقاد يوثقونه ويشهدون له بالإمامة والتقدّم [ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل، 5/ 7؛ الخطيب، تاريخ بغداد، 9/ 375؛ الذهبي، السير، 11/ 62؛ التذكرة، 2/ 665؛ ابن حجر، تهذيب، 5/ 141].

تتلمذ له الكثير من معاصريه [تاريخ بغداد، 9/ 375] وفيهم كبار المحدّثين وأعلام المصنّفين بالأمصار منهم: أبو القاسم عبد الله بن محمد البغوي (ت 317هـ)، وأبو عوانة يعقوب بن إسحاق الأسفراييني (ت 316هـ)، وأبو عبد الرحمن النسائي صاحب السنن (ت 303هـ)، وسليمان بن أحمد الطبراني (ت 360هـ)، وقاسم بن أصبغ ابن محمد الأندلسي (ت 340هـ).

ومن مشاهيرهم أيضًا أبو بكر الخلال، وأبو بكر النجاد، والحسين المحاملي، وأبو بكر القطيعي، وأبو الحسين بن المنادي، وأبو علي بن الصوّاف.

تجاوز تأثير الإمام أحمد على ابنه عبد الله دائرة العلم والاختصاص إلى دائرة السلوك والاعتقاد، فكان الابن نسخة من أبيه في صلاحه وصدق لهجته وكثرة حيائه [ابن حجر، تهذيب، 5/ 143]؛ وفي تديّنه وتصونه واتباعه [الذهبي، السير، 11/ 67]. واستمرّت حياته على هذا النهج القويم إلى أن توفي ببغداد يوم الأحد في جمادى الآخرة سنة 290هـ وله سبع وسبعون (77) سنة كأبيه، وصلّى عليه ابن أخيه زهير بن صالح، ودفن في آخر النهار لتسع (9) بقين من الشهر المذكور في مقابر باب التبن ـ محلة كانت ببغداد على الخندق بإزاء قطيعة أم جعفر ـ وكان الجمع كثيرا فوق المقدار [تاريخ بغداد، 9/ 376].

عرف عبد الله بتفرّغه للدراسات الحديثية وانقطاعه لها دون سواها حتّى قال عنه الذهبي: لم يدخل في غير الحديث [سير، 11/ 67]، وأهمّ مجالاته التخصصيّة: الرواية، والنقد جرحا وتعديلا وعللا، وأقر له أكابر المشايخ بتبريزه فيها وبالغ بعضهم فقدّمه على أبيه في هذا الشأن.

قال تلميذه أحمد بن المنادي (ت 336هـ) في تاريخه: مازلنا نرى أكابر شيوخنا يشهدون

لعبد الله بمعرفة الرجال، وعلل الحديث والأسماء والكنى والمواظبة على الطلب في العراق وغيرها ويذكرون عن أسلافهم الاقرار له بذلك حتى أفرط بعضهم في تقريظه إيّاه وقدّمه على أبيه في الكثرة والمعرفة [الخطيب، تاريخ بغداد، 9/ 376].

إن أهمّ أعماله في الرواية ثلاثة:

ـ أنه كان راوية أبيه، وتعدّ روايته للمسند هي الرواية الوحيدة له، والتامّة التي وصلتنا، وقد جمعها وزاد عليها ورتّبها على نحو قريب من الصورة الموجود عليها المسند اليوم، وأخذها عنه أبو بكر أحمد بن جعفر القطيعي (ت 368هـ)، علما وأنّ الإمام أحمد قد مات ومسنده مازال في المسودّة مفرق الأوراق ومن غير تنقيح. وخدمته هذه للمسند أسهمت في حفظ علم أبيه وبوّأت عبد الله مكانة رفيعة بين المحدّثين. قال عنه ابن عدي: أحيى علم أبيه من مسنده الذي قرأه عليه أبوه خصوصا قبل أن يقرأه على غيره، ومما سأل أباه عن رواة الحديث فأخبره به ما لم يسأله غيره [الذهبي، سير، 11/ 66].

ولم تقتصر خدمة عبد الله للميراث العلمي لأبيه على المسند فقط، بل لا نكاد نجد كتابا ينقل عن أحمد وليس هو من رواية عبد الله. ونوّه ابن عدي بهذا الأمر حين قال: لم يكن أروى في الدنيا عن أبيه من عبد الله بن أحمد لأنّه سمع منه المسند وهو ثلاثون ألفا، والتفسير وهو مائة وعشرون ألفا، سمع ثلثيه والباقي وجادة، وسمع منه الناسخ والمنسوخ، والتاريخ، وحديث شعبة، والمقدّم والمؤخر من كتاب الله، وجوابات القرآن والمناسك الكبير، والصغير، وغير ذلك من التصانيف وحديث الشيوخ [البغدادي، تاريخ، 9/ 375].

ـ استدراكاته على مرويات أبيه، بالزيادة فيها، فكلّ ما نقله عن أبيه نسبه إليه، وزاد عليه مسموعاته من غيره من الشيوخ، ولعبد الله عناية بالزوائد، وألف فيها على عدّة من كتب أبيه في الرواية وغيرها [انظر فقرة مصنفاته] ولم تكن زياداته دائما صحيحة والتزم فقط بإيرادها مسندة، وزيادته في الآثار أكثر وأوسع دائرة ممّا هي عليه في المرفوعات وهذا واضح في كتاب الزهد لأبيه، أما زياداته في المسند فبلغت تسعا وعشرين ومائتي (229) رواية، منها واحد وثلاثون (31) أثرا موقوفا على الصحابة، ومنها ستة وخمسون (56) حديثا وردت في مادّة الكتب الستة، وأكثر من نصف هذه الزيادات لا يعد صحيحا [عامر حسن صبري، 123 ـ 125].

ـ تأليفه المستقلّ في الرواية، من غير اتباع لأبيه، وما وصلنا من مؤلفاته في هذا الشأن يدلّ بحجمه وموضوعه على رفعة مكانة عبد الله كمحدّث حافظ.

ـ أما جهوده في النقد فتبرز في أقواله في الجرح والتعديل وفي العلل التي أوردها تعاليق على الرواة منثورة في مسند أبيه؛ وقد جاء قسط كبير من آرائه في كتابه العلل ومعرفة الرجال الذي روى قسمه الأكبر عن أبيه.

ويلحق بهذا النقد ويتمّمه كعمل توثيقي عنايته بالتعريف بالرجال أثناء روايته للحديث كلما دعت الحاجة إلى ذلك فيضيف توضيحات وتدقيقات لمزيد ضبط هوية الراوي وتوسيع دائرة المعرفة به إزالة للبس والتوهّم وأكثر ما

يفعل ذلك إذا ورد الاسم مختصرا أو كان مشابها لغيره.

ودراسة أقواله في الرجال والعلل تكشف عن معرفته الواسعة بطبقات الرواة ومراتبهم وطرق روايتهم ومعرفة درجة أحاديثهم واختلاف وجوهها، وتنتمي أعماله النقدية من الناحية الزمنيّة إلى القرن الثالث الهجري، الذي يمثّل في تاريخ النقد مرحلة التخصّص في مباحث الجرح والتعديل، فإذا أضفنا إلى هذا اشتهار عبد الله ببصره بالرجال [الذهبي، سير، 11/ 67] وخبرته بالحديث وعلله وتقدّمه فيه [ابن العماد، شذرات، 2/ 203]، وإقرار الأكابر له بذلك [الخطيب، تاريخ، 9/ 376] أدركنا مدى اسهام المترجم له في انطلاق مرحلة التصنيف المنهجي الشمولي في الضعفاء التي عرفها القرن الرابع مع الأعمال الموسوعيّة للعقيلي، وابن حبّان، وابن عديّ.

وقيمته هذه تؤكّدها كثافة النقول عنه في كتب الجرح والتعديل التي ظهرت بعده، وهذه النقول ليست كلها مما رواه عن أبيه بل فيها كم كبير ممّا سمعه من غيره، ومما هو من اجتهاده الشخصي ابتداء.

وتذكر أقواله عادة في الجرح والتعديل في الكتب الرجالية لابن أبي حاتم الرازي، والعقيلي وقد أكثرا عنه، وابن عدي، والذهبي، وابن حجر.

آثاره

وصلتنا كلّها تقريبا، وهي لا تخرج عن دائرة الحديث رواية ونقدا مع شيء من الفقه، ولها أهمّيتها في مجالي التخريج وعلم الرجال:

1 ـ زوائده في المسند، حققه عامر حسن صبري، ونشرته دار البشائر الاسلامية ببيروت، ط1، 1410هـ/ 1990م، وليس صحيحا ما يقال من أنّ مادّته تبلغ نحو ربع المسند وأنّه مشتمل على عشرة آلاف حديث كما جاء عند الكتاني، [الرسالة، ص 16]؛ 2 ـ الزوائد على كتاب الزهد لأبيه [حاجي خليفة، كشف الظنون، 2/ 1423]، ومادّته مدمجة مع كتاب الزهد لأحمد وأكثرها الأعم آثارا ويقلّ فيها المرفوع، وأجود طبعات الكتاب طبعة دار النهضة العربية ببيروت بتحقيق محمد جلال شرف سنة 1981؛ 3 ـ زوائد فضائل الصحابة، صنف أحمد كتابا في فضائل الأربعة وبعض الصحابة الآخرين، وأورد الأحاديث المروية في ذلك، وفيه زيادات من رواية ابنه عبد الله، طبع الكتاب بتحقيق وصيّ الله عباس ونشرته جامعة أم القرى بمكة سنة 1403هـ؛ 4 ـ كتاب السنة، ويسمّى أيضًا كتاب الرد على الجهمية [الذهبي، سير، 11/ 66] تناول فيه المسائل الاعتقادية المختلف فيها بين أهل السنة وغيرهم كالصفات والرؤية واللفظ بالقرآن والايمان وغيرها، وأجاب فيها على طريقة السلف، وهو في الواقع زوائد على كتاب السنة لأحمد بن حنبل، نشرته دار الكتب العلمية ببيروت بتحقيق محمد زغلول، 1405هـ، ودار ابن القيّم بالدمّام في السعوديّة سنة 1406هـ، وكانت طبعته الأولى في مكة سنة 1349هـ؛ 5 ـ كتاب العلل ومعرفة الرجال، وهو سؤالات عبد الله لأبيه في الجرح والتعديل وأجوبتها جمعها عبد الله

وزاد فيها زيادات عن شيوخه غير أبيه، وصيغته الغالبة: سألت أبي، وسمعت أبي يقول، وحدثني أبي، وقال أبي، وهو في هذا ككتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم الرازي الذي نقل أغلب مادته عن أبيه؛ 6 ـ مسائل الإمام أحمد، وهي مسائل فقهية جمعها عبد الله ورتّبها على الأبواب، فيها ما سأل عنه أباه من قضايا أو سمعه يجيب عنها أو أملاها عليه من غير سؤال، طبعها المكتب الاسلامي ببيروت سنة 1410هـ بعناية زهير الشاويش؛ 7 ـ مسند أهل البيت، مخطوط في مجموع قديم بالتيمورية [الزركلي، الأعلام، 4/ 65]؛ 8 ـ مسند الأنصار، منه نسخة بالمكتبة الظاهرية رقمها 336 [سزكين، 2/ 211؛ صبري عامر حسن، زوائد المسند، ص 68]؛ 9 ـ المناسك الصغير، ذكره الخطيب، [تاريخ بغداد، 9/ 375] والذهبي، [السير، 11/ 65]؛ 10 ـ الثلاثيات، مخطوطة في 85 ورقة كتبت سنة 654هـ وموجودة في شستربيتي، رقمها 3487 [الزركلي، الأعلام، 4/ 65]؛ 11 ـ كتاب الجمل، ذكره الذهبي، [السير، 11/ 67] ولعلّه يتحدّث عن معركة الجمل.

المصادر والمراجع

● الخطيب، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، 9/ 375 ـ 376؛ ● ابن أبي يعلى الفرّاء، طبقات الحنابلة، المكتبة العربية بدمشق 1350هـ، ص 131 ـ 134؛ ● الذهبي، تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2/ 665 ـ 666؛ ● سير أعلام النبلاء، تح. العمروي، دار الفكر بيروت 1996، 11/ 62 ـ 68؛ ● ابن حجر، تهذيب التهذيب، دار الكتاب الاسلامي، بيروت، 5/ 141 ـ 143؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط أولى، 1399هـ/ 1979م، 2/ 203 ـ 204؛ ● صبري، عامر حسن، زوائد عبد الله بن أحمد في المسند، مع دراسة عن الإمام عبد الله وجهوده في خدمة السنة، دار البشائر الاسلامية، بيروت، ط 1، 1410هـ/ 1990، ص 8 ـ 131.

د. محمد الناصر الزعايري

جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن الحنبلي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم

(908هـ/ 1502م ـ 971هـ/ 1563م)

ولد في حلب في عام 908هـ الموافق لعام 1502م، وهو من قبيلة ربيعة. يتصل نسبه من جهة والدة أبيه بالفقيه والمؤرخ أبي الوليد بن الشحنة، ورغم أنه كان حنفي

المذهب إلا أنه أطلق عليه «ابن الحنبلي» وذلك لأن أباه وأجداده كانوا حنابلة. وقد أخطأ محمد ثريا بك [سجلي عثماني، 4/ 116] عندما قال إن ابراهيم الحنبلي هو ابنه.

تلقى ابن الحنبلي دروسه الأولى في العلم من أبيه، وقد درس القرآن الكريم على يد العالم أحمد بن حسين البقزي، وقرأ كتبًا في النحو العربي على يد عبد الرحمن بن فخر النسا، وشهاب الدين أحمد الهندي. وفي عام 929هـ/ 1523م قدم كتابه «مصباح الدجى في حروف الرجا» إلى ميمار زادة قاضي حلب وتمت مكافأته وتوظيفه بخمسة أقجات. ثم بعد ذلك قام بشرح قصيدة أبي السعود أفندي «القصيدة الميمية» وأرسلها إليه، فأعجب أبو السعود بهذا الشرح وتم ترفيع مرتبه إلى عشرة أقجات.

في عام 941هـ/ 1534م تلقى في حلب دروسا في علم الحديث على يد محمد بن شعبان الديروطي وأجيز في هذا العلم، ودرس الحساب على يد محمد الحناجري، والفلك على يد ولي الدين الشرواني، كما درس البلاغة على يد موسى الرسول الحلبي، وتلقى علوما مختلفة على يد برهان الدين ابراهيم العمادي. وفي عام 954هـ/ 1547م ذهب ابن الحنبلي إلى الحج وبعد عودته منه اتجه إلى دمشق واستقر بها، ومن أشهر التلاميذ الذين درسوا على يديه نجد شيخ الإسلام محمود البليوني، وشيخ الإسلام شمس الدين بن منقار، وشيخ الإسلام قاضي محب الدين محمد بن أيوب الدمشقي، والشيخ شمس الدين الأسدي. وبعد أن عُيّن رئيسا للمدرسين في حلب أصبح يقضي كل وقته في التأليف والتدريس. توفي ابن الحنبلي في حلب في 13 جمادى الأولى 971هـ الموافق لـ 29 ديسمبر 1563م ودفن في مقابر الصالحين بجانب مقبرة شيخ محمد الخاتوني.

يعرف عن ابن الحنبلي أنه كان عالما ذكيا وصاحب ذاكرة قوية، ترك حوالى سبعين مؤلفا باللغة العربية، كما تذكر المصادر أنه كان شاعرا مميزا، ويقول شهاب الدين الخفاجي أنه كان ينظم شعرا بديعا [ريحانة الألباء، 1/ 169]، إلّا أن نجم الدين الغازي يصف أشعار ابن الحنبلي بعدم الجودة [الكواكب السائرة، 3/ 43].

آثاره

1 ـ درر الحبب في تاريخ أعيان حلب، كتاب تراجم ألف في عام 933هـ، ويدور حول علماء حلب الذين عاصروا الكاتب، نشره محمود الفاخوري ويحيى زكي عبادة، دمشق 1972 ـ 1974م؛ 2 ـ الزبد والضرب في تاريخ حلب، هو مختصر لكتاب ابن العديم «زبدة حلب»، وفيه بعض الإضافات الصغيرة، نشره محمد التونجي، صفاة ـ الكويت 1409هـ/ 1988م؛ 3 ـ إنباء المستفيد بأخبار خالد بن الوليد، [مكتبة السليمانية، قسم الشهيد علي، رقم 2718/ 4، ورق 35ب 40أ]؛ 4 ـ الآثار الرفيعة في معاصري بني ربيعة، كتاب يتناول تاريخ قبيلة بني ربيعة التي ينتمي إليها المؤلف، نشر عبد العزيز صالح الهلالي، الكويت 1406هـ/ 1985م؛ 5 ـ الروائح العودية في مدائح السعودية، كتاب في مناقب أبي السعود أفندي، مكتبة برنستون، رقم 4319؛ 6 ـ عدة الحاسب

وعمدة المحاسب، هو شرح لكتاب ابن الهائم «نزهة النظار في صناعة القبار»، [دار الكتب المصرية، الفلك ـ الرياضة، رقم 4301/ 1]؛ 7 ـ مخائل الملاحة في مسائل الملاحة، هو شرح لقسم الملاحة في كتاب ابن قاضي الهمامية الواسطي غنية الحساب في علم الحساب، وتوجد نسخة من هذا الكتاب مؤلفة في رمضان 961هـ/ أغسطس 1554م في مكتبة برنستون، رقم 434؛ كما توجد نسخة أخرى مستنسخة في عام 972هـ/ 1564 ـ 1565م في دار الكتب المصرية [الفلك ـ الرياضة، رقم 4301/ 2، ورق 56ب ـ 73ب]؛ 8 ـ تذكرة من نسي بالوسط الهندسي، [الإسكندرية مكتبة البلدية، الفنون، رقم 177/ 1]؛ 9 ـ رفع الحجاب عن قواعد الحساب، هو شرح لكتاب أبي اللطيف الحسكفي المختصر، وهو كتاب متعلق بحساب الذهن، [حلب مكتبة الأحمدية، للاطلاع على هذه النسخة انظر عز الدين التنوني، ص 90، المتحف البريطاني، أور، رقم 5821]؛ 10 ـ أنوار الحالك على شرح المنار لابن الملك، هو عبارة عن حاشية كتاب شرح المنار المتعلق بأصول الفقه، استانبول 1306، 1315هـ؛ 11 ـ حاشية على شرح اللبّ في الأصول، هو حاشية لشرح زكريا الأنصاري «غاية الوصول إلى لبّ الأصول» وهو شرح لكتابه «لبّ الأصول» الذي هو مختصر لكتاب تاج الدين السبكي «شرح اللبّ في الأصول»، مكتبة برنستون، رقم 5452؛ 12 ـ ربط الشوارد في حل الشواهد، هو شرح للشواهد المذكورة في كتاب سعد الدين التفتازاني الذي هو بدوره شرح لكتاب عز الدين الزنجاني «العز في التصريف»، نشره شعبان صلاح، القاهرة 1409هـ/ 1989م؛ 13 ـ بحر العوام في ما أصاب فيه العوام، كتاب حول لغة العوام وكلماتها، ونشر الكتاب من قبل عز الدين التنوخي وشعبان صلاح، القاهرة 1410هـ/ 1990م؛ 14 ـ نور الإنسان في اشتقاق لفظ الإنسان، نشره رشيد عبد الرحمٰن العبيدي، مجلة الأستاذ، 1/ 3، بغداد 1980، ص 137 ـ 179؛ 15 ـ كحل العيون النجل في حل مسألة الكحل، كتاب يتعلق بعلم النحو، وتوجد نسخة منه في مكتبة البلدية بالإسكندرية، الفنون، رقم 177/ 2؛ 16 ـ عقد الخلاص في نقد كلام الخواص، أعد حوله نهاد حاسبوي صالح رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب 1983، نشر داخل كتاب «جهود ابن الحنبلي اللغوية»، بيروت 1407هـ/ 1987م، ص 141 ـ 359؛ 17 ـ المنصور العودي على منظوم السعودي، هو شرح لقصيدة أبي السعود أفندي «القصيدة الميمية»، مكتبة برنستون، رقم 4149، ورق 26ب ـ 46ب؛ 18 ـ الديوان، كتاب قام بنسخه تلميذ ابن الحنبلي محمد بن ملا الشافعي، توجد النسخة الوحيدة من المؤلف في دار الكتب المصرية [المجامع، رقم 85]؛ 19 ـ تحفة الأفاضل في صناعات الفاضل والإنشاء [مكتبة شروم الشعبية، رقم 3111/ 3: انظر ششن، 1/ 76]؛ 20 ـ الحدائق الأنسية في كشف الحقائق الأندلسية في العروض، هو شرح لكتاب أبي جيش الأنصاري الأندلسي «عروض الأندلسي»، توجد نسخة من الكتاب بخط المؤلف في المكتبة الحلوية بحلب [بروكلمان GAL, II ،Suppl، 96]؛

21 - سهم الألحاظ في فهم الألفاظ، نشره أولا حاتم صالح الضامن في مجلة المجمع العلمي العراقي، ثم نشر مستقلا في بيروت 1407هـ/ 1985م، كما نشر ضمن كتاب «أربعة كتب في التصحيح اللغوي»، بيروت 1407هـ/ 1987م؛ 22 - رسالة في المتصل والمنفصل، كتاب في تفسير الآية السابعة من سورة السجدة وإعرابها، وهو الكتاب نفسه «طليقة على تفسير البيضاوي» [كشف الظنون، 1/ 193] ورسالة في حل إغلاق ما في البيضاوي من التفسير في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ﴾ [السجدة: 7]. قام نهاد حاسّوبي صالح بنشره، ولا يعتبر الكتاب كما ذكر الناشر متعلّقا بالآية نفسها التي وردت في كتاب الزمخشري «الكشّاف»؛ 23 - الفوائد السرية في شرح مقدمة الجوزية، توجد نسختان منه في مكتبة السليمانية [الشهيد علي باشا، رقم 2766] قاضي زادة محمد، رقم 13، كما توجد منه نسخة في مكتبة بايزيد [بايزيد، رقم 183، ورق 49ب - 130 أ]، ومكتبة السليمية بأدرنة، رقم 55، ومكتبة برنستون، رقم 3989؛ 24 - قفو الأثر في صفو علوم الأثر، كتاب في أصول الحديث، نشر لأول مرة في القاهرة عام 1326، ثم نشره عبد الفتاح أبو جدّة مع كتاب محمد مرتضى الزبيدي «بلغة الأريب»، بيروت 1408هـ؛ 25 - رسالة في شرح حديث «احتج آدم أبو البشر. . . [مكتبة برنستون، رقم 4319]؛ 26 - تروية الزامي في تبرية الجامي، كتاب فند فيه ابن الحنبلي ادعاءات روح الله الغزنوي بشأن شيخه عبد اللطيف بن عبد المؤمن الجامي [بروكلمان، ...Suppl GAL, II 496]؛ 27 - كنز في الأحاجي والمعمّى، [كشف الظنون، 2/ 1520]، توجد منه نسخة مؤرخة بعام 965هـ/ 1558م في مكتبة مرعي باشا الملاح الخاصة بحلب وذلك مع شرح لكتاب للمؤلف باسم «غمز العين إلى كنز العين»؛ 28 - أنموذج العلوم لذوي البصائر والفهوم، كتاب يتناول بعض المسائل المتعلقة بعشرين علما [مكتبة برنستون، رقم 4319، ورق 43أ - 58ب]؛ 29 - حدائق أحداق الأزهار ومصابيح الأنوار، يتكون من عشرين بابًا، وهو كتاب في اللغة والصرف والنحو والبديع والتاريخ والسير والفقه والحديث والتفسير والحواس، وقد أهدي إلى السلطان سليمان القانوني. استنسخ الكتاب ناقصا من قبل والد المؤلف في ربيع الأول عام 946هـ الموافق يوليو عام 1539م، وتوجد منه نسخة في مكتبة برنستون، رقم 590، كما توجد نسخة أخرى في مكتبة برلين، رقم 8419؛ 30 - الدرر الساطعة في الأدوية القاطعة، عبارة عن قصيدة تتكون من 135 بيتا، وهي شرح لكتاب أبي بكر الرازي «برء الساعة»، توجد منه نسخة في مكتبة برلين، رقم 6308، ورق 236 - 246؛ 31 - ذبالة السراج على رسالة السراج، هو حاشية للشرح الذي أنجزه سيد شريف الجرجاني لكتاب «الفراضي السراجية»، توجد منه نسخة في مكتبة بايزيد [بايزيد، رقم 2601، ولي الدين أفندي، رقم 1592] ومكتبة السليمانية [الشهيد علي باشا، رقم 2718/ 2].

المصادر والمراجع

● ابن الحنبلي، قفو الأثر في صفو علوم الأثر، نشر عبد الفتاح أبو جدة، بيروت 1408، مقدمة الناشر، ص 8 - 30؛

● المؤلف نفسه، رسالة في المتصل والمنفصل، نشر نهاد حاسوبي صالح، مجلة المورد، 16/ 1، بغداد 1987، ص 77 ـ 84؛ ● المؤلف نفسه، بحر العوام فيما أصاب فيه العوام، نشر عز الدين التنوخي، ضمن مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، 15/ 3 ـ 4، 1937، ص 85 ـ 97؛ ● المؤلف نفسه، سهم الألحاظ في فهم الألفاظ، نشر حاتم صالح الضامن، ضمن مجلة مجمع اللغة العربية بالأردن، 17/ 45، 1413 ـ 14هـ/ 1992م، ص 51 ـ 65، عطائي، ذيل شقائق، 2/ 45؛ ● الغزي، الكواكب السائرة، 3/ 42 ـ 43؛ ● كاتب جلبي، سلم الوصول، مكتبة السليمانية، الشهيد علي باشا، رقم 1887، ورق 188أ؛ ● المؤلف نفسه، كشف الظنون، 1/ 193، 2/ 1135، 1520، 1825؛ ● الخفجي، ريحانة الألباء، 1/ 169 ـ 170، سجل عثماني، 4/ 116؛ راغب الطبّاخ، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، حلب 1344هـ/ 1926م، 6/ 59 ـ 68؛ ● فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي في العصر الحديث، بيروت 1985، 1/ 366 ـ 377؛ ● نهاد حاسوبي صالح، جهود ابن الحنبلي اللغوية مع تح. كتابه عقد الحلى في نقد كلام الخواص، بيروت 1407هـ/ 1987م، ص 9 ـ 137.

- Brockelmann, Geschichte der Arabischen Litterature, II, 368; Supplemetband, II,495-496; ● Ramazan chechen, Nevadir'l-mahtutati'l-Arabiyye fi mektebati Trkiye, Beyrut 1975,I, 76; ● Oliver Kahl, Ibn al- Hanbali's Traktat Uber die Etymologie von Arab, XIX, Leuven, 1988, p. 197-208.

د. جواد إيزجي
جامعة مرمرة ـ تركيا
ترجمة: أنعم محمد عثمان الكباشي

ابن حنزابة، أبو الفضل جعفر بن الفضل

(308هـ/ 921م ـ 391هـ/ 1001)

أبو الفضل جعفر بن الفضل بن جعفر بن محمد بن موسى بن الحسن بن الفرات، المعروف بابن حنزابة، وحنزابة اسم جدّته أمّ أبيه وهي جارية روميّة، والحنزابة في اللّغة المرأة القصيرة المكتنزة.

هو وزير ومحدّث وأديب، بغداديّ الأصل. كان أبوه أبو الفتح الفضل بن جعفر وزيرا للمقتدر العبّاسيّ، قتله سنة 320هـ/ 932م.

انتقل أبو الفضل مع إخوته إلى مصر فولّاه أونوجور ابن الإخشيد الوزارة في ذي القعدة سنة 335هـ/ جوان 947م، وبقي يدبّر شؤون مصر حتّى وفاة كافور سنة 357هـ/ أفريل

968م، فاضطربت عليه الأمور، وآلت الحال إلى تسليم الحكم إلى جوهر الصقليّ قائد الجيش الفاطميّ، وكان أبو الفضل راسل المعزّ لدين الله، وبعث إليه بهديّة مع ابنه أحمد بن جعفر، وعمل بذلك على انتصاب الدولة الإسماعيليّة بأرض النيل ثمّ بالشام.

لكنّه لم يحظ طويلا بعطف الحكّام الجدد، فتعطّل عن العمل، وأرجع إليه العزيز بالله تدبير الأمور سنة 383هـ/ أفريل 993م لمدّة وجيزة، ثمّ أعفاه، وحاسبه على تصرّفه في الأموال، وصادره على مال كثير، وتألّب عليه الخصوم، فلزم داره إلى أن مات في ربيع الأول سنة 391هـ/ جانفي 1001م، فحمل تابوته إلى المدينة المنوّرة، فدُفن بجوار قبر النّبيّ ﷺ، وكان قد استدرج الشرفاء بصلات جزيلة، فسمحوا له بهذا الجوار، وقيل إنّه كان يحتفظ بثلاث شعرات من شعر الرسول، فوضعت في فمه ودفنت معه.

كان محبّا للعلم مقرّبا لأهله مشغوفا بالحديث خاصّة، سمعه وأسمعه، واستقدم الدار قطنيّ (ت 385هـ/ 995م) إلى مصر، وأغدق عليه الرواتب العالية حتى صنع له مسندا. وكان من الحفّاظ الثقات، وربّما حدّث وأملى، وهو وزير لم تشغله خدمة الدولة عن طلب العلم. وكان تقيّا ورعا يقوم الليل يصلّي ولا ينام إلّا قليلا.

ويبدو أنّه نكب في أولاده فشكا إلى المعزّ عقوقهم، وحرّم عليهم الدخول على أخواتهم وعلى حرمه لريبة ظهرت له منهم.

وقتل ابنان له : أبو الحسن الملقّب سيدوك وأبو العبّاس، قتلهما الحاكم سنة 399هـ/ 1009م وسنة 405هـ/ 1014م.

وله ابن رابع اسمه العبّاس ذكره المقريزيّ [المقفّى، 4/ 41، 1430] دون تفصيل.

وكان مشغوفا بالنظر إلى الحشرات والهوام والحيّات والعقارب، خصّص لها مكانا بداره وصرف في جلبها الأموال، ورتّب لها الحواة والخدم، فيقضي الأوقات في تأمّلها، يتسلّى بهراشها وحركاتها.

ولم ينسب إليه شعر، عدا هذا البيت الحكميّ الذي قاله بعد إحدى نكباته الكثيرة [بسيط]:

إنّ الرّياحَ إذا اشتدّتْ عواصفها
فليسَ ترمي سوَى العالِي من الشّجر

المصادر والمراجع

● الخطيب البغداديّ. تاريخ بغداد، القاهرة، 1931، 7/ 234؛ ● ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، نشر مصطفى ومحمد عبد القادر عطا، بيروت، د.ت، 7/ 215؛ ● ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 9/ 168؛ ● ابن خلّكان، وفيات الأعيان، 1/ 133، 346؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، بيروت 1981، 16/ 484؛ ● الصفدي، الوافي بالوفيّات، 11/ 118 (202)؛ ● ابن شاكر الكتبيّ، فوات الوفيّات، نشر إحسان عبّاس، بيروت، د.ت، 1/ 292؛ ● اليافعي، مرآة الجنان، نشر خليل المنصور، بيروت، 1997، 2/ 239؛ ● ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت، 1986، 11/ 329؛ ● المقريزي،

المقفى، نشر محمد اليعلاوي، دار الغرب الإسلامي، 1991، 3/ 41، 1077؛ ● السيوطيّ، حسن المحاضرة، القاهرة، 1967، 1/ 164؛ ● ابن العماد الحنبليّ، شذرات الذهب، بيروت، د.ت.، 3/ 135؛ ● إسماعيل البابانيّ البغدادي، إيضاح المكنون، طهران، 1947، 2/ 481؛ ● دائرة المعارف الإسلاميّة، 3/ 791؛ ● كحّالة، معجم المؤلّفين، 3/ 142 (حنزابة)؛ ● الزركلي، الأعلام، 2/ 120.

د. محمد اليعلاوي
جامعة منوبة - تونس

الخُنطبي، عبد الواحد بن نصر بن محمد الببغاء

(315هـ/927م - 398هـ/1008م)

أبو الفرج المخزومي: شاعر، ناثر، أديب. ولد بنصيبين. ولا نعرف شيئًا عن نشأته الأولى ودراسته. تبدأ معلوماتنا حوله مذ اتصاله بالأمير سيف الدولة الحمداني، وهو - أي الببغاء - في نحو العشرين من عمره، وحظي عنده، ولازمه بحلب، ورافقه إلى دمشق - عندما كانت تصير تحت نفوذ الحمداني - ومن حلب كان يسافر إلى حواضر العرب. ونعرف أنه كان ببغداد سنة 350هـ والتقى بها الشاعر الكبير المتنبي بعد عودته من مصر.

لم يستطع الببغاء البقاء بحلب بعد وفاة ولي نعمته الحمداني سنة 356هـ، فغادرها إلى بغداد. وكتب إلى أبي تغلب الغضنفر ابن ناصر الدولة الحمداني (ت 369هـ) الذي تولى إمرة الموصل بعد وفاة أبيه سنة 358هـ، يستأذنه في المسير إليه. فأذن له، وقدم الموصل واتخذها مقرًا له.

تردد الببغاء بين الموصل وبغداد التي صادق بها الأديب ومتولي دواوين البويهيين أبا اسحاق إبراهيم بن هلال الصابئ (ت 384هـ/994م). وجرت بينهما مراسلات شعرية ونثرية.

لُقب بالببغاء لحسن فصاحته. وقيل بل للثغة بالفاء في لسانه، لذلك كان معاصره النحوي الكبير ابن جني الموصلي (ت 392هـ) يسميه الففغاء (بفاءين).

ونقل الثعالبي عن من رآه شيخًا سنة 390هـ بأن الأيام أخذت من جسده وقوته، ولم تستطع من ظرفه وأدبه.

ومع أن كثيرًا من المترجمين حددوا تاريخ وفاته باسم اليوم وتسلسله من الشهر: السبت 27 من شعبان، واتفقوا على سنة وفاته، إلا أن أحدًا من القدامى لم يقل أين توفي. على أن الباشا البغدادي (ت 1920هـ) ذكر في هدية العارفين أنه توفي ببغداد.

قال وهو في حدود العشرين من عمره:

وليلة أوسعتني
حسنًا ولهوًا وأنسا
ما زلت ألثم بدرًا
بها وأشرب شمسا

وقال يمدح سيف الدولة:

كأنما ادخر الرحمن معظمة
دون الملوك لسيفِ الدولة البطلِ
رآه أكرمهم في الخير إن ذكروا
وصفًا وأفضلهم في القول والعمل

ومدح أبا تغلب بن ناصر الدولة:

دعوته فأجابتني مكارمه
ولو دعوت سوى نعماه لم تجبِ
وجدته الغيث مشغوفًا بعادته
والروض يجني بما في عادة السحبِ
إذا دعته ملوك الأرض سيدها
طرًا دعته المعالي سيدَ العربِ

وبعث إلى صديقه الصابئ في محبسه:

أيا ماجدًا مذ يمم المجد ما نكصْ
وبدرَ تمامٍ مذ تكامل ما نقصْ
ستخلص من هذا السرار وأيما
«هلال» توارى بالسرار فما خلصْ

لما وافق أبو تغلب على سير الببغاء إليه، كتب شاكرًا: «أفصح دلائل الإقبال وأصدق براهين السعادة... ما شهدت العقول بصحته ونطقت البصائر بحقيقته. ونعمة الله تعالى على الدين والدنيا بما أولاهما من اختيار سيدنا لحراستهما بناظر فضله...».

نظرات في أدب الببغاء:

قال الخطيب البغدادي (ت 463هـ): «كان شاعرًا مجودًا، وكاتبًا مترسلًا، مليح الألفاظ، جيد المعاني، حسن القول في المديح والغزل والتشبيه والأوصاف». وقال ابن كثير (ت 774هـ): «كان أديبًا فاضلًا مترسلًا شاعرًا مطبقًا». ويقول عمر فروخ (ت 1987م): «شاعر مكثر، فخم الألفاظ، متين التركيب، يميل إلى الصَنعة، ولا يتكلف... وصوره الشعرية جميلة. ثم هو معجب بالمتنبي، يطبع الشعر على غراره أحيانًا وعلى غرار شعر البحتري...». وعن نثره يقول: «أديب ناثر جيد الترسل والسرد... أقرب في نثره إلى السليقة ... لذلك كان نثره سهلًا عَذبًا».

آثاره

أ ـ المطبوع:

1 ـ جملة من أشعاره باعتناء فيلبس دولف، ليبسك 1834؛ 2 ـ أورد الثعالبي (ت 429هـ) نصوصًا شعرية ونثرية كثيرة للببغاء في «يتيمة الدهر» لذا يمكن عَدُّ ما جاء هنا من المطبوع. وقد طُبعت اليتيمة مرارًا في دمشق، القاهرة وبيروت.

ب ـ المخطوط:

3 ـ ديوان شعره: أول من أشار إليه معاصره ابن النديم (ت .ح 385هـ) قال: «وله رسائل وشعره ثلثمائة ورقة. وقال حاجي خليفة (ت 1067هـ). «ديوان أبي الفرج ـ الببغاء ـ عبد الواحد بن نصر المخزومي».

المصادر والمراجع

● الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، ط4، 1979، 4/ 177؛ ● أبو سعد السمعاني، الأنساب، تح. عمر البارودي، دار الجنان، بيروت د.ت، 1/ 278؛ ● ابن كثير، البداية والنهاية، بيروت 1986، 11/ 340؛ ● زيدان، جرجي، تاريخ آداب اللغة العربية، بيروت 1983، 2/ 565؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر. د. عبد الحليم النجار، القاهرة، ط2، 1968، 2/ 98 ـ 99؛ ● فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، بيروت، ط1، 1969، 2/ 612 ـ 615؛ ● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت د.ت عن ط. الخانجي، القاهرة 1931، 11/ 11 ـ 12؛ ● الصائغ، القس سليمان، تاريخ الموصل، بيروت 1928، 2/ 66؛ ● ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر، تح. أحمد رفعت البدراوي، بيروت 1970، 1/ 482؛ ● الاربلي، بهاء الدين المنشئ، التذكرة الفخرية، تح. د. نوري حمودي القيسي ود. حاتم الضامن، بغداد 1984، ص 308، 316؛ ● الذهبي، تاريخ الإسلام (السنوات 381 ـ 400) تح. د. عمر عبد السلام تدمري، بيروت، ط1، 1987، ص 358 ـ 359؛ ● تذكرة الحفاظ، ط. حيدر آباد الدكن 1957، 3/ 1028؛ ● العبر، تح. أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، بيروت د.ت، 2/ 194؛ ● العمري، عثمان بن علي بن مراد، الروض النضر تح. د. سليم النعيمي، بغداد 1974، 1/ 389وهـ 3 ـ 391؛ ● ابن العماد الحنبلي، الشذرات، بيروت د.ت عن ط. مكتبة القدسي، القاهرة 1350 ـ 1351، 3/ 152 ـ 153؛ ● القلقشندي، صبح الأعشى، القاهرة 1963 نسخة مصورة عن ط. الأميرية 1910 ـ 1920، 6/ 433، 7/ 35، 9/ 22، 185؛ ● الشكعة، مصطفى، فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين، بيروت 1981، 211 ـ 214، 342 ـ 345، 406 ـ 411 وظ ك 790؛ ● ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة، بيروت 1978، 240؛ ● ابن الاثير الموصلي، عز الدين، الكامل في التاريخ، بيروت 1967، 7/ 240 ـ 241 وهـ1؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، أوفست مكتبة المثنى، بغداد، 773؛ ● القمي، عباس، الكنى والألقاب، النجف 1956، 2/ 57؛ ● ابن الاثير الموصلي، عز الدين، اللباب في الأنساب، أوفست مكتبة المثنى، بغداد، 1/ 117؛ ● أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، القسطنطينية 1287هـ، 2/ 145؛ ● ابن الجوزي، سبط، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، الحقبة 345 ـ 447هـ، تح. جنان جليل محمد الهموندي، بغداد 1990، ص279؛ ● سركيس، يوسف اليان، معجم المطبوعات العربية والمعربة، القاهرة 1928، ص339؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت د.ت، 6/ 214؛ ● ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك

والأمم، بغداد 1990، 7/ 241 ـ 243؛ ● مبارك، زكي، النثر الفني في القرن الرابع، بيروت 1975، 1/ 352 ـ 360، 2/ 275 ـ 295؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، القاهرة، س. تراثنا. مصورة عن ط. دار الكتب المصرية 1929 ـ 1972، 4/ 291؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، أوفست مكتبة المثنى بغداد، 1/ 633؛ ● ابن خلكان، وفيات الأعيان، القاهرة 1299هـ، 1/ 374 ـ 375؛ ● الثعالبي، يتيمة الدهر، تح. محمد محيي الدين عبدالحميد، بيروت، ط2، 1973، 1/ 236 ـ 270؛ ● الجلبي، بسام إدريس، «موسوعة أعلام الموصل» ط. على الكومبيوتر

بسام إدريس الجلبي
العراق ـ الموصل

الحنفي، أبو وائل، بكر بن النطاح بن أبي حمار

(ت. نحو 200هـ/815م)

بكر بن النطاح بن أبي حمار الحنفي، من بني حنيفة بن لُجيم من بكر بن وائل. وكنيته أبو وائل. وذُكر أنّه من بني عجل، واحتجّ بقوله:

فإن يك جدُّ القوم فهرُ بن مالك
فجدّيَ عجلٌ قرْمُ بكرِ بنِ وائل

وأنكر ذلك من قال: إنّه حنفي، وقال: بل قال:

فجدّي لجيم قرم بكر بن وائل

وحنيفة وعجل أخوان، فهما ابنان للجيم بن صعب.

وهو شاعر من شعراء العصر العباسي الأوّل (132هـ/ 750م ـ 232هـ/ 847م)، وأصله من اليمامة موطن آبائه وأجداده، ثم من أهل البصرة، واستقرّ في بغداد أيام هارون الرشيد، ولم تذكر المصادر العام الذي ولد فيه. وكان في بداية أمره يمتهن الصعلكة، والتعرض للمسافرين، ثم أقلع عن ذلك. وعُرف عنه بأنّه شجاع فارس جريء، معتدّ بنفسه وفروسيته وشجاعته، كثير الوصف لنفسه، بذلك يقول:

ومن يفتقر منّا يعشْ بحُسامه
ومن يفتقرْ من سائر الناس يسألِ

وإنا لنلهُو بالسيوفِ كما لهت
عروسٌ بعقد أو سخَابِ قرنفلِ

اتصل بأبي دُلف القاسم بن عيسى العِجلي (ت 226هـ/ 840م) أحد الولاة القادة الشجعان، وتوثقت صلته به، تجمع بينهما آصرة النسب، إلى جانب كون أبي دلف

جوادا كريما ممدحا، يقرّب إليه الشعراء، وينفحهم بأعطياته الجزلة، وقال فيه ابن النطاح مدائح، ونال من صلاته الكثير، وله معه أخبار، من ذلك أنّه أنشد أبا دلف قصيدته التي يقول فيها:

هنيئًا لإخواني ببغداد عيدُهم
وعيدِي بحُلوانَ قراع الكتائب

فقال فيه: إنّك لتكثر الوصف لنفسك بالشجاعة، وما رأيت لذلك عندك أثرا قط، ولا فيك، فاعتذر إليه بأنّه حاسر أعزل لا يملك عُدّة الفارس، فأعطاه ذلك، فأخذه وامتطى فرسه، وخرج، فصادف مالا لأبي دلف محمولا إليه من بعض ضياعه، فاستولى عليه، وأصاب من يحمونه بجراحات، وانهزموا، فلما بلغ خبره أبا دلف قال: نحن جنينا على أنفسنا، وقد كنا أغنياء عن إهاجة أبي وائل، ثم كتب له بالأمان، وسوّغه المال، ولم يزل معه يمدحه حتّى وفاته. وبعض أخباره معه مبسوطة في الأغاني.

واتصل أيضا بمعقل بن عيسى العجلي، وهو أخ لأبي دلف، وكان ردءا لابن النطاح يخلصه ويقف دونه إذا أحدث حدثا أو جنى جناية في عمل أبي دلف، ولما مات رثاه ابن النطاح رثاء صادقا.

وممن اتصل بهم من رجالات الدولة العباسيّة وولاتها يزيد بن مزيد الشيباني، وقرّة بن محرز الحنفي، ومالك بن طوق التغلبي الذي بنى بلدة الرحبة بمساعدة الرشيد، ونسبت إليه، ومالك بن علي الخزاعي، أحد ولاة البصرة في عهد الرشيد، وخربان بن عيسى، وله معهم أخبار، وقال فيهم مدائح، ورثى من مات منهم في حياته، كمالك بن علي الخزاعي، الذي رثاه بعدة قصائد جياد، حينما مات إثر ضربة على رأسه وهو يقاتل الخوارج الشراة، وكان ابن النطاح يقاتل معه، وأبلى في المعركة بلاء حسنا. وكان يعاشر أمثاله من الشعراء ويتصل بهم في مجالسهم، ويشاركهم في مطارحة الشعر وفي رواية الأخبار والنوادر، كأبي العتاهية، والعباس بن الأحنف، ومنصور النمري، والعتّابي.

ولما قال قصيدته اللامية التي يفخر فيها بشجاعته وقومه غضب عليه الرشيد وقال ليزيد ابن مزيد الشيباني: هذا جلف من أجلاف ربيعة عدا طوره وألحق قريشا بربيعة فاتني به، فأعطاه يزيد ألفي درهم، وأسقط اسمه من الديوان، وأمره أن يستتر ما دام الرشيد حيّا، فلما مات الرشيد ظهر، وقربه يزيد وزاد في عطائه.

وذُكر في الأغاني أنّه كان بخيلا، زاره يوما عبّاد بن الممزّق، فقدّم إليه خبزا يابسا قليلا بلا أدم، ورفعه من بين يديه قبل أن ينال كفايته، فقال عباد يهجوه:

من يشتَري منّي أبَا وائل
بكر بن نَطّاح بفلسين؟
كأنّما الآكل من خبزه
يأكله من شحمةِ العين

وأمّا عام وفاته فلا يعرف على وجه الدقة، فالزركلي في «الأعلام» ذكر أنّه توفي عام 192هـ/ 808م، اعتمادا على ما ورد في البداية والنهاية، لابن كثير، وليس هذا صحيحا؛ لأنّ هارون الرشيد غضب عليه

بسبب قصيدته اللامية التي فضّل فيها ربيعة على قريش، وكاد أن يوقع عليه عقوبة، فأمره يزيد بن مزيد الشيباني، أن يختفي عن الأنظار، وألّا يظهر ما دام الرشيد حيّا، فامتثل لأمره، واختفى حتّى توفي الرشيد عام 193هـ/ 809م.

وذكر فؤاد سزكين في «تاريخ التراث العربي» أن بكرا توفي عام 222هـ/ 837م، وهو خطأ ظاهر، والغريب أنّه قال: رثاه أبو العتاهية بقصيدة، ومن المعروف أنّ أبا العتاهية توفي عام 211هـ/ 826م، واعتمد في استنتاجه على أنّ بكرا رثى مالك بن علي الخزاعي، ورجع إلى كتاب «الأعلام» الذي أثبت وفاة مالك عام 222هـ/ 837م، وهو خطأ وقع فيه صاحب «الأعلام» أيضا، الذي استقى هذا الخطأ من مرجع حديث هو «رغبة الآمل» للمرصفي، وهو شرح لكتاب «الكامل» للمبرد. ونعرف من سيرة مالك أنّه أحد من تولّوا البصرة في عهد هارون الرشيد، وأنّه لما توفي رثاه مسلم بن الوليد (صريع الغواني)، ذُكر ذلك في ديوانه، وفي «وفيات الأعيان» لابن خلكان (ترجمة يزيد بن مزيد الشيباني). ومسلم بن الوليد توفي عام 208هـ/ 823م، وعلى هذا الأساس تكون وفاة مالك بن علي الخزاعي قبل هذا العام.

ولعل أصح تقدير للتاريخ الذي توفي فيه ابن النطاح ما ذكره الصفدي في «الوافي بالوفيات» من أنّه توفي في حدود المئتين من الهجرة، وتبعه في ذلك ابن شاكر الكتبي في «فوات الوفيات».

ندرك من شعره الذي وصل إلينا أنّه استنفد معظم شعره في الموضوعات الشعريّة المعروفة، كالمدح، والهجاء والفخر، والعتاب، والرثاء، والغزل، فله شعر مأثور في هذه الموضوعات، ومرّ بنا أنّه اتصل ببعض رجالات الدولة العباسيّة من ولاة وقادة، وقال فيهم مدائح ومراثي. ويبدو أنّ أبا دلف العجلي حاز على النصيب الأوفر من مدائحه؛ لطول صحبته إياه، وللحمة القرابة بينهما، ولأنّ أبا دلف كان كريما معطاء شاعرا، يقدر الموهبة الشعرية الرفيعة، فمن قوله فيه:

إذا كان الشتاء فأنتَ شمس
وإن حضَر المصيفُ فأنت ظلّ

وما تدْري إذا اعطيت مالاً
أتكثِر في سماحِك أم تقلّ

ولحق أبو دلف أكرادا قطعوا الطريق في عمله، وقد أردف أحدهم رفيقا له خلفه، فطعنهما جميعا بالرمح، ونفذ من جسميهما، فتحدث الناس بأنّه نظم بطعنة واحدة فارسين على فرس، فقال بكر:

قالوا: وينظِم فارسيْن بطعنة
يومَ اللقاء ولا يراه جليلاً

لا تعجَبوا فلو أنّ طول قناته
ميلٌ إذن نظم الفوارسَ ميلا

فأعطاه أبو دلف عشرة آلاف درهم، فقال فيه:

له همَمٌ لا منتهى لكبارها
وهمّتُه الصغرى أجلُّ من الدّهر

له راحة لو أنّ معشارَ جُودِها
على البرّ كان البرُّ أندى من البحر

ولو أنّ خلْق الله في جسمِ فارس
وبارَزه كان الخليَّ من العمر

أبا دلف بوركت في كلّ بلدة
كما بوركت في شهرها ليلةُ القدر

واستشهدنا بهذه الأبيات لبلاغتها وجمالها، على الرغم من مبالغة الشاعر في ثنائه. ونجد في شعره الذي وصل إلينا مدائح في يزيد بن مزيد الشيباني، ومالك بن طوق التغلبي، وقرّة ابن محرز الحنفي، ومالك بن علي الخزاعي، وخربان بن عيسى، وهو - فيما نظن - أخ لأبي دلف العجلي.

والشاعر الذي يتخذ من مدائحه وسيلة للحصول على المال، إذا لم يرض عطاء من مدحه، أو لمس منه جفوة هجاه. وهكذا كان ابن النطاح، هجا مالك بن طوق، وغمز في شعره أبا دلف وقرّة بن محرز، حينما لمس منهما تقصيرا في العطاء.

أمّا الفخر بقبيلته ونفسه فموضوع بارز في شعره، ومرّتْ بنا شواهد على ذلك، يضاف إليها قصيدته التالية التي مدح فيها أبا دلف، وتتكون من مئة بيت طبقا لنشرتها في مجلة «عالم الكتب» بالرياض عام 1408هـ/ 1987م، وخصّ شطرا منها بالفخر بقومه الأعلين بكر بن وائل، وهم قوم أبي دلف أيضا. والرثاء دليل وفاء وإخلاص، ولبكر مراث فيمن قضى قبله ممن اتصل بهم كمعقل ابن عيسى العجلي، ومالك بن علي الخزاعي، وهو في رثائه صادق؛ لأنّه لا يرجو ثوابا، ولا يطمع في نوال.

والعتاب وسط بين المدح والهجاء تمليه الدالة وفرط الثقاة، ولابن النطاح معاتبات لأبي دلف، ومالك بن طوق وغيرهما. وله شعر يتغزّل فيه بجارية يقال لها درّة، ولأخرى اسمها رامشنة، وقصيدة يتشوق فيها بغداد وقد خرج مع أبي دلف إلى بلاد الكرج.

هذه أهمّ الموضوعات التي حملها إلينا شعره المثبت في المصادر، وهو قليل بالنسبة إلى شعره الكثير الذي لم يصل إلينا. ونلحظ من مجموع هذا الشعر أنّه طرق معظم الموضوعات الشعريّة المعروفة في عصره، وهذا ما جعل أبا الفرج الأصفهاني يقول: «وكان شجاعا بطلا فارسا شاعرا حسن الشعر والتصرف فيه».

وأهمّ خصائص شعره الفنية الجودة، والعذوبة، وسهولة اللفظ، وله أبيات نادرة سارت مسير الأمثال. قال أبو هفان: «أدركت الناس يقولون: إنّ الشعر خُتم ببكر بن النطاح».

■ آثاره

ذكر ابن النديم في الفهرست أنّ لابن النطاح ديوان شعر يقع في مئة ورقة. وهذا الديوان المجموع الذي يضم شعره ليس بين أيدينا الآن، ولا نعرف عنه شيئا، لذلك فهو يعدّ ضمن الدواوين الشعرية القديمة المفقودة. وذكر في موضع آخر أنّ لأحمد بن طيفور صاحب «المنثور والمنظوم» كتاب «اختيار شعر بكر بن النطاح»، وهو مفقود أيضا. وعني بجمع شعره حديثا غازي النقاش، ونشره في مجلة «المورد» مع دراسة مختصرة لحياته وشعره، وجمع شعره أيضا د. حاتم صالح الضامن، ونشره في كتابه شعراء مقلون، غير أنّ هذين العملين أخلا بالرجوع

إلى بعض المصادر التي احتفظت بشيء من شعره كالتعليقات والنوادر لأبي علي الهجري، والحماسة المغربيّة لأبي العباس التادلي، والدر الفريد لأيدمر الجلدكي. غير أنّ بعض شعره نجده مفرقًا في كثير من مصادر الأدب، وفي طليعتها الأغاني.

■ المصادر والمراجع

● ابن المعتز، عبد الله، طبقات الشعراء، تح. عبد الستار أحمد فراج، الطبعة الثانية 1968، دار المعارف بمصر، ص 217 - 225؛ ● الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، الأغاني، تح. عبد الستار أحمد فراج، دار الثقافة 1960م، بيروت، 19/ 35 - 51؛ ● ابن النديم البغدادي، الفهرست، تح. رضا تجدد، كراجي، باكستان، ص 164، 186؛ ● الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد، دار الكتاب العربي، بيروت، نسخة مصورة عن الطبعة الأولى، القاهرة، 7/ 90 - 91؛ ● البكري الأندلسي، أبو عبيد، الآلي في شرح أمالي القالي، تح. عبد العزيز الميمني، الطبعة الثانية 1404هـ/ 1984م، دار الحديث، بيروت، ص 520؛ ● ابن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، باعتناء جاكلين سوبله، وعلي عمارة، الطبعة الأولى 1401هـ/ 1981م، نشر: فرانز شتاينر، فيسبادن، طبع دار صادر ببيروت، 10/ 218 - 221؛ ● ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، تح. د. إحسان عباس، دار الثقافة 1973، بيروت، 1/ 219 - 221؛ ● أبو الفداء إسماعيل، البداية والنهاية في التاريخ، تح. محمد عبد العزيز النجار، مطبعة السعادة، القاهرة، 10/ 236 (حوادث عام 192)؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، الطبعة السابعة، 1986م، دار العلم للملايين، بيروت، 2/ 71؛ ● سزكين، فؤاد، تاريخ التراث العربي، نقله إلى العربيّة د. عرفة مصطفى، راجع الترجمة، د. محمد فهمي حجازي، د. سعيد عبد الرحيم، الطبعة الأولى 1403هـ/ 1983م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، الرياض، مج 2، 4/ 236 - 237؛ ● النقاش، غازي، بكر بن النطاح، حياته وشعره، المورد، مج الخامس، العدد الثالث، 1396هـ/ 1976م، ص 161 - 188؛ ● فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي (الأعصر العباسية)، الطبعة الثانية، 1975م، دار العلم للملايين، بيروت، 2/ 238 - 240؛ ● الضامن، حاتم صالح، شعراء مقلون، صنعة، الطبعة الأولى، 1407هـ/ 1987م، عالم الكتب، ومكتبة النهضة العربيّة، ص 209 - 276؛ ● أغا، علاء الدين، تائية بكر بن النطاح، مجلة «عالم الكتب»، الرياض مج 8، العدد 3، محرم 1408هـ/ سبتمبر 1987م، ص 346 - 350؛ ● بهجت، مجاهد مصطفى، المكتبة الشعريّة في العصر العباسي، الطبعة الأولى، 1415هـ/ 1995م، دار البشير، عمّان، ص 82 - 83.

د. حمد بن ناصر الدخيّل
جامعة الملك سعود - الرياض

حنوش، جورجيت

(1349هـ/1930م - 1410هـ/1989م)

برزت جورجيت حنوش روائية في تجاربها الريادية التي مالت إلى العناية بالنسوية من خلال معالجة موضوعات عاطفية ضمن سياقات اجتماعية محدودة بقليل من الجرأة على أن حالات الحبّ وتمظهراتها الاجتماعية سبيل للتواصل الإنساني ومجاوزة صعوبات الحياة والفوارق الطبقية.

ولدت جورجيت حنوش في حلب عام 1930، ولا يعرف عن نشاطها العلمي والاجتماعي شيئًا سوى أنها أصدرت روايتين هما «ذهب بعيدًا» عام 1961 و«عشيقة حبيبي» عام 1964 اللتان جعلتا منها رائدة من رائدات الكتابة الروائية في سورية.

تتناول رواية «ذهب بعيدًا» علاقة الحب بين ليلى الموظفة في مشفى حلب وكمال المدرس الشامي اليساري الذي تعرض للسجن ومكابدة الإفراج عنه حتى أخلي سبيله، بينما لفت الأحزان ليلى إثر موت أخيها نبيل الذي أصيب بالسل، ونقل إلى لبنان لمداواته. ويكاد يخصص القسم الأول من الرواية لإظهار المحيط الاجتماعي لنشوء علاقة الحب ونموها، إذ تباشر حنوش موضوعها منذ الصفحة الأولى في روايتها بالحوار بين نبيل وشقيقته ليلى إثارة للانتقادات السياسية التي طالما شغل بها، وأدت إلى اعتقاله كقوله:

« - الإضرابات ضرورية.. ألم تسمعي بالسرقات التي حصلت أخيرًا.. فأبطالها من بعض الوزراء، وكذلك المهزلة الأخيرة التي جرت في البرلمان البارحة؟ وكيف تضارب نواب الحزبين.. الحاكم والمعارض.. وأسباب ذلك كلّه المصاريف المستترة!» [ص7]

وقد وزعت حنوش القسم الواحد إلى أجزاء مرقمة، وحمل الرقم الأخير في القسم الأول (22) وصف الراوي (ليلى) لتسويغ اهتمامها بنبيل، على أن الحي كلّه يذكرها بنبيل:

«لذلك قررنا مع والدي الذي يئس هو الآخر من الحياة بعد نكبتنا المفجعة، أن نترك البيت والحي معًا رفقًا بوالدتي وخوفًا على عقلها وحالتها التي أصبحت غير طبيعية، علها تهدأ وتتغير.. ما دامت بعيدة. هكذا تركنا البيت.. وفيه ذكرياتنا، والحي الذي عشت فيه أيام طفولتي وجزء من أيام شبابي» [ص82].

ثم يستغرق القسم الثاني من الرواية في ملاحقة تكون كمال العلمي والتعليمي لدى دراسته للأدب الفرنسي في باريس وتعيينه مدرسًا في حماة ومشكلة تسريحه من العمل، واعتقاله في فترة الانقلاب الأولى، وعندما تعرفت إليه ليلى كان يعيش على أموال أخته العانس التي يصرف عليها أخوه الثري في المهجر.

وقد استغرقت الأجزاء الثمانية عشر من القسم

الثاني بوصف تكوّن كمال ونمو علاقته بها، واختتمت القسم الثاني باعتراف كمال بالتباين بينهما، فحبه لها غريب، وهي حساسة جدًا وحياته وسخة:

«إنك نموذج للطهارة.. وروحك توحي إلى بياض الثلج الناصع الذي أخاف أن ألوّثه بأنفاسي. إنني أحببت، وهذا صحيح، إنما نساء متزوجات. إن ماضيّ قذر» [ص178].

على أن ليلى تعزو التنازعات بين عادته وضميره إلى «الظروف التي كانت تحيط به، وهي التي دفعته إلى هذه الزلات» [ص179]، ووجدت له الأعذار، ورجته أن يحافظ عليها ولا يحرجها!.

ويعنى القسم الثالث بإظهار التباين الاجتماعي الطبقي وتأثيراته على العلاقات الإنسانية على الرغم من وصف طرفي العلاقة بالانتماء إلى الطبقة المتوسطة. ويلاحظ أن الروائية جاوزت التعالق الطبقي والعلاقة العاطفية برمتها حين تخلت ليلى عن حبيبها كمال الذي سعت إلى الارتباط به، لتقبل على الحياة من جديد.

بلغت حنوش حدّها الأقصى في التناول الجريء لموضوع الحبّ، فلم ترضخ المرأة للعلاقة بالرجل، إذ واجهت مصيرها، ومضت إلى إرادة الحياة متفائلة على الرغم من يأسها وأساها العميق لخيبة علاقتها بالرجل:

«ابتسمت للبريق الضئيل.. لابدّ أن يتسع يومًا.. وينمو ويقوى.. ويجرف يأس نفسي. وتذكرت ما كانت توتو تعيده عليّ.. ونحن نعمل:

ـ ابتسمي للحياة.. وتمتعي بها.. إنها أقصر مما تتصورين.

سوف يزول يأسي.. كما بدأ يأس والدتي يزول.. فكلّ ما في الحياة زائل.

وحاولت أن أبتسم من جديد» [ص269].

وقد داخل الوصف والحوار والسرد الأحاديث عن المشكلات الاجتماعية والسياسية من النصائح العامة حول السلوك البشري وتوجيهه نحو مراعاة العلاقات العامة للأفراد إلى الدفاع عن القومية العربية، وقد نثرت الروائية الحكم والأمثال في ثنايا السرد من موقع لآخر مثل الدعوة المتكررة للابتسام في وجه الحياة ومجانبة اليأس ما دام كلّ شيء عرضة للزوال.

مال السرد إلى البساطة والمباشرة في الوصف الخارجي للمكان والزمان والشخصيات دون الخوض في التحليل النفسي للكشف عما يؤدي إلى الطابع المأساوي الذي غلب عليه التفاؤل في ختام الرواية.

وتعتمد حنوش في بنيانها الروائي على التحفيز الواقعي وامتزاجه ببعض عناصر المشجاة (الميلودراما) حيث وفرة الأسى والدموع التي يغطيها التفاؤل في المنتهى.

ولا تختلف روايتها الثانية «عشيقة حبيبي» عن موضوع روايتها الأولى، وهو الحبّ في تآلف الوصف الخارجي والصراع الداخلي المتلفع بصعوبة خيار العلاقة العاطفية. وتنتمي البطلة نوال إلى الطبقة المتوسطة أيضًا، وتفتقر إلى التحصيل العلمي، وتعمل ضاربة على الآلة الكاتبة، ثم تحاول الاستقلالية في عملها حين تزمع افتتاح مكتبة، فترفض أمها على أن مثل هذا المشروع تبذير للمال، وتختزن أوجاعًا كثيرة من ذكرى علاقتها بعشيقها الأول، ثم

تقع في حبّ صديق العائلة فريد، الرجل العصامي الذي حُرم من عناية والديه، وغدا مدير شركة ملاحية، وعمل في التجارة، وتعلق بامرأة فرنسية مسنة نسبيًا، وقد بلغ نوال خبر هذه العلاقة، وألمحت الروائية إلى ما يشبه عقدة أوديب لديه حين ترتبط علاقته بالفرنسية بفقدان عطف الأم وما نجم عنه من أذى روحي ومادي.

يتشبث فريد بحبه لنوال، ويطلب منها الزواج لأن الفرنسية فضت العلاقة معه.. وستمضي إلى بلادها، غير أن نوال رفضت طلبه ما دامت هذه العشيقة الدخيلة مقيمة إلى جانبه. وتغمرها الحيرة والتردد والعراك مع النفس، بتعبيرها، وتعلن وصولها إلى قرار في داخلها دون الإفصاح عنه منتظرة «بزوغ الفجر وولادة الصباح» [ص 451].

لجأت الروائية في روايتها الثانية إلى التحليل النفسي في رؤية العلاقات العاطفية ضمن محيطها الاجتماعي، ويوحي قرارها بقبول الارتباط به خلاصًا من المشكلات الكثيرة الضاغطة عليها.

اعترفت نوال أن حبها له «مجروح، وأنا بحاجة إلى أن أخمد جرحه حتى يصبح سليمًا صافيًا، هل حقًا أريد أن أفسخ الخطوبة؟ وداهمني شعور بالخوف من الحياة القاحلة التي تنتظرني في حلب» [ص449 ـ 450].

إن نوال مسكونة بالحيرة إزاء خيار الحب ما لم يرتبط بحاضنته الاجتماعية من نبذ كلام الناس إلى نفي الوحدة إلى مجالدة صعوبات الحياة كلّها.

تعنى حنوش بالتحليل الفني والتحليل النفسي في آن لاستيعاب الصراع الاجتماعي ولا سيما مشكلات التباين الطبقي ومصاعب الحياة الناجمة عنها وما تورثه من عذاب وضنى وإرهاق مادي وروحي وهذا ما جعلها تفتح النهاية على احتمالات الموقف من الرجل ضمن دائرة العلاقات الاجتماعية، فثمة قلق دائم لدى المرأة من الأحاسيس المتناقضة إزاء تداعيات المجتمع الأبوي على المرأة وخياراتها في الحياة.

إن الرواية عند حنوش تدخل في استيعاب عناصر التمثيل الثقافي لخيار الإنسان إزاء تفاقم الصراع النفسي حول قيمة الحبّ في سيرورة العلاقات الإنسانية والاجتماعية. ويلاحظ المتتبعون لمسار الرواية في سورية وجهد الكتابة الروائية النسائية فيها أن حنوش جاوزت الرومانسية والتشبث بتأثير عواطف الحبّ ومغالاتها لدى عديد أمثالها من الروائيات، لأنها تؤثر النظر إلى الحبّ ضمن شروطه الواقعية وأبعاده الاجتماعية والإنسانية بالدرجة الأولى.

المصادر والمراجع

● حنوش، جورجيت، ذهب بعيدًا، دار الأندلس، بيروت 1961؛ ● حنوش، جورجيت، عشيقة حبيبي، المكتب التجاري، بيروت 1965؛ ● عدنان بن ذريل، الرواية العربية السورية، دراسة نفسية في الشخصية وتجربة الواقع، دمشق 1973؛ ● د. ضويحي هيام، الرواية النسائية في سورية، دراسة مشهدية نقدية، مطبعة العجلوني، دمشق 1992.

د. عبد الله أبو هيف
جامعة تشرين ـ اللاذقية ـ سوريا

أبو حنيفة، النعمان بن ثابت

(80هـ/699م - 150هـ/767م)

أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي أحد أئمّة المذاهب السنّية الأربعة، ولد حوالي 80هـ/ 699م بالكوفة، وكان جدّه زوطي قد جلب من فارس إلى الكوفة عبدًا وأعتقه سيّده، وكان من قبيلة تيم الله، أما والده ثابت فقد ولد حرًا في هذه القبيلة.

لم تبيّن المصادر حياة أبيه وما كان يتولّاه من الأعمال، ولكن يستنبط منها ما يشير إشارة موجزة إلى بعض أحواله. فقد يستفاد منها أنّه كان من التجّار. ويبدو أنّ أبا حنيفة لم يتفرّغ للعلم منذ صغره الباكر، وإنّما كان أكثر اهتمامه بالتردّد على السوق وممارسة التجارة، ثمّ حدث التحوّل إلى العلم وهو شاب فتى، حدث ذلك إثر نصيحة توجّه بها إليه عامر الشعبي أحد أئمّة الكوفة. أدرك أبو حنيفة أربعة من الصحابة منهم أنس بن مالك، وعبد الله بن أبي أوفى الأنصاري، وجماعة من التابعين مثل إبراهيم النخعي، وعلي بن الحسين، إلّا أنّه لم يأخذ عن أحد منهم على الأرجح. تثقّف أبو حنيفة بكل الثقافة التي كانت في عصره، حفظ القرآن على قراءة عاصم، وأخذ العلم عن أصحاب عبد الله بن مسعود، وعن عكرمة حامل علم ابن عباس، ونافع حامل علم ابن عمر، وعطاء بن أبي رباح فقيه مكة، جالس أيضًا أربعة من كبار أهل البيت، زيد بن علي زين العابدين إمام الزيدية، ومحمد الباقر، وجعفر الصادق، وعبد الله بن الحسن بن الحسن. وربّما يساهم هذا الجانب في تفسير ميول أبي حنيفة العلوية، بل إنّ كارل بروكلمان ذكر أنّ أبا حنيفة كان من المتشيّعين. على أنّه تفقّه بحماد ابن أبي سليمان (ت 120هـ/ 737م) راوية إبراهيم النخعي. وقد كان لحمّاد تأثير كبير في ثقافة أبي حنيفة الفقهيّة، لا سيّما أنه ظل يسمع منه نحو ثمانية عشر عاما. ويروي عنه أنّه تولى حلقة الدرس أثناء سفر شيخه حماد إلى البصرة. وبعد عودة حماد من سفره، أعلن خطأ عشرين إجابة من إجابات أبي حنيفة وكذلك قرر أبو حنيفة أن يحضر دروس حماد فقط ولم يحاضر إلّا بعد موت شيخه، أي عند بلوغ أبي حنيفة الأربعين من عمره.

وكان العراق في زمانه مزيجا من الأجناس المختلفة والمذاهب المتعددة في السياسة والكلام وأصول الاعتقاد، ففيه الشيعة، وفيه الخوارج وفيه المعتزلة وأصحاب الفقه، ويبدو أنّه اتّجه في بداية أمره إلى علم الكلام وأخذ يذاكر العلماء في العقائد والنحل المختلفة، ويقوم بالرحلات الكثيرة إلى البصرة ليجادل المعتزلة ويتعلّم ما عندهم، ويجادل الخوارج ويتعرّف فكرهم، وشيئا إلى ما حوله، فوجد حلقات الفقه التي يملؤها علماؤه، يفيدون الناس في أمور دينهم ويعلمونهم النافع العملي، لا الجدل النظري. فراجع نفسه وتدبّر أمره، وانصرف إلى الفقه لتتبع أثر السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وتعرّف مواضع الاتفاق والاختلاف من

أقوالهم ثمّ استخراج الأحكام من الكتاب والسنّة والبناء عليهما، ويبدو أنّه كان في مسائل الكلام أقرب الى المرجئة.

وقد تفقّه به جماعة من الكبار، منهم: زفر بن الهذيل، وأبو يوسف القاضي، وابنه حماد بن أبي حنيفة، ونوح بن أبي مريم المعروف بنوح الجامع، وأبو مطيع الحكم بن عبد الله البلخي، والحسن بن زياد اللؤلؤي، ومحمد ابن الحسن الشيباني، وأسد بن عمرو القاضي، وعشرات غيرهم، وقد روى عنه من المحدّثين والفقهاء عدّة لا يحصون، فمن أقرانه، مغيرة بن مقسم، وزكريا بن أبي زائدة، ومسعر بن كدام، وسفيان الثوري، ومالك بن مغول، ويونس بن أبي إسحاق.

أثنى جلّ العلماء عليه. وصفه معاصره عبد الله بن المبارك بأنّه «مخ العلم»، فيما ذكر الشافعي أنّ «كل الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة». وتفيد هاتان الشهادتان تخصّص أبي حنيفة في الفقه وتضلّعه فيه، بل إنّ مالك ابن أنس قال فيه: «لو جاء إلى أساطينكم هذه، يعني السواري، فقايسكم على أنها خشب لظننتم أنها خشب». وهو دليل على قوّته في الحجاج والمناظرة. أمّا ابن خلكان فقد وصفه بأنّه «كان عالما عاملا زاهدا عابدا ورعا تقيّا كثير الخشوع دائم التضرّع إلى الله». ومن مظاهر ورعه أنّه كان يرفض المناصب التي يعرضها عليه السلطان لاسيّما القضاء، كما كان يرفض بذكاء جوائز السلطان، وهذا حرصًا منه على حفظ كرامته، وسعيا منه إلى التمسّك باستقلاليّته تجاه السلطان.

فقد كان ينفق من دار كبيرة له لعمل الخز، وعنده صناع وأجراء، وهذا يعني أنّه كان يعيش في يسار. ومن الأدلّة الأخرى على ذلك أنّه كان كثير العناية بثيابه، يختارها جيّدة، وأنّه كان حسن الهيئة كثير التعطّر. وقد كان يحثّ من يعرفه على العناية بمظهره.

عرض عليه يزيد بن عمر بن هبيرة عامل مروان بن محمد على العراق، القضاء، فرفض، فامتحنه، وفرّ إلى مكّة، أقام بها مدّة إلى أن قامت الدولة العباسيّة. ويبدو أنّ أبا حنيفة قد استقبل عهد العباسيين بارتياح، من ذلك أنّه كان يتردّد على أبي جعفر المنصور. ربّما كان ذلك لأنّ العباسيين نادوا بالثأر لبني علي الذين تمّ اضطهادهم لثورة محمد النفس الزكية ويقال إنّ أبا حنيفة حرّض على الخروج معه، فاختبره المنصور بعرض القضاء عليه، فرفضه، فسجنه ويقال إنّه مات بسجن المنصور. وهذا يعني أنّه لم يسجن نتيجة لرفضة القضاء، بل نتيجة لموقفه السياسي وهو الرأي الذي رجّحه يوسف شاخت.

وفكر أبي حنيفة يُفصح عن قناعة بأنّ اكتساب المال يعصم العالم من الحاجة إلى ذوي المال والسلطان وبذا يضمن حرّيته ويحفظ تقواه ليتفرّغ للواجب الأكبر ألا وهو تبصير العامّة بحقائق الدين والاجتماع. كما نهى أهل العلم عن مخالطة التجار والوجهاء ورجال الديوان «فإنّهم يسيئون الظنّ بك ويعتقدون ميلك إلى أخذ الرشوة منهم»، فإذا اضطرّ العالم إلى لقائهم فعليه أن يصرّ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أيًا كانت الظروف «لأنّ الله معينك وناصرك وناصر الدين. فإذا فعلت ذلك، هابوك ولم يتجاسر أحد على إظهار البدعة في الدين».

ولعلّ أهمّ سمة في شخصية هذا الإمام أنه كان قطبا في مشاغل العلماء واهتماماتهم ممّن عاصره أو جاء بعده من مناصريه أو من المعترضين على فقهه، ولم يشغل إمام من الأيمّة الأعلام حيّزا في أحاديث الناس وتعليقاتهم ما شغله هو، بل لا يكاد يوجد أحد ممّن علم الشريعة أو تفقّه فيها، ولم يكن له موقف منه بالمساندة أو المعارضة، حتّى العوام منهم، وكان له زيادة على ذلك مواقف مع أهل السياسة والنفوذ، وكذلك مع الخوارج والزنادقة وأهل البدع ممّا لا يخفى، وآثاره مرتسمة في الفقه الإسلامي، مؤثّرة في توجهاته شكلا ومادّة، وقد اعتنى علماء التشريع والتراجم والآثار بذكر أخباره ونوادره، وهو أوّل من قنن الرأي وضبط مسالكه بعد أن كان مرسلا، واجتهد أن يبني صرح الأحكام على تعقّل المعاني واعتبار مفاهيمها والربط بين عللها، محاولا بذلك أن يجعل الأحكام وحدة تشريعيّة، يمكن بعد ذلك استخلاص أصول وقواعد هي مراجع للفقهاء في الاجتهاد. والظاهر أنّ سمته العقلية في تحليل قضايا الشريعة هي التي كوّنت مجال النقد لفكره فقد قال فيه سفيان بن عيينه: «مازال أمر الناس معتدلا حتّى غير ذلك أبو حنيفة بالكوفة، وعثمان البتي بالبصرة، وربيعة الرأي بالمدينة»، فهؤلاء في نظره أوّل من فتح باب الرأي وعول عليه واعترض بالقياس على حديث رسول الله [ابن حزم، الإحكام، 2/ 56].

ولعلّ كثرة اعتماده على القياس، والتصريح بالاستحسان في الشريعة حملت منتقديه على التلوم عليه لأجل ذلك، خصوصا إذا رأوا في هذا الاجتهاد مخالفة للنصوص، قال الأوزاعي: «إننا لا ننقم على أبي حنيفة أنه رأى، كلنا يرى، ولكنّنا ننقم عليه أنّه يجيئه الحديث عن النبي فيخالفه إلى غيره» [ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص 52].

ولكن الذين رووا عنه ووثقوه وأثنوا عليه أكثر من الذين تكلّموا فيه، والذين تكلّموا فيه غالبيّتهم من أهل الحديث، أكثر ما عابوا عليه الإغراق في الرأي والقياس، وقد جاء عن الصحابة ﷺ من اجتهاد الرأي والقول بالقياس على الأصول عند عدمها ما يطول ذكره.

ويظهر أنّ أبا حنيفة كان شديد التعجّب ممّا يتداول على ألسنة الناس من أنّه يأخذ بالرأي ويترك الأثر، ولذلك قال للمنصور لما لامه على تقديم القياس على الحديث: «ليس الأمر كما بلغك - يا أمير المؤمنين، إنّما أعمل أوّلا بكتاب الله ثمّ بسنة رسول الله ثمّ بأقضية أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي ﷺ، ثمّ بأقضية الصحابة، ثمّ أقيس بعد ذلك إذا اختلفوا، وليس بين الله وبين خلقه قرابة».

فهذا منهجه في ترتيب الأصول النقلية التي بنى عليها مذهبه، الكتاب فالسنة فالإجماع فقول الصحابي، أما قول التابعي، فلا يقوم عنده كأصل في التشريع، لأنّهم فقهاء كغيرهم لا يمثّلون مرجعيّة فقهيّة ملزمة فإن لم يجد في هذه الأدلّة أحكاما مفصّلة، واحتاج الأمر إلى إعمال النظر بالاجتهاد لم يجد أسلم من القياس لإمضاء الأمور عليه لأنّه رجوع إلى الدليل بالنظر في معناه، واستفادة المناسب الذي بني عليه الحكم، فإذا قبح القياس، بأن وجد مانع صارف عن استعماله التجأ إلى

الاستحسان ما دام يمضي له، وكان ملائما للمعقول فإن لم يمض، رجع إلى ما يعامل المسلمون به، أي ما يتعاهد عليه الناس من أعرافهم ومعاملاتهم التي استقاموا عليها [أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، 2/ 161].

وهذه الأصول هي التي عليها أكثر أهل العلم، إذ لا نزاع في هذا الترتيب وإن كان الاختلاف معه في حجم كل دليل في الفقه، توسيعا وتضييقا وكذلك في مفهوم هذا الاستحسان الذي يقول أبو حنيفة أنّي آخذ به وكذلك النزاع في تقديمه على القياس، هذا الأمر الذي اختلف فيه حتّى مع أصحابه، فالاستحسان هو مجال الغوص على النكت الفقهيّة واعتبار ما يصلح أمور الناس من دون التقيّد بأشكال القياس التي يكون الالتزام بها أحيانا إجحافا أو تضييقا على المكلّفين، يقول تلميذه محمد بن الحسن الشيباني: «كان أبو حنيفة يناظر أصحابه في المقاييس فينتصفون من مسائل» [شلبي، أصول الفقه الإسلامي، 1/ 270].

فالاستحسان نمط من الاجتهاد، متميّز، يحتاج صاحبه عند تقريره إلى وجوه من الاستدلال والترجيح والبيان، قد لا تطلب في دليل آخر بخلاف القياس الذي هو ضرب واضح من الاجتهاد، بسيط غير معقّد وهو ما جعل الإمام الشافعي يلتزم سنن القياس، ولا يقر بشرعيّة الاستحسان، وأبو حنيفة في فقهه كثيرا ما يعدل عن القياس إلى الاستحسان، وإن كان الظاهر أنّه يرجع إلى أيهما كان أوفق له، بمعنى أنه يتصرّف في إلحاق المنظور فيها بأحد الدليلين (القياس أو الاستحسان) طبق معايير فقهيّة دقيقة، وهذا الأمر هو الذي عجز عنه أتباعه، فلم يتهيّأ لهم وجه الاستحسان الذي قال به إمامهم ولم يتحرّر لهم معناه حتّى قالوا: «الاستحسان هو ما ينقدح في الذهن ولا يتيسر التعبير عنه» وهنا بالذات يجد خصومه والمنتقدون عليه مجالا لإشاعة الأباطيل فيه.

ولعلّ السمة التجارية التي كانت واضحة في فقهه هي السبب في تسوّغه في الأخذ بدليل الاستحسان وكذلك بالعرف، ذلك أنّه يفكّر في العقود الإسلاميّة المتّصلة بالمعاملات، تفكير التاجر الذي تمرّس بها وعرف عرفها، واستبان معاملات الناس فيها، وواءم بين نصوص الشريعة من كتاب أو سنة وما عليه الناس من معاملاتهم، وتماشيا مع هذا المنهج الاجتهادي الذي وضعه، فإنه تجرّد لافتراض المسائل وتقدير وقوعها وفرض أحكام لها، إما بالقياس على ما وقع، وإما بإدراجها في العموم ممّا زاد الفقه اتّساعا وتشعّبا، حتّى قيل إنّه وضع «ستين ألف مسألة في الفقه» وقد تابعه في هذا المنهج التجريدي الافتراضي كثير من الفقهاء ممّن جاء بعده، ففرضوا المسائل وقدروا وقوعها ثم بيّنوا أحكامها.

وخلاصة ما ذكر أنّ الفقه كان صناعة أبي حنيفة، وقد اتّفق له من الأصحاب ما لم يتّفق لغيره، وقد وضع مذهبه بشورى ولم يستبد بوضع المسائل بنفسه، وإنّما كان يلقيها على أصحابه مسألة مسألة فيعرف ما كان عندهم، ويقول ما عنده ويناظرهم حتّى يستقرّ أحد الأقوال فيُثْبته أبو يوسف حتّى أثبت الأصول كلّها.

وكان أبو حنيفة أوّل من دوّن الفقه ورتّب أبوابه ثمّ تابعه مالك بن أنس في ترتيب

الموطإ، ولم يسبق أبا حنيفة إلى ذلك أحد، لأنّ الصحابة والتابعين إنّما كانوا يعتمدون على قوّة حفظهم، فلمّا رأى أبو حنيفة العلم منتشرا خاف عليه فجعله أبوابا مبوّبة، فبدأ بالطهارة ثمّ بالصلاة ثم سائر العبادات ثمّ المعاملات، ثم ختم بالمواريث لأنّها آخر أحوال الناس، وهو أوّل من وضع كتاب الشروط.

ولئن ذكر ابن حزم أنّ مذهب أبي حنيفة انتشر بقوّة السلطان، لا سيما أيام قضاء أبي يوسف صاحب أبي حنيفة، فإن هذا لا يمنع وجود عوامل أخرى ساهمت في توسّع انتشاره. فهو من أكثر المذاهب الإسلامية انتشارا في العالم حاليّا، وهو منتشر بتركيا، وآسيا الوسطى، والهند وغيرها.

آثاره

ذكر كارل بروكلمان أنّه «لا توجد كتب صحيحة النسبة إلى أبي حنيفة». وقد أيّده في ذلك شفيق شحاتة، ويوسف شاخت، وإيريك شومان، ربّما باستثناء ما يهم رسالة أبي حنيفة إلى عثمان البتي التي اعترف يوسف شاخت بصحّة نسبتها إلى أبي حنيفة. أمّا فؤاد سيزكين فقد ذكر أنه من الصعب الحكم على صحّة نسبة مؤلّفات أبي حنيفة إليه، وتساءل: «كيف يستطيع المرء أن يتصوّر أبا حنيفة وهو مؤسس مذهب في الفقه أنّه لم يؤلّف كتابا قط، في حين أنّ أساتذته كانوا يؤلّفون كتبا وأنّ معاصريه في البلاد الإسلامية المختلفة كانوا يؤلّفون كتبا كثيرة مبوّبة؟». ويمكن أن نؤيّد هذا الرأي بأسماء الكتب المنسوبة إلى أبي حنيفة والتي ذكرها كل من ابن النديم في الفهرست، وحاجي خليفة في كشف الظنون. على أنّ مصطفى الشكعة ذهب إلى أبعد من ذلك. فقد نسب إلى أبي حنيفة بعض الكتب المعروفة بنسبتها إلى أبي يوسف وإلى محمد ابن الحسن الشيباني. ومن الكتب المنسوبة إلى أبي حنيفة نذكر:

1 ـ الفقه الأكبر، يقال إنّ ابنه حمادا رواه عنه، طبع بالقاهرة سنة 1323هـ/ 1905م، وبحيدر اباد سنة 1342هـ/ 1923م، وترجم إلى اللغات الأوردية، والبنجابية، والألمانية. وقد تمّ تناوله بالشرح؛ 2 ـ الفقه الأكبر = الفقه الأبسط، يحتوي أجوبة أبي حنيفة عن مسائل عقدية طرحها عليه تلميذه أبو المطيع الحكم بن عبد الله بن سلمة (ت 199هـ/ 814م)؛ 3 ـ مسند أبي حنيفة، وصلتنا منه عدّة روايات، جمعها أبو المؤيّد محمد بن محمود الخوارزمي (ت 655هـ/ 1257م)، طبع البعض منها في الهند والقاهرة؛ 4 ـ وصية، وهي وصية إلى أصدقائه في أصول الإسلام توجد في روايتين، وبينهما بعض الاختلافات، طبعت جزئيا في القاهرة سنة 1936 م، وقد تمّ تناولها بالشرح؛ 5 ـ رسالة إلى عثمان البتي (ت 143هـ/ 760م) قاضي البصرة، نشرت بالقاهرة سنة 1368هـ/ 1948م؛ 6 ـ كتاب العالم والمتعلّم، كتاب مشتمل على العقائد والنصائح بطريق السؤال من المتعلّم والجواب عن العالم، رواه تلميذه أبو مقاتل حفص بن سلم السمرقندي (ت 208هـ/ 823م)، طبع بحيدر اباد سنة 1349هـ/ 1930م، ونشره محمد زاهد الكوثري بالقاهرة سنة 1368هـ/ 1948م.

المصادر والمراجع

● الشيرازي، طبقات الفقهاء، تح. إحسان عباس، بيروت 1970م، ص 86؛ ● ابن عبد البر، الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء، القاهرة 1350هـ/ 1931م، ص 121 ـ 171؛ ● الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، بيروت، دار الكتاب العربي د.ت، 13/ 323 ـ 423؛ ● ابن النديم، الفهرست، بيروت، مكتبة خياط د. ت، ص 201 ـ 202؛ ● المكي، الموفق بن أحمد، مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة، حيدر اباد، 1321هـ/ 1903م؛ ● ابن البزاز الكردري، محمد، مناقب الإمام الأعظم، على هامش مناقب الإمام الأعظم أبي حنيفة للموفق المكي، حيدر اباد، 1321هـ/ 1903م؛ ● ابن خلكان، وفيات الاعيان، تح. إحسان عباس، بيروت د.ت، 5/ 504 ـ 415؛ ● اليافعي، مرآة الجنان، بيروت 1970م، ط 2، 1/ 309 ـ 312؛ ● ابن الأثير، عز الدين، اللباب في تهذيب الأنساب، القاهرة 1357هـ/ 1938م، 1/ 360؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون، بيروت، دار الفكر، 1402هـ/ 1982م؛ ص 842، 1287، 1437، 1680، 2015؛ ● بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، القاهرة 1991، 3/ 235 ـ 245؛ ● سزكين فؤاد، تاريخ التراث العربي، نقله إلى العربية محمود فهمي حجازي، السعودية 1983م، 3/ 31 ـ 50؛ ● الزركلي، الأعلام، بيروت 1986، ط 7، 8/ 36؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، بيروت د.ت، 13/ 104 ـ 105؛ ● أبو زهرة، محمد، أبو حنيفة حياته وعصره ـ آراؤه وفقهه، دار الفكر العربي 1955م، ط 2، ص 17، 19، 23، 51، 63؛ ● الشكعة، مصطفى، الأئمة الأربعة، القاهرة 1411هـ/ 1991م، ط 3، 1/ 10، 170، 185، 203 ـ 204؛

● E.I., 2, I, Abu Hanifa (J. Schacht), p. 126-128; ● Schacht, J., Introduction au droit musulman, trad. Paul Kempf et Abdel Magid Turki, Paris, 1983, P.45-46.

د. نجم الدين الهنتاتي
جامعة تونس

د. نجمان ياسين
جامعة الموصل ـ العراق

د. هشام قريسة
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن حنين، إسحق

(215هـ/830م - 298هـ/910م)

أبو يعقوب إسحق بن حنين العبادي، من نصارى العباد النسطوريين الذين انقطعوا إلى ظاهرة الحيرة. وهو ابن الطبيب والمترجم المشهور حنين بن إسحق، ولد ببغداد سنة 215هـ/ 830م، ولعلّه أسلم، يقول البيهقي [ص 19] في هذا الصدد : «إسحق بن حنين كان من جلّة المسلمين وقد حسن إسلامه».

تعلّم إسحق الطب والفلسفة والمنطق، وامتهن الترجمة في مدرسة أبيه ببيت الحكمة، وخدم بعض خلفاء بني عباس، ومنهم الخليفة المتوكل على الله (232هـ/ 847م - 247هـ/ 861م)، والمكتفي بالله (289هـ/ 902م - 295هـ/ 908م) وأخاه المقتدر بالله [البيهقي، ص 18]. كما انقطع اسحق طويلا إلى الوزير المعتضد بالله، القاسم بن عبد الله إلى أن مرض بالفالج وتوفّي ببغداد في عهد المقتدر بالله (295هـ/ 908م - 320هـ/ 932م) في ربيع الآخر، سنة 298هـ/ 910م. وقد شهد له بلباقة اللفظ وظرف الحكمة ورُقيّ الشعر.

كانت أكثر أعمال إسحاق بن حنين، على عكس أبيه، في ترجمة الكتب اليونانيّة الفلسفية وخصوصا كتب أرسطوطاليس في الحكمة، وأقلّها في الطبّ. كما أنه شارك أباه في كثير من مترجماته الطبّية التي نشرت باسم أبيه. وله عدا ذلك مؤلّفات في الطبّ وتعليقات وشروح على أفكار العلماء اليونانيين، واختصارات لكتبهم. وقد اختلفت الجودة والاتقان عند إسحاق بن حنين في ترجماته من كتاب إلى آخر، بل ولوحظ هذا الاختلاف في الكتاب الواحد الذي له أكثر من ترجمة على يديه، حيث كان يبدع في النقل الثاني أكثر من الأوّل.

آثاره

1 - تاريخ الأطبّاء، ويعدّ هذا الكتاب أقدم ما كتب بالعربيّة في تراجم الأطبّاء اليونانيين القدماء، أفاد منه ابن النديم في وضع كتابه الفهرست، وكذلك ابن جلجل في كتابه طبقات الأطبّاء. ومن المؤكّد أنّ إسحاق قد اعتمد في كتابه على أصل يوناني لمؤلّف مشهور هو «يحيى النحوي» الذي عاش في الإسكندريّة في القرن السادس الميلادي، وقام بوضع كثير من الشروح والتفاسير لمؤلّفات أرسطو، وبتأليف بعض الكتب في الدفاع عن الدين المسيحي ضدّ الوثنيّة، ومن الغريب أنّ إسحاق، وهو يذكر أنّه يؤرّخ للأطبّاء والحكماء من بدء ظهور الطبّ إلى سنة 290هـ، لم يزد شيئا عمّا نقله من كلام يحيى النحوي سوى ذكره له في آخر من ذكرهم من المترجمين، بالرغم من أنّه كان قد عاش في القرون الثلاثة الأولى للإسلام بعض الأطبّاء المشهورين، والذين تركوا مصنّفات

هامّة في الطبّ من أمثال أهرن القسّ، ويوحنّا ابن ماسويه، وقسطا بن لوقا البعلبكي وبعض من آل بختيشوع. حتّى أنّه لم يذكر والده حنينا الذي ترجم له مؤرّخو الطبّ بعد ذلك. حقّق هذا الكتاب وترجم إلى الفرنسية من قبل فرانس روزنثال، ونشر في مجلّة Orients, [vol. 7, p. 55]؛ 2 ـ كتاب الأدوية المفردة على الحروف، ترجمه إلى اللاتينيّة نيقولا الدمشقي، وطبع سنة 1841م؛ 3 ـ كتاب الترياق، أخذ عنه الرازي في معالجة القولنج، ومعالجة الجدري والحصبة؛ 4 ـ تعريب المقولات لأرسطوطاليس، طبع في ليبسيك سنة 1846م؛ 5 ـ كتاب معرفة البول، طهران، دنشكده، 1408هـ/ 1987م؛ 6 ـ كتاب المختصر في الطبّ؛ 7 ـ الرسالة الصافية في أدوية النسيان؛ 8 ـ كتاب الأدوية الموجودة بكلّ مكان؛ 9 ـ كتاب الأدوية المسهلة؛ 10 ـ إصلاح جوامع الإسكندرانيّين لشرح جالينوس لكتاب الفصول لأبقراط، ترجمه إسحاق وأصلح الترجمة ثابت بن قرّة؛ 11 ـ كتاب النبض على جهة التقاسيم؛ 12 ـ كتاب صناعة العلاج بالحديد؛ 13 ـ ترجمة وصيّة أبقراط؛ 14 ـ كتاب المجسطي لبطليموس، ترجمة إسحاق، وأصلح الترجمة ثابت بن قرّة؛ 15 ـ كتاب الأصول لإقليدس، ترجمة إسحاق، وأصلح الترجمة ثابت بن قرّة؛ 16 ـ كتاب المناظر لإقليدس، ترجمة إسحاق، وأصلح الترجمة ثابت بن قرّة، نسخة في هولندا، ليدن 976هـ؛ 17 ـ كتاب آداب الفلاسفة ونوادرهم، وقد اختصره محمد بن علي بن إبراهيم الأنصاري، وحققه عبد الرحمن بدوي، ونشره معهد المخطوطات العربيّة في الكويت سنة 1985م؛ 18 ـ كتاب الحيلة لحفظ الصحّة لجالينوس، ترجمه إسحاق بن حنين إلى العربية لعلي بن يحيى؛ 19 ـ ترجمة النصف الأخير من كتاب في أجزاء الطب لجالينوس؛ 20 ـ ترجمة كتاب أفكار أرستراتوس في مداواة الأمراض، نقله إلى اللغة السّريانيّة لبختيشوع؛ 21 ـ ترجمة كتاب في آلات الشمّ لجالينوس إلى العربيّة؛ 22 ـ ترجمة كتاب في مراتب قراءة كتب جالينوس إلى العربية لأحمد بن موسى؛ 23 ـ جوامع كتب أبقراط الصحيحة وغير الصحيحة، وقد ترجمها إلى العربيّة؛ 24 ـ ترجمة كتاب النبات لنقولا الدمشقي؛ 25 ـ كنّاش يعرف بكنّاش الخف؛ 26 ـ مقالة في الأشياء التي تفيد الصحّة والحفظ، وتمنع من النسيان، ألّفها لعبد الله بن شمعون؛ 27 ـ مقالة في التوحيد.

وقد نسب إليه «كتاب النفس» (نشره أحمد فؤاد الأهواني مع كتاب «تلخيص النفس» لابن رشد، القاهرة 1950). وفي ذلك خطأ، إذ كشفت دراسة مقارنة عن الاختلاف الموجود بين المصطلحات المستعملة في ذلك الكتاب وبين التي كان من عادة اسحق استعمالها [صغير، ص 57]. ومن الأرجح أن يكون هذا الكتاب أقدم شرح موجود لكتاب أرسطو قام به ثامسيطوس. وقد حوى المخطوط الوحيد بمكتبة الأسكوريال بمدريد أخطاء كان بالإمكان تداركها لو قورن بالترجمة الفارسيّة التي قد ترجع إلى القرن السابع للهجرة [صغير، ص 57-72]. وقد أحصى ابن جلجل لهذا الكتاب سبع مقالات [ص 69]، في حين بيّن ابن النديم

[ص 352] أنّ حنين قد نقل منه ثلاث مقالات إلى السريانيّة، ثمّ ترجم اسحق بعضه إلى العربيّة وألحقه بترجمة ثانية تامّة من نسخة رديئة ولم يحصل له سوى مقالتين [ص 355]. أمّا القفطي، فقد ذكر ثلاث مقالات [ص 41]، مضيفًا أنّ «اسحق نقل ما حرّره ثامسطيوس الحكيم إلى العربيّة من نسخة رديئة ثم أصلحه بعد ثلاثين سنة بالمقابلة إلى نسخة أخرى». (وتوجد نسخة منه في خزانة القرويين بفاس عددها 3154).

■ المصادر والمراجع

● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطبّاء، شرح وتحقيق نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت د. ت؛ ● ابن جلجل، طبقات الأطبّاء والحكماء، تح. فؤاد سيّد، مؤسّسة الرسالة، ط 2، ص 198؛ ● ابن اسحق، حنين، كتاب عشر مقالات في العين، تح. وتقديم وترجمة ماكس مايرهوف، طبعة عربيّة انجليزيّة، المطبعة الأميريّة، القاهرة 1928م؛ ● ابن حنين، إسحق، تاريخ الأطبّاء، في مجلّة Orients، 1954م، 7/ 55 - 80، وطبع كذلك في ملحق كتاب ابن جلجل، طبقات الأطبّاء الحكماء، ص 141 - 169؛ ● ابن خلكان، وفيّات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح. محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر د. ت، 1951؛ ● ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت د.ت؛ ● البغدادي، اسماعيل باشا، هدية العارفين، وكالة المعارف، استانبول 1951م؛ ● البيهقي، ظهير الدين، تاريخ حكماء الاسلام، تح. محمد كرد علي، مطبعة الترقي، دمشق 1946م؛ ● السجستاني، أبو سليمان، منتخب صوان الحكمة، Mouton, The Haye، 1979؛ ● عبد القادر، محمد ماهر، حنين بن اسحق، العصر الذهبي للترجمة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت 1987م؛ ● غزال موسى، يونان مراد، حركة الترجمة والنقل في العصر العباسي، مطبعة مار أفرام، العطشانة، لبنان 1973م؛ ● القفطي، علي بن يوسف، تاريخ الحكماء، أو مختصر الزوزني بالمنتخبات الملتقطات من كتاب أخبار العلماء بأخبار الحكماء، نشره يوليوس لبّرت، ليبزغ 1903م؛ ● مقالات فلسفيّة قديمة لبعض مشاهير فلاسفة العرب، مسلمين ونصارى، مع تعريب اسحق بن حنين لمقالات أرسطو وأفلاطون وفيثاغوريورس، نشرها تباعا في مجلّة المشرق الآباء اليسوعيون لويس معلوف وخليل أدّه ولويس شيخو، ط 2، المطبعة الكاثوليكيّة للآباء اليسوعيين، بيروت 1911م؛

● Badawi, Abderrahman, la transmission de la philosophie grecque au monde arabe, Vrin, Paris, 1968; ● Chahine, Osmane, L'originalité créative de la philosophie musulmane, Adrien Maisonneuve, Paris, 1972, p17-20; ● De Lacy,

O'Leary, D.D., How Greek Science passed to the Arabs, Routledge and Kegan, London, Boston and Henley, 1980; • Rosenthal, Franz, The Classical Heritage in Islam, Routledge and Kegan Paul, London, 1975; • Rosenthal, Franz, Ishaq b. Human's Short «Chronology of phisicians» in Oriens, VII, 1954, p 55-80, and Journal of the American Oriental Society, LXXXI, 1961; • Saghir, Hassan, Mohammad, Notes on the edition of the «Kitâb annafs», ascribed to Ishâq ibn Hunayn, J.R.A.S., 1956, 1-2, p 57-72; • Steinschneider, Moritz, Die arabischen Ueberstzungen aus dem Griechischen, Z.D.M.G. vol 50, année 1896; • Walzer, R., Greek into Arabic, Oxford, 1962; • Zimmermann Friedrich W., The Chronology of Ishâq ibn Hunayn's «Taírikh al-Atibbâ», Arabica, vol.21, N.3, oct.1974, p324-330.

د. عبد الناصر كعدان
طبيب ـ حلب
د. منجيّة عرفة منسية
جامعة تونس

الحوّات، سليمان بن محمد بن عبد الله

(1160هـ/1747م ـ 1231هـ/1816م)

سليمان بن محمد بن عبد الله، أبو الربيع الحوّات الشفشاوني ثم الفاسي، من بيت شرف وعلم. أديب مؤرخ نسابة، فقيه متفتح، اختص بالتأريخ لأشهر الأسر المغربية.

ولد بمدينة شفشاون عام 1160هـ/ 1747م وتوفي بفاس عام 1231هـ/ 1816م، كان والده فقيها أديبا، توفي بُعَيد ميلاده، فتولت والدته رعايته وتربيته، فحفظ القرآن العظيم، وأخذ مبادئ العلوم ببلده.

ثم رحل في طلب العلم إلى فاس، واستفاد من بعض شيوخها وتخرج عن بعضهم وهم:

- محمد بن محمد الخياط الدّكّالي، لازمه في علوم العربية.
- محمد بن الحسن الجنوي، أخذ عنه جملة من النحو.
- محمد بن عبد السلام الفاسي، أخذ عنه جملة من النحو، وانتفع به في علوم كثيرة.
- عبد القادر بن العربي بوخريص، أخذ عنه متونا في فنون مختلفة.
- عبد الرحمٰن بن الخياط حسين، أخذ عنه يسيرا من المبادئ وأطرافا من الكتب.
- عبد الكريم بن علي اليازغي، أخذ عنه فنونا كثيرة.

ـ سليمان بن أحمد الفشتالي، أخذ عنه الحساب والميقات والطب، وأفاد من مؤلفاته.

ـ محمد بن الطيب القادري، انفرد به وأخذ عنه أنساب قريش وتراجم أهل العلم والصلاح.

ـ عمر بن عبد الله الفاسي، لازمه مختصا به في معقول العلم ومنقوله وفروعه وأصوله، وأجازه.

ـ محمد التّاودي بن الطالب بن سودة، أخذ عنه علوما كثيرة، وأجازه.

ـ محمد بن الحسن بنّاني، لازمه في التفسير والحديث والفقه، وأجازه.

ـ علي زين العابدين العراقي، أخذ عنه، وصحبه، وحظي برعايته، وأجازه وأقنعه بالاستقرار نهائيا بفاس [الحوات، ثمرة أنسي].

مرت علاقته بأمراء عصره بفترة من الانقباض قبل أن تتوطد، فبعد أن أحجم عن تلبية دعواتهم لحضور ناديهم، قام بزيارة السلطان محمد بن عبد الله بمدينة مكناس، ضمن وفد من الشرفاء والعلماء، فأعجب السلطان واستبقاه عنده، لكنه سرعان ما تعرض لغضبه؛ نتيجة وشاية من بعض الحسدة بما فيه هلاكه، ورغم حلمه عليه، وتكليفه ببعض المهام، قرر الفرار من الجو المشحون، ولم يتردد في الرجوع إلى فاس، دون إذن السلطان، وحينها كان يفخر بكونه منقبضا عن الملك وأبنائه، ولم يهن النفس النفيسة بالتكسب بالشعر، أو بأخذ أجر على التدريس والإفتاء، أو بأخذ مرتب من الأوقاف، ولم يدنس العرض العريض بشيء من الخطط فضلا عن الحرف؛ رغم ما عرض عليه من الخطط والمناصب [الحوات، ثمرة أنسي].

وما إن بويع لتلميذه السلطان سليمان بن محمد بمدينة فاس، حتى زال التحفظ، وأصبح الحوات شاعر الدولة، ونقيب الأشراف الأدارسة [الحوات، البدور الضاوية ـ التقديم، 181 ـ 187].

ومن أكبر مؤلفاته وأهمها كتاب «البدور الضاوية في مناقب أهل الزاوية الدلائية» ولعل تأليفه كان نتيجة العمر؛ إذ هو من المشاريع الكبرى التي يتطلب إنجازها الوقت والجهد والمكانة العلمية والاجتماعية، [الحوات، البدور الضاوية ـ التقديم، 220 ـ 222].

وهذا التأليف إنما هو بحث علمي في موضوع ذي أهمية بالغة، تصدى له المؤلف متأثرا بجملة من البواعث المتضافرة، نلمسها في ما كان لتجربة الزاوية الدلائية من غنى وتفرد، ماضيا وحاضرا، وما كان بين والده وبين أبنائها من صلات التلمذة ورفقة الطلب ومساجلات ومراسلات، إلى جانب تنامي اهتمام المؤرخين وأصحاب التراجم بهم، حيث ترجم شيخه القادري لكثير منهم، ووعد بإفرادهم بالتأليف، وتوفي دون أن يتمكن من الإنجاز، فقام الحوات بتأليف هذا الكتاب، تخليدا لتجربة حية نامية فريدة ـ نهضت بها أسرة مغربية في مجالات الدين والعلم والأدب والترف والسياسة والمجتمع ـ وإحياء لذكرى والده ووفاء بوعد شيخه [الحوات، البدور الضاوية ـ التقديم، 208 ـ 220].

أرخ المؤلف لأسرة أشعت على المغرب ـ

تصوفا وعلما وأدبا وكرما ثم إمارة ـ من البادية خلال قرنين على عهد الدولتين المرينية والسعدية (10 ـ 11هـ/ 16 ـ 17م) ثم من المدينة ـ علما وأدبا ـ خلال قرن على عهد الدولة العلوية (12هـ/ 18م) عبر تسعة أجيال تعاقبت خلال عصر ما قبل الزاوية، فقصر الزاوية الذي مر بطور التأسيس الصوفي والعلمي (974هـ/ 1566م ـ 1021هـ/ 1612م)، فطور الازدهار الصوفي والعلمي والأدبي (1021هـ/ 1612م ـ 1046هـ/ 1636م)، فطور التحول السياسي، (1046هـ/ 1636م ـ 1079هـ/ 1668م) فعصر ما بعد الزاوية الذي تميز باستمرار أبنائها في أداء دورهم العلمي والأدبي بالمدينة (1079هـ/ 1668م ـ 1198هـ/ 1784م).

قسم الكتاب إلى ثمانية أبواب، خصص بابين للتمهيد بذكر الأصل والنسب والموطن، ومجمل المآثر التي ستفصّل بحسب التراجم، وخصص ستة أبواب لتراجم أعلامهم، بلغ عددها ثلاثا وأربعين ترجمة، اقتصر في بعضها على الأخبار، وجمع في جلها بين الأخبار ونصوص الشعر والنثر الفني والإجازات والأسانيد والفتاوى والأجوبة العلمية، لهم ولمعاصريهم، وبذلك فالكتاب يحمل مضامين أدبية وتاريخية وعلمية، يهيمن عليها المضمون الأدبي.

وبالجملة فمكونات الكتاب تتكامل، فالأخبار تشكل إطارا للنصوص، والنصوص تحتوي على إشارات تاريخية.

ومصادره تفوق ثمانية وستين ومائة مصدر، وتنقسم من حيث الموضوع إلى: مصادر أدبية، وأخرى تاريخية وجغرافية، وثالثة علمية.

سار المؤلف في التبويب والتفصيل والترتيب على خطة محكمة، راعى فيها طبيعة الموضوع المتسمة بتعاقب أجيالهم وتنوع أدوارهم، كما سار على منهج متميز في التعامل مع المصادر وعرض التراجم وأسلوب التحرير.

وتتجلى قيمة «البدور الضاوية» في مضامينه الأدبية والتاريخية والعلمية، وفي مصادره الموثقة، ومنهجه المتميز، الذي استطاع أن يصهر فيه ثلاثة مناهج في التأليف التاريخي، منهج الأحداث المتصلة بالأسر الحاكمة، ومنهج تراجم الأعلام، والمنهج الحولي الذي يجمع بين الأحداث والتراجم، وهو إلى ذلك كتاب حافل بالنصوص الأدبية، التي ينفرد بعدد منها، وتكفي الإشارة إلى أنه يضم أربعة آلاف وأربعمائة وثمانية وتسعين بيتا شعريا، واثنتين وخمسين رسالة، إضافة إلى أسلوب المؤلف في التحرير، الذي يمثل نموذجا متميزا للنثر التأليفي، الجامع بين النثر البديعي والنثر المرسل، كما يحفل بالأخبار التاريخية ونصوص مواد العلوم العربية الإسلامية وتطبيقاتها ورواياتها، وقد حظي باهتمام الباحثين، مغاربة ومستشرقين، منذ تأليفه إلى الآن اختصارا وتحليلا واعتمادا وإحالة.

آرشادة

1 ـ أجوبة وتقاييد، جمع شقور، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط، ز 12450؛
2 ـ البدور الضاوية في مناقب أهل الزاوية الدلائية، تح. كظيمي، في خمس مجلدات، ثلاثة أجزاء للمتن، ومجلد للتقديم، ومجلد للفهارس، مرقون بكلية آداب الرباط أكدال، اختصره كل من العباس بن محمد السجلماسي، مخطوط الخزانة العامة

بالرباط، د 3730/ 2 ـ 116، وأحمد بن محمد البوعزاوي، والعابد الفاسي، ومحمد إبراهيم الكتاني [ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب، 77]؛ 3 ـ الروضة المقصودة، والحلل الممدودة، في مآثر بني سودة، تح. عبد العزيز تيلاني، الدار البيضاء 1415هـ/ 1994م، جزآن ضمنهما الدراسة والفهارس؛ 4 ـ السر الظاهر، فيمن أحرز بفاس الشرف الباهر من أعقاب الشيخ عبد القادر، المطبعة الحجرية الفاسية 1351هـ/ 1932م؛ 5 ـ ثمرة أنسي، في التعريف لنفسي، سيرة ذاتية، تحقيق جهيد شداد، مرقون بكلية آداب الرباط أكدال؛ 6 ـ خطيبان جمعيتان في مساندة المصريين، والدعوة إلى التعبئة والجهاد ضد حملة نابليون عليهم، مخطوطة الخزانة الملكية بالرباط، 4269/ 2؛ 7 ـ ديوان الأمداح السليمانية، حققه هيد الحق الجيمر، مرقون بكلية آداب ظهر المهراز بفاس؛ ٨ ـ ديوان ثان جمع أحمد شقور، مخطوط الخزانة الملكية بالرباط رقم 2941؛ 9 ـ قرة العيون، في الشرفاء القاطنين بالعيون، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط، ك 1480؛ 10 ـ كشف القناع، عن وجه تأثير الطبوع في الطباع، أرجوزة في طبوع الموسيقى الأندلسية، تح. أحمد العراقي، مجلة «المناهل» الرباط عدد 27، 1403هـ/ 1982م، 319 ـ 337.

المصادر والمراجع

● العراقي، زيان، الفهرسة، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، ك 1249/ 7؛ ● السلطان سليمان، عناية أولي المجد، فاس 1347هـ/ 1928م، 66؛ ● الزياني، الترجمانة الكبرى، تح. عبد الكريم الفلالي، الرباط 1387هـ/ 1967م، 544 ـ 547؛ ● جمهرى التيجان، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، ك 1220؛ ● الكوهن، إمداد ذوي الاستعداد، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، د 270، 13؛ ● العمراوي، الكناشة، مخطوط الخزانة الأحمدية بفاس، 31 ب؛ ● محمد الزكي، الشجرة الزكية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، ج 375، 213؛ ● الطالب ابن الحاج، الإشراف، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، د 3730، 152؛ ● مجهول، كناشة، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، ك 1081، 170 ـ 199؛ ● الفضيلي، الدرر البهية، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، د 270، 13؛ ● الكوهن، إمداد ذوي الاستعداد، طبعة حجرية فاسية 1314هـ/ 1896م، 2/ 95؛ ● الكتاني، سلوة الأنفاس، طبعة حجرية فاسية 1316هـ/ 1898م، 3/ 116 ـ 119.

● Basset : Recherches Bibliographiques p. 41, Alger 1905.

● النميشي، مؤرخو الشرفاء، تعريف عبد القادر الخلادي، الرباط 1397هـ/ 1977م، 241 ـ 244؛ ● ابن إبراهيم، الإعلام، تح. ابن منصور، 1403هـ/ 1983م، 10/ 127 ـ 129.

د. عبد الرحمن كظيمي
كلية اللغة العربية ـ مراكش

ابن أبي الحوافر، أبو العباس أحمد بن القاضي

(ت 657هـ/1259م)

هو القاضي الطبيب فتح الدين أبو العباس أحمد بن القاضي جمال الدين أبي عمرو عثمان القيسي، المعروف بابن أبي الحوافر المتوفى سنة 657هـ/ 1259م [معجم المؤلفين، 2/ 311].

طبيب نزيه النفس، صائب الحدس، تتلمذ على أبيه، وأخذ منه العلم والفضل والنباهة. كان أعلم الناس في علم الطب ومعرفة الأمراض، وتحقيق الأسباب والأعراض، حسن العلاج والمداواة، فصيح اللسان، كثير الإحسان، خدم في صناعة الطب الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيوب بعد وفاة أبيه، وبعده خدم الملك الكامل الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد الذي تولى الحكم سنة 638هـ/ 1240م.

لقد كان أبوه القاضي جمال الدين عثمان من أفضل أطباء عصره. أتقن الصناعة الطبية وتميز في أقسامها العلمية والعملية، وله اشتغال في الأدب وعناية فيه، وشعر كثير بديع المعاني، كما اشتغل في صناعة الطب، وتتلمذ على مهذب الدين بن النقاش، ورضي الدين الرحبي، وخدم بصناعة الطب الملك العزيز عثمان بن الناصر صلاح الدين، واستمر إلى وفاته سنة 595هـ/ 1198م. ثم خدم الملك الكامل محمد بن أيوب إلى أن توفي، فتولى بعده ابنه فتح الدين أحمد بن عثمان بن أبي الحوافر خدمة الملك الكامل، فكان يتمثل خطى أبيه في صنعة الطب، والأدب والنزاهة، والأخلاق.

ومما يذكر أن والده عثمان بن أبي الحوافر كان يوما راكبا فرأى في بعض النواحي على مصطبة بيّاع حمص مسلوق، وهو قاعد، وقدامه كحال يهودي وهو واقف، وبيده المكحلة والميل، وهو يكحل ذلك البياع. فحين رآه على تلك الحال ساق بغلته نحوه وضربه بالمقرعة على رأسه، وقال له: «إذا كنت أنت سفلة في نفسك، أما للصناعة حرمة؟ كنت قعدت إلى جانبه وكحلته، ولا تبقى واقفا بين يدي عامي بياع حمص! [عيون الأنباء، 584 ـ 585؛ الكحالة عند العرب، 31].

في مثل هذا الخلق والأدب والعلم عاش وتتلمذ فتح الدين أحمد. ويظهر من هذه الرواية أنه أخذ من والده الكحال علم الكحالة وتقاليد مهنة الطب، فكان له ولأبيه الأثر الكبير في نقل الطب مهنة وأصولا من الأولين الذين أخذ عنهم جمال الدين عثمان، كمهذب الدين بن النقاش وعلي رضي الدين الرحبي وغيرهما، وتتلمذ على يديه عدد من الأطباء كان أعلمهم الحكيم رشيد الدين علي ابن خليفة عم ابن أبي أصيبعة، وولده فتح الدين أحمد.

آثاره

من أهم تآليف فتح الدين أحمد بن أبي الحوافر التي وصلت إلينا نذكر:

1 ـ كتاب نتيجة الفكر في علاج أمراض البصر. وهو كتاب متخصص في أمراض العين، والأسباب المحدثة لها، والعلامات الدالة عليها وعلاجاتها. قال المؤلف عن كتابه: «. . . وسألت الله تعالى أن يجعل ما سلكته فيه أحمد المسالك، ووضعت الكتاب المشار إليه مشتملا على ذكر العين وأمراضها وأسبابها وعلاماتها وعلاجاتها . . .». وإذا عرفنا أن ما ألف من كتب في أمراض العين قليل ونادر بالنسبة إلى التآليف الطبية الأخرى، فإن تآليف هذا الحكيم الحاذق تعتبر مهمة في التراث الطبي العربي المتخصص، ونادرا ما نجد كتبا متخصصة في علوم الطب، فمعظمها موسوعية تشتمل على كل أصول الطب وفروعه.

ولتسليط الضوء على جهوده في علم الكحالة يجدر بنا أن نستعرض محتويات هذا الكتاب النادر، فنذكر أنه يقع في أبواب هي: الباب الأول: في حدّ العين ومنفعتها وتشريحها، الباب الثاني: في أمزجة العين وألوانها وأسباب ألوانها، الباب الثالث: في أمراض الطبقة الملتحمة وأسبابها وعلاماتها وعلاجها، الباب الرابع: في أمراض الطبقة القرنية وأسبابها وعلاماتها وعلاجها، الباب الخامس: في الأمراض التي بين القرنية والعينية، الباب السادس: في أمراض المآق، الباب السابع: في أمراض الرطوبة البيضية، الباب الثامن: في أمراض الطبقة العنكبوتية، الباب التاسع: في أمراض الرطوبة الجلدية، الباب العاشر: في أمراض الرطوبة الزجاجية، الباب الحادي عشر: في أمراض الطبقة الشبكية، الباب الثاني عشر: في أمراض الطبقة المشيمية، الباب الثالث عشر: في أمراض العصب الأجوف، الباب الرابع عشر: في أمراض عضلة المقلة، الباب الخامس عشر: في أمراض الجفن، الباب السادس عشر: في أمراض المآق، الباب السابع عشر: في ضعف البصر وحفظ صحة العين. . .

توجد من هذا الكتاب نسخة نفيسة في دار المخطوطات ببغداد برقم (26254 تقع في 235 صفحة) ترقى إلى القرن الثامن للهجرة/ الرابع عشر للميلاد، ونسخة في مكتبة نور عثماني برقم (3609/ 1) كتبت سنة 700هـ/ 1300م، ونسخة أخرى كتبت سنة 705هـ/ 1305م: 2 ـ رسالة في تشريح العين. توجد في نفس المكتبة [فهرس مخطوطات الطب الإسلامي في مكتبات تركيا، ص 106 ـ 107؛ كشف، 2/ 1926؛ مخطوطات الطب والصيدلة في مكتبة المتحف العراقي لأسامة ناصر النقشبندي، ص 329 ـ 380؛ ذيل تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان، 1/ 897]؛ 3 ـ رسالة في الدواء المعروف بالبرشعثا ومنافعه، نقلها إلينا الطبيب البغدادي في كتابه «المجموع المبارك في الطب» الذي ضمنه رسائل في شتى العلوم، كالطب والحكمة والأشربة والحقن والمعاجين وما أشبهها تعود لأعلام الأطباء الذين عرفوا في تاريخ الطب، كرسالة تقاسيم العلل لأبي بكر الرازي، ورسالة الدواء المعروف بالبرشعثا، ورسائل لابن التلميذ، وجالينوس، وأفلاطون. . .

ورسالة الدواء المعروف بالبرشعثا ومنافعه لابن أبي الحوافر تناول فيها المؤلف هذا الدواء الذي يعين بساعته. بدأها بذكر وصفه ومنافعه، وما يظهر من تأثيره في وقته، وساعته، ويومه، في عطل الداء ومقاومته وقهره ومنع زيادته وحل عقده. وقد أظهر هذا الدواء أثره في الآلام المبرحة...

رتب المؤلف هذه الرسالة على ثلاثة وخمسين قسمًا، وخصص كل قسم للمنفعة التي تخصّ كل مرض من أمراض بدن الإنسان، كالسل، وظلمة البصر، وطنين الأذن، وأمراض الفم، وغيرها من الأمراض التي تصيب أعضاء الجسم. وهذه النسخة من الرسالة التي وجدناها ضمن هذا المجموع الطبّي، يظهر أنها فريدة حيث لم نجد لها نسخة ثانية في خزائن المخطوطات، كما لم تذكرها المصادر والمراجع المتيسرة لدينا، ولا ضمن الفهارس الصادرة عن المخطوطات، وتوجد هذه النسخة في دار بغداد للمخطوطات برقم 21559 [فهرس مخطوطات الطب في مكتبة المتحف العراقي، ص 315].

المصادر والمراجع

● ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، بيروت د. ت، منشورات دار مكتبة الحياة، ص 585؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، بيروت د. ت، دار إحياء التراث العربي، 2/ 1926؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين، أسماء المؤلفين من آثار المصنفين، بيروت د. ت، دار إحياء التراث العربي، 5/ 96؛ ● كارل بروكلمان، ذيل تاريخ الأدب العربي، 1/ 897؛ ● كحالة، معجم المؤلفين، مج 2؛ ● فهرس مخطوطات الطب الإسلامي في مكتبة تركيا؛ ● النقشبندي، أسامة ناصر، مخطوطات الطب والصيدلة في مكتبة المتحف العراقي: الكحالة عند العرب.

د. أسامة ناصر النقشبندي
دار المخطوطات ـ بغداد ـ العراق

الحوت، أبو عبد الله محمد بن درويش

(1209هـ/1794م ـ 1276هـ/1859م)

أبو عبد الله، وقيل أبو عبد الرحمٰن، محمد بن درويش بن محمد البيروتي الإمام، المحدّث الفاضل، من أكابر العلماء، الحافظ، الزاهد.

ولد في بيروت 1209هـ وقرأ على مفتيها الشيخ عبد اللطيف فتح الله (ت 1260هـ)، والشيخ محمد المسيري الإسكندري الذي توطن بيروت في أواخر عمره، ثمّ سافر لطلب

العلم بدمشق سنة 1228هـ وقرأ فيها على جملةٍ من العلماء، منهم الشيخ محمد عابد الحنفي صاحب الفتاوي المشهورة، وبعد رجوعه إلى بيروت سنة 1231هـ، اشتغل بما يتعلّق بالكتاب والسُّنّة وأقام مُنكبًا على المطالعة لوحده إلى سنة 1236هـ. ثمّ جلس وأقرأ العامّة الفقه في الجامع العُمريّ الكبير إلى أن توفّي سنة 1276هـ.

له نثرٌ رائق، وشعر فائق، وكان مُقلًّا من الشعر لاستغراق أوقاته في الوعظ والإرشاد وإلقاء الدروس الخاصّة والعامّة. وكان سَمْحًا كريمًا، طيّب القلب والنفس، كثير الذِكْر والخشوع، جمّ التواضُع، فعّالًا للخير، برًّا بالطلبة، حريصًا على إفادتهم وتعليمهم. وهو ذو منطقٍ عذْب، وقولٍ فصل، وحُجّة دامغة، وحكمةٍ بالغة، شديد التمسُّك بالسُّنّة، كلِفٌ بدراستها، أنّى رأيته رأيت الخير والبركة والعلم والنور.

حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، وتضلّع بالعلم من المعقول والمنقول، وكان يتكسّب بالتجارة رغبة بالاستغناء عن الاحتياج للناس، وهو شافعيّ المذهب.

أظهر في مصنّفاته المتنوّعة أنه كان مشاركًا في عدّة علوم، متمكّنا فيها، حيث ألّف في الحديث، وأسماء الرجال، والميراث، والبيان، واللغة، والحساب، والتاريخ، والتوحيد، والعقائد. واشتهر من مؤلّفاته كتاب «أسنى المقاصد» الذي جرّده من مختصر الإمام العالم الشيخ عبد الرحمن اليمني، وزاد في آخره ذيلًا ذكر فيه عدّة أحاديث ليست في الأصل، ولكنّه لم يرتّبها على حروف المعجم، وتكلّم على بعض مآثر وفوائد ومطالب تتعلّق بهذا الفنّ. وصدّره بمقدّمة في مصطلح الحديث، وبيّن سبب تأليفه للكتاب بأنه قد شاع بين أهل العلم وغيرهم الخوض في السنّة المطهّرة من غير تثبّت ونسبوا له أشياء كثيرة قد ذكرت في كتب غير معتمدة في هذ الشأن واشتبه على الطالب الصحيح بالسقيم، مع أنّ الكذب على رسول الله ﷺ من العظائم، حتّى جعله إمام الحرمين كُفْرًا. وكنت رأيت فيما اشتهر على الألسنة من الحديث كتاب خاتمة الحفّاظ «ابن حجر العسقلاني» (ت 852هـ) فإذا هو صعب المأخذ لِما فيه من كثرة طُرُق الحديث، ورأيت ما ألّفه تلميذه الإمام السخاوي الكبير مختصرًا له، وكذا ما جرّده السخاوي الصغير، حيث اقتصر على الموضوع فقط، ورأيت ما جرّده الإمام عبد الرحمن اليمني الشهير بـ «الدَّيْبَع» (ت 944هـ)، ورأيت أنه ذكر كثيرًا من الأحاديث وعزاها ولم يبيّن كثيرًا منها أهي من الحَسَن أم من الضعف، فجرّدت ذلك المختصر، وبيّنت تلك الأحاديث التي أهمل ترتيبها على حسب ما تيسّر، والعُدّة على «شرح الجامع الصغير» لسيّدي الشيخ عبد الرؤوف المناوي (ت 1031هـ)، وهو آخذ من الأقاويل الأئمّة.

آثاره

1 ـ كتاب في أسماء رجال الإمام البخاري، مرتّب على حروف الهجاء؛ 2 ـ كتاب في ذِكر رُتبة الأحاديث التي جرّدها الإمام عبد الرحمن التيمي من البخاري؛ 3 ـ كتاب في أخبار مأخوذة من كتاب الإمام أبي حفص عمر الأندلسي المُرسي، وهو «حُسن الأثر فيما

ضعف واختلف من حديث وخبر وأثر»؛ 4 ـ كتاب في ذكر أسماء الرجال الضعفاء والمتروكين؛ 5 ـ كتاب في بيان الضعيف من أحاديث الجامع الصغير؛ 6 ـ رسالة تشتمل على أخبار موضوعة؛ 7 ـ كتاب حسن الأثر يشتمل على أحاديث تتعلّق بأحكام مختلفة؛ 8 ـ مجموعة تحتوي منشورات قصصيّة؛ 9 ـ حاشية على شرح ابن حجر للأربعين النووية؛ 10 ـ كتاب مطوّل في المعفوآت؛ 11 ـ كتاب موجز في الميراث؛ 12 ـ شرح بانت سعاد، مطوّل؛ 13 ـ شرح بانت سعاد، موجز؛ 14 ـ رسالة في أمر يزيد؛ 15 ـ رسالة في البيان؛ 16 ـ رسالة في الإسناد والاشتقاق؛ 17 ـ حاشية على شرح الأخضري للسلم؛ 18 ـ كتاب يحتوي على بعض الكلمات العربية التي يحتاج إليها كل طالب لدورانها في الكلام؛ 19 ـ رسالة في الحساب؛ 20 ـ كتاب في تاريخ الصحابة؛ 21 ـ شرح بيتي الموصلي؛ 22 ـ كتاب أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب؛ 23 ـ كتاب الدرّة الوضيّة في توحيد ربّ البريّة؛ 24 ـ عقيدته التي أملاها على تلميذه العلّامة الشيخ عبد الباسط الفاخوري مفتي بيروت.

المصادر والمراجع

● معجم المؤلّفين، 9/ 32؛ ● موسوعة علماء المسلمين في تاريخ لبنان الإسلامي، 15/ 143 ـ 151، رقم 1095، بيروت 1414هـ/ 1993م.

د. عمر عبد السلام تدمري
الجامعة اللبنانية ـ طرابلس ـ لبنان

الحوثي، السيد إبراهيم بن عبد الله

(1187هـ/ 1772م ـ 1223هـ/ 1808م)

هو السيد إبراهيم بن عبد الله بن إسماعيل الحوثي ثمّ الصنعاني، وينسّبه زبارة إلى الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي [نيل الوطر، 1/ 17].

ولد بصنعاء وبها نشأ في بيت مشهور بالعلم والفضل والصلاح والعفاف [زبارة، نيل الوطر، 1/ 17]. أخذ عن والده أوّلا ثمّ تتلمذ على يد جلّة العلماء أمثال السيد الحافظ المحقّق ابراهيم بن عبد القادر بن أحمد في النحو والصرف والمعاني والبيان والمنطق، وقرأ على شيخه الخالدي في علوم الجبر والمقابلة والهيئة والتشريح والطبّ، كما قرأ على السيد العلّامة ابراهيم بن محمد بن يحيى ابن المهدي الخبيصي، وعلى السيد العلّامة علي بن عبد الله الجلال، وعلى الفقيه العلّامة القاسم بن يحيى الخولاني الصنعاني وعلى السيد الحافظ عبد الله بن محمّد إسماعيل [زبارة، نيل الوطر، 1/ 17 ـ 19].

وقد ترجم له شيخ الإسلام الشوكاني في «البدر الطالع»، وجحاف في «درر نحور الحور العين»، فقال ما خلاصته: هو العلّامة الفهّامة، المجتهد المطلق، أقبل على العلم بفهم صادق، ورغوب كامل، فحقّق العربيّة بجميع أنواعها، وطالع كلام الحكماء اليونانيّين، فحفظ أقاويلهم وناظر بها واحتجّ عليها، وقطع في تحصيلها الدهر الطويل، وتولّى التدريس بجامع صنعاء أياما قلائل، فما رأيت أحدا يلقي الدروس مثله وما أذكره إلّا وصغر في عيني كثير من الأعيان. . . وقد ناظر اليهود وباحثهم ولم يجادلهم إلّا بالتي هي أحسن، وكان كثيرا ما يسأل الفروعي عن الأصول فيهجّن عليه، ويسأل الأصوليّ عن الفروع. وقد رحل عن صنعاء بكتابه المسمّى «نفحات العنبر» إلى حصن كوكبان فتلقّاه أهله بالفضل والإحسان، وتنقّل في دورهم ومتنزهاتهم، ورغب فيهم كمال الرغوب ونظروا له محلا وأعظموه إعظاما تاما، [الشوكاني، البدر الطالع، ص 39 ـ 40؛ زبارة، نيل الوطر، 1/ 19 ـ 20].

آثاره

1 ـ العيون المساحه في رياض المسامه؛ 2 ـ قرّة الناظر بترجمة عبد القادر بن أحمد بن القادر؛ 3 ـ نفحات العنبر بفضلاء اليمن في القرن الثاني عشر، وهو في ثلاثة مجلدات مشتملة على تراجم الكثير من نبلاء اليمن الذين ولدُوا وماتوا من سنة 1101 إلى سنة 1200هـ، واخترمته المنيّة قبل أن يكمل كتابه هذا لتهذيبه وترتيبه وجمعه على شرطه المذكور في خطبته ومقدّمته، لأنّه صار به إلى حصن كوكبان، وترك البعض من كراريسه هنالك والبعض بصنعاء، فذهبت ببعضها الأيدي. وعقب وفاته طلب المتوكّل أحمد الموجود من كراريس هذا الكتاب، فجمع منها ولد المؤلف مقدار النصف وجعلها في ثلاثة أجزاء غير مرتّبة على شرط المؤلف، وأحرق ما وجده منها بعد ذلك، وهو مع هذا أجمع وأشمل كتاب في بابه؛ 4 ـ حاشية على فرائض جحاف، وأبحاث مفيدة في فنون عديدة، وقد طارح وفاكه وكاتب عدّة من علماء وبلغاء وأكابر عصره وكاتبوه، وراسلهم وراسلوه.

المصادر والمراجع

● الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع، تح. د. حسين العمري، دار الفكر، دمشق، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1998. ● زبارة، محمد ابن محمد، نيل الوطر من تراجم رجال اليمن في القرن الثالث عشر، ج 1، تحقيق ونشر مركز الدراسات والأبحاث اليمنيّة، صنعاء، د.ت؛ ● الأكوع، القاضي إسماعيل بن علي، هجر العلم ومعاقله في اليمن، ج 1، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، ط1، 1995.

د. صلاح علي بن مدشل
جامعة حضرموت ـ اليمن

حوراني، ألبرت بن فضلو

(1334هـ/1915م ـ 1413هـ/1993م)

ألبرت بن فضلو حوراني. مؤرّخ، مفكّر، باحث. من أبرز الباحثين المعاصرين في قضايا الشّرق الأوسط.

ولد ألبرت في 31 آذار 1915م في مانشستر في انكلترة، ونشأ في عائلة هاجرت من بلدة مرجعيون في الجنوب اللّبناني واستقرّت في انكلترة، وكان لوالده تأثير كبير عليه.

بعد دراسته الأولى دخل سنة 1933م إلى معهد مريم المجدليّة بجامعة أوكسفورد حيث أنهى تخصّصه بالدّراسات العربيّة والاسلاميّة. وكان تخرّجه سنة 1936م، فقدم إلى لبنان ليلتحق بالجامعة الأميركيّة في بيروت. فيها قام لسنتين بتدريس العلوم السّياسيّة والتّاريخ. ومع بداية الحرب العالميّة الثّانية عاد إلى بريطانيا بين 1943م و1945م حيث عمل في المكتب الوزاري البريطاني في القاهرة كباحث وكاتب. وكان له الفضل في تحقيق الزّيارة الّتي قامت بها جمعيّة الباحثين الانكليزيّة ـ الاميركيّة لفلسطين سنة 1946م، نظرا لاهتمامه بالقضيّة العربيّة.

بعد ذلك انصرف إلى العمل الاكاديمي استاذا ومحاضرا ابتداء من نيله العضويّة بكليّة مريم المجدليّة في أكسفورد، إلى تعيينه قارئا أوّل في جامعة اكسفورد ثمّ مديرا لمعهد سان أنطوني. لمركز الشّرق الأوسط. كذلك عيّن استاذا زائرا في جامعة هارفرد الاميركيّة.

طُلب حوراني لالقاء المحاضرات في جامعات عربيّة وأجنبيّة، فكان كثير التّجوال: فزار جامعة بيروت الاميركيّة (1956 ـ 1957م)، وجامعة أكسفورد (1958 ـ 1959م)، ومعهد الدّراسات العليا في تونس (1959م). كما دُعي إلى إلقاء المحاضرات في جامعة جونزهوبكنز في واشنطن العاصمة. وتخرّجت عليه مجموعة من الشّخصيّات الفكريّة والسّياسيّة الّتي لعبت، ولا تزال، دورا في المنطقة، وفي مؤسّسات الدّراسات المعنيّة بها.

كان لألبرت تأثير كبير على طلّابه والأساتذة، من خلال دراساته ومؤلّفاته. فهو قد طرح الفكر العربي بمعزل عن العصبيّات العربيّة، مركّزا على المقابلة بين فكر الشّرق الأوسط وعاداته وتقاليده وبين العالم الغربي. وكان من أبرز المفكّرين المعنيّين بشؤون هذه المنطقة. ونظرا لعلمه وسلوكه وموضوعيّته استحقّ أن يكون مرجعا يرجع إليه المهتمّون بالمنطقة وبقضاياها المطروحه على الصّعيد السّياسي خاصّة.

توفّي ألبرت حوراني في 17 ـ 01 ـ 1993م في أكسفورد ببريطانيا تاركا عددا من المؤلّفات السّياسيّة والتّاريخيّة كتبها بالانكليزيّة ما يشكّل منارة يقصدها طلّاب وباحثون وسياسيّون لفهم حياة شعوب المنطقة وعلاقتها بالغرب. فأسلوبه اتّسم بأنّه بليغ

جامع، وواضح وأنيق، صادر عن مؤرّخ نزيه ورزين، وعميق التّحليل، ذائع الصّيت، أنشئت جائزة باسمه تخليدا لذكراه وبعد وفاته منحته جامعة هارفرد جائزة كتاب السّنة.

آثاره

أ ـ في العربيّة:

1 ـ الفكر العربي في عصر النّهضة 1798 ـ 1939م، نقله إلى العربيّة كريم عزقول، دار النّهار للنّشر، بيروت، أعيد طبعه مرّات عدّة؛ 2 ـ تاريخ الشّعوب العربيّة، نقله إلى العربيّة كمال خمال، حقّقه وضبط حواشيه أنطوان ب. نوفل، دار نوفل، بيروت، ط 1، 1977م.

ب ـ بالأنكليزيّة:

1 - Syria and Lebanon, 1946; 2 - Minorities in the Arab world, 1947; 3 - Arabic thought in the Liberal Age (1798 - 1939), 1962, revised edm., Cambridge, 1983; 4 - Ottoman Reform and the Politics of Notables, London, 1968; 5 - Europe and the Middle East, London, 1980; 6 - The modern Middle East; 7 - A History of Arab Peoples, 19918; 8 - Distant View; 9 - Islam in Europeon Thought; 10 - Palestine and Israel; 11 - A Vision of History.

المصادر والمراجع

● د. أباظة، نزار والمالح، محمد رياض، إتمام الأعلام، دار صادر، بيروت، 1999م، ص 45؛ ● يوسف، محمد خير رمضان، تتمّة الأعلام للزركلي، ط 1، دار ابن حزم، بيروت، 1998م، ص 75؛ ● مجلّة الفيصل 195، رمضان 1413هـ، ص 144.

د. أنطوان القوّال
الجامعة اللبنانيّة

حورانية، سعيد

(1348هـ/1929م ـ 1415هـ/1994م)

برز سعيد حورانية قاصًا واقعيًا بجدارة في مجموعاته الثلاث التي وضعها في خمسينات القرن العشرين وستيناته، وارتقى بفنّ القصة إلى مستوى عال في احتضان فكرة القصة وتعبيرها الفني المتميز عن تجارب بشرية في خضم الحياة وضغوطها، وحققت قصصه لدى معالجة موضوعاتها قيمًا اجتماعية ووطنية وإنسانية بقلم فنان ماهر في الصوغ القصصي الناهض بالرؤى العميقة.

ولد سعيد حورانية في دمشق عام 1929، وتلقى تعليمه فيها، وتخرج في جامعتها مجازًا في الأدب العربي ثم نال دبلوم التربية، وعمل

في التدريس في سورية ولبنان، وأقام فترة طويلة في موسكو من مطلع الستينات حتى عام 1974، ثم عاد إلى وطنه، واشتغل في وزارة الثقافة حتى وافته المنية عام 1994.

كتب سعيد حورانية القصة القصيرة، وبرز فيها ملتزمًا بنهج الواقعية الاشتراكية بحكم التزامه بالماركسية والحزب الشيوعي، إذ غلبت على حياته مضاعفات هذا الالتزام في عمله وإقامته المتنقلة ولجوئه إلى الاتحاد السوفييتي آنذاك لأكثر من عقد من الزمن.

وشارك في تأليف مجموعة قصص «درب إلى القمة» التي حوت قصصًا لأعضاء من «رابطة الكتاب السوريين» وأضاف قصصًا إلى كتابه في أدب الرحلات «سلامًا يا فارصوفيا»، وأصدر بالإضافة إلى مجموعاته القصصية الثلاث مسرحيتين هما «صباح الديكة» (دمشق 1957)، و«المهجع رقم 6» (دمشق 1963)، ومجموعة مقالات وقصص، كما أشرنا بعنوان «سلامًا يا فارصوفيا» (دمشق 1957)، ومسرحية مترجمة للأطفال بعنوان «القطة التي تنزهت على هواها» (دمشق 1983).

صوّر سعيد حورانية في كتابته القصصية عن وعي المبدع بإبداعه على أن القصة رؤيا شعرية مكثفة للناس والأشياء ضمن حركية المجتمع نحو مجاوزة شروط التاريخ الباهظة على الوجود الإنساني لتصبح الحياة ذات قيمة أكثر جماليًا ومعرفيًا. ولطالما قاربت قصصه أصداء الرؤى الشعرية في إدغام المشكلات الاجتماعية والوطنية بإحساس إنساني راق على أنها قضايا مؤرقة نسعى في سبيلها إلى تحقيق معاني الخلاص في التجربة البشرية الأشمل، وعضد رؤاه الشعرية بالتناص والاستعارية اندغامًا في شمولية الرؤيا وسعيًا لتشرب المنظور القصصي والأسلوبية مسؤولية الكاتب والتزامه بالمنظومة القيمية المنشودة.

اهتم سعيد حورانية بالمبنى القصصي وغنى إيحاءاته على أنه يضيء جوهر التجربة البشرية من خلال ضبط المنظور السردي، وتبدى ذلك في إهداءاته وإشاراته القليلة وعتباته السردية المتعددة، فقد أهدى مجموعته الثانية «شتاء قاس آخر» لحنا مينة، وخاطبه قائلًا:

«يا من فهمت ماهية الضعف البشري والقوة الإنسانية.. إليك يا صديقي.. أقدم هذه القصص» [ص 5].

وأشار في مقدمته لمجموعته مخاطبًا القارئ أن هذه القصص جزء من عمره ومن عمر وطنه سورية، وقد منعت الظروف البائسة التي عاشها الوطن «سنوات عجافًا مظلمة» من ظهورها في وقتها، ونبذ المقدمات، وعدّها نافلة، لأنها «لعبة ساذجة من الكاتب لخداع القارئ» برأيه، «أما وجه الكاتب الحق بدون قناعه السابع فهو في إنتاجه» [ص 6].

وأهدى مجموعته الثالثة «سنتان وتحترق الغابة» إلى «السنديانة الصامدة التي ترمز إلى روح شعبنا، هذا الشعب الذي تألم أكثر من كلّ شعب، إليك يا أبي.. أيها الثائر القديم» [ص 5]. وواضح من هذه الإهداءات أنها تندغم في مدلولات قصصه ومبناها الاستعاري.

يتبدى التناص في عنوان مجموعته الأولى «وفي الناس المسرة» وتتعالق عنوانات مجموعاته مع محتوى موضوعاتها ودلالاتها

القصصية، واستخدم العبارات المفتاحية إلى جانب عنوانات قصصية تثميرًا لأبعادها في إثراء العتبات السردية، كتصديره لقصة ».. وأنقذنا هيبة الحكومة« (من مجموعته شتاء قاس آخر) بعبارة توكيد يدس من الكتاب الخامس:

«قد تكون مصلحتكم في أن تكونوا أسيادنا.. ولكن كيف يمكن أن تكون مصلحتنا في أن تكون عبيدكم؟» [ص 7].

وترصد القصة نضال الشعب في سورية ضد ذيول الاستعمار الفرنسي ممن عرقلوا سيرورة السلطة الوطنية حين واجه ضابط راعيًا بدويًا بعد أن أطلق عليه ورفاقه الرصاص وهم في طريقهم لتسليم موارد الميزانية لبعض المراكز في الشمال، فلاحقه ليعطيه درسًا في احترام ممثلي السلطة. ويبتعد سعيد حورانية في بناء قصصه عن المباشرة والوعظ، فالقصة على سبيل المثال حوار يتمازج مع الوصف لمتابعة الحدث لاستكمال مكونات التحفيز الواقعي، وألمح لدى ربط الحدث بأغراضه بذكر حالات التعدي على هيبة الحكومة كقوله:

«وكالعادة حميت الحديدة، عندما علم أن الشخص الذي تجرأ، وتعدى على هيبة الحكومة هو من جبور الفاضل الذي كان يكرهها لسبب غير معروف. وكانت نظراته للرئيس فيها عتاب شديد على هذه الإنسانية التي جعلت أصابع الرئيس لا تشد على الزناد في الوقت المناسب، لتخرج الروح النجسة إلى ملكوت السموات، بدون أن يرتفع رأس بعقال للمطالبة بدمه. وكان في نظرته أيضًا شيء من عدم التصديق بدوافع هذه الإنسانية، لم يبرزها بشكل واضح يحرج ضابطه، وهذا هو السر الذي جعل كل الرؤساء يرضون عنه» [ص 33].

وتأخذ قصص عديدة بعدها الوطني، إذ يتابع القاص مجريات النضال ضد الاستعمار الفرنسي فيما يقارب طوابع الأمثولة أيضًا، كما هو الحال مع قصتي «حمد ذياب» (من مجموعة «شتاء قاسٍ آخر») و«من يوميات ثائر» (من مجموعة «سنتان وتحترق الغابة»). تتناول الأولى وقائع نفي ثائر من ثوار الجبل وعذابه في المنفى حتى عودته للوطن ليعين آذنًا، على أن الغرض لا يتوقف عند حدود القيم الوطنية، بل يتعداها إلى كشف عذاب هذا الثائر لدى عودته وتعيينه في هذا العمل الوضيع بعد عشرات الواسطات، ولكنه لم يتظلم «ومثل ما قال المثل: شو علمك عالمرّ؟ قال هللي أمرّ منه» [ص 76] وختم حورانية القصة بإظهار التأسي إزاء حال الثائر ضمن المنظور الأشمل:

«الريح لا تزال تعصف بالخارج.. وهسيس الثلج مكتوم أصم، ،الخشب يطقطق ويطقطق، وينشر دخانه رائحة حبيبة فطرية.. ما أقرب الأبعاد.. ثمة أشخاص يتقدمون، وصوتهم يطعن قلب الليل كسكين مرهفة.. كان صوتهم ينفذ قويًا عميقًا خلال المصاريع الخشبية المتخلعة التي كنا وراءها.. كانوا يتحدثون بمرارة شديدة، ولكن كم كان هذا الصوت حقودًا وقاسيًا ومليئًا بالعزم!!» [ص 76].

وعالجت القصة الثانية على شكل مذكرات وقائع من قصص الثورة الكبرى في سورية عام 1925، ولا سيما وصف أحوال الثوار واشتباكاتهم مع المنتدب الفرنسي وجنوده واستشهاد بعض المجاهدين، ووضع لها عبارة

مفتاحية هي قول للورنس من كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» في وصفه لثائر تصدى للجيش الأجنبي، فقد «انحدر وحده عن قمة الجبل وهو يهزّ بندقيته بغضب في وجه الجيش، وتخطى قاعًا عميقًا فذهلنا أمام هذا الجنون وكأننا قد صعقنا في أمكنتنا وهو مندفع كالسهم، وجمد الكون من حولنا، وصمتت الطبيعة، فلم يعد يسمع غير وقع سنابك فرسه» [ص 175].

ومهّد للقصة بأن الراوي وجد هذه اليوميات الحية في دفتر صغير لثائر، ولقد حاول أن يحتفظ ما أمكن بروحها ولغتها، وهي لهجة دمشق ضمن محاولة تفصيحها. ومدّ أسلوبه في معالجة القيم الوطنية إلى أهمية العناية بالنشء الجديد وتربيته مثل قصة «ثلج هذا العالم» التي عاين فيها ألم المعلم لدى علمه بقرار نقله إلى مدرسة أخرى بسبب آرائه غير المقبولة لدى الإدارة، فتقترب القصة من أفق النجوى تستحضر ما حصل واحتمالاته المتباينة في التأثير على نمو وعي الناشئة القومي، واستعان بعبارة مفتاحية لسارتر في كتابه «الغثيان» على أنه وحيد، «ولكنه يسير كفرقة تهبط نحو مدينة» [ص 65]. والقصة مزيج من وطأة المال على المعلم وتلاميذه في الوقت نفسه؛ وجاءت الخاتمة مجازًا من وصف الطبيعة تمثيلًا للوصف النفسي للمعلم:

«الثلج ينهمر.. والأستاذ يبتعد عن المدرسة، نقطة سوداء في المحيط الأبيض، كان الصقيع يتكسّر تحت قدميه وهو ينتزعهما منه بقوة وعزم» [ص 83].

وبنى قصته «شتاء قاسٍ آخر» وفق هذه التقنية المتطورة في ملاحقة وصف لوحة نفسية واجتماعية عن معنى الصمود أمام تقلبات الحياة وضغوطها المستمرة من خلال استحضار الشخصية لجوانب من ذكرياتها المرّة، ورمّز لذلك بشجرتي نارنج وسنديان في حديقة منزل أثناء اشتداد عاصفة شتوية ما لبثت أن انفرجت الأحوال إلى الربيع. ولا نغفل عن المبنى الاستعاري الشامل للقصة بعد ذلك حين يربط الغرض بالعتبة السردية المفتاحية في مطلع القصة المأخوذة من كلمة للشاعر هايني: «يا إلهي ما أطول ليل الظلم، وما أقسى شتاءه» [ص 77].

اعترف الراوي في مطلع القصة بحبّه لشجرة الليمون اللطيفة التي تعيش في بيته، وأكد أنه لم يعقد صداقة مع شيء في الدنيا على مثل المتانة التي عقدها مع هذه الشجرة. «كانت تشبه أميرة رقيقة من الأميرات اللواتي كنت أقرأ عنهن في القصص، أميرة حقيقية شامية، تجلس على أريكتها وقد تدثرت بحرير أخضر.. النوافذ مفتوحة على جبال خضر، والكتاب الذي بين أصابعها النحيلة موشح بضفائر من الديباج الأخضر تنوس ثم تتكئ في دعة ورخاوة على أطراف معاصمها التي تبرق باللآلئ» [ص 79].

ويوحي هذا الوصف بتعضيد المبنى الاستعاري للقصة لدى المقارنة بشجرة السنديان المعتادة على مقاومة الشتاء والعاصفة، مما جعل والده يربت بحنو ووجد على جذعها ثم استدار نحوه، وخيل إليه «أن دمعتين غبراوين كلون السنديانة تدحرجتا من عينيه الصارمتين فامتصتهما سريعًا تجاعيد وجهه كما تمتص الأراضي العطشى صيّب السحاب» [ص 92].

حفلت غالبية قصص سعيد حورانية بتعاضد المبنى الواقعي والمبنى الاستعاري إضاءة للمشكلات الاجتماعية والإنسانية لنماذج بشرية تعاني من وطأة العيش واستشراء الفساد كما هو الحال مع قصتي «سنتان وتحترق الغابة» و«الخفاش يفتح عينيه»، وتصور القصة الأولى الأوضاع الحياتية القاسية لطفلة فلسطينية تبيع أوراق اليانصيب منتظرة الرجاء والخلاص من البؤس المخيّم عليها وعلى والدها المقعد الضرير، أما القصة الثانية فتنتقد الفساد المنتشر، وأما الحوار فيمتزج بفيض النجوى إلى الشجن القائم والمقيم:

«ومنذ ساعتين وهو يرفع من أشلاء نفسه كُلًّا عظيمًا، لم يصل إلى هذه العظمة إلا بتجارب تعصر وتقتل وتجعل للحياة معنى. وافهمهما، ولعله أراد أن يفهم نفسه، أن هذا التمزق الذي يعانيه، سببه أنه أضاع التوازن، بين نفس مسحوقة وإيمان عميق بالحياة وساكنيها. كيف يناضل الرجل يا أصدقاء؟ أنا مؤمن بأشياء عظيمة، حياتنا بائسة ويجب أن نغيرها، أتعرفون؟ واستمر يتحدث حديثًا طوباويًا مدة ساعتين، ومنذ ساعتين أيضًا بصق بصقة حمراء» [ص 201].

سعيد حورانية قاص واقعي شديد التميز في التزامه وتحققه لمسؤولية الكاتب الاجتماعية والإنسانية وفي براعته على صوغ المبنى الاستعاري الذي يضيء الأبعاد العميقة للتجربة البشرية في رؤية الاشتراطات الواقعية المتشابكة والمعقدة.

آثاره

وضع سعيد حورانية ثلاث مجموعات قصصية، هي:

1 ـ وفي الناس المسرة، قصص، دمشق 1954؛ 2 ـ شتاء قاس آخر، قصص، بيروت 1962؛ 3 ـ سنتان وتحترق الغابة، قصص، بيروت 1964.

المصادر والمراجع

● حورانية، سعيد، شتاء قاس آخر، قصص، دار العصر الحديث، بيروت 1962؛ ● حورانية، سعيد، سنتان وتحترق الغابة، قصص، دار العصر الحديث، بيروت 1964؛ ● ابن ذريل، عدنان، أدب القصة في سوريا، منشورات دار الفن الحديث العالمي، دمشق 1967؛ ● نبيل، سليمان (وبوعلي ياسين)، الأدب والإيديولوجيا في سوريا، بيروت 1974؛ ● الخطيب، محمد كامل، السهم والدائرة، دار الفارابي، بيروت 1979.

د. عبد الله أبو هيف
جامعة تشرين ـ اللاذقية ـ سوريا

الحوفي، أبو القاسم أحمد بن محمد

(ت 588هـ/1192م)

أحمد بن محمد بن خلف القلعي الحوفي الاشبيلي أبو القاسم من أكبر المختصين في علم الفرائض وعقد الشروط على مذهب الإمام مالك، أصله من حوف مصر [ابن فرحون، الديباج، ص122؛ مخلوف، الشجرة، ص159] وقيل حوف من قرى عمان [الرصاع، الفهرست، ص117، هامش 4].

تتلمذ الحوفي لبعض علماء إشبيلية البارزين كالقاضي أبي بكر بن العربي، وأجاز له أحد كبار مشيخة إشبيلية هو أبو محمد بن عتاب الذي تتلمذ عنه أبو القاسم القرشي أيضًا، كما أجاز له كل من أبي الحسن سراج بن محمد، وسفيان بن العاص. ومع أنّ المصادر التاريخية لم تذكر له رحلة إلى المشرق إلّا أنّها أفادتنا بأنّ شهرته العلميّة طالت علماء المشرق ولقيت قبولا لديهم، فقد استحق إجازة من عالم الإسكندرية أبي طاهر السلفي، ومن العالم أبي المظفر الطبري.

كان الحوفي رجل علم وقضاء، وتعليم، وأخبرتنا المصادر ببعض الشخصيات التي تتلمذت عنه من أبرزهم ابن اخته أبو إسحاق محمد بن زغلل الذي أخذ عنه علم الفرائض، وأبو علي الشلوبين الذي هو أيضًا أحد تلاميذ أبي القاسم القرشي، ومنهم القاضيان أبو سليمان وأخوه أبو محمد ابنا حوط الله، وأبو الحسن عبيد الله بن عاصم الداري، وأبو الخطاب محمد بن أحمد بن خليل، ويوسف ابن أحمد الهراني، والحسين محمد بن عياش ابن عظيمة.. وقد تولّى الحوفيّ القضاء ببلده اشبيلية مرّتين، في الأولى ولّاه الأمير أبو يعقوب الموحّدي، وفي المرة الثانية ولّاه ابنه الأمير أبو يوسف بن يعقوب المنصور الموحّدي. وتذكره تلك المصادر بحسن السيرة والعدل في الأحكام. ولم تشغلهُ وظيفة القضاء عن التحصيل والتأصيل، فقد عني بعلم الفرائض وألف فيه ثلاثة كتب؛ كبير ومتوسّط ومختصر، اتّفق أهل العلم بالفرائض على وصفها بالجودة وقراءة الناس لها منه ومن غيره، واعتبرها ابن خلدون في المقدّمة من أحسن التآليف الفرضية على مذهب الإمام مالك.

كان الحوفي معاصرًا للفقيه الرياضي الفرضي أبي القاسم الحوفي الإشبيلي وهو بلدي الفقيه الرياضي الفرضي أبي القاسم القرشي وشريكه في بعض الشيوخ وبعض التلاميذ، وربّما كان مصاحبا له أو أنهما ينتميان إلى مدرسة واحدة في صناعة حساب الفرائض، ذلك أنه اتّخذ الوحدة كمخرج لبعض المسائل كالصلح وغير، كما هو الأمر في طريقة القرشي الكسرية القائمة على اتّخاذ الوحدة مخرجا لجميع المسائل الفرضية.

لقد اشتهرت كتب الفرائض التي ألفها

الحوفي، وانتقلت إلى تلمسان، وسبتة، وفاس، ومراكش مع تلاميذه الذين درّسوا أو تولّوا القضاء في بعض المدن الأندلسية والمغاربيّة كابن أخته ابن زغلل، وأبي سليمان ابن حوط الله، وأبي علي الشلوبين. وقد يكون نقلها أو درّسها آخرون كالفرضي الشهير أبي إسحاق التلمساني (ت 690هـ/ 1291م). وابن الزبير صاحب كتاب «الصلة» الذي هو شيخ المؤرّخ القاضي ابن عبد الملك المراكشي، على أنّ كثرة الشروح التي وضعت لفرائض الحوفي تدلّ على عناية فرضيي الأندلس والمغرب بها حتّى صارت مصدرهم الأساسي خلال القرون الهجرية الثلاثة السابع، والثامن، والتاسع، وما بعدها.

لقد شرح هذه الفرائض عدد كبير من الفراض، منهم الفرضي جمال الدين الصودي (كان حيا 699هـ/ 1299 أو 1300م)، حسب إشارة لابن القاضي في أوّل شرحه لأرجوزة ابن داود التلمساني الخاصة بعمل كسور الفرائض بطريقة القرشي، وابن البنّا المراكشي الذي شرح بعض مسائل الحوفي، أبو عبد الله السطي (ت 749هـ/ 1348م)، الذي كانت له اليد الطولى في فهم فرائض الحوفي وإقرائها وحل عقدها كما أخبرنا الونشريسي في وفياته، وكان قائما على تدريسها بفاس وتلمسان وتونس، وعنه قرأها سعيد العقباني الذي شرحها فيما بعد بما لا مثيل له، كما شرحها أبو حفص الرجراجي (ت 810هـ/ 1407م)، الذي درس عنه ابن قنفد القسنطيني هذه الفرائض، وشرحها أيضًا كل من ابن عرفة، وابن زاغو، والقلصادي وتلميذه السنوسي الذي أفادنا في شرحه الموسوم: بـ «المقرّب المستوفي في شرح فرائض الحوفي»، أن الحوفي قد اتّبع في تأليفه هذه الفرائض كتاب ابن ثابت، وأفادنا يعقوب السيتاني (كان حيا سنة 815هـ/ 1413م)، في شرحه للمنظومة الفرضية الشهيرة لأبي إسحاق التلمساني (ت 690هـ/ 1291م)، بأن الحوفي اتّبع ابن ثابت في كتابه الكبير وقصد إلى اختصاره. كما شرح الفرائض الحوفية كل من ابن جانا، وابن غازي المكناسي، والحطاب المالكي (ت 953هـ/ 1546 أو 1547م). ولأنّ هذه الفرائض تميّزت بتضمُّنها معالجات عددية حسنة فقد استهوت الفرضيين والرياضيين بتدريسها وشرحها وصارت هي وشرحها للعقباني مرجعا للمدرسين والمؤلّفين المغاربيين. واعتمد عليها بعض المشارقة مثل المارديني، وحسين بن علي المحلّي.

لقد ربط كبار مدرّسي علم الفرائض في الحواضر المغاربية طريقة القرشي الكسريّة بفرائض الحوفي دون غيرها من كتب الفرائض المنتشرة في الغرب الإسلامي مثل فرائض التلقين للقاضي عبد الوهاب البغدادي، ومنظومة أبي إسحاق التلمساني التي كانت تحظى هي الأخرى بعناية الطلبة والمدرسين وكثر شراحها.

تكشف لنا الدراسة التحليلية للتقنيات الرياضية المدرجة في فرائض الحوفي أنّ مؤلّفها كان على مستوى عال من التحكّم في العمليات الحسابية والجبرية وأنّه كان يتصرّف فيها باقتدار وتلقائية وإتقان رجل متحكّم فيها إلى

حذ أنّ رياضيًا كالعقباني أعجب بها واعتبرها من «التصرّفات العددية الحسان». شأن الحوفي في ذلك شأن أستاذه أبي بكر بن العربي القاضي المرموق الذي أخبرنا عن نفسه في كتابه «قانون التأويل» بدارسته للرياضيات والفلك والفيزياء قائلا: «.. وقرأت علم الحساب والمعاملات والجبر والفرائض عملا، ثم كتاب أقليدس ومايليه إلى الشكل القطاع، وعدّلت بالأرياح الثلاثة، ونظرت في الإسطرلاب وفي مسقط النقطة ونحوه..»، وكفى بها شهادة شخصية من فقيه كنا نجهل اهتمامه بعلوم التعاليم أن تتيح لنا تصور المستوى الرياضي الجيّد الذي كان يتمتع به تلميذه الحوفي فكانت كتبه الفرائضية من أهمّ المراجع في علم الفرائض وإحدى المصادر القديمة للبحث في التقنيات الحسابية والجبرية المستعملة في علم الفرائض.

■ آثاره

1 ـ الفرائض الصغرى، أو كتاب الحجب، يوجد ضمن مجموع بدار الكتب الوطنية بتونس تحت رقم 3237، وضمن مجموع بدار الكتب الناصرية رقم 3113 [دليل مخطوطات الناصرية، ص211]؛

2 ـ المختصر في الفرائض، رقمه بخزانة القرويين 497 وبخزانة الرباط 1252د، وبالصبيحية 396/ 2 [فهرس خزانة القرويين، 1/ 462؛ الزركلي، الأعلام، 1/ 216]؛

3 ـ فرائض الحوفي، توجد منه نسخ بدار الكتب الوطنية بتونس رقم 330، 2037، 4741، 9002، وبمكتبة آل النيفر بتونس 517، وبالخزانة الملكية بالمغرب 2011، 2310، وبالخزانة الملكية بالمغرب 2151، 6873، وبمكتبة جامعة الإمارات العربية المتّحدة 407 ـ 1/ 4 [خليفة، كشف الظنون، ص1246؛ فهرس الصبيحية، ص193؛ فهرس الخزانة العامّة، 1/ 305].

■ المصادر والمراجع

● ابن فرحون، برهان الدين، الديباج المذهّب في معرفة أعيان علماء المذهب، وبهامشه نيل الابتهاج للتنبكتي، ط1، 1329هـ، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر؛ ● ابن قنفد، أبو العباس، ط. كتاب الوفيات، تح. عادل نويهض، ط4، 1403هـ/ 1983م، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت، ط. شرف الطالب في أسنى المطالب، تح. محمد حجّي، ط 1396هـ/ 1976م، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، 6 أجزاء، ط 1402هـ/ 1982م، دار الفكر؛ ● مخلوف، محمد، شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، 8 أجزاء، ط4، 1979م، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، تراجم مؤلفي الكتب العربية، 15 جزءا في 7 مجلّدات، مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي، بيروت؛ ● المنوني، محمد، دليل مخطوطات الكتب الناصرية بتمكروت،

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ط1405هـ/ 1985م؛ ● حجّي، محمد، فهرس الخزانة العلمية الصبيحية بسلا، منشورات معهد المخطوطات العربية، المنظّمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ط1، 1406هـ/ 1985م؛ ● فهرس خزانة القرويين بالمغرب، فهرس الخزانة الملكية بالمغرب.

د. منير بن المختار التليلي
جامعة الزيتونة
الجامعة العربية للعلوم ـ تونس
د. مقتدر زرُّوقي
جامعة البليدة ـ الجزائر

ابن حوقل، أبو القاسم محمّد

(ت 367هـ/977م)

هو أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبيني الحوقلي البغدادي ثم الموصلي، مؤرِّخ وجغرافي اشتهر في القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي. لا تخبرنا المصادر عن مولده أو نشأته، وغاية ما تشير إليه أنه كان يهوى الترحال. ولكن اسمه يشير إلى نسبته إلى بلدة نصيبين الواقعة في منطقة الجزيرة (ما بين النهرين دجلة والفرات) في الجزء الواقع في الأراضي التركية حاليا إلى الشرق من ماردين. ويبدو أنه قد سكن بغداد زمنا، ثم الموصل، فكان عمله فيها بالتجارة، وتشير المصادر إلى أنه كان يعمل بمهام استخبارية للعباسيين.

اهتم منذ حداثته بقراءة كتب الجيهاني، وقدامة، وابن خُرداذبة. ويقول في كتابه صورة الأرض: «وكان لا يفارقني كتاب ابن خُرداذبه وكتاب الجيهاني وتذكرة أبي الفرج قدامة ابن جعفر»، وكان مولعا بقراءة كتب تقويم البلدان فشوّقته قراءته إلى التعرّف على الأقاليم واستهوته الأسفار وحب المعرفة، فبدأ رحلة طويلة من بغداد يوم الخميس في 7 رمضان 331هـ/ أيار 943م زار فيها معظم الأقطار الإسلامية من السند والهند إلى إسبانيا ويمكن اعتمادا على بعض التواريخ المذكورة في كتابه أنه زار الأندلس، والمغرب، والصحراء، بين سنتي 336هـ/ 947م و340هـ/ 951م، ومصر، وأرمينيا، وأذربيدجان. . حوالي سنة 344هـ/ 955م، والجزيرة، والعراق وخوزستان، حوالي سنة 358هـ/ 969م، وصقلية، ونابلي بين سنتي 362هـ/ 973م و363هـ/ 974م. . .

عاد إلى بغداد بعد 28 سنة يحمل موسوعته مزوّدة بالخرائط والرسوم التي رسمها خلال رحلاته وأتت مصوراته أشبه ما تكون بأطالسنا الحديثة، وعدد هذه الخرائط أربع وعشرون مفصلة على النحو التالي:

المصور	مصور الإقليم	مطلع وصفه
	صورة الارض	فهذه جميع الأرض عامرها وغامرها
1	صورة ديار العرب	فابتدأت بديار العرب لان القبلة بها ومكة فيها
2	مصور بحر فارس (بحر العرب)	يشتمل على اكثر حدود ديار العرب وأوطانهم التي لم يشركهم في سكناها غيرهم
3	صورة المغرب قسم 1	وأما المغرب فبعضه يمتد على بحر المغرب ولهذا البحر جانبان شرقي وغربي
4	صورة المغرب قسم 2	وأما الغربي فمن مصر وبرقة إلى إفريقية وناحية تنس إلى سبته
5	صورة الاندلس	فاما الاندلس فهي من نفائس جزائر البحر ومن الجلالة والقدر
6	صورة صقلية	جزيرة على شكل مثلث متساوي الساقين زاويته الحادة في غربي الجزيرة
7	صورة مصر	فلها حد يأخذ من بحر الروم من الإسكندرية ويزعم قوم من برقة إلى ظهر الواحات
8	صورة منابع النيل	وهو نهر يكون عند امتداده اكبر من دجلة والفرات إذا اجتمعا وماؤه أشد عذوبة
9	صورة الشام	غربيها بحر الروم شرقيها البادية من آيْله إلى الفرات
10	صورة بحر الروم	بحر الروم وما اتجه من رسم مشاهير مدنه من مشرقه التي هي مختصة ببني الاصفر
11	صورة الجزيرة	فاما الجزيرة التي بين دجلة والفرات فتشتمل على ديار ربيعة ومضر
12	صورة العراق	وأما العراق فإنه في الطول من حد تكريت إلى عبّادان، مدينة على بحر فارس (الخليج العربي)
13	صورة خوزستان	(عربستان) فإن شرقيها حد بحر فارس وأصبهان
14	صورة فارس	وأما فارس فالذي يحيط بها مما يلي المشرق حدود كرمان
15	صورة كرمان	وأما كرمان فشرقيها أرض مكران ومفازة ما بين مكران والبحر
16	صورة السند	وأما بلاد السند وما يصاقبها للإسلام مما جمعته في صورة واحدة
17	صورة أرمينيا وانربيجان	وقد جعلها إقليمًا واحدًا لانها مملكة إنسان واحد
18	صورة الجبال	شرقها مفازة خراسان وفارس واصبهان وحدها الغربي انربيجان وشمالي الديلم

المصور	مصور الإقليم	مطلع وصفه
19	صورة الديلم وطبرستان	فأما الديلم فمن ناحية الجنوب قزوين وشيء من أذربيجان وبعض الري
20	صورة بحر الخزر	فإن شرقيه بعض الديلم وطبرستان وجرجان
21	صورة مفازة خراسان وفارس	فالذي يحيط بها من شرقيها حد مكران وشيء من حدود سجستان وغربها حدود قومس والري
22	صورة سجستان	وأما سجستان وما يتصل بها مما قد جمعت إليها في الصورة فإن الذي يحيط بها مما يلي المشرق مفازة بين كرمان وأرض السند
23	صورة خراسان	وأما خراسان فتشتمل على كور عظام وأعمال جسام وخراسان اسم الإقليم
24	صورة ما وراء النهر	وما يحيط به من شرقيه فغامر، والراشت وما يتاخم أرض الخُتّل من أرض الهند

ويعتبر الباحثون أنه أبدع في رسم خرائط المغرب ومصر أكثر من الاصطخري وغيره، وخلال أسفاره التقى الاصطخري (هذا اللقاء الذي أتعب الباحثين من بعده وبعد أن اختلط ما صححه للإصطخري مع ما ألّفه ابن حوقل عند النسّاخين) عام 340هـ/ 952م، وعرض كلّ منهما على صاحبه المعلومات والمصورات المتعلقة بجزيرة العرب والخليج العربي، ويعترف بأنه انطلق في كتابه من تصحيح كتاب «المسالك والممالك» للإصطخري ولكنه أضاف إلى ذلك تأليف كتابه «صورة الأرض»، ويقول في ذلك: «ولقيت أبا إسحق (الإصطخري) وقد صوّر هذه الصورة للهند فخلطها وصور فارس وجوّدها، وكنت قد صوّرت أذربيجان التي في هذه الصفة فاستحسنها والجزيرة فاستجادها وأخرج التي لمصر فاسدة، وللمغرب أكثر خطا وقال: (لي) قد نظرت في مولدك وأثرك، وأنا أسألك إصلاح كتابي هذا حيث ضللت، فأصلحت فيه غير شكل وعزوته إليه، ثم رأيت أن أنظر بهذا الكتاب وإصلاحه وتصويره أجمعه وإيضاحه، من غير أن ألمّ بتذكرة أبي الفرج وإن كانت حقا بأجمعها وصدقا في أكثر جهاتها، وقد كان يجب أن أذكر منها طرفا في هذا الكتاب ولكن استقبحت الاستكثار بما تعب فيه سواي ونصب فيه غيري». إلا أن ابن حوقل يدين للإصطخري بأكثر مما صرّح به (كما يذكر د. حميدة في كتابه أعلام الجغرافيين العرب) فقد أخذ منه مخطط الكتاب وطريقة عرض المعلومات بعد المصور، وأخذ فصولا بكاملها عن جزيرة العرب والخليج

العربي (وكان يسمى الفارسي) وخوزستان، وفارس، وكرمان، وحوض السند، وبلاد الديلم، وبحر الخزر، وهي تحوي إضافات ولكنها قليلة.

أما عن منهجه في تقسيم الكتاب فقد ذكر صفة شكل الأرض ومقدارها في الطول والعرض وأقاليم البلدان ومحل الغامر منها والعمران من جميع بلاد الإسلام بتفصيل مدنها وتقسيم ما تفرد بالأعمال المجموعة إليها، ثم يأتي على ذكر ما يحيط من الأماكن والبقاع وما فيها من المدن والأصقاع. وما لها من القوانين والارتفاع، وما فيها من الأنهار والبحار، وما يحتاج إلى معرفته من جوامع ما يشتمل عليه ذلك الإقليم من وجوه الأموال والجبايات والأعشار والخراجات والمسافات في الطرقات وما فيه من الجالب والتجارات. وقد أورد ذلك في كل إقليم سلكه، فبدأ بديار العرب فجعلها إقليما واحدا لأن الكعبة فيها ومكة وهي واسطة هذه الأقاليم، ثم رسم ما فيها من جبال ورمال وطرق وما يجاورها من أنهار منصبة إلى بحر فارس وشكل عطفه عليها، وكذا عطفه من جزيرة مسقط غربا إلى مكة وإلى القلزم من عمان، ثم ذكر المغرب ورسمه على وجهين وبدأ ما حاز منه أرض مصر إلى المهدية والقيروان إلى أرض طنجة وإزيلي، ورسم على بحره مدنه الساحلية وشكل طرقه إلى جميع أنحائه، ثم ذكر مصر في شكلين حسب ما جرى في المغرب، ووصف حال مدنها ومواقعها على المياه الجارية في أرضها وخطط جبالها ومياهها بخلجانها وشعبها واتصال بعضها وانفصالها إلى البحر، وما يصب من ماء الفيوم إلى بحيرة أقني وتنهمت، ثم صور الشام وأجناده وجباله ومياهه وما على ساحله من مدن وبحيرة طبرية وبحيرة زغر، وتيه بني إسرائيل وموقعه من ظاهر الشام، ثمّ عرج على بحر الروم من المدن والأعمال المحاذية لبلد الروم وأكابر أنهاره وجزائره المسكونة، ثم ذكر الجزيرة المشهورة المعروفة بديار ربيعة ومضر وبكر وكيفية دجلة والفرات عليها واشتمالها على حدودها وجبالها وسائر طرقها وأحوالها، ثم أعقبها بصورة العراق ومياهها ودروبها وما يتفرع منها وما ينصب منها إلى البحر، ثم ذكر خوزستان وحدودها وأنهارها وحالها، وقفى عليها بصورة فارس بمواقع مدنها وصورة بحرها وبحيراتها وأنهارها، ثم اتبعها بصورة كرمان ووصف برها وبحرها وسهلها وجبلها وسائر طرقها، ثم ذكر بلاد السند بمدنها وطرقها وسبلها، وأثبت فيها نهر مهران وما يصاقبه من بلاد الهند والإسلام، ثم تلاها بصورة أرمينية وأذربيجان والران، وشكل ما فيها من الجبال والطرق والأنهار العذبة كالرس والكر وبحيرة خلاط وبحيرة كبوذان، وأثبت جبال القبق، ثم صور الجبال وأعمالها ومواقع بلدانها على حدودها ودخول مفازة خراسان وفارس على حدودها ثم صور لديلم وطبرستان وما يليها من بحر الخزر وبعض سبله، وتبع بصورة بحيرة طبرستان وجزيرتها وجبالها ومصب مياهها، ثم شكل مفازة خراسان وفارس وجميع ما فيها من الطرق والنواحي المجاورة، وما يليها من أعمال سجستان على ما يجاورها من بلاد الغور وجبالها، ثمّ صور نهر جيحون

وما وراءه من أعمال بخارى وسمرقند وخوارزم إلى جميع ما يشتمل عليه من المياه ويحيط به من الطرق والمسالك.

وقد وصف ابن حوقل في كل الأقاليم التي زارها ولا سيما المدن الكبرى حياة أهلها وأوصافهم، وملابسهم، ولغاتهم، وتقاليدهم، وما هم عليه من النخوة أو التخاذل. كما كان يقيم عدد السكان بكل إقليم عن طريق حصر عدد المصلين بالكنائس والمساجد بكل مدينة كان يحل بها.

ونظرا لاتصال ابن حوقل بالفاطميين وطريقته في جمع المعلومات وفي بعض ما ورد عن الأندلس فقد قيل إنه كان داعية سياسية، واتهمه المستشرق الهولندي دوزي Dozy بأنه كان عينا للفاطميين.

آثاره

١ ـ صورة الأرض من المدن والجبال والبحار والجزائر والأنهار، عناية وتصحيح هانس فون مزيك، 190 ص وملاحق 29 ص ونماذج مصورة 5 صفحات، مطبعة أدولف هولزهوزن، فيينا، 1926م، متداول بغداد، مكتبة المثنى، 1968م؛ 2 ـ صورة الأرض (المسالك والممالك) ليدن، 194 ص وملاحق 14 صفحة، المطبعة الأكاديمية، 1822م، عناية جوجي، 417 ص وملاحق 21 ص (الجزء الثاني من سلسلة المكتبة الجغرافية العربية)، مطبعة بريل، ليدن، 1873 م، وعناية كرميز، جزءان في مجلد واحد، 547 ص ولاحق 8 ص، مطبعة بريل، 1939م، وعناية كراميز، وفييت، 240 ص، اليونسكو، اللجنة الدولية لترجمة الروائع، بيروت، 1965م.

المصادر والمراجع

● سيزكين، فؤاد، صورة الأرض لابن حوقل، ط 2، ليدن، إصدار معهد تاريخ العلوم العربية والإعلامية، 1992؛ ● صورة الأرض لابن حوقل، إصدار دو غوييه، ليدن 1838؛ ● كراتشكوفسكي أغناطيوس، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة صلاح عثمان، الجامعة العربية، 1960؛ ● حميدة، د. عبد الرحمٰن، التراث الجغرافي العربي، جامعة دمشق، 1408هـ/ 1988م؛ ● م. ف. مينورسكي، الجغرافيون والرحالة المسلمون، ترجمة د. عبد الرحمٰن حميدة، نشرة الجامعة والجمعية الجغرافية الكويتية (73) يناير 1985/ ربيع أهـ 1405؛ ● الفيل، د. محمد رشيد، أثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب، نشرة الجامعة والجمعية الجغرافية الكويتية (9) سبتمبر، ايلول 1979م/ شوال 1399هـ؛ ● الشامي، د. عبد العال، جهود الجغرافيين المسلمين في رسم الخرائط، نشرة الجامعة والجمعية الجغرافية الكويتية (36) ديسمبر، ك 1 ـ 1981م/ صفر 1402هـ؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، ج 6؛ ● دائرة المعارف الاسلامية، ط. ج، III، فصل ابن حوقل.

د. محمود عصام الميداني
جامعة دمشق ـ سوريا

د. هاني محيي الدين عطية
جامعة القاهرة ـ مصر

الحوماني، محمد علي بن أمين

(1300هـ/1883م - 1381هـ/1962م)

محمد علي بن أمين بن حسن بن خليل الحاروفي العاملي الحوماني، شاعر، كاتب، أديب ورحّالة وصحافي.

وُلد في قرية حاروف قضاء النبطية، من أعمال جبل عامل، جنوب لبنان. درس أوليات العلوم على أبيه وأخيه، وفي مدرسة النبطية الحكومية، ثمّ في مدرسة شقرا. ودرس مع أخيه المرحوم الشيخ حسن الحوماني على العالمين المرحومين السيد حسن يوسف، والسيد عبد الحسين شرف الدين في النبطية وصور. انتسب بعدها إلى مدرسة الصنائع في بيروت، وخرج منها من دون أن يتم دراسته، بسبب نشوب الحرب العالمية الأولى 1914م. تفقّه في النجف، وتخرّج في اللغة والأدب من حوزات جبل عامل. ولمّا نشبت الثورة السورية الكبرى سنة 1925م، التحق بالثوار في عمان، واتّصل فيها بالأمير عبد الله.

كان الحوماني أحد أربعة هم صفوة العطاء في جنوب لبنان، والنخبة التي أشرقت النهضة على أيديهم في جبل عامل، وأورقت حتى كانوا أساتذة الجيل بحق، وهم الشيخ أحمد رضا (ت 1372هـ/ 1953م)، وأحمد عارف الزين (ت 1380هـ/ 1960م) صاحب مجلّة العرفان، وسليمان الظاهر.

قام برحلات واسعة إلى أميركا وإفريقيا وأوروبا والصين والهند، كما زار العراق، وأقام مدّة في القاهرة. يعدّ من شعراء التيار القومي. قاوم الاستعمار الفرنسي بالفعل والقول، وممّا قاله في وجه الفرنسيين، عندما دكّت مدفعيّتهم أحياء دمشق، وبخاصّة حي الميدان: [من الكامل]

شعبان مظلومٌ وآخر ظالمٌ ... ظَفِرتْ يداه به فأين الراحمُ
حشد البسيط عليه منه كتائبًا ... وانقضّ منه عليه صقرٌ آزمُ
ودَوَت قذائف بَغْيِهِ فإذا السما ... شهبٌ تساقط والبسيط جماجم
حتّى إذا اشتبك القتالُ رايتَهُم ... حُمُرًا تُجَرِّعها المنونَ ضياغمُ
والخيل تسبحُ في الدماء فراسبٌ ... في لجّها الظامي وآخر عائمُ

إثر ذلك فرَّ إلى شرق الأردن. درّس بعد فراره في إربد، وعيّن مدرّسًا للآداب في السلط. وفي عام 1932 عاد إلى دمشق، وعيّن مدرّسًا للآداب في الجامعة العلمية. هاجر بعدها - سنة 1933م - إلى لندن.

انتخب عضوًا في مؤتمر الوحدة السورية المنعقد في دمشق سنة 1928م، ممثلًا عن جبل لبنان. وكان عضوًا في المؤتمر الإسلامي المنعقد في بيت المقدس سنة

1932م، ممثلًا الجمعيات الإسلامية في أميركا الشمالية، وبعضها في الجنوب. بالإضافة إلى ذلك كان عضوًا في مؤتمر الحجير المنعقد للنظر في شؤون جبل عامل، أيام الثورة العالمية سنة 1920م، وعضوًا في لجنة الدعاية والنشر في الجزيرة العربية لمصلحة الاتحاد العربي، فالوحدة العربية.

عرف للحوماني نشاط صحفي، تمثّل في إنشائه المجلّات وإصداره الصحف. فقد أصدر سنة 1933م مجلّة العروبة في بيروت، استمرّت إلى أوائل الحرب العالمية الثانية. ثمّ أعاد إصدارها سنة 1948م، ثمّ ما لبثت أن أقفلت بعد سنة، بسبب خلاف نشب بينه وبين بعض الرؤساء في لبنان.

أسهم عام 1939 ـ 1940، مع السادة عبد الله مشنوق وعمر فروخ، ود. محمد خيري النويري في إصدار مجلّة «الأماني»، إلى جانب إسهامه في تحرير العديد من صحف القاهرة مدة إقامته فيها.

فضلا على ذلك، عُرف الحوماني بانتمائه إلى الأندية والجمعيات الأدبية في جبل عامل، حيث كان يشارك بالمساجلات التي تعقد بين الحين والحين.

الحوماني من أبناء المدرسة التقليدية التي تحفل باللفظ الجزل، وتتأثّر بالأحداث العامّة المحيطة بها. وشعره ـ على ضوء ذلك ـ وثيقة تاريخية إلى جانب إبداع قريحته. من مآثر التاريخ في أشعاره، رثاؤه الشيخ صالح العلي (ت 1369هـ/ 1950م)، وذكر بطولاته ومآثره، في سبيل الأمّة العربية، أنشد [من الخفيف]:

أيها الصالحُ العليُّ ترفّقْ / بالإبَا تحت بردتَيْك دفينا
يا أمينًا على العروبة أزمَعْـ / ـت فَمَنْ ذا تركت فينا الأمينا

عني الحوماني في شعره دائمًا بالدعوة إلى الإيمان بالوطن العربي، والقيم الإنسانية والإسلام والعروبة. وقد أتيح له أن يجوب مشرق الأرض ومغربها ثلاثين عامًا، زار لندن وباريس ونيويورك باحثًا عن رسالته في العالم، فوجدها في محمد ورسالته العليا التي كانت غذاءه في توجيه شبابه وشباب الإنسانية. بعد أن جرفه سيل المادة الطاغي، تصوّره قصيدته «ظمآن»، من ديوانه «أنت أنت»: [من الكامل]

ظمآنُ أنشدُ ما يبلُّ فمي / ويكاد يشرق بي فمُ الدِّيمِ
أظمى وملءُ يديّ آنيةٌ / ملأى تشبُّ النار ملءَ دمي
يا ربِّ أحمدَ جُلْ بأحمدَ في / نفسي وطهّرها من الألمِ
يا ربِّ عفوك لست متّعظًا / بالزاجرات على يديّ وفمي
وطلائعُ الخمسين منذرةٌ / بالشيب رأس طلائع الهرمِ

كان الشاعر الحوماني في نثره كما كان في شعره، بليغ المعنى، رائع الصورة، رشيق اللفظ، ساحر الأسلوب، فيّاض القريحة. وهو في ندوات الأدب، شديد الذكاء، حاضر النكتة، عذب الروح، فصيح المنطق، له

أسلوب جذاب يستهوي قلوب السامعين.

عاد - بعد ذلك - إلى لبنان، وعيّن مدرّسًا في الكلية الوطنية في طرابلس (لبنان).

توفّي في بيروت وجعل مؤلّف «الدليل» وفاته سنة 1964م، ودفن في قريته «حاروف».

آثاره

ترك مؤلفات تراوحت بين الإبداع الشعري، والتأليف، منها:

1 - ديوان الحوماني، وهو المجموعة الأولى من شعره، أخرجه سنة 1925م؛ 2 - ديوان نقد السائس والمسوس، طبع سنة 1928م. ممّا جاء فيه أبيات تدعو إلى التآخي بين الطوائف وكافة أبناء المجتمع، أنشد: [من المتقارب]

درستُ الشرائعَ من أسِّها
ومحّصتُها مصحفًا مصحفا

فلم أرَ شرعًا أتاه المسيحُ
خلافَ الذي شرّع المصطفى

إذا كنتَ مثلي من آدمٍ
وغايتنا الجوفُ المظلمُ

ففيمَ اليهوديّ والصابئي
وفيم المسيحي والمسلم

3 - ديوان دين وتديّن، صدر عن مؤسسة العرفان في بيروت، بطبعته الثانية سنة 1980م؛ 4 - ديوان القنابل، صدر في ديترويت (ميتشغن) الولايات المتّحدة سنة 1930م، من قصائده أبيات ذكر فيها زوجته وولديه رضا وعصام، وهو على ظهر السفينة مسافرًا، قال: [من الطويل]

أأزجرُ دمعي أن يفيض وقد طغى
عليّ وأغفي والنسيمُ شآمي

فيا نسماتِ الغرب حسبُك فالهوى
على الشرقِ وقف فاذهبي بسلامِ

أحبُّ الصبا تسري فيوحي نسيمُها
لي الشعر من فرقي (رضا وعصام)

5 - المآسي، قصص في الجمال والشعر، صدرت في دمشق، سنة 1932م؛ 6 - ديوان حواء، صدر بطبعته الأولى في بيروت، عن مطبعة دار الكتب سنة 1937م. جاء فيه: [من الخفيف]

رُبّ حواءٍ حين صوّرت حَو
واء هل كان قبلها تصويرُ

هي بيت القصيد من شِعْرك المنْـ
ظوم والكونُ شِعْرُك المنثور

وهي يا ربُّ أولًا وأخيرًا
مثلما أنت أوّل وأخيرُ

7 - وحي الرافدين يقع في جزءين (نثر)، صدر عن مطابع الكشاف، سنة 1944؛ 8 - بين النهرين، دجلة والفرات، صدر عن مطابع الكشاف في بيروت، سنة 1946م؛ 9 - ديوان فلان في سياسة لبنان، أصدر سنة1948م؛ 10 - في باريس وقصص أخرى؛ 11 - بلاسم في الأدب، صدر في دمشق سنة 1950م؛ 12 - مع الناس، طبع في مطابع كوستاتوماس سنة 1948م؛ 13 - سلوى (قصّة)، صدرت في بيروت، عن مطبعة الكشاف، سنة 1944م؛ 14 - الأصفياء، صدرت عن دار مصر للطباعة سنة 1955م؛ 15 - النخيل، شعر؛ 16 - أنت

أنت، مدائح نبوية؛ 17 ـ في ظلال الوحي؛ 18 ـ مجلّة العروبة، أسّسها باسم "بعد منتصف الليل"، وفي عام 1935م غيّر اسمها إلى "العروبة".

المصادر والمراجع

● قبش، أحمد، تاريخ الشعر العربي الحديث، دار الجيل، بيروت د. ت، ص 451 ـ 452؛ ● آل جندي، أدهم، أعلام الأدب والفن، مطبعة الإتحاد، دمشق، 1958 م، 2/ 409 ـ 410؛ ● حسن، د. صالح، أنطولوجية الأدب العاملي، دار الجمان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 1، 1997م، 1/ 85، 116، 166، 182، 189، 312، 2/ 439، 443، 474، 509، 3/ 289، 422؛ ● الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ط 7، 1986، 6/ 308؛ ● الدليل، كتاب وشظية، تقديم وإشراف حبيب صادق، منشورات المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، آذار، 1981م، ص 49؛ ● الجبوري، كامل سليمان، معجم الشعراء، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1424هـ/ 2003م، 5/ 141 ـ 142؛ ● وجوه ثقافية من الجنوب، المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، تقديم بقلم حبيب صادق وآخرين، بيروت، كانون الثاني، 1984م، 2/ 65 ـ 102؛ ● داغر، يوسف أسعد، مصادر الدراسة الأدبية، المكتبة الشرقية، بيروت، 1972م، ج 3، ق 1، ص 345 ـ 347.

د. محمد كشاش
الجامعة اللبنانية

الحيائي، أبو سعيد عثمان بك بن سليمان

(1178هـ/1764م ـ 1245هـ/1829م)

عثمان بك الحيائي بن سليمان باشا، فخر الدين أبو سعيد، أديب، شاعر، ناقد أدبي.

ولد بالموصل ودرس على أشهر علماء عصره وأدبائه، مثل عثمان بكتاش (كان حيّا 1222هـ) وشيخ القراء محمد أمين بن سعد الدين البصيري (كان حيّا 1215هـ/ 1800م)، الذي أخذ عنه علم التجويد، ونال إجازته في علم القراءات سنة 1202هـ ودرس علوم الفقه والكلام والمنطق. وبرع في آداب اللغات العربيّة والتركيّة والفارسيّة، ونظم بهنّ جميعاً. وكانت حصيلة دراساته الأدبيّة واللغويّة والعلميّة، تكوين شخصيّة مثقفة متعدّدة الاتجاهات، مكنته من تصنيف عدد من الكتب والرسائل في موضوعات متعدّدة.

ويبدو أنّ نبوغه الشعري بدأ مبكرا، فلم يستطع الأديب والمؤرّخ الأدبي محمد أمين العمري (ت 1203هـ) أن يتجاوزه، فترجم له في كتابه الشهير «منهل الأولياء»، (فرغ منه 1201هـ)، وأورد له شعرا وهو دون الخامسة والعشرين.

كانت له علاقات ثقافيّة مع أدباء بلده وشعرائه، ومراسلات مع علماء العراق منهم عبد الله الراوي البغدادي. وعندما حج الحيائي سنة 1227هـ اجتمع بكثير من علماء وأدباء البلدان التي مرّ بها. ولما عاد إلى الموصل أبقى على وسائل الاتصال بأولئك الأعلام بواسطة المكاتبات والمراسلات.

والحيائي رغم أنّه سليل ولاة الموصل الجليليين، فهو أحد أفراد الأسرة الجليليّة القلائل الذين اعتزلوا العمل السياسي والإداري، وتفرّغوا للعلم والأدب. ومع ذلك فقد جاءت نهاية هذا العلم وأحد مؤسسي مدرسة النقد الأدبي العربي في عصر النهضة، مأساوية. إذ قُتل في فتنة سياسيّة بين فرق الجيش العثماني، في عهد ولاية ابنه محمد أمين باشا (ت 1263هـ). وكان قتْله في جمادي الآخرة (كانون الأول). ودفن مع أجداده في مقبرتهم الكائنة في جامعهم «جامع الباشا».

نظم الحيائي القصيد وله زهريات بديعة، ومواليا، وموشحات، وتخاميس. ومن شعره المبكر قصيدة أرسلها إلى صديقه عبد الله الراوي، منها:

أبو الفضل عبد الله راوي فضائلا
وحاوي علوما زندُها أظهر القدْحا

صديق على بعْد حبيب بمُهجتي قريبٌ
له حبٌ من القلب لا يُمحا

عليه سلام سالم من تكدّرٍ
لدار سلام نوره يخجل الصُّبْحا

ومن موشح:

قُلْ لِلحظيكَ السُّيوفْ
يتركا عنا الحُتُوفْ

واتركِ الأمرَ المخُوفْ
راميًا عنّا السلاحْ

كنت دائي ودوائي ورجائي
ومنائي فالحيائي عنك نائي

لم يسلُ منك الصلاحْ

ومن تخميس القصيدة الهمزية الشهيرة للبوصري في مدح الرسول ﷺ:

يا بن عمران شرفت سيناءُ
وبإدريس والمسيح السماءُ

ولك العرش موطن ووطاء
كيف ترقى رقيك الأنبياء

آثاره

1 ـ الحجة على من زاد على ابن حجة، نشره الدكتور محمد صديق الجليلي بالموصل 1937. وأصل المخطوطة الوحيدة في خزانة الدكتور داود الجلبي (ت 1960م) ضمن مجموع. قال د. الجلبي حول الحجة «كثيرا ما ذكر المؤلف أشعار الموصليين... ضرب بعضها مثلا وانتقد بعضها». وقال الناشر حول الحجة «لا يخلو من الفوائد... وعلى الخصوص ما ورد فيه من البدائع الشعريّة لمشاهير شعراء الموصل والمقارنة بينهم ونُبذ من تراجمهم»؛ 2 ـ تخميس همزيّة البوصيري، في 455 بيتا أتمّه سنة 1226هـ،

من كتب مصطفى بن محمود العمري (مخ)؛ 3 ـ ديوان شعره، مفقود، إلّا أنّ د. محمد صديق الجليلي كان جمع ديوانا سماه «ديوان الحياني» من مخطوطات عدّة ومجموعات أدبيّة. بلغ ما جمع حتّى سنة 1937م نحوا من 160 صفحة على نية طبعها ولم يفعل. وفي ظنّي أنّ هذا المجموع قد فُقد فيما فُقد من خزانة د. الجليلي من نفائس الكتب الخطيّة والمطبوعة التي عبثت فيها أيدٍ غير أمينة بعد وفاته 1980م؛ 4 ـ دين الله الغالب على كلّ منكر مبتدع كاذب، من مخطوطات يعقوب سركيس (ت 1959م) المهداة إلى جامعة الحكمة ببغداد، نسخة بخط المؤلف فرغ منها في 27 شعبان سنة 1235. وهي الآن في مكتبة المجمع العلمي العراقي برقم (6 عقائد).

هذا وتوجد قصائد، وأشعار، ومواليا، وتخاميس للشاعر مبثوثة في مجامع خطية في المكتبات العامة والشخصيّة بالموصل وبغداد.

المصادر والمراجع

● الزركلي، خير الدين، الأعلام، بيروت، ط4، 1979، 4/ 206؛ ● البغدادي، إسماعيل باشا، إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، أوفست مكتبة المثنى، بغداد، 1/ 483؛ ● العزاوي، عباس، تاريخ الأدب العربي في العراق، بغداد 1962، 2/ 156 ـ 157، 307؛ ● الديوه جي، سعيد، تاريخ الموصل، الموصل 2001، 2/ 84؛ ● الصائغ، القس سليمان، تاريخ الموصل، بيروت 1928، 2/ 221؛ ● العمري، ديوان عبد الباقي، الترياق الفاروقي، النجف الأشرف، ط2، 1964، ص 5؛ ● العمري، محمد بن أحمد بن علي، الجواهر العمريّة في الموالاة الإلهيّة، تح. ذاكر زكي علي العثمان، الموصل، ط1، 1986، ص 53 ـ 54؛ ● الدليمي، محمد نايف، ديوان الموشحات الموصليّة، الموصل 1975، ص 104 ـ 106؛ ● الغلامي، محمد بن مصطفى، شمّامة العنبر، تح. د. سليم النعيمي، بغداد 1977، ص 5، 21، 23، 145، 160، 169؛ ● د. حمود، رضا محسن: الفنون الشعريّة غير المعربة، المواليا، بغداد 1976، ص 104 ـ 105؛ ● عواد، كوركيس، فهرست مخطوطات خزانة يعقوب سركيس المهداة إلى جامعة الحكمة ببغداد، بغداد 1966، ص 17، 120؛ ● أحمد، سالم عبد الرزاق، فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف العامة في الموصل، الموصل 1975، 1977، 1/ 251 وهـ 3، 6/ 9، وهـ2، 226، 265؛ ● النقشبندي، أسامة، وعباس، ظمياء، مخطوطات الأدب في المتحف العراقي، الكويت، ط1، 1985، ص 545؛ ● الديوه جي، سعيد، مخطوطات المكتبة المركزيّة في الموصل، مجلّة المجمع العلمي العراقي مج. الخامس عشر 1967، ص 310، 326؛ ● د. الموصلي، داؤد الجلبي، مخطوطات الموصل، بغداد 1927، 135، 168، 273، 274، 298؛ ● محمود، عصام محمد، مطبوعات الموصل منذ سنة 1861 ـ 1970،

الموصل 1971، ص 68؛ ● عواد، كوركيس، معجم المؤلفين العراقيين في القرنين التاسع عشر والعشرين 1800 ـ 1969، بغداد 1969، 2/ 273؛ ● العمري، محمد أمين بن خير الله الخطيب، منهل الأولياء، تح. سعيد الديوه جي، الموصل 1967، 1/ 192 ـ 194؛ ● موسوعة الموصل الحضارية، جامعة الموصل 1992، 4/ 301، 302؛ ● د. القريشي، رضا محسن، الموشحات العراقية منذ نشأتها إلى نهاية القرن التاسع عشر، بغداد 1981، ص 379 وهـ 33 ـ 381؛ ● رؤوف، عماد، عبد السلام، الموصل في العهد العثماني، فترة الحكم المحلي، النجف الأشرف 1975، ص 186، 369 ـ 370، 373، 377، 412 ـ 413، 417، 443؛ ● الديوه جي، سعيد، مجلة سومر، س 10، 1954، جامع النبي يونس، المستل ص 15 هـ 66؛ ● مجلة سومر، س 18، 1962، ص 84؛ ● مجلة المجمع العلمي العراقي، س 14، 1958، ص 283؛ ● الجلبي، بسام إدريس، موسوعة أعلام الموصل، ط. على الكومبيوتر، خط.

أ. بسام إدريس الجلبي
العراق ـ الموصل

أبو حيان الأندلسي، أثير الدين محمد بن يوسف

(654هـ/1256م ـ 745هـ/1344م)

هو محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حيان الغرناطي أثير الدين أبو حيان الأندلسي الجياني النفزي نحوي مفسر أديب، أصله من مدينة جيان، وانتقلت أسرته إلى غرناطة التي هاجر إليها الناس فرارا من الفتن وزحف النصارى، ويدلّ لقب النفزي على انتسابه إلى «نفزة» إحدى قبائل البربر، ولد في غرناطة ويقال في مطخشارش وهو في الواقع حي بهذه المدينة [نفح الطيب، 3/ 314] سنة 654هـ وقال بعضهم سنة 652هـ وتوفي بالقاهرة سنة 745هـ وذكر أيضا أنه توفي سنة 743 أو سنة 735هـ [طبقات الشافعية للأسنوي، 1/ 458؛ نفح الطيب، 3/ 315؛ بدائع الزهور، 1/ 199] لكن معظم المؤرخين حددوا وفاته بسنة 745هـ.

بدأ دراسته في مسقط رأسه غرناطة ويشير ابن الجزري إلى بداية إقباله على القراءات فيحددها بسنة 670هـ[غاية النهاية، 2/ 285] لكنه قرأ قبل ذلك بالسبع على عبد الحق بن علي ابن عبد الله الغرناطي ولازمه نحو سبعة أعوام إلى سنة 669 [غاية النهاية، 1/ 359]، وأحمد بن علي بن الطباع (ت 680هـ/ 1281م) وأبي جعفر بن الزبير.

وفي سنة 678 أو679هـ غادر الأندلس لأسباب اختلف فيها المؤرخون، فمنهم من ذكر أنه رحل مخافة أن يكره على تعلم علوم من نوع المنطق والفلسفة والطبيعة [شذرات الذهب، 6/ 146]، ومنهم من علل رحيله بما نشأ بينه وبين ابن الطباع من خلاف رفع أمره إلى الأمير محمد بن نصر فخاف أبو حيان أن ينكّل به فارتحل خفية إلى المشرق [نفح الطيب، 3/ 341] مرورا بالمغرب متنقلا بين فاس وسبته وبجاية وتونس؛ وقبل أن يستقرّ بالقاهرة توقف بالاسكندرية فأخذ على أحد شيوخ الإقراء بها عبد النصير بن علي المريوطي، وأخذ بالقاهرة على عدد كبير من الشيوخ وقد حدّد عدد الذين سمع منهم بالأندلس ومصر بنحو 450 شيخا كما أجازه عدد كبير جدا من الأندلس وإفريقية ومصر والحجاز والعراق والشام؛ وممن أخذ عنهم في مصر محمد بن إبراهيم بن النحاس (ت 698هـ/ 1298م) «شيخ الديار المصرية في علم اللسان» على حدّ تعبير السيوطي واللغوي محمد بن يوسف الشاطبي والقطب القسطلاني وابن الانباطي والعز الحراني...وكما استعرض الذين أخذ عنهم أو أجازوه فقد سجل مروياته في علوم متنوّعة ومنها القراءات السبع والكتب الستة والموطإ وكتاب سيبويه وإيضاح الفارسي وتكملته والمفصّل وجمل الزجاجي... والمعلقات والحماسة ودواوين الشعراء المولدين كأبي تمام والمتنبي والمعري؛ وهكذا تضلع في أكثر علوم عصره من نحو ولغة وقراءات وتفسير وحديث وأدب وتراجم كما كان له اطلاع على لغات أجنبية كالتركية والفارسية والحبشية.

وقد ذاع صيته في الأوساط العلمية ولقي حظوة لدى أولي الأمر في مصر فعيّن مدرسا للنحو في جامع الحاكم سنة 704هـ في قبّة السلطان الملك المنصور [البحر المحيط، 1/ 3].

وكان في البداية مالكيا ثم تمذهب بالظاهرية قبل أن يرحل عن الأندلس، ولكنه عندما حلّ بمصر وجد مذهب الظاهر مهجورا فتبنى مذهب الشافعي [نكت الهميان، ص 281؛ نفح الطيب، 3/ 296] وقد سئل عن ذلك فقال: «بحسب البلدة» [بدائع الزهور، 1/ 200] فقد كان المذهب الشافعي هو السائد في مصر، وكان أبو حيان يفضل آراء الإمام الشافعي وتلاميذه في تفسير القرآن وعرض الخلافات بين المذاهب [البحر المحيط، 2/ 150، 195، 3/ 165..] وكان لأبي حيان بالإضافة إلى ولده الأكبر حيان وحفيده محمد بن حيان ـ وكلاهما أخذ عنه العلم ـ ابنة اسمها نضار قيل فيها إنها تفوق كثيرا من الرجال في العبادة والفقه مع الجمال التام والظرف [الدرر الكامنة، 3/ 395] وقد توفيت ولم تبلغ الثلاثين فحزن عليها وصنف كتابه: النضار في المسلاة عن نضار ..وقد نوه المترجمون بحسن دينه وعفته وانبساطه وحسن لقائه وطلاقة لسانه [نفح الطيب، 3/ 321]، ولكن بعض المصادر تشير إلى اهتمامه بجمع المال وادخاره.. وسوء ظنه بالناس، وفي آخر حياته فَقَدَ البصر.

وقد تتلمذ عليه عدد هام من «أكابر عصره» حسب عبارة السيوطي، ومنهم تقي الدين السبكي والجمال الإسنوي وابن عقيل وناظر الجيش وابن مكتوم والصفدي والحسن بن قاسم المرادي والأدفوي..

يبدو أبو حيان في آثاره النحوية ذا نزعة بَصْرية يعتمد على سيبويه ويرجح آراء البصريين ويلتزم بأصولهم ويوافقهم في رأيهم في عدد المسائل والظواهر، على أنه لم يكن موقفه منهم موقف المقلد وإنما هو موقف المتسم بالروح النقدية فلا يتردد في مخالفتهم أحيانا وترجيح ما يذهب إليه الكوفيون وإن كان غالبا ما يرفض آراء هؤلاء ويحتج بحجج البصريين؛ ولئن اهتم أبو حيان بآثار نحاة مثل ابن عصفور وابن مالك وشرح طائفة منها أو لخصها فإنه وقف منهم كذلك موقفا نقديا فناقشهم ورد عليهم في عديد المواطن؛ فهو لم يتردد مثلا في انتقاد ابن مالك لاستشهاده بالحديث وإكثاره الاستدلال به وكذلك لاعتماده على لغات قبائل مشكوك في فصاحتها، وأيضا لعدم التزامه بشروط الحدود..

أما عمله في تفسير القرآن فقد حدد هو نفسه منهجه، فمنطلقه المفردات يفسرها لفظة لفظة ويبحث عن المعنى المناسب للسياق إن كان للفظة أكثر من معنى، ثم ينتقل إلى الآيات ليبين عند الاقتضاء سبب نزولها أو نسخها وارتباطها بما قبلها وقراءاتها وأقوال السلف والخلف في معانيها معتمدا في كل ذلك على كتب النحو وكتب الفقه، ويختم ما فسره إفرادا وتركيبا بما ذكر فيها من علم البيان البديع.

ويوجد بالبحر المحيط كثير من النقل من تفسير الزمخشري (467 ـ 538هـ)، وتفسير ابن عطية (ت 481 ـ 546هـ)، خصوصا ما كان من مسائل النحو ووجوه الإعراب كما أنّه كثيرا ما يتعقّبهما بالردّ والتفنيد الأمر الذي جعل تلميذه تاج الدين أحمد بن عبد القادر ابن أحمد بن مكتوم (ت 749هـ) يجمع هذه التعقيبات في كتاب سمّاه «الدر اللقيط من البحر المحيط»، [حاجي خليفة، كشف الظنون، 2/ 145].

آثاره

وضع أبو حيان عشرات التصانيف في شتى العلوم التي حذقها من نحو ولغة وتفسير وقراءات وحديث وفقه وتراجم وتاريخ وبلاغة ونقد كلها تدلّ على سعة اطلاعه وقدرته على الاستيعاب والتبحر ومنها:

1 ـ ارتشاف الضرب من لسان العرب، تح. د. مصطفى أحمد النماس، القاهرة 1408هـ/ 1987م، يعتبر هذا الكتاب اختصارا لشرحه لكتاب التسهيل لابن مالك الموسوم بالتذييل والتكميل في شرح التسهيل؛ على أنه لا يمكن اعتبار الارتشاف شرحا بل هو تأليف حقيقي قسمه أبو حيان قسمين أولهما لأحكام الكلم قبل التركيب وثانيهما لأحكامها بعد التركيب، ومن أهم ما يسترعي الانتباه في هذا الكتاب حرص أبي حيان على استيعاب آراء النحاة من المشرق والمغرب في كل المسائل التي كانت موضوع خلافات بينهم، فالكتاب عبارة عن موسوعة تجمع كل ما قيل في أبواب النحو وعناصر كل باب؛ 2 ـ النكت الحسان في شرح غاية الإحسان، تح. د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت 1405هـ/ 1985م، وهو شرح لكتابه «غاية الإحسان في علم اللسان» الذي جاء مقدمة في النحو والصرف؛ 3 ـ تقريب المقرّب، تح. د. عفيف عبد الرحمٰن، بيروت 1402هـ/ 1982م، وهو اختصار لكتاب المقرب في النحو جرده من

التعليل والتمثيل مع التصرف في ترتيب الأبواب ودمج بعضها في بعض؛ 4 ـ المبدع الملخص في الممتع، تح. د. عبد الحميد السيد طلب بعنوان المبدع في التصريف، الكويت 1402هـ/ 1982، ود. مصطفى النحاس، القاهرة 1403هـ/ 1983م، هو تلخيص لكتاب الممتع في التصريف لابن عصفور وقد خلصه من الشواهد والجدل؛ 5 ـ منهج السالك في الكلام على ألفية ابن مالك، نشر سدني جليزر، الولايات المتحدة 1947، وهو شرح لألفية ابن مالك ويبدو أنه لم يتمّه؛ 6 ـ البحر المحيط، مطبعة السعادة بمصر 1328هـ/ 1910م وبيروت 1403هـ/ 1983م ومطابع النصر الحديثة، الرياض، وهو تفسير للقرآن يسميه أبو حيان التفسير الكبير؛ 7 ـ النهر الماد من البحر، مطبوع على حاشية البحر وتح. بوران وهديان الضناوي، بيروت 1407هـ/ 1987م وهو اختصار للبحر المحيط؛ 8 ـ تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب، نشر الشيخ محمد سعيد الورد، حماة 1345هـ/ 1926م، وتح. د. أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، 1397هـ/ 1977م، وتح. سمير المجذوب، بيروت 1403هـ/ 1983م؛ 9 ـ الارتضاء في الفرق بين الضاد والظاء، مطبعة المعارف ببغداد 1380هـ/ 1961م؛ 10 ـ الإدراك للسان الأتراك، طبع بالآستانة 1309هـ/ 1892م وتح. جعفر أوغلي أحمد، إسطنبول 1350هـ/ 1932م؛ 11 ـ التذييل والتكميل في شرح التسهيل، طبع منه قطعة صغيرة، مطبعة السعادة بمصر 1328، وتوجد نسخ مخطوطة منه في عدة مكتبات [خديجة الحديثي، أبو حيان النحوي، ص 114 ـ 116]؛

12 ـ تذكرة النحاة، تح. عفيف عبد الرحمٰن، بيروت 1406هـ/ 1986م، يتضمن مجموعة من المسائل الصرفية والنحوية واللغوية أوردها المؤلف بدون ترتيب واضح المقاييس؛ 13 ـ هداية النحو، نشر في كانبور بالهند 1280هـ/ 1863م، وهو كتيب يضمّ عددا من القواعد النحوية المختصرة؛ 14 ـ الموفور من شرح ابن عصفور، نسختان مخطوطتان في دار الكتب وأخرى في المتحف البريطاني؛ 15 ـ غاية الإحسان في علم اللسان، نسخة مخطوطة في دار الكتب بالقاهرة رقم 1050 نحو ونسخة في النجف؛ 16 ـ اللمحة البدرية في علم العربية، نسخة بدار الكتب رقم 1050 نحو؛ 17 ـ إعراب القرآن، نسخة في مكتبة رباط الفتح بمراكش تتكون من جزئين فيهما إعراب السور من الحمد إلى الأعراف، ونسخة بمكتبة الأسكوريال، تتكون من الجزئين الأول والثالث؛ 18 ـ المبدع الملخص من الممتع في التصريف، نسخة بدار الكتب؛ 19 ـ لغات القرآن، نسخة بدار الكتب؛ 20 ـ التدريب في تمثيل التقريب، نسخة بمكتبة آغا أيوب باسطنبول؛ 21 ـ تلويح التوضيح في النحو، نسخة بمكتبة مدينة الخليل بفلسطين؛ 22 ـ عقد اللآلي في القراءات السبع العوالي، نسخ بدار الكتب ومكتبة جلال الدين البري بمكة ومكتبه بانكيبرور؛ 23 ـ خلاصة التبيان في المعاني والبيان، نسخة بمكتبة جلال الدين البري بمكة؛ 24 ـ نكت الأمالي على عقد اللآلي، نسخة بانكيبور؛ 25 ـ الأثير في قراءة ابن كثير؛ 26 ـ النافع في قراءة نافع؛ 27 ـ تقريب النائي في قراءة الكسائي؛ 28 ـ خلاصة التبيان في علمي البديع والبيان؛

29 ـ نثر الزهور في نظم الزهر؛ 30 ـ منطق الخرس في لسان الفرس؛ 31 ـ نور الغبش في لسان الحبش..

المصادر والمراجع

● المقري، نفح الطيب، تح. محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة 1367هـ/ 1949م؛ ● ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر أباد 1350؛ ● الأسنوي، جمال الدين، طبقات الشافعية، تح. عبد الله الجبوري، بغداد 1390؛ ● ابن الجزري، غاية النهاية في طبقات القراء، القاهرة 1352هـ/ 1933م؛ ● الصفدي، نكت الهميان في نكت العميان، القاهرة 1330هـ/ 1911م؛ ● ابن اياس، بدائع الزهور في وقائع العصور، بولاق 1311؛ ● السيوطي، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تح. محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة 1384هـ/ 1964م؛ ● ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة 1351؛ ● الفيروزابادي، البلغة في تاريخ أئمة اللغة، تح. محمد المصري، دمشق، 1392هـ/ 1972م؛ ● بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ترجمة د. محمود فهمي حجازي ود. حسن محمود إسماعيل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، قسم 6 (10 ـ 11)، ص 457؛ ● دائرة المعارف الإسلامية، ط. ج. المجلد الأول، فصل أبو حيان الغرناطي؛ ● الحديثي، خديجة، أبو حيان النحوي، بغداد 1385هـ/ 1966م؛ ● م. ن، المدارس النحوية، بغداد 1406/ 1986؛ ● شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف بمصر 1968م؛ ● مكرم، عبد العال سالم، المدرسة النحوية في مصر والشام في القرنين السابع والثامن من الهجرة، دار الشروق، بيروت 1400هـ/ 1980م؛ ● دائرة المعارف الإسلامية الكبرى، طهران 1416هـ/ 1995م.

د. خديجة الحديثي
جامعة بغداد
د. حسن مزيو
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن حيان، جابر بن عبد الله الكوفي

(ولد قبل 107هـ/725م ـ 200هـ/815م)

لم يختلف الناس في أمر عالم من العلماء كما اختلفوا في حقيقة جابر بن حيّان. فلقد بلغ اختلاف الرأي بينهم حدًا أنكر معه المنكرون أنّ رجلًا كهذا شهده التاريخ. ونفى آخرون أن يخلّف رجل مثل ذلك التراث الضخم الذي ينسب إليه؛ حجّتهم أنّ مثل هذا

التراث تعجز عن إنجازه طائفة من البشر. وهي قصّة تتكرّر من نوابغ الفكر، كأنّما الإنسانيّة تستكثر على نفسها أن ينبغ من أبنائها أحد يجاوز حدًّا معلومًا، فإن جاوزه قال عنه الخلف: «إنّه أسطورة لفّقها الخيال»؛ فها هو المؤرّخ الرياضي «بل» (Bell) يكاد لا يصدّق في ترجمته للرياضي والموسوعي الشهير «لايبنتس» (Leibnitz) (ت 1746م)، فقد كتب يقول: «ويكاد يكون من غير المعقول أن تتمكّن رأس واحدة من إنتاج جميع الأفكار المنشورة وغير المنشورة التي كتبها لايبنتس على الورق».

وهكذا كان بالنسبة لصاحبنا جابر بن حيّان الكوفي، فقد جاء في كتاب «الفهرست» لصاحبه ابن النديم (ت 438هـ/ 1047م)، أنّ: «جماعة من أهل العلم وأكابر الوراقين تقول عن جابر بن حيّان: إنّه لا أصل له ولا حقيقة. وبعضهم قال إنّه ما صنّف، وإن كان له حقيقة، إلا كتاب الرحمة، وأنّ هذه المصنّفات صنّفها الناس ونحلوها إيّاه». وقد رد ابن النديم عليهم قائلًا: «إنّ رجلًا فاضلًا يجلس ويتعب، فيصنّف كتابًا يحتوي على ألفي ورقة، يتعب قريحته وفكره بإخراجه، ويتعب يده وجسمه بنسخه، ثمّ ينحله لغيره - إما موجودًا أو معدومًا - ضرب من الجهل، وإنّ ذلك لا يستمرّ على أحد، ولا يدخل تحته من تحلّى ساعة واحدة بالعلم، وأيّ فائدة في هذا، وأيّ عائدة؟ والرجل له حقيقة وأمره أظهر وأشهر وتصنيفاته أعظم وأكثر...».

وفي العصر الحديث ظهر من بين المستشرقين من ذهب إلى القول: «إنّ الكتب الكيميائيّة اللاتينيّة، التي تنسب إلى جابر، والمتضمّنة نظريّات علميّة قديمة، وكان لها أثرها في تقدّم الكيمياء في أوروبا، إنّ هذه الكتب ليست إلا كتبًا لمؤلف لاتيني مجهول - أطلق برتلو عليه اسم «جبر» - انتحل اسم جابر ليحتمي بسمعته وشهرته. وقد أورد «برتلو» (Berthelo) نظريّته هذه في كتابه «الكيمياء في العصور الوسطى (La Chimie au Moyen Age)»، الذي ظهر عام 1310هـ/ 1893م في ثلاثة أجزاء».

وقد أمعن برتلو، حينما عدّ كلّ كتاب يتضمّن أفكارًا علميّة متقدّمة كتابًا منحولًا، وكلّ كتاب تافه غثّ كتابًا من كتب جابر العربي.

ومن حسن الحظ أنّ الردّ على برتلو كان من مستشرق متضلّع باللّغة العربيّة، يجيدها كأحد أبنائها، هو «هولميارد» E.Y. Holmyard أستاذ الكيمياء بكلّيّة «كلفتُن» Clifton في بريطانيا. فنّد فيه آراء برتلو مشيرًا إلى نقاط الضعف فيها، لعلّ أبرزها: «على الدارس للكيمياء العربيّة أن يكون ملمًّا بالكيمياء واللّغة العربيّة معًا؛ تحقّق لبرتلو الإلمام بالكيمياء ولم يتحقّق له معرفة العربيّة».

وأنّه يتوافر في مكتبات أوروبا نحو 300 كتاب في الكيمياء، منها 50 كتابًا تقريبًا باسم جابر بن حيّان، بعضها ضخم تربو صفحاته المئات. أما الكتب (13) التي اختارها برتلو فإنّ مجموع صفحاتها جميعًا بلغ 205 صفحة فقط. ومثل هذا الاختيار لا يجيز لصاحبه القول إنّه وصل إلى رأي حاسم وحكم سديد.

ويعدّ هولميارد صاحب الفضل الأوّل في الكشف عن منزلة جابر الرفيعة في تاريخ الكيمياء، إذ هو أوّل من أشار إلى التطوير

الذي أحدثه جابر في الصنعة حتى غدت علمًا تجريبيًا منظمًا؛ وهو الذي صنّف جابرًا مع كل من "بول"، و"بريستلي"، و"لافوازيه".

هذا وقد قام "كراوس" (Kraous) في مطلع الثلاثينات من القرن العشرين بدراسة أعمال جابر، بذل خلالها جهودًا محمودة، أفضت به إلى أن ينشر عام 1942 ـ 1943م كتابًا بمجلّدين، شغل المجلد الأول فهرسًا بأسماء وأماكن المخطوطات المحفوظة في المكتبات العامّة والخاصّة. أمّا المجلّد الثاني فقد تناول فيه دراسة أعمال جابر في مجموعها بالتفصيل. وقد تضمّنت دراسته هذه أفكارًا، مفادها أن أنكر وجود جابر بن حيّان، وأنّ الكتب، التي يفترض أنّ جابر صنّفها، إنّما هي كتب مزيّفة، صنّفت في وقت متأخر؛ علمًا أنّه أكد في دراسته الأخيرة هذه الوحدة المطلقة والمنطق الأصيل ضمن الأفكار الموزّعة في الكتب المختلفة، فهي تشترك بسمات لغوية وتعبيرية معينة.

ولقد تصدّى لآراء كراوس وأفكاره الباحث، الخبير بالتراث الإسلامي، فؤاد سزكين صاحب المجلّدات في "تاريخ التراث العربي"، فخصّص معظم صفحات المجلّد الرابع (نحو 600 صفحة) للردّ على كراوس ومن أخذ بآرائه، من أمثال "روسكا" (Ruska). وقد استطاع سزكين أن يفنّد حجج كراوس حجّة إثر حجّة. بل يذهب سزكين إلى القول: "جابر بن حيّان هو أعظم صنعوي عربي، وأحد كبار فلاسفة الطبيعة الإسلاميّين ذوي المواهب المتعدّدة".

تتضارب الأقوال في سنة ومكان ولادة جابر؛ يرجّح أنها كانت قبل عام 107هـ/ 725م، السنة التي يظنّ أنّ أباه حيّان قتل فيها، وأنّ جابرًا ولد ـ في الغالب ـ في الكوفة، وتوفّي في طوس عام 200هـ/ 815م.

تشير أقوال الثقات من كتّاب التراجم أنّ جابرًا كان صاحب قدرات غير عاديّة، وأنّه برع في العلوم المتداولة في زمنه بعامة وبالصنعة (الكيمياء) بخاصّة؛ يقول القفطي عنه: "كان متقدّمًا في العلوم الطبيعيّة، بارعًا في صناعة الكيمياء، وله فيها تآليف كثيرة ومصنّفات مشهورة".

وإنّ دراسة متأنية لما وصل إلينا من كتب جابر لتوحي أنّ الكيمياء تشغل معظمها، وإن كان برع في غيرها كذلك. ولم تكن الكيمياء عنده شعوذة وتدليسًا، بل كانت وفق منهج مدروس يقوم على أسس وخطط حصيفة. فلقد اتبع جابر في عمله خطوات تطابق ما يتفق عليه معظم المشتغلين بالمنهج العلمي اليوم. فلا غرو أن يتساءل الدكتور زكي نجيب محمود: "أفليس من حقّ عالمنا العربي جابر بن حيّان علينا، أن نسجّل له بالفخر والإعجاب منهجًا فكريًا رسمه لنفسه في القرن (الثاني الهجري) الثامن وأوائل القرن التاسع الميلادي، وهو منهج لو كتب بلغة عصرنا، ولو فصّل القول فيه قليلًا، لجاء وكأنّه من نتاج العصر الحديث؟ ذلك لأنّ منهجه اعتمد على الاستنباط والاستقراء معًا، اعتمادًا واعيًا صريحًا؛ فاقرأ ـ مثلًا ـ هذا الجملة الواحدة تجيء عرضًا في حديثه ليصف بها منهجه: "... قد عملته بيدي وبعقلي من قبل، وبحثت عنه حتّى صحّ وامتحنته فما كذب". ويقرّر الدكتور زكي نجيب محمود في موضع آخر: "إنّ من حقّ جابر علينا أن نسجّل له هنا بهذا

الذي أوردناه عنه في موضوع الاستقراء، من أنّه يؤدّي إلى الحكم الاحتمالي فقط دون اليقين، سبقًا لرجال المنهج العلمي في العصور الحديثة، الذين أوشكوا اليوم ـ منذ ديفد هيوم ـ أن يكونوا على اجماع في هذا؛ حتّى لقد أصبح من أبرز الخصائص التي تميّز العلم اليوم أنّه احتماليُّ النتائج ما دام قائمًا على أسس استقرائيّة».

لقد أضاف جابر إلى المعرفة الإنسانيّة عنصرًا جديدًا افتقر إليه اليونان، حين اعتمد على التجربة والبرهان الحسيين، ولم يكتف بالفرضيّات والتحليلات الفكريّة الغامضة التي كانت محور المعرفة عند اليونان، بل كان حريصًا على أن يقصر نفسه على مشاهداته التي تجيء التجربة مؤيّدة لها، انظره يقول في المقالة الأولى من كتاب «الخواص الكبير»: «ويجب أن تعلم أنّا نذكر في هذا الكتب خواص ما رأينا فقط ـ دون ما سمعنا أو قيل لنا أو قرأناه ـ بعد أن امتحنّاه وجربناه؛ فما صح أوردناه وما بطل رفضناه، وما استخرجناه نحن أيضًا وقايسناه على أقوال هؤلاء القوم».

ويطلق جابر اسم «التدريب» على ما نسمّيه اليوم «التجربة». وهو يجعل التدريب شرطًا أساسيًا للعالم الحق حينما يذكر: «فمن كان دَرِبًا كان عالمًا حقًا، ومن لم يكن دربًا لم يكن عالمًا، وحسبك بالدربة في جميع الصنائع، إنّ الصانع الدرب يحذق وغير الدرب يعطل».

وإنّ علم الكيمياء ليسجلّ له كشوفًا هامّة؛ فهو أوّل من استخرج حمض الكبريت من الزاج الأزرق وسمّاه زيت الزاج، وأوّل من اكتشف الصودا الكاوية، وأوّل من استحضر الماء الملكي (ماء الذهب، لأنه يذيب الذهب) من مزيج حمض النتروجين (ماء العقد) وحمض كلوريد الهيدروجين، وإليه ينسب اكتشاف حجر جهنّم (نترات الفضّة).

وقد كان جابر يؤمن بأنّ العناصر جميعها تتألّف من الزئبق والكبريت النقي وتختلف العناصر عن بعضها بنسب اتحاد الزئبق والكبريت ودرجة نقاوتهما، التي هي أساسها ودلالتها.

وقد مثّل جابر تكوين هذه العناصر في باطن الأرض بتكوين الجنين في الرحم، حيث أشار إلى المدّة التي يتفاعل خلالها الزئبق بالكبريت، الأمر الذي جعله يبتدع الفرن والبوتقة ليعيد ما يجري في الطبيعة... والحق أنّ هذه النظريّة التي عدّها بعض الكيميائيين الأوروبيين مفتاح نظريّة الفلوجستون، هي أعظم فكرًا وأعمق تأملًا من نظريّة الفلوجستون، التي جاءت بعد نظرية جابر بعشرة قرون تقريبًا.

وبالجملة فقد احتلّ اسم جابر بن حيّان مكانة عظيمة بين أسماء العلماء بعامّة والكيميائيين بخاصّة؛ ولم يتسنّ لغيره الوصول إليها لمدّة تقارب العشرة قرون (من القرن الثامن إلى القرن السابع عشر)؛ وذلك لكثرة ما ألّف من رسائل وكتب وما تميّز به عن غيره في مهارته التجريبية وغزارة علمه وعمق تفكيره، وقد بلغ ذروة علمه في النصف الثاني من القرن الثامن الميلادي.

تشير أوثق المصادر إلى أنه قام بتأليف أكثر من مائة واثني عشر كتابًا، وقد قيل خمسمائة،

وذكر ابن النديم في الفهرست أكثر من هذا العدد. وقال عنه غوستاف لوبون: «وأقدم علماء العرب في الكيمياء وأكثرهم شهرة هو جابر بن حيّان، الذي عاش في أواخر القرن الثامن من الميلاد، فألّف كتبًا كثيرة فيها، ولكنّه نشأ عن كثرة من تكنّوا بكنيته من معاصريه صعوبة تمييز ما يجب نسبته إليه منها، ونقل عدد غير قليل من كتبه إلى اللغة اللاتينية، منها كتاب «الجمع»، وكتاب «الاستيفاء»، وكتاب «التكليس»، وكتاب «الاستتمام»، ونقل كتابه الأخير هذا، الذي يعدّ من أهمّ كتبه، إلى اللغة الفرنسيّة في سنة 1672م، فدلّ ذلك على دوام نفوذه العلمي في أوروبا مدّة طويلة».

هذا وقد كتب جابر كذلك في صناعة الذهب والإكسير وفي السموم، كما استنبط عمليّات التقطير والتصعيد والتكليس، وبرع في عمليّات الكيمياء وتصميم الأفران والبوتقات التي لم تصل إليها أوروبا إلّا في مطلع القرن الثامن عشر، إضافة إلى اختراعه للميزان التحليلي المضبوط في وزن الذهب والمعادن الثمينة.

فلا غرو إذًا أن قيل إنّ جابرًا سمّي بهذا الاسم، لأنّه هو الذي أعاد تنظيم العلم الطبيعي وأعاد بناءه على نحو ما كان عليه عند أرسطو، قبل أن يصيبه الفساد بامتزاجه بالسحر في العصور الوسطى.

آثاره

خلّف جابر بن حيّان كتبًا ورسائل كثيرة قيل عددها 232 كتابًا، وقيل بلغت خمسمائة، ضاع أكثرها، وترجم بعض ما بقي منها إلى اللاتينية. وأشهر مؤلّفاته في الكيمياء.

1 ـ مجموع رسائل، ط.، نحو ألف صفحة؛ 2 ـ أسرار الكيمياء، ط؛ 3 ـ أصول الكيمياء، ط؛ 4 ـ كتاب التدابير، مخ؛ 5 ـ كتاب الرياض، مخ. وهذا الكتاب شبيه جدًا بكتاب «سرّ الأسرار» للرازي، كما تبيّن لكلّ من روسكا وغاربرز (Garbers)، اللذين قاما باختيار بعض النصوص من كلا الكتابين وعقدا مقارنة بينهما؛ 6 ـ كتاب الحدود، ط.، ولقد بيّن جابر في كتاب الحدود هذا أنّ الغرض بالحد هو الإحاطة بجوهر المحدود على الحقيقة، حتى لا يخرج منه ما هو فيه، ولا يدخل فيه ما ليس منه.

وثمّة كتب أخرى فقدت أصولها العربيّة وبقيت ترجماتها اللاتينية المنسوبة إلى جابر بن حيان منها:

7 ـ نهاية الإتقان؛ 8 ـ رسالة الأفران؛ 9 ـ رسالة في الكلمات الثلاث (محفوظ بباريس).

ويعدّ كتاب السموم ودفع مضارها، ط. من أروع المؤلّفات وأندرها؛ ضمّن فيه جابر آراء فريدة عن السموم وتقسيمها وتأثيرها في بدن الإنسان والحيوان، والأدوية الشافية منها بطريقة علميّة واضحة على نحو لم يسبق إليه.

المصادر والمراجع

● الزركلي، الأعلام، م2، دار العلم للملايين، الطبعة السادسة، بيروت، لبنان، 1984م؛ ● ابن النديم، الفهرست، تح. غوستاف فلوغل Gustav Flugel، خياط (تصوير على الأوفست)،

بيروت، لبنان، 1872م؛ ● القفطي، تاريخ الحكماء، تح. أوغست مولر، إخراج يوليوس ليبرت، طبعته مكتبة المثنى ببغداد على الأوفست، لايبتسغ، 1903م؛ ● حاجي خليفة، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، 1410هـ/ 1990م؛ ● محمود، الدكتور زكي نجيب، جابر بن حيّان، أعلام العرب 3، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، 1961م؛ ● عبد الغني، الدكتور مصطفى لبيب، علم الكيمياء في الحضارة الإسلاميّة، الناشر دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة؛ ● مختار رسائل جابر بن حيّان، عني بتصحيحها ونشرها باول كراوس Paul Kraus، أعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى ببغداد لصاحبها قاسم محمد رجب، وطبعته مطبعة الخانجي بالقاهرة عام 1354هـ؛ ● سزكين، الأستاذ الدكتور فؤاد، تاريخ التراث العربي، ترجمة الدكتور عبد الله حجازي، مطبوعات جامعة الملك سعود، 1406هـ/ 1986م؛ ● الطائي، الدكتور فاضل أحمد، علماء العرب واكتشافاتهم، الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر، 1989م؛ ● طوقان، قدري حافظ، علماء العرب وما أعطوه للحضارة، منشورات الفخرية، الرياض ودار الكاتب العربي، بيروت؛ ● لوبون، الدكتور غوستاف، حضارة العرب، نقله إلى العربية عادل زعيتر، الطبعة الثالثة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 1399هـ/ 1979م؛ ● الدفاع، الدكتور علي عبد الله، إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1405هـ/ 1985م؛ ● فياض، محمد محمد، جابر بن حيان وخلفاؤه، اقرأ 91، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية؛ ● التليسي، خليفة، التراث العلمي عند العرب، رئيس مجلس إدارة شركة أفممكو انترناشيونال.

- HOLMYART, E. J., Chemistry to the Time of dalton, printed in England at the Oxford University Press, 1925.

• HOLMYARD, E. J., Makers of Chemistry, Oxford at the Clarendon Press, reprinted, 1946.

• Die Natur - und Geheimwissenschaften in Islam, VON M. Ullmann, Leiden E. J. Brill, 1972. tze zur Arabischen Wissenschaftsgeschichchte, VON EILHARD Wiedemann, I, 52, Hildesheim, 1970. 18, - Aufs

د. عبد الله حجازي
جامعة الملك سعود ـ المملكة العربية السعودية

ابن حيان، أبو محمد عبد الله بن محمد

(274هـ/887م - 369هـ/979م)

أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيّان الأصبهاني ويعرف بأبي الشيخ.

من الحفاظ المسندين في القرن الرابع الذين أثروا مكتبة الحديث بداراساتهم في الرواية والرجال والتفسير بالمأثور.

ولد بأصبهان سنة 274هـ، وتوحي نسبته الأنصاري التي أثبتها له الذهبي [تذكرة، 3/ 945] بأنّ أصوله الأولى من المدينة المنوّرة. ومعرفتنا بأخبار عائلته محدودة، والظاهر أنّه من بيت علم ودين، فجدّه لأمّه محمود بن الفرج الاصبهاني (ت 284هـ) كان من حملة العلم والصالحين، ذكره الذهبي في تذكرته ووصفه بالزاهد. وتذكر المصادر أنّ حفيد أبي الشيخ محمد بن عبد الرزاق كان من تلاميذه.

اعتنى بأبي الشيخ جدّه المذكور، وعلى يديه تلقّى معارفه الأولى وهو دون العاشرة من عمره [ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، 4/ 136]. وهيّأت له هذه العلاقة نشأة صالحة وميلا مبكرا إلى العلم. فطلب الحديث في صغره [الذهبي، السير، 12/ 369] وكان أوّل سماعه في سنة 284هـ وهلمّ جرّا [ابن العماد، شذرات، 3/ 69]، تلقّى عن كثير من علماء بلدته التي كانت من حواضر العلم ومسترادا هامّا للطلبة والعلماء، ومن أوائل شيوخه قبل الرحلة أبو بكر بن أبي عاصم أحمد بن عمرو بن النبيل الشيباني قاضي أصبهان (ت 287هـ)، وإبراهيم بن سعدان [أبو نعيم، ذكر أخبار أصبهان، 2/ 90].

رحل لأوّل مرة في شبابه في حدود سنة 300هـ فدخل أقاليم العراق، والجزيرة، والشام، والحجاز، ومصر. وسمع بمدن كثيرة كبغداد، والموصل، وحرّان، والريّ، والأهواز، وواسط، وتستر، ومكّة، والمدينة والبصرة، والكوفة وأكثر من الجمع، وكتب العالي والنازل ولقي الكبار [تذكرة، 3/ 945] وهو معاصر للطبراني ويشترك معه في كثير من الشيوخ، وتضمّ قائمة أساتذته المئات ممّن أتاحت له رحلته الواسعة اللقاء بهم في مختلف الأمصار، منهم كبار عصره ومراجعه في الحديث تصنيفًا ونقدًا وفقهًا، منهم: أبو بكر البزّار أحمد بن عمرو البصري في آخر عمره لينشر الحديث، وابن مندة أبو عبد الله محمد ابن يحيى الأصبهاني (ت 301هـ)، قال عنه المترجم له: هو أستاذ شيوخنا وإمامهم [تذكرة، 2/ 741] وقد أكثر من الرواية عنه [الذهبي، تذكرة، 3/ 1032]، وأبو يحيى زكريا بن يحيى بن عبد الرحمن الساجي (ت 307هـ)، وابن أبي حاتم الرازي أبو محمد عبد الرحمن بن محمد (ت 327هـ)، وأبو يعلى الموصلي أحمد بن علي بن المثنى التميمي صاحب المسند (ت 307هـ)، وأبو القاسم البغوي عبد الرحمن بن محمد (ت 317هـ).

بلغ درجة من العلم أقرّ له بها معاصروه

والذين جاؤوا من بعدهم، واشتهر بصلاحه وعبادته واتباعه للسنة [الذهبي، السير، 12/ 370]. قال فيه الخطيب البغدادي: كان حافظا ثبتا متقنا، وتحدّث عنه الذهبي بأنّه كان مع سعة علمه وغزارة حفظه صالحا خيرا قانتا لله صدوقا [تذكرة، 3/ 945 ـ 946].

ووصفه تلميذه ابن مردويه بأنه ثقة مأمون [ابن العماد، شذرات، 3/ 69]، وذكره أبو نعيم بأنه أحد الثقات الأعلام [أخبار اصبهان، 2/ 90]. ومع تسليم الذهبي له بأنه الإمام الحافظ الصادق محدث اصبهان، صاحب التصانيف. إلّا أنه انتقد عليه تساهله في رواية الواهيات التي ملأ بها تصانيفه [السير، 12/ 369 ـ 370]. لهذا تدرج عادة كتبه في الطبقة الرابعة من كتب الحديث [القنّوجي، الحطّة، ص 220]. ولعلّ إكثاره من التأليف أغفله عن المراجعة.

تتلمذ له واستفاد من علمه الكثير من حفاظ القرن الرابع بخراسان منهم: أحمد بن عبد الله أبو نعيم الاصبهاني (ت 430هـ) الحافظ صاحب التصانيف، وابن مندة أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى الاصبهاني (ت 395هـ) وقد روى عنه أبو الشيخ، وأبو سعد الماليني أحمد بن محمد بن أحمد الهروي الحافظ ويعرف بطاووس الفقراء (ت 412هـ)، وأبو بكر أحمد بن عبد الرحمٰن بن أحمد بن محمد الفارسي الشيرازي (ت 411هـ). وأبو بكر بن مردويه أحمد بن موسى الأصبهاني صاحب التفسير، والتاريخ (ت 410هـ).

كانت حياته مثالا لما يجب أن يكون عليه الانسان علما وعملا وصلاحا وتنسّكا. توفّي في سلخ المحرّم سنة 369هـ عن ست وتسعين 96 سنة [أبو نعيم، أخبار اصبهان، 2/ 90].

يذكر ابن حيّان في مصاف كبار شيوخ الحديث في مصره وعصره، لقبه الذهبي بحافظ اصبهان ومسند زمانه الإمام [تذكرة، 3/ 945]، وأورده في المعين في طبقات المحدّثين [ص 171] وترجم له في تذكرة الحفاظ.

وأهمّ نشاطاته العلمية التدريس والتأليف، فهو أحد كبار المسندين في عصره الذين علا بهم الاسناد، وتخرّجت عليهم أجيال من الطلبة، وشدّ إليهم الرحال. وكان يفيد عن الشيوخ ويصنّف لهم ويكتبون بانتقائه ستين (60) سنة [أبو نعيم، أخبار اصبهان، 2/ 90]، وله مراسلات علمية مع معاصريه يجيبهم فيها عن مراجعاتهم له [السهمي، تاريخ جرجان، 322 ـ 323، 400].

كان يشتغل أكثر وقته بالتأليف، وهو معان عليه، ويكتب كل يوم حزمة كاغد، وساعده على ذلك عمله في الوراقة [الذهبي، سير، 12/ 370]، وكلّ الذين ترجموا له نوّهوا بإكثاره من التصنيف، واشتهرت كتبه في أوساط العلماء [الذهبي، تذكرة، 3/ 946].

وتركّزت بحوثه في ثلاثة محاور كبرى هي:

ـ الرواية: وقد ألّف كثيرا في هذا الشأن [ابن العماد، شذرات، 3/ 69]، وأهمّ الموضوعات التي اعتنى بها وتوسّع فيها في الرواية الأحكام خاصّة، وأغلبها يتعلّق بالعبادات، وأضاف إليها أبوابا في الأدب والشمائل، وكذلك أحاديث الشيوخ وروايات الأقران.

ولمؤلفاته في الحديث أهمّيتها الملحوظة اليوم في دوائر التخريج والتصحيح والتضعيف زيادة على أنّها توسّع نسبيّا دائرة الرواية في مسائل الفقه والدين المختلفة، وله روايات تلقّاها عن شيوخه بأسانيده المستقلّة.

ـ الرجال: ألّف في طبقات المحدّثين، وفي تراجم العلماء، ومع أنّ بحوثه هذه قد اكتست طابعا محلّيا لاقتصارها على مدينة أصبهان، إلّا أنّها كثيرة الفائدة باعتبار المكانة المتميّزة لهذه المدينة كقطب علمي كان له دوره البارز في خدمة الاسناد وتاريخ الحديث وتراجم الرواة. وقد استفادت دراسات علم الرجال اللاحقة من مؤلفاته في هذه النواحي كما هو ملاحظ في كتاب الإصابة لابن حجر [1/ 172، 305؛ 2/ 225، 817، 1259، 4/ 67]. وكذلك في كتاب لسان الميزان له، وتاريخ جرجان للسّهمي.

ـ التفسير: حدد تلميذه أبو نعيم دائرة تأليفه بأنه صنف الأحكام والتفسير والشيوخ [أخبار أصبهان، 2/ 90]، وهو يعد من القراء والمفسّرين وقد ترجم له ابن الجزري في طبقاته [1/ 447]، والداوودي في طبقات المفسّرين [172 ـ 173]. ولم يصلنا تفسيره وذكره ابن حجر في الإصابة [1/ 172] وعدّه حاجي خليفة من التفاسير بالمأثور وروى فيه عن ابن عباس من طريق الضحاك بن مزاحم الكوفي (ت 102هـ) وهي طريق ضعيفة لانقطاعها [كشف الظنون، 1/ 429 ـ 430].

آثاره

توصف بالكثرة، وفيها المبسوط في أجزاء، ولكن أكثرها رسائل اطّلع الذهبي (ت 748 هـ) على الكثير منها [تذكرة، 3/ 947]. ويغلب عليها الجمع والرواية. وأهمّ ما وصلنا منها يتعلّق بالتراجم والشمائل:

1 ـ طبقات المحدثين بأصبهان، تح. عبد الغفور البلوشي، ونشرته مؤسسة الرسالة ببيروت، ط 1، 1407هـ؛ 2 ـ كتاب الأمثال النبويّة، تح. عبد العلي عبد الحميد حامد، ط 1، الدار السلفية بومباي الهند، 1402 هـ، ط 2، بنفس الدار سنة 1408 هـ/ 1987م؛ 3 ـ أخلاق النبيّ وآدابه، تح. السيد الجميلي، ونشرته دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1406هـ/ 1986م؛ 4 ـ كتاب العظمة، أو عظمة الله ومخلوقاته، منه عدّة مخطوطات بمدن مختلفة، برلين 6159، 37 ورقة، 1149هـ، باريس 4605، 35 ورقة، 1052هـ [سزكين، 1/ 404 ـ 405]، وقد طبع الكتاب أخيرا؛ 5 ـ ذكر الأقران وروایاتهم عن بعضهم بعضًا، مخطوطته في الظاهرية، مجموع 53 (1أ ـ 6ب) القرن 7هـ [سزكين، 1/ 405]؛ 6 ـ العوالي، نسخته في القاهرة، دار الكتب المصرية، ثان 1/ 107، حديث 1559 (من 10 أ ـ 14 أ) القرن الثامن الهجري [سزكين، 1/ 406]. ونقل عنه الألباني في الضعيفة، 2/ 60، 3/ 469، 587، 4/ 267؛ 7 ـ جزء أحاديث، اختاره تلميذه أبو بكر أحمد بن مردويه يوجد بالظاهريّة، مجموع 80 (61أ ـ 68أ) سنة 784هـ، نقل عنه الألباني في السلسلة الضعيفة، 1/ 595، 2/ 70؛ 8 ـ النوادر والنتف، يضمّ أقوال الصحابة، الظاهريّة، مجموع 20 (187 أ ـ 193 أ)، القرن 6 هـ،

القاهرة، ملحق 3/ 181 ـ 182، رقم 3550 ج؛ 9 ـ كتاب التوبيخ، ذكره حاجي خليفة [كشف الظنون، 2/ 1406]، نقل عنه الألباني في السلسلة الصحيحة، مجلّد 2، ص 596، ومجلّد 6، قسم أول، ص 357، 450، مجلّد 6، قسم 2، ص 835، 836؛ 10 ـ الفوائد، منه نسخة في الظاهرية وعنها صورة في مكتبة الجامعة الاسلامية بالمدينة رقم 546، و5052 ف، ونقل عنه الألباني في الضعيفة، 5/ 63؛ 11 ـ ثواب الأعمال، عرضه على الطبراني فاستحسنه، وهو في خمسة مجلّدات [الذهبي، سير، 12/ 370] نقل عنه الألباني في الضعيفة، 5/ 399؛ 12 ـ كتاب السنة، منه نسخة في دار الكتب المصرية رقم 25600 ب في 16 صفحة، سنة 1351 هـ، ونسخة أخرى في الظاهرية رقم 3637، في 12 ورقة ضمن مجموع 56 ـ 65 وهي بخطّ الضياء المقدسي [نجم خلف، استدراكات، ص519]؛ 13 ـ كتاب الضحايا، ذكره الألباني في الضعيفة، 2/ 15، وسمّاه الكتاني في الرسالة، ص36، الضحايا والعقيقة؛ 14 ـ آخر مجلس من حديث أبي الشيخ، رواه أبو الفضل الهمداني، نقل عنه الألباني في الضعيفة، 2/ 123 ونسخته بالظاهرية وعنها صورة محفوظة في الجامعة الاسلامية بالمدينة رقم 1512 [نجم خلف، استدراكات، ص 519]؛ 15 ـ تاريخ أصبهان، ذكره ابن حجر في الاصابة، 2/ 817، ونقل عنه الألباني في الضعيفة، 2/ 53، 220، 3/ 622، 5/ 275، 443، وفي الصحيحة، 2/ 624، 3/ 74، وممّن ذكره أبو نعيم [أخبار أصبهان، 2/ 90] والذهبي [تذكرة الحفاظ، 3/ 946]؛ 16 ـ التفسير، ذكره ابن حجر في الاصابة، 1/ 172، وحاجي خليفة [الكشف، 1/ 429]، والكتاني [الرسالة، ص57]؛ 17 ـ جلود النمور، نقل منه البيهقي في سننه، 1/ 22، 3/ 77، وانظر نجم خلف، الصناعة الحديثيّة في سنن البيهقي [1/ 207]؛ 18 ـ أحاديث أبي الزبير محمد ابن مسلم الأسدي (ت 126 هـ) عن غير جابر ابن عبد الله، مخطوط بالظاهريّة، مجموع 53/ 3 (9 أ ـ 26 ب)، القرن السابع [سزكين، 1/ 404]؛ 19 ـ كتاب السنن، وهو في عدّة مجلّدات ومرتب على الأبواب الفقهيّة، اطلع منه الذهبي على كتابي الآذان، والفرائض [سير، 12/ 370] وأورده ابن حجر في معجم مسموعاته [ق 32]، والسيوطي في جمع الجوامع، 1/ 1097، 2/ 804، وذكر منه الكتاني عدّة كتب أخرى هي: السبق والرمي، والقطع والسرقة، والمواقيت، والأموال، والفتن، والأدب [الرسالة المستطرفة، 35 ـ 37، 40]؛ 20 ـ الناسخ والمنسوخ، ذكره الكتاني في الرسالة أيضًا، ص 60؛ 21 ـ المستخرج على صحيح مسلم، اعتمد عليه ابن الصلاح في كتابه صيانة صحيح مسلم، ص 160، وذكره ابن العماد في شذراته، 3/ 69، ونجم خلف في استدراكاته على سزكين، ص 298.

المصادر والمراجع

● أبو نعيم، ذكر أخبار اصبهان، مطبعة بريل، ليدن 1934، 2/ 90؛ ● الذهبي، سير أعلام النبلاء، تح. العمروي، دار الفكر، بيروت 1996، 12/ 369، 371،

● تذكرة الحفاظ (له)، دار احياء التراث العربي، بيروت، 3/ 945 ـ 947؛ ● الداوودي، طبقات المفسّرين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1422هـ/ 2002، 172 ـ 173؛ ● ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، دار الكتب المصرية، ط 1، 1352هـ/ 1933م، 4/ 136؛ ● ابن العماد، شذرات الذهب، دار الفكر، بيروت، ط 1، 1399هـ/ 1979م، 3/ 69؛ ● الكتاني، الرسالة المستطرفة، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ص 29، 35 ـ 37، 39 ـ 40، 43، 57، 60.

د. محمد الناصر الزعايري
جامعة الزيتونة ـ تونس

ابن حيان القرطبي، أبو مروان حيان بن خلف

(377هـ/ 987م ـ 469هـ/ 1076م)

هو أبو مروان حيان بن خلف بن حسين ابن حيان القرطبي الأموي بالولاء، ينتهي نسبه إلى عبد الملك بن مروان.

ولد سنة 377هـ/ 987م، وتوفي لثلاث بقين من شهر ربيع الأول سنة 469هـ/ 30 أكتوبر 1076م بقرطبة، ودفن بمقرة الربض.

وكان من شيوخه الذين درس عليهم:

ـ والد خلف بن حسين الذي عاش 85 سنة. سمع عليه ما شهده من تقلبات الدول وتصاريف الأحوال، وكان من أهم شيوخه في التاريخ.

ـ أبو حفص عمر بن حسين بن نابل الأموي القرطبي (ت 401هـ). سمع عليه الحديث، وكان صدوقا ثقة عفيفا حافظا.

ـ أبو عمر أحمد بن عبد العزيز بن فرح المعروف بابن أبي الحُباب النحوي القرطبي (ت400هـ/ 1009م)، وهو حامل علم أبي علي القالي، وناشر ثقافته المشرقية، أخذ عنه علوم اللغة.

ـ أبو العلاء صاعد بن الحسن بن عيسى الربعي البغدادي (ت 417هـ/ 1026م)، أخذ عنه كتابه المسمى بالفصوص.

ـ أبو الوليد عبد الله بن يوسف المعروف بابن الفرضي صاحب تاريخ علماء الأندلس (ت 403هـ/ 1013م)، أخذ عنه علم التاريخ.

ـ المحدث النسابة أبو القاسم عبد الرحمٰن بن محمد بن أبي يزيد المصري، كان أديبا حافظا للحديث وللأسماء والأنساب والأشعار، رحل إلى مصر حيث توفي سنة (410هـ/ 1019م)، أخذ عنه الحديث واللغة والأدب.

كان ابن حيان متضلعا في اللغة حتى أنه روى ليعقوب بن السكيت كتاب الألفاظ، وإصلاح المنطق.

وكان له اطلاع واسع على الجغرافيا في مؤلفه التاريخي، وهو الشيخ أبي عبيد البكري (ت 487هـ/ 1094م) أحد أكبر الجغرافيين المسلمين في العصور الوسطى.

إن هذا التكوين المتين في علوم مختلفة ومتنوعة جعل المترجمين يعتبرون ابن حيان حامل لواء التاريخ في الأندلس. فقد قال عنه الحميدي: «له حظ وافر من العلم والبيان وصدق الإيراد» [جذوة المقتبس]. وقال عنه ابن خلكان: «ذكره أبو علي الغساني فقال: كان عالي السن، قوي المعرفة، متبحّرا في الآداب، بارعا فيها، صاحب لواء التاريخ بالأندلس، أفصح الناس فيه وأحسنهم نظما له» [وفيات الأعيان].

عاش أحداثا تاريخية غنية، سجلها في مؤلفاته، ويمكن تقسيم حياته إلى ثلاث مراحل:

الأولى (377هـ/ 987م - 422هـ/ 1030م): كان والده أثناءها كاتبا للمنصور، وفي ظل صحابة عبد الملك بن المظفر الذي خلف المنصور سنة 392هـ.

الثانية (422هـ/ 1030م - 462هـ/ 1069م): عاشها في ظل بني جهور، فقد عاد الأمن إلى قرطبة مع أبي الحزم جهور بن محمد (ت 435هـ/ 1035م)، ثم مع ابنه أبي الوليد ابن جهور. وقد انتهى الأمر إلى احتلال المعتمد بن عباد قرطبة. وبنهاية هذه الفترة تنتهي أخبار ابن حيان والمعلومات عنه.

الثالثة (462هـ/ 1069م - 469هـ/ 1076م): عاش هذه المرحلة من حياته آمنا بداره في قرطبة إلى حين وفاته سنة 469هـ/ 1076م.

ولعل مواكبته لهذه الأحداث، وسعة اطلاعه على الكتب هما اللذان صرفاه عن الاستكثار من الرواية عن الشيوخ، وعدم التوسع في عرض الأسانيد والروايات.

ومن أشهر تلامذته حسب ما ذكر الدكتور محمد علي مكي في مقدمة تحقيقه للمقتبس:

- طاهر بن مفوز المعافري الشاطبي (427هـ/ 1035م - 484هـ/ 1091م).

- أحمد بن سليمان بن خلف الباجي المتوفى سنة 493هـ/ 1099م، وهو ابن الفقيه المشهور أبو الوليد الباجي.

- مالك بن عبد الله العتبي السهلي (437هـ/ 1045م - 507هـ/ 1113م)، روى عنه كتاب «الألفاظ».

- عبد الله بن محمد بن درى التجيبي الركلي المتوفى سنة 513هـ/ 1119م.

- عبد الرحمن بن محمد بن عتاب (433هـ/ 1041م - 520هـ/ 1126م)، أخذ عنه كتاب «الفصوص» وأجاز له روايته عنه.

- أبو الوليد بن عبد الله بن طريف بن سعد المتوفى سنة 520هـ/ 1126م، روى عنه تاريخه.

- أبو علي الغساني حسين بن محمد المعروف بالجياني (427هـ/ 1035م - 498هـ/ 1104م)، أخذ عنه الحديث واللغة والتاريخ.

- أبو عبيد البكري المتوفى سنة 478هـ/ 1085م، وهو صاحب كتاب «المسالك والممالك» من أشهر كتب الجغرافيا بالأندلس.

وأهم كتب ابن حيان هو كتابه في التاريخ «المقتبس في أخبار الأندلس» في عشرة أجزاء، تناول فيها تاريخ الفتح الإسلامي إلى آخر حكم المستنصر، أي من 91هـ/ 711م إلى 366هـ/ 976م. لكن لم يصلنا منها إلا أربعة أجزاء. ومن أهم مصادره فيه، زيادة على معارفه ومروياته ومشاهداته، كتابان هما: كتاب أخبار ملوك الأندلس، وكتاب الاستيعاب لأنساب أهل الأندلس للمؤرخ أحمد بن محمد الرازي (ت 344هـ/ 956م)، والكتابان اليوم مفقودان.

وهذا المصنف يختلف عن كتابه الثاني «المتين»، لأنه إذا كان قد اعتمد في الأول على المدونات التاريخية لتأريخه الفترات السابقة، اعتمد في الثاني على الرواية الشفوية لأنه سجل فيه التاريخ المعاصر له الذي عاشه وتلاحقت أحداثه بين يديه.

وقد استفاد ابن حيان من مناهج المؤرخين السابقين، منها: منهج الحوليات بحيث تناول الدول وأخبارها، ثم يعقبه بأحكام عامة على شخصية الخليفة وسيرته وأخلاقه، ويترجم لرجالات دولته من حجاب ووزراء، ويعرض أخبارا عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية للبلاد.

وكثيرا ما يذيّل ذلك بذكر الوفيات على ترتيب السنين.

ويلخص محمود علي مكي في تحقيقه للمقتبس أهم خصائص الكتابة عند ابن حيان فيما يلي:

- الاستبلاغ في الدقة في الأخبار والتواريخ.
- بروز شخصيته في أسلوب كتابته وفي نقده للمنقول والروايات التي يوردها ونبذه للأساطير والخرافات.
- التفصيل الواسع في الأخبار مع الإدراك الواعي لقيمة الأشياء الدقيقة والصغيرة.
- عقد مقارنات بين تاريخي المشرق والأندلس.
- النزاهة والصدق والتجرد من الهوى.
- أسلوبه المرسل الرصين البعيد عن أسلوب العصر المثقل بالمحسنات البديعية اللفظية.

آثاره

1 - المقتبس في أخبار بلد الأندلس، طبع منه إلى حد الآن:

أ - المقتبس من أنباء أهل الأندلس:

حققه وقدم له وعلق عليه محمود علي مكي، ط. دار الكتاب العربي، بيروت 1973، يبدأ بسنة 232هـ/ 846م وينتهي بسنة 267هـ/ 880م. وتشتمل هذه الطبعة على 859 صفحة من القطع المتوسط موزعة على دراسة عن الكتاب وصاحبه ومنهجه في التأليف ونص الكتاب المحقق والتعليقات والحواشي والفهارس العامة.

ب - المقتبس في تاريخ الأندلس:

تح. وشرح وتعليق إسماعيل العربي. منشورات دارالآفاق الجديدة، المغرب، 1990، ط1.

وهو يتضمن عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن من سنة 275هـ/ 888م إلى 300هـ/ 912م. ويشتمل على 190 صفحة من القطع المتوسط تضم المقدمة والنص المحقق والفهارس.

ج ـ المقتبس:

وهو الجزء الخامس نشره ب. شالميتا بالتعاون مع ف. كورينطي، وم. صبح، منشورات المعهد الإسباني العربي للثقافة، كلية الآداب الرباط ـ مدريد 1979. أرخ فيه للفترة بين 300 و330هـ/ 912و941م. ويشتمل الكتاب على 599 صفحة من القطع المتوسط تضم النص المحقق والفهارس ومقدمة باللغة الإسبانية؛

2 ـ المتين أو (المبين) في تاريخ الأندلس، وصفه ابن سعيد في رسالته في فضل الأندلس، وذكر أنه في ستين مجلدا تحدث فيه عن أخبار عصره. يؤرخ فيه لـ 64 سنة من حياة الأندلس المعاصرة لابن حيان: (399هـ/ 1008م ـ 463هـ/ 1070م).

وقد ضاع كتاب «المتين» ووصلتنا بعض النقول منه في كتب: الذخيرة، والبيان المغرب، وكتب ابن الأبار، والمغرب لابن سعيد، والصلة، وترتيب المدارك؛ 3 ـ تراجم الصحابة، وجد منه الجزء الثالث؛ 4 ـ أخبار الدولة العامرية منذ تولى هشام المؤيد الخلافة، حتى ثورة المهدي ومصرع عبد الرحمن سنجول بن المنصور (366هـ/ 976م ـ 399هـ/ 1008م)؛ 5 ـ البطشة الكبرى، في موضوع دخول المعتمد بن عباد قرطبة، وخطابة منابرها باسمه: (21 شعبان462هـ/ غرة يونيو1070م).

ويشير محمود علي مكي إلى عناوين مؤلفات منسوبة إليه هي: 6 ـ تاريخ فقهاء قرطبة؛ 7 ـ أخبار القضاة؛ 8 ـ تهذيب تاريخ ابن عفيف؛ 9 ـ الجمع بين كتابي القبشي وابن عفيف.

وفي اعتقاده أنها ليست كتبا مستقلة بذاتها، وإنما هي فصول من كتبه التاريخية المعروفة.

المصادر والمراجع

● ابن حيان، حيان بن خلف، المقتبس من أبناء الأندلس، تح. محمود علي مكي، ط. بيروت 1393هـ/ 1973م؛ ● الحميدي، عبد الله محمد، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تح. محمد بن تاويت الطنجي، ط. القاهرة 1952؛ ● ابن بشكوال، كتاب الصلة، ط. مصر، 1966 القسم الأول؛ ● ابن خلكان، أبو العباس أحمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح. إحسان عباس، ط. دار الثقافة، بيروت؛ ● فروخ، عمر، تاريخ الأدب العربي، (الأدب في المغرب والأندلس إلى آخر عصر ملوك الطوائف)، دار العلم للملايين، بيروت 1981، 4/ 615 ـ 618؛ ● دائرة المعارف الإسلامية، ط. جديدة؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت 1989، ط 8.

د. حسن جلاب
كلية اللغة العربية
مراكش ـ المغرب

ابن حي الله، محمد الخضر بن حبيب الله

(1280هـ/1863م ـ 1344هـ/1925 أو 1926م)

هو الفقيه اللغوي الشاعر محمد الخضر ابن حبيب الله (حي الله) بن محمود اليعقوبي الموريتاني. ولد في بيت علم بشمال غرب موريتانيا (منطقة تيرس)، وعاش حياته بين تلك المنطقة ومنطقة الترارزة في جنوب غرب البلاد. حفظ القرآن الكريم وتلقى مبادئ العلوم الشرعية واللغوية في بيت أسرته، ثم قرأ المتون المألوفة في العلوم الشرعية واللغوية على بعض مشاهير علماء المنطقة، منهم: أحمد يعقوب بن محمد اليعقوبي (ت 1303هـ)، ومحمد مولود بن أحمد فال اليعقوبي (ت 1323هـ)، ومحمد عال بن سيدي بن سعيد الحربلي (ت 1310هـ). وكان ذكيا سريع الحفظ والاستيعاب، فصار من حُفّاظ عصره، مشاركا في جميع العلوم المتداولة في بيئته، معروفا بالتفنن والتحرير.

وكان شاعرا معظم شعره في الفوائد العلمية، وفي الثناء على الأعلام ورثائهم، فقد رثى شيخه أحمد يعقوب بست عشرة قصيدة موزّعة على البحور الستة عشر، [بنت أحمد يعقوب، تح. جزء من تشريع الجوازي، ص 7].

ويقال إنّه كان زاهدا ميّالا إلى العزلة، ولكن ذلك لم يمنعه من بناء علاقات علمية مع معاصريه، فقد زار قرية أبي تلميت واطّلع على مكتبة أهل الشيخ سيديا، وحاور باب بن الشيخ سيديا (ت 1342هـ)، ويقال إن بابا أعجب بعلمه حتى أنه طلب منه الإقامة معه للتدريس في حاضرتهم.

وربما يكون موقفه من التصوف الطُّرقي عامل تقارب بينه وبين باب بن الشيخ سيديا. فقد كان محمد الخضر ينتقد بعض ممارسات المتصوفة، وخاض تحت إشراف إمارة الترارزة مناظرات مع أحد أقطاب التصوف في البلد هو الشيخ محمد عبد الحي بن سيد أحمد بن الصبار المجلسي (ت 1344هـ) ولكنه تخلّى عن سجاله مع رجال التصوف منذ التقى الشيخ أحمد بنب (ت 1340هـ)، وهو من أشهر رجال التصوف في السنغال، فأعجب به إعجابا كبيرا وقال:

ولما لقيت الشيخ احمد برهة
نفضت يميني من غبار المشايخ

وتكررت زياراته لذلك الشيخ في السنغال، ونسخ له نظم الشيخ محمد المام (ت 1282هـ) لمختصر خليل، ووصفه في ختام النسخة بأنه شيخ الإسلام والمسلمين [محمد الأمين بن حمود، تح. مقدمة مفاد الطول، ص 8].

وربما يكون الهروب من الشهرة وراء إقامته في شبه عزلة قرب موقع قرية (تكندَ) في منتصف الطريق بين روصو ونواكشوط حيث بقي معظم وقته معتكفا مع كتبه وتلاميذه حتى توفي سنة 1344هـ/ 1925 ـ 1926م، وقيل

سنة 1346هـ/ 1927 ـ 1928م [ابن حامد، الحياة الثقافية، ص 342].

ويبدو أنه كان شديد النزوع في آثاره العلمية إلى الاختصار فهو يستغني عن العناصر التي تستقيم إفادة الجملة دونها. كأنه يزن كلامه. ولذا أكثر من الاختصارات والرموز [مفاد الطول، ص 13 ـ 15]، وهو مع ذلك شديد الولع بالاستطراد وتوسيع مجال الإفادة وتنويعه. ففي أهم مؤلفاته «مفاد الطول والقصر على شرح نظم المختصر» تناول بالشرح نظم الشيخ محمد المامي بن البخاري (ت 1282هـ) لمختصر خليل بن إسحاق (ت 769هـ) في الفقه المالكي، ويبلغ النظم المشروح نحو عشرة آلاف بيت. أما الشرح، وهو مازال مخطوطا، فيتكون من أربعة مجلدات ضخام، قال في بدايتها: «أما بعد، فقد أشار إليّ بعض أماثل عصرهم ممّن أخذت عنهم وغيرهم أن أفُضّ ختام نظم البحر الطامي والبدر السامي الشيخ محمد المام شرحا يبين مجمله ويحلّ مشكله، ويظهر مكون تهذيبه إذ يحرر مضمون تركيبه، ويبدي ما خفي من إعرابه [المفاد، ص 11]. وحدّد تاريخ شروعه في الشرح سنة 1310هـ، وأشار في سياق ذكر العوائق إلى إحساسه بالحرج من السير وحيدا في سبيل لم تمهّد، وتحدّث تواضعا عن قصوره العلمي، وذكر اعتلال صحته وقلة المعين في زمن قلّ فيه العلماء وشاع الجهل حتى كاد الناس أن يفخروا بجهلهم. وتمثل في ذلك بطائفة وافرة من الأشعار وذكر أنه يسعى إلى إنجاز شرح متوسط «لا مفرط ممل ولا مفرط مخل»، ولم يكتف بشرح غامض النظم وإظهار مكنونه، بل حفل الشرح فضلا عن ذلك بالتنبيهات، والطرف والفوائد في مجالات معرفية متنوّعة، تشمل العلوم الشرعيّة واللغويّة وغيرها؛ فتحدّث في إحدى الفوائد عن طبقات الشعراء وقال إنها أربع طبقات: جاهليون، ومخضرمون، ومتقدمون (إسلاميون)، ومحدثون. وأشار إلى إشكالية الاستشهاد بشعرهم.

وعندما تحدث عن خصال الناظم وصفه بالصبر، وقال إن الصبر مرجع كل فضيلة، وذكر أنه ورد في القرآن 95 مرة، ثم أورد مجموعة من الأحاديث والأشعار في الإشادة بالصبر، وذكر في نادرة أخرى أن أدلة المذهب المالكي ستة عشرة منها: نص القرآن وظاهره وعمومه، ومفهومه بالموافقة أو بالمخالفة، ومثل ذلك من السنة... إلخ.

وتحدث في إحدى الفوائد عن الأغذية والأعمال المساعدة في جودة الفهم والحفظ، [تح. مقدمة المفاد، ص 11].

وتتجلى طريقته من خلال كتابه الثاني «تشريع الجوازي في نظيم نظم المغازي»، فقد وصفه في المقدمة بأنه صغير قيده، كبير فيده، وعرفه بأنه كشف موجز لرجز أحمد البدوي (ت 1208هـ) في الغزوات، وأنه ممزوج بالنظم كماء في لبن، وكمجرى الروح من البدن، وأنه إضافة إلى توضيح مغزى النظم ـ «يسوق من الفن زيادات لائق سوقها ومن سائر الفنون مطائب يحلو ذوقها» وقال: إن الشرح تضمن فوائد في علوم القرآن والسنة والعقائد واللغة والأدب، ثم تابع قائلا: «وفيه مخدرات من وقتيات الفروع والاستطراد من عادة العرب، وفيهم وبكلامهم صنف هذا

الموضوع». [تح. جزء من تشريع الجوازي، ص 12]. ثم شرع في شرح النظم متتبعا ألفاظ الناظم بالضبط والتوضيح، ويحدّد تاريخ الغزوة ومدلول الاسم الذي عرفت به، ويذكر عدد المسلمين المشاركين فيها مع تعيين حامل اللواء والمستخلف على المدينة، ويتحدث عن نتائجها وما جرى خلالها من أحداث، وقد يذكر آيات وأحاديث وأحكاما تتعلق بذلك. وكان يورد في ثنايا الشرح أشعارا وفوائد ونوادر كثيرة ومتنوعة.

ولا ينحصر عطاؤه العلمي في الكتابين المذكورين فقد ترك فتاوي وأشعارا كثيرة ومتنوعة، ويؤكد ثراء المضمون وقوة الصياغة في الكتابين، وكثرة المصادر المستخدمة فيهما وتنوّعها، سعة اطلاع الرجل وغزارة علمه في المجالات الشرعية واللغوية وربما يكون ميله إلى الاختصار وإلى الرمز والإغراب أحيانا ضيّق دائرة المستفيدين من كتابته.

آثاره

1 ـ مفاد الطول والقصر على نظم المختصر، شرح لنظم الشيخ محمد المام لمختصر خليل في أربعة مجلدات ضخام، مازال مخطوطا توجد منه أجزاء في مكتبات ذويه، وقد يوجد كاملا في بعضها؛ 2 ـ تشريع الجوازي في نظيم نظم المغازي، شرح لنظم الغزوات لأحمد البدوي بن محمد المجلسي (ت 1208هـ)، وهو مخطوط في نحو 200 ص توجد منه عدة نسخ لدى ذويه؛ 3 ـ فتاوي ورسائل (مخ.)؛ 4 ـ أشعار كثيرة لم تجمع بعد، أورد منها نصوصا وأبياتا متفرقة في كتبه. والراجح أن أغلبها يوجد مفرقا في كنانيش ذويه.

المصادر والمراجع

● مسكه محمد ولد أحمد، ترجمة الشيخ محمد المام (مخ.)، ص 6، 8، 33، 81؛ ● النحوي، الخليل، بلاد شنقيط المنارة والرباط، تونس 1987؛ ● ابن حامد، المختار، حياة موريتانيا، (الحياة الثقافية) تونس، 1990، 2/ 342؛ ● ولد حمود، محمد الأمين، تح. مقدمة مفاد الطول والقصر على نظم المختصر، بحث لنيل الإجازة في التاريخ من كلية الآداب بجامعة نواكشوط، 1997، ص 8 ـ 9؛ ● أم المؤمنين بنت أحمد يعقوب، مقدمة تح. جزء من تشريع الجوازي في نظيم نظم المغازي، بحث لنيل الإجازة في التاريخ من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط، 2001، ص 4 ـ 8.

د. أحمد سالم ولد محمدو
جامعة نواكشوط ـ موريتانيا

ابنُ حي التجيبي، الحسن بن محمد بن الحسين

(ت 456هـ/1063م)

الحسن بن محمد بن الحسين بن حي التجيبي، ـ نسبة إلى تجيب وهي بطن من كندة إحدى القبائل القحطانية التي دخلت الأندلس ـ القرطبي، اشتهر باسم ابن حي، وسمي القرطبي لأنه من أهل قرطبة، وهو أديب، وفلكي، ومهندس.

ولد ابنُ حي التجيبي في مدينة قرطبة الأندلسية، لا يعرف بالضبط متى ولد، ونشأ في بيئة علمية، وتلقى العلم على أيدي كبار العلماء في عصره منهم: أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرماني (ت 458هـ) أحد الراسخين في علم الهندسة والعدد، والذي تحدّث عنه فيما بعد ابن حي التجيبي بقوله: «إنه مالقي لا أحد يجاريه في علم الهندسة ـ في قرطبة ـ ولا يشق غباره في فك غامضها وتبيّن مشكلها، واستيفاء أجزائها». كما أخذ ابن حي التجيبي علم الحساب والفلك والهندسة على أبي عبد الله بن عمر بن محمد المعروف بابن برغوث الرياضي الفلكي الشهير (ت 444هـ).

صعبت الحياة على ابن حي التجيبي في الأندلس، فاضطرّ إلى الخروج منها إلى مصر في سنة 442هـ، واستقرّ فيها ردحا من الزمن يعلم كل من علمي الفلك والرياضيات هناك، ولكنه ما لبث أن غادر القاهرة قاصدا اليمن، واتصل بأمير اليمن الصليحي، فحظي الأمير به، وقربه منه لعلمه وأدبه ولحضور بديهته وتوقّد ذهنه، فصار التجيبي من المسؤولين عن سير أمور الدولة هناك. وأرسله أمير اليمن ببعثة إلى أمير المؤمنين القائم بأمر الله الخليفة العباسي ببغداد في هيئة فخمة، فقابله الخليفة أحسن استقبال، وأوسع له بالعطاء، فنال في بغداد دنيا عريضة.

اشتهر ابن حي التجيبي بمقدرة نادرة النظير على التعبير نثرا وشعرا، لذا وضعه بعض المؤرّخين للعلوم في قائمة كبار الأدباء الأوائل، ينقل ياقوت الحموي في كتابه «معجم الأدباء» نموذجا من شعره:

تحفّظْ من لسانك فهو عضْو
أشدُّ عليك من وقْع السِنان

فلا والله ما في الخلق خلق
أحقّ بطول سجْن من لسان

جراحاتُ السنان لها التئام
ولا يلتام ما جرح اللسان

وأصبح لابن حي التجيبي مكانة مرموقة في علم الفلك بين العلماء الكبار، فقد تمكّن من دراسة حركات الكواكب واستخراج تقويم ذا أهمية عظيمة، ويظهر ذلك في زيجه الذي ألفه على مذهب «السند هند» وسماه زيج مختصر على طريقة السند هند.

اهتمّ التجيبي اهتماما بالغا بعلم الهندسة لعلاقته الوطيدة بعلم الفلك، فركز على دراسة

أصول الهندسة لإقليدس. وأتقن علم الحساب وتفنّن فيه، ونظم شعرا مميّزا ذكره ياقوت الحموي بقوله:

تأمّل صورة الغَدِ
فمن نظر إليه هُدي
كما الأعداد راجعةٌ
وإن كثرت إلى الأحدِ
كذاك الخلقُ مرجعُهم
لربٍ واحدٍ صمدِ

وتوفّي ابن حي التجيبي في اليمن في سنة 456هـ.

■ آثاره

أشار صاعد الأندلسي في كتابه طبقات الأمم أنّ ابن حي التجيبي كان بصيرا بالهندسة والنجوم كلفًا بصناعة التعديل: وهو علم يتعرّف منه كيفية تفاوت الليل والنهار وتداخل الساعات فيهما عند تفاوتها في الصيف والشتاء. وقد وضع ابن حي التجيبي كتابا سماه: زيج مختصر في صناعة التعديل على مذهب السند هند، في الهيئة.

■ المصادر والمراجع

● ابن أحمد، صاعد، طبقات الأمم، طبعة مصر، ص113 ـ 114؛ ● تيمور، أحمد، المهندسون في العصر الإسلامي، دار نهضة مصر، القاهرة، 1977، ص33؛ ● حميدان، زهير، أعلام الحضارة العربية الإسلامية، وزارة الثقافة، دمشق، 1996م، 5/ 150؛ ● دفاع، علي عبد الله، رواد علم الفلك في الحضارة العربية الإسلامية، دار البلاد، جدة، 1988م، ص92؛ ● طوقان، قدري، تراث العرب العلمي في الفلك والرياضيات، المقتطف، 1941م، ص175؛ ● كحالة، رضا، معجم المؤلّفين، دار إحياء التراث، بيروت، 4/ 48؛ ● المقري، نفح الطيب، تح. محيي الدي عبد الحميد، 9/ 266.

د. محمد هشام النعسان
معهد التراث العلمي
حلب ـ سوريا

■ ابن حَيّ، أبو عبد الله الحسن

(100هـ/718م ـ 168هـ/784م) ■ ■ ■

أبو عبد الله الحسن بن صالح بن حيّ (وقيل: حُيَيّ) وهو حيان بن شُفيّ بن هُنيّ بن رافع الهمداني الثوري الكوفي. أخو الإمام علي بن صالح.

قال البخاري: يقال حيّ لقب. وقد نسبه فقال: الحسن بن صالح بن صالح بن مسلم ابن حيّان [ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 2/ 285؛ الذهبي، سير أعلام

النبلاء، 7/ 274؛ كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، 3/ 231؛ الزركلي، خير الدين، الأعلام، 2/ 193؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 13/ 535].

أصله من ثغور همدان، ولد سنة مائة للهجرة، وتوفّي متخفّيا في الكوفة سنة ثمان وستّين ومائة. قال الطبري: كان اختفاؤه مع عيسى ابن زيد في موضع واحد سبع سنين [الزركلي، خير الدين، الأعلام، 2/ 193؛ ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 2/ 289؛ ابن النديم، الفهرست، ص227؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 7/ 275؛ ابن كثير، البداية والنهاية، 13/ ص535].

كان فقيها، مجتهدا، متكلّما، من علماء الشيعة وفقهائهم وعظمائهم، زعيما من زعماء الفرقة «البترية» الزيدية [الزركلي، خير الدين، الأعلام، 2/ 193؛ ابن النديم، الفهرست، ص227].

من أقران الإمام سفيان الثوري، ومن رجال الحديث الثقات، ومثل بعض كبار المحدّثين الثقات، كالإمام سفيان بن عُيينة، وغيره. وقد طعن فيه جماعة لما كان يراه من الخروج بالسيف على أئمّة الجور [الزركلي، خير الدين، الأعلام، 2/ 193؛ النديم، الفهرست، ص227].

كان له أخوان: أحدهما علي بن صالح، والآخر صالح بن صالح، وقد كانا على مذهب أخيهما الحسن [النديم، الفهرست، ص227].

وكان هو وأخوه علي توأمَيْن [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 7/ 282].

روى عن أبيه، وأبي اسحاق، وعمرو بن دينار، وعاصم الأحول، وعبد الله بن محمد ابن عقيل، وإسماعيل السُدّي، وعبد العزيز بن رفيع، ومحمد بن عمرو بن علقمة، وليث بن أبي سليم، ومنصور بن المعتمر، وسهيل بن أبي صالح، وسَلَمَة بن كُهَيْل، وسعيد بن أبي عروبة، وأبي إسحاق السبيعي، وعلي بن الأقمر، وسماك بن حرب، وبيان بن بَشْر، وعاصم بن بهدَلة، وبُكَيْر بن عامر، وقيس بن مسلم، وعطاء بن السائب، وغيرهم [ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 2/ 285؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 7/ 275].

وروى عنه ابن المبارك، وحميد بن عبد الرحمن الرواسي، والأسود بن عامر شاذان، ووكيع بن الجراح، وأبوه الجراح بن مليح، ويحيى بن آدم، وعبد الله بن داود الخُرَيْبي، وأبو أحمد الزبيري، وعبيد الله بن موسى، وأبو نُعَيْم، وطلق بن غنام، وقَبيصَة بن عُقْبة، وأحمد بن يونس، وعلي بن جعد آخر أصحابه، ومصعب بن المقدام، وخلق سواهم [ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 2/ 285؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 7/ 275].

اختلفت آراء بعض العلماء في سيرته ومناقبه، فمنهم من طعن في حفظه وضبطه، وربّما في عقيدته وإيمانه، وذلك لما فيه من مخالفة الجمهور، ومنهم من أثنى عليه وعدّله والتمس له العذر في بعض ما قاله وبعض ما تمذهب به. ونحن نورد في هذا السياق بعض تلك الآراء التي قيلت فيه، مع ترجيح ما ذهب إليه ابن حجر العسقلاني من أنّه ثقة وحافظ قد ثبتت عدالته وزُكيت سيرته. ونورد الآن بعض

الأقوال التي طعنت في سيرته، فقد قال يحيى القطان: كان الثوري سيىء الرأي فيه. وقال أبو نعيم: دخل الثوري يوم الجمعة فإذا الحسن بن صالح يصلي، فقال: نعوذ بالله من خشوع النفاق، وأخذ نعليه فتحوّل. كما نقل أبو نعيم عن الثوري: ابن حي يرى السيف على الأمّة. وقال ابن ادريس: ما لنا وابن حي لا يرى جمعة ولا جهادا. وقال بشر بن الحارث: كان زائدة يجلس في المسجد يحذّر الناس من ابن حي وأصحابه. قال: وكانوا يرون السيف [ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 2/ 285 ـ 286؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 7/ 276 ـ 278].

أما الأقوال التي أثنت عليه وأبرزت مناقبه ومحاسنه فهي كثيرة، وقد وردت في كثير من كتب السير والتراجم، فقد قال أحمد: حسن ثقة. وقال علي بن أبي الحسن الهسنجاني عن أحمد: الحسن بن صالح صحيح الرواية متفقّه صائن لنفسه في الحديث والورع. وقال عبد الله بن أحمد عن أبيه: الحسن أثبت في الحديث من شريك. وقال إبراهيم بن الجنيد عن يحيى بن معين: ثقة مأمون. وقال أبو زرعة: اجتمع فيه إتقان وفقه وعبادة وزهد. وقال أبو حاتم: ثقة حافظ متقن. وقال النسائي: ثقة. وقال عثمان الدارمي عن يحيى: الحسن وعلي ابنا صالح ثقتان مأمونان. وقال أبو نعيم: ما رأيت أحدا إلّا وقد غلط في شيء غير الحسن بن صالح. وقال أبو نعيم أيضًا: كتبت عن ثمانمائة محدث فما رأيت أفضل من الحسن بن صالح [ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 2/ 287؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 7/ 279].

وقال ابن حبان: كان الحسن بن صالح فقيها ورعا من المتقشفة الخشن وممّن تجرّد للعبادة ورفض الرياسة على تشيّع فيه [ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 2/ 288 ـ 289].

وقال ابن سعد: كان ناسكا عابدا فقيها حجة صحيح الحديث كثيره وكان متشيعا [ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 2/ 289].

كما كان خاشعا سريع الدمعة عند ذكر الموت، فقد قال يحيى بن بكير: قلنا للحسن ابن صالح: صِف لنا غسل الميت فما قدر عليه من البكاء [ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 2/ 287؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 7/ 279].

كان مقيما لليل ذاكرا ومصلّيا، فقد قال وكيع: كان الحسن وعلي ابنا صالح وأمّهما قد جزأوا الليل ثلاثة أجزاء، فكان كل واحد يقوم ثلثًا، فماتت أمهمافاقتسما الليل بينهما، ثم مات علي فقام الحسن الليل كلّه.

وقال أبو سليمان الداراني: ما رأيت أحدا الخوف أظهر على وجهه من الحسن قام ليلة بـ «عمَّ يتساءلون» فغشي عليه فلم يختمها إلى الفجر [ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 2/ 288؛ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 7/ 280 ـ 281].

وروي عن الحسن بن صالح أنه كان إذا نظر إلى المقبرة يصرخ، ويغشى عليه [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 7/ 281].

وقال حميد بن عبد الرحمٰن الرؤاسي: كنت عند ابنَيْ صالح، ورجل يقرأ ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ

﴿ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ﴾ [الأنبياء: 103]، فالتفت عليّ إلى أخيه الحسن، وقد اخضرّ واصفرَّ، فقال: إنها أفزاع فوق أفزاع، ورأيت الحسن أراد أن يصيح، ثم جمع ثوبه، فعضّ حتّى سكن عنه [الذهبي، سير أعلام النبلاء، 7/ 282].

وقد قال ابن حجر العسقلاني أنه لا ينبغي القدح في رجل قد ثبتت عدالته واشتهر بالحفظ والإتقان والورع التام. فرأيه المتعلّق بالخروج بالسيف على أئمّة الجور قد كان مذهبا قديما للسلف، لكن الأمر استقرّ فيما بعد على ترك ذلك لما رأوه قد أفضى إلى أشدّ وأخطر وأفسد منه، أما ما قيل في أنّه يخرج على الواحد ويترك الجمعة ففي جملة رأيه ذلك أن لا يصلي خلف إمام فاسق، ولا يصحح ولاية الإمام الفاسق، فهذا ما يعتذر به عن الحسن، وإن كان الصواب خلافه، فهو إمام مجتهد [ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، 2/ 288].

آثاره

1 ـ التوحيد؛ 2 ـ إمامة ولد عليّ بن فاطمة، الجامع في الفقه [كحالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، 3/ 231؛ الزركلي، خير الدين، الأعلام، 2/ 193؛ ابن النديم، الفهرست، ص22].

المصادر والمراجع

● العسقلاني، ابن حجر، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت 852هـ)، تهذيب التهذيب، دار صادر، بيروت، ط1، بمطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية الكائنة في الهند بمحروسة حيدر أباد الدكن سنة 1325هـ؛ ● الذهبي، شمس الدين، سير أعلام النبلاء، تح. محب الدين العَمْرَوي، دار الفكر، بيروت، لبنان 1417هـ/ 1997م؛ ● الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، طبعة عاشرة سبتمبر 1992م؛ ● ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء، البداية والنهاية، تح. الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، مصر 1419هـ/ 1998م؛ ● كحالة، عمر رضا، معجم المؤلّفين، مكتبة المثنى، بيروت، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان؛ ● النّديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب اسحاق المعروف بالوراق (ت 380هـ)، الفهرست في أخبار العلماء المُصنّفين من القدماء والمحدثين وأسماء كتبهم، تح. رضا تجدد، د.ت.

د. نور الدين مختار الخادمي
جامعة الزيتونة ـ تونس

حيدر، سليم نجيب بن سليم

(1330هـ/1911م - 1400هـ/1980م)

ولد في بعلبك (محافظة البقاع، لبنان) عام 1911م، والده هو نجيب بن سليم حيدر (؟ - 1949م) كان رجلًا مؤمنا تقيًا تعلّم في أحد كتاتيب بعلبك، وكان كثير المطالعة. أما والدته فهي ابنة عم أبيه، ساره الحاج سلامة حيدر (؟ - 1959م) وكانت امرأة صالحة مؤمنة. وقد قام الأتراك بنفيهما إلى الأناضول في العام 1916م.

تعلّم القرآن الكريم في الكتّاب عند شيخ القرية، وحفظ شعرًا للمعري، دون فهم المعاني، ودون إلمام بالقراءة. وقد ختم القرآن وهو ابن سبع سنوات.

عاد الفتى إلى بعلبك مع نهاية الحرب العالمية الأولى 1918م اثر عودة والديه من منفاهما. وما لبث أن انتسب إلى مدرسة كان يديرها ويعلّم فيها كُهّان، واستدعى والده شيخًا ليُعلّمه الفصحى وأصول اللغة والدين والتاريخ.

وقد تعلّم الفرنسية إلى جانب الموسيقى والعزف على آلات عدّة في مدرسة الآباء البيض، وبرز في المدرسة كخطيب ومتكلّم لجرأته.

وبعد ذلك (1929م) درس في الجامعة الوطنية في عاليه التي كان يديرها ويعلم اللغة العربية فيها مارون عبود (1886 - 1962م) وصار الفتى شاعر المعهد. ولكنّه أصيب بالسلّ، فنُصح بالراحة التامّة والغذاء، وتنشق الهواء الطلق، فعاد إلى بعلبك، ومكث فيها ثلاثة أشهر للشفاء. وبسبب تفوّقه في الدراسة منح الشهادة، دون فحص، وأشاد به المدير يوم توزيع الشهادات.

وفي هذا العام 1929م زار بعلبك الشاعران حافظ ابراهيم وخليل مطران، فرحّب بهما سليم حيدر بقصيدة عارض فيها قصيدة شاعر النيل «الأمتان تتصافحان»:

لمصر أم لربوع الشام تنتسب
هنا العُلى وهناك المجد والحسب

وقد تنبّأ حافظ له بمستقبل أدبي باهر.

في العام 1930م انتسب سليم حيدر إلى مدرسة اللاييك (البعثة العلمانية الفرنسية) في بيروت لدراسة الباكالوريا. وكانت الدراسة شاقة ليس فيها متّسع من الوقت للهو. وقد برز فيها كخطيب وشاعر.

وبعد نيله الباكالوريا سافر إلى باريس لدراسة الحقوق. وعاش في باريس ستة أعوام نال خلالها الإجازة في الحقوق، والإجازة في الآداب 1934م ثم شهادة دبلوم في العلم الجنائي 1936م وشهادة الدكتوراه في الحقوق 1937م، وشهادة الدبلوم السياسية، وكان موضوع أطروحة الدكتوراه في الحقوق موضوعا حقوقيًا واجتماعيًا وأخلاقيًا في آن، وهو: «البغاء والتجارة بالنساء والأطفال» «La prostitution et la traite des femmes et des enfants».

وعند عودته إلى لبنان عُيّن قاضيا. وتقلّب في مناصب قضائية عدة بين عامي 1938 و1946م. بعدها نُقل إلى السلك الدبلوماسي وعيّن قائما بالأعمال في إيران. بعد ذلك، استدعى من السفارة وعيّن وزيرًا. وقد شغل هذا المنصب في ثلاث حكومات (1952 - 1954 - 1955). وفي العام 1958 أعيد إلى السلك الدبلوماسي، وعُيّن سفيرًا فوق العادة في المغرب العربي، وفي العام 1963 نقل وعيّن سفيرا فوق العادة ومطلق الصلاحية في الاتحاد السوفياتي.

وكان في العام 1953 فاز في الانتخابات النيابية نائبًا عن بعلبك.

وكانت وفاته على أثر ذبحة قلبية في 03/ 10/ 1980م. وأقيم له مأتم رسمي وشعبي. وبمناسبة الأربعين على وفاته أقيم له احتفال كبير في بلدته بدنايل، تعاقب على الكلام فيه رجال أدب ودين وسياسة.

حصّل سليم حيدر ثقافة واسعة اكتسبها من معرفته باللغات الفرنسية، والانكليزية، والروسية، والألمانية، واللاتينية، بالإضافة إلى العربية. ولقّبه بعض الأدباء من أصدقائه «بالشاعر الفيلسوف» [عبد الله العلايلي، وكمال يوسف الحاج].

وانضمّ إلى جمعية أهل القلم التي كانت تضمّ نخبة من رجال الفكر والأدب في لبنان. وكان يدعو الشعراء إلى منزله، وبخاصّة شعراء مجلّة الأديب، فيتحوّل منزله إلى صالون أدبي.

وحضر باسم لبنان كثيرًا من مؤتمرات الأدباء العرب وعقد صداقات مع أكثرهم.

وعندما كان وزيرًا للتربية، عُقد أوّل مؤتمر للأدباء العرب في لبنان (بيت مري). وقد شغله موضوع التربية في لبنان، فنبّه إلى مخاطر الوضع التربوي المأزوم في أكثر من محاضرة. وفي عهده بالوزارة الأولى تمّ إنشاء الجامعة اللبنانية 1952م، كما أقر مشروع قانون التفرّغ لأساتذتها يوم كان رئيسا للجنة التربية في مجلس النواب 1967م.

ويمتاز نثره كما شعره بمتانة السبك وعمق الأفكار، وبلاغة الأسلوب. وكتاباته النثرية وقصائده تشف عن ثقافة واسعة وشمولية، إلى سلاسة وسيرورة، وعمق في التفكير، وفي ما يأتي نموذج من نثره.

في محاضرته عن إنماء الثقافة في لبنان (الندوة اللبنانية) عرّف الثقافة بقوله:

«..الثقافة مستوى من العلم، من الرقي الفكري، يشترك في تكوينها العقل والروح والقلب، وللذوق فيها نصيب كبير. الثقافة صقلٌ، وذلك في نظري، ما يميّزها من العلم. كل مثقّف متعلّم ولا بعكس. السيف قاطع إذا أكل منه الجلخُ، ولكن الفِرند لا يلمع فيه إلا بعد صقله. والثقافة فرند العلم. العلم عقل، عقلٌ مجرّد، بيان واقع، منطق أسباب ونتائج، أو منطق علاقة بين الأشياء. الثقافة عقل وروح مزيجا وِفاقا.. عقل في خدمة الحقيقة وروح في خدمة الحق والكل في خدمة الإنسانية».

ومن نص له يحدد طبيعة الشعر يقول:

«..ولست أدري إلى أي حد يجوز للنثر أن يتناول الشعر فيلتمس أسراره ويُشرّحها للناس، ويبقى النثر نثرًا، ويبقى الناسُ غير

شعراء: فالشعر هيكل مسحورٌ لا يعي الصلاة فيه إلّا من صَفَتْ أرواحُهم. وسدنة هذا الهيكل ورواده ـ نقاد الشعر وقراؤه وسامعوه ـ لا يقع في نفوسهم سر من أسراره، إلّا أن تكون يدُ السحر قد مسحتْ أجفانهم فجلّت قلوبهم.

ليس الهيكل أثرًا بعد عين، خرائب قديمة تُزار سِراعًا في جولة سياحية عابرة. إنه معبدٌ للصلاة. ولا بد لولوجه من لُبس المُسوح والطواف بالبخور والتمتمة الضارعة. وعندما يعبق الهيكل، ويثقل جوُّه، وعندما تتضمّخ آردان المسوح، تتفتّح مسامُ النفوس وتنجلي آفاقها. إذ ذاك تلمع في خشوع الكاهن، ومضات سحرية خاطفة، وفي غمرة التجلّي الأخّاذة يتمّ الاتصال. ألم يكن العرب، في كعبة الجاهلية، يرتلون الشعر ترتيلًا؟» [سليم حيدر لعلي شلق، دار المشرق، ص 133 ـ 134].

ويرى الدكتور حيدر «أنّ الشعر الحديث الذي تجاهل معطيات اللغة العربية وأصولها الفنّية ولجأ إلى المعميات تغطية لعجزه وإيهامًا بأنه يبدع جديدًا ليس مكتوبًا له ـ في اعتقادي ـ لن يعيش طويلًا».

ولا يعترف بانتمائه إلى مدرسة شعرية معيّنة، فقد عزف على مختلف الأوتار، وعلى معظم أوزان الشعر، ما جعل شعره منوّع الأنغام والألحان.

يقول من ديوان «إشراق» واصفًا سنواته الخمس الأول:

خمسة بيض من الأعوام لا أنكر شيّا
ربّما أنكر أطيارًا وأشجارا وفيّا
وجهُ أمي كان مرآتي ووعيي وشعوري
وجهها الصافي كماء النبع يهتزّ رضيا

ومن ملحمة الخليقة التي أرخ فيها الكون منذ بدء النشوء وانبثاق الحياة، نقتبس هذا المقطع كشاهد على خصائص شعره المتميّز بسلاسة أسلوبه وعمق أفكاره وطابعها الفلسفي.

كان ما كان.. كيف كان الفضاءُ
قبل أن يدهم الفراغ امتلاءُ
كيف دار الوجود في العدم الخالي
وكيف استقامت الأشياء
في نظام مُستحكِمٍ مستقاء
ليس فيه خرقٌ ولا استثناء
أين كان المكان؟
أين الزمان المتمادي؟
وأين كان الضياء
والنواميس أين كانت؟
سؤال كيفما صيغ فالجوابُ عياءُ
عَدمًا كان فاستحال وجودًا
ايُّ أسٍ رسا فقام البناءُ

■ آثاره

لم تطبع كلّها بسبب انشغاله بالدبلوماسية سفيرًا، ثمّ بالسياسة نائبًا ووزيرًا.

أ ـ في النثر:

1 ـ مواقف حول السياسة، طبع في بيروت 1961م؛ 2 ـ آراء حول الشعر، مخطوطة، مجموعة محاضرات ألقاها في معهد الدراسات العربية بالقاهرة، تعرض فيها

لموضوع الشعر والتجربة الشعرية؛ 3 ـ محاضرات ومقالات وندوات ومناظرات حول قضايا السياسة والدين والفلسفة والقانون والاجتماع، مبثوثة في الصحف والمجلات اللبنانية والعربية والأجنبية؛ 4 ـ مجموعة دراسات حول التربية والأدب والنقد الأدبي واللغة والشعر ألقاها في مؤتمرات الأدباء العرب، مخطوطة.

ب ـ في الشعر:

5 ـ آفاق، ديوان شعر، دار المكشوف، بيروت 1946م، تنطوي قصائده على نزعة إنسانية ولاسيّما في وصف آلام اليتيم، 128 صفحة؛ 6 ـ ألسنة الزمان، مسرحية شعرية ونثرية، دار النشر للجامعيين بيروت 1956م، ذات فصل واحد، 87 صفحة، «مسرحية شبه فلسفية تدور حول حوار بين الماضي والحاضر والآتي في الزمان. وقد طرح الشاعر أسئلة محيّرة حول حقيقة الذات وتفسير الأحلام وسر اللانهايات ومصير الروح، عرض أفكاره وآراءه الكونية من خلال أشخاص اخترعهم. .»؛ 7 ـ يا نافخ الثورة البيضاء، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1971، قصيدتان طويلتان في الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، قدّم لهما الشاعران بولس سلامة وعمر أبو ريشة؛ 8 ـ العدالة، معلّقة شعرية، طبعت عام 1946م؛ 9 ـ الخليقة، ملحمة شعرية، بيروت الشركة العالمية للكتاب، 2001م، 351 صفحة. «نظمها حيدر في بناء كامل متسلسل الحلقات، يؤرّخ فيها الكون منذ بدء النشوء وانبثاق الحياة، راويًا الحوادث الكبرى في التاريخ منذ خلق آدم وحواء، وقتل قابيل هابيل، إلى طوفان نوح حتّى سقوط بابل». و«الملحمة خمسة فصول، كل فصل يحتوي ثمانية أناشيد وكل نشيد يتضمّن عدّة مقاطع، وجميع المقاطع متساوية في عدد أبياتها. عدد أبياتها 2740 بيتًا من الشعر الموزون المقفّى على بحر واحد هو الخفيف التام المتعدد القوافي مع مقدّمة وخاتمة شعريتين»؛ 10 ـ إشراق، قصيدة طويلة، مخطوطة يروي فيها سيرة حياته. وهذا الديوان آخر ما نظمه، لأنه يتحدّث فيه عن مرضه الأخير. وعدد أبيات الديوان 1504 بيتا من الشعر الموزون المقفى (مجزوء الرمل)؛ 11 ـ أشواق، ديوان شعر مخطوط؛ 12 ـ ألوان، ديوان شعر، مخطوط؛ 13 ـ أشجان، ديوان شعر، مخطوط، في الشعر الوطني والقومي؛ 14 ـ ألحان، ديوان شعر مخطوط.

المصادر والمراجع

● سليم حيدر، حياته وشعره، أطروحة دكتوراه من الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، بيروت 1990، أعدها همذان حسين سليمان، وأشرف عليها الدكتور أسامة عانوتي، ثمّ طبعت 1994 في بيروت، دار خضر؛ ● داغر، أسعد، مصادر الدراسة الأدبية، الطبعة الألفية 2000، ص 1361 ـ 1362؛ ● شلق، علي، شعراء لبنان (8)، سليم حيدر، بيروت، دار المشرق، 1994، ص 157؛ ● نصر الله، حسن عباس، تاريخ بعلبك، مؤسسة الوفاء، بيروت، طبعة أولى، 1984م؛● جبر، جميل، لبنان في روائع أقلامه، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، د.ط، د.ت، تاريخ

المقدّمة 1964م، 513 صفحة؛ ● محمد خير رمضان يوسف، تكملة معجم المؤلّفين، دار ابن حزم للطباعة والنشر، 1997م، ص215؛ ● الزركلي، إتمام الأعلام، ذيل لكتاب الأعلام، الدكتور نزار أباظة، محمد رياض المالح، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1999م، ص 113؛ ● د. خليل أحمد خليل، أعلام العرب المبدعين في القرن العشرين، بيروت، المؤسّسة العربية للدراسات والنشر، 2001 ـ 2003م؛ ● ميشال أسمر، محاضرات الندوة، السنة الثالثة، النشرة 1 ـ 2، 1949م، السنة الثامنة، النشرة الرابعة، 1954م.

د. نزيه كبارة
الجامعة اللبنانية ـ بيروت ـ لبنان

حيدر، محمد

(1348هـ/1929م ـ 1416هـ/1995م)

حين أصدر محمد حيدر مجموعته القصصية «العالم المسحور» عام 1962 لفت الأنظار إليه قاصًا مجددًا وحداثيًا يعنى بالمعنى المأساوي للحياة، ويلامس روح العصر، ويوغل بعيدًا في معاناة الفرد وتتبع مصيره وسط مشاعر القلق وفقدان الحرية والفرار الوجودي ومحاولة أن يجد المرء نفسه داخل الكرب والألم والغثيان وسواها من المشاعر التي أفرط الوجوديون في اقترانهم بها تعبيرًا عن رؤاهم الإنسانية والوجودية وهذه الأفكار والمصطلحات نفسها هي التي دارت دورانًا يكاد يكون مهنيًا على التجربة الأدبية العربية ولا سيما في سورية، أواخر خمسينات القرن العشرين وأوائل ستيناته بفعل التلقف السريع لمنتجات الغرب الثقافية إذ ارتبطت الوجودية لفترة ليست قصيرة بالتفكير القومي والأدبي معًا. وكان محمد حيدر من طلائع أولئك الأدباء الذين جعلوا تجربتهم صورة عن حساسيتهم المرهفة في رفض العقلانية وادعاء التمرد الأخلاقي، وفي الانخراط إلى ما لا نهاية في الاغتراب وإبداء المشاعر الحادة إزاء الآخر والذات ابتعادًا عن الواقع وحركة الحياة.

ولد محمد حيدر في السلمية (حماه) عام 1929، وحاز على شهادتي الدراسة الإعدادية والثانوية دراسة حرة، ونجح في مسابقة دار المعلمين العليا، وانتسب إلى جامعة دمشق، ونال منها الإجازة في الفلسفة، وحاز على شهادة أهلية التعليم الثانوي أيضًا. وعمل مدرسًا في درعا ما بين 1955 و1961، ونقل رئيسًا لقسم النصوص في التلفزيون العربي السوري خلال عامي 1962 و1963، ثم عاد إلى التدريس. وعين عام 1967 ملحقًا ثقافيًا في سفارة الجمهورية العربية السورية في ألمانيا الاتحادية، وتفرغ عام 1979 للعمل في أمانة الاتحاد العام للأدباء والكتّاب

العرب حتى عام 1986، وكلف أثناء ذلك بأمانة تحرير مجلة «الكاتب العربي»، ثم عاد إلى ألمانيا عام 1987، وتوفي فيها عام 1990.

أشار محمد حيدر إلى أسلوبيته القصصية منذ مجموعته الأولى «العالم المسحور» (1962) مستفيدًا من تقانات التحديث، ولا سيما اللاوعي وتعدد الأصوات إثراء للمنظور السردي بمعاينة التفاصيل الداخلية لدى الإنسان، وبلوغًا لمستوى مجازي في تحقق أغراض القصة، وتفصح القصة التي تحمل عنوان المجموعة عن معنى العالم المسحور في استغراق الراوي المتكلم حول تأزمه الذاتي، وهو يتذكر الوقائع الضاغطة والدالة على قسوة العيش حتى بدت دوامة الرؤيا في تأمل حاله أقرب إلى الدخول في العالم المسحور. وقد مال حيدر في سرده لتضاعيف المواجع على روحه ورقته إلى إطالة القص، إذ تقع القصة في ست عشرة صفحة، وتصف انغماسه بالخمر وفيض الآلام، ليختم القصة بالعبارة الموحية التالية:

«ولكن!! أصحيح أن هذه الصفحات هي الإعصار الذي أحرقني، وخلّفني كالرماد؟» [ص 32].

كان حيدر أمينًا لنزوعه الوجودي. لم يحفل بالنشر إلى مطلع الثمانينات عندما أصدر ثلاثة أعمال أدبية تتكامل في رؤيتها الفردية، ويتماهى التعبير فيها إلى حد مذهل فيصبح الكاتب بماضيه وهواجسه ومواقفه وتصريحاته وأفكاره المبهمة أو الغامضة مدار العمل الأدبي، وهذه الأعمال هي:

- «خلايا السرطان»، وهي رواية نشرت مسلسلة في صحيفة «الثورة»، دمشق خلال عام 1982.

- «مأساة المرأة المعاصرة: عن باربارا كايزر»، وهي قصيدة نثرية طبعت ضمن منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق عام 1985.

- «نجمة المساء»، وهي مجموعة قصصية ظهرت ضمن منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق عام 1989.

وصف محمد حيدر روايته أو قصته الطويلة «خلايا السرطان» أنها تقوم على الحركة الطبيعية للنفس وتستخدم الأسلوب كوسيلة تعبير والحق أننا لا نستطيع عرض هذا العمل الأدبي أو تلخيصه، فهو علاقات لفظية بالدرجة الأولى، ويفتقر للوقائع والأحداث؛ إنه سيولة لفظية يستعرض فيها الكاتب مشاعره ومواقفه، ومن محتوى الرواية: - ذكريات لحساب الأيام - مضغ المزيد من التفاهات - الشخصية الرئيسية طالب أو معلم - علاقات مع نساء أو استدراج المرأة إلى الفراش - ثرثرة مع الأصحاب والفتيات - الصمت والنجس، والمرأة قاذورة القاذورات - الملل من كل شيء - السخرية من الشواعر والأديبات - الموت في مدينة الأموات... الخ.

- ويلاحظ أن هذه الكتابة إحياء لموجة المؤثرات الوجودية التي كانت منتشرة في الخمسينات وأوائل الستينات فتعيد الأنغام والتلوينات نفسها، وتغرق في النتائج نفسها، ولاسيما عزل الإنسان عن ظرفه التاريخي إذ يتطوح الإنسان بين أفكار ومشاعر مقرفة حيث

ينعدم التواصل بين البشر، ولا يفرز الداخل سوى التقزّز والسأم والملل وبقية المصطلحات التي تعافها النفوس ولا يراها المرء نموذجًا في الراهن ومشكلاته اليومية. لقد رأى الكاتب في اغترابه نوعًا من خلايا السرطان تنتشر في النفس فتجعله ميتًا أو في عطالة عديم الفعالية سوى هاجس تمني المرأة أو احتقارها سيان؟! وأي فعالية في نفي التاريخ وانتفاء الصدق التاريخي؟!

قد يهلل بعضهم لهذا العمل في أواخر الخمسينات لنبرته الأسلوبية المتقنة في كثير من الصفحات ولتبشيره الوجودي المطلق، فثمة تركيز على الانطباعية التي تستند إلى مجرى النفس في تقطيع لعبارة أو استرسال التركيب أو ذكاء الحوار أو أداء الموقف الإنساني إلا أن المعول عليه في تركيب العمل هو استغراقه في المشاعر الوجودية كما في هذه العبارة:

«بلا جسد، بلا وعي أسير، شبح أجوف يدب على الطريق. إنسان بلا هدف..».

أما قصيدته النثرية «مأساة المرأة المعاصرة: عن باربارا كايزر»، فهي ذات نفس ملحمي ولكنها لا تبتعد عن ولع الكاتب بالاغتراب الوجودي. تتناول القصيدة النثرية مأساة المرأة المعاصرة في ظل النظام الرأسمالي داخل الحضارة الصناعية حيث مجتمع الاستهلاك والتسليع وحيث المرأة بل الإنسان عامة شيء من أشياء هذه الآلة الصناعية الهائلة. وتبدو القصيدة كأنها سيرة حياة فتاة أوروبية. تروي الفتاة واسمها باربارا كايزر أحداث حياتها كاملة بطريقة التداعي الحر، إلا أن باربارا كايزر من خلال هذا التداعي سرعان ما تدخل في النسيج الكبير: عالم أوروبا المعاصرة.

وقد كان الكاتب موفقًا حين جعل موضوعه الوجودي الأثير في حضارة أوروبا الصناعية وفي ألمانيا بالذات، الأمر الذي لا يتناسب مع وضع المرأة أو الإنسان في بلدان العالم الثالث. ونختار من أجواء القصيدة هذا المقطع:

«هذه الرؤوس المقطوعة.
هذه الأشجار بلا أغصان.
هذه الأجساد بلا أطراف.
أجساد الموتى على أبواب الكنائس
على أبواب مكاتب الاستخدام. مكنسة على أرصفة الشركات.
هذه الأجساد
على الشرفات وإقفال الكهرباء كآلات التسجيل أو صناديق الزهور
تكفنها إعلانات البيرة والصابون كنساء بلا طفولة.
كالمراهقات بلا أثداء..
كأطفال في مدارس البغاء» [ص 32 ـ 33]

لعل مجموعته القصصية «نجمة المساء» هي الخطاب الصريح لوطأة القلق الوجودي على ذات الكاتب فهي قصص وجدانية مثقلة بالأفكار الوجودية والعبثية والعدمية يسعى فيها مؤلفها إلى الكشف المستمر للذات في علاقتها بالمحيط والآخر والمصير بلغة واضحة معتنى بها هي التعبيرات الوجودية عن المعنى المأساوي للحياة وأزمة الفرد ومشاعر القلق والذنب والموت والضيق من الحياة أي أنها التعبيرات نفسها التي أبرزت الوجودية إبان انتشارها الملحوظ على أنها تكتسب هنا

في قصص «نجمة المساء» مقدرة تعبيرية مباشرة عن المآل المسدود للتجربة: الإخفاق، خواء الروح، الاستسلام، الحماقة، الانتحار.

إن محمد حيدر في هذه القصص كاتب ماهر يعاود تفكيره الوجودي ويمعن في حساسيته المتفاقمة إزاء المصير الفاجع للفرد، ويعود إلى كتابة القصة الممتعة وتتبدى مهارته في صياغة موضوعه وتنظيم سرده على الرغم من العناصر غير القصصية التي يخوض فيها كالاستطراد والتفكير الشكلي المنطقي «الأرقام» نحو تغيير مستوى السرد عن طريق التلاعب بالزمان واستعمال تيار الوعي والالتفات عنه عمدًا.. الخ.

ونورد هنا تلخيصًا لأفكار قصصه، إذ تقوم «قصة حقيقية» على ذاكرة رجل تعرف إليه الكاتب أثناء دراسته الجامعية في مطلع الخمسينات، فقد كان يهوى أن يكون أديبًا، ولكنه قرر الاعتزال مبكرًا، لأنه «خسر معركته مع العالم» ثم ودعه وكأنه يرش آخر قبضة من التراب على قبره. ويتحدث الكاتب في قصة «لقاء مضحك في باص» عن تعرفه إلى فتاتين هما ابتسام الطالبة من دمشق، وليلى الأديبة من الكويت، وهواجس عن الصمت والوحدة ووصف لممارسات جنسية على استيحاء ونقد مريع للذات والآخر. ويتناول في قصة «موت أم عبدو» عن موت السيدة أم عبدو التي كان يسكن عندها وأسئلة عن الشيخوخة والعجز والمصير، بينما تعالج قصة «وديعة» علاقة خاصة مع الطبيبة وديعة، وثمة غزل ملتبس يحاول أن يكون ذكيًا كعادة الكاتب، وتحليل للسلوك الإنساني من منظور وجودي. ويصور في قصة «سعادة» امرأة بغيًا تزور منزل صديقه، وتنام في فراشه ثم تنتحر فيما بعد. أما قصة «رويدة» فهي كشف ذكي ولطيف لذات كاتب غير متصالح مع نفسه أو للعالم، والسبب هو الحماقات، ثم يلتقي الكاتب في قصة «نجمة المساء» بامرأة يسميها نجمة المساء، ولكنها تغيب في زمن الحزن، وتتركه حزينًا.

على الرغم من استخدام محمد حيدر لأبسط عناصر القص التقليدي، أعني به السرد التابع أو المباشر، أي سرد ما حصل بصيغة الماضي المأثورة، وعن طريق «المتضمن» في الحكاية، وهو القاص نفسه، بقصد استحضار الماضي، فإن محمد حيدر يجدد أدواته التقليدية بواسطة الفيض اللفظي رصدًا لمشاعره داخل مبالغة التماهي بين القاص والراوي والشخصية، فهو يحكي عن ذاته ويسرد الوقائع والأحداث الماضية اللصيقة بنفسه دون أن يخفي صراحة موقفه من مجريات النفس وهي تعاني وتتألم وتفقد الحيوية.

وإذا كان الكاتب يلوذ بالتحليل النفسي، فإن براعته تكمن أساسًا في تطويع مقدرته اللفظية وسيولته الوجدانية للإفصاح عن موقفه الوجودي؛ وهكذا يتبدى ولعه بالتركيز على حيثيات هذا الموقف، وأن يؤدي السرد وظائفه خدمة لهذا الموقف أيضًا.

يؤدي السرد عند محمد حيدر وظيفتين هما الأنسب لتفكيره الوجودي: الأولى تعليمية أو إيديولوجية يميل فيها الخطاب القصصي إلى التفسير وشرح الحالة أو الموقف أو مبالغة للقصد عن طريق التحليل النفسي والاستطراد العارف والتقطيع، حين يقاطع الراوي سرده إلى إماطة اللثام عن صنعته: نفي الإيهام

إخلاصًا لإضاءة موقفه الوجودي، والثانية انطباعية يتحول فيها الخطاب القصصي إلى فيض وجداني، فيحرص الكاتب كسارد متضمن في حكايته، وعارف لما جرى. على التعبير عن أفكاره ومشاعره الخاصة مما هو أدخل في باب الأدب السيري، إلا أنه يكتسب في هذه القصص إحكامًا أشد هو منتهى التماهي بين الكاتب وتعبيره وصولًا إلى جلاء موقفه الوجودي.

المصادر والمراجع

● حيدر، محمد، العالم المسحور، قصص، دمشق 1962؛ ● حيدر، محمد، مأساة المرأة المعاصرة: عن باربارا كايزر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1985؛ ● حيدر، محمد، نجمة المساء، قصص، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1989؛ ● أبو هيف، عبد الله، الأدب والتغير الاجتماعي في سورية، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1990.

د. عبد الله أبو هيف
جامعة تشرين ـ اللاذقية ـ سوريا

حيدر، محمد بن رستم بن علي

(1306هـ/1889م ـ 1358هـ/1940م)

محمد بن رستم بن علي حيدر ينتهي نسبه إلى بني أسد. اشتهر برستم وفتى بعلبك، مؤرخ وسياسي وأديب. أحد «رجال السياسة العربية في فجر عهدها الحديث».

ولد في بعلبك سنة 1306هـ/ 1889م. وتلقى دروسه الابتدائية والمتوسطة في دمشق. ثم شدّ الرحال إلى الأستانة، فنال الحقوق من جامعة «فروق» سنة 1909. وتطلّع إلى الثقافة الأوروبية العصرية والمتطوّرة، فيمّم شطر باريس، وانتسب إلى أرقى معاهدها، إذ نهل من «السربون» مدّة ثلاث سنوات نال بعدها إجازة التاريخ. ونال إجازة من مدرسة العلوم السياسية بباريس أيضا.

أتقن اللّغات العربية، والتركيّة، والفرنسية، والإنكليزية...

وإبّان إقامته في باريس، شارك في النشاطات الثقافية فأسس جمعية «الثقافة العربية»، وكان أحد السبعة الذين أنشأوا «جمعية العربية الفتاة» سنة 1329هـ/ 1911م في باريس، وهي أشهر الجمعيات العربية، وأكثرها فعالية في تاريخ الحركة القومية. حضر هناك مؤتمر الطلاب العرب في 18 حزيران 1913، الذي دعا إلى التحرّك ضد الاستعمار التركي. وطالب باعتماد اللّغة العربية لغة رسمية في الأقطار العربية كلها.

ولما عاد إلى مسقط رأسه أوكلت إليه الحكومة العثمانية تأسيس المكتب السلطاني

في دمشق، وفوّضت إليه إدارته، وخلال الحرب العالمية الأولى حوّلت وزارة المعارف مدرسة الصلاحية في القدس إلى معهد للشريعة، وعهدت إلى رستم حيدر بنظارتها مع تدريس مادتي التاريخ والاقتصاد. وظلّ يشغل وظيفته حتّى دخل الإنكليز القدس في 7 كانون الأول سنة 1917. وفي السنة نفسها التحق بالثورة العربية، وكان أحد أعلامها البارزين، لما تحلّى به من ذكاء وقوة شخصية، وثقافة واسعة، كل هذه الصفات حدت بالشريف حسين إلى أن ينتدبه لحضور مؤتمر (فرساي) في آذار سنة 1919.

وخطب أمام المؤتمرين، وفصّل الدور الذي أداه العرب في الحرب. وذكر التضحيات التي قدّموها طلبا للاستقلال. وأبدى دهشته واستياءه من اتفاقية «سايكس - بيكو»؛ وبقي في باريس ثلاث سنوات مرافقا للملك فيصل بعد سقوط دمشق بيد الفرنسيين، ثم رافقه إلى العراق، وعمل سكريتيرا خاصا له، وكان عضده الأيمن. فعيّنه رئيسا للديوان الملكي، ثم صار وزيرا مفوّضا بإيران، فوزيرا لمالية العراق، فرئيسا للديوان الملكي في عهد الملك غازي بن فيصل. ولما حدث انقلاب بكر صدقي في العراق، أبعد رستم حيدر فأقام في مسقط رأسه بعلبك، وعاد إلى العراق عام 1937، فكان من أعضاء مجلس النواب، فوزيرا للمالية. اغتيل بتاريخ 18 كانون الأول سنة 1940 بمؤامرة حاك خيوطها نوري السعيد، بتوجيه من الإنكليز. وكان رستم حيدر يومها وزيرا للمالية، ودفن في المقبرة الملكية ببغداد.

كان رستم حيدر قوميا عربيا مناضلا في سبيل القضية العربية، سياسيا بارعا، واقتصاديا قديرا، مفكرا ومؤرخا... تتجلّى هذه العناوين في محاضراته التي وزّعها بين التاريخ الإسلامي والشؤون المالية، والإصلاح الاداري... وفي مذكراته اليومية التي كتبها وأودع فيها أفكاره القومية، مبديا براعته في المفاوضات السياسية لانتزاع الحقوق العربية من الحلفاء بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى.

إن مذكرات «فتى بعلبك» تحكي قصة الصراع بين عشاق الحرية، وقادة الاستعمار. «الاستقلال يؤخذ ولا يعطى» شعار رفعه الوفد العربي في «مؤتمر الصلح». قال رستم حيدر: الاستقلال ابن القوة، وقتيل الدموع، تذلّه الإستجداءات...

مذكّراته ترسم حدود الإنسان في عالم الإنسان، كتبها بنبضات القلب، وزفرات الأنفاس، ينقلك المؤلف على جناح الكلمات - الذكرى إلى أجواء الحرب العالمية الأولى، باعثا الشخصيات التي قادت الحرب، نافخا فيها الروح لتمثل أمامك بقسماتها وحركاتها، وملابسها، وتفكيرها... عشرات الأسماء: ويلسن، لويد جورج، كليمنصو، ماك هون، غورو، غليوم، اللنبي، جمال، برتلو... رجال قتلوا الإنسان ودمّروا ما شادته الحضارة، وتجمعوا في «باريس» يستحمّون بدماء ضحاياهم، ويقتسمون الغنائم. الدول الصغيرة في مؤتمر الصلح غدت سلعا معروضة للمساومة، تصرّفات الكبار، أفضل منها ألعاب الأطفال، مراوغة ومتاجرة بمستقبل الأمم المغلوبة...

أزمير لليونان، بروسة وأنقرة تترك تحت نفوذ

فرنسا، استانبول وأرمينيا لأميركا، ثمّ سورية والعراق وفلسطين لفرنسا وإنكلترا وإيطاليا. مع التمهيد لمنح فلسطين لليهود. . .

مذكرات دوّنها في حقبة امتدّت من 10/ 8/ 1918 إلى 25/ 3/ 1921 وتكشف عن ثقافة «فتى بعلبك» العالية، وتشهد بذكائه المميّز وتفصل عن دوره الريادي في إنهاض العرب، والذود عن حياضهم.

تنقسم المذكّرات إلى قسمين: الأول بدأ بإعلان العصيان ضدّ تركية، قاده مع مجموعة من المثقفين الذين التحقوا بفيصل في «اللسن». والثاني دوّنه في أوروبة. متنقلا بين لندن، وباريس، ورومة، وسويسرا. . . رافعا صوته، مدافعا عن أمته. كان رستم «ثاني اثنين» في المؤتمر.

لقد خصّ العرب بمقعدين فشغلهما مندوبان هما: الأمير فيصل، ورستم حيدر. ولمّا آب فيصل إلى سورية، تفرّد رستم بالتمثيل يساعده المستشارون والأمناء. . .

القسم الأول: خطّ أولى كلماته يوم السبت 3 ذي القعدة 1336هـ/ 10 آب 1918م. حدد نقطة الانطلاق من بستان «اليوسفية» في غوطة دمشق. اتّصف هذا القسم بالمميزات التالية:

أولا: مذكرات، ارتدت ثوب الرحلة، وتضمّنت المشاهدات اليومية. . . طراز البناء، بقايا الآثار القديمة، أسماء الأنهار والأماكن. . .

ثانيا: وصف العادات والتقاليد البدوية.

ثالثا: وصف الأعلام، أمراء البدو، الضباط الأتراك والإنكليز.

رابعا: وصف الأعمال الحربية: التنسيق بين الحلفاء، والجيش العربي، بقيادة الأمير فيصل. . . شجاعة العرب الذين استخدموا الخيول والجمال. . .

خامسا: الزعامات العربية: رسم التألب السياسي للزعامات العربية، عندما دخل دمشق مع فيصل استقبلهم زعماؤها هاتفين لفيصل، شاتمين للأتراك، «بالأمس كانوا بمجدون الأتراك، واليوم يلعنونهم، فسبحان الله كيف تدور الألسن من محور إلى آخر، وكيف يحوّل الإنسان لسانه من الذم إلى المدح». فالزعامات العربية مستعدة لاستقبال عشرات المنتصرين وتوديعهم في اليوم الواحد، لا موقف لهم سوى هذا الموقف «الانتهازية».

سادسا: تأليف حكومات عربية محلية في دمشق وبيروت. وقد انتدب صاحب المذكرات للإشراف على تأليف حكومة لبنان، وإزالة العقبات، وتصفية الأجواء بين المتنازعين.

القسم الثاني: جاء غنيا بالملاحظات السياسية، دوّنها في أوروبة، تحدث عن المناقشات السياسية، والقضية الفلسطينية، وأطماع اليهود، والقضية البولشفية، والنشاطات الثقافية والاقتصادية والتجارية في أوروبا، مع اعتزاز بالتاريخ الإسلامي القديم، مما يمثل زمن الرجوع إلى العهود الذهبية. . .

دوّن رستم حيدر وقائع الجلسة الثانية للمؤتمر، التي عقدت يوم السبت 25/ 1/ 1919. وخلص منها إلى الآراء التالية:

- جمعية الأمم مفيدة للصغار، إذا صدق الكبار.

ـ الدول العظمى، تسطّر أفكارا إنسانية، لكنها تسعى إلى استبداد أشدّ ظلما من الاستبداد الأوّل.

ـ قوة الوفود، بقوّة الدولة التي تمثلها «من لا حراب وراءه لا قوّة له».

كما حظيت القضية الفلسطينية بجزء من مذكرات رستم حيدر. الرؤية واضحة، الحركات المسرحية مأساوية، حمل هموم فلسطين وتنبأ بمستقبلها الأسود، راقب تحركات المسؤولين الصهاينة، وقارن بين النشاطات اليهودية، والتخاذل العربي، فأدرك النهاية المؤلمة، وحذّر الأمير فيصل من أطماع اليهود، وحرّضه على حمايتها، لكن بريطانيا وفرنسا لم تسمحا لفيصل بالتحدث عن فلسطين لأهميتها العالمية.

دوّن رستم لقاء هربرت صموئيل بالأمير فيصل، وقد شهده، عرض صموئيل مساعدته للعرب في تحقيق استقلالهم، مقابل التنازل عن فلسطين، وحاول صموئيل أن يلبس أفكاره ثوب المنطق «البلاد العربية فيها الآن 13 مليونا، وهي تعيش 50 ـ 60 مليونا فليس يوجد خطر على البلاد، لأنها واسعة جدا، من مجيء ستة ملايين يهودي... وقصدهم أن يكونوا مع العرب إخوانا ليس إلا».

وتابع باهتمام أخبار البولشفية (الشيوعية)، ولاحظ تنامي النفوذ «البولشفيكي» «الدول الأوروبية تخشى نفوذهم؛ لأن فكرتهم تخلب الأفئدة، بسحق الأغنياء، وتأمين المساواة بين البشر».

وتهلل رستم حيدر فرحا لتقدمهم إلى قلب أوروبا لتشغلها عن العرب، بضعة أسابيع، بل بضع سنين. وقال: «لأجل هذا إني أحبها، وأحبها أيضا لأنها تذيق طعم هذه المعيشة (الفقر) لمن يهزأ في الوقت الحاضر بالعوام والعمال». وحضّ رستم الوفد التركي على استغلال «البولشفية» والتهديد بالإنضمام إلى هذا الاتجاه الجديد؛ إن حاولت أوروبا تقسيم تركيا، واستعادة القسطنطينية، وتحويل جامعها مجددا إلى كنيسة «آيا صوفيا».

لم يغفل رستم في مذكراته الملاحظات الاقتصادية، تحدّث عن التجارة الأوروبية، والمصانع، ومناجم الفحم، وتبدّل أسعار العملات. «الشانج» أي «الصرف» وحرّض العرب على استغلال ثرواتهم وتحسين اقتصادهم...

لم يكتب التاريخ لسرد الوقائع، وعرض الأحداث بل هدف إلى الإفادة من الماضي، وأخذ العبر، وتحويل أمجاد السلف إلى انتصارات الخلف. التاريخ عنده متحرك نحو الوعي، وتأمين العدالة للشعوب والدول.

■ آثاره

1 ـ مذكرات رستم حيدر، تح. نجدة فتحي صفوت، عن الدار العربية للموسوعات سنة 1988؛ 2 ـ محمد علي في سورية، أطروحة كتبها بالفرنسية وقدمها إلى جامعة السوربون؛ 3 ـ التاريخ القديم (محاضرات)؛ 4 ـ تاريخ الإسلام والقرون الوسطى؛ 5 ـ فجر التاريخ الحديث.

■ المصادر والمراجع

● انطونيوس، جورج، يقظة العرب، ترجمة ناصر الدين الأسد، بيروت، دار العلم 1969، 187؛ ● الزركلي،

الأعلام، دار العلم للملايين، 1980، 6/ 124؛ ● نصر، أنيس، النبوغ اللبناني، بيروت، 1/ 187؛ ● نصر الله، حسن، تاريخ بعلبك، بيروت، الوفاء 1984، 2/ 209 ـ 210؛ ● مجلة لغة العرب، 4/ 394؛ ● مجلة الرسالة، الزيات، 1940، 8/ 162.

د. حسن عباس نصر الله
الجامعة اللبنانية

الحيدري، بُلَند أكرم

(1345هـ/1926م ـ 1417هـ/1996م)

ولد الشاعر بلند أكرم الحيدري عام 1926 في السليمانية، شمالي العراق، من والدين كرديين. استقرّت أسرته في بغداد منذ طفولته، تنقّل في مناطق عديدة من العراق، لأنّ والده كان عسكريا عمل في مناطق عديدة من العراق.

لم يتم دراسته الثانوية رغم أنه من أسرة موسرة، تولّى بعض أفرادها مناصب مهمة في الدولة العراقية. فقد انصرف للشعر كلّيا، وتثقّف ذاتيا. ترك الوظيفة التي وفرها له خاله الذي عمل وزيرًا للداخلية في الأربعينات. لكنّه آثر صحبة الأدباء والشعراء والعمل في الصحافة، وارتياد المقاهي الأدبية ببغداد التي كانت بؤرة لتجمّعات المثقّفين والفنانين والأدباء، ومركزًا للحركات الأدبية والسياسية.

ربطته بأدباء بغداد وفنانيها صلات وثيقة، أثرت في تكوينه الثقافي والشعري. ومن أهمّ أصدقائه وأبرزهم الفنان جواد سليم، والقاص عبد الملك نوري، والشاعر حسين مردان، والشاعر بدر شاكر السياب وسواهم.

يعد بلند الحيدري من رواد الشعر الحر في العراق، رغم أن كثيرًا من الكتب النقدية التي تناولت الحركة الشعرية الجديدة لم تتوقّف عنده كثيرًا، ولم تثبت اسمه بما يستحق من مكانة بين الرواد. وقد ضمّ ديوانه الأوّل «خفقة الطين» 1946 تجارب مهمة في هذا النوع الشعري الجديد، رغم تأثّره الواضح بالشعر الجديد وبشعر المهجر على وجه خاص، حيث يجد الدارس آثار إيليا أبو ماضي، وإلياس أبي شبكة واضحة في قصائده. لكنه ظلّ ميّالا لنظم القصيدة التقليدية بتأثير من الشاعر حسين مردان الذي لازمه في مطلع الخمسينات وأثر كثيرًا في منهجه الشعري وفي حياته وثقافته. وعن هذا الأخير تأثر كذلك بالفلسفة الوجودية، كما فهمها من خلال الترجمات والأفكار الأدبية العامة. واستوعب النزعات الإنسانية التي انعكست في شعره صورًا وحالات بشرية

للناس العاديين ومعاناتهم وما يتعرّضون له من عسف وفقر وحرمان.

وكان ديوانه الثاني «أغاني المدينة الميتة» 1952، يركز نزعته الإنسانية، ويبلور شعور الإنسان بالاغتراب، وصلة الشاعر بالمدينة التي مثلت له السلطة الحاكمة وأدواتها المتمثّلة بالطبقات المتحكّمة في الجماهير، ممّا يجعل المدينة وجهًا مرفوضًا ومعاديًا، كوجوه السلطة والتحكّم في مقادير المجتمع. وهي موضوعات كان لبلند الحيدري دور مبكّر في معالجتها، والتفرّد في تناول زواياها بطرافة وجدّة، مع المحافظة على الموسيقيّة الوزنية والقوافي التي وسمت شعره بطابع غنائي مباشر، الأمر الذي سهّل على القرّاء التواصل معه وفهم دلالات شعره وما يرمي إليه.

لم يلجأ الحيدري إلى الرموز والأساطير، بل اعتمد يوميات الحياة، ينهل منها موضوعاته، ويقدّمها سلسة واضحة، على مستوى اللغة والتراكيب والدلالات، ممّا منحه جماهيرية واسعة، إضافة إلى اهتماماته السياسية، وعنايته بالأحداث التي مرّ بها العراق والوطن العربي. وقد قال في رثاء الراحل جمال عبد الناصر:

في ليلة مثل ليالي الناسْ
مألوفة بغَيْمِها
بنجْمِها
بكل ما في رحْمِها
من هاجِسٍ يسأل عن ولادةٍ
وهاجِسٍ
ينطر في الأجراس
ولدتُ مثل الناسْ
كبرتُ مثل الناس
ومثل كلِّ الناس
سمعتُ وقع خطوك المهيب في دروبهم

وفي عام 1957 صدرت له مجموعة شعرية ثالثة هي «أغاني المدينة الميتة وقصائد أخرى» نبّه الكاتب الراحل جبرا إبراهيم جبرا في تقديمها إلى مزايا بلند الخاصة، لاسيّما أسلوبه الشعري المعتمد على الوضوح والعمق معًا، ولقطاته الإنسانية الذكية.

بعد قيام ثورة 14 تموز 1958م عمل بلند في الوظائف الحكومية بين عامي 1959، 1962م. وأصدر عام 1961م ديوانه «جئتم مع الفجر» المتّسم بطابعه الوطني ومعالجة الموضوعات السياسية والوطنية التي كانت تشغل الحياة العامة في العراق.

اضطرّ لمغادرة العراق عام 1963م. واستقرّ في لبنان، وعمل أوّلا في تدريس اللغة العربية في ثانوية برمانا الوطنية، وأدار المدرسة حينًا، قبل أن تعهد إليه دار العلم للملايين إدارة «مجلّة علوم» المهتمّة بالآداب والعلوم والفنون والكتب.

كانت حياة الشاعر في بيروت بداية غربة طويلة، فعبّر عن هذا الإحساس بقصائد كرّست الطابع الحواري في شعره، وهي سمة لاحت في دواوينه الأولى. كان الشاعر يجري قصيدته على ألسنةٍ متعدّدة، وأصوات متداخلة أو متقاطعة، تتصاعد وتتعارض حواريا لتخلق لحظة صراع يصل بالقصيدة إلى منتهاها الذي يريده الشاعر.

وقد تمثّلت هذه المرحلة بدواوينه: «خطوات في الغربة» الصادر عام 1965، و«رحلة الصفر» 1968م، و«أغاني الحارس المتعب»، 1977م.

لكن منهجه الحواري اتّضح جليًا في ديوان ذي عنوان بالغ الدلالة هو «حوار عبر الأبعاد الثلاثة»، 1972م، فقد مزج الشاعر البعد المكاني والبعد الزماني بالشخصيات التي يختارها بعناية، لتمثّل أفكاره وما يعترضها في الحياة، لكن اتّجاهه السردي واضح في هذا العمل عبر اعتماده الأصوات، واستبطان شخصياته، واعتماد الحوار المسرحي بينها لتوصيل الحدث، وبلوغ ذروة شعرية مقصودة، ممّا كرّس هذا الاتّجاه الخاص بالشاعر.

عاد الشاعر إلى العراق عام 1978م. وعمل محرّرًا في مجلّة «آفاق عربية» التي أسّسها الشاعر شفيق الكمالي ببغداد.

أسهم الحيدري خلال عمله في المجلّة في ترسيخ الجانب الفنّي نقدًا وعرضًا وتعريفًا، ساعده في ذلك ثقافته التشكيلية وإحاطته بالفن الحديث، ومتابعة حركاته واتجاهاته، ومعايشته للحركة الفنّية في العراق، حيث شهد ولادة الجمعيات الفنية المبكرة التي أسّسها ببغداد الفنان جواد سليم، والفنان فائق حسن وزملائهما، وتابع المعارض التي أقامتها الجماعات الفنّية والأفراد وكتب عنها، كما اهتمّ بالخط العربي وإدخاله في اللوحة التشكيلية، وكتب تنظيرا مهمّا في هذا الصدد في كتابه عن الفنّ التشكيلي المعنون «زمن لكل الأزمنة». ولكي يواصل هذا المنحى الفنّي انتقل إلى لندن يشرف على إصدار مجلّة «فنون عربية» بين عامي 1980، 1982م، وقد كانت هذه المجلّة سجلًا فنّيا يرصد النشاط التشكيلي العربي ومختلف الجوانب الفنّية.

ظلّت قصيدة الحيدري ذات مناخ خاص مميّز بين زملائه من جيل الروّاد، واعتمد السرد في بناء قصيدته، ممّا يتأكّد في ديوانيه : «إلى بيروت مع حبّي»، 1985م، «أبواب إلى البيت الضيّق»، 1990م. وعزّز رؤيته للجانب الدرامي في الشعر من خلال مقالات نظرية في الشعر، ضمّنها كتابه «نقاط الضوء، مداخل إلى الشعر العراقي الحديث» دافع فيها عن الواقعية في الشعر التي يرى السياب أن بلند يقدّم نموذجا متقدّما وفريدا لها، وهي خلاصة مذهبة الذي مسك به منذ بواكير تجربته الشعرية.

نال الحيدري جائزة اتّحاد الكتّاب اللبنانيين في حقل الشعر عام 1973م.

وبعد وفاته في 6/ 8/ 1996م خصّص مهرجان أصيلة الثقافي بالمغرب جائزة باسم الحيدري، تمنح للشعراء الشباب سنويا.

آثاره

1 ـ خفقة الطين، بغداد، 1946؛ 2 ـ أغاني المدينة الميّتة، بغداد، 1952؛ 3 ـ أغاني المدينة الميتة وقصائد أخرى، 1957؛ 4 ـ جئتم مع الفجر، بغداد، 1961؛ 5 ـ خطوات في الغربة، بيروت، 1965؛ 6 ـ حوار عبر الأبعاد الثلاثة، بغداد، 1972؛ 7 ـ رحلة الحروف الصفر، بيروت، 1968؛ 8 ـ ديوان بلند الحيدري، بيروت، 1975؛ 9 ـ نقاط الضوء، مداخل إلى الشعر العراقي الحديث، بيروت، 1979؛ 10 ـ زمن لكل الأزمنة، دراسات في التشكيل، بيروت، 1981؛ 11 ـ إلى بيروت مع تحياتي، بيروت، 1985؛ 12 ـ أبواب إلى البيت الضيّق، لندن، 1990م.

المصادر والمراجع

● الولي، خضر، آراء في الشعر والقصّة، بغداد، 1956؛ ● علوان، علي العباس، مختارات من الشعر العربي في القرن العشرين، ج5، العراق، مؤسسة البابطين، الكويت، 2001؛ ● الجبوري، منذر، شعراء عراقيون، بغداد، 1985؛ ● جبرا، إبراهيم جبرا، الرحلة الثامنة، دراسات نقدية، بيروت، 1979؛ ● الصائغ، يوسف، الشعر الحر في العراق منذ نشأته حتّى عام 1958، بغداد، 1978؛ ● الخياط، جلال، الأصول الدرامية في الشعر العربي الحديث، بغداد، 1982؛ ● س. موريه، الشعر العربي الحديث، 1800 ـ 1970، ترجمة شفيع السيد وسعد مصلوح، القاهرة، 1986؛ ● أطميش، محسن، دير الملاك، دراسة نقدية للظواهر الفنّية في الشعر العراقي المعاصر، بغداد، 1982؛ ● الغانمي، سعيد، أقنعة النص، قراءات نقدية في الأدب، بغداد، 1991م.

د. حاتم الصكر
جامعة صنعاء ـ اليمن

الحيدري، يوسف محمد

(1353هـ/1934م ـ 1414هـ/1993م)

يوسف محمد ابراهيم الحيدري، قاص عراقي، ولد في كركوك، مارس التعليم مدّة 27 سنة، ثم واصل دراسته في الجامعة المستنصرية فتخرّج فيها بشهادة باكالوريوس لغة عربية.

في السنوات المبكرة من كتاباته، كتب الشعر ونشر العديد من القصائد ثم وجدناه في القصة، وأبطال قصصه من نسيج الواقع، لكنهم يعيشون الأزمة والإحباط، يغوص القاص في عوالمهم المظلمة مسلطًا عليهم حزما من ضوء شفيف، والعوالم الداخلية لأبطاله، هي الهاجس الأساس في كتاباته.

أسهم الحيدري في معظم المؤتمرات الأدبية التي عقدت في بغداد، وملتقيات القصة والمسرح، وكان عضوًا في اتحاد الأدباء، وقد كتب عنه الناقد العراقي المعروف الدكتور علي جواد الطاهر، والناقد ياسين النصير وغيرهما.

إن يوسف الحيدري في مجموعته «حين يجف البحر» عام 1967 ومجموعته «رجل تكرهه المدينة» عام 1969، ينساق وراء العبارة الملوّنة النابضة بالشاعرية والمنسابة دون

رابط، وربما كان هذا بسبب رؤية القاص الذي يعكس فوضى العالم والأشياء في فنه القصصي، والحيدري ينساق أحيانًا وراء الجمل التي يحسن وضعها، فتبدو القصة أقرب إلى النثر الفني منها إلى الفن القصصي مع اهتمام واضح برصد الشخصيات الشاذة، ويبدو أنّ استخدام اللغة الشعرية في القصة يأتي ليرد على قسوة وخشونة العالم الخارجي، بينما يظهر بروز الشخصيات الشاذة بوصفه نتاجًا لمرحلة غياب الحريات الفردية والجماعية، وهذا يفسر لنا تركيز الحيدري على بعض الظواهر الفريدة في المجتمع العراقي مع عناية بالأزمة الذاتية والوجودية أحيانًا، والعبثية في أحيان أخرى، إلّا أنّ هذا لم يجعل الحيدري مغمض العينين عن قضايا الأمة المصيرية، حيث كتب عن القضية الفلسطينية قصة «المعطف» المنشورة ضمن مجموعته «رجل تكرهه المدينة».

ويزج الحيدري بنفسه، وسط موجة القصة الستينية في العراق، ليكتب عن الضياع والقرف والإنسحاق والملل والكفر بالحياة والناس، لذا جاءت قصصه محملة بأشياء من الغثيان، والقرف، والجنس الفج، والتقزز، والضجر، والموت، والحرية، والعدالة، والسقوط، والإختيار، والإنهزام، والرفض، والإنتحار.

ويلاحظ أنّ قصة «رجل تكرهه المدينة» قد تضمّنت كثيرا من المعاني الفلسفية عن الحياة والموت والحرية والاختيار والفرد والمجتمع، ويتّضح هنا تأثّر الكاتب الحيدري بقصص سارتر وكامو من الناحية الوجودية، بينما يتّضح تأثير مسرح العبث واللامعقول والخواء واللامعنى في الحياة، وقد ظهر هذا التأثر في قصص القطار، والغبار، والغبي، والشواهد الرخامية.

وتحمل قصة «حسون والأغنية» للحيدري بعض الملامح الرمزية في دعوتها إلى إعلاء روح الإنسان وتحمل الصعاب، فبطل القصة حسون بسيط ونادر في بحثه عن الحرية، وقد مُنع حسون من الغناء الذي كان يجد فيه حريته وتأكيد ذاته، ولكنه لا يتوقّف عن الغناء ولا يفرط بحريته على الرغم من الوسائل العديدة التي استعملت ضده، حيث بقي صامدًا ومتحدّيًا حتّى النهاية، لأنه لا يستطيع أن يفرط بحريته ولا يرضى بالقيود التي تكبّله، فالحرية عند حسون، استمرار حقيقي لحياته.

وقد مزج يوسف الحيدري بين الحياة الداخلية للشخصية مع الحياة الخارجية في وقت واحد، وهكذا فإن تيار الوعي وجد الطريق إلى قصته «الجزاء» التي سعى فيها إلى إلغاء الزمان والمكان بحيث بدت اللغة وكأنّها فقدت بعض الإيحاء والدلالة، مع ملاحظة أنّ السرد في هذه القصة يعتمد أسلوب الاستبطان، من ضمير إلى ضمير، ومن ضمير المتكلّم إلى ضمير الغائب.

إنّ قصص وكتابات يوسف الحيدري، تحمل رائحة الوجودية تارة، والسريالية تارة أخرى كما في قصة «الحصان والجدار الزجاجي» التي تظهر فيها مكوّنات العقل الباطن للبطل، لتصدر حركة تذمر وسخط واحتجاج على آلية الحياة الحديثة والفزع من خنق الفرد وسحقه، وعمومًا فإنّ نتاج الحيدري يفصح عن عقل معذب وقلب جريح وذات ممزّقة، وغياب للعدالة والمعنى في الحياة، الأمر الذي يجعل

منه أحد الممثلين المميزين لتيار القصة الذاتية في مسيرة الأدب العراقي الحديث.

آثاره

1 ـ حين يجف البحر (قصص)، مط. النعمان، النجف، 1967؛ 2 ـ رجل تكرهه المدينة (قصص)، مط. الغري الحديثة، النجف 1969؛ 3 ـ غفوة (قصص)، العدد 3628، السنة 14، 25 أيلول 1956؛ 4 ـ أريد أبي، فتى العراق، العدد 2166، لسنة 25، 7 تموز 1957؛ 5 ـ إنسانة كبيرة، فتى العراق، العدد 2169، السنة 25، 7 تموز 1958؛ 6 ـ رجل الأقدار، البيان، العدد 594، السنة 2، 10 مارس 1962؛ 7 ـ العانس، البيان، العدد 608، السنة 3، 31 مارس 1962؛ 8 ـ لقاء، البيان، العدد 624، السنة 3، 21 حزيران 1962م.

المصادر والمراجع

● أحمد، د. عبد الاله، فهرست القصة العراقية، وزارة الإعلام، دار الحرية، بغداد 1973؛ ● الطالب، د. عمر، القصة القصيرة الحديثة في العراق، جامعة الموصل، الموصل 1979؛ ● المطبعي، حميد، موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين، ج1، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد 1995؛ ● جاسم، فاطمة عيسى، القصة القصيرة في العراق 1967 ـ 1973، دراسة فنية، رسالة دكتوراه مقدمة إلى عمادة كلية الآداب بجامعة الموصل عام 1984؛ ● حمودي، باسم عبد الحميد، رحلة مع القصة العراقية، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد، بغداد 1980؛ ● جاسم، عباس عبد، قضايا القصة العراقية المعاصرة، وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، بغداد، 1982؛ ● الطاهر، د. علي جواد، رجل تكرهه المدينة، مجلّة الكلمة، العدد 2، تشرين الثاني، النجف، 1969؛ ● الخطيب، برهان، الاتجاه التجريبي في القصة العراقية، مرحلة الستينات، مجلّة الأقلام، العدد الثامن، بغداد 1980م.

د. نجمان ياسن
الرئيس الأسبق لاتحاد كتّاب العراق

الحيري، أبو عثمان سعيد بن اسماعيل

(230هـ/844م ـ 298هـ/910م)

هو سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور النيسابوري ثمّ الحيري نسبة إلى قرية يُقال لها الحيرة من قرى نيسابور، شيخ الصوفيّة وعليم الأولياء بخراسان.

ولد بالريّ سنة ثلاثين ومائتين (230) ونشأ فيها محبًّا لدروس الوعظ ورواية الحديث،

فأخذ عن محمد بن مقاتل الرازي، وموسى ابن نصر، ولمّا اشتدّ عوده ازداد شغفه بالعلم فارتحل إلى العراق وبها سمع من حميد بن الربيع، ومحمد بن إسماعيل الأحمسي وعدّة من طبقتهما ولم يزل يطلب الحديث ويكتبه حتّى خرج مع شيخه شاه بن شجاع الكرماني يزوران أبا حفص النيسابوري، فقبله أبوحفص وحسّنه عنده وصار له سكنا وعلى ابنته ختنا، ولم يزل بنيسابور يسمع العلماء ويُجلّهم ويعظّمهم، فسمع من أبي جعفر بن حمدان «صحيحه» المخرّج على مسلم بنفظه، وكان إذا بلغ سُنّة لم يستعملها وقف عندها حتّى يستعملها.

وقد حدّث عن أبي عثمان سعيد الحيري ابناه أبو بكر، وأبو الحسن؛ وأبو عمرو بن مطر، وإسماعيل بن نُجيد والرئيس أبو عمرو، وغيرهم كثير [الحافظ الذهبي، سير أعلام النبلاء، 14/ 63]

قال أبو نُعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: «هو العارف الفاصح والعابد الناصح، كان بالحكم منطيقا فصيحا وللمريدين شفيقا نصيحا، علّمهم الآداب الرفيعة ونبّههم على ملازمة الشريعة، كان إلى موافقة الحقّ مجذوبا، وعن حظوظ النفس مُظهرا مسلوبا، حميد الأخلاق مديد الأرفاق، بقيت بركته وآثاره على أهل نيسابور، وكان للخراسيين نظير الجُنيد للعراقيين. وكان يُقال في عصره: ثلاثة لا رابع لهم، أبو عثمان بنيسابور، والجُنيد للعراق، وأبو عبد الله بن الجلاء بالشام [الأصبهاني، الحلية، 10/ 244]

قال محمد بن الفضل البلخي في حقّ المترجم له: كان مشهورا بصدق الحال وحسن الكلام، قد زيّنه الله تعالى بفنون عبوديّته وأبرزه للناس ليسمعهم آداب العبوديّة.

وذكر الحاكم أخبار أبي عثمان في خمس وعشرين ورقة وفي غضون ذلك من كلامه في التوكّل واليقين والرضى: ومما قاله: أخبرني سعيد بن عثمان السمرقندي العابد أنّه سمع أبا عثمان يقول: لا يطلب جوار الله إلّا من وطّن نفسه على ثلاث: أوّلها إلقاء العزّ وحمل الذلّ، والثاني سكون قلبه على جوع ثلاثة أيّام، الثالث ألّا يهتمّ ولا يغتمّ إلّا لدينه أو طلب إصلاح دينه. وقال أبو عمرو بن حمدان، سمعت أبا عثمان الحيري يقول: من أمّر السُنّة على نفسه قولا وعملا نطق بالحكمة، ومن أمّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة. ثمّ تلا قول الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْۚ﴾ [النّور: 54] .

وممّا أخبر به الحاكم عن أبي عثمان أيضا أنّ محمد بن صالح بن هاني قال: لمّا قُتل محمد ابن الذهلي سنة ثلاث وسبعين ومائتين 273هـ، ومُنع الناس من حضور مجالس الحديث من طرف الأمير الجبّار أحمد الخُجستاني، لم يجسر أحد على حمل محبرة إلى أن ورد السرّي بن خزيمة، فقام الزاهد أبو عثمان الحيري وجمع المحدّثين في مسجده وعلّق بيده محبرة وتقدّمهم إلى أن جاء على خان محمش فأخرج السري وأجلس المستملي، فحضرنا مجلسه زيادة على ألف محبرة، فلمّا فرغ قاموا و قبّلوا رأس أبي عثمان ونثر الناس عليهم الدراهم والسكّر.

ومما أورده الحاكم في تاريخ نيسابور من أخبار أبي عثمان أيضا ما سمعه من أبيه قال: لمّا استولى أحمد بن عبد الله الخجستاني على البلاد و قتل حيكان بن الذهلي أخذ في الظلم و التعسّف، وأمر بحربة رُكزت على المربّعة (وهي عصا تُحمل بها الأثقال حتّى توضع على ظهور الدواب)، وجمع الأعيان وحلف إن لم يصبّوا الدراهم حتّى يغيب رأس الحربة فقد أحلّوا دماءهم، فكان الناس يقتسمون الغرامة بينهم، فخُصّ تاجر بثلاثين ألف درهم، ولم يكن يقدر إلّا على ثلاثة آلاف درهم فحملها إلى أبي عثمان وقال: أيها الشيخ قد حلف هذا كما بلغك ووالله لا أهتدي إلّا إلى هذه. قال أبو عثمان أتأذن أن أفعل بها ما ينفعك؟ قال: نعم، ففرّقها وقال للتاجر: امكث عندي، ومازال أبو عثمان يتردّد بين السكّة والمسجد ليلته حتّى أصبح وأذّن المؤذن، ثمّ قال لخادمه: اذهب إلى السوق وانظر ماذا تسمع، فذهب ورجع فقال: لم أر شيئا. قال: اذهب مرّة أخرى، وهو في مناجاته يقول: وحقّك لا أقمت ما لم تُفرّج عن المكروبين، قال: فأتى خادمه الفرغاني يقول: وكفى الله المؤمنين شرّه، ذبح الأمير غلمانُه وقد سكر. واتفق الرّواة على أنّ أبا عثمان كان مستجاب الدعوة.

و أخبر أبو حازم عمر بن أحمد بن إبراهيم العبدوني بنيسابور أنّ أبا بكر بن صاحب الترجمة قال: سمعت أبي و قد قام في مجلسه رجل من أهل بغداد يسأله متى يكون الرجل صادقا في حبّ مولاه؟ فقال إذا خلا من خلافه كان صادقا في حبّ مولاه. قال فوضع الرجل التراب على رأسه وصاح: كيف أدّعي حبّه ولم أخلُ طرفة عين من خلافه!، قال فبكى أبو عثمان وأهل المجلس وجعل أبو عثمان يقول: صادق في حبّه مقصّر في حقّه.

وروى رجل يعرف بأبي العبّاس قال: قعد أبو عثمان يوما على منبره للتذكير فأطال القعود والسكوت، فناديته تُرى ما تقول في سكوتك؟ فأنشأ يقول:

وغيرُ تقيّ يأمر الناس بالتُّقى
طبيبٌ يداوي والطبيب مريض

وحدّث محمد بن حمدويه الحافظ قال: سمعت أمّي تقول: سمعت مريم امرأة أبي عثمان تقول: كنّا نؤخر اللعب والضحك والحديث إلى أن يدخل أبو عثمان في ورده من الصلاة فإنّه كان إذا دخل الخلوة لم يحسّ بشيء من الحديث وغيره، وذكر محمد بن نعيم الضبّي قال سمعت أمّي تقول: سمعت مريم امرأة أبي عثمان تقول: صادفتُ من أبي عثمان خلوةً فاغتنمتها فقلت: يا أبا عثمان أيّ عملك أرجى عندك؟ فقال: يا مريم لمّا ترعرعت وأنا بالريّ وكانوا يراودونني على التزويج فأمتنع، جاءتني امرأة وقالت: يا أبا عثمان قد أحببتك حبّا أذهب نومي وقراري وأنا أسألك بمقلّب القلوب وأتوسّل به إليك أن تتزوّج بي: قلت: ألك والد؟ قالت: نعم فلان الخيّاط في موضع كذا وكذا، فراسلت أباها أن يزوّجها منّي ففرح بذلك وأحضرتُ الشهود فتزوجتها، فلمّا دخلت بها وجدتها عوراء وعرجاء، مشوّهة الخلق، فقلت: اللهمّ لك الحمد على ما قدّرته لي، وكان أهل بيتي يلومونني على ذلك، وأزيدها برّا وإكراما إلى أن صارت بحيث لا تدعني أخرج من عندها،

فتركتُ حضور المجالس إيثارًا لرضاها وحفظا لقلبها ثمّ بقيتُ معها على هذه الحال خمس عشرة سنة وكأنّي في بعض أوقاتي على الجمر وأنا لا أبدي لها شيئا من ذلك إلى أن ماتت، فما أرجى عندي من حفظي عليها ما كان في قلبها من جهتي. [الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، 10/ 144]

من حكم المترجم له ما أورده الأصبهاني في الحلية قال:

- سمعت محمد بن أحمد بن عثمان يقول: سمعت أبا عثمان الحيري يقول: «موافقة الإخوان خير من الشفقة عليهم».

- سمعت أبا عمرو بن حمدان يقول: قرأت بخطّ أبي أحمد بن حمدان سمعت أبا عثمان شيخ الصوفيّة يعظ وهو يقول: «صلاح القلب من أربعة خصال: التواضع لله، والفقر لله، والخوف من الله، والرجاء لله».

- قال وسمعته يقول: «لا يكمل الرجل حتّى يستوي قلبه في أربعة أشياء: في المنع والعطاء والعزّ و الذلّ».

- قال وسمعته يقول: «أهل العداوة من ثلاثة أشياء: من الطمع في المال والطمع في إكرام الناس والطمع في قبول الناس».

- قال وسمعته يقول: «الخوف من الله يوصلك إلى الله، والكبر والعُجب في نفسك يقطعك عن الله، واحتقار الناس في نفسك مرض لا يداوى».

ومن حكمه أيضا قوله: «سرورك بالدنيا أذهب عن قلبك سرورك بالله، وخوفك من غير الله أذهب عن قلبك خوفك من الله، ورجاؤك ممّن دونه أذهب عن قلبك رجاءك له» [أبو نعيم عبد الله الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، 10/ 244]

ومن أقواله في مواعظه:

- حقّ لمن أعزّه الله بالمعرفة ألّا يذلّ نفسه بالمعصيّة

- أصل التعلّق بالخيرات قصورُ الأمل

- العبد مسجون ما تبع مراده فإذا فوّض وسلّم استراح [الإمام جمال الدين عبد الرحمٰن الجوزي، صفة الصفوة، 2/ 71 ـ 73]

وقال الأصبهاني في الحلية أيضا عن أقوال وحكم صاحب الترجمة

- سمعت محمد بن الحسن يقول: سمعت محمد بن أحمد الملّامتي يقول سمعت الحسين الوارق يقول: سألت أبا عثمان عن الصحبة فقال: «الصحبة مع الله ﷻ بحسن الأدب ودوام المراقبة، والصحبة مع الرسول ﷺ باتّباع سنّته ولزوم ظاهر العلم، والصحبة مع أولياء الله بالاحترام والحرمة، والصحبة مع الأهل والولد بحسن الخُلق، والصحبة مع الإخوان بدوام البشر والانبساط ما لم يكن إثما، والصحبة مع الجهّال بالدعاء لهم والرحمة عليهم ورؤية نعمة الله عليك أن عفاك الله ممّا ابتلاهم به».

- سمعت محمد بن الحسين يقول: قال محمد ابن أحمد بن يوسف سمعت أبا عثمان الحيري يقول: «تعزّزوا بعزّ الله كي لا تذلّوا، والعاقل من تأهّب للمخاوف قبل وقوعها، والتفويض ردُّ ما جهلت علمه إلى عالمه، والتفويض مقدّمة للرضا، والرضا باب الله

الأعظم، والذّكر الكثير أن تذكره في ذكرك له أنّك لم تصل إلى ذكره إلّا به و بفضله».

ـ وسمعت أنّ أبا عثمان سئل كيف يستجيز العاقل أن يُزيل اللائمة عمّن ظلمه؟ فقال: «ليعلم أنّ الله قد سلّطه عليه»، وسئل: ما علامة السعادة والشقاوة؟ فقال: «علامة السعادة أن تطيع الله وتخاف أن تكون مردودا وعلامة الشقاوة أن تعصي الله وترجو أن تكون مقبولا».

ثمّ إنّ المترجم له من أصحاب المسانيد في الحديث، ومنها:

ـ ما أخبر به محمد بن الحسين: ثنا سعيد بن عبد الله بن سعيد بن إسماعيل قال: وجدت في كتاب جدّي أبي عثمان بخطّه: ثنا أبو صالح حمدون القصّار صاحب أبي محمد بن يحيى النيسابوري: ثنا قتيبة بن سعيد: ثنا عبرْ عن أشعث عن محمّد عن نافع عن عبد الله ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ من مات وعليه صوم شهر رمضان أطعم عنه وليّه كلّ يوم مسكينا .

ـ ما حدّث به سليمان بن أحمد: ثنا عبدان بن محمد المروزي: ثنا قتيبة بن سعيد: ثنا عبثر ابن القاسم عن أشعث بن سوار عن محمد عن نافع عن ابن عمر أنّ النبيّ ﷺ قال: من أفطر يوما في رمضان ومات قبل أن يقضيه فعليه بكلّ يوم مدّ لمسكين، قال سليمان: لم يروه عن أشعث إلّا عبثر، ومحمد الذي يروي عنه أشعث هذا الحديث هو محمد بن سيرين [الأصبهاني، الحلية، 10/ 246].

قال ابن خلّكان في ترجمته لأبي عثمان الحيري: ذكر أبو عمر بن حمدان أنّ أبا عثمان لمّا تغيّر عليه الحال وقت وفاته بنيسابور، مزّق ابنه أبوبكر قميصا كان عليه، ففتح أبو عثمان عينيه وقال: يا بنيّ خلاف السنّة في الظاهر ورياء باطن في القلب، ثمّ توفّي. وكان ذلك ليلة الثلاثاء لعشرين بقين من ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين ومائتين (298)، فصلّى عليه الأمير أبو صلح ودفن بمقبرة الحيرة عند قبر أستاذه وصهره أبي حفص النيسابوري [ابن خلّكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، 2/ 370]

المصادر والمراجع

● ابن خلّكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تح. إحسان عبّاس، دار صابر بيروت، د.ت؛ ● الجوزي، الإمام جمال الدين عبد الرحمٰن، صفة الصفوة، ط1، مؤسسة الكتب الثقافيّة، بيروت 1412هـ/ 1991م؛ ● السمعاني، الأنساب، دار الجنان، بيروت 1408هـ/ 1988م؛ ● الحافظ شمس الدين الذهبي، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت ط8، سنة 1412هـ/ 1992م؛ ● الخطيب البغدادي، تاريخ مدينة السلام، تح. البشير عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1422هـ/ 2001م.

د. حسن مزيو

جامعة الزيتونة ـ تونس

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

ابن الحشاء، أبو جعفر أحمد بن محمد/د. إبراهيم بن مراد/جامعة منوبة ـ تونس 7

الحشايشي، محمد بن عثمان بن الحاج/د. محمد الهادي الطاهرالمطوي/الجامعة التونسية 9

الحصّار، أبو بكر محمد بن عبد الله/ د. محمد سويسي/جامعة تونس 16

الحصّار، أبو الحسن علي بن محمد/ د. نور الدين مختار الخادمي/جامعة الزيتونة ـ تونس 18

الحصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي/د. رياض المرزوقي/جامعة منوبة ـ تونس 20

الحصري، أبو الحسن عليّ بن عبد الغني/د. توفيق قريرة/جامعة منوبة ـ تونس 23

الحصري، ساطع بن محمد/د. علي محافظة/الجامعة الأردنية 26

الحَصْكفي، علاء الدين محمد بن علي الدمشقي/د. هشام قريسة/المعهد الأعلى للحضارة الإسلامية ـ تونس 32

الحصني، تقي الدين أبو بكر بن محمد/د. نور الدين مختار الخادمي/ جامعة الزيتونة ـ تونس 35

الحصني، محمد أديب آل تقي الدين/ زهير محمد ناجي/باحث ـ دمشق ـ سوريا 38

الحصيري، محمود بن أحمد بن عبد السيّد/د. نور الدين الخادمي/جامعة الزيتونة ـ تونس 39

الحضراوي، أحمد بن محمد/د. محمد هشام النعسان/معهد التراث العلمي ـ حلب ـ سوريا 43

الحضرمي، أبو الفدا إسماعيل بن الفقيه/د. صلاح علي بن مدشل/ جامعة حضرموت ـ اليمن 46

الحضرمي، أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد/د. محمود فراج/ جامعة الإسكندريّة ـ مصر 48

الحطاب، أبو عبد اللّه محمد بن محمد/ د. رجاء محمد عودة/جامعة الملك سعود بن عبد العزيز ـ الرياض ـ المملكة العربية السعودية 52

الحطيئة، أبو مليكة جرول بن أوس ابن مالك/د. واضح الصمد/الجامعة اللبنانية ـ بيروت ـ لبنان 54

أبو حفص، سيدي عمر بن عبد القادر/ د. عيسى نسوكي/مركز أحمد بابا ـ مالي 61

حفص، أبو عمر بن سليمان بن المغيرة/د. فتحي العبيدي/جامعة الزيتونة ـ تونس 62
ابن أبي حفصة، أبو الهيذام مروان بن سليمان/د عفيف عبد الرحمن جمعة/جامعة اليرموك ـ الأردن 71
الحفظي، إبراهيم بن علي زين العابدين/د. عبد الله بن محمد أبو داهش/جامعة الملك خالد ـ السعودية .. 76
الحفظي، الحسن بن علي بن محمد/د. عبد الله بن محمد أبو داهش/جامعة الملك خالد ـ السعودية 77
الحفظي، عبد الرحمن بن محمد بن أحمد/د. عبد الله بن محمد أبو داهش/جامعة الملك خالد ـ السعودية .. 78
الحفظي، محمد بن أحمد بن عبد القادر/د. عبد الله بن محمد أبو داهش/جامعة الملك خالد ـ السعودية .. 79
الحفناوي، أبو المكارم نجم الدين محمد بن سالم/حسام أحمد إسماعيل عبد الظاهر/القاهرة ـ مصر . 81
حقي فرج، إسماعيل/د. نهلة شهاب احمد/جامعة الموصل ـ كلية التربية 82
حقّي، محمد بديع/د. سمر روحي الفيصل/جامعة العين ـ الإمارات العربية المتّحدة 84
حقي، يحيى/د. محمد عبد الفتاح محمد عثمان/جامعة القاهرة ـ مصر 88
ابن الحكم، أبو محمد هشام الكوفي/د. عبد الأمير الأعسم/بيت الحكمة ـ بغداد 91
الحكمي، حافظ بن أحمد/د. محمد بن سعد الشويعر/المستشار ورئيس تحرير مجلة البحوث الإسلامية/الرياض ـ المملكة العربية السعودية ... 95
الحكيم، توفيق/جون فونتان/مجلة «إبلا» ـ تونس 102
حكيم شاه، محمد بن مبارك القزويني/د. أحمد أوزال/هيئة الموسوعة الإسلامية/استانبول ـ تركيا 112
الحلاّج، أبو المغيث الحسين بن منصور بن محمد/د. مصطفى القباج/أكاديمية المملكة المغربية/الرباط ـ المغرب 116
حلاّق، عبد الله يوركي/د. عيسى فتوح/دمشق ـ سوريا 124
ابن الخلاوي، أحمد بن محمد بن أبي الوفا/د. بسام إدريس الجلبي/العراق ـ الموصل 129
الحلبي، خليفة بن أبي المحاسن/د. محمد ظافر وفائي/طبيب كحال ـ دمشق ـ سوريا 132
الحلبي، قطب الدين عبد الكريم بن عبد النور/د. نور الدين مختار الخادمي/جامعة الزيتونة ـ تونس 134
ابن حلزة، أبو ظليم الحارث/د. أنطوان القوال/جامعة بيروت ـ لبنان 136
حلمي، محمد مصطفى/د. مصطفى النشار/جامعة القاهرة ـ مصر 140
الحلو، عبد الفتّاح محمّد/د. فتح الله عبد الله سليمان/جامعة القاهرة ـ مصر 147
الحُلْواني، أبو محمد عبد الرحمن بن أبي الفتح/د. نورالدين مختار الخادمي/جامعة الزيتونة ـ تونس 150
الحلواني النهرواني، سليمان بن عبد الله/د. عبد السلام العيساوي/جامعة منوبة ـ تونس 152

حلولو، أحمد بن عبد الرحمن اليزليطني القيرواني/د. محمد بوزغيبة/جامعة الزيتونة ـ تونس 153

الحلوي، أبو عبد الله محمد الشوذي الإشبيلي/د. بوبة مجاني/جامعة منتوري قسنطينة ـ الجزائر 157

الحلّي، تقي الدين أبو محمد الحسن بن علي/د. حراث بوعلاقي/جامعة الزيتونة ـ تونس 160

الحلّي، جمال الدين أبو منصور، الحسن بن المطهر/د. عبد السلام البلاجي/جامعة محمد الخامس ـ الرباط ـ المغرب/د. دريد عبد القادر نوري/جامعة الموصل ـ العراق 162

الحِلّي شميم، علي بن الحسن/ د. مصطفى الصاوي الجويني/جامعة القاهرة ـ مصر 165

الحلّي، المحقق أبو القاسم نجم الدين جعفر بن الحسن/د. نبيلة عبد المنعم داود/مركز التراث العلمي ـ بغداد العراق 167

الحِلّي، صفيُّ الدين، عبد العزيز بن سرايا/د. ياسين الأيوبي/الجامعة اللبنانية ـ طرابلس ـ لبنان 170

أبو حليقة، رشيد الدين بن الفارس/ د. بغداد عبد المنعم/جامعة حلب ـ سوريا 180

الحليمي، أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن علي/د . حسن مزيو/ جامعة الزيتونة ـ تونس 182

حليمي، لطف الله بن أبي يوسف بن عبد الحليم/د. أحمد أوزال/ هيئة الموسوعة الإسلامية ـ استانبول 184

الحليوي، محمد بن عبد السلام/د. محمد الهادي الطاهر المطوي/الجامعة التونسية 188

ابن حمّاد، أبو إسحاق إسماعيل بن اسحاق/د. محمد هشام النعسان/ معهد التراث العلمي العربي/حلب ـ سوريا 195

حمّاد الرَّاوية، بن ميسرة بن المبارك/ د. إحسان النص/نائب رئيس مجمع اللغة العربية/دمشق ـ سوريا 199

ابن حماد الصنهاجي، أبو عبد الله محمد/د. ناصر الدين سعيدوني/ جامعة الجزائر/د. بوبة مجاني/جامعة قسنطينة ـ الجزائر 201

ابن حمّاد، نُعيم بن حمّاد/د. نور الدين مختار الخادمي/جامعة الزيتونة ـ تونس 204

ابن حمادوش، عبد الرزاق بن محمد الدباغ/د. أبو القاسم سعد الله/جامعة آل البيت ـ الأردن 206

حمام، محمد مصطفى/د. محمد أبو الأنوار/دار العلوم ـ جامعة القاهرة ـ مصر 210

ابن حمامة، أبو عبد الله محمد بن منصور/د. محمد بن الهادي أبو الأجفان/جامعة الإمام بن سعود ـ مكة المكرمة ـ السعودية 214

الحماني، أبو زكرياء يحيى/د. نور الدين مختار الخادمي/جامعة الزيتونة ـ تونس 217

حمدان، جمال محمود صالح/د. صالح حمدان/باحث أكاديمي ـ جنيف 218

ابن حمدان الموصلي، جعفر بن محمد/أ. جنان هاشم عبد العزيز/ الاتحاد العام للأدباء والكتّاب ـ العراق .. 221

الحمداني، أبو فراس الحارث بن سعيد/د. محمد لطفي اليوسفي/ جامعة منوبة ـ تونس 223

ابن حمدون، أحمد بن إبراهيم/د. زكية السائح دحماني/جامعة تونس 230

ابن حمدون، أبو المعالي محمد بن الحسن/د. عمر عبد السلام تدمري/ الجامعة اللبنانية ـ طرابلس ـ لبنان 233

ابن حمدويه، أبو عمرو شمر/د. خالد ميلاد/الجامعة التونسية 235

ابن حمدي، بَابَه بن محمذن 237

ابن حمديس الصقلي، عبد الجبار أبو محمد بن أبي بكر/د. توفيق قريرة/ جامعة منوبة ـ تونس 237

ابن حمزة، أبو إدريس يحيى/د. محمد الأزهر باي/جامعة الزيتونة ـ تونس ... 240

ابن حمزة البصري، أبو قاسم علي/د. علي القاسمي/منظمة الأسيسكو ـ المغرب 242

ابن حمزة الدمشقي، إبراهيم بن محمد/ د. نور الدين مختار الخادمي/جامعة الزيتونة ـ تونس 244

ابن حمزة المغربي، علي بن ولي/ د. هاني محيي الدين عطيّة/جامعة القاهرة ـ مصر 245

ابن حمزة، الإمام المؤيّد بالله يحيى/ د. محمد عبد الله بن هاوي باوزير/ جامعة عدن ـ اليمن 248

الحمزي، عماد الدين إدريس/د. محمد سعيد/الجامعة التونسية 251

ابن حمشاذ، أبو الحسن المعدّل علي/ د. نور الدين مختار الخادمي/جامعة الزيتونة ـ تونس 254

ابن الحمصي، شهاب الدين أحمد بن محمد/د. عمرعبد السلام تدمري/ الجامعة اللبنانية ـ طرابلس ـ لبنان 256

الحمصي، قسطاكي بن يوسف بن بطرس/د. حسام الخطيب/جامعة الإمارات 257

الحمصي، أبو منصور كمال الدين المظفر بن علي/د. محمد فؤاد الذاكري/باحث في التراث العلمي العربي ـ سوريا 261

الحمصي، هلال بن أبي الهلال/د. محمد هشام النعسان/معهد التراث العلمي العربي ـ حلب ـ سوريا 264

الحملاوي، أحمد/د. شفيع السيد/جامعة القاهرة ـ مصر 265

حمود، رمضان، ابن سليمان بن قاسم/د. محمد ناصر/جامعة الجزائر 268

الحَمَوي الرومي، أبو إسحاق إبراهيم ابن سليمان/د. نور الدين مختار الخادمي/جامعة الزيتونة ـ تونس 272

الحموي، صلاح الدين بن يوسف الكحال/أ. د. محمد ظافر الوفائي/ طبيب كحّال ـ دمشق ـ سوريا 274

الحموي، أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله/د. محمود فهمي حجازي/جامعة نور مبارك ـ قازخستان/د. محيي الدين عطية/جامعة القاهرة/د. حلام الجيلالي/جامعة سيدي بلعباس ـ الجزائر 277

ابن أبي حميد، حميد أبو عبيد الخزاعي الطويل/د. حراث بوعلاّقي/مركز الدراسات الإسلامية/القيروان ـ تونس 282

الحُمَيْدي، عبد الله بن الزبير/د. حراث بوعلاقي/مركز الدراسات الإسلامية ـ القيروان ـ تونس 284

الحُمَيْدي، محمد بن فتوح بن عبد الله الأزدي/د. محمد العمري/جامعة فاس ـ المغرب 288

ابن الحميّر، توبة/د. يوسف بكار/ جامعة اليرموك ـ اربد ـ الأردن 291

الحميري، أبو سعيد نشوان بن سعيد/د. محمد عبد الرحيم الزيني/ جامعة صنعاء ـ اليمن 294

الجِفيَري، أبو عثمان يَزيد بن ربيعة بن مُفَرِّغ/د. عادل عطا الله الفريجات/دمشق ـ سوريا 298

حميَين، محمد الأمين بن أحمد/د. محمد الأمين ولد مولاي ابراهيم/جامعة نواكشوط ـ موريتانيا 304

حنا، جورج/د. نزيه كبارة/الجامعة اللبنانية 305

ابن الحنائي، قنالي زاده علي أفندي/د. حسن آقصوي 310

الحنّاطي، أبو عبد الله الحسين/د. نور الدين مختار الخادمي/ جامعة الزيتونة ـ تونس 314

ابن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد/د. نجمان ياسين/جامعة الموصل ـ العراق 316

ابن حنبل، أبو عبد الرحمن عبد الله ابن أحمد/د. محمد الناصر الزعايري/جامعة الزيتونة ـ تونس 321

ابن الحنبلي، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم/د. جواد إيزجي/جامعة مرمرة ـ تركيا 326

ابن حنزابة، أبو الفضل جعفر بن الفضل/د. محمد اليعلاوي/جامعة منوبة ـ تونس 330

الحُنطبي، عبد الواحد بن نصر بن محمد الببغاء/بسام إدريس الجلبي/ العراق ـ الموصل 332

الحنفي، أبو وائل، بكر بن النطاح بن أبي حمار/د. حمد بن ناصر الدخيّل/ جامعة الملك سعود ـ الرياض 335

حنوش، جورجيت/د. عبد الله أبو هيف/ جامعة تشرين ـ اللاذقية ـ سوريا 340

أبو حنيفة، النعمان بن ثابت/د. نجم الدين الهنتاتي/جامعة تونس/ د. نجمان ياسين/جامعة الموصل ـ العراق/د. هشام قريسة/جامعة الزيتونة ـ تونس 343

ابن حنين، إسحق/د. عبد الناصر كعدان/طبيب ـ حلب/د. منجيّة عرفة منسية/جامعة تونس 349

الحوّات، سليمان بن محمد بن عبد الله/د. عبد الرحمٰن كظيمي/كلية اللغة العربية ـ مراكش 352

ابن أبي الحوافر، أبو العباس أحمد بن القاضي/د. أسامة ناصر النقشبندي/ دار المخطوطات ـ بغداد ـ العراق 356

الحوت، أبو عبد الله محمد بن درويش/د. عمر عبد السلام تدمري/ الجامعة اللبنانية ـ طرابلس ـ لبنان 358

الحوثي، السيد إبراهيم بن عبد الله/ د. صلاح علي بن مدشل/جامعة حضرموت ـ اليمن 360

حوراني، ألبرت بن فضلو/د. انطوان القوّال/الجامعة اللبنانيّة 362

حورانية، سعيد/د. عبد الله أبو هيف/ جامعة تشرين ـ اللاذقية ـ سوريا 363

الحوفي، أبو القاسم أحمد بن محمد/ د. منير بن المختار التليلي/جامعة الزيتونة/الجامعة العربية للعلوم - تونس/د. مقتدر زرُوقي/جامعة البليدة - الجزائر 368
ابن حوقل، أبو القاسم محمَّد/د. محمود عصام الميداني/جامعة دمشق - سوريا/د. هاني محيي الدين عطية/ جامعة القاهرة - مصر 371
الحوماني، محمد علي بن أمين/ د. محمد كشاش/الجامعة اللبنانية 376
الحيائي، أبو سعيد عثمان بك بن سليمان/أ. بسام إدريس الجلبي/ العراق - الموصل 379
أبو حيان الأندلسي، أثير الدين محمد ابن يوسف/د. خديجة الحديثي/ جامعة بغداد/د. حسن مزيو/جامعة الزيتونة - تونس 382
ابن حيان، جابر بن عبد اللّه الكوفي/ د. عبد اللّه حجازي/جامعة الملك سعود - المملكة العربية السعودية 386
ابن حيان، أبو محمد عبد الله بن محمّد/د. محمد الناصر الزعايري/ جامعة الزيتونة - تونس 392
ابن حيان القرطبي، أبو مروان حيان ابن خلف/د. حسن جلاب/كلية اللغة العربية/مراكش - المغرب 396
ابن حي الله، محمد الخضر بن حبيب الله/د. أحمد سالم ولد محمّدو/جامعة نواكشوط - موريتانيا 400
ابنُ حي التجيبي، الحسن بن محمد ابن الحسين/د. محمد هشام النعسان/معهد التراث العلمي - حلب - سوريا 403
ابن خيّ، أبو عبد الله الحسن/د. نور الدين مختار الخادمي/جامعة الزيتونة - تونس 404
حيدر، سليم نجيب بن سليم/د. نزيه كبارة/الجامعة اللبنانية - بيروت - لبنان 408
حيدر، محمد/د. عبد الله أبو هيف/ جامعة تشرين - اللاذقية - سوريا 412
حيدر، محمد بن رستم بن علي/ د. حسن عباس نصر الله/الجامعة اللبنانية 416
الحيدري، بُلُند أكرم/د. حاتم الصكر/ جامعة صنعاء - اليمن 420
الحيدري، يوسف محمد/د. نجمان ياسن/الرئيس الأسبق لاتحاد كتّاب العراق 423
الحيري، أبو عثمان سعيد بن اسماعيل/د. حسن مزيو/جامعة الزيتونة - تونس 425

■ ■ ■